المقدمة

إن الحمد لله ، نحمـده ، ونسـتعينه ، ونسـتغفره ، ونعـوذ بالله من شـرور أنفسـنا ومن سـيئات أعمالنا ، من يهـده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له ، وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسوله –صلى الله عليه وسلم- أما بعد:

فـإن ربوبية الله شـاملة لجميع ما في العـالم من ذوات وأفعال وأحـوال ، لا يخـرج أحد عن ربوبيته -تعـالى- الـتي قد دلت عليها الـدلائل الكثـيرة ، فـإن "دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مـدلول ، ولكل قوم بل ولكل إنسـان من الـدلائل المعيّنة الـتي يريه الله إيّاها في نفسه وفي الآفـاق ما لا يعـرف أعيانها قـوم آخرون "[1] .

وهـذه الـدلائل "فيها الظـاهر الـبيّن لكل أحد ، كـالحوادث المشهودة مثل خلق الحيوان والنبـات والسـحاب وإنـزال المطر وغـير ذلك ، وفيها ما يختصّ به من عرفه مثل دقائق التشريح ، ومقادير الكـواكب وحركاتها وغـير ذلك ، فإن الخلق كلّهم محتاجون إلى الإقـرار بالخـالق والإقـرار برسله ، وما اشـتدت الحاجة إليه في الـدين والـدنيا فـإن الله يجود به على عباده جـوداً عامّا ميسّـراً ، فلما كـانت حـاجتهم إلى النَّفَس أكـثر من حـاجتهم إلى المـاء ، وحـاجتهم إلى المـاء أكـثر من حـاجتهم إلى الأكل كـان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عامّاً في كل مكان وزمـان ، لضرورة الحيـوان إليه ، ثم المـاء دونه ، ولكنه يوجد أكـثر مما يوجد القـوت وأيسر ؛ لأن الحاجة إليه أشد ، فكـذلك دلائل الربوبية حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجـات ، ثم دلائل النبوة ، فلهذا يسّرها الله وسهلها"[2] ، فجـاءت متنوعة متعـددة فـالفطرة ، والآيـات ، والعناية ، ودلائل النبوة، والعقل كلها تدل على ربوبيته -تعـالى- المختصة "

---

[1] "الجواب الصحيح" (6/378) .

[2] "المصدر السابق" (5/435-436) .

بأنه رب العالمين ، وبأنه مالك يوم الـدين ، وأنه له الملك وله الحمد ، وأنه الحي القيـوم ، لا تأخـذه سـنة ولا نـوم ، وأنه على كل شيء قدير ، وبكل شــيء عليم ، ونحو ذلك من خصــائص الربوبية ، ولم يصف شــيئاً من مخلوقاته لا ملكاً مقرّباً ، ولا نبيـاً مرسلا بشـيء من الخصـائص الـتي يختص بها الــتي وصف بها نفسه –ســبحانه وتعــالى-"[1] كاتصـافه بالعظمة والكبريـاء ، فمن ادّعاها كـان منازعـاً للربوبية في خواصّــها[2] ، الــتي تســتلزم فعله بمشــيئته وقدرته ، ومباينته للعــــالم ، والعلم بقدمه ، وتســــتلزم إفراده بالعبادة ، وإنـزال الكتب وإرسـال الرسل . والـتي تثمر للعبد آثـاراً عظيمة من تجريد التوحيد ، والاسـتراحة من عبودية الخلق ، والإيمــان بالقضـاء والقــدر ، وتعظيم الله وإجلاله ، ومحبته ، وغير ذلك من الآثار العظيمة.

وتوحيد الربوبية وإن لم يكن هو المقصود بذاته في دعـوة الأنبيـاء والمرسـلين إلاّ أن دراسـته لها أهمية عظيمة من جهات أخرى :

- من جهة معرفة لوازمه .
- ومن جهة معرفة أحكامه
- ومن جهة معرفة العلاقة بينه وبين توحيد الألوهية من حيث الانفراد والاقتران .
- ومن جهة معرفة خصائص الربوبية وصفاتها .
- ومن جهة معرفة ما لا ينافي خصائص الربوبية .
- ومن جهة معرفة أن القـــرآن فيه من دلائل الربوبية أضعاف ما يوجد في كلام النظار.
- وأيضــاً من جهة ردّ قــوادح الربوبية والتحــذير من الوقوع فيها .
- ومن جهة الــرد على الملاحــدة المنكــرين للــرب ، والـذين لم يزالـوا موجـودين إلى اليـوم ، ونشـاطهم في ازدياد .

---

[1] "الجواب الصحيح" (4/45-46).

[2] انظر "مجموع الفتاوى" (6/138-139)

وقد كان لشيخ الإسلام جهـود عظيمة في تقرير ما يتعلق بأهمية الكلام على الربوبية من جهة ما سبق ذكـره ، وهو –رحمه اللـــه- قد قـــرّر مســـائل الربوبية ودلائلها ، وردّ قوادحها تقريراً وردّاً متميزاً فــاق به غيره كعادته –رحمه الله- . ولهذا يقـول السـعدي –رحمه اللـه- :"كتب الإمـام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية –قـدّس الله روحـه- جمعت فأوعت؛ جمعت جميع الفنون النافعة ، والعلوم الصـحيحة ، جمعت علوم الأصول والفـروع ، وعلـوم النقل والعقل ، وعلوم الأخلاق، والآداب الظـاهرة والباطنة ، وجمعت بين المقاصد والوســـائل ، وبين المســـائل والـــدلائل، وبين الأحكـام وبيــان حكمها وأســرارها ، وبين تقرير مــذاهب الحق والــردّ على جميع المبطلين ، وامتــازت على جميع الكتب المصنفة بغزارة علمها ، وكثرته ، وقوته، وجودته ، وتحقيقه ، بحيث يجـــزم من له اطلاع عليها وعلى غيرها أنه لا يوجد لها نظير يساويها أو يقاربها "[1].

ولما كـــانت دراسة توحيد الربوبية لها أهمية عظيمة من جهـات متعـددة ، وكـان شـيخ الإسـلام قد اعتـنى بـذلك ، وقـرّر مسـائل الربوبية ودلائلها ، وردّ قوادحها بما لا مزيد عليه كان ذلك من أسباب اختيار هـذا الموضـوع **"جهـود شــــيخ الإســــلام ابن تيمية في تقرير توحيد الربوبية وردِّ القــوادح فيــه"** إضــافة إلى الأســباب الآتية:

- أن هذا الموضوع لم تكتب فيه رسالة علمية .
- أن توحيد الربوبية لم يأخذ حقه من الدراسة بنـــــاءً على أنه لم يكن المقصــود الأعظم بــدعوة الأنبيــاء والمرسلين، وهذا صحيح إلاّ أن له أهمية عظمى في جوانب أخرى.
- إبراز أهمية دراسة توحيد الربوبية .
- كثرة كلام شيخ الإسـلام حـول هـذا الموضـوع ، فإنه وإن كــان "مجمــوع الفتــاوى" لم يشــتمل إلاّ على

[1] "طريق الوصول إلى العلم المأمول" ص(21)

مجلد واحد في الربوبية – حسب نظر جامعه الشيخ ابن قاسم رحمه الله – إلا أن الأجـزاء الأخـرى وكتبه الأخــرى قد اشــتملت على مبــاحث عظيمة متعلقة بتقرير مســـــائل الربوبية ، ودلائلها ، وردّ قوادحها ، والردّ على الملاحدة في هذا الباب .

- إبـراز جهـود شـيخ الإسـلام في توحيد الربوبية ، فإنه رغم كثرة الرسائل العلمية التي اهتمت بإبراز جهـود شـيخ الإسـلام في الاعتقـاد إلا أن جهـوده في هـذا الباب لم يبرز ، ولعله بدراسة هـذا الموضـوع يكتمل عقد البحث في بيان جهوده –رحمه الله- .
- جمع مســــــائل الربوبية ودلائلها وردّ قوادحها في مؤلف واحد ؛ لتكـون سـهلة التنـاول ؛ قريبة المأخذ لمن أراد الوقوف عليها .
- أن بيان جهود شـيخ الإسـلام في هـذا الموضـوع فيه تقرير لاعتقـاد أهل السـنة والجماعة المتعلّق بتوحيد الربوبية ، والردّ على من انحرف في ذلك .
- إبراز جهـود شـيخ الإسـلام في الـردّ على الملحـدين المنكرين للرب ، والاستفادة من ذلك في الـردّ على الملاحــدة المعاصــرين ، الــذين لهم نشــاط لا ينكر لاسيما في شبكة المعلومات العالمية .

الدراسات السابقة للموضوع :

إنه رغم كـثرة الرسـائل الـتي اعتنت بـإبراز جهـود شـيخ الإسلام في العقيدة إلاّ أن هـذا الموضـوع **"جهود شـيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير توحيد الربوبية وردّ القـوادح فيـه"** لم تكتب فيه رسـالة علمية ، وقد تـبيّن ذلك من خلال :

- الاتصــال بمركز المعلومـات في"مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية" بالرياض.
- الاطلاع على الفهــــــــارس العلمية ودليل المكتبة العقدية .
- سـؤال بعض الأسـاتذة والمشـايخ المتخصصـين في العقيدة .

- سؤال الأقسام العلميّة – قسم العقيدة – في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسـلامية بالريـاض، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

خطة البحث : -

اشتملت خطة البحث على : مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة أبواب، وخاتمة ،وفهارس عامة.

المقدمة وفيها :

أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، والدراسات السابقة ، وخطة البحث ، ومنهجي فيه

التمهيد وفيه:

ترجمة موجزة لشيخ الإسلام

الباب الأول: جهود شيخ الإسلام في تقرير المقدمات المتعلقة بالربوبية وتقرير لوازم الربوبية وصفاتها وخصائصها.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: جهود شيخ الإسلام في تقرير المقدمات المتعلقة بالربوبية .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الرب وما يتعلق به

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : تعريف الرب.

المطلب الثاني: العلاقة بين "الرب" و"الإله" .

المطلب الثالث : حكم إضافة كلمة "رب" إلى المخلوق .

المبحث الثاني : معنى الربوبية وأنواعها

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : معنى الربوبية.

المطلب الثاني: أنواع الربوبية .

المبحث الثالث : توحيد الربوبية.

وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

تمهيد : أقسام التوحيد .

المطلب الأول : معنى توحيد الربوبية.

المطلب الثاني: أهمية توحيد الربوبية .

المطلب الثالث: العلاقة بين توحيد الربوبية والأسماء والصفات.
المطلب الرابع : موقف مشركي العرب من توحيد الربوبية.

الفصل الثاني: جهود شيخ الإسلام في تقرير لوازم الربوبية .

وفيه خمسة مباحث :
المبحث الأول : الربوبية تستلزم الألوهية .
المبحث الثاني: ربوبيته تعالى تستلزم قدمه .
المبحث الثالث: إرسال الرسل وإنزال الكتب .
المبحث الرابع: فعله -تعالى- بمشيئته وقدرته .
المبحث الخامس: مباينة الرب للعالم .

الفصل الثالث : جهود شيخ الإسلام في تقرير صفات الربوبية وخصائصها

وفيه ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: أخص وصف للرب عند شيخ الإسلام وعند المتكلمين .
وفيه مطلبان :
المطلب الأول: تقرير شيخ الإسلام لأخص وصف للرب.
المطلب الثاني: أخص وصف للربّ عند المتكلمين ومناقشة قولهم .
وفيه فرعان:
الفرع الأول: قولهم وشبهتهم في ذلك .
الفرع الثاني: مناقشة شيخ الإسلام لهم .
المبحث الثاني: تقرير شيخ الإسلام لصفات الربوبية .
وفيه خمسة عشر مطلباً:
المطلب الأول : صفة الخلق .
المطلب الثاني: صفة الملك .
المطلب الثالث : صفة التدبير .
المطلب الرابع : صفة الغنى .
المطلب الخامس: صفة الإحياء والإماتة.
المطلب السادس : صفة الإعطاء والمنع .

المطلب السابع : صفة النفع والضر.
المطلب الثامن : صفة الخفض والرفع .
المطلب التاسع: صفة الإعزاز والإذلال.
المطلب العاشر: صفة التعالي والعظمة والكبرياء .
المطلب الحادي عشر: صفة الحياة والقيّومية.
المطلب الثاني عشر: صفة الثناء على النفس .
المطلب الثالث عشر : صفة الربوبية للعالمين .
المطلب الرابع عشر : وصفه بالقدرة .
المطلب الخامس عشر : وصفه بالعلم .
المبحث الثالث: ما لا ينافي صفات الربوبية وخصائصها.
وفيه مطلبان:
المطلب الأول : إثبات القدر المشترك .
وفيه نوعان:
الفرع الأول : تعريف القدر المشترك وبيان أهميته ومنزلته .
الفرع الثاني : وجه كون إثبات القدر المشترك لا ينافي شيئاً من صفات الربوبية..
المطلب الثاني : إثبات المخلوقات أسباباً.
وفيه ثلاثة فروع:
الفرع الأول: تعريف الأسباب والمراد بها.
الفرع الثاني: شروط العمل بالأسباب .
الفرع الثالث: إثبات المخلوقات أسباباً لا ينافي خصائص الربوبية.
الباب الثاني: جهود شيخ الإسلام في تقرير دلائل الربوبية
وفيه فصلان :
الفصل الأول: جهود شيخ الإسلام في تقرير الأصول المتعلقة بدلائل الربوبية.
وفيه سبعة مباحث :
المبحث الأول: حاجة الخلق لدلائل الربوبية .

المبحث الثاني: دلائل الربوبية أعظم من كل دليل على كل مدلول .
المبحث الثالث : دلالة الشرع على الربوبية نوعان : سمعية وعقلية .
المبحث الرابع : السمع فيه من بيان الأدلة العقلية أضعاف ما يوجد في كلام النظار.
المبحث الخامس: يخاطب بالبرهان والاستدلال من كان عنده مقدمات علميّة .
المبحث السادس : دلائل الربوبية فيها الظاهر لكل أحد وفيها ما يختص به من عرفه .
المبحث السابع: لكل إنسان من الدلائل المعينة في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها آخرون .

الفصل الثاني: جهود شيخ الإسلام في تقرير دلائل الربوبية تفصيلاً.

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول: دليل الفطرة .

وفيه مطلبان :
المطلب الأول: المراد بالفطرة .
المطلب الثاني : تقرير دلالة الفطرة على الربوبية .

المبحث الثاني : دليل الآيات .

وفيه ثلاثة مطالب :
المطلب الأول : المراد بالآيات .
المطلب الثاني : تقرير دلالة الآيات على الربوبية .
المطلب الثالث : نقد شيخ الإسلام لطريقة المتكلمين في الاستدلال بالآيات على الربوبية .

المبحث الثالث : دليل العناية .

وفيه مطلبان :
المطلب الأول : المراد بدليل العناية .
المطلب الثاني : تقرير دلالة العناية على الربوبية .

المبحث الرابع : دلائل النبوة .

وفيه مطلبان :
المطلب الأول : المراد بدلائل النبوة .

المطلب الثاني: تقرير دلالة دلائل النبوة على الربوبية .

المبحث الخامس : الأدلة العقلية النقلية .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : المراد بالأدلة العلقية النقلية .

المطلب الثاني: تقرير دلالة الأدلة العقلية النقليّة على الربوبية .

وفيه ثلاثة فروع :

الفرع الأول : تقرير دلالة قوله تعالى : ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﭼ على الربوبية .

الفرع الثاني : تقرير دلالة قوله تعالى : ﭽﯗ□□□□ﯤﭙﭼ على الربوبية .

الفرع الثالث : تقرير دلالة قوله تعالى : ﭽﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙ ﭼ على الربوبية .

المطلب الثالث : موقف شيخ الإسلام من دليل التمانع عند المتكلمين .

وفيه فرعان :

الفرع الأول: تقرير دليل التمانع عند المتكلمين .

الفرع الثاني : موقف شيخ الإسلام من دليل التمانع .

الباب الثالث : جهود شيخ الإسلام في تقرير أحكام الربوبية وشهودها وآثارها.

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول: جهود شيخ الإسلام في تقرير أحكام الربوبية .

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول: وجوب إفراد الله بالربوبية .

المبحث الثاني : وجوب إفراد الله بالعبادة .

المبحث الثالث: لا يتم التوحيد والاعتراف بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى .

المبحث الرابع : التسلسل في أفعال الرب .

المبحث الخامس: ربوبية الله شاملة لجميع ما في العالم من ذوات وأعمال وأحوال .

المبحث السادس : ليس في المخلوقات علّة تامّة تستلزم معلولها .

الفصل الثاني : جهود شيخ الإسلام في تقرير المسائل المتعلقة بشهود الربوبية .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : وجوب الجمع بين شهود الربوبية وشهود الألوهية .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : المراد بالشهود .

المطلب الثاني : توضيح المراد بالجمع بين الشهودين .

المطلب الثالث : الأدلة على وجوب الجمع بين الشهودين .

المبحث الثاني : شهود الربوبية وحدها دون الألوهية .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : مسلك شهود الربوبية وحدها دون الأولهية

المطلب الثاني شبهتهم والردّ عليهم .

المطلب الثالث : الآثار السيئة المترتبة على شهود الربوبية وحدها دون الألوهية .

المبحث الثالث: الأحوال التي يؤمر العبد فيها بشهود الربوبية .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : توضيح المراد بالأحوال التي يؤمر العبد فيها بشهود الربوبية .

المطلب الثاني : الأحوال التي يؤمر العبد فيها بشهود الربوبية .

وفيه نوعان :

الفرع الأول : شهود الربوبية عند المصائب .

الفرع الثاني : شهود الربوبية عندما ينعم على العبد بفعل الطاعات .

المطلب الثـالث : الآثـار الحسـنة المترتبـة على شـهود الربوبية في مثل هذه الأحوال .

الفصل الثالث : جهود شيخ الإسلام في تقرير آثار الربوبية .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : جهـود شـيخ الإسـلام في تقريـر آثـار الربوبية .

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تجريد التوحيد في القلب.

المطلب الثاني : الاستراحة من عبودية الخلق .

المطلب الثالث : الإيمان بالقضاء والقدر .

المطلب الرابع : التوكل على الله وتفويض الأمر .

المطلب الخامس: تعظيم الله وإجلاله .

المطلب السادس : محبة الله –عز وجل-

المبحث الثاني : الفـرق بين مـا يظهـره اللـه من آثـار ألوهيته في عبـده وبين وبين مـا يظهـره من آثـار ربوبيتـه في بعض عباده .

الباب الرابع : جهود شيخ الإسلام في ردّ قوادح الربوبية.

وفيه فصلان :

الفصل الأول: جهود شيخ الإسلام في تقرير الأصول المتعلقة بقوادح الربوبية.

وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : الشرك ظلم في الربوبية .

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : تعريف الشرك .

المطلب الثاني: أقسام الشرك .

المطلب الثالث : تعريف الشرك في الربوبية .

المطلب الرابع : وجه كون الشرك ظلماً في الربوبية .

المبحث الثاني : التعطيـل والإشـراك لازمـان لكـل من أثبت فاعلاً مستقلاً غير الله .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف التعطيل.
المطلب الثاني : أنواع التعطيل .
المطلب الثالث : العلاقة بين التعطيل والشرك .
المطلب الرابع : توضيح كون الشرك والتعطيل لازمين لكل من أثبت فاعلاً مستقلاً غير الله.

المبحث الثالث : من لم يوفِّ توحيد الربوبية حقه فمن باب أولى أن لا يوفّىَ الألوهية حقها .

المبحث الرابع : لم يجعل الله أحداً من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيءٍ من الربوبية والألوهية بل غاية ما يكون العبد سبباً.

المبحث الخامس: القول بأن كل ما يطلب من الله بطريق التوحيد يطلب من غيره ويضاف إلى غيره بطريق السبب شرك في الربوبية والألوهية .

الفصل الثاني : جهود شيخ الإسلام في ردّ قوادح الربوبية تفصيلاً.

وفيه تسعة مباحث :

المبحث الأول : تمثيل المخلوق بالخالق .

وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول : تعريف التمثيل .
المطلب الثاني: أنواع التمثيل .
المطلب الثالث : وجه كون تمثيل المخلوق بالخالق من قوادح الربوبية .

المبحث الثاني : تعظيم الأنبياء والصالحين تعظيم ربوبية .

وفيه مطلبان :
المطلب الأول : المراد بتعظيم الأنبياء والصالحين تعظيم ربوبية .
المطلب الثاني: وجه كون تعظيم الأنبياء والصالحين من قوادح الربوبية .

المبحث الثالث : التنجيم .

وفيه مطلبان :
المطلب الأول: تعريف التنجيم وبيان حكمه .

المطلب الثالث : وجه كون التنجيم من قوادح الربوبية .
المبحث الرابع : الكهانة .
وفيه مطلبان :
المطلب الأول : تعريف الكهانة وبيان حكمها .
المطلب الثاني: وجه كون الكهانة من قوادح الربوبية .
المبحث الخامس: الاستسقاء بالأنواء .
وفيه مطلبان :
المطلب الأول : المراد بالاستسقاء بالأنواء وبيان حكمه .
المطلب الثاني : وجه كون الاستسقاء بالأنواء من قوادح الربوبية .
المبحث السادس : الطيرة .
وفيه مطلبان:
المطلب الأول: تعريف الطيرة وبيان حكمها .
المطلب الثاني : وجه كون الطيرة من قوادح الربوبية .
المبحث السابع : الغلو في الإطراء .
وفيه مطلبان :
المطلب الأول : تعريف الإطراء وبيان حكمه .
المطلب الثاني : وجه كون الغلو في الإطراء من قوادح الربوبية .
المبحث الثامن : القول بأن العبد يخلق فعله .
وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول : القائلون بهذا القول.
المطلب الثاني : شبهتهم والرد عليها .
المطلب الثالث : وجه كون القول بأن العبد يخلق فعله من قوادح الربوبية .
المبحث التاسع : طاعة الأحبار والرهبان وغيرهم في التحليل والتحريم .
وفيه مطالبان :
المطلب الأول : أقسام الطاعة في التحليل والتحريم .
المطلب الثاني: وجه كون طاعة والرهبان وغيرهم في التحليل والتحريم من قوادح الربوبية .

الباب الخامس : جهود شيخ الإسلام في ردّ الإلحاد والقول بقدم العالم والحلول والاتحاد.

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : جهود شيخ الإسلام في ردّ الإلحاد.

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تعريف الإلحاد وأنواعه .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: تعريف الإلحاد .

المطلب الثاني : أنواع الإلحاد.

المبحث الثاني : القائلون بالإلحاد وبيان فساد قولهم .

وفيه مطالبان :

المطلب الأول: القائلون بالإلحاد .

المطلب الثاني : بيان فساد قول القائلين بالإلحاد .

الفصل الثاني : جهود شيخ الإسلام في ردّ القول بقدم العالم.

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: القائلون بهذا القول والتعريف بهم وبأقسامهم .

المبحث الثاني: بيان تقريراتهم لهذا القول والردّ عليها .

المبحث الثالث: الآثار السيئة لقولهم بقدم العالم .

الفصل الثالث : جهود شيخ الإسلام في ردّ القول بالحلول والاتحاد.

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: جهود شيخ الإسلام في ردّ القول بالحلول .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الحلول.

المطلب الثاني : أنواع الحلول .

المطلب الثالث : الفرق بين الحلول والاتحاد .

المطلب الرابع : القائلون بالحلول والردّ عليهم .

المبحث الثاني : جهود شيخ الإسلام في ردّ القول بالاتحاد .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: تعريف الاتحاد .

المطلب الثاني: أنواع الاتحاد .

المطلب الثالث : القائلون بالاتحاد وبيان تقريراتهم والردّ عليهم .

الخاتمة:

وتشتمل على أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث .

الفهارس:

وهي كالآتي :

1- فهرس الآيات القرآنية .
2- فهرس الأحاديث النبوية .
3- فهرس الآثار .
4- فهرس الأعلام المترجم لهم .
5- فهرس المصادر والمراجع.
6- فهرس الموضوعات .

منهجي في البحث :-

1- عزو الآيات إلى سورها ، وذلك بذكر اسم السورة ، ورقم الآية ، مع كتابتها بالرسم العثماني.
2- تخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية ، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فإني أكتفي بتخريجه ، أما إذا كان في غير الصحيحين فإني أضيف إلى التخريج كلام العلماء في الحكم على الحديث.
3- توثيق الآثار من مصادرها الأصلية .
4- الترجمة للأعلام الذين أنقل عنهم نصاً من كتبهم ، والترجمة للأعلام غير المشهورين .
5- جمع كلام شيخ الإسلام وترتيبه على حسب أبواب البحث وفصوله مع الدراسة والإضافة التي تقتضيها حاجة البحث .

6- الاعتمـــاد في نقل كلام شـــيخ الإســـلام على كتبه ورسائله .
7- إذا أطلقت "شيخ الإسلام" فأريد أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية .
8- إذا أحلت إلى"الفتـاوى" فأريد بها "مجمـوع الفتـاوى" لشيخ الإسلام التي جمعها ابن قاسم –رحمه الله- .
9- ماكان من توضيح لكلام شيخ الإسلام أثنـاء النقل عنه وضعت ذلك بين قوسين .
10- الالتزام بعلامات الـترقيم وضـبط ما يحتـاج إلى ضبط .
11- تـــذييل البحث بفهـــارس توضـــيحية على النحو المبيّن في الخطة .

وفي الختــام أحمد الله تعــالى ، وهو أهل للحمد في كل موطن ، أحمده سبحانه وأشكره على ماأعان ويسّر وأتمّ وسهّل ، فله الحمد كله ، وله الشكر كله ، أوله وآخره .

وبعد شكر الله تعالى أشكر والديّ الكــريمين على ماقاما به من تربية ورعاية وتوجيه ، فجزاهما الله خـير الجـزاء ، وأطال في عمرهما على طاعته .

ثم إني أتوجه بالشـــكر الجزيل للجامعة الإســـلامية على ماتقدمه من تعليم وتوجيه ، ومن خدمة لطلاب العلم والبــاحثين . وأخصّ بالشـــكر في هـــذه الجامعة المباركة شـيخي وأسـتاذي الفاضل فضـيلة الشـيخ أ.د : سـعود بن عبـدالعزيز الخلف –حفظه اللـه- ، فقد كـان نعم الشـيخ ونعم المشـــرف ، أشـــكره على ماأفـــادني به من علمه وتوجيهاته ، وأشـــــكره على حرصه على متابعة البحث ، وعلى كـــريم خلقه وحسن اســتقباله . وأســأل الله –عز وجــل- أن يجزيه خــير الجــزاء على مابــذل وقــدّم ، وأن يجعل ذلك في موازين حسناته .

ولايفوتــني أن أشــكر كــلّ من أعــانني في هــذا البحث ، فللجميع الشكر والتقدير .

وأخيراً ماكان من صواب في هذا البحث فمن الله وحــده وبتوفيقه ، وماكـــان من خطأ فمن نفسي والشـــيطان ، وأستغفر الله منه .
والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشــرف الأنبياء والمرسلين .

تمهيد : ترجمة موجزة لشيخ الإسلام

اهتمّ أهل العلم قديماً وحـديثاً بالترجمة لشـيخ الإسـلام ، وكتبوا في ذلك الـتراجم الخاصة والعامّة ، وعقـدوا لـذلك الندوات ، وكتبت الرسائل الكثيرة في جوانب متعددة من حياته وشخصـيته وعلمه ، وما ذاك إلاّ لمالـه-رحمه اللـه- من أثر عظيم في نفوس أهل العلم واعتراف منهم بسعة علمه ، وعظم منزلته عندهم . ولما كان الأمر كذلك فإني سأقتصر هنا على ذكر ترجمة موجزة له –رحمه الله- .

* هو الشـــيخ ، الإمـــام ، العـــالم ، الفقيه ، المجتهد ، المحدّث ، الحافظ ، المفسِّـر ، الأصـولي ، الزاهد ، قـامع المبتدعين ، شيخ الإسلام .

* أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام العلاّمة شهاب الـدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ الإمـام العلاّمة شـيخ الإســلام مجد الــدين أبي البركـات عبد الســلام ابن أبي محمد عبد الله ابن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحرّاني.

* وتيمية لقب لجـــده الأعلى . قيل إن جـــدّه محمد بن الخضر حجّ على درب تيميـاء[1] ، فـرأى هنـاك طفلة فلما

---

[1] (?) تيميـــاء : بلـــدة قديمة معروفة ، وهي الآن تقع في المملكة العربية السعودية ، كانت تابعة لإمـارة حائـل، والآن تابعة لإمـارة تبـــوك ، تقع على وجه التقـــريب في منتصف الطريق بين مكة

رجع وجد امرأته قد ولــدت له بنتــاً . فقــال : يا تيمية يا تيمية .فلقب بذلك .
وقيل: إنّ جده محمـداً كـانت أمّه تسـمى تيمية ، وكـانت واعظة فنسب إليها وعرف بها.
* ولد شيخ الإسلام بحرّان [1] سنة (661)هـ .
* هـاجر والـده به وبإخوته إلى الشـام عند جـور التتـار ، فسـاروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة لعـدم الـدواب ، فكـاد العـدو يلحقهم ، ووقفت العجلة ، فـابتهلوا إلى الله واستغاثوا به ، فنجوا وسلموا .
* قدموا إلى دمشق في أثناء سنة (667)هـ .
* كـــانت مخايل النجابة عليه في صـــغره لائحة ، ودلائل العناية فيه واضحة ومما يدل على ذلك : أن شيخ الإسلام في حال صغره كان إذا أراد المضـيّ إلى المكتب يعترضه يهودي كان منزله بطريقة بمسـائل يسـأله عنها لما يلـوح عليه من الذكاء والفطنة ، وكـان يجيبه عنها سـريعاً حـتى تعجب منه ، ثم إنه صـار كلّما اجتـاز يخـبره بأشـياء تـدلّ على بطلان ما هو عليه ، فلم يلبث أن أســــــلم وحسن إسلامه .
* سمع من خلق كثير ، وشـيوخه الـذين سـمع منهم أكـثر من مائتي شيخ .
*عُني بالحديث ، وسمع "المسند" مرّات ، والكتب السـتة ، ومعجم الطــــبراني الكبـــــير، وما لا يُحصى من الكتب والأجزاء ، وقرأ بنفسه ، وكتب بخطه جملة من الأجـزاء ، وأقبل على العلوم في صغره ، فأخذ الفقه والأصـول عن والـده وعن غـيره ، وبـرع في ذلك ، ونـاظر . وقـرأ في

ودمشق ، وتقع على بعد (260) كيلومـتر جنـوب شـرق تبـوك ، انظر "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية" ص(322) ، و "دراسة نقد ومقارنة لبعض المعالم الأثرية في تيمياء" ص(2) .

[1] (?) حرّان : مدينة عظيمة على طريق الموصل والشام والــروم ، وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرَّقة يومان . وهنـاك حـرّان أيضـاً من قـرى حلب، وحـرّان أيضـاً قرية بغوطة دمشق ، انظر "معجم البلدان" (2/130-131).

العربية أياماً على ابن عبد القوي ، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمّله وفهمه وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه . وأحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والجبر وغير ذلك من العلوم . ونظر في علم الكلام والفلسفة ، وبرز في ذلك على أهله ، وردّ على رؤسائهم وأكابرهم .

* تأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة ، وأفتى من قبل العشرين .

* توفي والده وكان له حينئذ إحدى وعشرين سنة فقام بوظائفه بعده .

* جلس مكان والده بالجامع على كرسي لتفسير القرآن العظيم ، وشرع من أول القرآن، فكان يورد من حفظه في المجلس ، ولا يتلعثم ، ويورد الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وبقي يفسر في سورة نوح عدة سنين أيام الجمع .

* كان أعجوبة زمانه في الحفظ ، وقد حُكي أن بعض مشايخ حلب قدم دمشق لينظر إلى حفظ الشيخ فسأل عنه فقيل : الآن يحضر ، فلما حضر ذكر له أحاديث فحفظها من ساعته ، ثم أملى عليه عدة أسانيد انتخبها ثم قال : اقرأ هذا فنظر فيه كما فعل أولّ مرّة فقام الحلبي وهو يقول : إن عاش هذا الفتى ليكونَنَّ له شأن عظيم ، فإن هذا لم يُرَ مثله.

* قال بعض قدماء أصحاب الشيخ : لقد سمعته في مبادئ أمره يقول : إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليَّ فأستغفر الله تعالى ألف مرَّة أو أكثر أو أقلّ حتى ينشرح الصدر وينحلّ إشكال ما أشكل .

* كان إذا سئل عن فنّ من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفنّ ، وحكم بأنه لا يعرفه أحد مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا منه في مذاهبهم أشياء . ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلمّ في علم من العلوم ، سواء كان

من علـوم الشـرع أو غيرها إلاّ فـاق فيه أهله ، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها كما يجب .
* وله خبرة تامّة بالرجال وجرحهم وتعـديلهم وطبقـاتهم ، ومعرفة بفنـون الحـديث ، والعـالي والنـازل ، وبالصـحيح والسقيم ،مع حفظه لمتونه الـذي انفـرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجيب في استحضـــاره واســـتخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في عـــزوه إلى الكتب الستة والمسـند بحيث يصـدق عليه أن يقـال : كل حـديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحـديث ، ولكن الإحاطة لله ، غـــير أنه يغـــترف فيه من بحر ، وغـــيره من الأئمة يغترفون من السواقي.
* وأما التفسـير فمسـلَّم إليه ، وله في استحضـار الآيـات من القرآن ، وقت إقامة الدليل على المسألة قوة عجيبة ، وإذا رآه المقرئ تحيّر فيه ، ولفرط إمامته في التفسـير وعظمة اطلاعه يـبيِّن خطأ كثـير من أقـوال المفسـرين ، ويوهي أقوالاً عديدة ، وينصر قولاً واحـداً موافقـاً لما دلّ عليه الكتاب والسنة .
* وله باعٌ طويل في معرفة مذاهب الصـحابة والتـابعين ، وقلَّ أن يتكلم في مسـألة إلاّ ويـذكر فيهـا مـذاهب الأئمة الأربعة ، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة ، وصـنف فيها ، واحتجّ لها بالكتاب والسنة .
* وأمّا أصـــول الديانة ومعرفتها ومعرفة أنـــواع المبتدعة وأحوالهم فكان لا يشق فيه غبارة ، ولا يلحق شأوه .
* كان سيفاً مسلولاً على المخالفين ، وشجىً في حلـوق أهل الأهواء المبتدعين .
* جمع الله له ما خـــرق بمثله العـــادة ، ووفقه في جميع عمره لأعلام السعادة ، وجعل مآثره لإمامته أكـبر شـهادة ، حتى اتفق كلّ ذي عقل سليم أنه ممّن عنى نبينا –صلى

الله عليه وســــلم- بقوله : "إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها "[1] .

* قال عنه تلميذه أستاذ أئمة الجرح والتعـديل أبوالحجـاج المـــــــزي: "ما رأيت مثله ، ولا أرى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحـداً أعلم بكتـاب الله وسـنة رسـوله ولا أتبع لهما منه"[2] .

* وقـال عنه تلميـذه الـذهبي[3] بعد أن ذكر صـفاته وأثـنى عليه : "وهو أكـــــــبر من أن يُنبَّه مثلي على نعوته ، فلو حُلِّفْتُ بين الــركن والمقــام لحلفت أني ما رأيت بعيــني مثله ، ولا والله ما أرى هو مثل نفسه في العلم "[4] .

* وقال الذهبي أيضـاً: "لم يخلف بعـده مثله في العلم ولا من يقاربه"[5] .

* وقـال ابن حجر[6] : "وشـهرة إمامة الشـيخ تقي الـدين أشـهر من الشـمس ، وتلقيبه بشـيخ الإسـلام في عصـره باقٍ إلى الآن على الألسن الزكية ، ويستمر غداً كما كــان

---

[1] أخرجه أبو داود في ســـننه ح (4291)ـ ، والحـــاكم في "المستدرك" ح (8592)ـ ، وصححه الألبـاني في "صـحيح سـنن أبي داود" (3/23).

[2] "العقود الدرية" ص (109).

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركمـاني الأصل ، الدمشـقي ، ولد بدمشق سـنة (673) هــ ، محدث ، مؤرخ ، أخذ العلوم عن أكثر من (1200) شـيخ ،وسـمع منه خلق كثـير ، تـوفي بدمشق سـنة (748) هــ . انظر "معجم المؤلفين "(3/80).

[4] "الدرة اليتيمية" ضمن "تكملة الجامع لسـيرة شـيخ الإسـلام" ص(44)

[5] "معجم الشيوخ" "ضمن" الجامع لسـيرة شـيخ الإسـلام ص (273).

[6] أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي العســـــــقلاني ، المصري المولد والمنشأ والدار والوفـاة ، ولد سـنة (773) هــ ، يعرف بابن حجر ، محدّث ، ومؤرخ ، زادت تصــانيفه على (150) مصــنفاً، تــوفي ســنة (832)هـــ . انظر "معجم المــؤلفين" (1/210).

بـــالأمس ، ولا ينكر ذلك إلاَّ من جهل مقـــداره أو تجنب الإنصاف ، فما أغلط من تعاطى ذلك وأكثر عثـاره . والله تعالى هو المسئول أن يقينا شرور أنفسنا وحصائد ألسنتنا بمنّه وفضله...ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المنـاقب إلاّ تلميـــذه الشـــهير شـــمس الـــدين ابن قيم الجوزية ، صـــاحب التصـــانيف النافعة السـائرة ، الــتي انتفع بها الموافق والمخــالف ، لكــان غاية في الدلالة على عظم منزلته ، فكيف قد شهد له بالتقـدم في العلـوم ، والتمـيز في المنطـوق والمفهـوم ، أئمة عصــره من الشــافعية وغيرهم فضلاً عن الحنابلة"[1] .

* سارت بتصانيفه الركبان ، وله من المصنفات والفتـاوى والقواعد والأجوبة والرسـائل وغـير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط .

* وأكــثر تصـــانيفه إنما أملاها من حفظه ، وكثـــيراً منها صنفه في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب .

* وقلَّ إن وقعت واقعة وسئل عنها إلاَّ وأجـاب فيها بديهة بما بهر واشـتهر ، وصـار ذلك الجـواب كالمصـنف الـذي يحتـاج فيه غـيره إلى زمن طويل ومطالعة كتب ، وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله .

* قـال تلميـذه ابن مُـرِّي الحنبلي[2] : "وقد علم أن لكتبه من الخصوصـــية والنفع والصـــحة، والبسط والتحقيق ، والإتقـان والكمـال ، وتسـهيل العبـارات ، وجمع أشـتات المتفرقات ، والنطق في مضايق الأبواب ، بحقـائق فصل الخطاب ، وما ليس لأكثر المصنفين ، في أبـواب مسـائل أصـول الـدين وغيرها من مسـائل المحققين ؛ لأنه كـان

---

[1] "تفريط ابن حجر على الرد الوافر" ضمن "الجامع لسير شيخ الإسلام" ص(550، 552).

[2] الشيخ الإمام الفاضل أحمد بن محمد بن مـري شـهاب الـدين البعلبكي ، كان في مبدأ حاله منحرفاً عن الشيخ تقي الـدين ابن تيمية ، ومّمن يحط عليه ، إلى أن اجتمع به فمـــال إليه ، وأحبّه ولازمه وتـــــرك كل ما هو فيه ، وتلمذ له ولازمه مـــــدة . انظر "أعيان العصر وأعوان النصر" (1/245).

يجعل النقل الصــحيح أصـــله وعمدته في جميع ما يبـــني عليه ، ثم يعتضد بالعقليـات الصـحيحة الـتي توافق ذلك وبغيرهـا، ويجتهد على دفع كل ما يعـارض ذلك من شـبه المعقــولات ، ويلــتزم حــلّ كل شــبهة كلامية وفلســفية ...ويلــتزم أيضــاً الجمع بين صــحيح المنقــول وصــريح المعقول " [1] .

* وقال تلميذه ابن عبد الهـادي [2] : "ولـولا أن الله تعـالى لطف وأعـان ومنَّ وأنعم وخـرق العـادة في حفظ أعيـان كتبه وتصانيفه لما أمكن أحداً أن يجمعها . ولقد رأيت من خرق العادة في حفظ كتبه وجمعها وإصــلاح ما فسد منها وردّ ما ذهب منها ما لو ذكرته لكـان عجبـاً ، يعلم به كـلّ منصف أن الله عناية به وبكلامه ؛ لأنه يذبّ عن سـنة نبيه –صـــلى الله عليه وســـلم- تحريف الغـــالين ، وانتحـــال المبطلين ، وتأويل الجاهلين" [3] .

* كان –رحمه الله- كثير الذكر والصوم والصلاة والعبادة ، قلَّ أن سمع بمثله في التعبد؛ لأنه كان قد قطع جُـلّ وقته وزمانه فيه ، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشـغله عن الله تعالى .

* كــان في ليلة متفــرِّداً عن النــاس كلهم ، خاليــاً بربه تعـالى ، ضـارعاً ، مواظبـاً ، على تلاوة القـرآن العظيم ، مكرِّراً لأنواع التعبدات الليلة والنهارية .

* وكان إذا أحـرم بالصـلاة يكـاد يخلع القلـوب لهيبة إتيانه بتكبـيرة الإحـرام ، فـإذا دخل في الصـلاة ترتعد أعضـاؤه حتى يميد يمنةً ويسرة .

---

[1] "رســـالة من الشـــيخ أحمد بن محمد بن مـــري الحنبلي إلى تلاميذ شيخ الإسلام " ضمن "الجامع لسـيرة شـيخ الإسـلام" ص(157).

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهـــادي المقدسي ، ولد سـنة (705) هــ ، مقـرئ ، فقيه ، أصـولي ، نحـوي ، محـدث ، عارف بالرجال ، تفقه بابن تيمية ، وتخرج به خلق ، توفي سنة (744) هـ . انظر "معجم المؤلفين " (3/78-79) .

[3] "العقود الدرية" ص(109-110) .

* أمّا زهده في الـدنيا ومتاعها فـإن الله تعـالى جعل ذلك له شعاراً من صغره .
كان أبو شيخ الإسـلام يقـول للشـيخ الـذي يعلّم ابن تيمية القرآن وهو صبي كان يقـول له : أحبُّ أن توصـيه وتعِـده بأنك إذا لم تنقطع عن القـــــراءة والتلقين أدفع إليك كل شهر أربعين درهما . ويدفع للشيخ المعلم أربعين درهما . ويقول : أعطه إياها ، فإنه صغير ويفرح بها فيزداد حرصه على الاشـتغال بحفظ القـرآن ودرسه ، وقل له : لك في كلّ شهر مثلها ، فامتنع من قبولها ، وقال: يا سـيدي، إني عاهـدت الله تعـالى أن لا آخذ على القـرآن أجـراً ، ولم يأخـذها . قـال الشـيخ المعلم : فـرأيت أن هـذا لا يقع من صبي إلاَّ لما لله فيه من العناية .
* قال تلميذه البزار[1] معلِّقاً على القصة : "وصدق شيخه ، فـإن عناية الله هي الـتي أوصـلته إلى ما وصل من كل خـير من صـغره ، ولقد اتفق كـلّ من رآه – خصوصـاً من أطـال ملازمته – أنه ما رأى مثله في زهـده في الـدنيا ، حـتى لقد صـار ذلك مشـهوراً، بحيث قد اسـتقرّ في قلب القريب والبعيد من كلّ من سمع بصفاته على وجهها ، بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد عن الشيخ من كـان أزهد أهل هــــذا العصر وأكملهم في رفض فضــــول الـــــدنيا وأحرصـهم على طلب الآخـرة ؟ لقـال : ما سـمعت بمثل ابن تيمية . وما اشــــــــتهر له ذلك إلاَّ لمبالغته فيه ، مع تصحيح النية ..." [2] .
* كـان –رحمه اللـه- مجبـولاً على الكـرم ، لا يتطبعه ولا تصنعه ، وما شدّ –رحمه اللـه- على دينـار ولا درهم قط ، بل كان مهما قدر على شيء من ذلك يجود به كلّه .
* وكان لا يردّ من يسـأله شـيئاً يقـدر عليه من دراهم ولا دنانير ، ولا ثياب ولا غير ذلك ، بل ربما كـان يسـأله بعض

---

[1] (?) أبو حفص عمر بن علي بن موسى الخليل البغدادي ، الحنبلي ، الـبزار ، محـدث ، مـؤرخ ، فقيه ، ولد تقريبـاً سـنة (688)هــ ، وتوفي سنة (749)هـ. انظر "معجم المؤلفين" (2/569).
[2] (?) "الأعلام العلية" ص(765).

الفقراء شيئاً من النفقة ، فإن كان حينئذ متعــذراً لا يدعه يــذهب بلا شــيء ، بل كــان يعمد إلى شــيء من لباسه فيدفعه إليه ، وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله .

* كــان رأســاً في الشـجاعة ، اجتمع بغــازان[1] الســفاك المغتــال ، متملك التــتر ، لما قــدم إلى الشــام ، وكلّمه بغلظة ، قــال له :أنت تــزعم أنك مســلم ، ومعك قــاض وإمام وشيخ ومؤذن، على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجـدك هولاكو[2] كانا كــافرين وما عملا الــذي عملت ، وعاهـــدا فوفيا ، وأنت عاهـــدت فغــدرت ، وقلت فما وفيت . وقد حضر قضاة دمشق وأعيانها ، فقُـدم إليهم غـازان طعامـاً فــأكلوا ، إلا ابن تيمية ، فقيل له : لم لا تأكــل؟ فقـــال : كيف آكل من طعـامكم وكلّه مما نهبتم من أغنـام النـاس وقطعتم من أشـــجار النـــاس؟ ثم إن غـــازان طلب منه الــدعاء ، فقـال شـيخ الإسـلام في دعائه : اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجهـاداً في سبيلك ، فأيّده وانصره . وإن كان للملك والـدنيا والتكـاثر فافعل به واصــنع ! –يـدعو عليــه- ، وغــازان يــؤمن على دعائه . وقضــاة دمشق قد خـافوا القتل وجمعـوا ثيـابهم خوفاً أن يبطش به غازان فيصــيبهم من دمه إلاَّ أن الله -سبحانه وتعالى- نجاه من هذا الظالم السفاك . وكان في ذلك مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين .

* من صــفاته –رحمه اللــه- الحلم والصــفح والعفو عمَّن ظلمه . استفتاه السلطان الناصر[3] في

---

[1] (?) غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان ، ملك سنة (693)هـ ، وتوفي سنة (703). انظر "فوات الوفيات" (4/97) ، و "أعيان العصر" (4/3-4) .

[2] (?) هولاكو بن تولى قان بن جنكز خان ، ملك التتار ، ومقـدمهم ، كان طاغية من أعظم ملوك التتـار ، تـوفي بعلة الصـرع ، أخفـوا موته وجعلــوه في تــابوت ، وكــان ابنه أبغا غائبــاً فطلبه المغل وملكوه . هلك هولاكو وله ستون سنة أو نحوها في سنة(664)هـ . انظر "الوافي بالوفيات" (27/233-234)

قتل بعض القضـاة الـذين تكلّمـوا فيه وافتـوا بعزله من الملك ومبايعة الجاشـنكير[1] ، وذكر له أنهم قـاموا عليه وآذوه ، وأخذ يحثه بـذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم ، وإنما كان حَنَقُه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشـنكير . ففهم الشـيخ مـراد السـلطان ، فأخذ في تعظيم القضـاة والعلمـاء وينكر أن ينال أحداً منهم سـوء . وقـال له : إذا قتلت هـؤلاء لا تجد بعـدهم مثلهم . فقـال له : إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً. فقـال الشـيخ : من آذاني فهو في حِـلّ ، ومن آذى الله ورسـوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي ، ومازال به حتى حَلُم عنهم وصفح . وكـان قاضي المالكية

(?)[3] محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي ، ولد سنة (694)هـ ، من كبـار ملـوك الدولة القلاوونية ، ولي سـلطنة مصر والشـام سنة (693)هـ ، وهو صبي ، وخلع منها لحداثته سـنة (694) هـ ، وأعيد للسـلطنة بمصر سـنة (698)هـ ، فأقـام في القلعة كـالمحجور عليه ، والأعمـال في يد الجاشـنكير ونـائب السـلطنة سّلار ، واستمر نحو عشرين سـنة ضـاق بها صـدره من تحكمها ، أظهر العزم على الحج وبلغ الكرك فـنزل بقلعتها واسـتولى على ما فيها من أمـوال ، وأعلن أنه قد انثـنى عزمه عن الحج واختـار الإقامة بالكرك ، وكتب إلى الأمراء في مصر بذلك فاجتمع هؤلاء ونادوا بالأمير الجاشنكير سلطاناً على مصر والشام سـنة (708) هـ ، ولقبـوه بالملك المظفر ، وأمضى الملك الناصر في الكـرك قريبـاً من عـام ثم وثب فـدخل دمشق ، وزحف إلى مصر فقاتل الجاشنكير ، وعاد إلى عرشه سنة (709) وقتل الجاشنكير بيـده خنقاً ، وشرد أنصـاره . تـوفي الملك الناصر سـنة (741) . انظر "الأعلام" (7/11) .

(?)[1] بيبرس الملك المظفر ركن الدين البُـرجي الجاشـنكير ، كـان أسـتاذ دار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكـان سـيف الـدين سـلاّر نائبـاً له ، فحكما في البلاد وتصـرّفا في العبـاد ، لما توجه الملك الناصر إلى الحجاز ورد من الطريق إلى الكـرك وأقـام بها لعب الأمـير سـيف الـدين سـلاّر بالجاشـنكير وسـلطنه ، وسـمّي الملك المظفر ، وأفتى جماعة من الفقهـاء له بالسـلطنة . انظر "الوافي بالوفييات" (10/218) .

ابن مخلوف[1]يقـول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرضـنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا .
* كان يقول وهو في السجن لما سـجن آخر مـرة بسـبب فتواه بمنع شدّ الرّحال لزيارة القبور كان يقول : "إني قد أحللت السلطان المعظّم الملك الناصر من حبسه إيّـاي ، كونه فعل ذلك مقلِّداً غــيره معــذوراً ، ولم يفعله لحــظّ نفسه ، بل لما بلغه مما ظنه حقــاً من مُبلِّغه ، والله يعلم أنه بخلافه . وقد أحللت كل واحد مما بيني وبينه ، إلاّ من كان عدواً لله ورسوله" [2] .
* كان الشيخ أبيض ، أسود الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شـعره إلى شـحمة أذنيه ، كـأن عينيه لسـانه ناطقـان ، رَبْعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت ، فصــيحاً ،ســريع القــراءة ، يكتب بخط ســريع في غاية التعليق والإغلاق .
* كانت تعتريه حِدَّة يقهرها بحلم وصفح .
* لم يتزوج ولا تسرّى .
* وهو فقير لا مال له .
* لم ينحن لأحد قط ، وإنما يسلِّم ويصــافح ويبتسم ، وقد يعظِّم جليسه مرَّة ، ويهينه في المحاورة مرَّات .
* حجَّ –رحمه الله- سنة (692)هـ .
* عــرض عليه قضــاء الحنابلة قبل التســعين ، ومشــيخة الشيوخ فلم يقبل شيئاً من ذلك .
* امتُحن –رحمه اللـه- وأُذي وحبس مـرات ، آخرها بقلعة دمشق سنة (726) هـ بسبب تحريمه السفر لزيارة قبـور الأنبيـاء مع اعترافه بـأن الزيـارة بلا شـدّ رحل قربـة، وقد عظم التشيع عليه بسبب ذلك ، وحُرِّف كلامه ، ونُقِل عنه ما لم يقله ، وحصــلت فتنة طــار شــررها في الآفــاق ،

---

[1] (?) علي بن مخلوف بن ناهض بن مســلم النــويري ، أبو الحسن المالكي ، قاضي الديار المصرية ، نيفاً وثلاثين سنة ، توفي سـنة (710)هـ ، وله خمس وثمانون سنة . انظر "الـوافي بالوفيـات" (22/118-119) .

[2] (?) انظر "الأعلام العلية" ص(790).

واشـــــتدّ الأمر ، وكتب فيها جماعة بأنه يلـــــزم من منعه شـــائبه تنقص للنبـــوة ، فيكفر بـــذلك ، وأفـــتى عـــدّه بأنه مخطئ في ذلك خطأ المجتهـــدين المغفـــور له ، ووافقه جماعة ، وكبرت القضية .

* ولقد اجتمع جماعة بدمشق وضـــربوا مشـــورة في حـــقِّ الشيخ . فقال أحدهم : يُنفى ، فنُفي القائل ، وقـــال آخر : يُقطع لســـانه ، فقطع لســـان القائل ، وقـــال آخر : يُعـــزَّر ، فعُزِّر القائل . وقال آخر : يحبس فحبس القائل .

واجتمع جماعة آخـــرون بمصر وقـــاموا في هـــذه القضـــية قيامـــاً عظيماً ، واجتمعـــوا بالســـلطان ، وأجمعـــوا أمـــرهم على قتل الشيخ ، فلم يوافقهم الســـلطان على ذلك ، بل أمر بسجنه في القلعة . فلما ورد مرسوم السلطان بذلك أظهر شيخ الإسلام السرور ، وقال : أنا كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خيرٌ عظيم .

* لم يســـجن شـــيخ الإســـلام في جميع ســـجناته بســـبب اعتقـــاده جـــواز الخـــروج على الحـــاكم المســـلم ، أو دعوته للخـــــروج وتحريضه على ذلك ، بل هو -رحمه اللـــــه- من كبار الأئمة الـــذين نهـــوا عن ذلك وحـــذروا منه ، متبعـــاً في ذلك الكتاب والســـنة ، وموافقـــاً لمنهج ســـلف الأمة[1] إنما كان يسجن بسبب تمسكه بالعقيدة الصـــحيحة ، والـــدعوة إليها ، ونشـــرها ، وبســـبب الحســـاد من الفقهـــاء والقضـــاة الـــــذين يحســـــــدونه على ما منَّ الله عليه به من العلم والعمل ، ومحبة الناس له .

* بقي -رحمه اللـــه- مقيمـــاً بالقلعة ســـنتين وثلاثة أشـــهر وأياماً.

* ما برح الشيخ في هذه المدة مُكِباً على العبادة والتلاوة ، وتصنيف الكتب ، والردّ على المخالفين .

* كتب في تفســـير القـــرآن العظيم جملة كثـــيرة تشـــتمل على نفـــائس جليلة ، ونكت دقيقة ، ومعـــانٍ لطيفة ، وبيّن

---

[1] انظر "منهاج الســـنة" (1/111 ، 115-119 ، 547-548 ، 556-565)، (3/391-395)، (4/527-530 ، 539-542)، و "مجموع الفتاوى" (28/179-180) (35/6-18)

في ذلك مواضع كثيرة أشكلت على خلق من علمــاء أهل التفسير.
* وكتب في المسـألة الـتي حُبس بسـببها عـدة مجلـدات منها : كتاب الرد على الخنائي تعرف
بــ "الاخنائية".
* وكان ما صنفه في هذه المدة قد خرج بعضه من عنــده ، وكتبه بعض أصـــحابه وظهر واشـــتهر ، فلما كـــان قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم بـإخراج ما عنـده كله ، ولم يبق عنـده كتـاب ولا ورقة ، ولا دواة ولا قلم ، وكـان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه كتبها بفحم .
* وبعد إخـراج ما عنـده من الكتب والأوراق أقبل الشـيخ على العبادة والتلاوة والذكر والتهجد حتى أتاه اليقين .
* ختم القرآن مـدة إقامته بالقلعة ثمـانين ختمة ، وشـرع في الحادية والثمانين فانتهى إلى قوله تعالى : ﭼﭪﭫﭬﭭ ﭮ.ﭯﭰﭱﭲﭳﭼ [1] .
* كان شيخ الإسـلام يقـول : "قـد فتح اللـه عليَّ في هـذا الحصن في هذه المرّة من معـاني القـرآن ، ومن أصـول العلم بأشـياء ، كـان كثـير من العلمـاء يتمنونهـا ، ونـدمت على تضييع أوقاتي في غير معاني القرآن" .
* وكان في حبسه في القلعة يقول : "لو بذلت ملء هـذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر

هذه النعمة .أو قال : "ما جزيتهم على ما تسـببوا لي فيه من الخير " ونحو هذا [2] .
* مرض شيخ الإسلام وهـو في السـجن بضـعة وعشـرين يومـاً ، ولم يعلم أكـثر النـاس بمرضـه ، ولم يفاجـأهم إلاّ موته .

---

[1] (?) سورة القمر آية (54-55) .
[2] (?) انظر أقوال شيخ الإسـلام هـذه وغيرها "الـذيل على طبقـات الحنابلة" ضمن "الجامع لسيرة شيخ الإسلام" ص (480-481).

* كانت وفاته في سحر ليلة الاثـنين عشـرين ذي القعـدة سنة (728) هـ ، عن (67) سنة وأشهر .
* كانت جنازته يومـاً مشـهوداً ، لم يعهـد مثلـه بدمشـق ، ولم يتخلّف عن الحضور إلاّ القليل من الناس أو من عجز للزحام .
* ودفن وقت العصـر أو قبلهـا بيسـير إلى جـانب أخيـه شرف الدين عبد الله بمقابر الصوفية .
* صُلي عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسـلام القريبـة والبعيدة حتى في اليمن والصين وأخبر المسافرون : أنـه نودي بأقصى الصين للصلاة عليه يـوم الجمعـة : "الصـلاة على ترجمان القرآن".
* قـال الشـوكاني[1] : "وقـع لـه مـع أهـل عصـره قلاقـل وزلازل ، وامتحن مرّة بعد أخرى في حياتـه ، وجـرت فتن عديدة ، والناس قسمان في شـأنه : فبعض منهم مقصـرّ به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظـائم . وبعض آخر يبالغ في وصـفه ويجـاوز بـه الحـدّ ويتعصـب لـه كمـا يتعصب أهل القسم الأول عليه . وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية ويفوق أهـل عصـره ويدين بالكتاب والسنة ، فإنه لابدّ أن يستنكره المقصِّرون ، ويقع له معهم محنة بعد محنـة ، ثم يكـون أمـره الأعلى وقوله الأولى ، ويصير له بتلـك الـزلازل لسـان صـدق في الآخرين ، ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره . وهكـذا حـال هذا الإمام ، فإنه بعد موته عرف الناس مقداره ، واتفقت الألسن بالثناء عليه إلاّ من لا يعتدّ به ، وطارت مصـنفاته ، واشتهرت مقالاته "[2] [3] .

---

[1](?) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الخـولاني ثم الصـنعاني ، المفسر ، محـدث، وفقيه ، أصـولي ، ولد سـنة (1173)هـ ، ونشأ بصنعاء ، وولي القضاء ، وتوفي بصـنعاء سـنة (1250)هـ انظر "معجم المؤلفين" (3/541).

[2](?) "البـدر الطـالع" ضـمن "الجـامع لسـيرة شـيخ الإسـلام"ص(650).

المطلب الأول: تعريف الرب .

ذكر شيخ الإسلام عدة تعريفات "للرب":

---

[3] انظر مراجع هذه الترجمة : "ذيل تاريخ الإسلام" ، و "معجم الشيوخ" ، و "تذكرة الحفاظ" و "ذيل العبر" ، و"دول الإسلام" جميعها للذهبي ، و "البداية والنهاية" لابن كثير ، و "الذيل على طبقات الحنابلة" لابن رجب ، و "رسالة من الشيخ أحمد بن مُرّي الحنبلي إلى تلاميذ شيخ الإسلام" ، و"أجوبة ابن سيد الناس اليعمري عن سؤالات ابن أيبك الدمياطي "لابن سيد الناس ، و"أعيان العصر وأعون النصر" للصفدي ، و "التبيان لبديعة الزمان" لابن ناصر الدين ، و "تفريط ابن حجر على الرد الوافر" ، و "المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد "لابن مفلح ، و "البدر الطالع" للشوكاني ، و "المقفى الكبير" للمقريزي . جميع هذه الكتب ضمن "الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون" . ومن المراجع أيضاً: "الدرة اليتيمية" للذهبي ، ضمن "تكملة الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية" ، ومن المراجع أيضاً: "العقود الدرية" لابن عبد الهادي ، و "الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية" للبزار . وللاستزادة : انظر التراجم الأخرى لابن تيمية ضمن "الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون" جمع وتحقيق : محمد عزيز شمس وعلي بن محمد العمران ، وانظر: "تكملة الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون" جمع وتحقيق : علي بن محمد العمران. وانظر أيضاً : "بحوث الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله الخالدة " إشراف د. مقتدى حسن الأزهري ، إعداد وترتيب : د. عبد الرحمن الفريوائي .

قال –رحمه الله-: "...الرب –سبحانه وتعالى- هو المالـك، وفيه أيضًا معنى الربوبية والإصلاح، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء" [1] .

وقال: "ولفظ "الرب" يراد به: السيد المطاع " [2] .

وقال: "والرب هو:الذي يربُّ عبده فيدبره "[3] .

وقـال: "الـرب هـو: الـذي يـربِّي عبـده فيعطيـه خلقـه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها " [4] .

وقال: "الرب هو: المربّي الخالق الرازق الناصر الهادي " [5] .

وقــال: "ورب النــاس: الــذي يــربيهم بقدرتــه ومشــيئته وتـدبيره، وهو **رب** العـالمين كلهم، فهـو الخـالق للجميـع ولأعمالهم " [6] .

وقال: "إذ رب الشـيء من يربُّه مطلقًـا من جميـع جهاتـه وليس هذا إلا لله رب العالمين". [7]

وقـــال :" فـــإن الـــرب هوالمالـــك ، المـــدبر،المعطي المانع،الضار النافع،الخافض الرافع،المعز المذل"[8] .

فهنا –رحمه الله- ذكر عدة معاني للرب هي:

1- المالك. 2- المصلح. 3- السيد المطاع. 4- المربي. 5- المـدبر. 6- الخـالق. 7- الـرازق. 8- الناصـر. 9- الهـادي. 10- المعطي المــانع. 11- الضــار النــافع. 12- الخــافض الرافع. 13- المعز المذل.

وهذه المعاني هي موافقـة للمعـاني اللغوية ، وهي ترجـع إلى الأصل اللغـوي لكلمـة "الـرب" وهـو: إصـلاح الشـيء والقيام عليه، فإن الراء والباء يدلان على ثلاثة أصول:

---

[1] "مجموع الفتاوى" (1/89).

[2] "الجواب الصحيح" (3/377).

[3] "مجموع الفتاوى" (10/284)

[4] "المصدر السابق" (1/22).

[5] "المصدر السابق" (15/13).

[6] "المصدر السابق" (17/517).

[7] "درء تعارض "، (9/341).

[8] "مجموع الفتاوى"(1/92).

الأول: إصلاح الشيء والقيام عليه:
فالرب: المالك، والخالق، والصاحب.
والرب: المصلح للشيء، يقال: ربَّ فلانٌ ضيعته. إذا قام على إصلاحها. و**الله** –جل وعلا- الرب؛ لأنه مصلح أحوال خلقه.
الثاني: لزوم الشيء والإقامة عليه:
وهو مناسب للأصل الأول. يقال: أربَّت السحابة بهذه البلدة، إذا دامت. وأرضٌ مَرَبٌّ: لا يزال بها مطر؛ ولذلك سمّي السحاب ربابًا.
ويقال: أربّت الناقة: إذا لزمت الفحل وأحبته، وهي مُرِبٌّ.
الثالث: ضمُّ الشيء للشيء:
وهو أيضًا مناسب لما قبله. يقال للخرقة التي يجعل فيها القِداح رِبابة. ومن هذا الباب: الربابة، وهو العهد، يقال للمعاهَدِين: أَرِبّةٌ. وسمّي العهد رِبابة؛ لأنه يَجمَع ويؤلِّف. ومن هذا الباب أيضًا: الرَّبَب، وهو: الماء الكثير، سمّي بذلك لاجتماعه. [1]
هذه هي الأصول للراء والباء، وهي ترجع للأصل الأول، قال ابن فارس[2] : "ومتى أُنعِم

النظر كان الباب كله قياسًا واحدًا". [3]
"والرب يطلق في اللغة على: المالك، والسيد، والمدبر، والمربِّي، والقيِّم, والمنعم." [4]

---

[1] انظر: "معجم مقاييس اللغة" (2/381-383).
[2] الإمام العلامة اللغوي المحدث، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرازي، المالكي، كان رأسًا في الأدب، بصيرًا بفقه مالك، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين، وكان من رؤوس أهل السنة المجردين على مذهب أهل الحديث. مات سنة (395هـ). انظر "سير أعلام النبلاء" (17/103-105).
[3] "معجم مقاييس اللغة" (2/382).
[4] "لسان العرب" (6/70)

وربُّ كل شيء: مالكه ومستحقه، وقيل: صاحبه. والله -تعالى- هو رب كلّ شيء، أي: مالكه، وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له.

وكل من ملك شيئًا فهو ربُّه، يقال: هو ربُّ الدابَّة، وربُّ الدار، وفلانة ربَّة البيت.

والعرب تقول: لأن يَرُبَّنِي فلان أحبُّ إليَّ من أن يَرُبَّنِي بنو فلان. يعني: أن يكون ربًّا فوقي وسيدًا يملكني. [1]

قال ابن الأنباري: "الرب ينقسم على ثلاثة؛ يكون "الرب": المالك، ويكون "الرب": السيد المطاع، قال الله –تعالى-: ﭽ ﭤ ﭥ ﭦ ﭼ [2] أي سيده، ويكون "الرب": المصلح."[3]

ويقال: ربٌّ مشدد، وربٌ مخفف. [4]

وهذه المعاني التي ذكرها أهل اللغة مناسبة للمعنى الذي ذكره شيخ الإسلام –رحمه **الله**-.

---

[1] انظر "تهذيب اللغة" (15/ـ 176-177)، و"لسان العرب" (6/69-70) و"الصحاح" (1/117-118). و"القاموس المحيط" (ص 87).

[2] سورة يوسف، الآية: (41).

[3] انظر "تهذيب اللغة" (15/177)، و"لسان العرب" (6/70).

[4] انظر "تهذيب اللغة" (15/177).

المطلب الثاني: العلاقة بين "الرب" و"الإله" .

يحسن بي قبل الحديث عن "العلاقة بين الرب والإله" أن أذكر تعريف "الإله" عند شيخ الإسلام كما سبق تعريف "الرب".

ذكر شيخ الإسلام معنى "الإله" في مواضع كثيرة من كتبه، سأقتصر على ذكر بعضها ،وأشير في الحاشية إلى الباقي.

قال –رحمه الله-: "والإله هو: المألوه، أي: المستحق لأن يؤله أي: يعبد، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل، وفعال بمعنى: مفعول، مثل لفظ: الركاب والحمال بمعنى: المركوب والمحمول " [1] .

وقال: "والإله هو بمعنى: المألوه المعبود الذي يستحق العبادة " [2] .

وقال: "والإله هو: الذي يستحق أن تألهه القلوب بالحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، فهو بمعنى: المألوه، وهو: المعبود الذي يستحق أن يكون كذلك " [3] .

وقال: "فإن الإله هو: المألوه الذي يستحق أن يؤلَه ويُعبَد، والتألُّه والتعبُّد يتضمن غاية الحب بغاية الذُّل " [4] .

وقال: "فالإله هو: الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، ونحو ذلك " [5] .

---

[1] "مجموع الفتاوى" (13/202).

[2] "درء التعارض" (1/226).

[3] "المصدر السابق"، (9/377).

[4] "النبوات" (1/284).

[5] "العبودية" ص (44-45). وانظر "مجموع الفتاوى" (1/22، 136)، (6/357)، (8 /378)، (10/249،284)، (11/524)، (16/345)، (17/517)(18/319)، (28/35)، و"التسعينية" (

فالإله هو: المـألوه المعبـود، فعـال بمعـنى مفعـول، وهـو الـــذي يألهـــه القلب بكمـــال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء.

وهذا التعريف موافق لتعريف "الإله" لغةً ، فقـد قـال ابن فارس –رحمه الله-: "الهمـزة واللام والهـاء أصـل واحـد، وهـو التعبـد، فالإلـه: **الله** –تعـالى-، وسـمّي بـذلك؛ لأنـه معبود، ويقال: تألّه الرجل، إذا تعبّد. قال رؤبة:

لله درُّ الغانيات المدَّهِ سبَّحْن واسترجعن من تألُّهي"[1] [2]

قال الجوهري[3]: "ألَه، بالفتح، إِلَاهَةً، أي: عَبَد عبادة، ومنه قرأ ابن عباس –رضـي الله عنهمـا- ﭽ ﮒ ﮓ ﭼ [4] [5] بكسـر الهمزة، قال: وعبادتك، وكان يقول: إن فرعون كان يُعبَد، ومنــه قولنــا: "الله"، وأصــله: إلاه على فِعــال، بمعــنى: مفعول؛ لأنه مألوه أي: معبود، كقولنا: إمام، فعال بمعـنى مفعول؛ لأنه مؤتمٌّ به". [6]

وأمـا قـولهم في التحيُّر: **"**أله يَألَـهُ فليس من البـاب؛ لأن الهمزة واو، تقول: **أَلِه** يَألَه ألَهًـا، أي: تحيَّر، وأصـله: وَلِـه

3/800)، و"التحفة العراقية" (423)، و"منهاج السنة" (5/327-328)، و"الإيمان" (60)، و"المستدرك على مجموع الفتاوى" (1/15).

[1] "ديوان رؤبة بن العجاج " ضـمن " مجمـوع أشـعار العـرب " ص (165).

[2] "معجم مقاييس اللغة" (1/140) ، وانظر"تهذيب اللغة" (6/422) ، و"لسان العرب"(1/140)، و"الصحاح"(5/1781).

[3] أبو نصر إسماعيل بن حمـاد الـتركي ، إمـام اللغة ، وأحد من يضــرب به المثل في ضــبط اللغة ، أخذ العربية عن أبي ســعيد السـيرافي وأبي علي الفارسي ، تـوفي سـنة (393)ه . انظر " سير أعلام النبلاء " (17/ 80-82).

[4] سورة الأعراف الآية (127).

[5] انظر هذه القراءة في "جامع البيان" (9/32-34).

[6] "الصــحاح" (5/1780). وانظر "لســان العــرب" (1/140) و"القاموس المحيط" ص (1242).

يَوْلَه وَلَهًا، وقد أَلِهتُ على فلان، أي: اشتدَّ جزعي عليه، مثل: وَلِهتُ". [1]

والخلاصة:

أن "الإله" فعال، بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه، أي: معبود، وهذا المعنى مناسب للمعنى الذي ذكره شيخ الإسلام .

وأما العلاقة بين "الإله" و"الرب" فقد قال شيخ الإسلام -رحمه الله-:

"فالاسم الأول (أي: الإله) يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه، وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله، وهو عبادة **الله**، والاسم الثاني (أي: الرب) يتضمن خلق العبد ومبتداه، وهو أنه يربه ويتولاه، مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية، والربوبية تستلزم الألوهية أيضًا". [2]

وقال: "وإن سأله باسمه "الله" لتضمنه اسم "الرب" ، كان حسنًا"[3].

فمن خلال هذا الكلام تتبين العلاقة بينهما وهي: أن "الإله" يتضمن "الرب"، وهذا عند الانفراد.

أما عند الاقتران فكل واحد منهما يختص بمعناه، ولهذا قال شيخ الإسلام: "وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران كما في قوله: "قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس" [4] وفي قوله: ﭼﭙﭚﭛﭜﭽ [5] فجمع بين الاسمين: اسم "الإله" واسم "الرب"، فإن الإله هو: المعبود الذي يستحق أن يعبد، والرب هو: الذي يرب عبده فيدبره". [6]

---

[1] انظر: "معجم مقاييس اللغة" (1/127)، و"الصحاح" (5/1781).

[2] "مجموع الفتاوى" (14/13).

[3] "مجموع الفتاوى" (10/286).

[4] سورة الناس، الآية (1-3).

[5] سورة الفاتحة، الآية (2).

[6] "مجموع الفتاوى" (10/284).

فـ "الإله" و"الرب" إذا أفرد أحدهما تضـمن الآخر[1]، وأمـا عند الاقتران فكلٌّ منهما له معنى يخصه.

وإذا كان هناك علاقة بين الرب والإله، فهناك علاقة أيضًـا بين الربوبية والألوهية.
فإن "الألوهية" إذا ذكـرت وحـدها دخـل فيهـا "الربوبيـة"، فالألوهيـة تتضـمن الربوبية، والربوبيـة تسـتلزم الألوهيـة، وتوحيد الربوبية سبب لتوحيد الألوهية ودليل عليه.
قال شيخ الإسلام –رحمه الله-: "فإن اللـه –سـبحانه- هـو الإله المعبود بجميع الأعمال الصالحة، وهو الخـالق الـرب المعين عليها، فله الدعاء وحده لا شريك له، دعاء العبادة والتأله لألوهيته، ودعاء السؤال والطلب لربوبيتـه الداخلـة في ألوهيته "[2] .
وقال: "وإذا كان توحيد الربوبية الذي يجعله هؤلاء النظـار ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية في التوحيد داخلاً في التوحيد الذي جاء به الرسل ونـزلت بـه الكتب فليعلم أن دلائله متعددة"[3] .
هذا كلامه فيمـا يتعلـق بـالفقرة الأولى وهـو: أن الربوبيـة داخلة في الألوهية.
وأما الفقرة الثانية وهي:
أن الألوهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الألوهية، فقد قال: "وإنما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية".[4]
وقـال:"والرسـل –عليهم الصـلاة والسـلام- بُعثـوا بتوحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية"[5].

[1] المصـدر السـابق (10/286) وانظـر"الدررالسـنية"(1/106-107) (2/65).
[2] "جامع المسائل" (6/213).
[3] "شرح الأصبهانية" ص (133).
[4] "منهاج السنة" (3/289).
[5] المصدر السابق، (5/327).

وقال: "وإقراره بألوهية **الله** -تعالى- دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته، وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره فحينئذ يكون موحدًا لله "[1] .

وأما عن استلزام الربوبية للألوهية: فقد قال: "والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد (أي: الربوبية) وبيانه، وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ويبين أنه لا خالق غير الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثاني، إذا كانوا يسلمون بالأول وينازعون في الثاني، فبيِّن لهم -سبحانه- أنه إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله، وهو الذي يأتي العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له في ذلك، فلماذا تعبدون غيره ؟ وتجعلون معه آلهة أخرى"[2] .

وقال -رحمه الله-: "والربوبية تستلزم الألوهية"[3] وقال أيضًا: "وهو (أي: توحيد الربوبية) سبب لتوحيد الألوهية, ودليل عليه، كما يحتج به في القرآن على المشركين."[4]

وذكر شيخ الإسلام وجهًا آخر للعلاقة بين الربوبية والألوهية وهو:

أن توحيد الألوهية مستلزم لتوحيد الربوبية.

قال -رحمه الله-: "فالتوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو: أن يعبد الله وحده لا شريك له، فهو توحيد الألوهية وهو مستلزم لتوحيد الربوبية، وهو أن يعبد الحق رب كل شيء "[5] .

---

[1] "العبودية" ص (198) وانظر: "الصفدية" (2/64، 229)، و"شرح الأصبهانية" ص (102، 123)، و"درء التعارض" (9/344).

[2] "شرح الأصبهانية" ص (132).

[3] "مجموع الفتاوى" (14/13).

[4] "المصدر السابق" (14/377).

[5] "الاستقامة" (2/31).

وقـال: "والإلهيـة المـذكورة في كتـاب الله هي العبـادة والتأله، ومن لوازم ذلك: أن يكون هو الرب الخالق "[6] .
وقال: "فإن الإلهية تستلزم الربوبية " [2] .
فـإن قـال قائـل: إن كـان توحيـد الإلهيـة يسـتلزم توحيـد الربوبية فهل توحيد الربوبية يتضمن توحيد الألوهية؟
أجاب عن هذا شيخ الإسلام بقوله:
"والشرك نوعـان: أحـدهما شـرك في الربوبيـة، والثـاني: شرك في الإلهية، فأما الأول فهـو: إثبـات فاعـل مسـتقل غير الله، وجمهور العرب لم يكن شركها من هـذا الوجـه، بل كانت مقرّة بـأن الله خـالق كـل شـيء وربـه ومليكـه، وإنمـا كـان من النـوع الثـاني، فإثبـات التوحيـد في النـوع الثاني يتضمن الأول من غير عكس "[3] .
فقوله: "من غير عكس" يعني: إثبـات التوحيـد في النـوع الأول وهـو توحيـد الربوبيـة لا يتضـمن الثـاني وهـو توحيد الألوهية.
ومما يترتب على العلاقة بين الألوهية والربوبية مـا ذكـره شيخ الإسلام بقوله:
"فإثبـات الإلهيـة يـوجب إثبـات الربوبيـة، ونفي الربوبيـة يوجب نفي الإلهية، إذ الإلهيـة هي الغايـة، وهي مسـتلزمة للبداية كاستلزام العلة الغائية [4]للفاعلية [5]".[6]

---

[6] "جامع الرسائل" (2/200).
[2] "مجمـوع الفتـاوى" (2/433). وانظر "جـامع المسـائل" (6/98)، و"مجموع الفتاوى" (14/14).
[3] "الدرء" (7/390-391).
[4] "العلة الغائيـة" : حين تكـون العلة الفاعلة ذات علم وإرادة وختيـار حكيم فإنها توجد الحـادث لغاية ولا توجـده عبثًـا، وهـذا الباعث النفسي الذي يحـرك لديه الإرادة والقـوى اللازمة لإيجـاد الحـادث يسـمى "العلة الغائيـة". انظر "ضـوابط المعرفـة" ص (346)، و"التعريفات" ص (190).
[5] العلة الفاعليـة: كل حـادث لم يكن ثم كـان لابد له من علة فاعلة موجـدة لهـذا الحـادث وتسـمى "العلة الفاعليـة"، انظر "المصدر السابق" .
[6] "مجموع الفتاوى" (2/37).

وقد عقد شيخ الإسلام مقارنة بين الاسمين العظيمين "الرب" و"الإله" من ثلاث جهات:

الأولى: من جهة ورودهما في القرآن الكريم.

الثانية: من جهة الأعظم منهما.

الثالثة: من جهة الأنسب في الاستعمال.

أما الأولى: المقارنة بينهما من حيث ورودهما في القرآن الكريم:

"إله": أكثر ما يقع مضافًا، كقوله تعالى: ﭽﯼﭼ[1]ﭽﮇﮈﭼ[2] ﭽ ﯨ ﯩ ﭼ.[3] ـ أومنكورًا موصوفًا بالوحدانية، كقوله تعالى: ﭽﯾﯿﭼ[4] ، وقوله: ﭽﮭﮮﮯﭼ[5] .

وأما "الرب": فلم يقع إلا مضافًا: إما إضافة عامة كقوله تعالى: ﭽ ﭙ ﭚ ﭼ[6] وقوله: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼ[7] وقوله: ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﭼ[8]، وإما إضافة خاصة، كقوله تعالى: ﭽﮉﮊﭼ[9]وقوله: ﭽﭖﭗ ﭘﭼ[10] [11].

الثانية: المقارنة بينهما من حيث الأعظم منهما.

بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن اسم "الله" أعظم من اسم "الرب" ولهذا افتتح أعظم سورة في القرآن وهي سورة الفاتحة بقوله: ﭽﭖﭗﭘﭼ[12] وافتتح به آية الكرسي فقال: ﭽﮥ ﭼ[13] ـ وإنما كان اسمه تعالى "الله" أعظم من اسمه "الرب" لعدة أوجه:

---

[1] سورة البقرة، الآية: (163).

[2] سورة الناس، الآية: (3).

[3] سورة البقرة، الآية: (133).

[4] سورة البقرة، الآية: (163).

[5] سورة الزخرف، الآية: (84).

[6] سورة الفاتحة، الآية: (2).

[7] سورة الشعراء، الآية: (24).

[8] سورة الشعراء، الآية: (26).

[9] سورة الناس، الآية: (1).

[10] سورة الأعراف، الآية: (122).

[11] انظر "المستدرك على مجموع الفتاوى" (1/43-44).

[12] سورة الفاتحة، الآية: (1).

[13] سورة البقرة، الآية: (255).

1- أن اسم "الله" فيـه التصـريح بالإلهيـة، والمشـركون إنما وقع منهم الشرك في الإلهية.

2- أن اسمه تعالى "الله" يتناول معـاني سـائر الأسـماء بطريق التضمن.

قال –رحمه الله-: "فقوله: ﭽﮞ ﮟ ﮠ ﭼ[1] و ﭽ   ﭼ[2] أمر بتسبيح ربه، ليس أمرًا بصيغة معينة، فإذا قـال: "سـبحان الله وبحمده"، "سبحانك اللهم وبحمدك"، فقـد سـبح ربـه الأعلى والعظيم، فـــإن الله هـــو الأعلى وهـــو العظيم، واسـمه "الله" يتنـاول معـاني سـائر الأسـماء بطريـق التضمن، وإن كان التصريح بالعلوّ والعظمة ليس هو فيـه، ففي اسمه "الله" التصريح بالإلهية، واسـمه "الله" أعظم من اسمه "الرب" "[3].

وقـال: "وهنـا (أي: آيـة الكرسي) افتتحهـا بقولـه: "الله"، وهـو أعظم من قولـه "وربـك" (أي: في سـورة العلق) ولهذا افتتح به أعظم سـورة في القـرآن، فقـال: "الحمـد لله رب العـــالمين"، وقـــال: "الله لا إله إلا هـــو الحي القيوم..." ، إذ كان المشركون قد اتخذوا إلهًـا غـيره، وإن قـالوا بأنـه الخـالق، ففي قولـه: "خلق" (أي: في سـورة العلق) لم يذكر نفي خالق آخر، إذ كان ذلـك معلومًـا فلم يثبت أحد من الناس خالقًـا آخـر مطلقًـا خلـق كـل شـيء وخلق الإنسان وغيره، بخلاف الإلهية."[4]

3- "كونه –سبحانه- إلهًا معبـودًا للخلـق أكمـل من جهـة كونه ربًّا معينًا لهم من جهتهم ومن جهته.

أما من جهتهم: فإن من لم يعبده منهم فلم يؤمن بـه ولم يطع رسله يكون شقيًّا معـذبًا، وإن كـان مربوبًـا مخلوقًـا، وإنما سعادتهم إذا عبدوه فآمنوا به وأطاعوه رسله.

---

[1] سورة الأعلى، الآية: (1).

[2] سورة الواقعة، الآية: (74).

[3] "مجموع الفتاوى" (16/117).

[4] "المصدر السابق" (16/370-371).

وأما من جهته: فإنه يكون إلهًا يفتقرون إلى ذاتـه، ويكـون ربًّا يفتقرون إلى ما منـه وكـون الشـيء مقصـودًا لنفسـه أشرف من كون مقصودًا لغيره."[1]

الجهة الثالثة: المقارنة بينهما من جهـة الأنسـب في الاستعمال:

اسمه تعالى "الله" له وقت ومحـل هـو الأنسـب فيـه من اسم "الرب".

واسم "الرب" له وقت ومحل هو الأنسـب فيـه من اسـم "الله" ، فـإذا قصـد العبـد العبـادة والثنـاء فالمناسـب هـو استعمال اسم "الله" ، وإذا قصد السؤال فالمناسـب هـو اسم "الرب".

ولهـذا لمـا كـانت العبـادة متعلقـة باسـمه "الله" تعـالى، جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم، مثل كلمـات الأذان، ومثل التشهد، ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبـير ، وأمـا السـؤال فكثـيرًا مـا يجيء باسـم الـرب، كقـول آدم وحواء: ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭼ[2]، وقول نوح: ﭽﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭼ[3] وقول موسى: ﭽﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﭼ[4] ، وقول الخليل: ﭽﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﭼ[5] ، وقول الذين قالوا: ﭽﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﭼ[6]. ففي السؤال المناسب أن يسأله باسم "الرب".

قال –رحمـه الله-: "ولهـذا كـانت العبـادة متعلقـة باسـمه "الله"، والسـؤال متعلقًـا باسـمه "الـرب"، ولمـا كـانت العبـادة متعلقـة باسـمه "الله" –تعـالى- جـاءت الأذكـار المشروعة بهذا الاسم، مثل كلمات الأذان: الله أكبر، الله أكـبر، ومثـل الشـهادتين: أشـهد ألا إله إلا الله، أشـهد أن محمدًا رسـول الله، ومثـل التشـهد: التحيـات للـه، ومثـل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير: سبحان الله، والحمـد

---

[1] "جامع المسائل" (6/119).
[2] سورة الأعراف، الآية: (23).
[3] سورة هود، الآية: (47).
[4] سورة القصص، الآية: (16).
[5] سورة إبراهيم، الآية: (37).
[6] سورة البقرة، الآية: (201).

لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وأما السؤال فكثيرًا ما يجيء باسم الرب... (وذكر الآيات السابقة) ومثل هذا كثير. فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه "الرب"، وإن سأله باسمه "الله" لتضمنه اسم "الرب" كان حسنًا، وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك، إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله، وإذا قصد الدعاء دعاه باسم "الرب""[1].

ثم إنه –رحمه **الله**- بعد أن قرَّر المناسب في الاستعمال لكل حال من الاسمين عقد مقارنة بين قول يونس (ﭽﮕﮖ ﮗﮘﮙﮚﮛﮜﭼ[2] وقول آدم ﭽﭑﭒﭓﭼ[3] .

قال: "فإن يونس –عليه السلام- ذهب مغاضبًا وقال –تعالى-: ﭽﭺﭻﭼﭽﭾ ﭿﭼ[4] وقال –تعالى-: ﭽﮓﮔﮕﮖﭼ[5] ففعل ما يلام عليه فكان المناسب لحاله أن يبدأ بالثناء على ربه والاعتراف بأنه لا **إله** إلا هو، فهو الذي يستحق أن يعبد دون غيره فلا يطاع الهوى، فإن اتباع الهوى يضعف عبادة **الله** وحده...وأما آدم –عليه السلام- فإنه اعترف أولاً بذنبه فقال: ﭽﭑﭒﭼ[6]، ولم يكن عند آدم من ينازعه الإرادة لما أمر الله به مما يزاحم الإلهية، بل ظن صدق الشيطان الذي ﭽ   ﭼ[7] فالشيطان غرهما وأظهر نصحهما فكانا في قبول غروره وما أظهر من نصحه حالهما مناسبًا لقولهما: (ربنا ظلمنا أنفسنا)، لما حصل من التفريط، لا لأجل هوى وحظ يزاحم الإلهية، وكانا محتاجين إلى أن يربهما ربوبية تكمل علمهما وقصدهما؛ حتى لا يغترَّا لمثل ذلك، فهما يشهدان حاجتهما إلى الله ربهما الذي لا يقضي حاجتهما غيره، وذو النون شهد ما

---

[1] "مجموع الفتاوى" (10/284-285).
[2] سورة الأنبياء، الآية: (87).
[3] سورة الأعراف، الآية: (23).
[4] سورة القلم، الآية: (48).
[5] سورة الصافات، الآية: (142).
[6] سورة الأعراف، الآية: (23).
[7] سورة الأعراف، الآية: (21-22).

حصل من التقصير في حق الإلهية بما حصل من المغاضبة وكراهة إنجاء أولئك، ففي ذلك من المعارضة في الفعل لحب شيء آخر ما يوجب تجريد محبته لله وتألهه له وأن يقول: "لا إله إلا أنت" فإن قول العبد: لا إله إلا أنت، يمحو أن يتخذ إلهه هواه."[1]

والخلاصة:

- أن هناك علاقة بين الاسمين العظيمين "الله" و"الرب"، فإذا أُفرِد أحدهما تضمن الآخر، وإذا اجتمعا صار لكل واحد منهما معناه المختص به.
- كما أن هناك علاقة بين "الإله" و"الرب" فهناك علاقة أيضًا بين "الألوهية" و"الربوبية" ، فالألوهية إذا ذكرت وحدها دخل فيها الربوبية، فالألوهية تتضمن الربوبية وتستلزم الربوبية أيضًا، والربوبية تستلزم الألوهية وهي سبب لتوحيد الألوهية ودليل عليه.
- أن أكثر ما يقع اسم "الإله" مضافًا، أو منكورًا موصوفًا بالوحدانية.
- أن اسم "الرب" لم يقع إلا مضافًا، إما إضافة عامةً وإما إضافةً خاصةً.
- أن اسم "الله" أعظم من اسم "الرب".

---

[1] "مجموع الفتاوى"، (287-10/286).

المطلب الثالث
حكم إضافة كلمة "ربّ" إلى المخلوق .

جـاء في "الصـحيحين" عن أبي هريـرة –رضـي الله عنـه- قال: قال رسول الله –صـلى الله عليـه وسـلم-: "لا يقـل أحدكم: أطعمْ ربَّك، وضِّئ ربَّك، وليقـل: سـيدي ومـولاي، ولا يقـل أحـدكم: عبـدي، أمـتى، وليقـل: فتـاي وفتـاتي وغلامي". [1]

وسبب النهي عن ذلـك هـو: تحقيـق التوحيـد وسـد ذرائـع الشـرك، حـتى في الألفـاظ وهـذا من أحسـن مقاصـد الشـريعة؛ لمـا فيـه من تعظيم الـرب تعـالى، وبعـده عن مشابهة المخلوقين.[2]

قـال ابن حجـر –رحمـه الله-: " والسـبب في النهي: أن حقيقة الربوبية لله –تعالى-؛ لأن الرب هو المالك والقـائم بالشيء فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى".[3]

وأهل العلم –رحمهم الله- اختلفـوا في حكم إطلاق كلمـة "رب" على المخلوق على أقوال:

القول الأول:

أنه يمنع من إضافة هذه الكلمة إلى المكلفين بخلاف غير المكلفين، فيجوز، كقول: رب الدار، ورب الثوب.

القول الثاني:

لا يجوز أن يقال لأحد غير الله "رب".

القول الثالث**:**

أن الذي يختص بالله –تعـالى- إطلاق "الـرب" بلا إضـافة، أما مع الإضافة فيجوز إطلاقه كما في قولـه –تعـالى- عن يوسف –عليه الصلاة والسلام-: ﭽﯙﯚﯛﭼ[4]

---

[1] أخرجه البخـاري في "صـحيحه" ح: (2552)، ومسـلم في "صحيحه" ح: (5877).

[2] انظر "الـدرء" (9/342)، و"فتح المجيـد" (2/755-756). و"فتح الباري" (5/213).

[3] "فتح الباري" (5/212).

[4] سورة يوسف، الآية: (42).

وقوله: ﭼﮋﮌﮍﭼ[1].

القول الرابع:

أن النهي للتنزيه، وما ورد من ذلك فلبيان الجواز.

القول الخامس:

النهي عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة، وليس المراد النهي عن ذكرها في الجملة. [2]

واختار شيخ الإسلام القول الأول: أنه يمنع من إضافة "الرب" إلى المكلفين ، لقوله –صلى الله عليه وسلم-: "لا يقل أحدكم أطعمْ ربَّك، وضِّئ ربَّك".[3]

وإنما يضاف إلى غير المكلف كما قال –صلى الله عليه وسلم- لمالك بن عوف الجشمي: "أربّ إبل أنت أو رب غنم؟"[4]، وقوله –صلى الله عليه وسلم-: "إذا اختلف البيّعان فالقول ما قال رب السلعة".[5] [6]

وأجاب عن الآيتين اللتين فيهما تسمية يوسف للسيد "ربّا" :

أن هذا جائز في شرعه كما جاز في شرعه أن يسجد له أبواه وإخوته، وكما جاز في شرعه أن يؤخذ السارق عبدًا، وهو منسوخ في شرعنا.[7]

وقد بيَّن –رحمه الله- أنه لا يجوز أن يوصف بالربوبية مطلقًا إلا الله وحده، وأنه إنما يجوز إضافة الرب لغير

---

[1] سورة يوسف، الآية: (50).

[2] انظر هذه الأقوال: "فتح الباري" (5/213)، و"عمدة القاري" (13/168)، و"المنهاج شرح صحيح مسلم" (15/9).

[3] سبق تخريجه ص (44).

[4] أخرجه أحمد في مسنده ح(17160)، والطبراني في "المعجم الكبير" (19/282)، قال الهيثمي: "رواه الطبراني بإسنادين، ورجال الرواية الأولى -أي التي هنا- ثقات". "مجمع الزوائد" (10/401).

[5] أخرجه أبو داود في "سننه"، ح (3511)، وصححه الألباني انظر "صحيح سنن أبي داود" (2/375).

[6] انظر "درء التعارض" (9/341-342)، و"بغية المرتاد" ص: (377- 378).

[7] انظر "مجموع الفتاوى" (15/18).

المكلفين؛ لأنه" ليس في هذه الإضافة ما يقتضي عبادة هذه الأمور لغير الله، فإن هذا لا يمكن فيها، فإن الله فطرها على أمر لا يتغير بخلاف المكلفين، فإنهم يمكن أن يعبدوا غير الله، كما عبد المشركون به من الجن والإنس وغيره."[1]

وتناول شيخ الإسلام –رحمه الله- لهذه المسألة يدل على سعة علمه، وعمق فهمه، فإنه عند حديثه عن إثبات الصانع ووحدانيته والرد على المخالفين قرر: أنه ليس في المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شيء أصلاً، فلا واحد يفعل وحده إلا الله –سبحانه-.

وضرب لذلك عدة أمثلة:

- الشمس يصدر عنها الشعاع، والشعاع لا يحصل إلا مع وجود جسم قابل له ينعكس عليه الشعاع، فصار لوجوده سببان: الشمس، والجسم القابل له، ثم له مانع، وهو الحجب التي تحول بين الشمس وبين ما يقبل الشعاع.
- والنور الخارج من السراج ونحوه من النيران، لا يحصل إلا بالنار، وبجسم يقبل انعكاس الشعاع عليه، وارتفاع الحجب الحائلة بينهما.
- والفاعل المختار كالإنسان حركته الحاصلة باختياره لا تحصل إلا بقوة من أعضائه يحتاج إليها، وهو محتاج في فعله إلى أسباب خارجة عن قدرته, وقد يحصل في بدنه من العوائق ما يعوقه عن الحركة.
- والشبع والريّ حصل بسبب أكله وشربه الذي هو فعله، وبسبب ما في الطعام والشراب من قوة التغذية، وما في بدنه من قوة القبول لذلك، والله خالق هذا كله.

وهذا يبين:

أنه ليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول أصلاً.

ومن الأمثلة على ذلك :

---

[1] "درء التعارض" (9/342).

_ أن القلب الـذي هـو مـلِك البـدن، وإن كـان منـه تصـدر الإرادات المحرّكـــة للأعضـــاء فلا يســـتقل بتحريـــك إلا بمشاركة الأعضاء وقواها.

- وولاة الأمـور المـدبِّرون للمـدائن والجيـوش لا يسـتقل أحدهم بمفعول، إن لم يكن له من يعينه عليه.

وهذا كله يبين :

عجز كل مخلوق عن الاستقلال بمفعول ما .[1]

ونتيجة ذلك :

أن لا يكـــون شـــيء من المخلوقـــات ربًّا لشـــيء من المخلوقات ربوبية مطلقة أصلاً .

والسبب أن رب الشيء من يَرُبُّه مطلقًا من جميع جهاته، وليس هذا إلا لله رب العالمين.

وترتب على ذلك من الأحكام **:**

أنه منع في شريعتنا من إضافة "الرب" إلى المكلفين .[2]

"وإذا عـرف أنـه ليس في المخلوقـات مـا هـو مسـتقل بمفعـول ولا معلـول، فليس في المخلوقـات مـا هو رب لغيره أصلاً، بل فعل كل مخلوق له فيه شريك، وقد يكون لـه مـانع، وهـذا ممـا يـدل على إثبـات الصـانع[3] –تعـالى- ووحدانيته "[4] .

---

[1] سـيأتي لـذلك مزيد شـرح وبيـان عند الحـديث عن أحكـام الربوبية.

[2] انظر "درء التعارض" (9/339-342).

[3] الصانع ليس اسماً لله تعالى ، وإنمـا يطلـق على اللـه من بـاب الاخبار .

[4] "المصدر السابق" (9/342).

المطلب الأول: معنى الربوبية .

هذا المطلب له تعلّق بمطلبين:
الأول: تعريف الرب، وقد سبق.
والثاني: معنى توحيد الربوبية، وسيأتي.

ووجه تعلقه بالأول:
أن الربوبية من اسمه –تعالى- " الرب" ، ولهذا قال الأزهري[1]: -رحمه الله-: "الرب هو الله –تبارك وتعالى-، هو رب كل شيء، أي مالكه، وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له".[2]

وقد صرّح شيخ الإسلام –رحمه الله- بذلك فقال: "لأن الرب –سبحانه وتعالى- هو المالك، وفيه أيضًا معنى الربوبية والإصلاح، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء".[3]

وقد ذكر –رحمه الله- عددًا من معاني الربوبية من ذلك:
- أنه رقيب على خلقه.
- مهيمن عليهم.
- مطلع إليهم.

قال: "وهو –سبحانه- فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع إليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته".[4]

ومن معنى الربوبية أيضًا:
أنه المستعان الذي يستعان به على المطلوب.

---

[1] العلامة، أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي اللغوي الشافعي، كان رأسًا في اللغة والفقه،ثقة، ثبتًا ديّنًا، مات سنة (370) عن ثمانٍ وثمانين سنة. انظر "سير أعلام النبلاء" (16/315-317).
[2] "تهذيب اللغة" (15/176) وانظر: "لسان العرب" (6/69).
[3] "مجموع الفتاوى" (1/89).
[4] "المصدر السابق" (3/142).

قال: "وهذا معنى قوله: ﭢﭣﭤﭥﭦ[1] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجـوه، والمسـتعان هو الـذي يسـتعان به على المطلـوب فـالأول من معـنى الألوهية، والثـاني من معـنى الربوبيـة، إذ الإلـه: هو الـذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكرامًا، والـرب: هو الـذي يـربي عبـده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها".[2]

وفي هذا المقام ربط –رحمه الله- معـنى الربوبية باسـمه تعــالى "الـــرب" ، مما يؤكد ما ذكرته من ارتبــاط هــذا المطلب بالمطلب السابق المتعلق بتعريف "الرب".

ومن معـاني الربوبية ما ذكـره –رحمه اللـه- بقوله:

"لا ريب أن الله رب العـالمين، رب السـموات والأرضـين وما بينهما ورب العرش العظيم، رب المشـرق والمغـرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً، ربكم ورب آبـائكم الأولين، رب الناس ملك الناس إله الناس، وهو خـالق كل شـيء، وهو على كل شـيء وكيـل، خلق الـزوجين الـذكر والأنـثى من نطفة إذا تمــنى، وهو رب كل شــيء ومليكــه، وهو مالك الملك، يؤتي الملك من يشـاء، ويـنزع الملك ممن يشـاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شــيء قــدير، له ما في الســموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، الرحمن على العـرش اسـتوى، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ﭽﭾﭿﮀﮁﮂ ﮃﮄﮅﮆ ﮇ ﮈﮉﮊﮋ ﮌﮍ[3] ، قلوب العباد ونواصيهم بيده، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الــرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، وهو الذي أضـحك وأبكى، وأغـنى وأقـنى، وهو الـذي يرسل الريـاح بشرى بين يدي رحمته، وينزل من السماء ماء فيحــيي به

---

[1] سورة الفاتحة،الآية (5).
[2] "مجموع الفتاوى" (1/22).
[3] سورة هود ، الآية (56) .

الأرض بعد موتها، ويبث فيها من كل دابة، وهو الذي خلق السـموات والأرض وجعل الظلمـات والنـور، ثم الـذين كفروا بربهم يعدلون، ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ[1] ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخـرة وله الحكم وإليه ترجعـون، وهو الحي القيوم الذي لا تأخـذه سـنة ولا نـوم، وهو القـائم بالقسط على كل نفس بما كسـبت، الخـالق البـارئ المصـور، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقهـا، وما شـاء الله لا قوة إلا بالله، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ منه إلا إليه . فهذه المعـاني وما أشـبهها من معـاني ربوبيته وملكه وخلقه ورزقه وهدايتـه، ونصره وإحسانه وبره، وتدبيره وصنعه، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شـيء عليم، وعلى كل شـيء قـدير، وأنه سـميع بصـير، لا شـغله سـمع عن سـمع، ولا تغلطه المسـائل، ولا يتـبرم بإلحـاح الملحين، يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصـماء . فهـذا كله حق، وهو محض توحيد الربوبية ".[2]

فهذه المعـاني المتعلقة بالربوبية هي كلها حـق، وينتظمها توحيد الربوبيـة، وهو المطلب الثـاني المتعلق بهـذا المطلب، وسيأتي الكلام عنه.

ومما يزيد هذا المطلب "معنى الربوبية" توضيحًا وتفصيلاً ماسـيأتي في الفصل المتعلق بصـفات الربوبية وخصائصها. والله أعلم.

---

[1] (?) سورة الأنعام ، الآية (125).

[2] (?) "مجموع الفتاوى" (2/398-399).

المطلب الثاني : أنواع الربوبية .

من أصول الشريعة: الجمع بين المتمـاثلين، والتفريق بين المختلفين ، وهذا ظـاهر في منهج شـيخ الإسـلام عمومًـا، وفي هذه المسألة خصوصًا.

فإنه –رحمه اللـــه- بين أن "الربوبيـــة" كـــ "المعيـــة" و"العبودية" من حيث انقسامها إلى عامة وخاصة.

وبين –رحمه الله- أن "الربوبية" تخـالف "الاسـتواء" حيث إن الاستواء لم يأتِ إلاخاصًّا بـالعرش[1]، بخلاف الربوبيـة، فقد وردت خاصة بالعرش ووردت عامة.

أما مماثلة "الربوبية" لـ "المعية، والعبودية" :

فإن "المعية" وردت على قسمين:

الأول: معية عامة، كقوله –تعالى- ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ[2] .

وقوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ[3] .

"وحكم هـذه المعية ومقتضـاها : أنه مطلع عليكم، شـهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: "إنه معهم بعلمه"، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته".[4]

الثاني: معية خاصة، كقوله –تعالى-: ﭽ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﭼ[5]، وقوله –تعالى-: ﭽ ﯿ

---

[1] المقصود بذلك الاستواء المعدى ب"على" والذي يعـني العلو والارتفــاع ، وأما لفظ "اســتوى" فقد ورد في قوله تعــالى "ثم استوى إلى السماء"سورة البقرة الاية(29) ، ولكن هاهنا تعدت ب"إلى" والتي تعني قصد .

[2] سورة الحديد ، الآية (4).

[3] سورة المجادلة ، الآية (7).

[4] "الفتوى الحموية الكبرى"، (ص 521-522).

[5] سورة التوبة ، الآية (40).

ﭽ ﭼ[1]، **وقوله تعالى:** ﭽﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﭼ[2]، وهذه "المعية على ظاهرها، وحكمها في هذا الموطن: النصر والتأييد"[3] .

وكـــذلك "العبوديـــــة" و "الألوهيـــة" على قسمين:

الأول: عبودية عامة، كقوله –تعالى-: ﭽ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﭼ[4]

والعبد يراد به هنا: المعبَّد الذي عبّـده اللـه، فذلّله ودبّـره، وصرَّفه،"[5] وهذا يعم الخلق.

الثاني: عبودية خاصة، كقوله –تعالى-: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭼ[6] وقوله: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭼ[7]، والعبد هنا بمعـنى "العابـد" فيكـون عابـدًا لله لا يعبد إلا إيـاه، فيطيع أمــره وأمر رســله، ويــوالي أوليــاءه المؤمــنين المتقين، ويعادي أعداءه" [8] .

وهم يتفاوتون في ذلك،" فمن كان أعبد علمًا وحالاً، كانت عبوديته أكمل" [9] .

والربوبية كذلك تنقسم إلى قسمين:

الأول: ربوبية عامة.

الثاني: ربوبية خاصة.

وقد جمعت في قوله –تعالى- ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭼ [10] .

فقوله (رب العالمين) هذه ربوبية عامة.

وقوله: (رب موسى وهارون)، هذه ربوبية خاصة.

قـال شـيخ الإسـلام –رحمه اللــه- عند كلامه عن المعيــة: "ونظيرها من بعض الوجوه: الربوبية والعبودية؛ فإنها وإن

(?)[1] سورة النحل، الآية: (128) .

(?)[2] سورة طه، الآية: (46).

(?)[3] "الفتوى الحموية الكبرى" ص (520).

(?)[4] سورة مريم، الآية: (93).

(?)[5] "العبودية" (38).

(?)[6] سورة الإسراء، الآية: (1).

(?)[7] سورة الإنسان، الآية: (6).

(?)[8] "العبودية" (44).

(?)[9] "الفتوى الحموية الكبرى" ص (522).

(?)[10] سورة الأعراف، الآية: (121-122).

اشتركت في أصل الربوبية والتعبيد، فلما قال: ﭽﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝﭼ [1] كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلــق، فــإن من أعطــاه الله من الكمـال أكـثر مما أعطى غـيره؛ فقد ربَّه وربَّاه، وربوبيته وتربيته أكمل من غيره". [2]

وقال -رحمه الله- عند حديثه عن العبودية: "إذا تبين ذلك فمعلــوم أن النــاس يتفاضــلون في هــذا البــاب تفاضــلاً عظيمًا، وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان، وهم ينقســمون فيه إلى عام وخـاص، ولهـذا كـانت ربوبية الـرب لهم فيها عموم وخصوص" [3] .

وقال: "وإنما للمحبـوب الحق من الحق من هـذه الإعانة بقدر ما له من المعية والربوبية والإلهية ، فإن كل واحــدة من هذه الأمور عامة وخاصة" [4] .

هــذا ما يتعلق بمماثله الربوبية للمعية والعبودية من حيث انقسامها إلى عامة وخاصة.

أما ما يتعلق بمخالفة الربوبية للاستواء:

فإن الاستواء صفة من صـفات الله -عز وجــل- ومعناهـا: العلوُّ والارتفاع على العرش كما قال -تعالى-: ﭽﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚﭼ [5] وليس معنى "الاستواء" الاستيلاء فـإن اسـتيلاء الله -سـبحانه وتعـالى- ليس خاصًّـا بـالعرش، بل هو -سـبحانه- مالك لكل شـيء مسـتولٍ عليـه، وتخصـيص الاسـتواء بـالعرش يـدل على بطلان تفســـيره بالاســـتيلاء " وليس هـــذا كتخصيصه بالربوبية في قوله: ﭽﯗ ﯘ ﯙ ﯚﭼ [6] فإنه قد يخص لعظمته، ولكن يجــوز ذلك في ســائر المخلوقــات، فيقــال: رب العرش، ورب كل شيء، وأما الاستواء فمختص بالعرش،

---

[1] سورة الأعراف، الآية: (121-122).

[2] "الفتوى الحموية" ص (521-522).

[3] "العبودية" ص (101).

[4] "مجموع الفتاوى" (2/391).

[5] سورة الأعراف، الآية: (54).

[6] سورة يونس، الآية: (129).

فلا يقـال: اسـتوى على العـرش وعلى كل شـيء، ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين في كل شيء، ولا يوجد في كتـاب ولا سـنة، كما اسـتعمل لفظ "الربوبيـة" في العـرش خاصـة، وفي كل شـيء عامـة، وكـذلك لفظ "الخلـق" ونحـوه من الألفـاظ الـتي تخص وتعم كقوله –تعالى-: ﭽ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﭼ [1] فالاستواء من الألفاظ المختصة بـالعرش لا تضـاف إلى غـيره لا خصوصًـا ولا عمومًا". [2]

وهنا بين –رحمه الله- أن لفظ "الخلق" كلفظ "الربوبيـة" من الألفاظ التي تخص وتعم.

فقوله –تعالى-: ﭽﭻﭼﭽﭾ ﭼ[3] هذا يعمّ جميع المخلوقات .

وقوله –تعالى-: ﭽ ﮀﮁﮂﮃﭼ[4] هذا يخصّ خلق الإنسان .

تمهيد : أقسام التوحيد

---

[1] سورة العلق، الآية: (1-2).

[2] "مجموع الفتاوى" (17/376)، وانظر"(16/396).

[3] سورة العلق، الآية: (1).

[4] سورة العلق، الآية: (2).

أعظم ما أمر الله به هو التوحيد , وأعظم ما نهى عنه الشــرك , والقــرآن كله من أوّله إلى آخــره توحيد . والعلماء – رحمهم الله – تتبعـوا نصـوص القـرآن والسـنة فوجــدوا أن التوحيد فيها على أقســام : توحيد الربوبية , وتوحيد الألوهية , وتوحيد الأسماء والصفات .

وهذه الأقسام الثلاث ذكـرت في سـورة الفاتحة , ففي قوله قوله تعالى : ﭽ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭼ[1], توحيد الربوبية .

وفي قوله تعالى : ﭽ ﭜ ﭝ ﭞ ﭼ[2], توحيد الأسماء والصفات .

وفي قوله تعالى : ﭽ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭼ[3], توحيد الألوهية .

بل ذكرت هذه الأقسام الثلاث في آية واحدة , في قوله تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭼ[4] .

ففي قوله : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕﭼ توحيد الربوبية .

وفي قوله : ﭽ ﭖ ﭗ ﭘﭼ توحيد الألوهية .

وفي قوله : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜﭼ توحيد الأسماء والصفات .

وقد ورد ذكر أقســــــام التوحيد في كلام أهل العلم من المتقـدمين والمتـأخرين كـأبي حنيفة في " الفقه الأبسط "[5], وابن بطة في " الإبانة "[6], وأبي جعفر الطحاوي في " العقيدة الطحاوية "[7], وغيرهم من أهل العلم .

ومن هؤلاء :

---

[1] سورة الفاتحة , الآية (2) .

[2] سورة الفاتحة , الآية (3) .

[3] سورة الفاتحة , الآية (5) .

[4] سورة مريم , الآية (65) .

[5] انظر " الفقه الأبسط " ص (49 – 51) .

[6] انظر " الإبانة " " الكتاب الثالث " (2 / 172 – 173) .

شـيخ الإسـلام – رحمه الله – فإنه فصَّـل في ذكر أقسـام التوحيد , وبيَّن , ووضَّح , وقرَّب . وقد تحـدث عن أقسـام التوحيد في مواضع كثيرة من كتبه , وتعـددت عباراته في ذكر أقسام التوحيد [1] .

وغالب ذلك : أنه يقسم التوحيد إلى قسمين :

التوحيد العلمي القولي .

التوحيد العملي الإرادي .

قـــال – رحمه الله - : " وهـــذا بخلاف ما كـــان من أهل الإثبات المقرِّين بالتوحيد والتنزيه , الذي جاءت به الرسل – عليهم الســـلام - , ونـــزلت به الكتب , التوحيد العلمي القـولي , كالتوحيد الـذي دلت عليه السـورة , الـتي هي صفة الرحمن , وهي تعدل ثلث القرآن , والتوحيد العملي الإرادي , الـذي دلت عليه السـورة الـتي هي بـراءة من الشرك , وهما سورتا الإخلاص "[2] .

فالتوحيد العلمي القولي دلّت عليه سورة الإخلاص , والتوحيد العملي الإرادي دلّت عليه سورة الكافرون , كما أوضح ذلك في موضع آخر فقـال : " وهاتـان السـورتان كان النبي ﷺ يقرأ بهما في صلاة التطـوع , سـنة الفجر[3] , وركعتي الطواف[4] , وهما متضمنتان للتوحيد :

فأمَّا ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭼ فهي متضـمنة للتوحيد العملي الإرادي , وهو إخلاص الـــــدين لله بالقصد والإرادة , وهو

---

[7] انظر " العقيدة الطحاوية " بتعليق الشيخ عبد العزيز بن باز ص (3 – 6) .

[1] للاسـتزادة : انظر " القـول السـديد في الـرد على من أنكر تقسيم التوحيد " .

[2] " بيان تلبيس الجهمية " (1 / 430 – 431) , وانظر (3 / 60) .

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ح (1690) .

[4] أخرجه مسلم في صحيحه ح (2590) .

الذي يتكلم به مشايخ التصوف[1] غالباً . وأما سـورة ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭼ فمتضمنة للتوحيد القولي العلمي "[2] .

وهذا التقسيم ذكره شيخ الإسلام في مواضع كثيرة يزيد في بعضها ، وينقص في الأخرى , ويغـير في العبـارة أحياناً . من ذلك :

أنه قسم التوحيد إلى :

التوحيد في القصد والإرادة والعمل .

1. التوحيد في العلم والقول[3] .

وقسمه أيضاً إلى :

1. توحيد الإرادة والقصد .

---

[1] سموا بذلك نسبة إلى لبس الصـوف , وقيل غـير ذلك . وقد قسـمهم شـيخ الإسـلام إلى ثلاثة أقسـام : صـوفية الحقـائق , وصـوفية الأرزاق وهم الـذين وقفت عليهم الوقـوف , وصـوفية الرسم وهم المقتصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضـعية ونحو ذلك . والشـيوخ الأكـابر الـذين ذكـرهم أبو عبد الـرحمن السـلمي في " طبقـات الصـوفية " , وأبو القاسم القشـيري في " الرسـالة " كالفضـيل بن عيـاض , والجنيد بن محمد , وسـهل التسـتري , وعمـرو بن عثمـان المكي وغـيرهم كانوا على مذهب أهل السـنة والجماعة , ولكن بعض المتـاخرين منهم كـان على طريقة بعض أهل الكلام في بعض فـروع العقائد , ولم يكن فيهم أحد على مـذهب الفلاسـفة , وإنما ظهر التفلسف في المتصـوفة المتـأخرين , فصـارت المتصـوفة تـارة على طريقة صـوفية أهل الحـديث , وهم خيـارهم وأعلامهم , وتارة على اعتقاد صوفية أهل الكلام فهـؤلاء دونهم , وتـارة على اعتقاد صوفية الفلاسفة الذين اختلط تصوفهم بالفلسفة اليونانية , وكانت الأفلاطونية الحديثه هي أحد المصادر الأساسية للتصوف عنـدهم , ومن أشـهر هـؤلاء : السـهروردي , وابن عـربي , وابن سبعين .

انظر " الصفدية " (1 / 267) , و " مجموع الفتاوى " (11 / 16 – 20) , و " التصوف المنشأ والمصدر " ص (121) , و " الموسوعة الميسرة " (1 / 259 – 260) .

[2] " التحفة العراقية " ص (383 – 385) .

[3] انظر " التدمرية " ص (3 , 5) .

2. التوحيد القولي[4] .
وقسمه أيضاً إلى :
1. التوحيد القولي العلمي .
2. التوحيد القصدي العملي[2] .
وقسمه أيضاً إلى :
1. التوحيد القولي .
2. التوحيد العملي[3] .
وقسمه أيضاً إلى :
1. التوحيد في العلم والقول .
2. التوحيد في الإرادة والعمل[4] .
التقسيم الثاني :
أنه - رحمه الله – قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام .
قال : " والكلام في التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع :
أحدها : الكلام في الصفات .
والثاني : توحيد الربوبية , وبيان أن الله خالق كل شيء .
والثالث : توحيد الإلهية , وهو عبادة الله وحده لا شريك له "[5] .
وهذه التقسيمات التي ذكرها – رحمه الله – هي متفقة في المعنى والمضمون , وإنما الاختلاف بينها في العبارات .

---

[4] انظر " التسعينية " (3 / 801 – 802) .
[2] انظر " اقتضاء الصراط المستقيم " (2 / 862) , و " مجموع الفتاوى " (17 / 107 – 108).
[3] انظر " قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة " (182 – 183) , و " مجموع الفتاوى " (10 / 264) , و " جامع الرسائل " (2 / 254) .
[4] انظر " بيان تلبيس الجهمية " (3 / 140 – 141) , و " الصفدية " (2 / 315 – 316) , و " منهاج السنة " (3 / 390) , و " مجموع الفتاوى " (10 / 264) .
[5] " شرح الأصبهانية " ص (107) .

فإن التوحيد العملي الإرادي القصدي هو : توحيد الألوهية , والتوحيد العلمي القولي هو : توحيد الربوبية , وتوحيد الأسماء والصفات .
ولهذا فسَّر – رحمه الله – التوحيد العملي الإرادي بقوله : " فأمّاﭽ ﭒ ﭓ ﭔ ﭼ فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي وهو : إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة ... لكن المقصود هنا هو التوحيد العملي وهو : إخلاص العمل لله "[1] .

وعرَّف التوحيد في العلم والقول , والتوحيد في الإرادة والعمل بقوله : " والتوحيد الذي جاء به الرسول يتناول التوحيد في العلم والقول وهو : وصفه بما يوجب أنه في نفسه أحد صمد , لا يتبعض ويتفرق فيكون شيئين , وهو متصف بصفات تختص به ليس له فيها شبيه ولا كفو , والتوحيد في الإرادة والعمل وهو : عبادته وحده لا شريك له "[2] .

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله : " فإن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها (أي كلمة التوحيد) فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلاً لا نقدر أن نضبطه حتى إن كثيراً منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو : الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربه , ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية , الذي أقر به مشركو العرب , وبين توحيد الإلهية الذي دعاهم إليه رسول الله ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي "[3] .

فجعل التوحيد القولي هو : توحيد الربوبية , والتوحيد العملي هو : توحيد الألوهية .
وقال أيضاً : " وحب الله أصل التوحيد العملي , وهو أصل التأليه , الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له "[4] .

---

[1] " التحفة العراقية " ص (384 , 386) .
[2] " بيان تلبيس الجهمية " (3 / 140 – 141) .
[3] " مجموع الفتاوى " (10 / 264) .
[4] " جامع الرسائل " (2 / 254) .

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله : " وهو يتضمن التوحيد في العلم والقول , والتوحيد في الإرادة والعمل ... فالتوحيد الأول يتضمن : إثبات نعوت الكمال لله بإثبات أسمائه الحسنى وما تتضمن من صفاته , والثاني يتضمن : إخلاص الدين له "[1] .

وقال : " وسورة ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭼ فيها التوحيد القولي العلمي الذي تدل عليه الأسماء والصفات "[2] .

وقال : " بل التوحيد الذي لا بدّ منه لا يكون إلا بتوحيد الإرادة والقصد وهو : توحيد العبادة ... وأما التوحيد القولي الذي هو : الخبر عن الله ففي سورة الإخلاص ... "[3] .

وهنا بيَّن – رحمه الله – مراده بالتوحيد القولي وهو : الخبر عن الله , عن أسمائه وصفاته وأفعاله . وهو ما يعبِّر عنه ابن القيم – رحمه الله – بالتوحيد الخبري قال ابن القيم[4] :" وغالب سور القرآن , بل كل سورة في القرآن , فهي متضمنة لنوعي التوحيد . بل نقول قولاً كلياً : إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد , شاهدة به داعية إليه . فإن القرآن : إما خبر عن الله , وأسمائه وصفاته , وأفعاله , فهو التوحيد العلمي الخبري

---

[1] " منهاج السنة " (3 / 290 – 292) .

[2] " اقتضاء الصراط المستقيم " (2 / 862) .

[3] " التسعينية " (3 / 801 – 802) .

[4] محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي , إمام الجوزية , وابن قيّمها , ولد سنة (691) هـ , سمع الحديث , واشتغل بالعلم , وبرع في علوم متعددة , لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين , ولما عاد شيخ الإسلام ابن تيمية من الديار المصرية سنة (712) لا زمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علماً جما , مع ما سلف له من الاشتغال , فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة , وكان حسن القراءة والخلق , كثير التودد , لا يحسد أحداً ولا يؤذيه , ولا يستعيبه , ولا يحقد على أحد , توفي سنة (751) وكمل له من العمر ستون سنة . انظر " البداية والنهاية " (9 / 491) .

. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له , وخلع كل ما يعبد من دونه , فهو التوحيد الإرادي الطلبي ..."[1] .

بقي الكلام على تقسيم ذكره شيخ الإسلام , وهو تقسيمه التوحيد إلى قسمين :

1. القول العملي .
2. القول الإرادي .

قال : " والتوحيد الذي جاءت به الرسل , ونزلت به الكتب , هو توحيد الإلهية , وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له , وهو متضمن لشيئين : أحدهما : القول العملي , وهو إثبات صفات الكمال له , وتنزيهه عن النقائص , وتنزيهه عن أن يماثله أحد في شيء من صفاته , فلا يوصف بنقص حال , ولا يماثله أحد في شيء من الكمال , كما قال تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭼ[2], فالصمدية تثبت له الكمال , والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك , كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع . والتوحيد العملي الإرادي : أن لا يعبد إلا إياه , فلا يدعوا إلا إياه , ولا يتوكل إلا عليه , ولا يخاف إلا إياه , ولا يرجوا إلا إياه , ويكون الدين كله لله . قال تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭼ[3] , وهذا التوحيد يتضمن : أن الله خالق كل شيء وربه , ومليكه , ولا شريك له في ذلك "[4] .

فتسميته للأول بالقول ظاهر , وهو موافق لما سبق , وكذلك تسميته الثاني بالعملي الإرادي ظاهر , وهو

---

[1] " مدارج السالكين " (3 /443) , وانظر " الصواعق المرسلة " (2 / 401 – 403) , و " اجتماع الجيوش الإسلامية " (49) .

[2] سورة الإخلاص : الآية (1- 4) .

[3] سورة الكافرون : الآية (1- 6) .

[4] " الصفدية " (2 / 228 – 229) .

موافق لما سبق , لكن يبقى الإشكال في تسميته الأول بـ " العملي " والجواب عن ذلك بما يلي :

1. أنه قد يكون خطأ من الناسخ , لا سيما مع تقارب الكلمتين " العملي " و"العلمي " .
2. أنه " عملي " باعتبار عمل القلب .
3. أنه " عملي " باعتبار أنه يدل على التوحيد العملي لزوماً , ولذلك هو – رحمه الله – ذكر علاقة التوحيد العملي الإرادي بالربوبية في نفس السياق فقال : " وهذا التوحيد يتضمن أن الله خالق كل شيء وربه , ومليكه , لا شريك له في ذلك " .

ومما يدل على ذلك : قوله في موضع آخر : " ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ اشتملت على التوحيد العملي نصاً , وهي دالة على العلمي لزوماً , و ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً , وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً "[1] .

ومما يدل على ذلك : أنه في جميع تقسيماته يستعمل : التوحيد العملي الإرادي مقابل القولي العلمي .

هذا ما يتعلق بتقسيمات شيخ الإسلام للتوحيد .

أما استعمالاته – رحمه الله - : فغالباً ما يستعمل في كلامه عن التوحيد الأقسام الثلاثة:

توحيد الربوبية , وتوحيد الأسماء والصفات , وتوحيد الألوهية .

والخلاصة :

- أن غالب تقسيمات التوحيد عند شيخ الإسلام هو : أنه يقسَّم التوحيد إلى قسمين .
- أن غالب استعماله في الكلام عن التوحيد هو : الأقسام الثلاثة : توحيد الربوبية , وتوحيد الألوهية , وتوحيد الأسماء والصفات .

---

[1] " مجموع الفتاوى " (17 / 107 – 108) .

- أن هذه التقسيمات مع تعددها هي متفقة في المعنى والمضمون , وإن اختلفت العبارات .

المطلب الأول : معنى توحيد الربوبية .

بعد أن ذكرت جهود شيخ الإسلام في " تعريف الرب " وجهوده في بيان " معنى الربوبية " صار الكلام عن جهوده في بيان " معنى توحيد الربوبية " واضحاً , فإنه مرتبط بما سبق .

وقد ذكر – رحمه الله – عدة تعاريف لتوحيد الربوبية , أجمعها قوله : " وإقراره بألوهية الله – تعالى – دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته وهو : أنه رب كل شيء ومليكه , وخالقه , ومدبره " [1].

ومن التعاريف التي ذكرها :

---

[1] " العبودية " ص (198) .

قوله : " فأما توحيد الربوبية وهو : الإقرار بأنه خالق كل شيء " [1].

وقال أيضاً : " فتوحيد الربوبية : أنه لا خالق إلا الله , فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور , بل ما شاء كان , وما لم يشأ لم يكن " [2].

وقال : " وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية وهو : اعتقاد أن الله وحده خلق العالم " [3].

وقال " ولكن أهل الكلام [4] الذين ظنوا أن التوحيد هو مجرد توحيد الربوبية وهو : التصديق بأن الله وحده خالق الأشياء " [5].

فهذه التعريفات جميعها فيها ذكر أبرز صفات الربوبية وهي : الخلق , والتعريف الأول فيه إضافة إلى ذلك :

- ربوبيته لكل شيء .
- والملك .
- والتدبير .

---

[1] " مجموع الفتاوى " (11 / 50) .

[2] " المصدر السابق " (10 / 331) .

[3] " درء التعارض " (1 / 225) .

[4] أهل الكلام : هم الذين اشتغلوا بكلام اليونان والآراء المختلفة , وسمّي هؤلاء بأهل الكلام ؛ لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً , وإنما أتوا بزيادة كلام لا يفيد , ويقوم منهجهم على معارضة النص بالمعقول . انظر " شرح العقيدة الطحاوية " ص (207) .

[5] " درء التعارض " (9 / 378) .

المطلب الثـــــــــــاني : أهمية توحيد الربوبية .

الإيمان بالله جلّ وعلا يتضمن الإيمان :

1. بربوبيته .
2. والإيمان بأسمائه وصفاته .
3. والإيمان بألوهيته .

ولا بدَّ من الإيمان بها جميعاً , فلا يصح الإيمان بالربوبية دون الإيمان بالألوهية والأسماء والصفات , ولا يصح الإيمان بالألوهية دون الإيمان بالربوبية والأسماء والصفات , ولا يقبل الإيمان بالأسماء والصفات دون الإيمان بالربوبية والألوهية , و " لو أقرَّ بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزّهه عن كل ما ينزه عنه وأقرَّ بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحداً , بل ولا مؤمناً حتى يشهد أن لا إله إلا الله , فيقر بأن الله وحده هو الإله

المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له " [1].

فهذه الثلاثة يجب الإيمان بها جميعاً , " أما الأول فلا ريب أنه من التوحيد الواجب وهو الإقرار بأن خالق العالم واحد , لكنه هو بعض الواجب , وليس هو الواجب الذي به يخرج الإنسان من الإشراك إلى التوحيد " [2].

فتوحيد الربوبية إذاً " هو من التوحيد الواجب , لكن لا يحصل به الواجب , ولا يخلص بمجرده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر , الذي لا يغفره الله , بل لا بدّ أن يخلص لله الدين , فلا يعبد إلا إياه فيكون دينه لله " [3].

والله سبحانه وتعالى – كما أمر بالإيمان بألوهيته : أمر تعالى – بالإيمان بربوبيته قال تعالى : چ ۀ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ￼ ى چ [4].

" أخبر - سبحانه – أنه قريب من عباده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه , فهذا إخبار عن ربوبيته لهم , وإعطائه سؤلهم , وإجابة دعائهم , فإنهم إذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم ... ثم أمرهم بأمرين فقال : " فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون "

فالأول : أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة والاستعانة .

والثاني : الإيمان بربوبيته وألوهيته , وأنه ربهم وإلههم " [5].

ووحدانيته – تعالى – " واجبة : في كونه رباً خالقاً , وفي كونه إلهاً معبوداً " [6].

---

[1] " درء التعارض " (1 / 226) .
[2] " المصدر السابق " (9 / 378) .
[3] " اقتضاء الصراط المستقيم " (2 / 854 – 855) .
[4] سورة البقرة , الآية (186) .
[5] " مجموع الفتاوى " (14 / 33) .
[6] " شرح الأصبهانية " ص (115) .

وهو سبحانه – لا شريك له , لا في ألوهيته , ولا في ربوبيته [1].

فهذا كله يبين أهمية توحيد الربوبية من وجوه :

1. أن توحيد الربوبية من التوحيد الواجب .
2. أن الله تعالى أمر بالإيمان بربوبيته .
3. أن وحدانيته تعالى واجبة في كونه رباً خالقاً .
4. أنه سبحانه لا شريك له في ربوبيته كما أنه تعالى لا شريك له في ألوهيته .

ومما يبين أيضاً أهمية توحيد الربوبية ما يلي :

5. أن القرآن مملوء من تقرير توحيد الربوبية , وذكر الطرق والأدلة الكثيرة على هذا التوحيد .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله - : " والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد , وبيانه , وضرب الأمثال له , ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية , ويبين أنه لا خالق غير الله , وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلاّ الله , فيجعل الأول دليلاً على الثاني " [2].

وقال : " ... وهذه هي الطريقة الرابعة التي يسمونها " حدوث الصفات " وهذه الطريق وإن كانت صحيحة فطريقة القرآن العزيز أكمل منها , فإنه - سبحانه – يستدل بحدوث الأعيان وذلك أكمل , مع ما في القرآن من الطرق الكثيرة التي يُبيِّن بها ربوبية الرب – تعالى – ومشيئته وقدرته تارة , ورحمته وعنايته وإحسانه وإلهيته وحكمته تارة " [3].

6. أن توحيد الربوبية سبب ودليل ولازم لتوحيد الألوهية , ولهذا كثيراً ما يحتج الله على المشركين بإقرارهم بالربوبية على وجوب إفراده بالألوهية , فإنه – سبحانه – بيَّن لهم " أنه إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله , وهو الذي يأتي العباد بما ينفعهم , ويدفع

---

[1] انظر " جواب الاعتراضات المصرية " ص (116) .

[2] " شرح الأصبهانية " ص (132) .

[3] " المصدر السابق " ص (304) وانظر " درء التعارض " (1 / 93) .

عنهم ما يضرهم , لا شريك له في ذلك فلماذا تعبدون غيره ؟ وتجعلون معه آلهة أخرى ؟ كقوله تعالى : ﭽ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﭼ إلى قوله ﭽ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﭼ [1]
يقول تعالى : أإله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام الإنكار يتضمن نفي ذلك , وهم كانوا مقرِّين بأنه لم يفعل ذلك غير الله , فاحتجَّ بذلك عليهم " [2]
ويوضحه .

7. أن توحيد الربوبية تتبين أهميته من جهة معرفة لوازمه التي منها : ما سبق في الوجه السادس , ومنها العلم بقدمه تعالى , وإرسال الرسل وإنزال الكتب , وفعله – تعالى – بمشيئته وقدرته , ومباينته للعالم [3].
8. حاجة العباد إلى ربهم من جهة ربوبيته كما أنهم محتاجون إليه من جهة ألوهيته , فما لا يكون به – تعالى – لا يكون , وما لا يكون له لا يصلح و لا ينفع ولا يدوم , فالعبد محتاج إلى أن يعبد الله لا يعبد غيره , وهو محتاج إلى أن يستعين بالله لا يستعين بغيره كما قال تعالى ﭽ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭼ [4] .

فالعبادة متعلقة بألوهيته والاستعانة متعلقة بربوبيته [5].

---

[1] " سورة النمل " الآية (59 – 61) .
[2] " شرح الأصبهانية " ص (132) .
[3] " سيأتي تفصيل ذلك في الفصل المتعلق بـ : جهود شيخ الإسلام في تقرير لوازم الربوبية " .
[4] " سورة الفاتحة " آية رقم (5) .
[5] انظر " شرح حديث النزول " ص (383 – 384) , و" جامع المسائل " (4 / 285) , و " مجموع الفتاوى " (1 / 74) , و " منهاج السنة " (5 / 393 – 394) .

قال شيخ الإسلام : " والقلب فقير إلى الله من وجهين : من جهة العبادة , وهي العلة الغائية , ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة . فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يُسر ولا يطيب ولا يسكن , ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه , ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن , إذ فيه فقرٌ ذاتي إلى ربه , من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه , وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة . وهذا لا يحصل إلا بإعانه الله له , فإنه لا يقدر على

تحصيل ذلك إلا الله , فهو دائماً مفتقرٌ إلى حقيقة ﭽﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭼ[1] "[2] .

فحاجة العباد واضطرارهم إلى ربهم من جهة ربوبيته تدل على أهمية توحيد الربوبية .

9. ومما يدل على أهمية توحيد الربوبية : حاجة الخلق لدلائل الربوبية , ولهذا يسّرها الله وسهلها , فجاءت متنوعة متعددة , فالفطرة , والآيات , والعناية , والنبوة , والعقل كلها تدل على ربوبيته تعالى .

وما اشتدت إليه الحاجة في الدين والدنيا فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً , فإنه لما كانت حاجتهم إلى النَّفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبذولاً لكل أحد في كل وقت ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر .

وكذلك دلائل الربوبية لما كانت حاجة الخلق إليها في دينهم أشدّ الحاجات كانت أظهر وأكثر رحمةً من الله بخلقه[3] .

---

[1] سورة الفاتحة الآية (5) .

[2] " العبودية " ص (131 – 132) .

[3] انظر " الجواب الصحيح " (5 / 435 – 436) (5 / 141) , وشرح " الأصبهانية " ص (133) .

10. ويتبين أيضاً أهمية توحيد الربوبية من جهة معرفة خصائص الربوبية وصفاتها من : الخلق , والملك , والتدبير , والغنى , والإحياء والإماته , والنفع والضر , والخفض والرفع , والتعالي والعظمة والكبرياء , والحياة والقيومية , وأنه - تعالى – على كل شيء قدير , وأنه بكل شيء عليم [1] . ومعرفة هذه الصفات يبين أهمية توحيد الربوبية أيضاً .
11. من جهة آثار الربوبية , وما يترتب على معرفة صفات الربوبية وإفراد الله بذلك من : تجريد التوحيد في القلب , والاستراحة من عبودية الخلق , والإيمان بالقضاء والقدر , ومحبة الله تعالى , وتعظيمه , وغير ذلك [2].
12. أن تحقيق توحيد الربوبية مع توحيد الألوهية سبب لإتيان الفرج بعد الشدة . قال شيخ الإسلام : " وأما قول السائل : ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق ؟ وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله ؟

فيقال : سبب هذا تحقيق التوحيد : توحيد الربوبية , وتوحيد الإلهية ... فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم إلى توحيده , فيدعونه مخلصين له الدين , ويرجونه ما لا يرجون أحداً سواه , وتتعلق قلوبهم به لا بغيره , فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه , وحلاوة الإيمان وذوق طعمه , والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف , أو الجدب , أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة , فإن ذلك لذات بدنية , ونعم

---

[1] سيأتي تفصيل ذلك في الفصل المتعلق بـ : جهود شيخ الإسلام في تقرير صفات الربوبية وخصائصها .

[2] سيأتي تفصيل ذلك في المبحث المتعلق بـ : جهود شيخ الإسلام في تقرير آثار الربوبية .

دنيوية , قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن " [1].

13. أن من لم يحقق توحيد الربوبية فقد قصَّر وتنقَّص موجب ربوبيته – تعالى – ولهذا فإن جمهور القدرية [2] لما أخرجوا مشيئة العبد وفعله عن مشيئة الله وخلقه " أرادوا إثبات إلهيته , وأنه معبود محمود حكيم عادل فقصَّروا في ذلك ونقصوه موجب ربوبيته وقدرته ومشيئته " [3].

وهذا يبين أهمية توحيد الربوبية من جهة الحذر من الوقوع في قوادح الربوبية ولهذا اعتنى شيخ الإسلام – رحمه الله – في ردّ قوادح الربوبية اعتناءً كبيراً , فردّ القول بقدم العالم , والقول بالحلول والاتحاد , وغير ذلك من قوادح الربوبية [4] , وما ذاك إلا لأهمية تحقيق توحيد الربوبية .

وهـــذا البحث بكامله يـــبين أهمية توحيد الربوبية , ومن أسـباب اختيـاره : إبـراز أهمية هـذا التوحيد , فإنه وإن لم يكن المقصود بذاته في دعـوة الأنبيـاء والمرسـلين إلا أن له أهمية عظمى من جهات أخرى , كان لشيخ الإســلام – رحمه الله – جهوداً عظيمة في إبرازها .

---

[1] " مجموع الفتاوى " (10 / 331 – 333) .

[2] جمهور القدرية : هم الذين يثبتون مرتبة العلم والكتابة وينكرون المشيئة والخلق , ويقولون : إن الإنسان مستقل بعمله , وليس لله فيه مشيئة ولا خلق , وهؤلاء هم مجوس هذه الأمة ؛ لأنهم يقولون : إن الحوادث نوعان : حوادث من فعل الله فهذه خلق الله , وحوادث من فعل العباد فهذه للعباد استقلالاً , وليس لله فيها خلق . انظر " الإيمان " ص (302) , و " الفرق بين الفرق " ص (113) , و " شرح الواسطية " لابن عثيمين (2 / 221 – 222) .

[3] " درء التعارض " (8 / 23) .

[4] سيأتي تفصيل " قوادح الربوبية " في بابين مستقلين .

المطلب الثالث : العلاقة بين توحيد الربوبية والأسماء والصفات

قرر شيخ الإسلام – رحمه الله – العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من ثلاث جهات :

أولاً : من جهة الإثبات :

وقرَّر ذلك من خمسة أوجه :

1. أنه لولا ثبوت الصفات لم يكن ربّاً خالقاً .
2. أن اسمه تعالى " الحي القيوم " يستلزم سائر صفات الكمال .
3. أن إثبات كمال علم الله وقدرته يستلزم إثبات سائر صفاته العلى .
4. أن غناه – تعالى – عن الغير يستلزم إثبات سائر صفات الكمال .
5. أن الربوبية تستلزم العلم بقدمه – تعالى - , وفعله – تعالى – بمشيئته وقدرته , وتستلزم مباينته للعالم .

ثانياً : من جهة النفي :

وقرّر ذلك من ثلاثة أوجه :

1. أن نفي الصفات مستلزم ومتضمن لنفي الذات .
2. ما كان منفي الصفات لم يكن إلا معدوماً .
3. أن من أسباب الانحراف في الربوبية نفي الصفات .

ثالثاً : من جهة أصل وحقيقة مقالة نفاة الصفات :

وقرَّر ذلك من وجهين :

1. أن قول نفاة الصفات مأخوذ من المنحرفين في الربوبية .
2. أن حقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه .

وإليك بيان ذلك من خلال كلامه – رحمه الله - :

أولاً : من جهة الإثبات :

1. أنه لولا ثبوت الصفات لم يكن ربَّاً خالقاً .

قال : " فإنه لولا ثبوت هذه الصفات , التي هي العلم والقدرة والكلام ونحوها لم يكن رباً خالقاً , بل لولا ثبوت أصل الصفات لم يكن موجوداً أصلاً "[1] .

وقال : " وإذا تدبّر العاقل الفاضل تبيَّن له إثبات الصانع وإحداثه للمحدثات لا يمكن إلا بإثبات صفاته وأفعاله "[2] .

2. أن اسمه – تعالى – " الحي القيوم " يستلزم سائر صفات الكمال .

قال : " فقد تبين أن الوجود الواجب القديم وما يستلزم ذلك من صفات الكمال ودوام ذلك وبقائه , كل ذلك يدخل في اسمه " القيوم " , واقترانه بـ " الحي " يستلزم سائر صفات الكمال , فجميع صفات الكمال يدل عليها اسم " الحي القيوم " ويدل أيضاً على ابقائها ودوامها وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً "[3] .

وقال : " فالاسم " الحي " مستلزم لصفاته وأفعاله"[4] .

وإذا كان اسمه – تعالى – " الحي القيوم " وهو متعلق بالربوبية يستلزم سائر صفات الكمال فتوحيد الربوبية

---

[1] " جواب الاعتراضات المصرية " ص (137) .
[2] " درء التعارض " (1 / 375) .
[3] " جامع المسائل " (1 / 59) .
[4] " جامع الرسائل " (2 / 383) .

من باب أولى وأحرى أن يكون مستلزماً لإثبات سائر صفات الكمال لله – تعالى - .

3. أن إثبات كمال علم الله وقدرته يستلزم إثبات سائر صفاته العلى .

قال : " إن إثبات كمال علم الله وقدرته يستلزم إثبات سائر صفاته العلى "[1] .

وإذا كانت صفة العلم والقدرة , وهما من صفات الربوبية تستلزم إثبات سائر صفاته – تعالى – فتوحيد الربوبية من باب أولى وأحرى .

4. أن غناه – تعالى – عن الغير يستلزم إثبات سائر صفات الكمال .

قال : " ونزّه نفسه عما وصفوه به من الفقر والبخل والإعياء , فالإعياء من جنس العجز المنافي لكمال القدرة , والفقر من جنس الحاجة إلى الغير المنافي لكمال الغنى , والبخل من جنس منع الخير وكراهة العطاء المنافي لكمال الرحمة والإحسان , وكمال القدرة والرحمة . والغنى عن الغير مستلزم سائر صفات الكمال "[2] .

وإذا كانت صفة " الغنى " وحدها وهي من صفات الربوبية مستلزمه لسائر صفات الكمال , فتوحيد الربوبية من باب أولى وأحرى أن يكون مستلزماً لإثبات سائر صفات الكمال لله – تعالى - .

5. أن الربوبية تستلزم العلم بقدمه – تعالى - , وفعله – تعالى – بمشيئته وقدرته , وتستلزم مباينته للعالم .

وإثبات أفعال الله – تعالى - , ومباينته للعالم وعلوه , ووصفه بالأولية كل ذلك من صفاته – تعالى – وقد عُقد لبيان ذلك فصل مستقل بعنوان " جهود شيخ الإسلام في تقرير لوازم الربوبية " .

---

[1] " مجموع الفتاوى " (14 / 132) .

[2] " درء التعارض " (7 / 87) .

ثانياً : من جهة النفي :

1. أن نفي الصفات مستلزم ومتضمن لنفي الذات .

قال : " وكان نفي الصفات يستلزم نفي الذات , وأن لا يكون موجودان أحدهما واجب قديم خالق , والآخر ممكن أو محدَث أو مخلوق , وهكذا التزمه طائفة من محققيهم , وهم القائلون بوحدة الوجود[1] "[2] .

وقال : " فإن جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته "[3] .

وقال : " فإن نفاة الصفات كلهم ينفون الجسم والجوهر والمتحيز ونحو ذلك[4] , ويدخلون في نفي ذلك نفي صفات الله , وحقائق أسمائه , ومباينته لمخلوقاته , بل إذا حقق الأمر عليهم وجد نفيهم متضمناً لحقيقة نفي ذاته , إذ يعود الأمر إلى وجود مطلق لا حقيقة له إلاّ في الذهن والخيال , أو ذات مجردة لا توجد إلا في الذهن والخيال , أو إلى الجمع بين المتناقضين , بإثبات صفات ونفي لوازمها "[5] .

---

[1] وحدة الوجود : هو القول بأن الوجود واحد , فالوجود الواجب للخالق هو الوجود الممكن للمخلوق , كما يقول ذلك ابن عربي , وصاحبه القونوي , وابن سبعين , وابن الفارض , والتلمساني , وغيرهم , وأصل ضلالهم : أنهم لم يعرفوا مباينة الله لمخلوقاته وعلوه عليها , وعلموا أنه موجود , فظنوا أن وجوده لا يخرج عن وجودها . انظر " مجموع الفتاوى " (2 / 294 , 297) .

[2] " النبوات " (1 / 458) .

[3] " مجموع الفتاوى " (12 / 351) .

[4] هذه من الألفاظ المجملة التي يتوقف في لفظها فلا يثبت ولا ينفى , وأما معناها فيستفصل فيه إن كان أراد حقاً قبل , وإن أراد باطلاً رُدّ . انظر " التدمرية " ص (65 – 68) .

[5] " درء التعارض " (5 / 57) وانظر " مجموع الفتاوى " (16 / 211) , و " منهاج السنة " (3 / 292) , و " شرح الأصبهانية " ص (441) , و " التحفة العراقية " ص (425 – 426) و " النبوات " (1 / 407 – 408) .

ونفاة الصفات منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم ومتضمن لنفي الذات , لكنه هو لازم لهم لا محالة .
قال شيخ الإسلام : " ونفاة الصفات وإن كانوا لا يعتقدون أن ذلك متضمن لنفي الذات , لكنه لازم لهم لا محالة , لكنهم متناقضون , ولهذا لا يوجد فيهم إلاّ من فيه نوع من الشرك , ولا بدَّ من ذلك ؛ لنقص توحيدهم الذي به يتخلصون من الشرك "[1].
وقال – رحمه الله - : " إن المقالة تكون كفراً كجحد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج , وتحليل الزنا والخمر والميسر ونكاح ذوات المحارم , ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب , وكذا لا يكفر به جاحده , كمن هو حديث عهد بالإسلام , أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام , فهذا لا يحكم بكفره بجحد شيء مما أنزل على الرسول إذ لم يعلم أنه أنزل على الرسول , ومقالات الجهمية[2] هي من هذا النوع , فإنها جحد لما هو الرب – تعالى- عليه , ولما أنزل الله على رسوله . وتغلظ مقالاتهم من ثلاثة أوجه :
أحدها : أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جداً مشهورة , وإنما يردونها بالتحريف .

---

[1] " درء التعارض " (10 / 307) .

[2] الجهمية : هم أتباع جهم بن صفوان , وهو من الجبرية الخالصة , زعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان , وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط , والكفر هو الجهل به فقط . والجهمية على ثلاث درجات : فشرها الغالية : الذين ينفون أسماء الله وصفاته والدرجة الثانية : تجهم المعتزلة ونحوهم الذين يقرون بأسماء الله الحسنى في الجملة لكن ينفون صفاته , وأما الدرجة الثالثة : فهم الصفاتية : المثبتون المخالفون للجهمية لكن فيهم نوع من التجهم , كالذين يقرون بأسماء الله وصفاته في الجملة لكن يردون طائفة من أسمائه وصفاته الخبرية وغير الخبرية . انظر " التسعينية " (1 / 265 – 271) و " الفرق بين الفرق " ص (194) .

الثاني : أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع , وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع . فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله فأصل الكفر الإنكار لله .
الثالث : أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها "[1] .
وقد بيَّن – رحمه الله – أن عامّة نفاة الصفات لا يهتدون للتلازم بين نفي الصفات ونفي الذات . قال : " ولما كان قول هؤلاء مستلزماً لتعطيل الخالق – تعالى – , ولم يكن عامتهم يهتدون إلى هذا التلازم صاروا بين أمرين : إما أن يعطلوا العبادة , ويغلب عليهم الغي وإتباع الهوى والشهوات , وإما أن تكون فيهم عبادة وتأله , وإذا صار فيهم عبادة وتأله فالغالب عليهم الشرك بعبادة غير الله تعالى ... "[2] .
2. ما كان منفي الصفات لم يكن إلاّ معدوماً .
قال شيخ الإسلام : " والمعبود المراد المحبوب لا يكون إلا موجوداً , فإن المعدوم لا يراد لذاته , وما كان منفيّ الصفات لم يكن إلا معدوماً , فإن إثبات ذات بلا صفات , أو وجود مطلق لا يتعين , إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان , فمن لم يثبت لله الصفات لم يحقق عبادته له , فلهذا وغيره كان الشرك بعبادة غير الله واقعاً في نفاة الصفات "[3] .
وقال : " وإثبات مالا صفة له إثبات مالا وجود له , وهو إثبات معدوم , ولهذا كانت النفاة معطلة متناقضة ممثلة له بالمعدوم . أما تناقضها : فمن حيث أقرت بوجوده واستحقاقه الكمال المطلق والوجود الأتمّ , ثم وصفته بما يستلزم أنه لا يكون شيئاً أصلاً فضلاً عن أن يكون قائماً حياً . ومثلته بالمعدوم فكانت أضل ممن مثّله بالموجود الشيء , وكانوا مع ذلك معطلة عطلوا

---

[1] " مجموع الفتاوى " (3 / 354 – 355) .
[2] " شرح الأصبهانية " ص (114) .
[3] " شرح الأصبهانية " ص (116) .

صفاته بإقرارهم واعترافهم , وعطلوا حقيقته بما هو لازم لهم , كما قد بيَّنا أن إثبات المثل له بوجه من الوجوه يُوجب التناقض في نفسه . فرفع الصفات بالكلية ونفي وجود معنى مشترك ومشابهه بوجه من الوجوه متناقض أيضاً في نفسه , ثم هذا يقتضي عدمه , وذلك يقتضي نقصه , فلهذا كان التعطيل[1] شراً من التمثيل[2] "[3] . وكان عناية الكتب الإلهية بالرد على أهل التعطيل أعظم , وكان إنكار أئمة السنة والحديث على الجهمية المعطلة أعظم منه على المشبهة ؛ لأن مرض التعطيل أعظم من مرض التشبيه , ولهذا قيل : المعطل يعبد عدماً , والمشبه يعبد صنماً[4] , " ومن يعبد إلهاً موجوداً موصوفاً بما يعتقده هو من صفات الكمال , وإن كان مخطئاً في ذلك , خير ممن لا يعبد

---

[1] التعطيل : التفريغ , وعطل الدار : أخلاها , والتعطيل ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه , وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله , وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد . انظر " لسان العرب " (10 / 194) و " الداء والدواء " ص (231) .

[2] التمثيل : جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق مثل أن يقول : إن علم الله كعلمي أو قدرته كمقدوري أو محبته ورضاه وغضبه مثل محبتي ورضائي وغضبي . انظر " مجموع الفتاوى " (11 / 481 – 482) و " شرح الطحاوية " (1 / 154) .

[3] " جواب الاعتراضات المصرية " ص (137 – 138) , وانظر " مجموع الفتاوى " (12 / 516) , و " الصفدية " (2 / 66) , و " درء التعارض " (1 / 217 – 218) (5 / 163) (6 / 86 – 87) (6 / 177 – 178) (6 / 182) (7 / 370) (9 / 8 – 9) (9 / 319) (10 / 282) .

[4] انظر " درء التعارض " (6 / 348) (10 / 306) .

شيئاً , أو يعبد من لا يوصف إلا بالسلوب والإضافات[1] "[2] .

3. أن من أسباب الانحراف في الربوبية نفي الصفات .

وهذا يتبين من خلال انحراف ابن سينا وأمثاله في الربوبية , وانحراف الاتحادية[3] أيضاً .

أما ابن سينا وأمثاله فإن انحرافهم في باب الربوبية هو بقولهم بقدم العالم , وقد بنى هذا القول على نفي الصفات .

قال شيخ الإسلام عند حديثه عن ابن سينا: " ويتبين للفاضل أنه إنما بني إلحاده في قدم العالم على نفي الصفات ... وهو بها تمكّن من الاحتجاج عليهم (أي المتكلمين) في قدم العالم , وبما تمكّن من إنكار المعاد , وتحريف الكلم عن مواضعه "[4] .

وقال : " لقائل أن يقول : بل ابن سينا عرف أن قوله (أي بقدم العالم) لا يتم إلاّ بما ادّعاه من التوحيد الذي مضمونه نفي صفات الرب وأفعاله القائمة

---

[1] السلوب والإضافات : السلب النفي كقولهم ليس بجسم ولا متحيز , والإضافة كقولهم : مبدأ وعله . انظر " درء التعارض " (1 / 284) .وفي " المعجم الفلسفي" ص (15):" الإضافة هي النسبة العارضة لشيء بالقياس إلى شيء آخر كالأبوة والبنوة ": .

[2] " درء التعارض " (10 / 306) , وانظر " المصدر نفسه " (6 / 304 – 305) .

[3] الاتحادية : تلغي الفرق بين الخالق والمخلوق , على اعتبار أنه لا موجود في الوجود إلا الله , وأنه عين وجود المخلوقات , وقد قال بذلك ابن عربي وابن سبعين وغيرهما . ومذهب الاتحادية مركب من ثلاث مواد : سلب الجهمية وتعطيلهم , ومجملات الصوفية , ومن الزندقة الفلسفية . انظر " مجموع الفتاوى " (2 / 175) , و " الموسوعة الميسرة " (2 / 954) .

[4] " درء التعارض " (8 / 241 – 242) .

بنفسه ... فإن حجة القائلين بقدم العالم التي اعتمدها أرسطو طاليس وأتباعه كالفارابي وابن سينا وأمثالهما لا تتم إلا بنفي أفعال الرب القائمة بنفسه بل وتبقى صفاته[1], وإلا فإذا نوزعوا في هذا الأصل بطلت حجتهم , وإذا سلّم لهم هذا الأصل صار لهم حجة على من سلّمه لهم "[2] .

وأما انحراف الاتحادية في باب الربوبية فهو بقولهم إن الوجود واحد فوجود الخالق هو وجود المخلوق وسبب قولهم بهذا نفي الصفات , وهو أولّ أمرهم .

قال شيخ الإسلام : " وهؤلاء الاتحادية في أول أمرهم ينفون الصفات : ويقولون : القرآن هو الله أو غير الله , فإذا قيل لهم : غير الله , قالوا : فغير الله مخلوق . وفي آخر أمرهم يقولون : ما ثم موجود غير الله , أو يقولون : لا هو الله ولا هو غيره "[3] .

وقال : " فإن أدلة الإثبات أدلة صحيحة , مبنية على مقدمات يقينية خالصة من الشبهة , وأما حجج النفاة فجميعها مبناها على ألفاظ مجملة متشابهة , ومعان متشابهة , لهذا متى وقع الاستفسار والتفصيل لمجمل كلامهم , ووقع البيان والتفصيل لمشتبه معانيهم تبين لكل عاقل فاهم أن النفاة جمعوا بين المختلفات , وفرقوا بين المتماثلات , وسووا بين الشيئين اللذين هما في غاية التباين , لا شتراكهما في بعض الصفات , ولهذا كان مآل أمرهم إلى أن جعلوا الوجود واحداً , فجعلوا وجود الخالق رب العالمين – الذي لا يماثله شيء من الموجودات بوجه من الوجوه , ومباينته لكل موجود أعظم من مباينة كل موجود لكل موجود – هو

---

[1] هكذا في الكتاب , ولعلها " بل وبنفي صفاته " .

[2] " درء التعارض " (9 / 268) , وانظر " المصدر نفسه " (8 / 247 – 249) .

[3] " مجموع الفتاوى " (2 / 376) .

وجود أحقر المخلوقات وأصغر المخلوقات أو مماثلاً له "[1] .

ثالثاً : من جهة أصل وحقيقة مقالة نفاة الصفات .

1. أن قول نفاة الصفات مأخوذ من المنحرفين في الربوبية .

قال شيخ الإسلام : " والجهمية نفاة الصفات الذين هم رؤوس أهل الكلام المذموم قولهم مأخوذ من قول خصمائه (أي إبراهيم) كما هو مأخوذ من قول فرعون خصم موسى فإن فرعون أظهر جحد الصانع وعلوه على خلقه , وجحد تكليمه لموسى , وقوم إبراهيم كانوا مشركين كما أخبر الله – تعالى – عنهم بذلك , وكان فيهم من هو معطل , كما ذكر الله – تعالى – ذلك . والفلاسفة[2] القائلون بدعوة الكواكب : فيهم المشرك , وفيهم المعطل . ونفي الصفات من أقوالهم , فمنهم من لا يثبت لهذا العالم المشهود رباً أبدعه , كما هو قول الدهرية الطبيعية منهم , ويجعلون العالم نفسه واجب الوجود بذاته , ومنهم من يثبت له مبدعاً واجباً بنفسه أبدعه , كما هو قول الدهرية الإلهية منهم , ويقولون : إن الواجب ليس له صفة ثبوتية , بل

---

[1] " درء التعارض " (5 / 312 – 313) , وانظر " النبوات " (1 / 458) .

[2] الفلاسفة : اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها , وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصاً بمن خرج عن ديانات الأنبياء ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل في زعمه , وأخصّ من ذلك أنه في عرف المتأخرين : اسم لأتباع أرسطو وهم المشّاؤون خاصة . والفلاسفة فيهم من لا يثبت لهذا العالم المشهود رباً أبدعه ويجعلون العالم نفسه واجب الوجود بذاته وهم الدهرية الطبيعية , وفيهم من يثبت للعالم مبدعاً واجباً أبدعه بنفسه لكن يقولون ليس له صفة ثبوتية وهم الدهرية الإلهية . انظر " إغاثة اللهفان " ص (756) , و " درء التعارض " (5 / 4) (5 / 168) (7 / 175) , و " بيان تلبيس الجهمية " (2 / 289 -290) .

صفاته : إما سلب , وإما إضافة , وإما مركبة منهما[1].
وكان الجعد بن درهم من أهل حرَّان

وكان فيهم بقايا من الصابئين[2] والفلاسفة , خصوم إبراهيم الخليل , فلهذا أنكر تكليم موسى وخله إبراهيم , موافقة لفرعون والنمروذ , بناءً على أصل هؤلاء النفاة , وهو أن الرب – تعالى – لا يقوم به كلام , ولا يقوم به محبة لغيره , فقتله المسلمون , ثم انتشرت مقالته فيمن ضلَّ من هذا الوجه "[3] .

2. أن حقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه .

قال – رحمه الله – عند حديثه عن إنكار الجهمية لكلام الله ومحبته وأن الجعد أول من أظهر ذلك :

" وبنوا ذلك على قاعدة مبتدعة الصائبين المكذبين ببعض ما جاءت به الرسل , الذين لا يصفون الرب إلا بالصفات السلبية أو الإضافية أو المركبة منهما , وهم في هذا التعطيل موافقون في الحقيقة لفرعون رئيس الكفار الذي جحد الصانع بالكلية , فإن جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته , ولهذا وافقوا فرعون في تكذيبه

---

[1] المركبة منهما : أي المركبة من السلب والإضافة كقولهم : عاقل ومعقول وعقل . انظر " درء التعارض " (1 / 284) .

[2] الصابئة : صبا الرجل إذا مال وزاغ وخرج , وبحكم ميلهم عن سنن الحق , وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة وهؤلاء الكفار منهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر كعباد الكواكب ونحوهم , ومنهم القوم الذين بعث إليهم إبراهيم , وعلماء الصابئة هم الفلاسفة . انظر " جامع المسائل " (5 / 54 – 55) و " الملل والنحل " (2 / 289) و " زاد المسير " (1 / 79 – 80) .

[3] " درء التعارض " (7 / 175 – 176) .

لموسى بأن ربه فوق السماوات حيث قال : ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ

ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﭼ[1] ... إذ فرعون كذب موسى في أن الله فوق , وكذبه في أن الله كلّمه , كما أنكر وجود الصانع , ومحمد صدق موسى في هذا كله "[2] .

وقال : " وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون , وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه , كما كان فرعون يفعل , فكان يجحد الخالق – جلّ جلاله - , ويقول : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﭼ[3], ويقول لموسى : ﭽ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﭼ[4], ويقول : ﭽ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ [5], وكان ينكر أن يكون الله كلّم موسى , أو يكون لموسى إله فوق السماوات , ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته , ويكون هو المعبود المطاع . فلما كان قول الجهمية المعطلة النفاة يؤول إلى قول فرعون كان منتهي قولهم إنكار رب العالمين , وإنكار عبادته , وإنكار كلامه , حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان , فصاروا يقولون : العالم هو الله , والوجود واحد , والموجود القديم الأزلي الخالق هو الموجود المحدث المخلوق , والرب هو العبد , ما ثم رب وعبد وخالق ومخلوق "[6] .

---

[1] سورة غافر , الآية (36 – 37) .

[2] " مجموع الفتاوى " (12 / 351) .

[3] سورة القصص , الآية (38) .

[4] سورة الشعراء , الآية (29) .

[5] سورة النازعات , الآية (24) .

[6] " مجموع الفتاوى " (13 / 185) , وانظر " المصدر نفسه " (13 / 173) (16 / 211) , و " الصفدية " (2 / 18) .

وشيخ الإسلام – رحمه الله – لم يكتفِ بذلك بل أبرز جهود الأئمة والعلماء في بيان العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .

وقد ذكر ذلك عنهم على وجهين :

1. على وجه الإجمال .
2. على وجه التفصيل .

أما على وجه الإجمال :

فقد قال بعد أن بين فساد قول الفلاسفة وأن الواحد الذي يثبتونه لا حقيقة له في الخارج : " وكذلك سائر الجهمية والمعتزلة[1] نفاة الصفات لما أثبتوا واحداً لا يتصف بشيء من الصفات كانوا عند أئمة العلم الذين يعرفون حقيقة قولهم إنما توحيدهم تعطيل مستلزم لنفي الخالق , وإن كانوا قد أثبتوه فهم متناقضون جمعوا بين ما يستلزم نفيه وما يستلزم إثباته , ولهذا وصفهم أئمة الإسلام بالتعطيل , وأنهم دلّاسون , ولا يثبتون شيئاً , ولا يعبدون شيئاً ونحو ذلك , كما هو موجود في كلام غير واحد من أئمة الإسلام , مثل : عبد العزيز الماجشون ,

---

[1] المعتزلة : اعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري , مثل قتادة وأيوب السختياني وأمثالهما من أصحاب الحسن ، فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن البصري , وقيل : إن قتادة كان يقول أولئك المعتزلة , من رؤوسهم واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . وأصول المعتزلة خمسة هي : التوحيد ويتضمن عندهم نفي الصفات , والعدل ويتضمن التكذيب بالقدر وهو خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات , والقدرة على الشيء , والمنزلة بين المنزلتين وهي أن الفاسق لا يسمى مؤمناً كما لا يسمى كافراً فنزلوه بين منزلتين , وإنفاذ الوعيد ومعناه أن فساق الملة مخلدون في النار لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك , والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف . انظر " مجموع الفتاوى " (13 / 37 – 38) (13 / 386 – 387) و " الفرق بين الفرق " ص (112 – 118) .

وعبد الله بن المبارك , وحماد بن زيد , ومحمد بن الحسن , وأحمد بن حنبل , وغير هؤلاء "[1] .
وقال عند ذكره لأقوال الجهمية : " قالوا : وكل ما قامت به الحوادث فهو حادث كما تقدم , فيلزم أن لا يقوم به كلام ولا فعل ولا صفة , فقالوا : كلامه مخلوق في غيره . ولا يقوم به علمٌ ولا قدرة ولا حياة ولا غير ذلك من الصفات , لأنه لو قام به ذلك لكان عرضاً[2] قائماً بالجسم , والجسم محدث , قالوا : وليس هو فوق العالم , ولا مباين للعالم , ولا يصعد إليه شيء ولا ينزل من عنده شيء , ولا يُرى ؛ لأنه لو كان كذلك لكان جسماً , والجسم محدث .
فلما أظهروا هذا القول شاع في الأمة إنكار ذلك , وقالوا : هذا تعطيل للخالق وجحود لصفاته وكلامه وأفعاله ولذاته , فظهر عن الأئمة والسلف النكير والتكفير للجهمية , وهؤلاء الذين قالوا : القرآن مخلوق , فلما شاع الخوض في هذا والنزاع , ودخلت فيه أهل السيوف والأقلام , وعظم فيه النزاع والخصام , ظهر لجمهور المسلمين وأئمة الدين فساد هذا القول , فإنه يجر إلى قول فرعون ونحوه من المعطلة , وإن كان قائلو ذلك ما قصدوا به ذلك , بل دخلوا في بحوث ظنوها تنصر ما جاء به الرسول , فكان الأمر بالعكس , فإنهم لم يفهموا ما جاء به الرسول ولا دليلة . وأما أول من أظهر ذلك في الإسلام فإن بعض أهل العلم يقولون : إنه كان

---

[1] " منهاج السنة " (2 / 143 – 144) وانظر " المصدر نفسه " (2 / 561) .
[2] العرض : الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع أي : محل يقوم به , كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحل ويقوم هو به . " التعريفات " ص (153) .

ملحداً زنديقاً[1], وكان يعلم أن قوله يستلزم تعطيل الصانع فأحدث هذا ... "[2] .
فشيخ الإسلام بين أن قول نفاة الصفات عند أئمة العلم والإسلام مستلزم لتعطيل الخالق , وجحود ذاته , وأنهم في الحقيقة لا يثبتون شيئاً ولا يعبدون شيئاً , ولهذا ظهر عن الأئمة والسلف النكير والتكفير للجهمية , هذا ما ذكره عنهم على وجه الإجمال .
وأمَّا ما ذكره عنهم على وجه التفصيل :
فقد ذكر كلامهم عدد من الأئمة والعلماء منهم :

1. الإمام أحمد :

وقد ذكر كلامه الإمام أحمد في عدد من كتبه وعلّق عليه , ومن أجمع هذه المواضع ما ذكره في " درء التعارض " حيث قال : " قال الإمام أحمد[3]عن

---

[1] الزندقة لفظ أعجمي معرب , أخذ من كلام الفرس بعد ظهور الإسلام وعرب . والزنديق في عرف الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره , وما في القرآن والسنة من ذكر المنافقين يتناول مثل هذا بإجماع المسلمين . ومن الناس من يقول : الزنديق هو الجاحد المعطل , وهذا يسمى الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة ونقلة مقالات الناس . انظر " بغية المرتاد " ص (338 – 339) , و " الإيمان الأوسط " (302 – 303) .

[2] " الصفدية " (2 / 54 – 55) .

[3] الإمام أحمد : هو الإمام حقاً , وشيخ الإسلام صدقاً , أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذُّهلي الشيباني أحد الأئمة الأعلام , ولد سنة (164 هـ) , قال النسائي : جمع أحمد بن حنبل المعرفة بالحديث والفقه والورع والزهد والصبر , نشأ منكباً على طلب العلم وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة , في أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر بن حنبل , وتولى المعتصم فسجن الإمام أحمد لامتناعه عن القول بخلق القرآن , ولم يصبه شر في زمن الواثق بالله , ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل أكرم الإمام أحمد وقدّمه . توفي سنة (241 هـ) . انظر " سير أعلام النبلاء " (11 / 177 – 358) , و " الأعلام " (1 / 203) .

الجهمية : " فإذا سألهم الناس عن قوله تعالى : ﭽ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭼ[1]يقولون : ليس كمثله شيء من الأشياء , وهو تحت الأرضين السابعة كما هو فوق العرش , ولا يخلو منه مكان , ولا يكون في مكان دون مكان , ولم يتكلم , ولا يتكلم , ولا ينظر إليه أحد في الدنيا ولا في الآخرة , ولا يوصف , ولا يعرف بصفة , ولا بعقل , ولا غاية , ولا منتهى , ولا يدرك بعقل , وهو وجه كله , وهو علم كله , وهو سمع كله , وهو بصر كله , وهو نور كله , وهو قدرة كله , ولا يكون شيئين مختلفين – وفي نسخة : ولا يوصف بوصفين مختلفين – وليس له أعلى ولا أسفل , ولا نواحي , ولا جوانب , ولا يمين ولا شمال , ولا هو ثقيل ولا خفيف , ولا له لون , ولا له جسم , وليس هو معقولاً , وكل ما خطر على قلبك أنه شيء تعرفه فهو خلافه . فقلنا : هو شيء ؟ فقالوا : هو شيء لا كالأشياء . فقلنا : إن الشيء الذي كالأشياء قد عرف أهل العقل أنه لا شيء فعند ذلك تبين للناس أنهم لا يأتون بشيء – وفي نسخة : لا يثبتون شيئاً – ولكنهم يدفعون عن أنفسهم الشنعة . فإذا قيل لهم : من تعبدون ؟ قالوا : نعبد من يدبر أمر هذا الخلق . فقلنا : هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق هو مجهول لا يعرف بصفة ؟ قالوا : نعم . فقلنا : قد عرف المسلمون أنكم لا تأتمون بشيء , وإنما تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون . فقلنا لهم : هذا الذي يدبر : هو الذي كلم موسى ؟ فقالوا : لم يتكلم ولا يتكلم ؛ لأن الكلام لا يكون إلا بجارحة , والجوارح على الله منتفية . فإذا سمع الجاهل قولهم يظن أنهم من أشد الناس تعظيماً لله , ولا يشعر أنهم إنما يقودون قولهم إلى فرية في الله "[2] . ثم علق شيخ الإسلام على كلام الإمام أحمد ومما قاله : " ولما قالوا : " هو

---

[1] سورة الشورى , الآية (11) .

[2] " درء التعارض " (5 / 175 – 177) , وانظر " الرد على الزنادقة والجهمية " ص (105 – 106) .

شيء كالأشياء " علم الأئمة مقصودهم , فإن الموجودين لا بدّ أن يتفقا في مسمّى الوجود , والشيئين لا بدّ أن يتفقا في مسمى الشيء , فإذا لم يكن هناك قدر اتفاقا فيه أصلاً لزم أن لا يكونا جميعاً موجودين وهذا مما يعرف بالعقل , ولهذا قال الإمام أحمد : " فقلنا إن الشيء الذي لا كالأشياء قد عرف أهل العقل أنه لا شيء " فبين أن هذا مما يعرف بالعقل , وهذا مما يعلم بصريح المعقولات " . إلى أن قال : " فقول أحمد : لا يأتمون بشيء , أي : لا يدينون بدين , ومن روى أنه قال : " إنكم لا تثبتون شيئاً " فقوله ظاهر , فإن قول الجهمية يتضمن : أنهم لا يثبتون في الخارج رباً خالقاً للعالم . ثم قال : " فإذا قيل للجهمية : من تعبدون ؟ قالوا نعبد من يدبر أمر هذا الخلق . فقلنا : هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق : هو مجهول لا يعرف بصفة ؟ قالوا : نعم فقلنا : قد عرف المسلمون أنكم لا تأتمون بشيء " فقال أحمد في هذا الموضع : " قد عرف المسلمون " وقال هناك : " قد عرف الناس " ؛ لأنه هنا تكلم في كونه معبوداً , وأنهم يعبدون , وهناك تكلم في كونه موجوداً , فلما وصفوه بالسلب المحض , أخبر أن أهل العقل يعلمون أن الموصوف بالسلب المحض هو العدم , فعرف الناس أنهم لا يثبتون شيئاً . وهنا لما سألهم : من يعبدون ؟ فأخبروا أنهم يعبدون مدبر الخلق , وقالوا : إنه مجهول لا يعرف بصفة – عرف المسلمون أنهم لا يعبدون شيئاً ؛ لأن العبادة أصلها قصد المعبود وإرادته , والقصد والإرادة مستلزمة للعلم بالمراد المقصود , فما يكون مجهولاً لا يعرف بصفة يمتنع أن يكون مقصوداً , فيمتنع أن يكون معبوداً , والعبادة هي أمر ديني أمر الله بها ورسوله , وهي أصل دين المسلمين . فلهذا قال هنا : " قد عرف المسلمون أنكم لا تأتمون بشيء , وإنما تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون " فبين أن الناس يعلمون بعقلهم أنهم لا يثبتون شيئاً , وأن

المسلمين يعرفون أنهم لا يعبدون شيئاً , وبين أن الجاهل إذا سمع قولهم يظن أنهم من أشدّ الناس تعظيماً لله , ولا يشعر أنهم إنما يقودون قولهم إلى فرية في الله "[1] .

2. حماد بن زيد :

ذكر الجهمية فقال : " إنما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء شيء "[2] .

3. يحي بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي :

كان يقولان : : " الجهمية تدور على أن ليس في السماء شيء "[3] .

4. عبد الله بن المبارك :

قال : " إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى وما نستطيع أن نحكي كلام الجهمية "[4].

5. يزيد بن هارون :

ذكر الجهمية فقال : " كفار لا يعبدون شيئاً "[5] .

6. عبد العزيز بن الماجشون :

قال : " جهم وشيعته الجاحدون "[6] .

وقد ذكر شيخ الإسلام – رحمه الله – أقوال هؤلاء الأئمة بعد أن بيَّن أن قول نفاة الصفات مستلزم لنفي الصانع , وأنه لهذا عظم نكير السلف عليهم .

قال بعد أن ذكر احتجاج المتكلمين على حدوث العالم بأن مالا يخلو عن الحوادث فهو حادث : " والجهم هو

---

[1] " درء التعارض " (5 / 178 – 182) , وانظر " بيان تلبيس الجهمية " (2 / 121 – 124) (4 / 320 – 323) , و " التسعينية " (1 / 265 – 266) (2 / 407) .

[2] أخرجه البخاري في " خلق أفعال العباد " (2 / 13) , وابن بطة في " الإبانة " الكتاب الثالث (2 / 95) .

[3] أخرجه ابن بطة في " الإبانة " الكتاب الثالث (2 / 56) .

[4] أخرجه البخاري في " خلق أفعال العباد " (2 / 15) , وابن بطة في " الإبانة " الكتاب الثالث (2 /97) .

[5] أخرجه ابن بطة في " الإبانة " الكتاب الثالث (2 / 100) .

[6] أخرجه ابن بطة في " الإبانة " الكتاب الثالث (2 / 97) .

أول من أظهر هذا الكلام في الإسلام , وطرد قياسه بأن ما كان له ابتداء فلا بدّ أن يكون له انتهاء , وأن الدليل الدال على امتناع مالا يتناهى لا يفرّق بين ا لماضي والمستقبل , فقال بفناء الجنة والنار , وكان هذا مما أنكره عليه سلف الأمة وأئمتها , مع إنكارهم عليه نفي الصفات , والقول بخلق القرآن , ونفي الرؤية , الذي هو لازم قوله بهذه الحجة , فإن طردها أوجب عليه أن لا يقوم بذات الله لا صفة ولا فعل ولا كلام , وكان ذلك مستلزماً لنفي الصانع , ولهذا عظم نكير سلف عليه وعلى أتباعه من المعتزلة والنجارية[1]والضرارية[2]وغيرهم "[3] . ثم ذكر كلام الأئمة السابق وغيره .

وشيخ الإسلام بيَّن هنا أن سبب إنكار السلف على النفاة هي : العلاقة التي بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات , إذ إن نفي الصفات يستلزم نفي الخالق – سبحانه وتعالى .

7. عبد العزيز الكناني :

---

[1] النجارية : هم أصحاب الحسين بن محمد النجار , وافق المعتزلة في نفي الصفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر , وخالفهم في القدر , فكان يقول : إن أعمال العباد مخلوقة لله وهم فاعلون لها وأنه لا يكون في ملك الله إلا ما يريد . انظر " مقالات الإسلاميين " (1 / 340 – 342) , و " الملل والنحل " (1 / 75) .

[2] الضرارية : أتباع ضرار بن عمرو , الذي زعم أن معنى " أن الله عالم قادر " أنه ليس بجاهل ولا عاجز , وكذلك كان يقول في سائر صفات الباري , خالف المعتزلة في القدر فقال أن أعمال العباد مخلوقة لله وأكساب للعباد . أثبت حاسة سادسة للإنسان يرى بها الباري في الجنة , وتبعه على هذا حفص الفرد . انظر " مقالات الإسلاميين " (1 / 339) , و " الفرق بين الفرق " ص (196) , و " الملل والنحل " (1 /77) .

[3] " الصفدية " (2 / 163 – 164) , وانظر " درء التعارض " (5 /302 – 309) .

ذكر شيخ الإسلام كلام الكناني عند ردّه على الرازي في مسألة " العلو " وأن أئمة الطوائف صرحوا بأنها قضية بديهية ضرورية , وأن من ذلك ما ذكر الكناني[1]في الرد على الزنادقة والجهمية " وذكر كلاماً طويلاً له وفيه : " ولكن يلزمك أيها الجهمي أن تقول : إن الله محدود , وقد حوته الأماكن , إذ زعمت في دعواك أنه في الأماكن ؛ لأنه لا يعقل شيء في مكان إلاّ والمكان قد حواه , كما تقول العرب : فلان في البيت , والماء في الجب , فالبيت قد حوى فلاناً , والجب قد حوى الماء , ويلزمك أشنع من ذلك ؛ لأنك قلت أفظع مما قالت به النصارى , وذلك أنهم قالوا : إن الله في عيسى , وعيسى بدن إنسان واحد , فكفروا بذلك , وقيل لهم : ما أعظم الله إذ جعلتموه في بطن مريم , وأنتم تقولون : إنه في كل مكان وفي بطون النساء كلهن , وبدن عيسى , وأبدان الناس كلهم , ويلزمك أيضاً أن تقول : إنه في أجواف الكلاب والخنازير ؛ لأنها أماكن , وعندك أن الله في كل مكان تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! فلما شنعت مقالته قال : أقوال : إن الله في كل مكان , لا كالشيء في الشيء , ولا كالشيء على الشيء , ولا كالشيء خارجاً عن الشيء , ولا مبايناً للشيء . قال : فيقال له : أصل قولك : القياس والمعقول , فقد دللت بالقياس والمعقول على أنك لا تعبد شيئاً ؛ لأنه لو كان شيئاً داخلاً , فمن القياس والمعقول , فقد دللك بالقياس والمعقول أن يكون داخلاً في الشيء أو خارجاً منه , فلما لم يكن في قولك شيئاً استحال أن يكون كالشيء

---

[1] الكناني : عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز الكناني المكي صاحب " الحيدة " , وهو من الذين لقوا الشافعي ومن هو أقدم من الشافعي , وهو من مشاهير متكلمي أهل السنة الذين اتفقت الأشعرية مع سائر الطوائف المثبتة على تعظيمه واتباعه . توفي سنة (240 هـ) . انظر " درء التعارض " (6 / 115) , و " معجم المؤلفين " (2 / 171) .

في الشيء أو خارجاً من الشيء , فوصفت لعمري ملتبساً لا وجود له , وهو دينك وأصل مقالتك التعطيل "[1] .

قال شيخ الإسلام بعده مباشرة : " هذا كلام عبد العزيز يبيَّن أن القياس المعقول يوجب أن مالا يكون في الشيء , ولا خارجاً منه , فإنه لا يكون شيئاً , وأن ذلك صفة توجب أن مالا يكون في الشيء ولا خارجاً منه , فإنه لا يكون شيئاً , وأن ذلك صفة المعدوم الذي لا وجود له "[2] .

هذا ما قرره شيخ الإسلام حول العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وخلاصته :

أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الأسماء والصفات , وتوحيد الأسماء والصفات يستلزم ويتضمن توحيد الربوبية . والله أعلم .

المطلب الرابع : موقف مشركي العرب من توحيد الربوبية.

"أصل الإقرار بالصانع والاعتراف به مستقر في قلوب جميع الإنس والجن , ومن المعروف عند السلف

---

[1] " درء التعارض " (6 / 118 – 119) .

[2] " درء التعارض " (6 / 119) .

والخلف أن جميع الإنس والجن معترفون بالخالق مقرون به , ولهذا فإن توحيد الربوبية مما أقرَّ به الخلق , وهو معروف عند عامّة الأمم" [1]ومن هؤلاء مشركو العرب.

وقد بيَّن شيخ الإسلام – رحمه الله – إقرارهم بالربوبية على جهتين :

1. على جهة الإجمال .
2. على جهة التفصيل .

أما على جهة الإجمال :

فقد قال – رحمه الله – " فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية "[2] .

وقال : " وإلا فمجرد توحيد الربوبية قد كان المشركون يقرّون به , وذلك وحده لا ينفع " [3].

وقال : " وأما مشركوا العرب وأمثالهم فكانوا مقرين بالصانع " [4] .

وقال : " وأما الربوبية فكانوا مقرين بها , قال الله تعالى : ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﭼ "[5] وقال : ﭽ ... ﭼ إلى قوله : ﭽ ... ﭼ "[6] [7] .

وأما على جهة التفصيل :

فقد بيَّن – رحمه الله – تفاصيل ما يقرّ به مشركو العرب من توحيد الربوبية , ومن ذلك إقرارهم بأن الله :

---

[1] انظر " درء التعارض " (8 / 482) " مجموع الفتاوى " (1 / 23) (13 / 320) , و " الصارم المسلول " (3 / 1025) .

[2] " شرح الأصبهانية " ص (123) .

[3] " درء التعارض " (9 / 345) .

[4] " الجواب الصحيح " (1 / 353) .

[5] سورة لقمان ، الآية (25) .

[6] سورة المؤمنون ، الآية (84 – 89) .

[7] " مجموع الفتاوى " (1 / 91 – 92) , وانظر " المصدر نفسه " (8 / 353) (10 / 264) , و " التدمرية " ص (181) , و " جامع الرسائل " (1 / 210) , و " التسعينية " (3 / 799) .

1. خالق كل شيء , وأنه خلق المخلوقات بمشيئته وقدرته , وأن السماوات والأرض مخلوقه له محدثة بعد أن لم تكن , لم يكونوا يقولون بقدم العالم .
2. رب كل شيء لا ربّ غيره .
3. ومليكهم , وملكوت كل شيء بيده .
4. وأنه هو المدبر .
5. وأن الله رازقهم .
6. وأنه قادر عليهم .
7. عالم بهم .
8. وأنه فاعل مختار , يفعل بمشيئته .
9. وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم , ويدفع عنهم ما يضرهم .
10. وأنه الذي يمنع المخلوق وينصره فيجيره من الضرر والأذى , فيجير على من يشاء ولا يجير عليه أحد , فإذا أراد بأحد ضرراً لم يمنعه مانع , وإذا رفع الضرر عن أحد لم يستطع أحد أن يضره .
11. وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه .
12. وأنه ينزل الغيث .
13. وينبت النبات .
14. وأنه جعل الأرض قراراً , وجعل خلالها أنهاراً , وجعل بين البحرين حاجزاً .
15. وإقرارهم بالقدر , وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ يكن .

وهذا ماوضحه شيخ الإسلام في النقول الآتية ، قال :" العرب مع شركها كانت مقرَّه بأن الله رب كل شيء , وخالقه , ومليكه , مقرّة بالقدر ... وكانت العرب أيضاً تقرّ بأن الله فاعل مختار , ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ... ولا ريب أن من أنكر الصانع وقال بأن العالم واجب بذاته فعقله أفسد من عقل هؤلاء , والعرب لم تكن تقول بهذا اللهم إلا أن يكون في تضاعيفهم آحاد تقوله , ولكن لم يكن هذا القول ظاهراً فيهم , بل الظاهر فيهم الإقرار بالخالق , وعلمه , وقدرته , ومشيئته

" [1] .وقال :"وكان مشركو العرب يقرّون بأن الله قادر ، يفعل بمشيئته ، ويجيب دعاء الداعي إذا دعاه "[2] .

وقال : " وتوحيد الإلهية يتضمن توحيد الربوبية , فإنه من لم يعبد إلا الله يندرج في ذلك أنه لم يقرّ بربوبيته غيره , بخلاف توحيد الربوبية فإنه قد أقرّ به عامة المشركين في توحيد الإلهية كما قال تعالى ﭽ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭽ "[3] , ذكر البخاري في صحيحة عن عكرمة وغيره : " تسألهم من خلق السماوات والأرض ؟ فيقولون : الله , وهم مع هذا يعبدون غيره "[4] , وقد أخبر عنهم بذلك في قوله : ﭽ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﭼ [5] , وفي قوله : ﭽ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ [6] , فأخبر عن هؤلاء الذين نزه نفسه عن : إشراكهم , وأخبر أنهم كاذبون في عدولهم عن الحق الذي جاء به , وردّ عليهم أنه : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭼ أنه إذا سألهم : ﭽ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﭼ ﭽ ﯚ ﯛ ﯜ ﭼ .

فالأول : إقرارهم بأن الأرض وما فيها لله .

والثاني : إقرارهم بأن السماوات السبع والعرش العظيم لله .

والثالث : إقرارهم بأن ملكوت جميع الأشياء , بيده , وأنه الذي يمنع المخلوق وينصره فيجيره من الضرر والأذى ,

---

[1] " درء التعارض " (7 / 72) .

[2] " الجواب الصحيح " (1/ 353) .

[3] سورة يوسف , الآية (106) .

[4] أورده البخاري في صحيحة كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى : " فلا تجعلوا لله أنداداً " .

[5] سورة الزمر , الآية (38) .

[6] سورة المؤمنون , الآية (84 – 92) .

فيجيرِ على من يشاء , ولا يجير عليه أحد . فإذا أراد بأحد ضرراً لم يمنعه مانع , وإذا رفع الضرر عن أحد لم يستطع أحد أن يضره , وفي كون ملكوت كل شيء بيده بيان أنه هو المدبر النافع له , فهو الذي يأتي بالمنفعة , وهو الذي يدفع المضرّة , كما قال في الآية الأخرى : ﭼ ﮬ
ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ
ﭼ[1], وكما قال في الآية الأخرى : ﭼ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭼ [2]. وإذا كانوا مقرين بهذا فهذا إقرار منهم بعموم ربوبيته وتدبيره لكل شيء ...
وكذلك قوله : ﭼ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﭼ [3] إلى آخر الآيات, يستفهم فيها كلها استفهام إنكار : هل يفعل هذه الأمور أحد من الآلهة التي يعبدون من دون الله ؟ ... فإن القوم كانوا مقرين بأن الله وحده هو الفاعل لهذه الأمور , وهذا شأن استفهام الإنكار , فإنه يتضمن نفي المستفهم عنه , والإنكار على من أثبته . والقوم كانوا معترفين بذلك , لكن كانوا مع ذلك مشركين به , الآلهة التي يعلمون أنها لم تفعل ذلك , فأنكر عليهم ذلك وزجروا عنه , ومثل هذا في القرآن كثير " [4] .
وقال : " ولهذا كان قول من قال من مشركي العرب : إن الملائكة أولاد الله وأنهم بناته مع ما في قولهم من

---

[1] سورة الزمر , الآية (38) .
[2] سورة يونس , الآية (107) .
[3] سورة النمل , الآية (59 – 64) وإكمالهاﭼ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ... ﭼ
[4] " بيان تلبيس الجهمية " (4 / 533 – 537) .

الكفر والجهل , فقول هؤلاء (أي الفلاسفة) أكفر منه من وجوه , فإن أولئك يقولون : إن الملائكة حادثة كائنة بعد أن لم تكن , وكانوا يقولون : إن الله خلق السماوات والأرض , لم يكونوا يقولون بقدم العالم "[1] .

وقال : " فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم , وهم يعبدون غيره "[2] .

وقال : " والذين كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى مثل : الشمس والقمر والكواكب , والعزير والمسيح , والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى , ويغوث ويعوق ونسرا أو غير ذلك , لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق , أو أنها تنزل المطر , أو أنها تنبت النبات "[3].

وقال عند حديثه عن آيات سورة النمل : " والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى , كما قال تعالى : ﭽ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭼ [4] , وكانوا يقولون : ﭽ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﭼ [5], لكنهم ما كانوا يقولون : إن معه إلهاً جعل الأرض قراراً , وجعل خلالها أنهاراً , وجعل لها رواسي , وجعل بين البحرين حاجزاً , بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا " [6] .

وقال عند مقارنته بين الفلاسفة ومشركي العرب : " لكن أقروا بأن الله عالم بهم , قادر عليهم , يخلق

---

[1] " منهاج السنة " (1 / 229) .
[2] " العبودية " ص (41) .
[3] " مجموع الفتاوى " (3 / 396) .
[4] سورة الأنعام ، الآية (19) .
[5] سورة ص ، الآية (5) .
[6] " شرح الأصبهانية " ص (132 – 133) .

بمشيئته وقدرته , وقالوا : إن هؤلاء ينفعوننا بدعائهم لنا "[1] .

وهنا مسألة مهمة وهي : هل جميع مشركي العرب مقرون بتوحيد الربوبية ؟

بيَّن ذلك شيخ الإسلام – رحمه الله – بقوله :

" والعرب المشركون كلهم كانوا يعترفون بأن الله خالق كل شيء , وأن هذا العالم كله مخلوق , والله خالقه وربه "[2] .

وقال أيضاً : " ومعلوم أن أحداً من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والأحبار والرهبان , أو المسيح بن مريم شاركوا الله في خلق السماوات والأرض , بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال , بل ولا أثبت أحد من بني آدم إلهاً مساوياً لله في جميع صفاته , بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله , بل عامتهم مقرون أن الشريك

---

[1] " الرد على المنطقيين " (1 / 118) , وانظر " المصدر نفسه " (1 / 115 – 116) (2 / 46) (2 / 57) , و " مجموع الفتاوى " (1 / 91 – 92) (2 / 37 – 38) (8 / 353) (11 / 50 – 51 ، 227، 682 – 683) (13 / 18 – 19) (14 / 380) , " درء التعارض " (1 / 122 , 226 – 227) (6 / 56) (9 / 368 ، 378) , و " شرح الأصبهانية " ص (102 – 103 , 466) , و " منهاج السنة " (3 / 289 , 330 – 331) (5 / 327 – 328) , و " بيان تلبيس الجهمية " (1 / 513 – 514) (3 / 9 – 81 - , 138 – 139) , و " قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة " ص (17 , 141 , 177) , و " شرح حديث النزول " ص (444 – 445) , و " التدمرية " ص (176 – 181 , 186) , و " بغية المرتاد " ص (373) , و " الجواب الصحيح " (1 / 139) , و " الإيمان " ص (64 – 66) , و " النبوات " (1 / 407) , و " الاستقامة " (2 / 79) , و " اقتضاء الصراط المستقيم " (2 / 828 – 829) , و " تفسير آيات أشكلت " (1 / 227 – 228) , و " جامع المسائل " (3 / 150) .

[2] " شرح حديث النزول " ص (445) .

مملوك له سواء كان ملكاً , أو نبياً , أو كوكباً , أو صنماً , كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك , إلا شريكاً هو لك , تملكه وما ملك [1], فأهل رسول الله بالتوحيد , فقال : " لبيك اللهم لبيك , لبيك لا شريك لك لبيك , إن الحمد والنعمة لك والملك , لا شريك لك "[2], وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات , ولا مماثل له في جميع الصفات "[3] .

وقال : " وكذلك مشركو العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله في خلق السماوات والأرض , بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السماوات والأرض وما بينهما كما أخبر الله عنهم بذلك في غير آية "[4] .

فالعرب المشركون كلهم يعترفون بأن الله خالق هذا العالم وربه , وعامتهم مقرون أن الشريك مملوك لله تعالى .

ولكن يوجد عند كثير من مشركي العرب خلل في بعض الربوبية كما قال شيخ الإسلام – رحمه الله - : " إنه ليس في أهل الأرض من أثبت للعالم خالقين متماثلين في الصفات والأفعال , بل هذا ممتنع لذاته , وامتناعه ظاهر في العقول , بخلاف ما يظنه كثير من أهل الكلام والفلسفة كما سنبينه . بل الذي ذهب إليه بعضهم أن يكون ثمَّ خالق خلق بعض العالم , كما تقوله الثنوية في

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ح (2815) .

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ح (2950) .

[3] " التدمرية " ص (176 – 178) .

[4] " الإيمان " ص (64) , وانظر " درء التعارض " (1 / 122 , 227) , و " تفسير آيات أشكلت " (1 / 227 – 228) , و " اقتضاء الصراط المستقيم " (2 / 828 – 829) , و " مجموع الفتاوى " (10 / 264) .

الظلمة [1] وكما تقوله القدرية في أفعال الحيوان , وكما تقوله الفلاسفة في حركة الأفلاك , أو حركات النفوس والأجسام الطبيعية , فإن هؤلاء ونحوهم يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله تعالى إياها , فهم مشركون في بعض الربوبية , وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً من هذا , وأنها تنفعه وتضره , بدون أن يخلق الله ذلك . فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجوداً في الناس بيَّن القرآن بطلانه , كما في قوله تعالى ﭽ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭽ [2] [3] " .

والخلل عندهم من جهة :

ما يرجون من الآلهة من جلب منفعة أو دفع مضرة , بدون أن يخلق الله ذلك .

وهذا لا يعارض ما سبق ذكره من أن مشركي العرب معترفون بأن الله خالق هذا العالم فإنه هنا أخبر بأن كثيراً منهم يعتقد في آلهته أنه تنفعه وتضره بدون أن يخلق الله ذلك , مع اعتقاده أنها لم تخلق العالم .

ولهذا قال – رحمه الله – في موضع آخر : " ولا قال أحد قط من الآدميين إن كوكباً من الكواكب أو إن الشمس والقمر أبدعت السماوات كلها , ولا يقول هذا عاقل . بل عبّاد الشمس والقمر والكواكب يعبدونها كما يعبد عُبَّاد الأصنام للأصنام , وكما يعبد عبَّاد الأنبياء والصالحين لهم ولتماثيلهم , وكما يعبدون آخرون الملائكة , وآخرون

---

[1] المجوس الثنوية أشهر الناس قولاً بإلهين : النور والظلمة , وهم متفقون على أن الإله الخير المحمود هو النور الفاعل للخيرات , وأما الظلمة التي هي فاعل الشرور فلهم فيها قولان : أحدهما : أنه محدث حدث عن فكرة رديئة من النور , والقول الآخر قولهم : إن الظلمة قديمة كالنور . انظر " درء التعارض " (9 / 346) , و " الجواب الصحيح " (1 / 351) .

[2] سورة المؤمنون ، الآية (91) .

[3] " شرح الأصبهانية " ص (133 – 134) .

يعبدون الجن لما يرجون بعبادتها من جلب منفعة أو دفع مضرة , لا لاعتقادهم أنها خلقت العالم "[1] .
وقال أيضاً : " لكن العرب أقروا بأن الله عالم بهم , قادر عليهم , يخلق بمشيئته وقدرته , وقالوا : إن هؤلاء ينفعوننا بدعائهم لنا " [2] .
ومع ذلك فإن الظاهر في مشركي العرب : الإقرار بالخالق , وعلمه , وقدرته , ومشيئته .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله - : " إن العرب مع شركها كانت مقرّة بأن الله رب كل شيء , وخالقه , ومليكه , مقره بالقدر , وكانت عقولهم من هذا الوجه خيراً من عقل من جعل كثيراً من المحدثات لم يخلقه الله ولا قدّره ولا أراده , وكانت العرب أيضاً تقرُّ بأن الله فاعل مختار , ما شاء كان , وما لم يشأ لم يكن , فكانت عقولهم خيراً من عقول الدهرية الفلاسفة , الذين يقولون إن العالم صدر عن علة تامة موجبة له , كما يقول الدهرية الإلهيون . ولا ريب أن من أنكر الصانع وقال إن العالم واجب بذاته , فعقله أفسد من عقل هؤلاء . والعرب لم تكن تقول بهذا اللهم إلا أن يكون في تضاعيفهم آحاد تقوله , ولكن لم يكن هذا القول ظاهراً منهم , بل الظاهر فيهم الإقرار بالخالق , وعلمه , وقدرته , ومشيئته ... والعرب وإن كانوا مشركين لم يكن الظاهر فيهم التعطيل للصانع , وإن كان قد يكون في أضعافهم من هو في المرتابين في الصانع أو الجاحدين له , كما في تضاعيف كل أمة , حتى في المصلين من هو من هؤلاء , إذ المنافقون لم يزالوا في الأمة , ولن يزالوا على اختلاف أصنافهم "[3] .

وممن ذكر شيخ الإسلام إقرارهم بتوحيد الربوبية أيضاً :

1. إبليس .

---

[1] " الرد على المنطقيين " (2 / 57) .
[2] " المصدر السابق " (2 / 118) .
[3] " درء التعارض " (7 /72 – 73) .

2. أهل النار .

قال : " وكثير ممن يتكلم في الحقيقة (أي الربوبية) ويشهدها يشهد هذه الحقيقة , وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها : المؤمن والكافر , والبر والفاجر , بل وإبليس معترف بهذه الحقيقة وأهل النار . قال إبليس : ﭽ ﭼ[1] , وقال : ﭽ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﭼ[2] , وقال : ﭽ ﭼ[3] , وقال : ﭽ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﭼ[4] , وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه لأن الله ربه , وخالقه وخالق غيره .وكذلك أهل النار : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭼ[5] , وقال تعالى عنهم : ﭽ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ[6] [7] "

3. قوم نوح .

4. قوم هود .

5. قوم صالح .

6. قوم شعيب .

قال – رحمه الله - : " ولكن أكثر الرسل افتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه , كما أخبر الله عن نوح , وهود , وصالح , وشعيب . وقومهم كانوا مقرين

---

[1] سورة ص ، الآية (79) .

[2] سورة الحجر ، الآية (39) .

[3] سورة ص ، الآية (82) .

[4] سورة الإسراء، الآية (62) .

[5] سورة المؤمنون، الآية (106) .

[6] سورة الأنعام ، الآية (30) .

[7] " العبودية " ص (42 – 43) , وانظر " مجموع الفتاوى " (2 / 13) , و " الإيمان " ص (104) , و " الصارم المسلول " (3 / 700) .

بالخالق , لكن كانوا مشركين يعبدون غيره , كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد " [1] .

7. قوم إبراهيم .

قال – رحمه الله - : " فإن قومه كانوا مشركين , يعبدون الكواكب ويدعونها من دون الله , لم يكونوا يقولون : إنها التي خلقت السماوات والأرض , فإن هذا لا يقوله عاقل , ولهذا قال : ﭽ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﭼ [2] , وقال : ﭽ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ   ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﭼ [3] [4]"

وقال : " وهذه حال المشركين الذي يعبد أحدهم ما يستحسنه , فهم يتخذون أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله , ولهذا قال الخليل : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ [5] , فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعاً له , كالشمس والقمر والكواكب , والخليل بيّن أن الآفل يغيب عن عابده , وتحجبه عنه الحواجب ، فلا يرى عابده ، ولا يسمع كلامه , ولا يعلم حاله , ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره فأي وجه لعبادة من يأفل ؟! " [6].

وقال : " ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين فقد غلط غلطاً بيناً , بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع , وكانوا يشركون بعبادتهم , كأمثالهم من المشركين " [7].

وقال : " ولكن إبراهيم لم يقصد بقوله " هذا ربي " أنه رب العالمين , ولا كان أحد من قومه يقولون : إنه رب العالمين , من تجويز ذلك عليهم , بل كانوا مشركين

---

[1] " مجموع الفتاوى " (16 / 332) .
[2] سورة الأنعام ، الآية (78) .
[3] سورة الشعراء ، الآية (75 – 77) .
[4] " منهاج السنة " (1 / 203) .
[5] سورة الأنعام ، الآية (76) .
[6] " مجموع الفتاوى " (10 / 260) .
[7] " الجواب الصحيح " (1 / 354) .

مقرين بالصانع , وكانوا يتخذون الكواكب والشمس والقمر أرباباً يدعونها من دون الله ويبنون لها الهياكل , وقد صنفت في مثل مذهبهم كتب مثل " كتاب السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم " [1] , وغيره , ولهذا قال الخليل : : ﭼ ﮉ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﭼ [2], وقال تعالى : ﭼ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﭼ [3] , ولهذا قال الخليل في تمام الكلام : ﭼ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭼ [4], بيّن أنه إنما يعبد الله وحده فله يوجه وجهه إذ توجه قصده إليه : يتبع قصده وجهه , فالوجه توجه حيث توجه القلب , فصار قلبه وقصده ووجهه متوجهاً إلى الله تعالى , ولهذا قال : ﭼ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﭼ لم يذكر أنه أقر بوجود الصانع , فإن هذا كان معلوماً عند قومه , لم يكونوا ينازعونه في وجود فاطر السموات والأرض , وإنما كان النزاع في عبادة غير الله واتخاذه رباً , فكانوا يعبدون الكواكب السماوية ويتخذون لها أصناماً أرضية . وهذا النوع الثاني من الشرك . فإن الشرك في قوم نوح كان أصله من عبادة الصالحين أهل القبور , ثم صوروا تماثيلهم , فكان شركهم بأهل الأرض , إذ كان الشيطان إنما يضل الناس بحسب الإمكان , فكان ترتيبه أولاً الشرك بالصالحين أيسر عليه , ثم قوم إبراهيم انتقلوا إلى الشرك بالسماويات بالكواكب , وصنعوا لها " الأصنام " بحسب ما رأوه من طبائعها , يصنعون لكل كوكب طعاماً وخاتماً وبخوراً وأموالاً تناسبه , وهذا كان قد اشتهر على عهد إبراهيم إمام الحنفاء , ولهذا قال الخليل : ﭼ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ

---

[1] صنفه أبو عبد الله بن الخطيب الرازي , انظر " درء التعارض " (1 / 311) و " منهاج السنة " (2 / 194) .

[2] سورة الشعراء ، الآية (75 – 77) .

[3] سورة الممتحنة ، الآية (4) .

[4] سورة الأنعام ، الآية (78 – 79) .

ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ڑ ڑ ژ ڇ [1] , وقال لهم : ﭽ
 ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ڇ [2] [3] " .

وشيخ الإسلام – رحمه الله – اهتم كثيراً ببيان الشرك الذي وقع فيه قوم إبراهيم وقرّر أنهم كانوا مشركين في الإلهية , مقرّين بالصانع وأنه ربّ العالمين وفاطر السماوات والأراضين .

ولذلك فرّق بين قصة إبراهيم وقصة موسى مع فرعون , وأجاب عن قصة إبراهيم مع النمرود .

قال – رحمه الله - : " وقصة إبراهيم قد ذكرت في غير موضع من القرآن مع قومه : إنما فيها نهيهم عن الشرك , خلاف قصة موسى مع فرعون فإنها ظاهرة في أن فرعون كان مظهر الإنكار للخالق وجحوده . وقد ذكر الله عن إبراهيم أنه حاجّ الذي حاجّه في ربه في قوله : ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ڇ [4] , فهذا قد يقال أنه كان جاحداً للصانع , ومع هذا فالقصة ليست صريحة في ذلك , بل يدعو الإنسان إلى عبادة نفسه وإن كان لا يصرّح بإنكار الخالق مثل إنكار فرعون "[5] .

ففي هذه الآية – آية البقرة – قرّر إبراهيم ربوبية ربه , كما أنه قرر الإخلاص له ونفي الشرك في سورة الأنعام وغيرها .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله - : " وإبراهيم وموسى قاما بأصل الدين الذي هو الإقرار بالله وعبادته وحده لا شريك له , ومخاصمة من كفر بالله . فأما إبراهيم فقال الله فيه : ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ...

---

[1] سورة الصافات ، الآية (85 – 87) .

[2] سورة الصافات ، الآية (95 – 96) .

[3] " مجموع الفتاوى " (6 / 254 – 256) .

[4] سورة البقرة ، الآية (258) .

[5] " مجموع الفتاوى " (6 / 256) .

ﭼ [1] , وذكر الله عنه أنه طلب منه إرادة إحياء الموتى , فأمره الله بأخذ أربعة من الطير , فقرّر أمر الخلق والبعث - المبدأ والمعاد - الإيمان بالله واليوم الآخر . وهما اللذان يكفر بهما أو بأحدهما كفار الصابئة والمشركين من الفلاسفة ونحوهم الذين بُعث الخليل إلى نوعهم . فإن منهم من ينكر وجود الصانع , وفيهم من ينكر صفاته , وفيهم من ينكر خلقه ويقول : إنه علة , وأكثرهم ينكرون إحياء الموتى وهم مشركون يعبدون الكواكب العلية والأصنام السفلية . والخليل - صلوات الله عليه - ردَّ هذا جميعه فقرر ربوبية ربه كما في هذه الآية , وقرر الإخلاص له ونفى الشرك كما في سورة الأنعام وغيرها , وقرر البعث بعد الموت , واستقر في ملته محبته لله ومحبة الله له باتخاذ الله له خليلاً . ثم إنه ناظر المشركين بعبادة من لا يوصف بصفات الكمال "[2] .

والخلاصة :

- إن توحيد الربوبية مما أقرّ به الخلق , وهو معروف عند عامة الأمم .
- إن مشركي العرب مقرّون بتوحيد الربوبية .
- يوجد عند كثير من العرب خلل في بعض الربوبية ، من جهة ما يرجون من آلهتهم من جلب منفعة أو دفع مضرة دون أن يخلق الله ذلك , مع اعتقادهم أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض .

---

[1] سورة البقرة ، الآية (258) .

[2] " مجموع الفتاوى " (16 / 203 – 205)، وانظر " درء التعارض " (1 / 110 – 111 , 311 – 312) (4 / 77 – 78) (8 / 256) (9 / 83 – 84) , و " منهاج السنة " (2 / 192 – 195)، " بغية المرتاد " ص (369 – 374)، و " اقتضاء الصراط المستقيم " (2 / 779) , و " شرح حديث النزول " (423 – 426) .

- الظاهر في مشركي العرب الإقرار بالخالق , وعلمه , وقدرته , ومشيئته , وإن كان قد يكون في أضعافهم من هو من المرتابين في الصانع أو الجاحدين له , كما في تضاعيف كلّ أمّة .
- ممن ذكر شيخ الإسلام إقراره بتوحيد الربوبية من الكافرين : إبليس , وأهل النار , وقوم نوح , وقوم هود , وقوم صالح , وقوم شعيب , وقوم إبراهيم .

دلالة الألفاظ على المعاني تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

1. دلالة المطابقة وهي : دلالة اللفظ على تمام معناه .
2. دلالة التضمن وهي : دلالة اللفظ على بعض معناه .
3. دلالة الالتزام وهي : دلالة اللفظ على ما هو لازم لذلك المعنى الخارج عن مفهوم اللفظ [1].

مثال ذلك :
اسم الله – تعالى – " الرحمن " .
يدل على الذات وعلى صفة الرحمة بالمطابقة .
ويدل على الذات وحدها أو الرحمة وحدها بالتضمن .
ويدل على الحياة والعلم دلالة التزام ؛ لأنه لا توجد رحمة دون حياة الراحم وعلمه [2].

قال ابن القيم – رحمه الله - :

ودلالـة الأسمـاء أنـواع ثلا ... ث كلـها معلومـة ببيـان
دلت مطـابقةً كـذاك تضمناً ... وكذا التزاماً واضح البرهـان
أما مطـابقةُ الدلالـة فهي أنَّ ... الاسـم يُفهم منه مفهومـان
ذات الإله وذلك الوصف الذي ... يشـتق منه الاسـم بالميـزان
لـكن دلالته عـلى إحداهمـا ... بتضمن فافهمـه فـهم بيـان
وكـذا دلالته على الصفة التي ... مـا اشتقت منهـا فالتزامٌ دان

---

[1] انظر " المستصفى " (1 / 48) , و " المحصول " (1 / 65) , و " درء التعارض " (10 / 12 , 121) , و " منهاج السنة " (5 / 452 – 453) , و" إيضاح المبهم في معاني السلم " ص (39 – 42) , و " ضوابط المعرفة " ص (26 – 32) .
[2] انظر " شرح القصيدة النونية " للهراس (2 / 124) , و " توضيح المقاصد " (2 / 250) .

وإذا أردت لـذا مثـالاً بيِّنـاً فمثـال ذلك لفظـة الرحمـن
ذات الإلـه ورحمةٌ مدلـولهـا فهمـا لهذا اللفـظ مدلـولان
إحداهما بعضٌ لذا الموضوع فهـ ـي تضمنٌ ذا واضـح التبيـان
لكنَّ وصف الحي لازمُ ذلك الـ ـمعنى لـزوم العـلم للرحمـن
فلـذا دلالته عـليـه بالتـزا مٍ بيِّـنٍ والحـق ذو تبيـان [1]

ومن دلالة الالتزام :

دلالة الاقتضاء وهي : " أن يدلّ لفظ دلالة التزام على محذوف لا يستقل الكلام دونه لتوقف صدقه عليه أو توقفه عليه عقلاً أو شرعاً [2] ".

ومثاله :

الأمر بالصلاة فإنه يدل بالاقتضاء على الأمر بالطهارة ؛ لأنها لا تصح شرعاً دونها [3].

ومما ينبغي أن يعلم مما له علاقة بدلالة الالتزام :

أن لازم الحق حق [4], فالربوبية حق , والله سبحانه وتعالى منفرد بذلك , ولوازم ربوبيته – تعالى – التي منها : إفراده بالألوهية , والعلم بقدمه تعالى , وإرسال الرسل وإنزال الكتب , وفعله - تعالى – بمشيئته وقدرته , ومباينته للعالم حق , لأن لازم الحق حق .

---

[1] " الكافية الشافية " ص (252) .

[2] " نثر الورود " (1 / 98) .

[3] انظر " المصدر السابق " (1 / 99) , و " المحصول " (1 / 71) , و " شرح مختصر الروضة " (2 / 709) , و " إرشاد الفحول " (2 / 53 – 54) , و " مذكرة في أصول الفقه " ص (282 – 283) .

[4] انظر " درء التعارض " (1 / 42) , و " مجموع الفتاوى " (3 / 306) (29 / 42) .

المبحث الأول : الربوبية تستلزم الألوهية .

من آمن بتوحيد الربوبية فاعتقد أن الله هو الخالق , الرازق , المدبر , المحيي المميت فإنه يلزمه أن يعبد هذا الإله الذي خلقه , ورزقه , وأحياه , وأن يفرده بالألوهية , فلا يستغيث إلاَّ بالله , ولا يخاف إلا من الله , ولا يتوكل إلا على الله , ولا ينذر إلا الله , ولا يذبح إلا لله , ولا يسجد إلا لله , فيلزمه أن يصرف جميع أنواع العبادة لله وحده , ولذلك لما أقر المشركون بتوحيد الربوبية كان ذلك حجة عليهم , وما ذاك إلا لأن الإقرار بالربوبية يستلزم توحيد الألوهية .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله - : " والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد (أي الربوبية) وبيانه , وضرب الأمثال له , ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية , ويبين أنه لا خالق غير الله , وأن ذلك مستلزم أن لا يعبدوا إلا الله , فيجعل الأول دليلاً على الثاني , إذ كانوا يسلمون الأول وينازعون في الثاني , فبين لهم – سبحانه – أنه إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله , وهو الذي يأتي العباد بما ينفعهم , ويدفع عنهم ما يضرهم , لا شريك له في ذلك , فلماذا تعبدون غيره ؟! وتجعلون معه آلهةً أخرى ؟!

كقوله تعالى : ﭽ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﭼ إلى قوله : ﭽ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﭼ [1] , يقول تعالى : "أإله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام الإنكار يتضمن نفي ذلك , وهم كانوا مقرِّين بأنه لم يفعل ذلك غير الله , فاحتج بذلك عليهم [2] " .

---

[1] سورة النمل , الآية (59 – 61) .

[2] " شرح الأصبهانية " ص (132) , وانظر " مجموع الفتاوى " (1 / 23) (10 / 331 – 332) (14 – 380) .

وقال أيضاً : " والربوبية تستلزم الإلهية [1] " .

المبحث الثاني : ربوبيته تعالى تستلزم قدمه .

من أسماء الله - تعالى – الأول كما قال تعالى : ﭽ   ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﭼ [2] , وقد فسّره النبي ﷺ بأنه : الذي ليس قبله شيء , كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : " اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم , ربنا ورب كل شيء ، فالق الحق النوى , ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان , أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته , اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء , وأنت الآخر فليس بعدك شيء , وأنت الظاهر فليس فوقك شيء , وأنت الباطن فليس دونك شيء , اقضِ عنَّا الدين وأغننا من الفقر "[3] .

و " ليس في الكتاب ولا في السنة ذكر " القديم " في أسماء الله – تعالى – وإن كان المعنى صحيحاً [4] " .

" والناس متنازعون : هل يسمّى الله بما صحّ معناه في اللغة والعقل والشرع وإن لم يرد بإطلاقه نص ولا إجماع , أم لا يطلق إلا ما أطلق نصّ أو إجماع ؟ على قولين مشهورين.

وعامة النظار يطلقون ما لانصّ في إطلاقه ولا إجماع كلفظ : القديم , والذات , ونحو ذلك.

ومن الناس من يفصل بين الأسماء التي يدعى بها , وبين ما يخبر به عنه للحاجة , فهو – سبحانه – إنما يدعى بالأسماء الحسنى كما قال تعالى : ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸﭹ ﭼ[5] . وأما إذا احتيج إلى الإخبار عنه مثل أن يقال : ليس هو بقديم ولا موجود ولا ذات قائمة بنفسها ونحو ذلك , فقيل

---

[1] " مجموع الفتاوى " (10 / 284) , وانظر (14 / 13) .

[2] سورة الحديد , الآية (3) .

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6889) .

[4] " منهاج السنة " (2 / 495) .

[5] سورة الأعراف الآية (180) .

في تحقيق الإثبات : بل هو – سبحانه – قديم موجود وهو ذات قائمة بنفسها , وقيل : ليس بشيء فقيل : بل هو شيء , فهذا سائغ , وإن كان لا يدعى بمثل هذه الأسماء التي ليس فيها ما يدل على المدح كقول القائل : يا شيء , إذ كان هذا لفظاً يعم كل موجود ... "[1] .

والقاعدة في هذا الباب : أن ما يطلق عليه – تعالى – في باب الأسماء والصفات توقيفي , وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً : كالقديم , والشيء , والموجود , والقائم بنفسه , إذ باب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات [2] .

ولفظ " القديم " في لغة العرب : هو المتقدم على غيره , سواء سبقه عدم أو لم يسبقه كما قال تعالى : ﭽ   ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﭼ[3] , وقال : ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﭼ[4] , وقال : ﭽ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﭼ[5] , و" القديم " في اصطلاح المتكلمين هو : ما لا أول لوجوده , أو ما لم يسبقه عدم [6] .

وإذا أخبر عن الله بأنه قديم فالمراد : المتقدم على غيره الذي لم يسبقه عدم , وليس قبله شيء .

وقد ثبت بالأدلة العقلية والسمعية : أن كلّ ما سوى الله – تعالى – مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن , وأن الله انفرد بالقدم والأزلية [7] " فليس في مفعولاته قديم ,

---

[1] " مجموع الفتاوى " (9 / 300 – 301) , وانظر " الصفدية " (2 / 85) و " درء التعارض " (2 / 391) .

[2] انظر " بدائع الفوائد " (1 / 245 – 246) .

[3] سورة يوسف , الآية (95) .

[4] سورة الشعراء , الآية (75 – 77) .

[5] سورة يس , الآية (39) .

[6] انظر " الجواب الصحيح " (3 / 268 – 269) (4 / 483) , و " مجموع الفتاوى " (1 / 245) (12 / 105) , و " درء التعارض " (1 / 374 – 375) .

[7] انظر " مجموع الفتاوى " (6 / 230) .

وإن قُدِّر أنه لم يزل فاعلاً , وليس معه شيء قديم بقدمه , بل ليس في المفعولات قديم ألبته , بل لا قديم إلاَّ هو سبحانه , وهو وحده الخالق لكل ما سواه , وكل ما سواه مخلوق , كما قال تعالى : ﭽ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﭼ[1][2] " .

وهو - سبحانه – المختص بالقدم , كما اختص بالخلق , والإبداع , والإلهية , والربوبية [3] والعلم بربوبيته – تعالى - يستلزم العلم بقدمه .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله - : " وإن كان العلم بكونه رب العالمين يستلزم العلم بقدمه , ولكن ليس العلم بنفس الربوبية هو العلم بنفس القدم , بل قد يقوم العلم الأول بالنفس مع ذهولها عن الثاني , وقد يشك في قدمه مع العلم بأنه ربه , ويخطر له أن للرب رباً حتى يتبين له فساد ذلك , وقد ذكر النبي ذلك في الحديث الصحيح في قوله : " إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا , فيقول فمن خلق الله , فإذا وجد ذلك أحدكم فليستعذ بالله ولينته "[4]"[5] .

وقال ابن القيم – رحمه الله - : " ربوبيته - تعالى – لكل ما سواه تستلزم تقدمه عليه وحدوث المربوب "[6] .

---

[1] سورة الزمر , الآية (62) .

[2] " درء التعارض " (8 / 272 – 273) .

[3] انظر " المصدر السابق " (1 / 125) .

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ح (3276) , ومسلم في صحيحه ح (345) .

[5] " درء التعارض " (1 / 125) .

[6] " مدارج السالكين " (1 / 135) .

المبحث الثالث : إرسال الرسل وإنزال الكتب .

نعم الله – تعالى – على عباده كثيرة لا تعد ولا تحصى , كما قال تعالى : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭼ[1] , وأعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده : نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب , ولهذا امتن الله بها على عباده فقال : ﭽ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﯼ ﭼ[2].

وإرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الله – تعالى – لعباده أعظم من إنزال المطر , قال تعالى : ﭽ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﭼ[3], وقال : ﭽ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﭼ[4] .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله - : " والحق الذي يجب اعتقاده : أن الله – سبحانه – إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين , وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة عامّة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطلاع البذر "[5] .

وقال : " وإرسال الرسل وإنزال الكتب من أعظم نعمه على خلقه "[6] .

ومن لوازم ربوبيته - تعالى – رحمته بعباده وإنعامه عليهم , ولهذا قال شيخ الإسلام : " والله – تعالى – في القرآن يذكر آياته الدالة على قدرته وربوبيته , ويذكر آياته التي فيها نعمه على عباده , ويذكر آياته المبينة لحكمته , وهي

---

[1] سورة إبراهيم , الآية (34) .

[2] سورة آل عمران , الآية (164) .

[3] سورة الأنبياء , الآية (107) .

[4] سورة يونس , الآية (57 – 58) .

[5] " جامع الرسائل " (2 / 369) , وانظر " مجموع الفتاوى " (8 / 93) .

[6] " مجموع الفتاوى " (11 / 357) , وانظر (6 / 131 – 132) (8 / 205) .

متلازمة "[1] ومن أوجه ذلك : أن من لوازم ربوبيته – تعالى –نعمه على عباده , وقد أوضح ذلك ابن القيم – رحمه الله – حيث قال عند تفسير سورة الفاتحة : " فأول السورة رحمة , وأوسطها هداية , وآخرها نعمة , وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية , وحظه منها على قدر حظه من الرحمة , والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته , فلا يكون إلا رحيماً منعماً , وذلك من موجبات إلهيته "[2] .

وإذا كانت الربوبية من لوازمها نعمته – تعالى – على عباده ورحمته بهم , فإن من أعظم نعم الله على عباده ورحمته بهم : أن أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب فالربوبية إذاً : تستلزم إرسال الرسل وإنزال الكتب .

وقد فصَّل ذلك ابن القيم – رحمه الله – حيث بيّن أن ملكه – تعالى – الذي هو صفة من صفات الربوبية يستلزم إرسال الرسل وإنزال الكتب فقال عند تفسير سورة القيامة : " ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل , وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم , وهو الصواب , فإن الله – سبحانه – أنكر على من حسب أنه يُترك سدى : فلا يؤمر , ولا ينهى , ولا يثاب , ولا يعاقب . ولم ينف – سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد , بل نفاه نفي ما لا يليق نسبته إليه , ونفي منكرٍ على من حكم به وظنه . ثم استدل – سبحانه – على فساد ذلك , وبيَّن أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار , وتنقله فيها طوراً بعد طور حتى بلغ نهايته , يأبى أن يتركه سدى , فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص . وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى : ﭽ   ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ   ﯓ   ﯔ   ﭼ[3] , فجعل كمال ملكه , وكونه سبحانه الحق , وكونه لا إله إلا هو , وكونه رب العرش المستلزم

---

[1] " مجموع الفتاوى " (8 / 210) .
[2] " الفوائد " ص (41) .
[3] سورة المؤمنون , الآية (115 – 116) .

لربوبيته لكل ما دونه , مبطلاً لذلك الظن الباطل , والحكم الكاذب ... ولو كان نفي تركه سدى إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك : چ ڭ ڽ ڈ ڐ چ[1]إلى آخره , ومما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع , وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها , فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه , وثوابه وعقابه , وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه , وبعث المعاد ليوم يجزي فيه المحسن بإحسانه , والمسيء بإساءته , فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه , ولم يثبت له الملك الحق , ولذلك كان منكر ذلك كافراً بربه , وإن زعم أنه يقر بصانع العالم , فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال , والمستحق لنعوت الكمال "[2] .

وقال أيضاً : " واسمه الملك يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه من قدرته وتدبيره وعطائه ومنعه , وثوابه وعقابه , وبث رسله في أقطار مملكته , وإعلام عبيده بمراسيمه وعهوده إليهم , واستوائه على سرير مملكته , الذي هو عرشه المجيد "[3].

المبحث الرابع : فعله – تعالى – بمشيئته وقدرته

---

[1] سورة القيامة , الآية (37) .

[2] " التبيان " ص (94 – 95) .

[3] " مدارج السالكين " (3 / 342) وانظر (1 / 69 , 133) , والتبيان ص (41) , و " بدائع الفوائد " (4 / 233) , و " مفتاح دار السعادة " ص (374) (489) .

" من أعظم الأصول التي دل عليها القرآن في مواضع كثيرة جداً , وكذلك الأحاديث , وسائر كتب الله , وكلام السلف , وعليها تدل المعقولات الصريحة هو إثبات الصفات الاختيارية , مثل : أنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته , وكذلك يقوم بذاته فعله الذي يفعله بمشيئته "[1].

ومن الأدلة الدالة على ذلك :

قوله تعالى : ﭽ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﭼ[2] , وقوله : ﭽ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ[3] , وقوله : ﭽ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﭼ[4] , وقوله ﭽ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼ[5] , وقوله : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﭼ[6] , وقوله : ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ[7] .

ومن السنة :

قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى : " لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه , فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به , وبصره الذي يبصر به , ويده التي يبطش بها , ورجله التي يمشي بها , فبي يسمع , وبي يبصر , وبي يبطش , وبي يمشي , ولئن سألني لأعطينه , ولئن استعاذني لأعيذنه , وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن , يكره الموت وأكره مساءته , ولا بدّ له منه "[8] .

---

[1] " مجموع الفتاوى " (16 / 309 – 310) .
[2] سورة البقرة , الآية (117) .
[3] سورة آل عمران , الآية (47) .
[4] سورة آل عمران , الآية (59) .
[5] سورة الأنبياء , الآية (83 – 84) .
[6] سورة الفرقان , الآية (59) .
[7] سورة الروم , الآية (27) .
[8] أخرجه البخاري في صحيحه ح (6502) .

وقال : في حديث الشفاعة : " إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله "[1] .

والنصوص في ذلك أكثر من تحصر , واستقصاؤها متعذر[2] .

وأفعاله – تعالى – نوعان :

الأول : متعدية , وهي تقتضي مفعولاً , مثل : الخلق , والرزق , والإعطاء , والأحياء , والإماته . قال تعالى : ﭽ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﭼ[3] .

الثاني : أفعال لازمة , وهي لا تقتضي مفعولاً , كالاستواء , والنزول , والمجيء , والإتيان . قال تعالى : ﭽ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﭼ[4] .

وقد جمع الله - تعالى – بينهما في قوله : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭼ[5] , فذكر الفعلين , المتعدي واللازم , وكلاهما حاصل بمشيئته وقدرته[6] .

وربوبيته – تعالى – تستلزم فعله بمشيئته وقدرته , وقد بيّن ذلك شيخ الإسلام – رحمه الله – إجمالاً وتفصيلاً :

أما إجمالاً :

فقال : " ومسألة الصفات الاختيارية هي من تمام حمده , فمن لم يقرّ بها لم يمكنه الإقرار بأن الله محمود ألبته , ولا أنه رب العالمين , فإن الحمد ضد الذم ,

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ح (3340) (4712) , ومسلم في صحيحه ح (480) .

[2] انظر النصوص الكثيرة الدالة على هذا الأصل : " درء التعارض " (6 / 116 – 146) , و " مجموع الفتاوى " (6 / 222 – 227 , 233 – 236) .

[3] سورة الروم , الآية (40) .

[4] سورة الفجر , الآية (22) .

[5] سورة الحديد , الاية (4) .

[6] انظر " مجموع الفتاوى " (6 / 233) (8 / 19) (16 / 372 – 373) , و " درء التعارض " (2 / 3) , و " الصفدية " (2 / 23) .

والحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له , والذم هو الإخبار بمساوئ المذموم مع البغض له , وجماع المساوئ الحمد , فمن لم يكن له فعل اختياري يقوم به , بل ولا يقدر على ذلك , لا يكون خالقاً ولا رباً للعالمين .
والله – تعالى – يحمد نفسه بأفعاله , لقوله : ﭽ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭼ [1] , وقوله :ﭽ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭼ[2] , ﭽ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ   ﯠ ﭼ [3] , ونحو ذلك , فإذا لم يكن له فعل يقوم به باختياره امتنع ذلك كله , فإنه من المعلوم بصريح العقل أنه إذا خلق السماوات والأرض فلا بدّ من فعل يصير به خالقاً لها , وإلاّ فلو استمرّ الأمر على حال واحدة ولم يحدث فعلاً , لكان الأمر على ما كان عليه قبل أن يخلق , وحيئنذ فلم يكن المخلوق موجوداً , فكذلك يجب أن لايكون المخلوق موجوداً , إن كان الحال في المستقبل مثلما كان في الماضي , لم يحدث من الرب فعل هو خلق السموات والأرض "[4] . هذا على وجه الإجمال .
وأما تفصيلاً:
فقد بين – رحمه الله – أن صفات الربوبية تستلزم فعله –تعالى – بمشيئته وقدرته .
ومن صفات الربوبية التي تستلزم ذلك :
1- صفة الحياة
قال : ((والإرادة والاختيار مستلزمه للحياة والعلم , كما أن الحياة أيضا مستلزمه للعلم والإرادة، بل وللإرادة والحركة [5]كما قرر ذلك عثمان بن سعيد وغيره من أئمة

---

[1] سورة الفاتحة , الآية (2) .
[2] سورة الأنعام , الآية (1) .
[3] سورة الكهف , الآية (1) .
[4] "جامع الرسائل " (2 / 57 - 58) .
[5] لفظ "الحركة"أثبته طوائف من أهل السنة والحديث وهو الذي ذكره عثمان بن سعيد الدرامي في نقضه على المريسى, وذكر أن ذلك مذهب أهل السنة , ونفاه طوائف منهم : أبو الحسن التميمي وأبو سليمان الخطابي وكل من أثبت حدوث

السنة . وكما أن الحركة مستلزمه للإرادة والحياة , فالحياة أيضاً مستلزمه للحركة والإرادة , ولهذا كان أعظم آية في القرآن : ﭽ ﮞ   ﮬ ﭼ [1]
فالاسم الحي مستلزم لصفاته وأفعاله , وهو من أعظم البراهين العقلية على ثبوت صفات الكمال والمصحح لها , و المستلزم ثبوتها ونفي نقيضها , كالعلم والكلام والسمع والبصر وغير ذلك[2] .
وشيخ الإسلام –رحمه الله – ذكر ذلك عن أئمة السلف : كنعيم بن حماد كما ذكر عنه البخاري [3] فقال :"ولقد بين نعيم بن حماد –رحمه الله تعالى – أن كلام الرب ليس بخلق , وأن العرب لا تعرف الحي من الميت إلا بالفعل ، فمن كان له فعل فهو حي , ومن لم يكن له فعل فهو ميت " [4].

العالم بحدوث الأعراض , والمنصوص عن الإمام أحمد إنكار نفي ذلك ولم يثبت عنه إثبات لفظ "الحركة "وإن أثبت أنواعاً قد يدرجها المثبت في جنس الحركة , فإنه لما سمع شخصاً يروي حديث النزول ويقول : ينزل بغير حركة ولاانتقال ولا تغير حال أنكر أحمد ذلك وقال : قل كما قال رسول الله - فهو كان أغير على ربه منك . وأسعد الناس بالصواب والاتباع الذين أمسكوا عن الأمرين وقالوا : لا نقول يتحرك ولا ننفي ذلك ، فإنهم نطقوا بما نطق به النص وسكتوا عما سكت عنه . انظر "الاستقامة" (1/70-73) ، ومختصر الصواعق " (3/1231) .

[1] سورة البقرة , الآية (255) .

[2] " جامع الرسائل " (2 / 382 – 383) .

[3] البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري , ولد سنة (194 هـ) , محدث , حافظ , فقيه , مؤرخ , صاحب " الجامع الصحيح " أخرجه من زهاء ست مئة ألف حديث , قال : ما وضعت في كتابي " الصحيح " حديثاً إلاَّ اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين , وقال : صنفت " الصحيح " في ست عشرة سنة , وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى , توفي سنة (256 هـ) , انظر " سير أعلام النبلاء " (12 / 391) , وما بعدها , و " معجم المؤلفين " (3 / 130) .

[4] " خلق أفعال العباد " (2 / 192) .

والدارمي[1] حيث قال :
" أمارة ما بين الحي والميت التحرك , كل حي متحرك لا محالة , وكل ميت غير متحرك لا محالة "[2] [3].
فالسلف – رحمهم الله – بينوا أن إثبات الحياة لله – تعالى – يستلزم إثبات الفعل له .
2- صفة القدرة :
قال شيخ الإسلام : " وكمال القدرة يستلزم أن يكون فعالاً لما يريد "[4] .
3-صفة العلم :
قال : " وعلمه بكل شئ يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته " [5]
4- صفة التدبير :
قال : " ولا يمكن القول بأن الله يدبر هذا العالم إلا بذلك – أي إثبات قيام الأفعال به تعالى – كما اعترف بذلك أقرب الفلاسفة إلى الحق كأبي البركات صاحب " المعتبر" وغيره ". [6]

---

[1] الـدارمي : الإمـام ، العلامة ، الحافظ ، الناقد ، أبو سـعيد عثمان بن سعيد التميمي الـدارمي ، طـوّف الأقـاليم في طلب الحـديث ، سـمع مسـددبن مسـرهد ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وإسحاق بن راهويه ، كان لهجاًبالسنة ، بصيراًبالمناظرة ، جَـذَعاً في أعين المبتدعة ، تـوفي سـنة(280)ه . انظر " سـير أعلام النبلاء " (13/319) ومابعدها .

[2] " نقض الدارمي على المريسي " (2 / 215) .

[3] انظر " شرح حديث النزول " ص (409 , 412) , و " شرح الأصبهانية " ص (231 , 251) , و " مجموع الفتاوى " (18 / 227 – 228) .

[4] " مجموع الفتاوى"(14 / 133) .

[5] " الرد على المنطقيين " (1 / 216) .

[6] " مجموع الفتاوى " (16 / 383) ، وانظر "الرد على المنطقيين " (2 / 191) , و " بيان تلبيس الجهمية " (2 / 297 – 298) .

و أيضاً فإن شيخ الإسلام – رحمه الله - بيّن أن وجوده تعالى – يستلزم دوام خالقيته فقال : "ولكن لم يزل فعالاً خالقاً , ودوام خالقيته من لوازم وجوده " [1]
ودوام خالقيته دوام فعله بخلق المخلوقات , فوجوده – تعالى – يستلزم دوام فعله .
وتلخيص ما سبق يتبين بأمرين :
الأول : بقول ابن القيم – رحمه الله - : " صفة الربوبية تستلزم جميع صفات الفعل "[2]
وقوله : " إثبات ربوبيته – تعالى – يقتضي فعله بمشيئته واختياره وتدبيره وقدرته , وليس يصّح في عقل ولا فطرة ربوبية الشمس لضوئها , والماء لتبريده وللنبات الحاصل به , ولا ربوبية شئ أبداً لما لا قدرة له عليه ألبته ! وهل هذا إلاّ تصريح بجحد الربوبية " [3]
الثاني : بمعرفة العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات , فإنه قد تقدم بيان : أن توحيد الربوبية يستلزم إثبات الأسماء والصفات ، ومن ذلك : إثبات صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته .

المبحث الخامس : مباينة الرب للعالم .

" المباينة هي : المفارقة , وهي ضد المجامعة " [4]
وهي تطلق بإزاء أربعة معان[5] :
الأول : المباينة المقابلة للماثلة والمشابهة والمقاربة . كما يقال هذا قد بان عن نظرائه أي خرج عن مماثلتهم ومشابهتهم ومقاربتهم بما امتاز به من الفضائل .

---

[1] " مجموع الفتاوى " (16 / 95) .
[2] " مدارج السالكين " (1 / 129) .
[3] " المصدر السابق " (1 / 131) .
[4] " مجموع الفتاوى " (5 / 269) .
[5] حكى شيخ الإسلام هذه المعاني عن أهل الكلام والنظر . انظر " مجموع الفتاوى " (5 / 279 – 280) .

و يقال : بين هذا وهذا بون بعيد وبين بعيد .
والناس متفقون على أن الله – تعالى – ليس له مثل في الموجودات , وأن مباينته للمخلوقين في صفاتهم أعظم من مباينة كل مخلوق لمخلوق , وأنه أعظم و أكبر من أن يكون مماثلاً لشئ من المخلوقات أ, مقارباً له في صفاته .
الثاني : المباينة المقابلة للمجامعة والمداخلة والمخالطة .
وهذا كقول عبدالله بن المبارك لما قيل له : بماذا نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه , ولا نقول كما تقول الجهمية : إنه ههنا [1] . وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف كما سيأتي .
الثالث : المباينة المقابلة للمماسة و الملاصقة .
وهذه أخص من التي قبلها , فإن ما باين الشئ فلم يداخله قد يكون مماساً له متصلاً به , وقد يكون منفصلاً عنه غير مجاور له .
الرابع : أن يراد بالمباينة عدم المحايثة والمداخلة فقط من غير أن يدخل في ذلك معنى الخروج وقد يوصف بعض النفاة المعدوم بمثل هذه المباينة فيقول : إن المعدوم مباين للموجود بهذا الاعتبار .
والمباينة العامة التي هي المعنى الثاني المقابلة للمجامعة والمداخلة والمخالطة هي المشهورة في اللغة وكلام الناس وكلام العلماء.[2]
و المباينة فى كلام الأئمة "لم يريدوا بها عدم المماثلة ، فان هذا لم ينازع فيه احد ، ولا ألزموا الناس بأن يقروا بالمباينة الخاصة (التي هي المعنى الثالث) فإنهم قالوا : بائن من خلقه ولم يقولوا : بائن من العرش وحده , فجعلوا المباينة بين المخلوقات عموماً ، ودخل في ذلك

---

[1] أخرجه الدرامي في "الرد على الجهمية " ص (47) والبيهقي في "الأسماء والصفات "(2 / 336) .
[2] انظر " مجموع الفتاوى " (5 / 279-281) ..

العرش وغيره فإنه من المخلوقات ، فعلم أنهم لم يتعرضوا في هذه المباينة لإثبات ملاصقه ولا نفيها " [1].

والسلف و العلماء – رحمهم الله – قد نصوا على أن الله – سبحانه وتعالى - على عرشه بائن من خلقه كما نقل ذلك عنهم شيخ الإسلام . ومن أولئك :

- ابن المبارك . وقد تقدم قوله .
- أبو حازم وأبو زرعه :

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : سألت أبي وأبا زرعه عن مذهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك فقالا : " أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً و عراقاً ومصراً وشاماً ويمناً فكان من مذهبهم : أن الله على عرشه ، بائن من خلقه كما وصف نفسه ، بلا كيف ، أحاط بكل شئ علماً " [2]

- هشام بن عبيد الله الرازي[3] :

حُبس رجل في التجهم فتاب ، فجيء به إلى هشام بن عبيد الله الرازي ليمتحنه ، فقال له : أتشهد أن الله على عرشه ، بائن من خلقه ؟ فقال لا أدري ما بائن من خلقه ، فقال : ردوه فإنه لم يتب بعد "[4] .

- ابن أبي شيبة [5]:

---

[1] " مجموع الفتاوى " (5 / 280) .

[2] أخرجه اللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " (1 / 198) .

[3] هشام بن عبيد الله الرازي , السني , الفقيه , أحد أئمة السنة , حدث عنه ابن أبي ذئب , ومالك , وحماد بن زيد , كان من بحور العلم , مات سنة (221 هـ) .
انظر " سير أعلام النبلاء " 10 / 446 " .

[4] أخرجه أبو إسماعيل الأنصاري في " ذم الكلام وأهله " (4/ 338-339) .

[5] الإمام الحافظ , المسنِد , أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي الكوفي , سمع أباه , وعمّيه أبا بكر والقاسم , وعلي بن المديني , وخلقاً سواهم , جمع وصنف , وله تاريخ كبير

قال : " فسرت العلماء – وهو معكم – يعني بعلمه , ثم تواترت الأخبار أن الله خلق العرش فاستوى عليه بذاته , فهو فوق العرش بذاته , مخلِّصاً من خلقه بائناً منهم "[1] .

- ابن خزيمة :

قال : " من لم يقر بأن الله فوق سماواته , على عرشه , بائن من خلقه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه , وألقي على مزبلة لئلا يتأذى بريحه أهل القبلة وأهل الذمة "[2].

- ابن بطة :[3]

قال : " أجمع المسلمون من الصحابة والتابعين أن الله على عرشه فوق سماواته , بائن من خلقه "[4] .

وأقوال السلف والعلماء في ذلك كثيرة [5].

, ولم يُرزق حظاً بل نالوا منه , وكان من أوعية العلم , مات سنة (297 هـ) . انظر " سير أعلام النبلاء " (14 / 21 – 22) .

[1] " العرش " ص (228 – 292) مع اختلاف يسير عما نقله شيخ الإسلام .

[2] أخرجه الصابوني في " عقيدة السلف وأصحاب الحديث " ص (187) , وأورده الذهبي في العلو (2 / 1214) , وابن القيم في " اجتماع الجيوش الإسلامية " ص (147) .

[3] الإمام القدوة , العابد , الفقيه , المحدث , شيخ العراق , أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد العُكبري , المعروف بابن بطة , مصنف كتاب " الإبانة الكبرى " ولد سنة (304 هـ) , رحل إلى مكة والبصرة وغيرها في طلب الحديث , ثم لزم بيته أربعين سنة فصنف كتبه وهي تزيد على مائة , توفي سنة (387 هـ) . انظر " سير أعلام النبلاء " (16 / 529 – 533) و " الأعلام " (4 / 197) .

[4] " الإبانة " الكتاب الثالث (3 / 136) مع اختلاف يسير .

[5] انظر الأقوال السابقة وغيرها " بيان تلبيس الجهمية " (5 / 53 – 69) , و " الفتوى الحموية " ص (299) وما بعدها , و " درء التعارض " (6 / 166 – 267) .

قال شيخ الإسلام بعد أن ذكر كلام السلف والعلماء في إثبات علو الله ومباينته : " وهذا باب واسع لا يحصيه إلا الله تعالى , فإن الذين نقلوا إجماع السلف , أو إجماع أهل السنة , أو إجماع الصحابة والتابعين على أن الله فوق العرش , بائن من خلقه , لا يحصيهم إلا الله , وما من أحد من هؤلاء المذكورين إلا وشهرته في الإسلام بالعلم والدين أعظم من أن تسع لها هذا الموضع , وإن كان بعضهم أفضل من بعض , وفي شيء , وما زال علماء السلف يثبتون المباينة , ويردون قول الجهمية بنفيها "[1] .

وعلوه – سبحانه وتعالى – ومباينته للمخلوقات معلوم بالنقل , والعقل , والفطرة والإجماع .

قال شيخ الإسلام : " وكذلك علوه على المخلوقات ومباينته لها مما يعلم بالعقل , كما أثبته بذلك الأئمة مثل أحمد بن حنبل وغيره , ومثل عبد العزيز الكناني , وعبد الله بن سعيد بن كلاب "[2] .

وقال : " وأما كونه – تعالى – عالياً على مخلوقاته بائناً منهم : فهذا أمر معلوم بالفطرة الضرورية التي يشترك فيها جميع بني آدم "[3] .

وربوبيته – تعالى – تستلزم مباينته للعالم , ومباينة الرب للعالم يلزم منها أن يكون فوقه.

قال شيخ الإسلام : " ولكن منشأ غلط كثير من الناس هنا : أن الجهة نوعان : إضافية متغيرة , وثابتة لازمة حقيقة , فالأولى : هي بحسب الحيوان , فإن كل

---

[1] " بيان تلبيس الجهمية " (5 / 69 – 70) .

[2] " التدمرية " ص (149 – 150) , وانظر " منهاج السنة " (2 / 326 – 329) , و " مجموع الفتاوى " (2 / 474 – 475) , وانظر ما نقله شيخ الإسلام عن الأئمة وغيرهم في إثبات ذلك بالعقل : " بيان تلبيس الجهمية " (5 / 102 – 131) , و " مجموع الفتاوى " (5 / 310 – 320) , و " درء التعارض " (6 / 137 – 148) .

[3] " مجموع الفتاوى " (4 / 45) .

حيوان له ست جهات : جهة يؤمها هي أمامه , وجهة يخلفها هي خلفه , وجهة تحاذي يمينه , وجهه تحاذي يساره , وجهه فوقه , وجهه تحته . وهذه الجهات تتبدل وتتغير بحسب حركته , وليس له صفة لازمة ثابتة , وإنما الجهة اللازمة الثابتة الحقه هي : جهتا العلو والسفل فقط , فالعلو ما فوق العالم , والسفل سجين وأسفل السافلين , وهو أسفل العالم , وقعره وجوفه . وإذا كان الأمر كذلك لزم من مباينة الله للعالم أن يكون فوقه , وليس هناك شيء آخر يجوز أن يكون جهة لله – تعالى – لا يمين العالم ولا يساره ولا تحته "[1] .

وقد بيّن شيخ الإسلام أن ربوبيته تعالى تستلزم مباينته للعالم وعلوّه عليه من عدة أوجه :

1. أن وجوده – تعالى – يلزم منه أن يكون فوق العالم , ويوجب المباينة . قال – رحمه الله - : " كونه فوق العالم من لوازم وجود نفسه "[2] .

وقال : " فكونه موجوداً يوجب المباينة التي تقتضي الإشارة إليه , وكونه صمداً مقصوداً يقتضي الدعاء المتضمن الإشارة إليه "[3] .

2. أن ذاته , وقيامه بنفسه الذي من صفات ربوبيته تستلزم المباينة :

قال : " كونه فوق العالم من لوازم كونه خارج العالم , وكونه خارج العالم من لوازم ذاته وكونه قائماً بنفسه كما تقدم ذلك , فصار كونه فوق العالم من لوازم وجود نفسه " [4]

3. أن من جعل الرب محايثاً للمخلوقات امتنع أن يكون عنده خالقاً لها أو مبدعاً أو غنياً عنها :

---

[1] " بيان تلبيس الجهمية " (3 / 614 – 615) .

[2] " المصدر السابق " (5 / 320) .

[3] " المصدر السابق " (4 / 525 – 526) .

[4] " المصدر السابق " (5 / 320) .

قال : " ... كل من جعله محايثاً[1] للمخلوقات امتنع أن يكون عنده خالقاً لها أو مبدعاً أو علة أو يكون غنياً عنها ... "[2] .

4. أن عدم القول بالمباينة يلزم منه القول بافتقار الله إلى العالم :

قال : " لزم إذا جُعل (أي الرب) حالاً في العالم أن يكون مفتقراً إلى العالم محتاجاً إليه , لا يقوم وجوده إلا بالعالم مع أن العالم قائم بنفسه بدونه , وهذا يقتضي أن يكون العالم غنياً عن الله – تعالى – والله مفتقر إليه , وأن يكون هو إلى العالم أحوج من العالم إليه , أو أن يكون كل منهما محتاجاً إلى الآخر , وهذا قد صرَّح به الاتحادية كصاحب الفصوص وقال بأن العالم والحق كل منهما محتاج إلى الآخر , ونحو ذلك مما قد ذكرناه في غير هذا الموضع ويقول إن أعيان العالم هي ثابته في العدم , مستغنية عن الحق , وأن وجود الحق ظهر فيها ... [3] والمقصود هنا : التنبيه على أن أولئك الجهمية الذين لا يثبتون المباينة يضطرون إلى أن يجعلوا الرب مفتقراً إلى العالم , إذ جعلوه حالاً فيه مع استغناء العالم عنه , وإن جعلوه محلاً له مع أن ذاته لا تباين ذات العالم بل تحايثه كما هو قولهم , فإنهم يقولون بأنه لا وجود للرب إلا بوجود العالم , ولا يمكن وجود الرب بدون وجود العالم , كما لا يمكن وجود المحل الذي هو الجوهر[4] والهيولى[5] بدون ما يحل فيه من الأعراض أو الصورة

---

[1] محايث : بمعنى مجامع ومداخل . انظر " مجموع الفتاوى " (5 / 269) .

[2] " جامع المسائل " (3 / 191) .

[3] انظر " الفتوحات المكية " (4 / 212 – 213) .

[4] الجوهر هو : ما يقوم بذاته فلا يحتاج في وجوده إلى شيء آخر يقوم فيه . انظر " ضوابط المعرفة " ص (328) .

[5] الهيولى : لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة , ولا وجود للهيولى بالفعل إلا متشكلة بصورة ما من الصور الجسمانية .

, فيكون العالم مقوماً لوجود الرب , والرب محتاج إليه أيضاً , وهو أعظم من قدم جميع العالم "[1] .
وقال أيضاً : " وكل من قال : " بحلول الله في شيء من المخلوقات من النصارى وغيرهم يلزمهم أن يكون مفتقراً إلى ما حلَّ فيه , فإنه لا حقيقة للحلول إلاّ هذا "[2].
والقول بأن الله – تعالى – مفتقرٌ إلى العالم محتاج إليه هو قدح في غناه تعالى الذي هو من صفات ربوبيته , وهو أعظم من القول بقدم العالم الذي هو من قوادح الربوبية فتبين بذلك أن القول بعدم المباينة قدح في ربوبيته الله – تعالى – وهذا يدل على أن ربوبيته – تعالى – تستلزم مباينته للعالم .
5. أنّ من لم يعتقد المباينة والعلو فهو في الحقيقة معطل لربه نافٍ له .
قال : " والقائل الذي قال : من لا يعتقد أن الله في السماء فهو ضال : إن أراد بذلك من لا يعتقد أن الله في جوف السماء بحيث تحصره وتحيط به فقد أخطأ , وإن أراد بذلك من لم يعتقد ما جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الله فوق سماواته على عرشه , بائن من خلقه فقد أصاب . فإن من لم يعتقد ذلك يكون مكذِّباً للرسول متبعاً لغير سبيل المؤمنين , بل يكون في الحقيقة معطِّلاً لربه نافياً له , فلا يكون له في الحقيقة إله يعبده , ولا رب يسأله ويقصده , وهذا قول الجهمية ونحوهم من أتباع فرعون المعطل "[3] .

انظر " التعريفات " ص (379) , و " ضوابط المعرفة " ص (349) .
[1] " بيان تلبيس الجهمية " (5 / 44 – 46 , 49) , وانظر (5 / 211 – 212) .
[2] " الجواب الصحيح " (4 / 376) .
[3] " جامع المسائل " (3 / 200) وانظر " بيان تلبيس الجهمية " (1 / 135 , 388) (3 / 576 – 378 , 530) (4 /

وإذا كان من لم يعتقد المباينة فهو في الحقيقة معطل لربه نافٍ له , فإن من أثبت المباينة فإنه مثبت لربه غير معطل له , وهذا يبين أن هناك علاقة بين الربوبية وإثبات المباينة وهي أن الربوبية تستلزم مباينة الله للعالم .

6. أن أصل ضلال الاتحادية : أنهم لم يعرفوا مباينة الله لمخلوقاته وعلوه عليه .

قال : " وأصل ضلال هؤلاء (أي الاتحادية) : أنهم لم يعرفوا مباينة الله لمخلوقاته , وعلوه عليها , وعلموا أنه موجود فظنوا أن وجوده لا يخرج عن وجودها , بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أنه الشمس نفسها "[1] .

فلمَّا لم يثبتوا المباينة والعلو لله تعالى ضلوا في باب الربوبية وقالوا بالاتحاد فدل ذلك أن هناك علاقة بين الربوبية وبين ا لمباينة والعلو وهي أن الربوبية تستلزم المباينة والعلو وأن الانحراف في الربوبية بالقول بالاتحاد من أسبابه : نفي العلو والمباينة .

وتلخيص ما سبق يتبين بأمرين :

الأول : بقول ابن القيم – رحمه الله - : " فإن الربوبية المحضة تقتضي مباينة الرب للعالم بالذات كما باينهم بالربوبية وبالصفات والأفعال , فمن لم يثبت رباً مبايناً للعالم فما أثبت رباً "[2] .

الثاني : بمعرفة العلاقة بين الربوبية والأسماء والصفات , فإنه قد تقدم بيان : أن الربوبية تستلزم إثبات الأسماء والصفات لله تعالى , ومن ذلك : إثبات علوه - تعالى - ومباينته للعالم .

---

170) .

[1] " مجموع الفتاوى " (2 / 297) , وانظر (4 / 59) , و " المستدرك على مجموع الفتاوى " (1 / 37) .

[2] " مدارج السالكين " (1 / 126) .

المطلب الأول : تقرير شيخ الإسلام لأخص وصف الرب .

قرر شيخ الإسلام – رحمه الله – أن أخص وصف الرب – تعالى – ليس هو صفة واحدة ، بل كل ما ثبت للرب – تعالى من الأسماء والصفات فهو يختص به.

واختصاصه – تعالى- بذلك على وجهين :

الأول : اختصاصه بنوع لايوصف به غيره ، مثل : كونه رب العالمين ، وانه بكل شيء عليم ، وعلى كل شي قدير ونحو ذلك .

والثاني : اختصاصه بما لا يماثله فيه غيره ، كالحياة والعلم ، فالعبد وان وصف بالحياة والعلم ونحو ذلك ، فالرب مختص بذلك بما لا يماثله فيه المخلوق فهو – سبحانه – منزه عن أن يكون له مثل فى شي من صفات كماله .

فكل صفة له _ تعالى _ تختص به ، وتوجب امتيازه بها عن خلقه [1]

وشيخ الإسلام – رحمه الله – قسم ما يختص به الرب إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما يختص به بكل حال مثل: رب العالمين.

الثاني: ما يختص بكماله واطلاقه مثل : الملك .

الثالث: ما يختص بكماله. مثل: الموجود.

قال – رحمه الله: "والرب – تعالى- متميزٌ عن غيره بجميع خصائصه. والناس قد تكلموا فى اخص وصفه . فقال من قال من المعتزلة : هو القدم ، وقال الأشعري وغيره : هو القدرة على الاختراع ، وقال من قال من الفلاسفة : هو وجوب الوجود .

والتحقيق : ان كل وصف من هذه الأوصاف فهو من خواصه ، ومن خواصه انه بكل شي عليم ، وانه على كل

---

[1] انظر " بيان تلبيس الجهمية " (5 / 16) , و " الصفدية " (2 / 39) , " الاستغاثة " (1 / 177 – 178) ، و " الرد على الشاذلي " ص (97) .

شي قدير ، وانه الله الذي لا اله إلا هو ، وانه الرحمن الرحيم .

وكل اسم لا يسمى به غيره[1] : كالله ، والقديم الأزلي ، ورب العالمين ، ومالك يوم الدين ، ونحو ذلك فمعناه من خصائصه .
والاسم الذي يسمى به غيره وهو عند الإطلاق ينصرف إليه : كالملك ، والعزيز
والحليم يختص بكماله وإطلاقه ، فلا يشركه فى ذلك غيره .
والاسم الذي يسمى به غيره ولا ينصرف إطلاقه إليه : كالموجود ، والمتكلم ، والمريد يختص أيضاً بكماله ، وإن لم يختص بإطلاقه .
ومن المعلوم أن الأسماء التي يختص بها بكل حال , أو عند الإطلاق ، أو تنصرف إليه بالنية يجب أن يعلم المتكلم بها اختصاصه بها وإلا لم يخصه بها . وتخصيصه بها مستلزم لمعرفة ما يختص به ويمتاز به غيره ، فلابد أن يكون فى القلوب من المعرفة ما يختص به ،ويمتاز به عن غيره "[2] .

---

[1] يراد بالاسم هنا : ماهو أعم من الاسم الخاص الذي هوعلم على الذات , بدليل أن شيخ الإسلام ذكر هنا " القديم " بأنه من الأسماء مع أنه نصَّ في موضع آخر بأن القديم ليس من أسماء الله . انظر ص (112) .

[2] درء التعارض (10/279-280) .

المطلب الثانى: اخص وصف للرب عند المتكلمين ومناقشة قولهم.

الفرع الأول : قولهم وشبهتهم فى ذلك .

قول المعتزلة وشبهتهم :

أخص صفات الرب عند أكثر المعتزلة : القدم

قالوا : فلا تكون له – تعالى- صفه قديمة لئلا يكون في الوجود قديمان ، فلو أثبتنا له حياه وعلماً وقدرة لزم أن تكون هذه آلهة ، فإن القدم أخص وصفه فلو أثبتنا قديماً ليست هي الذات لزم أن تشارك الذات في أخص وصفها فتكون ذاتاً أخرى قائمة بنفسها .

ومقصود المعتزلة بذلك: أن لا يثبتوا لله - تعالى- صفة قديمة لامتناع المشاركة فى أخص وصفه [1] .

قول الأشعرية وشبهتهم :

اخص وصف الرب-تعالى- عند الأشعري وغيره : القدرة على الاختراع .

قالوا : لأن الخالق على الحقيقة هو الله – تعالى- لا يشاركه في الخلق غيره .

ومقصودهم بذلك: إثبات انه لا يشركه غيره فى الخلق .

---

[1] انظر " درء التعارض " (2 / 391) (5 / 46) (9 / 377) (279) , و " منهاج السنة " (2 / 600) , و " الصفدية " (2 / 227) , و " الاستغاثة " (1 / 173 – 174) , و " التدمرية " ص (117) , و " الجواب الصحيح " (5 / 14) , وانظر " المختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار " (1 / 169) , و " التبصرة في التوحيد والعدل " (35 – 36) , و " الملل والنحل " (1 / 38) .

وهو رد على القدرية القائلين بان الله – تعالى- لم يخلق أفعال الحيوان وعلى الفلاسفة وأتباعهم من أهل النجوم والطبع القائلين بفاعل غير الله [1] .

الفرع الثاني : مناقشة شيخ الإسلام لهم .

مناقشة شيخ الإسلام للمعتزلة :

ناقش شيخ الإسلام المعتزلة ورد عليهم بعدة أوجه :

1. أن ما ذكروه من أن أخص وصف الرب هو القدم هو من جملة خصائصه – تعالى - , وأخص وصف الرب ليس هو صفة واحدة , بل " خصائص الرب التي لا يوصف بها غيره كثيرة , مثل : كونه رب العالمين , وأنه بكل شيء عليم , وعلى كل شيء قدير , وأنه الحي القيوم , القائم بنفسه , القديم , الواجب الوجود , المقيم لكل ما سواه , ونحو ذلك من الخصائص التي لا تشركه فيها صفة ولا غيرها "[2] .
2. قولهم : " أخص صفات الرب أن يكون قديماً , فلا تكون له صفة قديمة لئلا يكون في الوجود قديمان " عبارة موهمة , توهم أن أهل الإثبات للأسماء والصفات أثبتوا إلهين قديمين , وهم إنما أثبتوا إلهاً واحداً موصوف بصفاته التي يستحقها , وهو – سبحانه – قديم بصفاته القديمة , والصفة القديمة لا

[1] انظر " بغية المرتاد " ص (261) , و " الاستغاثة " (1 / 172 – 173) , " الصفدية " (1 / 148) , و " بيان تلبيس الجهمية " (5 / 250) , و " منهاج السنة " (3 / 294) , و " درء التعارض " (1 / 226) (9 / 377) (10 / 279) , و " الجواب الصحيح " (3 / 294) , وانظر " الملل والنحل " (1 / 86) , و " نهاية الاقدام " ص (91) .

[2] " درء التعارض " (5 / 46) (10 / 279) .

تكون إلهاً , كما أن صفة الإنسان المحدث لا تكون إنسانا , وكذلك صفة النبي لا تكون نبياً[1] .

3. أن القدم ليس من خصائص الذات المجردة عن الصفات التي يدعيها المعتزلة , بل هو من خصائص الذات الموصوفة بالصفات , وإلا فالذات المجردة لا وجود لها فضلاً عن أن تختص بالقدم[2] .

مناقشة شيخ الإسلام للأشعرية :

ناقش شيخ الإسلام الأشعرية وردّ عليهم من عدة أوجه :

1. أن ما ذكروه من أن أخص وصف الرب هو القدرة على الاختراع هو من جملة خصائصه , وأخص وصف الرب ليس هو صفة واحدة , بل علمه بكل شيء من خصائصه , وقدرته على كل شيء من خصائصه , وخلقه لكل شيء من خصائصه[3] .
2. تقرير : أن الله خالق كل شيء , لا خالق غيره هو مذهب سلف الأمة وأئمتها , وهو أحسن ما امتاز به الأشعري عن طوائف المتكلمين , لكن بالغ في ذلك فأخطأ حيث جعل هذا وحده أخص وصف الرب وأنه معنى الإلهية , وزاد من زاد منهم في ذلك أشياء ليست من السنة , بل تخالف السنة حتى ردوا بدعة ببدعة , فدخل بعضهم في إثبات الجبر الذي أنكره السلف

---

[1] انظر " الصفدية " (2 / 227 – 228) , و " التدمرية " ص (118) .

[2] انظر " التدمرية " ص (118) .

[3] انظر " الاستغاثة " (1 / 177 – 178) , و " بيان تلبيس الجهمية " (5 / 250) , و " منهاج السنة " (3 / 294) , و " درء التعارض " (10 / 279) .

والأئمة , وأنكر من أنكر منهم ما جعله الله – تعالى – من الأسباب حتى خرجوا عن الشرع والعقل[1] .

3. جعلهم أخص وصف الـرب القـدرة على الاخـتراع وأنه معـنى الإلهية , باطل , فـإن " الإله " بمعـنى المألوه المعبود الذي يسـتحق العبـادة , ومشـركو العـرب كـانوا مقـرين بـأن الله وحـده خـالق كل شيء وكانوا مع هذا مشركين ,

قال تعالى : ﭽ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﭼ[2][3] , وقد سبق بيان معنى " الإله " وموقف مشركي العـرب من توحيد الربوبية على وجه التفصـيل , وهو ردٌّ عليهم .

المطلب الأول : صفة الخلق

عرَّف شيخ الإسلام " الخلق " بقوله : " هو إبداع الكائنات من العدم " [4] .

وعرفه في موضع آخر بقوله : " والخلق هو الإبداع بتقدير "[5] .

ومن خلال تعريف "الخلق" يتبين أنه يجمع معنيين :

الأول: الإبداع والبرء .

والثاني : التقدير والتصوير[6] .

واسم الله "الخالق" ورد في القرآن على أربع صور :

الأول : ورد مفرداً ، في قوله تعالى: ﭽ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﭼ[7] , وقوله ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ[8] .

[1] انظر " بغية المرتاد " ص (261 – 262) .
[2] سورة العنكبوت , الآية (61) .
[3] انظر " درء التعارض " (1 / 226) .
[4] " مجموع الفتاوى " (6 / 357) .
[5] المصدر السابق (16 / 60) .
[6] المصدر السابق (8 / 404) , و " بغية المرتاد " ص (240) .
[7] سورة فاطر , الآية (3) .
[8] سورة الواقعة , الآية (59) .

الثاني : مضافاً إضافة عامة ، في قوله تعالى : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭼ[1] .
الثالث : مقروناً ، في قوله تعالى : ﭽ ﯦ ﯧ ﯨ ﭼ[2] , وقوله : ﭽ ﯛ ﯜ ﯝ ﭼ[3] .

الرابع : مفضلاً ، في قوله تعالى : ﭽ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﭼ[4] .[5]
والأنبياء وأتباعهم وجماهير الأمم متفقون على أن الله خلق السماوات والأرض ، فهي محدثة بعد أن لم تكن ، وكذلك أساطين الفلاسفة "[6] .
ويؤمن أهل السنة والجماعة , بأن الله خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات ، فجميع ما سوى الله من الأعيان وصفاتها وأحوالها مخلوقة لله ، لا خالق سواه[7] .
والله - تعالى - مختص بالخلق ، منفرد به ، لا يقدر عليه غيره [8]ولا يستحق غيره أن يسمى خالقاً[9] .
والخلق من خصائص الربوبية كما قال شيخ الإسلام : " وقوله ﭽ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭼ[10] , نفى للشركاء

---

[1] سورة الأنعام الآية (102) , والرعد , الآية (16) , والزمر , الآية (62) , وغافر الآية , (62) .
[2] سورة الحشر الآية , (24) .
[3] سورة الحجر , الآية (86) .
[4] سورة المؤمنون , الآية (14) .
[5] انظر " المستدرك على مجموع الفتاوى " (1 / 46) .
[6] انظر " الرد على المنطقيين " (2 / 188) .
[7] انظر " مجموع الفتاوى " (8 / 63 , 236 , 519) , و " درء التعارض " (10 / 27) , و " بغية المرتاد " ص (261) .
[8] انظر " درء التعارض " (1 / 125) , و " النبوات " (2 / 1068) .
[9] انظر " مجموع الفتاوى " (20 / 182) .
[10] سورة الإخلاص , الآية (4) .

والأنداد ، يدخل فيه كل من جعل شيئاً كفواً لله في شئ من خواص الربوبية ، مثل خلق الخلق ... " [1] .

وقال : " ومعلوم أنه لم يعتقد أحد فيها(أي الأصنام)أنها تخلق الأعيان , وأنها تفعل ما تشاء ، ونحو ذلك من خصائص الربوبية " [2] .

وصفة " الخلق " من أظهر صفات الربوبية ، ولهذا فإن شيخ الإسلام لما عرّف توحيد الربوبية ذكر في جميع تعريفاته صفة الخلق ، وفي غالب تلك التعريفات يعرف توحيد الربوبية بأنه الإقرار بأنه تعالى خالق كل شئ دون أن يذكر صفات الربوبية الأخرى [3] .

وقد تحدث شيخ الإسلام عن مسائل كثيرة متعلقة بصفة " الخلق " من ذلك ما يلي :

المسألة الأولى : أن الله لم يخلق شيئاً إلا لحكمة.

بيّن شيخ الإسلام – رحمه الله – أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا لحكمة، قد يعلم بعض العباد بعضها ، وقد يخفى عليهم ما يخفى.

قال – رحمه الله - : " ان الله لم يخلق شيئاً إلا لحكمة قال تعالى : ﭽ   ﭼ [4] وقال :ﭽ   ﭼ [5] فالمخلوق باعتبار الحكمة التي خلق لأجلها خير وحكمة ،وإن كان فيه شر من جهة أخرى فذلك أمر عارض جزئي ليس شراً محضاً ، بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح هو خير من الفاعل الحكيم ، وإن كان شراً لمن قام به ...والذي يجب على العبد أن يعلم أن علم الله وقدرته وحكمته ورحمته في غاية الكمال الذي لايتصور زيادة عليها ، بل كلما أمكن من الكمال

---

[1] " مجموع الفتاوى " (2 / 449) .

[2] " الإيمان الأوسط " ص (452) , وانظر " مجموع الفتاوى " (6 / 67) .

[3] انظر تعريفات توحيد الربوبية ص (65-66) .

[4] سورة السجدة ، الآية (7).

[5] سورة النمل ، الآية (88).

الذي لانقص فيه فهو واجب للرب تعالى ، وقد يعلم بعض العباد بعض حكمته ، وقد يخفى عليهم منها مايخفى .
والناس يتفاضلون في العلم بحكمته ورحمته وعدله ، وكلما ازداد العبد علماً بحقائق الأمور ازداد علماً بحكمة الله وعدله ورحمته وقدرته ، وعلم أن الله منعم عليه بالحسنات عملها وثوابها ، وأن مايصيبه من عقوبات ذنوبه فبعدل الله تعالى ، وأن نفس صدور الذنوب منه – وإن كان من جملة مقدورات الرب – فهو لنقص نفسه وعجزها وجهلها الذي هو من لوازمها ، وان الرب مع أنه قد خلق النفس وسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، فإلهام الفجور والتقوى وقع بحكمة بالغة ، لو اجتمع الأولون والآخرون من عقلاء الآدميين على أن يروا حكمة أبلغ منها لم يروا حكمة أبلغ منها . لكن تفصيل حكمة الرب مما يعجز كثير من الناس عن معرفتها ، ومنها مايعجز عن معرفته جميع الخلق حتى الملائكة ، ولهذا قالت الملائكة لما قال الله تعالى لهم : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭼ قال ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭼ [1] فتكفيهم المعرفة المجملة والإيمان العام "[2] .

المسألة الثانية : ما يراد به لفظ"بدأ الله الخلق".

لفظ " بدأ الله الخلق " يراد به : ابتداء تكوينهم ، وهو ظاهر القران .
وقد يراد به: ابتداء أسباب خلقهم وعلامات ذلك ، كما في قول السائل للنبي ﷺ ما كان أول أمرك ؟ قال : " دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمي رأت أنني حين

---

[1] سورة البقرة ، الآيه (30) .
[2] " مجمــوع الفتــاوى " (8/512-514)ـ ، وانظر (14/21، 266) ، و" جامع المسائل" (1/134).

ولدتني كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام[1] " [2] .

المسألة الثالثة : المسيح ابن مريم لا يسمّى خالقاً.

قوله تعالى عن المسيح بن مريم : ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﭼ[3] ليس فيه تسمية المسيح خالقاً لما يلي :

1) أن الله – تعالى- لم يذكر عن المسيح خلقاً مطلقاً ولا خلقاً عاماً ، كما ذكر ذلك عن نفسه فقال : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﭼ[4] وقال: ﭽ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﭼ[5] , وقال تعالى: ﭽ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﭼ[6] , فذكر نفسه بأنه الخالق ، ولم يصف قط شيئاً من المخلوقات بهذا لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً . وأما المسيح فلم يذكر عنه إلاّ خلق شيء معين خاص بإذن الله .

2. انه خلق من الطين كهيئة الطير والمراد به : تصويره بصورة الطير ، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس ، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير وغيره ولكن هذا التصوير محرم ، بخلاف تصوير المسيح فإن الله أذن له فيه [7].

---

[1] أخرجه أحمد في المسند ح (22162) ولفظه : " ما كان أول بدء أمرك ؟ , حسّن إسناده الهيثمي في " مجمع الزوائد " (8 / 408) , والألباني في " السلسلة الصحيحة " (4 / 62) .

[2] " درء التعارض " (8 / 413) .

[3] سورة المائدة , الآية (110) .

[4] سورة العلق , الآية (1 – 2) .

[5] سورة الحشر , الآية (24) .

[6] سورة الزمر , الآية (62) .

[7] والنهي عن التصـوير نص عنـدهم،وهو من ضـمن الوصـايا العشر كما في سفر التثنية ،الاصحاح الخامس رقم : 7 .

وليست المعجزة مجرد خلقه من الطين ، فإن هذا مشترك ، ولكن المعجزة : أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيراً بإذن الله تعالى .

3. أن الله – تعالى - أخبر عن المسيح أنه إنما فعل التصوير والنفخ بإذنه تعالى فقال:

چ \ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ چ[1] وأخبر المسيح أيضا أنه فعله بإذن الله فقال عن نفسه : چ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ چ[2] .

وأخبر الله – تعالى - أن هذا من نعمه التي أنعم بها على المسيح كما قال تعالى: چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ چ[3] . وهذا كله صريح في أنه ليس هو الله ، وإنما هو عبد الله فعل ذلك بإذن الله[4] .

المسألة الرابعة : بنو آدم لا يستطيعون أن يصنعوا مثل ما خلقه الله.

لا يستطيع بنو آدم أن يصنعوا مثل ما يخلقه الله ، وإنما غايتهم : أن يشبهوا من بعض الوجوه . والقاعدة في ذلك : " أن المخلوق لا يكون مصنوعاً ، والمصنوع لا يكون مخلوقاً " . قال الله تعالى : چ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ چ[5] .

وفى الحديث القدسي فيما يرويه الرسول عن ربه أنه قال : " ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة "[6] . وهذه

---

[1] سورة المائدة , الآية (110) .

[2] سورة آل عمران , الآية (49) .

[3] سورة المائدة , الآية (110) .

[4] انظر " الجواب الصحيح " (4 / 42 – 48) .

[5] سورة الرعد , الآية (16) .

[6] أخرجه البخاري ح (5953) , ومسلم ح (5543) .

القاعدة دلَّ عليها : الشرع ، والإجماع ، والعقل ، واستقراء الوجود ، وما فطر الله عليه عباده وسوى بين بلاده من إنكار ذلك .
وهى ثابتة عند المسلمين ، وعند أوائل المتفلسفة الذين تكلموا في الطبائع وتكلموا في الكيمياء وغيرها .
وهذه القاعدة ذكرها شيخ الإسلام عند حديثه عن " الكيمياء " وبين أن معناها : الشبه ، وهو عمل ما يشبه الذهب والفضة والجواهر والطيب من المسك والزعفران والعنبر وغير ذلك . وحقيقتها: إنما هي تشبيه المخلوق ، فإنه يشبه فيها المصنوع بالمخلوق.
والله- سبحانه- لم يخلق شيئا يقدر العباد أن يصنعوا مثل ما خلق ، وما يصنعونه فهو لم يخلق لهم مثله ، فإنه – سبحانه- أقدر العباد على أن يصنعوا طعاماً مطبوخاً ، ولباساً منسوجاً ، وبيوتاً مبنية ، وهو سبحانه لم يخلق لهم مثل ما يصنعونه من المطبوخات والمنسوجات والبيوت المبنية ، وما خلقه الله- سبحانه- من أنواع الحيوان كالإنسان ، والفرس ، والحمار، والأنعام ، والطير، والحيتان ، فإن بني آدم لا يقدرون أن يصنعوا مثل هذه الدواب . وكذلك النبات كالحنطة , والشعير ، والعدس، والعنب ، والرطب ، وأنواع الحبوب والثمار لا يستطيع الآدميون أن يصنعوا مثل ما يخلقه الله- تعالى - ، وإنما يشبهونه ببعض هذه الثمار ،كما قد يصنعون ما يشبه الحيوان ، حتى يصوروا الصورة كأنها صورة الحيوان .
وكذلك المعادن كالذهب ، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والرصاص لا يستطيع بنو آدم أن يصنعوا مثل ما يخلقه الله ، وإنما غايتهم أن يشبهوا من بعض الوجوه ، فيصفرون وينقلون مع اختلاف الحقائق ، ولهذا يقولون : تعمل تصفيرة ، ويقولون : نحن صباغون .
وأما الزجاج فهو معمول من الرمل والحصى ونحو ذلك فهو من قسم المصنوعات دون المخلوقات كالفخار ونحوه مما يطبخ في النار ، والله- سبحانه- جعل للعباد قدرة على ما يصنعونه من الفخار والزجاج ونحو ذلك ,

ولم يخلق لهم سبيلاً على أن يصنعوا مثل ما خلقه ، فإن أصل المخلوقات التي خلقها الله لا يمكن البشر أن يصنعوا مثلها ، ولا يمكنهم نقل نوع مخلوق من الحيوان , والنبات , والمعدن إلى نوع آخر مخلوق , فلا يمكنهم أن يجعلوا الفرس حماراً ، ولا الحمار ثوراً , ولا يمكنهم أن يجعلوا الحنطة شعيراً ، وكذلك لا يمكنهم أن يجعلوا الفضة ذهباً ولا النحاس فضة وأمثال ذلك، وإنما غايتهم: أن يشبهوا من بعض الوجوه , وهذا أمر مطرد لا ينقض[1] .

المسألة الخامسة :

تنازع الناس فيما يخلقه الله من الحيوان والنبات والمعدن والمطر والنار وغير ذلك هل تحدث أعيان هذه الأجسام فيقلب هذا الجنس إلى جنس آخر ، كما يقلب المني علقة ثم مضغة , أو لا تحدث إلاَّ أعراض وأما الأعيان التي هي الجواهر فهي باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الأكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق , والحركة والسكون ؟

على قولين :

الأول : قول السلف والفقهاء قاطبة وجمهور العقلاء : إن الأجسام تنقلب من حال إلى حال ، فالله- تعالى - يقلبها ويحيلها من جسم إلى جسم . والمادة التي منها يخلق الثاني تفسد ، وتستحيل ، وتتلاشى , وينشئ الله الثاني ويبتديه ، ويخلق من غير أن يبقى من الأول شئ، فإذا خلق الله الإنسان من المني ، فالمني استحال وصار علقة ، والعلقة استحالت وصارت مضغة , والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام ، والإنسان بعد أن خلق ، خُلق كله ، جواهره وأعراضه ، وابتدأه الله ابتداء كما قال تعالى: ﭽ ه ه ه ه

[1] انظر " مجموع الفتاوى " (29 / 368 – 391) (28 / 72 – 83) , و " السياسة الشرعية " ص (223 – 225) .

ﮗ ﯘ ﯗ ﯙ چ[1] , وقال تعالى : چ ﮉ ﮊ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ
ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ چ[2] .
فالإنسان مخلوق ، خلق الله جواهره وأعراضه كلها من المني ، من مادة استحالت ليست باقية بعد خلقه .
وكذلك الثمار تخلق من الأشجار ، والزرع يخلق من الحب ،والشجر تخلق من النوى ، قال تعالى : چ ﭑ ﭒ
ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ
ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ
ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ
ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ
ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ
ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ چ[3] فالثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها الله من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذي نزل عليها وغير ذلك من المواد التي يقلبها ثمرة بمشيئة وقدرته ، وكذلك الحبة يفلقها وتنقلب المواد التي يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك , وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد ناراً كما قال تعالى : چ ﮬ
ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ چ[4] فنفس تلك الأجزاء التي خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله ناراً من غير أن يكون في الشجر الأخضر ناراً ، كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلاً , ولا كان في بطن المرأة جنين أصلاً ، بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا ، وبما ضمه إلى هذا من مواد أخر[5] .
القول الثانى : قول أكثر الجهمية والمعتزلة والأشعرية .

---

[1] سورة السجدة , الآية (7 – 8) .
[2] سورة مريم , الآية (67) .
[3] سورة الأنعام , الآية (95- 99) .
[4] سورة يس , الآية (80) .
[5] انظر " مجموع الفتاوى " (17 / 243 , 248 – 249) , و " النبوات " (1 / 297 – 298 , 317 – 318) .

قالوا: إن الله- تعالى-لم يخلق منذ خلق الجواهر المنفردة[1] شيئاً قائماً بنفسه ، لا سماءً ، ولا أرضاً ، ولا حيواناً ، ولا نباتاً ، ولا معادن ، بل إنما يحدث تركيب تلك الجواهر ، فيجمعها ويفرقها ، فهو إنما يحدث أعراضاً قائمة بتلك الجواهر ، لا أعياناً قائمة بأنفسها فالتولد الحاصل في الرحم ، والثمر الحاصل في الشجر ، والنار الحاصلة من الزناد هي جواهر كانت في المادة التي خلق ذلك منها ، وهى باقية ، لكن غيرت صفتها بالاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون.

وعندهم أن الله لا يخرج حياً من ميت ، ولا ميتاً من حي , بل الجواهر التي كانت في الميت هي بعينها باقية كما كانت ، ولكن أحدث فيها حياة لم تكن ، وتلك الحياة لم تخرج من ميت ، ولهذا ينكرون أن يقلب الله جنساً إلى جنس آخر ، ويقولون : الجواهر كلها جنس واحد ، فإذا خلق النطفة إنساناً ، لم يقلب عندهم جنساً إلى جنس ، بل نفس الجواهر هي باقية كما كانت .

ويجعلون خلق الإنسان وغيره بمنزلة عمل الخاتم والسرير والثوب ، فلم يخلق عندهم الإنسان من مادة ، بل المادة باقية ، وأحدث صورته فيها ، كما أن الصور الصناعية ، كصورة الخاتم والسرير والثياب والبيوت وغير ذلك إنما أحدث الصانع صورته العرضية في مادة لم تزل موجودة ، ولم تفسد ، ولكن حُوِّلت من صفة إلى صفة[2] .

---

[1] الجوهر الفرد عند المتكلمين هو : الجزء الذي لا يتجزأ , ذو وضع لا يقبل الانقسام أصلاً , لا بحسب الخارج ولا بحسب الوهم أو الفرض العقلي , تتألف الأجسام من أفراده بانضمام بعضها إلى بعض . انظر " التعريفات " ص (78) وللتوسع : انظر " الفصل في الملل والأهواء والنحل " (3 / 273 – 287) , و " نهاية الأقدام " (505 – 511) , و " الأربعين " (2 / 247 – 256) و " شرح المواقف " (6 / 288 – 292) .و " هداية المريد"(1210/2-1219) ،و "الكليات"(160/2-163).

وقد بيَّن شيخ الإسلام - رحمه الله - بطلان هذا القول من خلال ما يلي :

1. بطلان دعوى وجود الجوهر الفرد .
2. بطلان القول بأن الخلق خلق لا من مادة .
3. بطلان قولهم في الخلق انه اجتماع وائتلاف، وبطلان نفيهم الاستحالة.

أما الأول فهو : بطلان دعوى وجود الجوهر الفرد فقد قرره من خلال ما يلي :

1) أن جمهور الأمة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد , وتركيب الأجسام من الجواهر ، ونفي الجوهر الفرد هو قول

[2] انظر " مجموع الفتاوى " (17 / 244 – 245) , و" منهاج السنة " (2 / 139) , و " النبوات " (1 / 306 – 308 , 318 – 319) (2 / 1097 – 1098) , و " درء التعارض " (3 / 442 – 445) (8 / 320) , و " شرح حديث النزول " (244 – 245) , و"شرح الأصبهانية"ص(304-305).
وانظر : " أساس التقديس " ص (22) , و " أصول الدين " للرازي ص (31) و " الأربعين " (2 / 247) وما بعدها , و " محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين " ص (87) و " شرح المواقف " (8 / 5) .

الهشامية[1] والضراريه ، وكثير من الكرامية[2] ، والنجارية[3] .[4]

2) القول بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة قول لا يعرف عن أحد من الأئمة المسلمين ، لا من الصحابة ، ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا من بعدهم من الأئمة المعروفين ، وأكثر عقلاء بني آدم من أهل الكلام وغيرهم

---

[1] الهشامية : من فرق الرافضة , أصحاب هشام بن الحكم الرافضين , وهشام بن سالم الجواليقي شبهوا معبودهم بالإنسان , ولأجل ذلك زعم هشام بن الحكم أنه سبعة أشبار بشبر نفسه وزعم هشام بن سالم أن نصفه الأعلى مجوف ونصفه الأسفل مصمت .
انظر " مقالات الإسلاميين " (1 / 106 – 109) , و " الفرق بين الفرق " ص (208) , و " الملل والنحل " (1 / 187) .

[2] الكرامية : أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام , ممن يثبت الصفات إلا أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه , يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب , ويزعمون أن المنافقين يسمون مؤمنين , وسلموا أنهم معذبون في الآخرة , فنازعوا في اسمه لا في حكمه . انظر " مقالات الإسلاميين " (1 / 223) , و " الملل والنحل " (1 / 99) ،و " الإيمان الأوسط " ص (308 – 309) .

[3] النجارية : أصحاب الحسين بن محمد النجار , وافق المعتزلة في نفي الصفات من العلم والقدرة والإدارة والحياة والسمع والبصر , وخالفهم في القدر فقال : إن أعمال العباد مخلوقه لله , وهم فاعلون لها , وأنه لا يكون في ملك الله إلا ما يريده , وكان يقول بالإرجاء . انظر " مقالات الإسلاميين " (1 / 340 - 342) , و " الملل والنحل " (1 / 75) .

[4] انظر " مجموع الفتاوى " (17 / 244) , و " درء التعارض " (3 / 444) , و " شرح حديث النزول " ص (243 – 244) , و " منهاج السنة " (2 / 137) ،و"شرح الأصبهانية"ص(360).

ينكرون أن تكون الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة[1] .

3) أذكياء المتأخرين من المتكلمين مثل : أبي الحسين البصري ، وأبي المعالي الجوينى ، وأبي عبد الله الرازي كانوا متوقفين في آخر أمرهم في إثبات الجوهر الفرد[2] .

4) الذين يثبتون الجوهر الفرد يقولون : إنه لا يتميز منه جانب عن جانب ، لا تتميز يمينه عن يساره ، وهذا لا يعرف بالحس ، وهو ممتنع وجوده ، وإنما يفرضونه في الذهن .ويقولون : إنه لا قدر[3] له ، والله – تعالى - قد جعل لكل شيء قدرا , كما قال تعالى : چ   چ[4] وقال : چ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ چ[5] , فما لا قدر له لم يخلق بل هو ممتنع . والله – تعالى – لما كان هو قيوم السماوات والأرض , ومقيم كل مخلوق من الأعيان والصفات دلّ ذلك على أن كل مخلوق له نصيب من القيام , فهو قائم بالقيّم الذي أقامه , كما أن له قدراً بالخلق , فإن اسمه - تعالى- " الخالق " يقتضي الإبداع والتقدير , وإذا كان لكل شيء مخلوق قيام وقدر دلّ ذلك على فساد قول من

---

[1] انظر " منهاج السنة " (2 / 139) , و " شرح حديث النزول " ص (243) , و " درء التعارض " (3 / 442) .

[2] انظر " درء التعارض " (3 / 444) (8 / 321 – 322) , و " منهاج السنة " (2 / 141) ،و"شرح الأصبهانية"ص(307).

[3] انظر " الفصل في الملل والأهواء والنحل " (3 / 274 , 281) , و " شرح المواقف " (6 / 290) .

[4] سورة القمر , الآية (49) .

[5] سورة الطلاق , الآية (3) .

أثبت الجوهر الفرد حيث لم يثبت له قيام ولا قدر [1] .

5) بعض المصنفين في الكلام يجعل إثبات الجوهر الفرد هو قول المسلمين , و أن نفيه هو قول الملحدين ؛ وهذا لأن هؤلاء لم يعرفوا من الأقوال المنسوبة إلى المسلمين إلا ما وجدوه في كتب شيوخهم أهل الكلام المحدث في الدين الذي ذمّة السلف و الأئمة [2] .

ثانياً :بطلان القول بأن الخلق خلق لا من مادة .

وقد قرر شيخ الإسلام ذلك من خلال ما يلي :

1) أصحاب هذا القول هم في الحقيقة ينكرون أن يخلق الله شيئاً من شيء , فإنه عندهم لم يحدث إلا الصورة التي عرض , والمادة عندهم باقية بعينها , لم يخلق ولن يخلق منها شيء [3] .

2) النصوص الدالة على بيان خلق الأشياء بعضها من بعض كثيرة , كقوله تعالى : ﭽ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﭼ [4] .

وقوله تعالى : ﭽ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﭼ [5] .

---

[1] انظر " تفسير آيات أشكلت " (1 /432 – 434) .
[2] انظر " منهاج السنة " (2 / 138) .
[3] انظر " النبوات " (1 / 312) .
[4] سورة الرحمن , الآية (14 – 15) .
[5] سورة المؤمنون , الآية (12 – 14) .

وقوله تعالى(ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ
ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ) [6] .

وقوله تعالى: ﭽ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ □ □ □ □ □ □ □
□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ □ □ □ □ ﭼ [2] .

وقوله تعالى : ﭽ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ
ﮀ ﮁ ﭼ [3] .

وقوله تعالى : ﭽ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ □ ﭼ
[4] [5] .

3) أن الله - تعالى - يقررنا أنا نشهد خلق الأشياء بعضها من بعض ونرى ذلك .

قال تعالى : ﭽ □ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ
ﭝ ﭞ) إلى قوله : ﭽ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ
ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﭼ [6] .

وقال تعالى : ﭽ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ
ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ
□ □ □ ﭼ [7] .

[?]6 سورة البقرة , الآية (164) .
[?]2 سورة الأعراف , الآية (57) .
[?]3 سورة نوح , الآية (17 - 18) .
[?]4 سورة النازعات , الآية (30 – 31) .
[?]5 انظر " بيان تلبيس الجهمية " (2 / 267 – 268) .
[?]6 سورة يس , الآية (71– 77) .
[?]7 سورة الحج , الآية (5) .

وقال تعالى : چ   ھ ھ ھ ھ
ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ چ
.[1][2]

4) من أبدع الأمور وأعظمها أنه - تعالى - يخلق من الشيء ما لا يكون مجانساً له"وخاصية الخلق : إنما هي بقلب جنس إلى جنس , وهذا لا يقدر عليه إلا الله، كما قال تعالى چ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ
پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ
ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ
ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ[3]ولا ريب أن النخلة ما هي من جنس النواة ، ولا السنبلة من جنس الحبة ، ولا الإنسان من جنس المني , ولا المني من جنس الإنسان ، وهو يخرج هذا من هذا ، وهذا من هذا ، و چ ﯦ
   چ[4] ...وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق - سبحانه وتعالى - كما وصف نفسه بذلك في قوله : چ ڎ ڈ ڈ ڈ
ژ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ
ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ
  ھ ھ ھ ھ   ﯓ
ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ) [5]"[6] .

---

[1] سورة الغاشية , الآية (17 - 20) .

[2] انظر " بيان تلبيس الجهمية " (2 / 268) .

[3] سورة الحج ، الآية (73-74).

[4] سورة لقمان ، الآية (11).

[5] سورة آل عمران , الآية (26 - 27) .

[6] " النبوات " (1/ 323 – 324) , وانظر " بيان تلبيس الجهمية " (2 / 269 – 270) .

5) كون الشيء مخلوقاً من مادة وعنصر أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء, وأبعد عن مشابهة الربوبية , فإن الرب هو أحد , صمد , لم يلد , ولم يولد, ولم يكن له كفواً أحد , فليس له أصل وجد منه , ولا فرع يحصل منه .

فإذا كان المخلوق له أصل وجد منه , كان بمنـزلة الولد له , وإذا خلق له شيء آخر كان بمنـزلة الوالد , و إذا كان والداً ومولوداً كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية , فإنه خرج من غيره , ويخرج منه غيره , لاسيما إذا كانت المادة التي خلق منها مهينة كما قال تعالى : ﭽ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭽ [1] ...ولهذا لما خلق المسيح من غير أب وقعت به الشبهة لطائفة وقالوا : إنه ابن الله مع أنه لم يخلق إلا من مادة أمه, ومن الروح التي نفخ فيها , كما قال تعالى : ﭽ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﭽ [2] .

فلهذا كانت الأنبياء مخلوقة من مادة لها أصول , ومنها فروع , لها والد ومولود , والأحد الصمد : لم يلد , ولم يولد , ولم يكن له كفواً أحد .

وكذلك الملائكة لما لم يكن لها أب قيل : إنها بنات الله , مع أنها مخلوقة من مادة كما ثبت عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : "خلقت الملائكة من نور , وخلق الجان من مارج من نار , وخلق آدم مما وصفت لكم " [3][4] .

ثالثاً : بطلان قولهم في الخلق إنما اجتماع وائتلاف , وبطلان نفيهم للاستحالة .

---

[1] سورة المرسلات , الآية (20) .

[2] سورة التحريم , الآية (12) .

[3] أخرجه مسلم , ح (7495) .

[4] انظر " النبوات " (1/ 325 – 327) ، بتصرف يسير.

وقد قرر شيخ الإسلام ذلك من خلال ما يلي :

1) القول بأن الجواهر التي كانت في الأول هي بعينها باقية في الثاني وإنما تغيرت أعراضها وأن الأجسام لا يستحيل بعضها إلى بعض هذا القول خلاف ما أجمع عليه العلماء , أئمة الدين وغيرهم من العقلاء , من استحالة بعض الأجسام إلى بعض , كاستحالة الإنسان وغيره من الحيوان بالموت ترابا , واستحالة الدم والميتة والخنـزير وغيرها من الأجسام النجسة ملحاً أو رماداً , واستحالت العَذِرَات تراباً , و استحالة العصير خمراً ثم استحالة الخمر خلاً , واستحالة ما يأكله الإنسان ويشربه بولاً ودماً وغائطاً , ونحو ذلك .

وقد تكلم علماء المسلمين في النجاسة : هل تطهر بالاستحالة أم لا ؟ ولم ينكر أحد منهم الاستحالة .

واستحالة الجسم إلى جسم آخر مشهود معروف عند العامة والخاصة , عند الفقهاء و الأطباء , وهو مما تطابق عليه أهل الطبائع , والشرائع وأهل العادا[1] .

2) قولهم مخالف للحس , و ذلك أنهم قالوا : إن الله لم يبدع عين الإنسان و الحيوان ولا عين الثمار والمطر والسحاب وإنما أحدث تأليفاً , وعلى

---

[1] انظر " منهاج السنة " (2 / 140) , و " درء التعارض " (3 / 445) (5 / 195) (8 / 323 – 325) , و " مجموع الفتاوى " (17 / 248) و " شرح حديث النـزول " ص (246) , و تفسير آيات أشكلت " (1 / 436)، و"شرح الأصبهانية"ص(305-306 ،353).

قولهم : تلك الجواهر التي كانت في بني آدم باقية بأعيانها في كل واحد من ولده , ومعلوم أن هذا غير ممكن وهو مكابرة ، فإن مني الرجل الواحد لا يحتمل أن ينقسم أقساماً بعدد كل من ولد من الآدميين .

وكذلك عندهم أن كل بني الآدميين فيه جزء من بني نوح ؛ لأنه عندهم لم يبدع الله عيناً بل نفس مني الأب فيه الجواهر ركبها تركيباً آخر وضم إليها جواهر أخر, وهذا غير ممكن [1] .

3) أن الجوهر الفرد لا يجب أن يقبل التفريق والتجزئة إلى غير غاية , بل يقبله إلى غاية , وبعدها يكون الجسم صغيراً لا يقبل التفريق الفعلي بل يستحيل إلى جسم آخر , كما يوجد في أجزاء الماء إذا تصغرت فإنها تستحيل هواء , ولا يحتاج إلى إثبات تجزئة وتفريق لا يتناهى ، بل تتصغر الأجسام ثم تستحيل إذا تصغرت , وهذا أقرب إلى العقول من غيره [2] .

4) ليس خلق الحيوانات والنباتات ونحوها مثل الصور التي يصورها بنو آدم من المواد مع أن الذات باقية , كتصوير الخاتم والدرهم من الفضة ,وتصوير السرير والباب من الخشب , فإن هذه المواضع لم تحدث فيها الذوات وإنما تغيرت صفة

---

[1] انظر " تفسير آيات أشكلت " (1 / 437) , و "النبوات " (1 / 299) .

[2] انظر " منهاج السنة " (1 / 212 – 213) و " تفسير آيات أشكلت " (1 / 437 – 438)، و"شرح الأصبهانية"ص(305-306).

الذات , وهذا كتغير الأبيض إلى السواد , والساكن إلى الحركة , والحامض إلى الحلاوة , والمفرق إلى الاجتماع , فهذا كله وما يشبهه يشهد فيه أن العين باقية إنما تغيرت صفاتها التي هي : الحركة والسكون , والاجتماع و الافتراق , والألوان والطعوم والأشكال , بخلاف الثمرة التي تخرج من الشجرة , والجنين الذي يخرج من بطن أمه , والفروج الذي يخرج من البيضة , فإن عاقلاً لا يقول : إن نفس الرطبة فيها جرم الخشب باقياً , ولا أجزاء الجنين كعظمه وبصره فيها أجزاء النطفة باقية , ولا نفس الفروج فيه بياض البيض باقياً ،ومن قال : إن هذا باقٍ في هذا كما أن الجسم الذي اسودّ بعد بياضه, وحلا بعد حموضته باقٍ فهو لا يتصور ما يقول , أو هو معاند مسفسط [1] , فالأمر ينتهي إلى عدم التصور التام أو العناد المحض, وهذا أصل كل ضلال , وهو الجهل أو العناد، والعناد وصف المغضوب عليهم , والجهل وصف الضالين .

والفرق بين استحالة العين وبين تبدل الصفات معلوم للعامة والخاصة , وهو من المستقر في عقول الناس [2] , ويوضحه الوجه الخامس.

5) الذي يعقل عن اجتماع الأجزاء وافتراقها : أن تفترق مع بقاء حقيقتها , مثل الماء تفرق حتى

---

[1] السفسطة : هي جحود الحقائق الموجودة بالتمويه والتلبيس , وهي كلمة معربة , وأصلها باليونانية " سوفسقيا " أي حكمة مموهة . انظر "بيان تلبيس الجهمية" (1 / 457) (2 / 337) .

[2] انظر " درء التعارض" (5 / 195 – 199) (8 / 322 – 325) , و"بيان تلبيس الجهمية" (2 / 269) .

تصير أجزائه في غاية الصغر وهو ماء , فإذا استحالت بعد هواء لم يبقى ماء , ومن قال :إنه بعد انقلابه بقيت الأجزاء كما تبقى إذا تصغرت أجزاؤه فقد خالف الحس والعقل , ولا يعقل الماء ونحوه جزءاً إلا وهو ماء , فإذا صار هواء لم يكن في الهواء جزء هو ماء , بل جزء الهواء هواء , وكذلك الحطب تكسر أجزاؤه إلى أن تتصاغر , فإذا صار رماداً فأجزاء الرماد مخالفة لأجزاء الحطب , ليست هذه الأجزاء تلك , فبقاء الشيء مع تغير أعراضه شيء , وانقلاب حقيقته شيء آخر , ولهذا تفرق اللغة والشرع بين هذا وهذا , وتجعل هذا جنساً مخالفاً لهذا في جميع الأحكام [1] .

وأخيراً فإن هذا القول هو " من أعظم ضلال هؤلاء , حيث عمدوا إلى ما هو من أعظم آيات الرب الدالة الشاهدة بوجوده وقدرته ومشيئته و علمه وحكمته ورحمته أنكروا وجودها بالكلية وادعوا أنه ليس في ذلك إبداع عين , ولا خلق شيء قائم بنفسه , وإنما هو إحداث أعراض , و الواحد منا يقدر على إحداث بعض الأعراض , ثم اقتصروا في ذلك على مجرد إحداث أعراض و صفات" [2] .

المسألة السادسة : هل صفة الخلق هي المخلوق أو غيره ؟

المراد بهذه المسألة هو : أن " الخلق " هل هو صفة تقوم بالله – تعالى – والمخلوق هو أثر هذه الصفة

---

[1] انظر " درء التعارض " (5 / 200) .

[2] "درء التعارض" (5 / 202 – 203) .

القائمة به تعالى , أم أن " صفة الخلق " لا تقوم بالله – تعالى – وإنما هي نفس المخلوق.
فمن قال بالأول قال : إن الخلق غير المخلوق , ومن نفى أن تقوم بالله – تعالى – صفة الخلق قال : الخلق هو المخلوق .
ولهذا فإن شيخ الإسلام – رحمه الله – ذكر أن للناس قولين في هذه المسألة :
القول الأول : أن الخلق غير المخلوق .
وهذا قول شيخ الإسلام – رحمه الله – وذكر أنه :
مذهب السلف قاطبة , وأن البخاري ذكر في كتاب " خلق أفعال العباد " أنه قول العلماء مطلقاً بلا نزاع[1] , وهو قول أئمة الحديث وجمهورهم . وذكره أبو نصر محمد بن إسحاق الكلاباذي في كتاب " التعرف بمذاهب التصوف " أنه قول الصوفية[2] .
وهو قول جمهور الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة , وأحمد , ومالك , والشافعي .
وقول كثير من أهل الكلام أو أكثرهم , كالهشامية , والكلابية , والكرامية , وبعض المعتزلة. وهو قول كثير من أساطين الفلاسفة أو أكثرهم وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى .

---

[1] انظر " خلق أفعال العباد " (2 / 298 – 300) .
[2] انظر " التعرف لمذهب أهل التصوف " ص (48- 49 ،51) .

فهذا القول هو قول جمهور الناس[1] , " لكن النزاع بينهم في الخلق المغاير للمخلوق هل هو قديم بذاته , أو هو منفصل عنه , أو هو حادث قائم بذاته , وإن كان حادثاً فهل الحادث نوعه , أو أن الحوادث هي الأعيان الحادثة ونوع الحوادث قديم لتكون صفات الكمال قديمة لله لم يزل ولا يزال متصفاً بصفات الكمال . هذه الأقوال الأربعة قد قال كل قول طائفة "[2] .

الأدلة على ذلك :

ذكر شيخ الإسلام – رحمه الله – عدة أدلة على أن الخلق غير المخلوق من ذلك :

1. قوله تعالى : ﭽ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﭼ[3] , معلوم أنهم قد شهدوا نفس المخلوق , وأما " الخلق " الذي هو تكوينه لها وأحداثه لها فلم يشهدوه فدّل ذلك على أن الخلق غير المخلوق[4] .
2. أن الخلق مصدر وهو فعل الخالق , والمخلوق مفعول به , وهو مفعول الخالق والمصدر ليس هو المفعول به , فلا بدَّ من إثبات خلق قائم به , ومن إثبات مخلوق منفصل عنه .

ولما كان المخلوق مفعول الخالق , والخلق فعل الخالق كان النبي ﷺ يستعيذ بأفعال الرب وصفاته كما

---

[1] انظر هذا القول والقائلين به : " الرد على المنطقيين " (1 / 225- 226) , و " شرح حديث النزول " ص (401 – 402) , و " درء التعارض " (1 / 338) (2 / 264) (4 / 60 - 61) (9 / 251) , و " مجموع الفتاوى " (6 / 229 , 298) (8 / 19 , 468 – 469) (12 / 436) (16 / 374 – 376) , و " شرح الأصبهانية " ص (262) , و " الصفدية " (2 / 190) , و " الاستغاثة " (1 / 175 , 314 , 203 – 206) .

وانظر " مقالات الإسلاميين " (2 / 51 – 52) , و " شرح الأصول الخمسة " ص (548) , و " شرح العقائد النسفية " ص (68 – 71) , و " شرح المقاصد " (4 / 168 – 173) .

[2] " درء التعارض " (4 / 60 – 61) .

[3] سورة الكهف , الآية (51) .

[4] " مجموع الفتاوى " (6 / 260) .

في قوله : " أعوذ برضاك من سخطك , وبمعافاتك من عقوبتك , وبك منك لا أحصي ثناء عليك , أنت كما أثنيت على نفسك "[1] .

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره على أن كلام الله غير مخلوق بأنه استعاذ به فقال : " من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه "[2] , وكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقه ؛ لأنه استعاذ بهما , والعافية القائمة ببدن العبد مخلوقه , فإنها نتيجة معافاته[3].

3. أنه " من المعلوم بصريح العقل أنه إذا خلق السماوات والأرض فلا بدَّ من فعل يصير به خالقاً , وإلا فلو استمر الأمر على حال واحدة لم يحدث فعل لكان الأمر على ما كان قبل أن يخلق , وحينئذ فلم يكن المخلوق موجوداً , فكذلك يجب أن لا يكون موجوداً إن كان الحال في المستقبل مثل ما كان في الماضي لم يحدث من الرب فعل هو خلق السماوات والأرض "[4] .
4. إجماع العلماء على الفرق بين الخلق والمخلوق , وقد حكى الإجماع على ذلك البخاري – رحمه الله - [5] .
5. أن السلف والأئمة متفقون على أن الله لا يوصف بالمخلوقات , فلا يوصف بما خلقه في غيره من الصفات وإن كانت صفات كمال .

والذين يصفون الله ببعض المخلوقات صنفان :
صنف غلطوا في الصفات , وصنف غلطوا في القدر .

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ح (1090) .
[2] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6878) .
[3] انظر " مجموع الفتاوى " (6 / 229 – 230) (12 / 436) , و " درء التعارض " (4 / 60) .
[4] " مجموع الفتاوى " (6 / 260) ، وانظر (6 / 230) .
[5] انظر " مجموع الفتاوى " (6 / 230 , 298) (16 / 375) , و " خلق أفعال العباد " (2 / 298) .

فالأول : الجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون : إن كلام الله مخلوق , فوصفوه بما خلقه في غيره .
والصنف الثاني : الجهمية الجبرية[1] الذين قالوا : إن أفعال العباد نفس فعله , وفعله هو مفعوله , كما يقوله الجهم بن صفوان وأتباعه كالأشعري ومن وافقه , وهؤلاء لم يثبتوا له فعلاً قائماً بنفسه غير المخلوقات المباينة له , فإذا كان خالق أفعال العباد لزم أن تكون هي فعله ولا تكون فعلاً لغيره , وحينئذ فالصفات الفعلية التي يصفون بها الرب مثل كونه خالقاً ورازقاً وعادلاً إنما تتصف عندهم فيها مخلوقاته ، ويتصف أيضاً عندهم بأفعال العباد كلها[2] .
ومن هنا نعرف القول الثاني في المسألة .
وهو : أن الخلق هو المخلوق .
وهذا قول الجهمية , والمعتزلة , والأشعرية , ومن وافقهم من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد مثل : ابن عقيل وابن الجوزي وأمثالهما , وهو أول قولي القاضي أبي يعلى , وهو قول طائفة من الفلاسفة المتأخرين[3] .

---

[1] الجبرية عندهم أنه ليس للعبد قدرة ولا فعل , بل هو مجبور على فعله , وأنكروا أن يكون العبد فاعلاً لأفعاله بل الفاعل لها عندهم هو الله , ورأس الجبرية هو الجهم بن صفوان ولهذا فإنه لا يسمى غير الله قادراً , ونقل عنه أنه سمَّى الله قادراً . انظر " مجموع الفتاوى " (16 / 235) (17 / 447) , و " الملل والنحل " (1 / 72 – 73) .

[2] انظر " الاستغاثة " (1 / 208 – 210) , و " مجموع الفتاوى " (8 / 468 – 469) .

[3] انظر " شرح حديث النزول " ص (402) , و " مجموع الفتاوى " (2 / 436) (8 / 19 , 468) و " درء التعارض " (1 /339) , و " منهاج السنة " (1 / 457) , و " الرد على المنطقيين " (1 / 225) , و " الاستغاثة " (1 / 206 – 207) . وانظر " مقالات الإسلاميين" (2 / 51 – 52) و " الفصل " (3 / 214) , و " الأربعين " (1 / 129) , و " أصول الدين " ص (63) , و " شرح الأصول الخمسة " ص (548) .

والحجة المشهورة لهؤلاء المتكلمين على أن الخلق هو المخلوق :
أنه لو كان الخلق غير المخلوق لكان إما قديماً وإما حادثاً , فإن كان قديماً لزم قدم المخلوق , وإن كان محدثاً احتاج إلى خلق آخر فلزم التسلسل , وإن كان قائماً به فيكون محلاً للحوادث .
وقد أجابهم الناس عن هذا , كل قوم بجواب يبين فساد قولهم :
فطائفة منعت قدم المخلوق وقالت : الخلق قديم وإن كان المخلوق محدثاً , ويقولون لهم: كما وافقتمونا على أن الإرادة قديمة والمراد متأخر فكذلك نقول : الخلق قديم والمخلوق محدث , فنحن نقول في الخلق ما قلتم في الإرادة .
وهذا جواب الحنفية , والكرامية , وكثير من الحنبلية , والشافعية , والمالكية , والصوفية , وأهل الحديث .
وهو جواب إلزامي للأشعرية؛ لأنهم هم الذين يثبتون الإرادة , ولا حيلة لهم فيه .
وطائفة قالت : لا نسلِّم أنه إذا افتقر المخلوق المنفصل إلى خلق أن يفتقر ما يقوم به من الخلق إلى خلق آخر بل يحدث بقدرته ومشيئته , وأنتم تقولون : إن المخلوقات المنفصلة تحدث بلا حدوث سبب آخر , بل تحصل بقدرته بعد أن لم تكن , وحينئذ فالقول بحدوث الخلق المتصل به الذي تحصل به المخلوقات بدون حدوث خلق , بل بمجرد القدرة أولى وأخرى .
وهذا جواب كثير من الكرامية والهشامية وغيرهم .
وطائفة قالت :
هب أنه يفتقر إلى فعل قبله فلم قلتم إن ذلك ممتنع .
فإن التسلسل الممتنع هو التسلسل في الفاعلين , وأما التسلسل في الآثار والأفعال وهو حصول شيء

بعد شيء فليس بممتنع , وهذا جواب أهل السنة[1] .
وسيأتي له مزيد شرح وبيان عند الحديث عن أحكام الربوبية .

وأما قولهم " وإن كان قائماً به فيكون محلاً للحوادث " :
" فقد منعهم ذلك السلف وأئمة أهل الحديث , وأساطين الفلاسفة , وكثير من متقدميهم ومتأخريهم , وكثير من أهل الكلام كالهشامية , والكرامية , وقالوا : لا نسلم انتفاء اللازم "[2] .وهو أن الله يفعل الفعل بعد الفعل في الوقت الذي يشاء ، وهو الذي يسميه المتكلمون " الحدوث" .

ومما يدل على بطلان هذا القول : اللوازم الباطلة التي التزمها أصحابه من ذلك :

1. نفي صفات الله – تعالى – الفعلية . فإن " نزاع الناس في معنى حديث النزول وما أشبهه في الكتاب والسنة من الأفعال اللازمة المضافة إلى الرب – سبحانه وتعالى – مثل : المجيء والإتيان والاستواء على العرش , بل وفي الأفعال المتعدية مثل : الخلق والإحسان والعدل وغير ذلك : هو ناشئ عن نزاعهم في أصلين :

أحدهما : أن الرب – تعالى – هل يقوم به فعل من الأفعال , فيكون خلقه للسماوات والأرض فعلاً فعله غير المخلوق أو أن فعله هو المفعول , والخلق هو المخلوق ...

الأصل الثاني الذي تبنى عليه أفعال الرب – تعالى – اللازمة والمتعدية وهو :

---

[1] انظر " شرح الأصبهانية " ص (262 – 263) , و " الصفدية " (2 / 130 – 131) , و " الرد على المنطقيين " (1 / 226 – 227) و " مجموع الفتاوى " (6 / 231 – 232) (16 / 377 – 384) , و " شرح حديث جبريل " ص (403 – 410) , و " منهاج السنة " (5 / 427 – 428) .

[2] " شرح حديث النزول " ص (403 – 404) .

أنه سبحانه هل تقوم به الأمور الاختيارية المتعلقة بقدرته ومشيئته أم لا ؟ " .[1]

فهذه المسألة هي أحد الأصلين في ضلال من نفى صفات الله الفعلية ، فإن من قال : إن الخلق هو المخلوق نفى صفات الله تعالى الفعلية ؛ لأنه عندهم انه لا يقوم بالرب فعلٌ بل فعله هو مفعوله .

2. أن الأشعرية لما كان قولهم إن الخلق هو المخلوق والفعل هو المفعول ويقولون : إن الله خالق أفعال العباد لزمهم أن يقولوا : إن أفعال العباد فعلٌ لله – تعالى – لا فعلاً للعبد لئلا يكون فعل واحد له فاعلان . وأما أهل السنة فيقولون : إن أفعال العباد فعلٌ لهم حقيقة , وليست فعلاً لله تعالى , والله تعالى خالقها , ولا يوصف تعالى بما هو مخلوق له , وإنما يوصف بما هو قائم به[2] .

قال شيخ الإسلام : " ولما كان هذا قول الأشعري ونحوه (أي الخلق هو المخلوق) وهو مع سائر أهل السنة يقولون : إن الله خالق أفعال العباد لزمه أن يقول : إن أفعال العباد فعلٌ لله – تعالى – إذ كان فعله عنده هو مفعوله , فجعل أفعال العباد فعلاً لله , ولم يقل : هي فعلهم في المشهور عنه إلا على وجه المجاز , بل قال : هي كسبهم , وفسَّر الكسب بأنه ما يحصل في محل القدرة المحدثة مقروناً بها , ووافقه على ذلك طائفة من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد. وأكثر الناس طعنوا في هذا

---

[1] " المصدر السابق " ص (401 ، 410) .

[2] انظر " مجموع الفتاوى " (8 / 468 – 469) , و " منهاج السنة " (1 / 459) .

الكلام وقالوا : عجائب الكلام ثلاثة : طفرة النظام[1]
[2] ,وأحوال أبي هاشم [3] [4]
وكسب الأشعري [5] " [6].
والمعتزلة هم الذين اضطروا الأشعرية إلى أن يجعلوا نفس ما يفعله العبد فعلاً لله – تعالى –وبيان ذلك :
أن المعتزلة من أصولهم الفاسدة : أنهم يصفون الله – تعالى – بما يخلقه في العالم , إذ ليس عندهم صفة لله

---

[1] النظام هو أبو إسحاق إبراهيم بن يسار , شيخ المعتزلة , تكلم في القدر وانفرد بمسائل , وهو شيخ الجاحظ , ورد أنه سقط من غرفة وهو سكران فمات سنة بضع وعشرين ومئتين . انظر " سير أعلام النبلاء " (10 / 541 – 542) .

[2] طفرة النظام " الطفرة في اللغة : الوثبة , يقال : طفر الحائط أي : وثبه إلى ما وراءه . والنظام زعم أنه قد يجوز أن يكون الجسم الواحد في مكان ثم يصير إلى المكان الثالث ولم يمرّ بالثاني على جهة الطفرة , وبنى القول بالطفرة على إبطاله الجزء الذي لا يتجزأ وإثبات ما لا يتناهى . كلّمه أبو الهذيل في هذه المسألة فقال له : لو كان كل جزء من الجسم لا نهاية له لكانت النملة إذا دبّت على البقلة لا تنتهي إلى طرفها , فقال : إنها تطفر بعضاً وتقطع بعضاً , وهذا منه كلام لا تقبله عقول العقلاء ؛ لأن ما لا يتناهى كيف يمكن قطعة بالطفرة , فصار قوله هذا مثلاً سائر يضرب لكل من تكلم بكلام لا تحقيق له ولا يتقرر في العقل معناه . انظر " لسان العرب " (9 / 124) , و " مقالات الإسلاميين " (2 / 19) , و " التبصير في الدين " ص (61) , و " الفرق بين الفرق " ص (127) , و " الملل والنحل " (1 / 49) , و " درء التعارض " (8 / 320) .

[3] أبو هاشم : عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي , المعتزلي , من كبار الأذكياء , أخذ عن والده , توفي سنة (321) هـ . انظر " سير أعلام النبلاء " (15 / 64) .

[4] أحوال أبي هاشم : الحال لغة : كِينَة الإنسان ،وهو ماكان عليه من خير أو شر ، والحل أيضاً: الوقت الذي أنت فيه .
والحال عند أبي هاشم : لا هي موجودة ولا معدومة , ولا هي معلومة ولا هي مجهولة , ولا هي قديمة ولا هي حديثة .
كالعالمية وهي النسبة بين العالم والمعلوم , وهي كالكليات لها وجود في الأذهان لا في الأعيان . والأحوال أحدث القول بها أبو

قائمة به ولا فعل قائم به , لذلك يصفونه تعالى بما يخلقه في العالم , مثل قولهم : هو متكلم بكلام يخلقه في غيره .
والأشعرية أبطلوا قول المعتزلة بأن كلامه تعالى خلقه في غيره بأن قالوا : ما خلقه الله في غيره من الأعراض كان صفة لذلك , وعاد حكمه على ذلك المحل , لم يكن صفة لله .

هاشم وما كانت المسألة مذكورة قبله أصلاً . واقتدى في ذلك بقول القرامطة الباطنية حيث قالوا : إن الصانع لا معدوم ولا موجود , ولا حي ولا ميت . وممن أثبت الأحوال : أبو بكر الباقلاني , وأبو المعالي الجويني في أول قوله ثم نفاه . ونفاها جمهور الناس , وأكثر الجهمية المعتزلة ينفونها , وكذلك نفاه أبو الحسن الأشعري .
انظر " لسان العرب " (4/ 277،279)، و " الكليات " (2 / 209 – 210) , و " المعجم الفلسفي " ص (73) , و " التبصير " ص (74 – 75) , و " الفصل " (3 / 225) و " نهاية الإقدام " ص (167) , و " درء التعارض " (5 / 35) (7 / 119) , و " منهاج السنة " (2 / 125 – 126) , و " شرح حديث النزول " ص (94) .
[5] كسب الأشعري : الكسب لغة : هو الطلب والسعي في طلب الرزق والمعيشة . وكسب الأشعري هو : تعلق القدرة الحادثة بمقدورها مع القطع بأن القدرة الحادثة لاتؤثر في المقدور . وجمهور العقلاء يقولون : إن هذا كلام متناقض غير معقول ، فإن القدرة إذا لم يكن لها تأثير أصلاً في الفعل كان وجودها كعدمها ، ولم تكن قدرة بل كان اقترانها بالفعل كاقتران سائر صفات الفاعل من طوله وعرضه ولونه ، ولهذا فإن حقيقة قول الأشعري في أفعال العباد هو معنى قول جهم : إن العبد لاقدرة له ولافعل ولاكسب ، والأشعري يوافقه على أن العبد ليس بفاعل ولاله قدرة مؤثرة في الفعل ، ولكن يقول هو كاسب ، وأكثر الناس يقول : إنه لايعقل فرق بين الفعل الذي نفاه ، والكسب الذي أثبته ، وقالوا هذا من عجائب الكلام .
انظر " لسان العرب " (13/62)،و"اللمع " ص (72-78) ، و"الإرشاد"ص(208-210)،و"لمع الأدلة"ص(121)،و"تحفة المريد"ص(150-151)،و"الكليات"(1/264)،و"مجموع

وهذه حجة جيدة مستقيمة , وأهل السنة يقولون بها , لكن الأشعرية لم يطردوها , فتسلط عليهم المعتزلة بأنهم : يصفونه بأنه خالق ورازق وعادل ومحسن من غير أن يقوم به شيء من هذه المعاني بل يقوم بغيره , فإن الخلق عندهم هو المخلوق . " فنقضوا بذلك أصلهم الذي استدلوا به عليهم في أن كلام الله غير مخلوق , وأن الكلام وغيره من الأمور إذا خلق بمحل عاد حكمه على ذلك المحل , واستطالوا عليهم بذلك في مسألة القدر , واضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلاً لله رب العالمين دون العبد , ثم أثبتوا كسباً لا حقيقة له , فإنه لا يعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل , ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا , ويقولون : ثلاثة أشياء لا حقيقة لها : طفرة النظام , وأحوال أبي هاشم , وكسب الأشعري . واضطروهم إلى أن فسروا تأثير القدرة في المقدور بمجرد الاقتران العادي "[1] .

وهذا النقض الذي نقضت به المعتزلة على الأشعرية لا يلزم أهل السنة والجماعة , إذ الباب عندهم واحد , فلا يصفون الله – تعالى – بشيء من مخلوقاته بل صفاته قائمة بذاته , ويقولون : إنما كان عادلاً بالعدل الذي قام بنفسه , ومحسناً بالإحسان الذي قام بنفسه , وخالقاً بالخلق الذي قام بنفسه , وأما المخلوق فهو أثر ذلك[2].

وأخيراً يقال : " لولا ما وقع في كلام الناس من الالتباس والإجمال لما كان يحتاج أن يقال : الأفعال التي ليست هي نفس المخلوقات , فإن المعقول عند جميع الناس أن

الفتاوى"(8/467)،و"النبوات"(1/461-462)،و"الاستغاثة" (1/112-212) .

[6] "منهاج السنة " (1/458-459) .

[1] " مجموع الفتاوى " (8 / 128) .

[2] انظر " المصدر السابق " (8 / 125 – 129) , و (6 / 317 – 319) , (12 / 436) و " منهاج السنة " (1 / 456 – 460) .

الفعل المتعدي إلى مفعول ليس هو نفس المفعول , ولكن النفاه عندهم أن المخلوقات هي نفس فعل الله , ليس له فعل عندهم إلا نفس المخلوقات ؛ فلهذا احتيج إلى البيان "[1] .

المطلب الثاني : صفة الملك

" الملك قد يراد به : القدرة على التصرف والتدبير ، ويراد به : نفس التدبير والتصرف ، ويراد به : المملوك نفسه الذي هو محل التدبير ، ويراد به ذلك كله "[2] .

وملك الله تعالى هو قدرته على التصرف ، وتصرفه في ملكه كما يشاء .

قال شيخ الإسلام عند شرح حديث أبي ذر : " "يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً , يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً "[3] إذ ملكه هو قدرته على التصرف ، فلا تزداد بطاعتهم ولا تنقص بمعصيتهم كما تزداد قدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم ، وتنقص بقلة المطيعين لهم ، فإن ملكه متعلق بنفسه ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه ، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء ، وينـزع الملك ممن يشاء "[4] .

---

[1] " درء التعارض " (2 / 123 – 124) .

[2] " مجموع الفتاوى " (18 / 195) .وانظر "لسان العرب"(14/125-127).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6572) .

[4] " مجموع الفتاوى " (18 / 194 – 195) .

وقال - رحمه الله - : " والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء " [1] .

وبين شيخ الإسلام أن أسماء " المُلك " التي وردت في القران هي : " الملَك " و " المالك " و " المليك " .

أما " الملك " فقد وقع مقروناً في قوله تعالى : ﭽ ﮉ ﮊﭼ في موضعين[2]، ومقروناً في قوله تعالى : ﭽ ﭒ ﭓ ﭼ في موضعين[3] .

وأما " المالك " فقد وقع مضافاً كما في قوله تعالى : ﭽ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭼ[4] .

ﭽ ﮃ ﮄ ﭼ[5] .

وأما " المليك " فقد وقع مقروناً كما في قوله تعالى : ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭼ[6] [7] والله -سبحانه وتعالى - منفرد بكمال الملك ، وهو من صفات كماله - تعالى .

قال شيخ الإسلام : " وكذلك قوله تعالى : ﭽ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﭼ[8] يتضمن كمال الملك والربوبية وانفراده بذلك ، ونفس انفراده بالملك والهداية والتعليم وسائر صفات الكمال هو من صفات الكمال " [9] .

وملكه - تعالى - من خصائص الربوبية كما قال شيخ الإسلام : " وصف نفسه بأنه رب العالمين ، وبأنه مالك يوم الدين ، وأن له الملك وله الحمد ، وانه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه على كل شيء قدير ، وبكل

---

[1] " المصدر السابق " (1 / 89) .

[2] سورة الحشر , الآية (23) ، وسورة الجمعة الآية (1) .

[3] سورة طه , الآية (114) ، وسورة المؤمنون , الآية (116) .

[4] سورة الفاتحة ، الآية (4) .

[5] سورة آل عمران ، الآية (26) .

[6] سورة القمر , الآية (55) .

[7] انظر " المستدرك على مجموع الفتاوى " (1 / 44 – 45) .

[8] سورة البقرة ، الآية (255) .

[9] " مجموع الفتاوى " (17 / 142) .

شيء عليم ، ونحو ذلك من خصائص الربوبية ، ولم يصف شيئاً من مخلوقاته لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً بشيء من الخصائص التي يختص بها التي وصف بها نفسه سبحانه وتعالى "[1] .

و " صفة الملك " من صفات الربوبية الظاهرة ، ولهذا فإن شيخ الإسلام لما عرّف توحيد الربوبية ذكر صفه " الملك " في أحد تعريفاته فقال : " وإقراره بألوهية الله - تعالى - دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته وهو : أنه رب كل شيء ، ومليكه ، وخالقه ، ومدبره "[2] .

ولمَّا عرف " الرب " قال : " لأن الرب - سبحانه وتعالى - هو المالك ، وفيه أيضاً معنى الربوبية والإصلاح ، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء ، فإذا ظهر للعبد من سرّ الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله - تعالى - ، قال تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭼ[3], فلا يرى نفعاً ولا ضراً , ولا حركة ولا سكوناً ، ولا قبضاً ولا بسطاً ، ولا خفضاً ولا رفعاً ، إلا والله - سبحانه وتعالى - فاعله وخالقه ، وقابضه وباسطه ، ورافعه وخافضه ، فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات ... وهو علم صفة الربوبية "[4] .

---

[1] " الجواب الصحيح " (4 / 45 - 46) .

[2] " العبودية " ص (198) .

[3] سورة الملك ، الآية (1) .

[4] " مجموع الفتاوى " (1 / 89) ، وانظر (1 / 92) (2 / 398 - 399) .

المطلب الثالث : صفة التدبير

صفة " التدبير " من صفات الربوبية الظاهرة ، ولهذا فإن شيخ الإسلام لما عرف توحيد الربوبية ذكر صفة " التدبير " في أحد تعريفاته فقال : " وإقرار بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته وهو : أنه رب كل شيء ، ومليكه ، وخالقه ، ومدبره "[1] .
وعند حديثه عن معاني الربوبية قال : " ... فهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته وملكه ، وخلقه ، ورزقه ، وهدايته ونصره ، وإحسانه وبره ، وتدبيره وصنعه ، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير , وأنه سميع بصير ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . فهذا كله حق ، وهو محض توحيد الربوبية " [2] .
ولما عرف " الرب " قال : " فان الرب هو المالك ، المدبر ، المعطي المانع , الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل "[3] .
وأبلغ من ذلك أنه لما عرّف علم الربوبية ذكر صفة التدبير دون غيرها فقال : " والتحقيق بالتوكل و التفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية وهو : علم التدبير

---

[1] " العبودية " ص (198) .
[2] " مجموع الفتاوى " (2 / 399) .
[3] " المصدر السابق " (1 / 92) ، وانظر (10 / 284) (17 / 517) .

الساري في الأكوان كما قال ﷻ : ﭽ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭼ[1]"[2] .

ولما عرف الشرك في الربوبية ذكر ما يتعلق بصفه التدبير دون غيرها كما قال في أحد تعريفاته للشرك في الربوبية : " الشرك نوعان : شرك في ربوبيته : بأن يجعل لغيره معه تدبيراً ما " [3] .

فهذا كله يبين أن صفة " التدبير " من صفات الربوبية الظاهرة .

وقد بيَّن شيخ الإسلام أن كون ملكوت كل شيء بيد الله تعالى بيان أنه هو المدبر[4] .

وبيَّن أيضاً أن رب العالمين - سبحانه وتعالى – لا شريك له في تدبير مخلوقاته[5]وأن الملائكة هم رسل الله في تدبير العالم .

قال شيخ الإسلام : " وأما الملائكة فأمرهم أجل وهم رسل الله في تدبير العالم كما قال تعالى : ﭽ ﮱ ﯓ ﭼ[6] , وقال : ﭽ ﯕ ﯖ ﭼ[7]"[8] .

وقال : " فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى : ﭽ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﭼ[9], وكما قال : ﭽ ﮎ ﮏ ﮐ ﭼ[10], فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض كما قال تعالى :ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭼ[11], وكما قال : ﭽ ﭸ ﭹ

---

[1] " سورة النحل ، الآية (40) .

[2] " مجموع الفتاوى " (1 / 89 - 90) .

[3] " اقتضاء الصراط المستقيم " (2 / 710) .

[4] " انظر بيان تلبيس الجهمية " (4 / 535) .

[5] انظر " درء التعارض " (10 / 572) .

[6] سورة النازعات , الآية (5) .

[7] سورة الذاريات ، الآية (4) .

[8] " الجواب الصحيح " (6 / 25) .

[9] سورة فاطر ، الآية (1) .

[10] سورة المرسلات ، الآية (1) .

[11] سورة الأنعام ، الآية (61) .

ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ چ[1],وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة ،
فانه قال : ﭽﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟﭼ[2] ,
وقال تعالى : ﭽ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ چ[3] , وقال
تعالى : ﭽ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ چ[4]"[5] .

المطلب الرابع : صفة الغنى

اسم الله " الغني " وقع في القران مفرداً ومقروناً :
أما وروده مفرداً ففي قوله تعالى : ﭽ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ چ[6]
, وقوله تعالى : ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ چ[7] ،
وقوله تعالى : ﭽ ﭺ ﭻ چ[8] .

---

[1] سورة الزخرف ، الآية (80) .
[2] سورة النحل ، الآية (2) .
[3] سورة الشورى ، الآية (51) .
[4] سورة الحج ، الآية (75) .
[5] " مجموع الفتاوى " (4 / 119) ، وانظر (4 / 35) (17 / 378) ، و " الرد على المنطقيين " (2 / 30 ، 198 ، 223) .
[6] سورة محمد , الآية (38) .
[7] سورة آل عمران , الآية (97) .
[8] سورة الزمر ، الآية (7) .

وأما وروده مقروناً ففي قوله تعالى :ﭽ   ﭼ[1] ,
وقوله تعالى : ﭽ   ﭼ[2] , وقوله تعالى : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ
ﭜ ﭝ ﭼ[3][4].
وغنى الرب – تعالى – أمر ذاتي ، لازم لذاته تعالى قال شيخ الإسلام :
" وهو – سبحانه – الغنى له أمر ذاتي لا يمكن أن يخلو عنه ، فهو بنفسه حي قيوم واجب الوجود ، ونحن بأنفسنا محتاجون فقراء "[5] .
وقال : " فالفقر والاحتياج أمر لازم ذاتي لكل ما سوى الله ، كما أن الغنى والصمدية أمر لازم لذات الله ، فيمتنع أن يكون سبحانه – فقيراً ، ويمتنع أن يكون إلا غنيا عن كل ما سواه ، ويمتنع فيها سواه أن يكون غنيا عنه بوجه من الوجوه ، ويجب في كل ما سواه أن يكون فقيراً محتاجاً إليه دائماً في كل وقت " .[6]
وقد بين شيخ الإسلام أن صفة " الغنى " من خصائص الربوبية حيث قال : " والغنى عن الحاجة من خصائص الربوبية ، فأما العبد فكماله في حاجته إلى ربه ، وعبوديته ، وفقره ، وفاقته ، فكلما كانت عبوديته أكمل كان أفضل ، وصدور ما يحوجه إلى التوبة والاستغفار مما يزيده عبودية وفقرا وتواضعاً "[7] .

---

[1] سورة الحج ، الآية (64) ، وسورة لقمان , الآية (26) ، وسورة فاطر , الآية (15) ، وسورة الحديد , الآية (24) ، وسورة الممتحنة , الآية (6) .
[2] سورة البقرة , الآية (267) , وسورة لقمان , الآية (12) , وسورة التغابن , الآية (6) .
[3] سورة الأنعام ،الآية (123)
[4] انظر " المستدرك على مجموع الفتاوى " (1 / 49) .
[5] " مجموع الفتاوى " (6 / 118) .
[6] " درء التعارض " (3 / 141 – 142) ، وانظر (3 / 10) ، و" منهاج السنة " (1 / 253).
[7] " منهاج السنة " (2 / 407) .

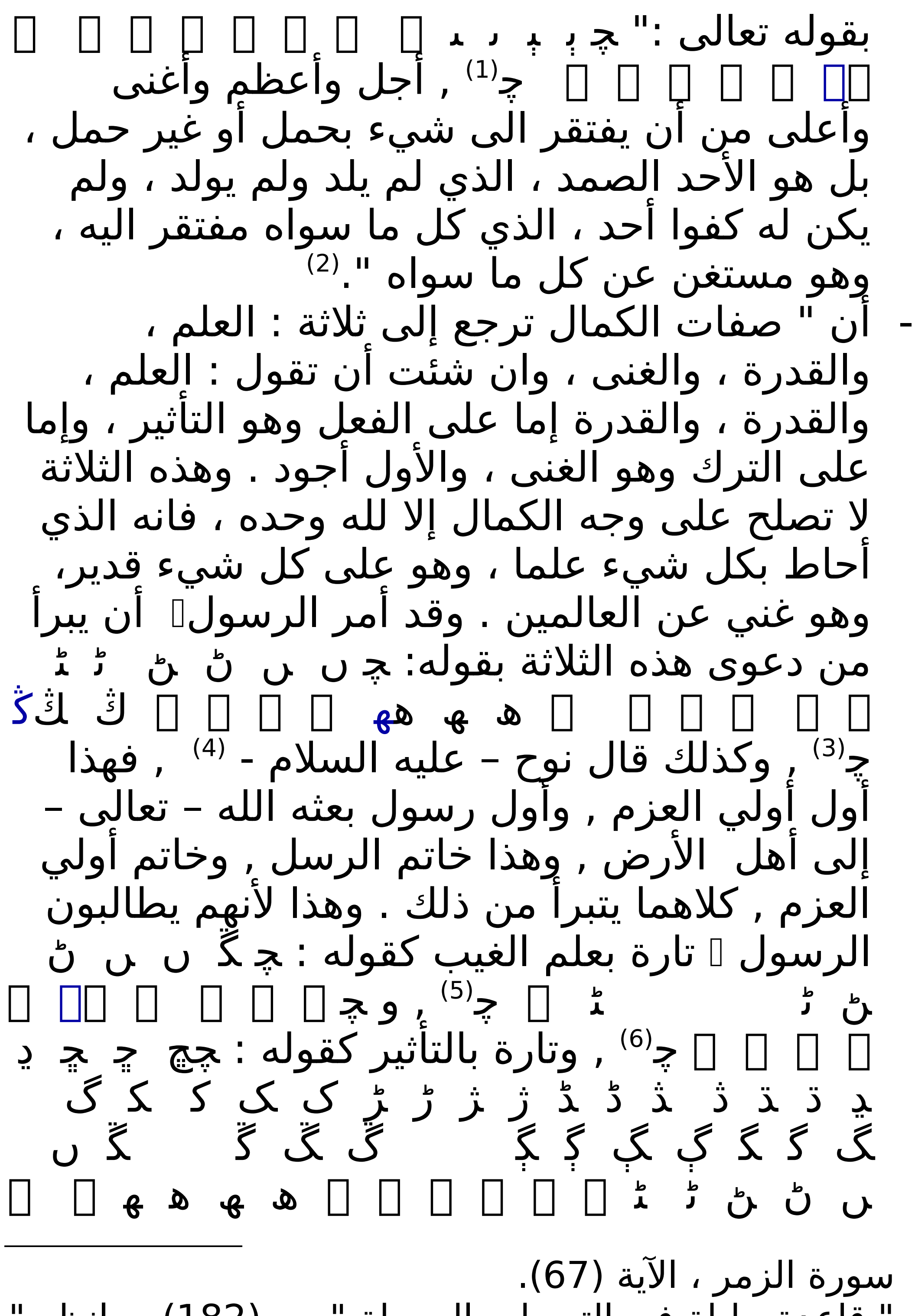
وقال : " ولهذا لما كان وجوب الوجود من خصائص رب العالمين ، والغنى عن الغير من خصائص رب : كان الاستقلال بالفعل من خصائص رب العالمين ،وكان التنزه عن شريك في الفعل والمفعول من خصائص رب العالمين"[1] .

ومما بينه شيخ الإسلام مما له تعلق بصفة " الغنى " ما يلي :

- أن " ما دل على أنه رب العالمين دل على غناه من غيره "[2] .
- أنه " سبحانه الغني بنفسه عن كل ما سواه من كل وجه ، وكل ما سواه مفتقر إليه من كل وجه ، وليس شيء أفقر إلى شيء من المخلوق إلى الخالق ، ولا شيء أغنى عن شيء من الخالق عن المخلوق ، ولا يشبه فقر الخلق إليه وغناه عنهم شيء من أنواع الفقر والغنى "[3] .
- أنه – سبحانه وتعالى – غني عن العرش وحملة العرش ، بل هو – سبحانه – الحامل بقدرته العرش وحملة العرش قال - رحمه الله - :"وهو – سبحانه – فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وهو – سبحانه – غني عن العرش وعن سائر المخلوقات ، لايفتقر إلى شيء من مخلوقاته ، بل هو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش . وقد جعل – تعالى – العالم طبقات ، ولم يجعل أعلاه مفتقرا إلى أسفله ، فالسماء لاتفتقر إلى الهواء [4]، والهواء لايفتقر إلى الأرض ، فالعلي الأعلى رب السموات والأرض وما بينهما الذي وصف نفسه

---

[1] "مجموع الفتاوى "(2 / 34 – 35) ، وانظر (6 / 139) ، و" الصفديه "(2 / 25) .
[2] " بيان تلبيس الجهمية " (2 / 300) .
[3] " درء التعارض " (10 / 285) .
[4] المراد بالهواء هنا: الفراغ الذي يكون بين السماء والارض .



بقوله تعالى :" ﭽ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ
ﭼ[1] , أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر الى شيء بحمل أو غير حمل ، بل هو الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، الذي كل ما سواه مفتقر اليه ، وهو مستغن عن كل ما سواه ".[2]

- أن " صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى ، وان شئت أن تقول : العلم ، والقدرة ، والقدرة إما على الفعل وهو التأثير ، وإما على الترك وهو الغنى ، والأول أجود . وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده ، فانه الذي أحاط بكل شيء علما ، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين . وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﭽ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ
ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ
ﭼ[3] , وكذلك قال نوح – عليه السلام - [4] , فهذا أول أولي العزم , وأول رسول بعثه الله – تعالى – إلى أهل الأرض , وهذا خاتم الرسل , وخاتم أولي العزم , كلاهما يتبرأ من ذلك . وهذا لأنهم يطالبون الرسول ﷺ تارة بعلم الغيب كقوله : ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ
ﮗ ﮘ ﮙ ﭼ[5] , و ﭽ
ﭼ[6] , وتارة بالتأثير كقوله : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ
ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ
ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ
ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ

---

[1] سورة الزمر ، الآية (67).

[2] " قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة " ص (182) ، وانظر " مجموع الفتاوى " (16/ 428) (17/ 379) .

[3] سورة الأنعام , الآية (50) .

[4] في سورة هود , الآية (31) .

[5] سورة يونس , الآية (48) .

[6] سورة الأعراف , الآية (187) .

ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ

ﭼ[1] , وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية كقوله : ﭽ

ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ

ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ

ﭼ[2] , فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب , ولا يملك خزائن الله , ولا هو ملك غني عن الأكل والمال , إن هو إلا متبع لما أوحي إليه , وإتباع ما أوحي إليه هو الدين , وهو طاعة الله , وعبادته علماً وعملاً بالباطن والظاهر , وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله – تعالى – فيعلم منه ما علمه إياه , ويقدر منه على ما أقدره الله عليه

ويستغني عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس " [3] .

---

[1] سورة الإسراء , الآية (90 – 93) .

[2] سورة الفرقان , الآية (7 – 8) .

[3] " مجموع الفتاوى " (11 / 312 – 313) .

المطلب الخامس : صفة الإحياء والإماتة .

من " أسماء الوحدانية ونمو ذلك من الأسماء الجامعة للتنزيه والتحميد ... محيي جاء في قوله : ﭽ   ﭼ [1]"[2] .

" فإنه – سبحانه – يسمى بالحي القيوم ، المحيي المميت "[3] ، وإحياؤه – سبحانه وتعالى – فوق كماله بأنه حي .

قال شيخ الإسلام عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام - :" وأخبر ان ربه يحي ويميت ، وأنه فطر السموات والأرض ، واحياؤه فوق كماله بانه حي ، وانه فطر السموات والارض يقتضي إمساكها وقيامها الذي هو فوق كماله بأنه قائم بنفسه حيث قال عن النجوم ﭽ ﭻ ﭼ ﭽ ﭼ[4] , فان الآفل هو الذي يغيب تارة ويظهر تارة فليس هو قائما على عبده في كل وقت ... فبين ما في الآلهة التي تعبد من دون الله من النقص ، وبين ما لربه فاطر السموات والأرض من الكمال بأنه الخالق ، الفاطر ، العليم ، السميع ، البصير ، الهادي ، الرازق ، المحيي المميت ، وسمى ربه بالأسماء الحسنى الدالة على نعوت كماله [5] .

وقد بين شيخ الإسلام أن الإحياء والإماتة من خصائص الله – تعالى - قال :

---

[1] سورة الروم ، الآية (50) .

[2] " المستدرك على مجموع الفتاوى " (1 / 49 ، 63) .

[3] "مجموع الفتاوى " (15/ 197)

[4] سورة الأنعام ، الآية (76) .

[5] " مجموع الفتاوى " (16 / 206 – 207)

" آيات الأنبياء لا تكون مما يقدر عليه العبد كما قال : ﭽ
      ﭼ[1] والملائكة انما هي سبب من الأسباب
كما في خلق المسيح من غير أب فجبريل إنما كان
مقدوره النفخ فيها ، وهذا لا يوجب الخلق ، بل هو بمنزلة
الإنزال في حق غير المسيح ، وكذلك المسيح لما خلق
من الطين كهيئة الطير إنما مقدوره تصوير الطين ، وأما
حصول الحياة فيه فبإذن الله ، فإن الله يحيي ويميت ،
وهذا من خصائصه ، ولهذا قال الخليل ﭽ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ
ﭼ[2] ، وفي القرآن في غير موضع : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ
ﭟ ﭠ ﭼ [3] ، ﭽ   ﭼ[4] ,
ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼ [5] ، ﭽ ﯽ ﯾ ﯿ ﭼ [6]"[7] .
وبيَّن – رحمه الله – أن الإماتة التي اختص الله بها لا
تثبت لغيره ، وبيَّن المراد بقول القائل : "إن فلاناً أماته"
فقال : " والإماتة التي اختص الله بها لا تثبت لغيره ، وإن
قيل : "إن فلاناً أماته" فالمراد أنه فعل فعلاً خلق الله
الموت فيه مع أسباب أُخر هو من جملتها ، وهو المضاف
إلى العبد ، وليس هو الذي نفاه الرب عن غيره ، فما
يضاف إلى السبب لم ينفه الله عن غيره ، وما نفاه لا
يضاف إلى السبب " [8].
والإحياء والإماتة من صفات الله الفعلية ، وفعله تعالى "
نوعان : لازم ومتعد ، والنوعان في قوله : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ
ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛﭼ [9] ، فالاستواء والإتيان

---

[1] سورة الأنعام , الآية (109) .
[2] سورة البقرة الآية ، (٢٥٨)
[3] سورة الأنعام الآية ، (95) ، سورة يونس الآية ، (31) ، سورة الروم الآية ، (19) .
[4] سورة البقرة , الآية (28) .
[5] سورة الروم ، الآية (19) .
[6] سورة آل عمران ، الآية (156) .
[7] " النبوات " (1071-2/1070) .
[8] " الاستغاثة " (1 / 325) .
[9] سورة الحديد ، الآية (4) .

والمجيء والنزول ونحو ذلك أفعال لازمة لا تتعدى إلى مفعول ، بل هي قائمة بالفاعل ، والخلق ، والرزق ، والإماتة والإحياء ، والإعطاء والمنع ، والهدى ، والنصر ، والتنزيل ونحو ذلك تتعدى إلى مفعول "[1].

وأفعاله – تعالى – من ربوبيته ولهذا قال شيخ الإسلام : "... لما كان وجوب الوجود من خصائص رب العالمين ، والغنى عن الغير من خصائص رب العالمين : كان الاستقلال بالفعل من خصائص رب العالمين ، وكان التنزه عن شريك في الفعل والمفعول من خصائص رب العالمين "[2].

وأهل العلم عرّفوا توحيد الربوبية بأنه : " توحيد الله بأفعاله "[3] ومن أفعاله – تعالى – ما نصَّ عليه شيخ الإسلام من الإحياء والإماتة.

المطلب السادس : صفة الإعطاء والمنع

---

[1] " مجموع الفتاوى " (8 / 18- 19) .

[2] " مجموع الفتاوى " (20 / 181) .

[3] انظر " الدرر السنية " (2 / 67) ، و " تيسير العزيز الحميد " ص (17) ، و " إعانة المستفيد " (1 / 20) , و " التمهيد " ص (6) .

عبَّر شيخ الإسلام – رحمه الله – بصفة " الإعطاء " و " العطاء " فقال معبراً بالأولى :" ولهذا كان اتصافه بأنه يعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل أكمل من اتصافه بمجرد الإعطاء والإعزاز والرفع ..." [1].
وبيَّن – رحمه الله – انفراد الله – تعالى – بالعطاء والمنع فقال عند حديثه عن الدعاء الذي يقال بعد الركوع : " وقال في آخره " لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت " [2]وهذا يقتضي انفراده بالعطاء والمنع ، فلا يستعان إلا به ، ولا يطلب إلا منه "[3]. وهنا عبّر – رحمه الله – بصفة العطاء.
وبيَّن – رحمه الله – أن إعطاء الله – تعالى – وجوده ليس كإعطاء خلقه وجودهم . [4]
وبيَّن أيضاً أن الإعطاء والمنع من صفات الربوبية فإنه قال عند شرحه للدعاء الذي يقال بعد الركوع : " ثم يقول بعد ذلك : " اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد " وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية خلقاً ، وقدراً ، وبداية ، وهداية ، هو المعطي المانع ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، ولتوحيد الإلهية شرعاً ، وأمراً ونهياً ..." [5].
ولما تحدّث عن الشرك في الربوبية ذكر أن من معاني الرب : المعطي المانع ، وأن من شهد أن المعطي المانع غيره فقد أشرك بربوبيته ، وبيَّن كيفية التخلص من ذلك فقال : " وأما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية ، فإن الرب – سبحانه – هو المالك ، المدبر ، المعطي المانع ، الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل غيره ، فقد أشرك بربوبيته ، ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر إلى المعطي الأول مثلاً فيشكره على ما أولاه

---

[1] " مجموع الفتاوى " (6/94) .
[2] أخرجه مسلم في صحيحه ح (1071) (1072) .
[3] " مجموع الفتاوى " (6/265) .
[4] انظر " المصدر السابق " (3/15) .
[5] " المصدر السابق " (14/376-377) ، وانظر (22/447).

من النعم ، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافيه عليه ؛ لقوله – عليه السلام – :" من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه "[1] ؛ لأن النعم كلها لله – تعالى – كما قال تعالى : ﭽ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﭼ[2] ، وقال تعالى : ﭽ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﭼ[3] ، فالله – سبحانه – هو المعطي على الحقيقة ، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدّرها ، وساقها إلى من يشاء من عباده ، فالمعطي هو الذي أعطاه ، وحرّك قلبه لعطاء غيره ، فهو الأول والآخر"[4].

وقد بيَّن شيخ الإسلام – رحمه الله – أن قول النبي ﷺ : " إني والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً ، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت "[5]لم يُرد بذلك العطاء والمنع الذي يحصل بمجرَّد المشيئة والقدر ، فإن جميع المخلوقات لا يعطون ولا يمنعون إلا بمشيئة الله وقدره ، بل المراد العطاء والمنع الشرعي ، أي : لا أعطي إلا من أمرت بإعطائه , ولا أمنع إلا من أمرت بمنعه , وهذه صفة العبد الرسول ،وأما النبي الملك كسليمان ، فإن الله – تعالى – قال له : ﭽ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﭼ[6] أي : أعط من شئت ، واحرم من شئت لا حساب عليك , فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه , ويترك ما حرَّم الله عليه ، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه

---

[1] أخرجه أبو داود في السنن ح (1672) (5109) ، والنسائي في السنن ح (2568) ، و أحمد في المسند ح (5365) ، وابن حبان في صحيحه ح (3408) . والحديث صححه النووي في " رياض الصالحين " ص (548) والألباني في " صحيح سنن أبو داود " (1/464)

[2] سورة النحل ، الآية (53).

[3] سورة الإسراء ، الآية (20).

[4] " مجموع الفتاوى " (1/92).

[5] أخرجه البخاري في صحيحه ح (3117).

[6] سورة ص ، الآية (39).

ويختار من غير إثم عليه ، وأما العبد الرسول فهو الذي لا يفعل إلا ما أُمر به ، ففعله كله عبادة لله , فهو عبد محض , منفذ أمر مرسله ، لا يعطي ولا يمنع إلا بأمر ربه تعالى[1].

المطلب السابع : صفة النفع والضر

بيَّن شيخ الإسلام – رحمه الله – انفراد الله – تعالى – بالنفع والضر فقال : " والمقصود أنه قد بيّن انفراده

[1] " انظر " الرد على الشاذلي " ص (118) ، ومجموع الفتاوى (10/279-281) (11/180-181) و " السياسة الشرعية " ص (44) و " بيان تلبيس الجهمية " (6/601).

بالخلق , والنفع والضر , والإتيان بالآيات , وغير ذلك , وأن ذلك لا يقدر عليه غيره "[1].

وبيَّن – رحمه الله – أن النفع والضر من صفات الربوبية فإنه لما تحدث عن الشرك في الربوبية عرّف الرب وذكر من معانية : الضار النافع , وأن من شهد أن الضار النافع غير الله فقد أشرك بربوبيته . قال – رحمه الله - :" وأما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية , فإن الرب – سبحانه – هو المالك , المدبر , المعطي المانع , الضار النافع , الخافض الرافع , المعز المذل ,فمن شهد أن المعطي أو المانع , أو الضار أو النافع , أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته "[2].

وعند حديثه عن علم صفة الربوبية قال : " فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله – تعالى – قال تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭼ[3] فلا يرى نفعاً ولا ضراً , ولا حركة ولا سكوناً , ولا قبضاً ولا بسطاً , ولا خفضاً ولا رفعاً , إلا و الله – سبحانه وتعالى – فاعله , وخالقه , وقابضه وباسطه , ورافعه وخافضه , فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات... وهو علم صفة الربوبية "[4].

ومما بينه أيضاً – رحمه الله - :

- أن في كون ملكوت كل شيء بيد الله – تعالى – بيان أنه هو النافع له , فهو الذي يأتي بالمنفعة , وهو الذي يدفع المضرّة كما قال تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭼ[5] ,

---

[1] " النبوات " (2/1068).
[2] " مجموع الفتاوى " (1/92).
[3] سورة الملك , الآية (1).
[4] " مجموع الفتاوى " (1/89).
[5] سورة يونس , الآية (107).

وقال تعالى : ﭽ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﭼ[1][2] .

- أن قول القائل : "عن مخلوق كالرسول - ﷺ - إنه لا يضر ولا ينفع " يراد به ثلاثة أمور :

الأول : " نفي الاستقلال بذلك على سبيل توحيد الربوبية , بمعنى أن ما يجري على يديه من الضر والنفع فالله هو خالقه , وهو الذي يجعله فاعلاً بمشيئته , أو يريد أنه لا ينفع ولا يضر إلا بمشيئته الله وقدرته وإرادته , كما قال تعالى : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﭼ[3] , فهذا صحيح , فليس في المخلوقات بهذا الاعتبار شيء ينفع ولا يضر ؛ إذ ليس في المخلوقات ما يستقل بإحداث ضرر غيره ونفعه , ولا يفعل شيء إلا بإذن الله "[4].

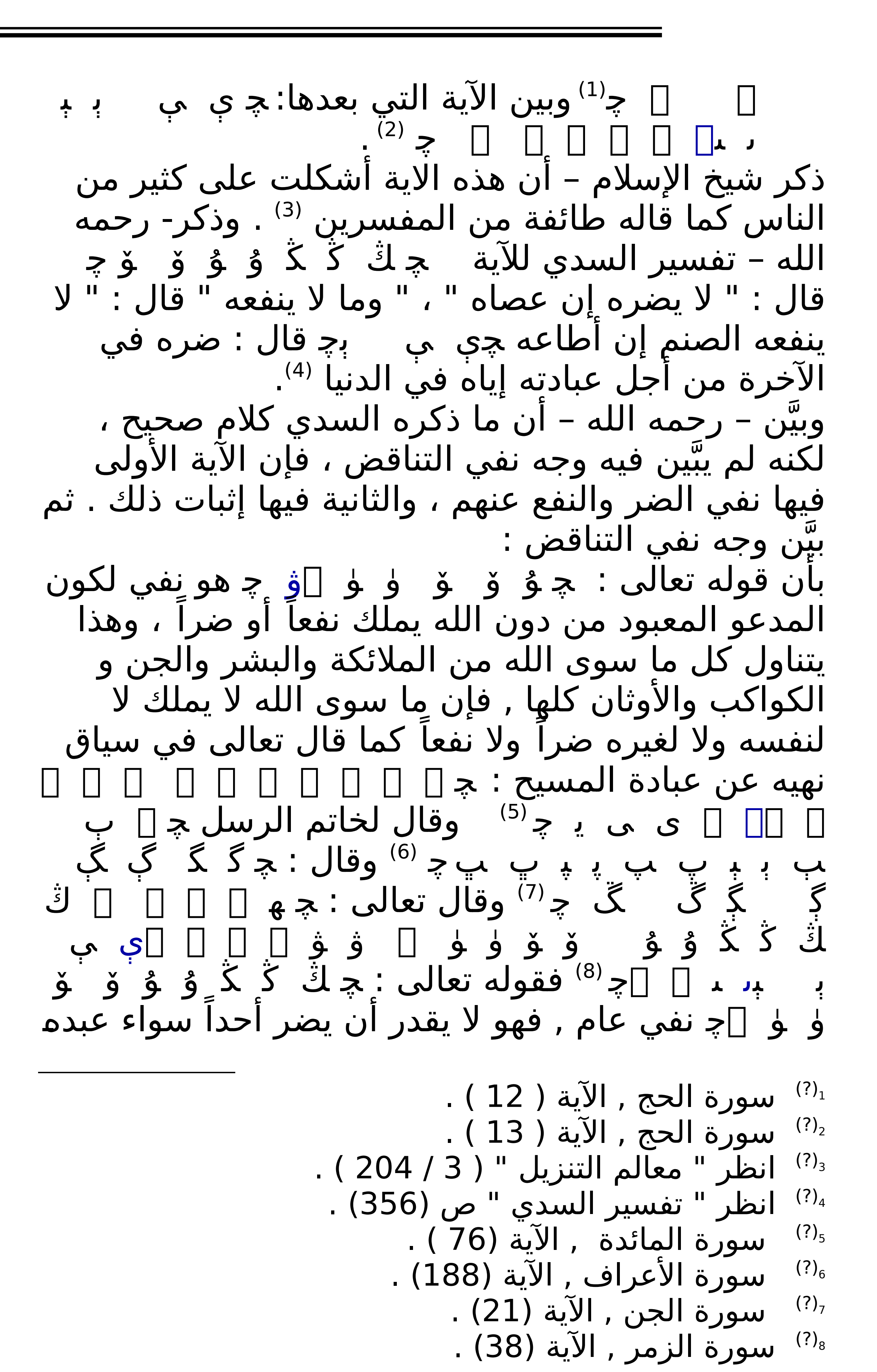
الثاني : " أن الضر والنفع المعتاد , مثل الصحة والمرض , والغنى والفقر , والأمن والخوف , واليسر والعسر , لا يفعله رسول ولا غيره , لا في حياته ولا بعد موته , فهذا صحيح , بخلاف ما يظنه المشركون الغلاة من النصارى وأشباههم , الذين يظنون أن الأنبياء والصالحين بعد موتهم أوفي حياتهم ينزلون المطر , ويدفعون العدو , وينبتون النبات , ويشفون المرضى , ونحو ذلك , من الحوادث "[5].

الثالث : " أنه ليس له دعاء مستجاب , ولا شفاعة مقبولة , وأن طاعته لا تنفع ومعصيته لا تضر ونحو ذلك , فهذا كفر صريح , من أراده حكم بردته وكفره "[6] .

- **ومما بيّنه شيخ الإسلام أيضا :** الجمع بين قوله تعالى ﭽ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ

---

[1] سورة الزمر , الآية (38).
[2] انظر " بيان تلبيس الجهمية " (4 / 535).
[3] " سورة البقرة " ، الآية (102) .
[4] " الاستغاثة " (2 / 549) .
[5] " المصدر السابق " (2 / 550) .
[6] " الاستغاثة " (2/550).



ڇ[1] وبين الآية التي بعدها: ڇ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ڇ[2].

ذكر شيخ الإسلام – أن هذه الاية أشكلت على كثير من الناس كما قاله طائفة من المفسرين [3] . وذكر- رحمه الله – تفسير السدي للآية ڇ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ڇ قال : " لا يضره إن عصاه " ، " وما لا ينفعه " قال : " لا ينفعه الصنم إن أطاعه ڇ ﭗ ﭘ ﭙ ڇ قال : ضره في الآخرة من أجل عبادته إياه في الدنيا [4].

وبيَّن – رحمه الله – أن ما ذكره السدي كلام صحيح ، لكنه لم يبِّين فيه وجه نفي التناقض ، فإن الآية الأولى فيها نفي الضر والنفع عنهم ، والثانية فيها إثبات ذلك . ثم بيَّن وجه نفي التناقض :

بأن قوله تعالى : ڇ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ڇ هو نفي لكون المدعو المعبود من دون الله يملك نفعاً أو ضراً ، وهذا يتناول كل ما سوى الله من الملائكة والبشر والجن و الكواكب والأوثان كلها , فإن ما سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً كما قال تعالى في سياق نهيه عن عبادة المسيح : ڇ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ڇ[5] وقال لخاتم الرسل ڇ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ڇ[6] وقال : ڇ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ڇ[7] وقال تعالى : ڇ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ڇ[8] فقوله تعالى : ڇ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ڇ نفي عام , فهو لا يقدر أن يضر أحداً سواء عبده

---

[1] سورة الحج , الآية (12) .

[2] سورة الحج , الآية (13) .

[3] انظر " معالم التنزيل " (3 / 204) .

[4] انظر " تفسير السدي " ص (356) .

[5] سورة المائدة , الآية (76) .

[6] سورة الأعراف , الآية (188) .

[7] سورة الجن , الآية (21) .

[8] سورة الزمر , الآية (38) .

أو لم يعبده , ولا ينفع أحداً سواء عبده أو لم يعبده [1]
فـ"المنفي هو فعلهم بقوله : ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﭼ
والمثبت اسم مضاف إليه , فإنه لم يقل : يضر أعظم
مما ينفع , بل قال : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭼ والشيء يضاف
إلى الشيء بأدنى ملابسة , فلا يجب أن يكون الضر
والنفع المضافين من باب إضافة المصدر إلى الفاعل ,
بل قد يضاف المصدر من جهة كونه اسماً كما تضاف
سائر الأسماء , وقد يضاف إلى محله وزمانه ومكانه
وسبب حدوثه , وإن لم يكن فاعلاً كقوله : ﭽ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ
ﭼ [2] ولا ريب أن بين المعبود من دون الله وبين ضرر
عابديه تعلق يقتضي الإضافة , كأنه قيل : لمن شره
أقرب من خيره , وخسارته أقرب من ربحه , فتدبر هذا !
ولو جعل هو فاعل الضر بهذا ؛ لأنه سبب فيه , لا لأنه هو
الذي فعل الضرر , وهذا كقول الخليل عن الأصنام : ﭽ ﭰ
ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭼ [3] فنسب الإضلال إليهن ,
والإضلال هو ضرر لمن أضللنه , وكذا قوله : ﭽ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ
ﭼ [4] وهذا كما يقال : أهلك الناس الدرهم والدينار ,
وأهلك النساء الأحمران الذهب والحرير , وكما يقال
للمحبوب المعشوق الذي تضر محبته وعشقه : إنه عذب
هذا وأهلكه وأفسده وقتله وعثره , وإن كان ذاك
المحبوب قد لا يكون شاعراً بحال هذا ألبته , وكذلك يقال
في المحسود : إنه يعذب حاسديه وإن كان لا شعور له
بهم . وفي الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ أنه
قال : "والله ما الفقر أخشى عليكم , ولكن أخاف أن
تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم
فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها , وتهلككم كما أهلكتهم
"[5] . فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة لهم وذلك :
بسبب حبها , والحرص عليها , والمنافسة فيها , وإن

---

[1] انظر "مجموع الفتاوى" (15/269-273) .
[2] سورة سبأ , الآية (33) .
[3] سورة إبراهيم , الآية (36) .
[4] سورة هود , الآية (101) .

كانت مفعولاً بها لا إختيار لها , فهكذا المدعو المعبود من دون الله الذي لم يأمر بعبادة نفسه : إمّا لكونه جماداً , وإما لكونه عبداً مطيعاً لله من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن , فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضر , لكن هو السبب في دعاء الداعي له , وعبادته إياه , وعبادة ذاك ودعاؤه هو الذي ضره , فهذا الضر المضاف إليه غير الضر المنفي عنه .

فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدنيا والآخرة , وإن كان عذاب الآخرة أشد , فالمشركون الذين عبدوا غير الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدنيا ما جعله الله عبرة لأولي الأبصار" [(1)(2)].

والخلاصة : أن الضر المنفي في الاية غير الضر المثبت , فالضر المنفي هو ما يكون بفعل المعبودات من دون الله , والضر المثبت ما يكون بطريق السبب , فالمعبودات من دون الله سبب في دعاء الداعي لهم وعبادته إياهم , ودعاؤه وعبادته لهم هو الذي ضره في الدنيا والآخرة , و إن لم يكونوا هم من فعل به الضر .

(?)5 أخرجه البخاري في صحيحه ح (3158) (4015) , ومسلم في صحيحه ح (6425).

(?)1 " مجموع الفتاوى " (15/273 - 275) .

(?)2 للتوسع انظر : "معالم التنزيل " (3/204-205) , " الجامع لأحكام القرآن " (12/14-15) و" أضواء البيان " (5/29-31) , و " روح المعاني " (17/125-126).

المطلب الثامن : صفة الخفض والرفع

كما أن الله – سبحانه وتعالى – هو الذي يعطي ويمنع , وينفع ويضر , فهو الذي يرفع ويخفض , والمخلوق ليس عنده لغيره نفع ولا ضر , ولا عطاء ولا منع , ولا خفض ولا رفع , بل الله – سبحانه – هو المتفرد بذلك دون ما سواه.

وقد بيَّن شيخ الإسلام – رحمه الله – أن صفة الخفض والرفع متعلقة بالربوبية فإنه لما تحدث عن الشرك في الربوبية ذكر أن من معاني الرب الخافض الرافع قال : " و أما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية , فإن الرب – سبحانه – هو المالك , المدبر , المعطي المانع , الضار النافع , الخافض الرافع , المعز المذل , فمن شهد أن المعطي أو المانع , أو الضار أو النافع , أو المعز أو المذل غيره , فقد أشرك بربوبيته " [1].

ولما تحدث عن علم صفة الربوبية قال : " فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله – تعالى - , قال تعالى : ﭽ ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ

---

[1] "مجموع الفتاوى" (1/92) .

ٻ ٻ چ[1] : فلا يرى نفعاً ولا ضراً , ولا حركة ولا سكوناً , ولا قبضاً ولا بسطاً , ولا خفضاً ولا رفعاً , إلا والله – سبحانه وتعالى – فاعله , وخالقه , وقابضه وباسطه , ورافعه وخافضه , فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات ... وهو علم صفة الربوبية "[2].

وقد بيَّن – رحمه الله – أن خفض الرب تعالى ورفعه من عدله قال : " وكل ما في الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله – تعالى – وما في الوجود من غير ذلك فهو من عدله , فكل نعمة منه فضل , وكل نقمة منه عدل , كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : " يمين الله ملأى , لا يغيضها نفقه , سحاء الليل والنهار , أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض , فإنه لم يغض ما في يمينه , وبيده الأخرى القسط , يخفض ويرفع "[3] فأخبر أن يده اليمنى فيها الإحسان إلى الخلق , ويده الأخرى فيها العدل والميزان به يخفض ويرفع , فخفضه ورفعه من عدله , وإحسانه إلى خلقه من فضله [4] .

---

[1] سورة الملك , الآية (1) .

[2] "مجموع الفتاوى" (1/89) .

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ح (4684) (7411) (7419) , ومسلم في صحيحه ح (2308) (2309).

[4] "مجموع الفتاوى" (8/95) .

المطلب التاسع : صفة الإعزاز و الإذلال

عبَّر شيخ الإسلام – رحمه الله – بالإعزاز , وأنه – تعالى – يعز ويذل فقال : " ولهذا كان اتصافه بأنه يعطي ويمنع , ويخفض ويرفع , ويعز ويذل , أكمل من اتصافه بمجرد الإعطاء والإعزاز والرفع ..." [1].

وبيَّن – رحمه الله – أن الله – تعالى – هو الذي يعز ويذل , وأنه لا معز ولا مذل سواه – تعالى - [2].

وبيَّن – رحمه الله – أن الإعزاز والإذلال من صفات الربوبية فإنه لما تحدث عن معاني الربوبية قال : " لا ريب أن الله العالمين , رب السماوات و الأرضين وما بينهما , ورب العرش العظيم , رب المشرق و المغرب لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلاً , ربكم ورب آبائكم الأولين , رب الناس , ملك الناس , إله الناس , ... يؤتي الملك من يشاء , وينزع الملك ممن يشاء , ويعز من يشاء , ويذل من يشاء بيده الخير , وهو على كل شيء قدير ... فهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته , وملكه , وخلقه , ورزقه , وهدايته , ونصره , وإحسانه وبره , وتدبيره , وصنعه , ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم , وعلى كل شيء قدير , وأنه سميع بصير , لا يشغله سمع عن سمع , ولا تغلطه المسائل , ولا يتبرم بإلحاح الملحين

---

[1] "مجموع الفتاوى" (6/94) .

[2] انظر" المصدر السابق " (2/459) , (8/78) , (11/526).

, يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. فهذا كله حق , وهو محض توحيد الربوبية [1] .

ولما تحدث عن الشرك في الربوبية ذكر من معاني الرب : المعز المذل و ذكر أن من شهد أن المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته قال : " وأما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية , فإن الرب – سبحانه – هو المالك , المدبر , المعطي المانع , الضار النافع , الخافض الرافع , المعز المذل , فمن شهد أن المعطي أو المانع , أو الضار أو النافع , أو الخافض أو الرافع , أو المعز أو المذل غيره , فقد أشرك بربوبيته "[2] .

وأختم الحديث عن المطالب الأربعة السابقة المتعلقة بصفات الله – تعالى – المقترنة ببيان أصل قرره شيخ الإسلام – رحمه الله – وهو :

أن أسماء الله المقترنة مثل (المعطي المانع) و (الضار النافع) و (الخافض الرافع) و (المعز المذل) والتي تتضمن صفة (الإعطاء والمنع) و (النفع والضر) و (الخفض والرفع) و (الإعزاز والإذلال) لا تذكر إلا مقرونة ؛ " لأن الاسمين إذا ذكرا معاً دلَّ ذلك على عموم قدرته , وتدبيره , وأنه لا ربَّ غيره . وعموم خلقه وأمره فيه مدح له وتنبيه على أن ما فعله من ضرر خاص ومنع خاص فيه حكمة ورحمة بالعموم , وإذا ذكر أحدهما لم يكن فيه هذا المدح , والله له الأسماء الحسنى , ليس له مَثَل السوء قط "[3].

واتصافه – تعالى - : " بأنه يعطي ويمنع , ويخفض ويرفع , ويعز ويذل أكمل من اتصافه بمجرد الإعطاء

---

[1] "المصدر السابق" (2/398 -399).

[2] "مجموع الفتاوى" (1/92).

[3] "بيان تلبيس الجهمية " (3/300) , وانظر (4/36-41) , (7/465-466) , و " مجموع الفتاوى" (8/94-95) , (14/276) , (17/94) , و" منهاج السنة " (5/410) , و"شرح الأصبهانية " ص(428) .

والإعزاز والرفع ؛ لأن الفعل الآخر حيث تقتضي الحكمة ذلك أكمل مما لا يفعل إلا أحد النوعين ويخلّ بالآخر في المحل المناسب له "[1].

المطلب الخامس عشر : صفة التعالي والعظمة والكبرياء.

بيَّن شيخ الإسلام – رحمه الله – أن تعالي الرب - تعالى- وعظمته وكبرياءه أوصاف لازمة له[2] ، وبيَّن أن الكبرياء والعظمة لا يصلحان إلّا لله، وأنه يمتنع وجود ذاته تعالى بدونهما[3] وبيَّن – رحمه الله- أن صفة "التعالي" و "العظمة" و "الكبرياء" من خصائص الربوبية فقد قال : "والتعالي، والتكبر والثناء على النفس، وأمر الناس بعبادته ودعائه، والرغبة إليه ونحو ذلك مما هو من خصائص الربوبية،هذا كمال محمود من الرب -تبارك وتعالى- وهو نقص مذموم من المخلوق . وهذا كالخبر عما هو من خصائص الربوبية كقوله: ﭽﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡﭼ[4] " ... فالكبرياء والعظمة له بمنزلة كونه حياً ، قيوماً ، قديماً ، واجباً بنفسه[5] ، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير ، وأنه العزيز الذي لا ينال، وأنه قهار لكل ما سواه. فهذه كلها صفات كمال لا يستحقها إلاَّ هو ، فما لا يستحقه إلاَّ هو كيف يكون كمالاً من غيره وهو معدوم

---

[1] "مجموع الفتاوى" (6/94).

[2] "شرح حديث النزول " ، ص (395).

[3] "بيان تلبيس الجهمية" ، (6/275).

[4] سورة طه، الآية (14).

[5] القديم والواجب بنفسه يطلق على الله تعالى من باب الاخبار .

لغــيره؟ فمن ادّعــاه كــان مفتريــاً منازعــاً للربوبية في خواصها، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي – صـلى الله عليه وسـلم – قـال : "يقـول الله تبـارك وتعـالى: العظمة إزاري ، والكبريـاء ردائي ، فمن نـازعني واحـداً منهما عذبتــــه"[1] وجملة ذلك : أن الكمـــــال المختص بالربوبية ليس لغـيره فيه نصـيب، فهـذا تحقيق اتصـافه بالكمال الذي لا نصـيب لغـيره فيه ، ومثل هـذا الكمـال لا يكون لغيره فادعاؤه منازعة للربوبية وفرية على الله "[2] .

وقال : "فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية"[3] .

وبيَّن شـيخ الإسـلام – رحمه الله – أن الكبريـاء متضـمن للعظمة ولكن الكبريــاء فــوق العظمة وهو أعلى وأكمل من العظمة ؛ ولهذا قال النبي – صـلى الله عليه وسـلم – فيما يـروي عن ربه تعـالى : "والعظمة إزاري، والكبريـاء ردائي، فمن نــازعني واحــداً منهما عذبتــه"[4] . فجعل الكبريـاء بمنزلة الــرداء، والعظمة بمنزلة الإزار، والــرداء أعلى من الإزار، ولما كان الأمر كذلك كان المشـروع في العبادات "الله أكـبر" دون "الله أعظم" وذلك في الصـلاة ، والآذان، والأعياد، والمناسك، وعلى الأشرف[5] .

وبيَّن شـيخ الإسـلام أيضـاً أن التكبـير شـرع في المواضع الكبار"ليبين أن الله أكبر، وتستولي كبريـاؤه في القلـوب

---

[1] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (6680) بلفظ قال – صـلى الله عليه وســـــلم – :"العز إزاره ، والكبريـــــاء رداءه ..."، وأخرجه باللفظ الذي ذكره شـيخ الإسـلام أبو داود في سـننه ح (4090)، وابن ماجه في سننه ح (4174)، (7475) ، وأحمد في مسنده ح (8880)، (9330)، (9476)، (9664)، ، وصـححه الألبـاني في "صحيح سنن أبي داود " (2/517).

[2] (?) "مجموع الفتاوى" ص (6/137-139).

[3] (?)"العبودية" ص (135).

[4] (?) سبق تخريجه ص (194).

[5] (?) انظر"مجموع الفتاوى" (10/253)، (16/112)، ، و "العبودية" ص (135-137) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (6/274-275) .

على كبريـاء تلك الأمـور الكبـار، فيكـون الـدين كله للـه، ويكون العباد له مكبرون، فيحصل لهم مقصودان، مقصود العبادة بتكبير قلوبهم لله، ومقصود الاستعانة بانقياد سائر المطالب لكبريائه"[1] .

المطلب الحادي عشر : صفة الحياة والقيومية

اسم الله "الحي " جاء مفرداً في قوله تعالى : ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭼ [2] وفي قوله : ﭽ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﭼ[3] وجاء مقروناً في قوله تعالى : ﭽ ﮣ ﮤ ﭼ في ثلاثـة مواضع[4][5] من القـرآن "كـل موضـع فيـه أحـد أصـول الـدين الثلاثـة وهي: التوحيـد، والرسل، والآخرة ،هذه الـتي بعث بهـا جميـع المرسـلين، وأخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله : ﭽ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﭼ[6] فقال هنا (أي في آيــة الكرسي) : ﭽ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﭼ[7] قرنها بأنه لا إله إلاَّ هو، وزاد في آل عمران : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭼ[8] وهذا إيمان بالكتب

---

[1] "مجموع الفتاوى" (24 / 229) .

[2] سورة الفرقان، الآية (58).

[3] سورة غافر، الآية (65).

[4] سورة البقرة الآية (255) ، وسـورة آل عمـران الآية (2) ، وسورة طه الآية (111) .

[5] انظر "المستدرك على مجموع الفتاوى" (1/50).

[6] سورة الأنعام، الآية (150).

[7] سورة البقرة، الآية (255).

[8] سورة آل عمران، الآية (3-4).

والرسل، وقال في طه : ﭽﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥ ﯦﯧ ﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﭼ[1] "[2] . وهذا فيه ذكر الآخرة.

والله – سبحانه وتعالى- مـدح نفسـه بأنـه الحي القيـوم ، فلا يجوز أن يوصف بضـد الحيـاة والقيوميـة مثـل المـوت والنوم[3] ، ولهذا قال تعالى : ﭽﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﭼ[4] فنفى عن نفســه تعــالى الســنة والنــوم لكمــال حياتــه وقيوميته[5] .

وقـد بيَّن شيــخ الإسـلام –رحمـه اللـه- أن صـفة الحيـاة والقيومية من خصائص الربوبية فقال : "ووصــــف نفسـه بأنه رب العالمين، وبأنه مالك يوم الدين، وأنـه لـه الملـك وله الحمد ، وأنه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنـه على كل شيء قدير، وبكـل شـيء عليم، ونحـو ذلـك من خصائص الربوبية، ولم يصف شيئاً من مخلوقاتـه، لا ملكـا مقرباً ولا نبياً مرسلاً بشـيء من الخصائـــص الـتي يختص بها، التي وصف بها نفسه-سبحانه وتعالى- "[6] .

وقــال : "والتعــالي والتكــبر والثنــاء على النفس، وأمــر النــاس بعبادتــه ودعائــه، والرغبــة إليــه ونحــو ذلــك من خصائص الربوبيـة، هـذا كمـال محمـود من الـرب- تبـارك وتعالى- وهـو نقص مـذموم من المخلـوق ، وهـذا كـالخبر عما هو من خصائص الربوبية كقوله : ﭽﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭼ[7]... فالكبرياء والعظمة له بمنزلة كونه حياً قيوماً ، قديماً واجباً بنفسه ، وأنـه بكـل شـيء عليم ، وعلى كـل شـيء قدير ، وأنه العزيز الذي لا ينال وأنه قهار لكل مـا سـواه. فهـذه كلهـا صـفات كمـال لا يسـتحقها إلاَّ هـو ، فمـا لا

(?)[1] سورة طه، الآية (109-111).

(?)[2] "مجموع الفتاوى" (16/371).

(?)[3] "مجموع الفتاوى" (16/98).

(?)[4] سورة البقرة ، الآية (255).

(?)[5] انظر "الصفدية" (1/91)ـ (2/64)ـ ، و "التدمريـة" ص (59-60) ، و "منهاج السنة" (2/183)

(?)[6] "الجواب الصحيح" (4/45-46).

(?)[7] سورة طه ، الآية (14) .

يستحقه إلاَّ هو كيف يكون كمالاً من غيره وهو معدوم لغيره؟ فمن ادعاه كان مفترياً منازعاً للربوبية في خواصها..." [1] .

ولما تحدّث –رحمه الله –عن معاني الربوبية ذكر الحياة والقيومية فقال : "لا ريب أن الله ربّ العالمين ، رب السماوات والأرضين وما بينهما ، ورب العرش العظيم ، رب المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلا، ربكم ورب آبائكم الأولين ، رب الناس ، ملك الناس إله الناس... وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، وهو القائم بالقسط القائم على كل نفس بما كسبت، الخالق البارئ المصور... فهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته، وملكه ، وخلقه ، ورزقه ، وهدايته، ونصره، وإحسانه وبره ، وتدبيره، وصنعه، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحين ، يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. فهذا كله حق، وهو محض توحيد الربوبية"[2] .

ومما بيّنه أيضاً شيخ الإسلام ما يلي:

1. أن "الحياة" صفة قائمة بالموصوف، وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية، وهي أيضاً مستلزمة لذلك، فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة، وكل ماله علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي ، وليست الحياة مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار كأبي الحسين البصري قالوا : إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر[3] .

---

[1] "مجموع الفتاوى" (6/137-139) ، وانظر "درء التعارض" (5/46-47).

[2] "مجموع الفتاوى" (2/398-399).

[3] انظر "مجموع الفتاوى" (10/109).

2. أن الله –سبحانه وتعــالى- سمَّى نفسه حياً فقال: ﭼ ﮛ ﭼ[1] وسمَّى بعض عباده حياً فقال : ﭼﭙﭙﭙ ﭙ ﭙﭚﭚ ﭼ[2] وليس هذا الحي مثل هذا الحي؛ لأن اسم الله "الحي" مختص به، واسم المخلوق مختص بــه، وإنمــا يتفقــان إذا أطلقــا وجُــرِّدا عن التخصــيص[3] ، والرب – تعالى- مختص إما بنوع لا يوصـف بـه غـيره مثل كونه رب العالمين ونحو ذلك، وإما بما لا يماثلـه فيه غيره كالحياة[4] .
3. أن آيات الله القولية ، وآياته الفعلية كمخلوقاته دلت على حياته تعالى ، ومن الدلائل الكثـيرة الدّالـة على ذلك ما يلي :

1) أنه قد ثبت أنه عــالم، والعلم لا يقــوم إلاَّ بحي ، وثبت أنه قادر مختار يفعل بمشيئته والقـادر المختـار لا يكون إلاَّ حياً.
2) أنه خـالق الأحيـاءوغيرهم ، والخـالق أكمـل من المخلــوق ، فكـــل كمـــال ثبت للمخلــوق فهـــو من الخالق، فيمتنع أن يكون المخلوق أكمـل من خالقـه، وكماله أكمل منه، وإذا كان خالقـاً للأحيـاء كـان حيـاً بطريق الأولى والأحرى.
3) أن الحي أكمل من غير الحي كما قال تعالى: ﭼ ﯔﯕ ﯖ ﯗﯘﭼ[5] فلو كان الخالق غير حي لزم أن يكون الممكن المحدث المخلوق أكمل من الواجب القديم الخـــالق ، فيكـــون أنقص الموجـــودين أكمـــل من أكملهما[6] .

(?)[1] سورة البقرة ، الآية (255).
(?)[2] سورة الأنعام ، الآية (95).
(?)[3] انظر "التدمرية" ص (21-22).
(?)[4] انظر "الصفدية" (2/39).
(?)[5] سورة فاطر ، الآية (22)
(?)[6] انظر "الجواب الصحيح" (3/208).

4. أن "القيوم" معناه: القائم المقيم لما سواه ، الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم ولا يفنى بوجه من الوجوه[1] .
5. أن اسمه تعالى "القيوم يقتضي الدوام والثبات والقوة، ويقتضي الاعتدال والاستقامة، وقد وصف نفسه بأنه قائم بالقسط [2] ، وأنه على صراط مستقيم"[3] [4].
6. أن كل ما سوى الله فإنما يقيمه غيره ، والله – تعالى- هو الحي القيوم، الذي يقوم بنفسه ويقيم كل شيء، وكل ما يقيمه غيره فهو مضطر إلى ذلك الغير فلا يكون رباً ، وهذا فيه دلالة على أن كل ما سوى الله فهو مربوب مخلوق، ليس له شيء من الربوبية[5] .

---

[1] (?) انظر "الجواب الصحيح" (3/209) ، و "مجموع الفتاوى" (16/132) ، و "بيان تلبيس الجهمية" تحقيق ابن قاسم (1/543) ، و "جامع المسائل" (1/40-42، 55-59) ، و "درء التعارض" (2/71-72).

[2] (?) في قوله تعالى : ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ سورة آل عمران ،الآية (18).

[3] (?) في قوله تعالى : ﭽ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ سورة هود الآية (56).

[4] (?) "تفسير آيات أشكلت" (1/442).

[5] (?) انظر "الاستقامة" (1/125).

المطلب الثاني عشر : صفة الثناء على النفس

عرّف شيخ الإسلام الثناء وبين الفرق بينه وبين الحمد والمجد فقال : "والثناء تكرير المحامد وتثنيتها كما في الحديث الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : "إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله : حمدني عبدي، فإذا قال الرحمن الرحيم قال : أثنى عليَّ عبدي ، فإذا قال مالك يوم الدين قال : مجّدني عبدي"[1] وفي الحديث الصحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: "ربنا ولك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد"[2] فذكر الحمد والثناء، والمجد هنا كما ذكره في أول الفاتحة، فالحمد يتناول جنس المحامد، والثناء يقتضي تكريرها وتعديدها والزيادة في عددها، والمجد يقتضي تعظيمها وتوسيعها والزيادة في قدرها وصفتها، فهو سبحانه مستحق للحمد والثناء والمجد، ولا

---

[1] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (878).
[2] (?) سبق تخريجه ص (201).

أحد يحسن أن يحمده كما يحمد نفسه، ولا يثني عليه كما يثني على نفسه، ولا يمجده كما يمجد نفسه" [1] .
وبيّن –رحمه الله- أن الثناء إنما يكون بالأمور الوجودية أو ما يستلزم الأمور الوجودية ، فأما العدم المحض فلا مدح فيه ولا ثناء، ولهذا فإن الله – سبحانه – لا يثني على نفسه إلاَّ بالصفات الثبوتية أو ما يستلزم ذلك[2] .
وبيَّن –رحمه الله- أيضاً أن الخلق لا يحصون ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه كما قال أفضل الخلق وأعلمهم : "لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك"[3] .

وبيّن أيضاً أن الرب -سبحانه- يحب ثناء العباد عليه كما قال-صلى الله عليه وسلم- :"لا أحد أحب إليه المدح من الله"[4] ولكن ثناؤه على نفسه أعظم من ثنائهم عليه، ولا ثناء من مثنٍ أعظم من ثناء الرب على نفسه[5] .
وثناء الرب -تعالى- على نفسه من خصائص الربوبية ولهذا قال شيخ الإسلام : "والتعالي والتكبر، والثناء على النفس ، وأمر الناس بعبادته ودعائه، والرغبة إليه ونحو ذلك مما هو من خصائص الربوبية، وهذا كمال محمود من الرب –تبارك وتعالى- وهو نقص مذموم من المخلوق، وهذا كالخبر عما هو من خصائص الربوبية كقوله : ﭽﭙﭚ ﭛﭜ ﭝ ﭞﭟﭼ[6] ... فالكبرياء والعظمة له بمنزلة كونه حياً قيوماً، قديما، واجباً بنفسه، وأنه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وأنه العزيز الذي لا ينال، وأنه قهار

---

[1] "درء التعارض" (4/16-17) ، وانظر "مجموع الفتاوى"(6/266).
[2] انظر "الصفدية" (2/63).
[3] أخرجه مسلم في صحيحه ح (1090).
[4] أخرجه البخاري في صحيحه ح (4634) (5220) (7403) ، ومسلم في صحيحه (6991) (6992) (6993) (6994) .
[5] انظر "مجموع الفتاوى" (8/114) (11/360) (16/320) (17/111) (18/233) ،و "منهاج السنة" (5/408).
[6] سورة طه ، الآية (14).

لكل ما سواه. فهذه كلها صفات كمال لا يستحقها إلاَّ هـو، فما لا يسـتحقه إلاَّ هـو كيـف يكـون كمـالاً من غـيره وهـو معدوم لغيره؟ فمن ادعاه كان مفترياً منازعاً للربوبية في خواصـها... وجملـة ذلـك : أن الكمـال المختص بالربوبيـة ليس لغـيره فيـه نصـيب ، فهـذا تحقيـق اتصـافه بالكمـال الـذي لا نصـيب لغـيره فيـه، ومثـل هـذا الكمـال لا يكـون لغـيره فادعــاؤه منازعــة للربوبيــة وفريــة على اللــه ... وملخص ذلـك: أن المخلـوق يـذم منـه الكبريـاء والتجـبر وتزكية نفسه أحياناً ونحو ذلك"[1].

المطلب الثالث عشر : صفة الربوبية للعالمين

اســم "الــرب" تعــالى لم يقــع في القــرآن الكــريم إلاَّ مضافاً : إما إضافــة عامّة كقوله تعالى: ﭽﭘﭙﭼ[2] في أكثر من عشرين موضعاً، وقوله : ﭽﭥﭦﭧﭨﭩﭼ[3] ، وقوله : ﭽ ﮈﮉﮊﮋﭼ[4] ، وإمّا إضافة خاصّة كقوله: ﭽﮡﮢﭼ[5] ، وقوله : ﭽﮐ ﮓﮔﭼ[6] وهذا لا يكاد يحصى، ووقع مجامعي المضاف في قوله : ﭽﭷﭸﭹﭺﭼ[7][8] .

وربوبيتــه -تعــالى- صــفة من صــفاته ، وهــو الــذي خلــق المربوب وجعله مربوباً ، قال شيخ الإسلام عنــد ردّه على من قال الإله بمعـنى الـرب : "ولـو قـدر أن الإلـه بمعـنى الرب فهو الذي جعل المربوب مربوباً فيكون على هذا هو الذي جعل المألوه مألوها، والمربوب لم يجعلـه ربـاً ، بـل

---

[1] (?) "مجموع الفتاوى" (6/137-140).

[2] (?) سورة الفاتحة ، الآية (2).

[3] (?) سورة الصافات ، الآية (5).

[4] (?) سورة الشعراء ، الآية (26).

[5] (?) سورة الناس ، الآية (1).

[6] (?) سورة الأعراف ، الآية (122).

[7] (?) سورة يس ، الآية (58).

[8] (?) انظر "المستدرك على مجموع الفتاوى" (1/44).

ربوبيته صفة ، وهو الذي خلق المربوب وجعله مربوباً ، وهو إذا آمن بالربّ واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله رباً ، ولم يبغِ رباً سوى الله ولم يتخذ رباً سواه"[1] .
والربّ سبحانه وتعالى له كمال الربوبية، فهو ربّ العالمين كلهم ، ليس شيء من العالمين خارجاً عن ربوبيته[2] ، ولهذا فإن من خصائصه التي لا يوصف بها غيره كونه ربّ العالمين، قال شيخ الإسلام : "وكل اسم لا يسمَّى به غيره: كالله ، والقديم الأزلي، وربّ العالمين، ومالك يوم الدين ، ونحو ذلك فمعناه من خصائصه"[3] .
وقال : "فإذا عرف ثبوت محدث للحوادث واجب قديم ، وعُلم انتفاء الشركة فيه بأنه واحد لا شريك له في الخلق، أو غير ذلك من خصائصه التي لا يوصف بها اثنان مثل : أنه ربّ العالمين، وأنه على كل شيء قدير ونحو ذلك – فقد تُعرف عينه بالعقل- عُرف أنه واحد معيَّن في نفس الأمر لا شركة فيه، فيطلب القلب فحينئذ معرفة عينه بخلاف ما يمكن الشركة فيه"[4] .
وقال : "فما من مخلوق إلاّ له شريك وند ، والربّ – سبحانه – وحده هو الذي لا شريك له ، ولا ندّ له، ولا مثل له ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا لا يستحق غيره أن يسمّى خالقاً ولا ربّاً مطلقاً ونحو ذلك؛ لأن ذلك يقتضي الاستقلال والانفراد بالمفعول المصنوع، وليس ذلك إلاّ لله وحده"[5] .
وكون صفة الربوبية للعالمين من خصائص الربوبية ظاهر جداً ، وقد نصَّ شيخ الإسلام على ذلك حيث قال : "ووصف نفسه بأنه رب العالمين، وبأنه مالك يوم الدين،

---

[1] "مجموع الفتاوى" (13/204).
[2] انظر "المصدر السابق" (12/328) (17/142) ، و "جامع الرسائل" (2/210) .
[3] "درء التعارض" (10/279) ، وانظر (5/46) ، و"الصفدية" (2/39).
[4] "درء التعارض" (9/13).
[5] "مجموع الفتاوى" (22/182).

وأنه له الملـك ولـه الحمـد، وأنـه الحي القيـوم، لا تأخـذه سنة ولا نـوم ، وأنـه على كـل شـيء قـدير، وبكـل شـيء عليم ، ونحو ذلك من خصائص الربوبية، ولم يصـف شـيئاً من مخلوقاته ، لا ملكا مقربـاً ولا نبيـاً مرسـلاً بشـيء من الخصائص التي يختص بها التي وصف بهـا نفسـه سـبحانه وتعالى"[1].

ولما عرَّف –رحمه الله- توحيد الربوبية ذكر ربوبيـة الـربّ لكل شـيء فقـال : "وإقـراره بألوهيـة اللـه -تعـالى- دون ســواه يتضمن إقراره بربوبيته وهو : أنـه ربّ كـل شـيء ومليكه ، وخالقه، ومدبره "[2] .

وعند تعريف الربّ قال : "إذ ربّ الشيء من يَرُبُّه مطلقاً من جميع جهاته، وليس هذا إلاَّ لله ربّ العالمين"[3] .

وقـال : "وربّ النـاس: الـذي يـربيهم بقدرتـه ومشـيئته وتـدبيره، وهـو ربّ العـالمين كلهم، فهـو الخـالق للجميـع ولأعمالهم"[4] .

ولما تحدّث عن معاني الربوبية بدأ أولاً بذكر ربوبية الـربّ تعالى للعالمين فقال : "لا ريب أن الله ربّ العالمين، ربّ السماوات والأرضين ومـا بينهمـا، وربّ العـرش العظيم ، ربّ المشرق والمغرب لا إله إلاَّ هـو فاتخـذه وكيلاً ، ربّكم وربّ آبائكم الأولين، ربّ الناس، ملك الناس إله الناس... وهو ربّ كل شيء ومليكه... فهـذه المعـاني ومـا أشـبهها من معـاني ربوبيتـه وملكـه، وخلقـه ، ورزقـه، وهدايتـه، ونصـره، وإحسـانه ، وبـره، وتـدبيره وصـنعه... فهـذا كلـه حلق، وهو محض توحيد الربوبية"[5] .

فهذا كله يـبيّن أن صـفة الربوبيـة للعـالمين من خصـائص الربوبية الظاهرة .

---

[1] "الجواب الصحيح" (4/45-46).
[2] "العبودية" ص (198).
[3] "درء التعارض" (9/341).
[4] "مجموع الفتاوى" (17/517).
[5] "مجموع الفتاوى" (2/398-399).

المطلب الرابع عشر : صفة القدرة .

الله – سبحانه وتعالى- متصف بكمال القـدرة ، فهـو على كل شيء قدر ، وقد ورد وصفه بذلك في القـرآن الكـريم في ثلاث وثلاثين موضعاً منها قوله تعالى : ﭽ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﭼ .[1] [2] وهذا من خصائصه التي لا يوصف بها غـيره ، قـال شـيخ الإسـلام : "فإن خصائص الرب التي لا يوصف بها غيره كثـيرة، مثـل كونـه رب العـالمين، وأنـه بكـل شـيء عليم ، وعلى كـل شيء قدير"[3] .

وقال : "وأخص وصف الـرب ليس هـو صـفة واحـدة، بـل علمه بكل شيء من خصائصه،وقدرته على كل شيء من خصائصه، وخلقه لكل شيء من خصائصه"[4] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام – رحمه الله- أن وصف اللـه تعـالى بالقدرة من خصائص الربوبية فقال : "ووصف نفسه بأنـه رب العالمين، وبأنه مالك يوم الدين، وأنه لـه الملـك ولـه الحمد ، وأنه الحي القيوم ، لا تأخذه سـنة ولا نـوم ، وأنـه على كل شيء قدير، وبكل شـيء عليم ، ونحـو ذلـك من خصائص الربوبية، ولم يصف شيئاً من مخلوقاتـه، لا ملكـاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً بشيء من الخصائص التي يختص بها ، التي وصف بها نفسه سبحانه وتعالى[5].

وقال أيضاً : "وله من الأمـور الـتي يسـتحق بهـا الكبريـاء والعظمة ما هو من خصائصـه تبـارك -وتعـالى- فالكبريـاء

---

[1] سورة البقرة ، الآية (20) .

[2] انظر " المستدرك على مجموع الفتاوى " (1/ 54) .

[3] "درء التعارض" (5/46).

[4] "الاستغاثة" (1/178) ، وانظر "بيان تلبيس الجهمية" (5/15-16) و "درء التعـارض" (9/13)،(10/279)ـ ، و "الاسـتقامة" (131-2/130).

[5] "الجواب الصحيح" (46-4/45).

والعظمة له بمنزلة كونه حياً قيوماً ، قديماً ، واجباً بنفسه، وأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه العزيز الذي لا ينال ، وأنه قهار لكل ما سواه فهذه كلها صفات كمال لا يستحقها إلاَّ هو ، فما لا يستحقه إلاَّ هو كيف يكون كمالاً من غيره وهو معدوم لغيره؟ فمن ادعاه كان مفترياً منازعاً للربوبية في خواصها... وجملة ذلك : أن الكمال المختص بالربوبية ليس لغيره فيه نصيب، فهذا تحقيق اتصافه بالكمال الذي لا نصيب لغيره فيه، ومثل هذا الكمال لا يكون لغيره فادعاؤه منازعة للربوبية وفرية على الله"[1] .

ولما تحدّث –رحمه الله- من معاني الربوبية ذكر من ذلك أنه على كل شيء قدير فقال : "لا ريب أن الله رب العالمين ، رب السماوات والأرض... بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، الرحمن على العرش استوى، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ... فهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته ، وملكه ، وخلقه ، ورزقه، وهدايته، ونصره ، وإحسانه وبره، وتدبيره وصنعه، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحين، يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، فهذا كله حق، وهو محض توحيد الربوبية"[2] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام أن قدرة الرب -تعالى- على كل شيء من لوازم ذاته[3] وأن المسلمين وسائر أهل الملل متفقون على أن الله على كل شيء قدير[4] .

---

[1] "مجموع الفتاوى" (6/138-139).

[2] "المصدر السابق" (2/398-399).

[3] انظر "بيان تلبيس الجهمية" (3/811) ، و "درء التعارض" (10/130).

[4] انظر "مجموع الفتاوى" (8/7).

وقد تحدّث-رحمه الله- عن مسائل كثيرة متعلقة بصفة القدرة من ذلك:

1. أن الله على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد.

2. أنه يدخل في قدرته على كل شيء أفعال نفسه ، وقد نطقت النصوص بهذا كقوله تعالى: ﭽﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﭼ[1] وقوله تعالى : ﭽﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﭼ[2] ، وقوله : ﭽﮗﮘﮙﮚﮛﮜﭼ[3][4] .

3. أن الممتنع لذاته ليس شيئاً ، باتفاق العقلاء فلا يدخل في العموم ، مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوماً ، ومثل : خلق مثل نفسه ، وأمثال ذلك ، فإن هذا لا يدخل في مسمى "الشيء" حتى يقال : إن الله عليه قدير ، فإنه – سبحانه – على كل شيء قدير ، وهذا ليس بشيء أصلاً ، ولا يكون عدم دخوله في العموم نقصاً في قدرة الله الشاملة[5] .

4. أن الممتنع لغيره وهو : ما علم الله أنه لا يكون ، واخبر أنه لا يكون ، وكتب أنه لا يكون فهذا لا يكون ، وقد يقال : إنه يمتنع أن يكون ، لأنه لو كان للزوم أن يكون علم الله بخلاف معلومه ، وخبره بخلاف مخبره، لكن هذا هو ممكن في نفسه، والله قادر عليه كما قال تعالى : ﭽﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭼ[6] ، وقالﭽﭩﭪﭫﭬ

---

[1] سورة يس ، الآية (81).

[2] سورة القيامة ، الآية (40).

[3] سورة القيامة ، الآية (4).

[4] انظر المسألة الأولى والثانية "مجموع الفتاوى" (8/10-11).

[5] انظر "بيان تلبيس الجهمية" (4/319-326) ، و "درء التعارض" (7/11) (9/365)، و "الصفدية" (2/109) ، و "منهاج السنة" (2/289، 293) ، و "مجموع الفتاوى" (8/8-9 ، 382-384) ، (12/331) ، و "شرح الأصبهانية" ص (408).

[6] سورة السجدة ، الآية (13).

ﭬﭭﭮﭯﭰﭱ[1] وقال : ﭽﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚﭛ ﭜ ﭝﭞ ﭟﭠ ﭡ ﭢ ﭣﭤ ﭥ ﭦﭼ[2] وأمثال ذلك مما أخبر الله – تعالى – أنه لو شاء فعله ، فإن هذه الأمور التي أخبر الله أنه لو شاء لفعلها تستلزم أنها ممكنة مقدورة له ، فإنه لو لم يكن قادراً عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها[3] .

5. أن قوله تعالى : ﭽﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐﭼ[4] تضمن "أن لا يخرج شيء عن قدرته ألبته، وأن كل مقدور واقع بقدره ، ففي ذلك ردّ على المجوس الثنوية، والفلاسفة، والقدرية المجوسية، وعلى كل من أخرج شيئاً من المقدورات عن خلقه وقدرته، وهم طوائف كثيرون"[5] .

6. أن إنكار الفلاسفة"لقدرة الله ومشئته أعظم من إنكارهم لعلمه بالجزئيات، فإن كثيراً من الناس كان لا يعرف ذلك، ولكن يعلم أن الله قادرٌ خلق الأشياء بمشيئته، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر- قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي- كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم. فقال أحدهم : "أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الثاني: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا" فقال الثالث: "إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا" فأنزل الله : "ﭽﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇﭼ"[6] [7] وهؤلاء كانوا يقرون

---

[1] سورة يونس ، الآية (99).

[2] سورة هود ، الآية (118).

[3] انظر "الصفدية"(2/109) ، و"منهاج السنة" (2/289-290) ، و "مجموع الفتاوى"(8/10)(11/489) ، و "شرح الأصبهانية" ص (408).

[4] سورة البقرة ، الآية (284).

[5] "مجموع الفتاوى" (14/132).

[6] سورة فصلت ، الآية (22-23) .

[7] أخرجه البخاري في صحيحه (4816)، (4817)، (7521) ، ومسلم في صحيحه ح (7029).

بأن الله خلق السـماوات والأرض بمشـيئته وقدرتـه، وكذلك كان بعض أحـداث من المسـلمين قـد يجهـل هـذه المسـألة فيقـول : يـا رسـول اللـه! مهم يكتم الناس يعلمه الله؟ فيقول له النبي – صلى الله عليه وسـلم : نعم"[1] . ولم يكن هـؤلاء يجهلـون أن اللـه خلق كل شيء بمشـيئته وقدرتـه، بـل كـان هـذا من أظهـر الأمـور وأعرفهـا عنـد عامّـة المسـلمين، بـل وعامّة المشركين الذي كانون يعبدون الأصـنام، وهم كفار، وهم مشركون، وهم الذي قاتلهم النبي –صلى اللـه عليـه وسـلم- وهم أولّ من يتناولـه ذمّ القـرآن للمشركين ، ومع هذا فكانوا مقـرّين بـأن اللـه خلـق السـماوات والأرض ومـا بينهمـا ، وخلـق كـلَّ شـيء بقدرتــه ومشــيئته، فكــانوا أحســن حــالاً من هــؤلاء الفلاسـفة في الإقـرار بـأن اللـه خـالق كـل شـيء ، وربه، ومليكه، وأنه خلق الأشـياء بمشـيئته وقدرتـه ، فإن هؤلاء حقيقة قولهم أنه لم يخلق شيئاً".[2]

المطلب الخامس عشر : صفة العلم.

الله - سبحانه وتعـالى - متصـف بكمـال العلم، فهـو بكـل شيء عليم ، وقد جاء وصفه بذلك في القرآن الكريم في

---

[1] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (1619).
[2] (?) "الرد على المنطقيين" (2/244-245).

ستة عشر موضعاً منها قوله تعالى : ﭽ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﭼ[1] [2].

وهذا من خصائصه، التي لا يوصف بها غيره، قال شيخ الإسلام: " فإن خصائص الرب التي لا يوصف بها غيره كثيرة، مثل كونه رب العالمين، وأنه بكل شيء عليم ... ". [3] وقال : " وأخص وصف الرب ليس هو صفة واحدة، بل علمه بكل شيء من خصائصه، وقدرته على كل شيء من خصائصه، وخلقه لكل شيء من خصائصه" [4] .

وعلمه – سبحانه وتعالى- بكل شيء من خصائص الربوبية ولهذا قال شيخ الإسلام :

" ووصف نفسه بأنه رب العالمين، وبأنه مالك يوم الدين، وأنه له الملك وله الحمد، وأنه الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، ونحو ذلك من خصائص الربوبية، ولم يصف شيئاً من مخلوقاته لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً بشيء من الخصائص التي يختص بها، التي وصف بها نفسه سبحانه وتعالى" [5] .

وقال : " والتعالي، والتكبر، والثناء على النفس، وأمر الناس بعبادته ودعائه والرغبة إليه ونحو ذلك مما هو من خصائص الربوبية، هذا كمال محمود من الرب – تبارك وتعالى- وهو نقص مذموم من المخلوق، وهذا كالخبر عما هو من خصائص الربوبية كقوله : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭼ[6] ... فالكبرياء والعظمة له بمنزلةكونه حياً، قيوماً، قديماً، واجباً نفسه، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه العزيز الذي لا ينال، وأنه قهار لكل ما

---

[1] سورة العنكبوت، الآية (62).

[2] انظر " المستدرك على مجموع الفتاوى"(1/51).

[3] "درء التعارض" (5/46).

[4] "الاستغاثة" (1/177-178) وانظر "درء التعارض" (10/279) و"بيان تلبيس الجهمية" (5/15-16).

[5] "الجواب الصحيح" (4/45-46).

[6] سورة طه، الآية (14).

سواه، فهذه كلها صفات كمال لا يستحقها إلا هـو، فمـا لا يستحقه إلا هو كيف يكون كمـالاً من غـيره وهـو معـدوم لغـيره؟ فمن ادعـاه كـان مفتريـاً منازعـاً للربوبيـة في خواصها...وجملة ذلك: أن الكمال المختص بالربوبية ليس لغيره فيه نصيب، فهـذا تحقيـق اتصافه بالكمـال الـذي لا نصـيب لغـيره فيـه، ومثـل هـذا الكمـال لا يكـون لغـيره فادعاؤه منازعة للربوبية وفرية على الله " [1] .

ولما تحـدث شـيخ الإسـلام عن معـاني الربوبيـة ذكـر من ضمن ذلـك علمـه تعـالى بكـل شـيء فقـال: " لا ريب أن الله رب العالمين، رب السماوات والأرضـين ومـا بينهمـا، ورب العـرش العظيم... فهـذه المعـاني ومـا أشـبهها من معاني ربوبيته، وملكه، وخلقه، ورزقه، وهدايتـه، ونصـره، وإحسانه وبره، وتدبيره، وصـنعه، ثم مـا يتصـل بـذلك من أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شـيء قـدير، وأنـه سـميع بصير، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطـه المسـائل، ولا يتـبرم بإلحـاح الملحين، يبصـر دبيب النملـة السـوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. فهذا كله حـق، وهـو محض توحيد الربوبية" [2] .

وقد تحدّث شيخ الإسلام عن مسائل كثيرة متعلقة بصــفة "العلم" من ذلك ما يلي:

1-أن ثبوت علم الرب تعالى بكل شيء معلوم بالاضطرار من دين المرسلين، وثابت بقواطع البراهين [3] .

2-أن الرب – تعالى – علمـه لـوازم نفسـه المقدسـة، لم يستفد شيئاً من صفاته من غيره، ولم يحتج إلى ســواه بوجه من الوجوه، بل هـو الغـني عن كـل مـا سـواه[4] ،

---

[1] "مجمـــوع الفتـــاوى" (6/137-139) وانظر الاســتقامة (2/130-131).

[2] "مجموع الفتاوى" (2/398-399).

[3] انظر "درء التعارض"(10/153).

[4] انظر " درء التعـــــارض" (9/393-394،419-420)ـــ (10/20،113، 124،126، 130)، "ومجموع الفتاوى"(8/493).

والمسلمون متفقون على أن الله مستغنٍ عما سواه في علمه بالأشياء[1] .

3-أن العلم يتعلق بالموجود والمعدوم والممتنع ، والواجب والممكن ، وما كان وما سيكون، وكل ذلك يتناوله علم الرب تعالى[2].

4-أن الله – سبحانه وتعالى – يعلم نفسه، ويعلم أفعاله ومفعولاته ،و" علم الرب- سبحانه وتعالى – بنفسه مستلزم لعلمه بصفاته وأفعاله ومفعولاته، وهو – سبحانه – يحمد نفسه ويثني عليها، فلا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وعلمه بأفعاله ومفعولاته مستلزم لعلمه بنفسه، وعلمه بالمخلوقات وأفعالها يتبعه حبه وبغضه وأمره ونهيه، وعلمه بما يفعله بعباده من ثواب وعقاب وغير ذلك تابع لعلمه بما هي عليه"[3] .

5-الله – سبحانه وتعالى – يعلم الأشياء قبل وجودها، وإذا وجدت علمها أيضاً، كما قال تعالى : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﭼ[4] وقال : ﭽ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﭼ[5] ، وقال : ﭽ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭼ[6] ، وفي القرآن من هذا بضعة عشر موضعاً[7] وهذا " هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده، وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم، والثواب والعقاب، والأول هو العلم بأنه سيكون، ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب، فإن هذا إنما يكون

---

[1] انظر " المصدر السابق" (10/15).

[2] انظر "شرح الأصبهانية"ص(679) ، "درء التعارض"(10/29) ، و"شرح حديث النزول" ص(355).

[3] "جامع الرسائل"(2/397).

[4] سورة البقرة، الآية (143).

[5] سورة آل عمران، الآية (140).

[6] سورة آل عمران، الآية (142).

[7] انظر"درء التعارض" (9/395-396) (10/179)، و"الرد على المنطقيين" (2/192-193) و"جامع الرسائل" (1/183).

بعد وجود الأفعال .وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذا :"لنرى" [1] وكذلك المفسرون قالوا: "لنعلمه موجوداً بعد أن كنا نعلم أن سيكون" [2] وهذا المتجدد فيه قولان مشهوران للنظاء:

منهم من يقول : المتجدد هو نسبة إضافة بين العلم والمعلوم فقط، وتلك نسبة عدمية.

ومنهم من يقول : بل المتجدد علم بكون الشيء ووجوده، وهذا العلم غير العلم بأنه سيكون وهذا كما في قوله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ [3] فقد أخبر بتجدد الرؤية، فقيل : نسبة عدمية، وقيل: المتجدد أمر ثبوتي. والكلام على القولين ومن قال هذا وهذا ، وحجج الفريقين قد بسط في موضع آخر [4].

وعامّة السلف وأئمة السنة والحديث على أن المتجدد أمر ثبوتي كما دلّ عليه النص، وهذا مما هجر أحمد بن حنبل الحارث المحاسبي على نفيه، فإنه كان يقول بقول ابن كلاب فرَّ من تجدد أمر ثبوتي وقال بلوازم ذلك، فخالف نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف ما أوجب ظهور بدعة اقتضت أن يهجره الإمام أحمد ويحذر منه " [5].

---

[1] ذكره ابن الجوزي في "زاد المسير" (1/135)، وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم"(3/415) وقال بعد ذكره لما روى عن ابن عباس : "وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود". وممن ذكر هذا التفسير دون نسبة لابن عباس : الطبري في "جامع البيان" (2/21)، والبغوي في "معالم التنزيل" (1/116).

[2] انظر "جامع البيان"(20/158) (22/110) ،و "معالم التنزيل"(3/462، 604) ،و "زاد المسير" ،و"الجامع لأحكام القرآن" (13/216)(14/188).

[3] سورة التوبة، آية(105).

[4] انظر"جامع الرسائل"(1/177-183).

[5] "مجموع الفتاوى" (8/496-497).

الفرع الأول : تعريف القدر المشترك وبيان أهميته ومنزله

تعريف القدر المشترك:

عرف شيخ الإسلام –رحمه الله – القدر المشترك بعدة تعريفات هي ما يلي:

1) قال : "والقدر المشترك أن يكون لأحدهما شبه ما للآخر ولو من بعض الوجوه"[1] .

2) قال:"والمعنى بالقدر المشـترك: أن يكـون في أحد المسميات ما يشـبه ما في الآخـر، ليس المـراد أن يكون في الخـارج شـيء معين هو بعينه مشـترك بينهما، فإن هـذا ممتنـع، بل كل موجـود في الخـارج

[1] "بيان تلبيس الجهمية" (2/321).

فإنه متميز بنفسه، مختص بصفاته لا يشركه غيره في نفس وجوده وما هيته وصفاته القائمة به إلاَّ بمعنى المشابهة، والذهن يرتسم فيه معنى يتناول المشتبهين، وذلك هو المعنى العام، وله لفظ يطابقه هو اللفظ العام"[1]

3) قال:"القدر المشترك الكلي[2] لا يوجد في الخارج إلاَّ معينا مقيدا، وأن معنى اشتراك الموجودات في أمر من الأمور هو تشابهها من ذلك الوجه، وان ذلك المعنى العام يطلق على هذا وهذا، لا أن الموجودات في الخارج يشارك أحدهما الآخر في شيء موجود فيه، بل كل موجود متميز عن غيره بذاته وصفاته وأفعاله"[3] .

4) قال :"فإن الله يوصف بها (أي بصفاته) على وجه لا يماثل أحداً من المخلوقين وإن كان بين كل قسمين قدراً مشتركاً وذلك القدر المشترك هو مسمَّى اللفظ عند الاطلاق، فإذا قيد بأحد المحلين تقيد به"[4] .

5) قال: "فلا بدَّ فيما شهدناه وما غاب عنا من قدر مشترك هو مسمّى اللفظ المتواطي[5] ، فبهذه

---

[1] "المصدر السابق" (5/435).

[2] عرفه الجرجاني بقوله: "الكلي الحقيقي ما لا يمنع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه كالإنسان "التعريفات " ص (195) وانظر الكليات" (4/80). وقال شيخ الإسلام : "فإن الكلي عندهم مثل اسم الجنس في اصطلاح النحاة هو ما علّق على الشيء وعلى كل ما أشبهه" ."الرد على المنطقيين" (2/75). وقال: "وإنما سمّي كليا لكونه في الذهن كليا، وأما في الخارج فلا يكون في الخارج ما هو كلي أصلاً " "درء التعارض" (1/216) .

[3] "التدمرية" ص (128) .

[4] "مجموع الفتاوى" (5/201-202).

[5] التواطؤ: هو اتحاد اللفظ والمعنى، فإن اتحد المعنى في أفراده سمِّي"كليا متواطئا" كالإنسان، وإن اختلف فيها بالشدة والضعف سمِّي "مشككا" كالبياض، فإن معناه في الورق أقوى

الموافقة والمشــاركة والمشــابهة والمواطــاة نفهم الغائب ونثبته، وهذا خاصة العقل"[1] .

6) قـال: " ... ولكن الاسم الـذي يكـون اسـماً لله إذا سمي الخلق به يصيرا اسـماً لهـذا إذا سـمّي بـه، وكونه يصــير اســماً له إذا سُــمي به لا يــوجب كونه ســمياً لــه، وإنما لأجل ما في اللفظين من التــواطئ دلا على معنى مشترك وهو :

ما بين الحقيقة من تشــابه في معــنى الاســم. وأنه بثبوت ذلك المعنى الذي يأخذه الذهن مشتركاً يكون الموجود موجوداً وإلا كان معدوماً"[2] .

7) قــال: "والقــدر المشــترك هو : كلي مطلق[3] ، والكلي المطلق لا يوجد كلياً مطلقاً إلاَّ في الأذهــان لا في الأعيان"[4] .

8) قــــال: "والتحقيق أن هــــذه الأمــــور العامة المشـترك فيها هي ثابتة في الأذهـان وهي : معـاني الألفاظ العامة"[5] .

9) قــال: "وإنما الاشــتراك هو نــوع من التشــابه والاتفاق، والمشترك فيه الكلي لا يوجد كذلك إلا في الذهن، فإذا وجد في الخارج لم يوجد إلاَّ متميزاً عن نظــيره، ولا يكــون هو إيّــاه، ولا هما في الخــارج مشتركان في شيء في الخارج"[6] .

من معناه في القميص. انظر"إيضاح المبهم في معـاني السـلم" ص (48).

[1] "شرح حديث النزول" ص (104-105) .

[2] "جواب الاعتراضات المصرية" ص (134).

[3] المطلق لغة: ما كـان بلا قيد ولا وثـاق، وفي المنطـق: ما لا يتوقف إدراكه على غــــيره ويقابل المضـــــاف انظـــــر"المعجم الفلسفي" ص (185-186). وعرفه الجرجاني بأنه "ما يدل على واحد غير معين" "التعريفات " ص (233).

[4] "الرد على الشاذلي" ص (106-107).

[5] "منهاج السنة" (2/591).

[6] "المصدر السابق" (8/30).

10) قـال : "والاشـتراك يقع في الأمـور العامة الكلية المطلقـة، وتلك لا تكـون عامة مطلقة كلية إلاَّ في الأذهـان لا في الأعيـان، فما فيه الاشـتراك ليس فيه إلاَّ العلم والعقـل، وما به الاختصـاص والامتيـاز وهو الموجـود في الخـارج لا اشـتراك فيـه، وإنما فيه اشـتباه وتماثل يُسـمَّى اشـتراكاً، كالاشـتراك في المعنى العام"[1] .

11) قـال : "ومن المعلـوم أنه ما من موجـودين إلاَّ بينهما قـدر يتفقـان فيـه، وإن كـان المعـنى الكلي المشترك وجوده في الأذهـان لا في الأعيـان، فلا بـدَّ أن يكـون بين أفـراد الاسم العـام الكلي نـوع من المشابهة باعتبار اتفاقهما في ذلك المعنى العام"[2] .

12) قـال عند حديثه عن الاتفـاق في الأسـماء بين الخـالق والمخلـوق: "بل هنـاك ثلاثة أشـياء أحـدها: القدر المشترك الذي تشابها فيه وهو : معنى كلي لا يختص به أحـدهما، ولا يوجد كليـاً عامـاً مشـتركاً إلاَّ في علم العالم"[3] .

وهذه التعريفات متفقة في المعنى والمضمون وهي تدور على عدة أمـور:

1- أن القدر المشترك هو الشـبه بين الموجـودين من بعض الوجوه.
2- أن هذا الاشـتراك بين الموجـودين هو في المعـنى العام، وهو مسمَّى اللفظ عند الاطلاق الذي يكون قبل الإضافة والتخصيص.
3- أن القـدر المشـترك وجـوده في الأذهـان لا في الخـارج، فالخـارج ليس فيه إلاَّ الامتيـاز والاختصاص، ولا اشتراك فيه.

ومما يوضح المراد بالقدر المشترك المثـال، فإنه بالمثـال يتضح المقال فمثـال ذلك:

---

[1] "المصدر السابق" (2/204).
[2] "الصفدية" (1/99).
[3] "الجواب الصحيح" (3/443).

أن الله سبحانه وتعالى – سمَّى نفسه حياً فقال ﭽ ﭻ ﭽ[1] وسمى بعض عباده حياً فقال: ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭽ[2] وليس هذا الحي مثل هذا الحي.

وسمى نفسه سميعاً بصيراً فقال: ﭽ ﭽ[3] وسمى بعض خلقه سميعاً بصيراً فقال: ﭽ ﯥ ﭽ[4] وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير .

وسمى نفسه بالرءوف الرحيم فقال: ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﭽ[5]

وسمى بعض عباده بالرءوف الرحيم فقال: ﭽ ﮪ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﭽ[6] وليس الرءوف كالرءوف ولا الرحيم كالرحيم، ونظائر هذا متعددة .

وكذلك سمَّى صفاته بأسمـــاء وسمَّى صفات عباه بنظير ذلك، فوصــف نفسه بالعلم فقال: ﭽ ﯿ ﭽ[7] ووصـــف المخلوق بالعلم فقال : ﭽ ﯼ ﭽ[8] وقال: ﭽ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﭽ[9] . ووصف نفسه – تعالى- بالقوة فقال: ﭽ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﭽ[10] ووصف خلقه بذلك فقال : ﭽ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﭽ[11] وقــال : ﭽ ﯼ ﯽ ﯾ ﭽ[12] .

وكذلك وصف نفسه بالقدرة والرحمة والغضـب والرضـى وغير ذلـك، ووصـف بعض عبـاده بـذلك، وليسـت صـفات الخـالق كصـفات المخلـوق[13] . فمـا يضـاف إلى الـرب –

---

[1] سورة البقرة، الآية (255).
[2] سورة الروم، الآية (19).
[3] سورة النساء، الآية (58).
[4] سورة الإنسان، الآية (2).
[5] سورة البقرة، الآية (143).
[6] سورة التوبة، الآية (128).
[7] سورة البقرة، الآية (255).
[8] سورة الإسراء، الآية (85).
[9] سورة غافر، الآية (83).
[10] سورة الذاريات، الآية (58).
[11] سورة الروم، الآية (54).
[12] سورة هود، الآية (52).
[13] انظر " التدمريــة" ص (21-30)، "والجــواب الصــحيح" (421/4-423).

تعالى- يقال من الأسماء والصفات يختص به، يليق بجلالة وعظمته ، ولا يدل على شيء من خصائص المخلوقين.
وما يضاف إلى المخلوق يختص به، ولا يدخل في ذلك ما يختص بالرب- تعالى- ،ولكن قبل الإضافة والتخصيص إذا جرد اللفظ عن القيود فذكر بوصف العموم والاطلاق تناول الأمرين، وهذا هو القدر المشترك وهو مسمى الحياة والعلم والقدرة والقوة وغير ذلك.
وتجرد الاسم عن الإضافة والتخصيص هو تقدير ذهني لا وجود له في الخارج وهو المعنى العام المشترك بين المسميات[1] .
ويوضح ذلك :

أن الصفات لها ثلاث اعتبارات:

الأول: أن تضاف الصفات وتختص بالمخلوق فيقال: حياة العبد، وعلم العبد، وقدرة العبد ونحو ذلك.
فهذا كله مخلوق، ولا يماثل صفات الرب – تعالى- .
وما يختص به العبد لا يشركه فيه الرب، ولا يستحق شيئاً من صفات الكمال التي يختص بها الرب - عز وجل- .
الثاني: أن تضاف الصفات وتختص بالخالق فيقال: حياة الله، وعلم الله ، وقدرة الله ونحو ذلك .
فهذا كله غير مخلوق، ولا يماثل صفات المخلوقين . وما اختص به الرب – عز وجل- لا يشركه فيه العبد، ولا يجوز عليه شيء من النقائض التي تجوز على صفات العبد.
الثالث: حال الإطلاق أن لا تضاف الصفات ولا تختص بالرب ولا بالعبد ، فيقال: الحياة، والعلم، والقدرة ونحو ذلك.
فهذا هو الذي فيه اشتراك، وهو المعنى العام الكلي الثابت في ذهن الإنسان، وهو لا يستلزم خصائص الخالق ولا خصائص المخلوق فالاشتراك فيه لا محذور فيه[2] .
وهذا الثالث هو الشاهد، وهوالمراد بالقدر المشترك.

---

[1](?) انظر"الجواب الصحيح" (424/4)، و "الصفدية"(2/9)، و "بيان تلبيس الجهمية"(5/437) و"التدمرية" ص (20-21) و "درء التعارض"(5/84).

وقد بيَّن شيخ الإسلام أنه ما من شيئين إلاَّ وبينهما قدر مشترك يتفق فيه الشيئان، وأن ذلك ثابت بالضرورة والفطرة، والشرع والعقل.
قال شيخ الإسلام: "فما من شيئين إلاَّ وبينهما قدر مشترك يتفق فيه الشيئان، ولكن ذلك المشترك المتفق عليه لا يكون في الخارج بل في الذهن"[1].
وقال: "كما نعلم بالضرورة والفطرة أنه ما من موجودين حيين عالميين قادرين، بل ما من موجودين إلاَّ وهما مشتركان في مسمَّى الوجود والثبوت، وإن تميزاً أحدهما عن الآخر بخاصيته التي تخصه..."[2].
وقال: "وعلم أيضاً بالعقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما فلا بدَّ بينهما من قدر مشترك كاتفاقهما في مسمَّى "الوجود" و "القيام بالنفس" و "الذات" ونحو ذلك "[3].
وقال عند حديثه عن لفظ التشبيه : "فإنه يقال على ما يشبه غيره ولو من بعض الوجوه البعيدة ، وهذا مما يجب القول به شرعاً وعقلاً بالاتفاق"[4].
وبيَّن شيخ الإسلام أيضاً أن جمهور الناس يقولون: "إن الشيء قد يشبه غيره من وجه دون وجه، وهذا القول هو المنقول عن السلف والأئمة، كالإمام أحمد وغيره، ولهذا ينكر هؤلاء على من ينفي مشابهة الموجود للموجود من

---

[2] انظر "الجواب الصحيح"(3/442-443)، (4/423-424)، و "الرد على الشاذلي" ص (219-220)، و"منهاج السنة" (2/597)، (8/30-31)، ، و"مجموع الفتاوى" (2/62-63)، (12/65-66).
[1] "منهاج السنة"(2/526)، ، وانظر (8/29-30)، و "الصفدية" (1/99)، "بيان تلبيس الجهمية"(5/435) و "التدمرية" ص (124-126)، و "درء التعارض" (5-83-84).
[2] "بيان تلبيس الجهمية" (2/319-320).
[3] "التدمرية"ص (182).
[4] "بيان تلبيس الجهمية" (6-490)، وانظر (2/511-512).

كل وجه، ويقولـون: ما من موجـودين إلاَّ وأحـدهما يشـبه الآخر من بعض الوجوه "[1] .

وقد ذكر شيخ الإسلام كلام الإمام أحمد في إثبـات القـدر المشـترك في عـدة مواضع من ذلك قولـه: " ... إذ لا بد في المعينين من أن يمتـاز أحـدهما عن الآخر بما يخصـه، وإذا كـان كل منهما موصـوفاً بقـدر مشـترك - والقـدر المشترك أن يكون لأحـدهما شـبه ما للآخر ولو من بعض الوجـوه – امتنع أن يكـون في الوجـود موجـود لا يشـارك الموجـودات في شـيء من الأمـور الوجودية ولا يشـابهها في شيء من ذلك، ولهذا كـان السـلف والأئمة يقولـون : إن العقلاء يعلمـون بعقلهم انتفـاء ذلـك، كما قـال الإمـام أحمد – رحمه الله – في رده على الجهمية لما ذكر عنهم ما وصـفوه من السـلوب وأنهم قـالوا: "كل ما خطر على قلبك أنه شيء تعرفه فهو على خلافـه" قـال: "فقلنـا: هو شـيء، قـالوا: هو شـيء لا كالأشـياء" فقلنـا: إن الشـيء الذي لا كالأشـياء قد عـرف أهل العقل أنه لا شـيء، فعند ذلك تبين للناس أنهم لا يثبتون شيئاً، ولكنهم يـدفعون عن أنفسهم الشنعة بما يقرون به في العلانية. فـإذا قيل لهم: من تعبدون؟ قالوا: نعبد من يدبر أمر هذا نعم، فقلنــا: قد عرف المسـلمون أنكم لا تثبتـون شـيئاً، إنما تـدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرون"[2] فذكر أولاً :

أن ما يقال إنه شيء ثم يقال إنه كالأشياء أي : لا يشـبهها بوجه من الوجوه بل يخالفها من كل وجه فهـذا قد عـرف أهل العقل أنه لا شــيء ؛ لأن العلم بــذلك عــام في أهل العقل.

ولما ذكر ثانيــاً : من يعبــدون. قــالوا: نعبد المــدبر لهــذا الخلـق. فهـذا إخبـار عن المعبـود الـذي تجب عبادته في الدين. فلما قالوا: هو مجهـول لا يعـرف بصـفة. قـال: قد

[1] "الصفدية" (1/102).

[2] انظر"الرد على الجهمية والزنادقة" ص (105-106).

علم المسـلمون أنكم لا تثبتـون شـيئاً، لأن المسـلمين يوجبون عبادة الله – تعالى-.
فذكر أولاً: عن عموم أهل العقل أنهم لا يثبتون شيئاً .
وذكر ثانياً: عن أهل الـدين أنهم لا يعبـدون شـيئاً، ذكر في كل مقـام ما يناسـبه ؛ وذلك لأن المجهـول لا يعـرف فلا يقصد ولا يعبد، ومن لا يعـرف بصـفة تمـيزه من غـيره لم يكن معلوماً فلا يكون مبعوداً. فهنا ذكر أن لا بدَّ من صفة تميزه عن غيره، والنفاة يقولون هذا تجسيم.
وذكر أولاً: أنه يمتنع أن لا يكـون بينه وبين شـيء من الموجـودات قـدر مشـترك ولا شـبه بوجه من الوجـوه. والنفاة يقولون هذا تشـبيه، فهم بما عنـوه بلفظ التشـبيه والتجسـيم أوجبـوا أن يكـون الموصـوف بنفي ذلك على المعـنى الـذي قصـدوه معـدوماً، بل واجب العـدم ممتنع الوجود..." [1] .

أهمية القدر المشترك ومنزلته:
بين شـيخ الإسـلام أهمية القـدر المشـترك ومنزلته من جهتين:
1-من جهة إثبات القدر المشترك.
2-من جهة نفيه.
أولاً: من جهة إثباته.
قرّر شيخ الإسلام أهمية القدر المشترك ومنزلته من جهة الإثبات من خلال ما يلي:
1) أنه لـولا إثبـات القـدر المشـترك لما كـان في الكلام فائدة.
قـال-رحمه اللـه- عند حديثه عن جـواب موسى لفرعـون لما سأله بقوله: ﭽﭾﭿﮀﮁﮂ ﮃﮄ ﮅﮆﮇﮈﮉﮊ ﮋ ﮌ ﮍﮎﮏ[2] "
فالسائل إذا سأل عن الرب ما هو أمكن أن يجاب بأجوبـة تميزه عمّـا سـواه- سـبحانه – بحيث لا يشـركه غـيره في

---

[1] "بيـان تلـبيس الجهميـة" (2/321-324)، وانظر (6/490-497)، و"درء التعارض" (5/177-179).
[2] سورة الشعراء، الآية (23-24).

الجواب، ويمكن أن يُـذكر من الأمـور المشـتركة بحسـب إدراك السائل ما يحصل بـه من المعرفـة مـا يشـاء اللـه. وأمـا معرفـة كنـه الـذات فـذاك لا يمكن بمجـرد الكلام، ليس لأنه لا كنه لها، لكن لأن تعريف كنه الأمور لا يمكن بمجرد العبارات. فإذا قيل: هو نور، لم يمنع هذا أن تكون حقيقته نـوراً، كمـا إذا قيـل: هـو حي، أو عـالم، أو قـادر، أوموجود، لكن ليس هو مثل شيء من الأنوار المخلوقـة، كما أنه ليس مثل شيء من الأحياء العالمين المخلوقين، ولا شـيء من الموجـودات المخلوقـة، ولكن لـولا القـدر المشـترك لمـا كـان في الكلام فائـدة، ثم القـدر المميّـز يحصـل بالإضـافة، فيُعلم أنـه نـور ليس كـالأنوار، موجـود ليس كـالموجودين، حي لا كالأحيـاء، وهـذا الجـواب هـو جـواب أهـل التحقيـق من المثبـتين الـذين ينفـون علم العبـاد بمـا هيتـه وكيفيتـه ويقولـون: لاتجـري ماهيتـه في مقال، ولا تخطر كيفيته ببال.ويقولون : الاسـتواء معلـوم، والكيـف مجهـول، ويقولـون حُجب الخلـق عن معرفـة ماهيته ، ونحو ذلك"[1]

ويوضح هذا الوجه الثاني:

2) أنه بالقدر المشترك يفهم الخلـق مـا أخـبروا بـه من الغيب .

فبالقدر المشترك نفهم:

- معاني الأسماء والصفات لله تعالى.
- ونفهم نعيم الجنة الذي وعد الله به عباده المؤمنين.
- ونفهم ما في النار من أنواع العذاب.

قال شيخ الإسلام: "ويقال : "إنه من عرف نفسـه عـرف ربـه" من جهـة الاعتبـار، ومن جهـة المقابلـة، ومن جهـة الامتناع. فأما الاعتبـار: فإنـه يعلم الإنسـان أنـه حي عليم قدير سميع بصير متكلم، فيتوصل بـذلك إلى أن يفهم مـا أخـبر اللـه بـه عن نفسـه من أنـه حي عليم قـدير سـميع بصير، فإنه لو لم يتصور لهذه المعاني من نفسـه ونظـره

---

[1] "درء التعارض" (10/276-277).

إليه لم يمكن أن يفهم ما غاب عنه، كما أنه لولا تصوره لما في الدنيا: من العسل، واللبن، والماء، والخمر، والحرير، والذهب والفضة لما أمكنه أن يتصور ما أخبر به من ذلك الغيب، لكن لا يلزم أن يكون الغيب مثل الشهادة فقد قال ابن عباس – رضي الله عنه- : "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء"[1] فإن هذه الحقائق التي أخبر بها أنها في الجنة ليست مماثلة لهذه الموجودات في الدنيا، بحيث يجوز على هذه ما يجوز على تلك، ويجب لها ما يجب لها، ويمتنع عليها ما يمتنع عليها، وتكون مادتها مادتها وتستحيل استحالتها، فإنا نعلم أن ماء الجنة لا يفسد ولا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه، وخمرها لا يصدع شاربها ولا ينزف عقله، فإن ماءها ليس نابعاً من تراب، ولا نازلاً من سحاب مثل ما في الدنيا، ولبنها ليس مخلوقاً من أنعام كما في الدنيا، وأمثال ذلك، فإذا كان ذلك المخلوق يوافق ذلك المخلوق في الاسم، وبينهما قدر مشترك وتشابه، علم به معنى ما خوطبنا به مع أن الحقيقة ليست مثل الحقيقة، فالخالق – جل جلاله- أبعد عن مماثلة مخلوقاته مما في الجنة لما في الدنيا. فإذا وصف نفسه بأنه حي عليم سميع بصير قدير لم يلزم أن يكون مماثلاً لخلقه، إذ كان بعدها عن مماثلة خلقه أعظم من بعد مماثلة كل مخلوق لكل مخلوق، وكل واحد من صغار الحيوان لها حياة وقوة وعمل وليست مماثلة للملائكة المخلوقين، فكيف يماثل رب العالمين شيئاً من المخلوقين . والله – سبحانه وتعالى- سمى نفسه وصفاته بأسماء، وسمّى بها بعض المخلوقات، فسمى نفسه حياً عليماً سميعاً بصيراً عزيزاً جباراً متكبراً ملكاً رؤوفاً رحيماً، وسمى بعض عباده عليماً، وبعضهم حليماً، وبعضهم رؤوفاً رحيماً، وبعضهم سميعاً بصيراً وبعضهم ملكاً، وبعضهم عزيزاً، وبعضهم

---

[1] أخرجه ابن جرير في تفسيره(1/228) ، وصححه الألباني في "صحيح الجامع " (2/953).

جباراً متكبراً، ومعلوم أنه ليس العليم كـالعليم، ولا الحليم كـــالحليم، ولا الســـميع كالســـميع، وهكـــذا في ســـائر الأسماء... لكن الإنسـان يعتـبر بمـا عرفـه مـا لم يعرفـه، ولولا ذلك لانسدت عليه طرق المعارف للأمور الغائبة"[1].

وقـال أيضـا: "وتمـام الكلام في هـذا البـاب (أي بـاب الصفات): أنك تعلم أنا لا نعلم ما غاب عنا إلا بمعرفـة مـا شهدناه، فنحن نعـرف أشـياء بحسـنا الظـاهر أو البـاطن، وتلك معرفة معينة مخصوصة. ثم إنا بعقولنا نعتبر الغـائب بالشـاهد، فيبقى في أذهاننـا قضـايا عامّـة كليـة، ثم إذا خوطبنا بوصف ما غاب عنا لم نفهم ما قيل لنا إلاَّ بمعرفة المشهود لنا. فلولا أنا نشـهد من أنفسـنا جوعـاً وعطشـاً، وشبعاً وريا، وحباً وبغضا، ولذة وألمـاً، ورضـاً وسـخطاً، لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا ذلك، وأخبرنا بـه عن غيرنا. وكذلك لولم نعلم في الشاهد حياة وقدر وعلماً وكلاماً لم نفهم ما نخاطب به إذا وصف الغائب عنا بذلك. وكذلك لو لم نشهد موجوداً لم نعرف وجـود الغـائب عنـا، فلا بد فيما شاهدناه وما غاب عنّـا من قـدر مشـترك هـو: مسـمى اللفـظ المتـواطئ فبهـذه الموافقـة والمشـاركة والمشابهة والمواطـأة نفهم الغـائب ونثبتـه، وهـذا خاصـة العقل. ولولا ذلك لم نعلم إلاَ مـا نحسـه، ولم نعلم أمـوراً عامـة، ولا أمـوراً غائبـة عن إحساسـنا البـاطن والظـاهر، ولهذا من لم يحس الشيء ولا نظيره: لم يعرف حقيقته . ثم إن الله- تعالى- أخبرنا بما وعدنا في الدار الآخـرة من: النعيم والعـــذاب، وأخبرنـــا بمـــا يؤكـــل ويشـــرب وينكح ويفرش... وغير ذلك، فلـولا معرفتنـا بمـا يشـبه ذلـك في الدنيا لم نفهم ما وعدنا بـه، ونحن نعلم مـع ذلـك أن تلـك الحقائق ليست مثل هـذه، حـتى قـال ابن عبـاس- رضـي اللـــه عنهمـــا-: "ليس في الـــدنيا ممـــا في الجنـــة إلاَّ الأسماء"[2] وهذا تفسير قوله تعالى: ﭽﭿﮀﮁﭼ[3] على أحد

---

[1] "مجموع الفتاوى"(9/295-297).

[2] سبق تخريجه ص (225)

[3] سورة البقرة، الآية (25).

الأقــوال[1] فــبين هــذه الموجــودات في الــدنيا وتلــك الموجودات في الآخـرة مشـابهة وموافقـة واشـتراك من بعض الوجوه ، وبه: فهمنـا المـراد، وأحببنـاه ورغبنـا فيـه، وأبغضناه ونفرنـا عنـه، وبينهمـا مباينـة ومفاضـلة، لا يقـدر قدرها في الدنيا. وهذا من التأويل الذي لا نعلمه نحن، بل يعلمه الله تعالى... والراسخون في العلم لا يقولـون على الله – تبارك وتعالى- الكذب، وإن كنا مـع ذلـك قـد علمنـا بطريـق خـبر اللـه – عـز وجـل- عن نفسـه بـل وبطريـق الاعتبار: أن لله المثل الأعلى، وأن الله موصوف بصــفات الكمال، موصوف بالحياة والعلم والقـدرة، وهـذه صـفات كمال، والخالق أحق بها من المخلـوق، فيمتنـع أن يتصـف المخلـوق بصـفات الكمـال دون الخـالق، ولـولا أن هـذه الأسماء والصفات تدل على معـنى مشـترك كلي يقتضـي من المواطـأة والموافقـة والمشـابهة مـا بـه نفهم ونثبت هذه المعاني لله لم نكن قد عرفنا عن الله شيئاً، ولا صار في قلوبنـا إيمـان بـه، ولا علم ولا معرفـة، ولا محبـة، ولا إرادة لعبادتـه ودعائـه وسـؤاله ومحبتـه وتعظيمـه ، فـإن جميع هذه الأمور لا تكون إلا مع العلم، ولا يمكن العلم إلاّ بإثبات تلك المعاني، التي فيها من الموافقة والمواطأة ما به حصل لنا مـا حصـل من العلم لمـا غـاب عن شـهودنا . ومن فهم هذه الحقائق الشريفة والقواعد الجليلة النافعة حصـــل لـــه من العلم والمعرفـــة والتحقيـــق والتوحيـــد والإيمان، وانجـاب عنـه من الشـبه والضـلال والحـيرة مـا يصير به في هذا الباب من أفضل الذين أنعم اللـه عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ومن سـادة أهـل العلم والإيمان " [2] .

---

[1] انظر "جـامع البيـان" (1/223-229)، و "زاد المسـير" (1/45).

[2] "شرح حديث النزول" ص (104-106 ، 111-112)، وانظر "درء التعـارض" (6/123-125)، (9/10) ، و "التدمريـة" ص(22)، و "الرد على المنطقيين" (1/80-81)، و "جامع الرسائل" (2/400).

ثانياً: من جهة نفي القدر المشترك.

قرر شيخ الإسلام أهمية القدر المشترك ومنزلته من جهة النفي من خلال بيان:

أن نفي القدر المشترك يلزم منه التعطيـل المحض، ومن نفاه لزمه تعطيل وجود كـل موجـود، ومن ذلـك التعطيـل والجحود لرب العالمين، ولهـذا لمـا اطلـع الأئمـة على أن هذا حقيقة قول الجهمية سموهم معطلة.

قـال شـيخ الإسـلام – رحمـه اللـه- : "والقـدر المشـترك مطلــق كلي لا يختص بأحــدهما دون الآخــر (أي الخــالق والمخلــوق) فلم يقــع بينهمــا اشــتراك لا فيمــا يختص بالممكن المحدث، ولا فيما يختص بالواجب القـديم، فـإن ما يختص به أحدهما يمتنع اشتراكهما فيه، فإذا كان القدر المشترك الذي اشتركا فيه صفة كمال، كـالوجود والحيـاة والعلم والقدرة، ولم يكن في ذلك ما يدل على شيء من خصائص المخلوقين، كما لا يدل على شيء من خصــائص الخالق لم يكن في إثبات هذا محذور أصلاً، بل إثبات هــذا من لوازم الوجـود، فكـل موجـودين لابـدّ بينهمـا من مثـل هذا، ومن نفى هذا لزمه تعطيل وجود كل موجود . ولهـذا لمـا اطلـع الأئمـة على أن هـذا قـول الجهميـة سـموهم معطلة، وكان جهم ينكر أن يسمى الله شيئا، وربما قالت الجهمية: هو شـيء كالأشـياء، فـإذا نفى القـدر المشـترك مطلقاً لزم التعطيل التام"[1] .

وقال أيضاً بعد أن ذكـر مـراتب الوجـود وتقسـيم الفقهـاء لأسماء الله – تعالى- في الأيمان:"وإذا كـان الأمـر كـذلك علم أن نفي التشبيه من كل وجه هـو التعطيـل والجحـود لـرب العـالمين، كمـا عليـه المسـلمون متفقـون، كمـا أن إثباته مطلقاً هو جعل الأنداد لرب العالمين"[2].

وقال أيضاً: "وعلم أيضاً بالعقل أن كلّ موجـودين قـائمين بأنفسهما فلا بدَّ بينهمـا من قـدر مشـترك، كاتفاقهمـا في

---

[1] "التدمرية" ص (126-127).

[2] "بيان تلبيس الجهمية" (6/484) ، وانظر (6/490-497).

مسـمَّى "الوجـود" و "القيـام بـالنفس" و "الـذات" ونحـو ذلك. وأن نفى ذلك يقتضي التعطيل المحض"[1] .
ووجه كون نفي القدر المشترك تعطيل لرب العالمين هو أن :
القــدر المشــترك هــو مســمى "الوجــود" و "الــذات" و "الشـيء" و "العلم " و "القـدرة" و "الحيـاة" وغـير ذلـك من الصفات، فإذا نفي ذلـك عن اللـه – تعـالى- لئلا يلـزم منه التشبيه على قول النفاة، لزم من ذلك تعطيـل الـرب تعالى ونفي وجوده، فإنه يلزم منه أنـه ليس بموجـود، ولا شيء، ولا له ذات، ولا هو حي، ولا عليم، ولا قدير، ويلـزم منه نفي جميع أسماء الله وصفاته.

الفرع الثاني : وجه كون إثبات القدر المشترك لا ينافي شيئاً من صفات الربوبية.

بعد معرفة المراد بالقدر المشترك وتصور معناه أصبح واضحاً بيِّنا أن إثباته لا ينافي شيئاً من صفات الربوبية وذلك لأمرين:
الأول: أن القدر المشترك وجوده إنمـا هـو في الأذهـان لا في الأعيان ، في العلم والذهن لافي الخارج .
فالخالق والمخلوق إذا اتفقا في مسـمى الوجـود والحيـاة والعلم والقدرة فهذا القدر المشـترك كلي في الأذهـان لا في الأعيـان، وإثبـات هـذا لا محـذور فيـه، فإنـه لا ينـافي صفات الربوبية، فإن وجود الـرب وحياتـه وعلمـه وقدرتـه وغــير ذلــك من صــفاته تختص بــه لا تماثــل صــفات المخلوقين، ووجود العبد وحياته وعلمه وقدرته يختص بــه لا يماثل صفات الخالق – تعالى- .

---

[1] "التدمريـة"ص (182)، وانظر "منهـاج السـنة" (2/117) (8/29-30) ، و"الصفدية" (1/101) ، و"بيان تلبيس الجهمية" (2/323-324 ، 387-388)، و"درء التعارض" (5/177-185 ، 327) ، و"جواب الاعتراضات المصرية" ص (137-138).

وشيخ الإسلام- رحمه الله – قرّر ذلك في مواضع كثيرة من كتبه، وأولى ذلك اهتماماً كبيراً؛ لأنه بسبب الاشتباه بين ما هو موجود في الأذهان وما هو موجود في الأعيان كان الضلال في كثير من المسائل[1]. ومن أجمع المواضع التي قرّر فيها ذلك قوله:" فإن قيل: إن الشيء إذا شابه غيره من وجه جاز عليه ما يجوز عليه من ذلك الوجه، ووجب له ما وجب له، وامتنع عليه ما امتنع عليه. قيل: هب أن الأمر كذلك، ولكن إذا كان القدر المشترك لا يستلزم إثبات ما يمتنع على الرب- سبحانه وتعالى-، ولا نفي ما يستحقه لم يكن ممتنعاً، كما إذا قيل : إنه موجود حي عليم سميع بصير، وقد سمى بعض المخلوقات حياً عليماً سميعاً بصيراً، فإذا قيل: يلزم أن يجوز عليه ما يجوز على ذلك من جهة كونه موجوداً حياً عليماً سميعاً بصيراً . قيل: لازم هذا القدر المشترك ليس ممتنعاً على الرب- تعالى- فإن ذلك لا يقتضي حدوثاً، ولا إمكاناً، ولا نقصاً، ولا شيئاً مما ينافي صفات الربوبية ، وذلك: أن القدر المشترك هو مسمى "الوجود" أو "الموجود"، أو "الحياة" أو "الحي"، أو "العلم" أو "العليم"، أو "السمع" و "البصر" أو "السميع" و "البصير"، أو "القدرة" أو "القدير"، والقدر المشترك مطلق كلي لا يختص بأحدهما دون الآخر، فلم يقع بينهما اشتراك لا فيما يختص بالممكن المحدث، ولا فيما يختص بالواجب القديم، فإن ما يختص به أحدهما يمتنع اشتراكهما فيه، فإذا كان القدر المشترك الذي اشتركا فيه صفة كمال: كالوجود والحياة والعلم والقدرة, ولم يكن في ذلك ما يدل على شيء من خصائص المخلوقين، كما لا يدل على شيء من خصائص

---

[1] انظر أمثلة لذلك "التدمرية" ص (128-131)، "منهاج السنة"(2/589-595)ـ (3/302-303)ـ (5/448-450)، و"بغية المرتاد" ص (434-436)ـ ، "الصفدية" (2/279-280)ـ ، و "الجواب الصحيح" (3/284-286)، و "مجموع الفتاوى" (5/205-207)، و "درء التعارض" (5/127-128)ـ (9/14)، و "شرح الأصبهانية" ص (511-512).

الخالق، لم يكن في إثبات هـذا محـذوراً أصـلاً، بـل إثبـات هذا من لوازم الوجود، فكل موجودين لابدَّ بينهما من مثل هـذا، ومن نفى هـذا لزمـه تعطيـل وجـود كـل موجـود ... والمعـاني الـتي يوصـف بهـا الـرب - سـبحانه وتعـالى- كالحياة والعلم والقـدرة، بـل الوجـود والثبـوت والحقيقـة ونحو ذلك، تجب له لوازمها، فإن ثبـوت الملـزوم يقتضـي ثبوت اللازم، وخصائص المخلوق الـتي يجب تنزيـه الـرب عنها ليست من لوازم ذلك أصـلاً، بـل تلـك من لـوازم مـا يختص بالمخلوق من وجود وحياة وعلم ونحو ذلـك، واللـه – سـبحانه وتعـالى- مـنزه عن خصـائص المخلـوق وملزومات خصائصه. وهذا الموضع من فهمه فهمـاً جيـداً وتدبره، زالت عنه عامة الشبهات، وانكشف له غلط كثير من الأذكياء في هذا المقام، وقد بسط هـذا في مواضـع كثيرة، وبُيِّن فيهـا أن القـدر المشـترك الكلي لا يوجـد في الخـارج إلاَّ معيَّنـا مقيَّدا، وأن معـنى اشـتراك الموجـودات في أمر من الأمور هو تشابهها من ذلك الوجـه، وأن ذلـك المعنى العام يطلق على هذا وهذا، لا أن الموجـودات في الخارج يشارك أحدها الآخر في شيء موجود فيه، بل كل موجود متميّز عن غيره بذاته وصفاته وأفعاله"[1].

الثاني: أن التشبيه المنفي عن الله – عز وجل- الذي هو من قوادح الربوبية ليس هو القدر المشترك، فـإن القـدر المشترك هو الشبه من بعض الوجوه وهذا الشبه هـو في المعنى العام، وهو في الأذهـان لا في الأعيـان، في العلم لا في الوجود، وأما التشبيه المنفي عن الله – تعالى- فهو "ما كان وصـفه بشـيء من خصـائص المخلـوقين، أو أن

---

[1] "التدمرية" ص (125-128) ، وانظر ص (20-21)، و "منهاج السـنة" (2/117-120)، (8/29-31)، و "الصـفدية" (2/9)، و "الجواب الصحيح" (3/443)، (4/428)، و"بيان تلبيس الجهمية" (3/493-494)، (5/437-440)، و "الـرد على المنطقـيين" (1/163)، و "شرح حـديث الـنزول" ص (80-81)، و "مجمـوع الفتاوى" (20/448)، و "درء التعارض" (1/216) (5/84-85).

يجعل شـيء من صـفاته مثـل صـفات المخلـوقين، بحيث يجوز عليه ما يجوز عليهم، أو يجب لـه مـا يجب لهم ، أو يمتنع عليه ما يمتنع عليهم مطلقاً"[1] .

قـال شـيخ الإسـلام – رحمـه اللـه - : "ونفي ذلـك القـدر المشـترك ليس هـو نفس التمثيـل والتشـبيه الـذي قـام الدليل العقلي والسمعي على نفيه، وإنمـا التشـبيه الـذي قـام الـدليل على نفيــه: مـا يسـتلزم ثبـوت شـيء من خصائص المخلوقين لله- سبحانه وتعالى- إذ هـو سـبحانه: ﭽﭡﭢﭣﭤﭽ[2] لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله "[3] .

وقــال أيضــاً:" اتفــاق المســميين في بعض الأســماء والصـفات ليس هـو التشـبيه والتمثيـل الـذي نفتـه الأدلـة السمعيات والعقليات، وإنما نفت مـا يسـتلزم اشـتراكهما فيما يختص بـه الخـالق، ممـا يختص بوجوبـه أو جـوازه أو امتناعـه، فلا يجـوز أن يشـركه فيـه مخلـوق، ولا يشـركه مخلوق في شيء من خصائصه – سبحانه وتعالى- " [4] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام – رحمـه اللـه- أن لفـظ "التشـبيه" فيه إجمال،وأنـه يقـال على مـا يجب انتفـاؤه، وعلى مـا يجب إثباته، ولهذا لم يـرد في الكتـاب والسـنة مطلقـاً، لا في نفي ولا إثبــات، وإنمــا جــاءت النصــوص في النفي بلفظ: المثل، والكفو، والند، والسمي[5].

وبيَّن شـيخ الإسـلام أيضـاً أن القـدر المشـترك ليس هـو الشــرك المــذكور في القــرآن فقــال:"وأمــا قولنــا "بين الوجودين قدر مشترك، وهـذا يقتضـي أن يكـون وجـوده مشاركاً لوجود غـيره" فهـذا لفظي اصـطلاحي، ليس هـو

---

[1] (?) "منهاج السنة" (8/29).
[2] (?) سورة الشورى، الآية (11).
[3] (?) "درء التعارض"(5/327)، وانظر "الصفدية" (1/100).
[4] (?) "التدمرية" ص (39-40).
[5] (?) انظر "بيان تلبيس الجهميـة" (6/485)، و "درء التعـارض"(5/183، 327)، و "جواب الاعتراضات المصرية" ص (152) ، و"منهاج السنة" (2/526-527).

الشرك المذكور في القرآن ، فإن القــرآن نفى أن يكــون في الموجودات من يكون شــريكاً للــه فيمــا يســتحقه من خلقــه وأمــره وعبادتــه وحــده لا شــريك لــه، ولم ينـفِ أن يخلق هو- سبحانه - مخلوقات ويجعـل لهـا صـفات، وأنهـا تسـمى بأسـماء توافـق أسـماءه، فيعقـل الـذهن أن بين المسمين قدراً مشتركاً، وذلك القـدر المشـترك ليس لـه مشـاركة في شـيء موجـود أصـلاً، في خلـق ولا أمـر ولا عبادة، وإنما هو في اعتبار ذهني، كما يشارك اسمه اسـم بعض عباده في بعض حروفه، فالاشتراك بينه وبين عبـاده في بعض حروف الأسماء التي تُعقل بالجنـان، وليس هـذا بشرك في حقيقة موجودة أصلاً"[1] .

الفرع الأول: تعريف الأسباب والمراد بها

الأسـباب جمـع سـبب والسـبب في اللغـة : الحبـل يشـدّ بالشــيء فيجذبــه، ثم قيــل لكــل مــا يتوصــل بــه إلى المقصود : سبب .

فيقال "للحبل" سبب: لأنه يتوصل بالتعلق به إلى الحاجـة التي لا يوصل إليها إلاَّ بالتعلق به.

ويقال "للطريق" سبب: للتوصل بركوبـه إلى مـا لا يـدرك إلاَّ بقطعه.

ويقال" للمصاهرة" سبب: لأنها سبب للحرمة.

---

[1] "جواب الاعتراضات المصرية" ص (149).

ويقال"للوسيلة" سبب: للوصول بها إلى الحاجة .
وكذا كل ما كان به إدراك الطلبة فهو سبب لإدراكها[1] .
وعُـرف السـبب في المعجم الفلسـفي بأنه " ما يـترتب عليه مسبب عقلاً أو واقعـاً، فالمقـدمات الصـادقة سـبب صـدق النتيجة ، وبعض الظـواهر الطبيعية سـبب ظـواهر أخرى. وهذا هو المعنى العلمي السائد اليوم " [2] .
والمـراد بالأسـباب هنـا- الـتي لاتنـافي صـفات الربوبية وخصائصها- : ما توفرت فيها الشـروط الـتي سـتذكر في الفرع الثاني.

الفرع الثاني: شروط العمل بالأسباب

جمهـور العقلاء من أهـل الإسـلام وسـائر الملـل يثبتـون الأسباب[3] . وهذا هو مذهب سلف الأمة وأئمتها.
قـال شـيخ الإسـلام – رحمه اللـه- : " وأما الصـحابة والتـابعون لهم بإحسـان وأئمة الإسـلام كالفقهـاء المشـهورين وغـيرهم ومن سـلك سـبيلهم من أهل الفقه والحـديث والمتكلمين في أصـول الـدين وأصـول الفقه فيقرون بالقدر ويقرون بالشرع، ويقرون بالحكمة لله في خلقه وأمـره، لكن قد يعـرف أحـدهم الحكمة وقد لا يعرفها، ويقرون بما جعله من الأسباب"[4] .

---

[1] انظر"لسان العرب" (7/100)، و "تهذيب اللغة" (12/314)، و"جـامع البيـان" (2/97) و "معـالم التنزيـل"(1/135) و "زاد المسـير" (1/148) و "الجـامع لأحكـام القـرآن" (2/138)ـ ، و "روح المعاني" (2/36) و "أنوار التنزيل"(1/99) .

[2] "المعجم الفلسفي" ص(96).

[3] انظر "جـامع المسـائل" (6/210-211)، والـردّ على المنطقيين (2/108) .

[4] "مجمـوع الفتـاوى" (17/200-201)ـ ، وانظر "الـرد على المنطقيين" (2/299)، و "درء التعارض" (6/49).

والأدلة الدالة على أن الله جعل للحـوادث أسـباباً كثـيرة منها:

-قوله تعالى: ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼ[1] فأخبر – تعالى- أنه أحيا الأرض بعد موتها بسبب الماء الذي أنزله من السماء.

-وقال تعالى: ﭽﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﯼﭼ[2] فبين – سـبحانه- أنـه يـنزل المـاء بسـبب السـحاب، ويخـرج الثمر بسبب الماء.

-وقال تعالى: ﭽﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﭼ[3] .

فـبين –تعـالى- أنــه بسـبب المــاء أنبت الجنــان والحب والنخل، وأحيا بسببه البلدة الميتة.

-وقال تعالى: ﭽﭑﭒﭓﭼ[4][5].

فبين-تعالى- أن قتال المؤمنين سبب في وصـول العـذاب إلى الكافرين.

وللعمل بالأسباب شروط بينها شيخ الإسـلام-رحمـه اللـه- وهي كالتالي:

1) أن لا يعتقد تأثير الأسباب على الاستقلال.

وذلــك لأن الأســباب الكونيــة خلقهــا اللــه تعــالى، وهي محتاجه إلى أسباب أُخر تعاونه، وإلى دفع موانع تعارضـه، وذلك لا يقدر عليه إلاَّ الله وحـده فمـا شـاء كـان، ومـا لم يشـأ لم يكن فالمسـبب لا يكـون حـتى يخلـق اللـه جميـع أسبابه، ويدفع عنه أضداده المعارضه له.

قال شيخ الإسلام- رحمه الله-: "وهذا هو القول الوسـط: إثبات كون الرب خالقاً لكل شيء مع كـون أفعـال العبـاد

(?)[1] سورة البقرة، آية (164).

(?)[2] سورة الأعراف ، آية (57).

(?)[3] سورة ق، الآية (9-11).

(?)[4] سورة التوبة، الآية (14).

(?)[5] انظر الأدلـة: " شـرح الأصـبهانية " ص (176)، و "مجمـوع الفتاوى" (8/486)، و"التدمرية" ص(210)، و"جامع المسائل"(6/211) ، و"منهاج السنة" (5/362-365).

مخلوقة له، ومع كونها أفعالاً للعباد أيضاً، وأن قدرة العباد لهـا تـأثير فيهـا كتـأثير الأسـباب في مسـبباتها ، وأن اللـه خالق كل شيء بما خلقـه من الأسـباب،وليس شـيء من الأسـباب مسـتقلاً بالفعـل، ولا تسـتقل إلاَّ مشـيئة اللـه – تعالى-، فإنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فمـا شـاء الله كان وإن لم يشأ العباد، وما لم يشأ لم يكن ولو شـاء العباد"[1] .

وقال: " وأهل السنة لا ينكرون وجـود مـا خلقـه اللـه من الأسـباب ولا يجعلونهـا مسـتقلة بالآثـار، بـل يعلمـون أنـه مامن سبب مخلوق إلاَّ وحكمه متوقـف على سـبب آخـر، ولــه موانــع تمنــع حكمــه، كمــا أن الشــمس ســبب في الشعاع، وذلك موقوف على حصـول الجسـم القابـل لـه، وله مانع كالسحاب والسقف، والله خـالق الأسـباب كلهـا ودافع الموانع" [2] .

والأســـباب يعمل بها ولا يجـــوز تركها ولها تـــأثير في المســببات، ولكن لا يعتقد أنها مســتقلة بالتــأثير فتخلق وتبدع بنفسها، فإن اعتقاد ذلك هو الشرك والضلال.

قــال-رحمه اللــه- عند حديثه عن تــأثير قــدرة العبد في الفعـل: "فقد بـان لك أن إطلاق القـول بإثبـات التـأثير أو نفيه دون الاستفصال وبيان معنى التـأثير ركـوب جهـالات واعتقاد ضلالات، ولقد صدق القائـل: أكـثر اختلاف العقلاء من جهة اشـــتراك الأســـماء، وبـــان لك ارتبـــاط الفعل المخلوق بالقـدرة المخلوقة ارتبـاط الأسـباب بمسـبباتها، ويـدخل في عمـوم ذلك جميع ما خلقه الله – تعـالى- في السـموات والأرض والـدنيا والآخـرة، فـإن اعتقـاد تـأثير الأسباب على الاستقلال دخول في الضلال، واعتقــاد نفي

---

[1] "درء التعارض"(10/115).

[2] "درء التعـــــــــارض"(9/29-30)،وانظر (9-338-339،348،374)،و"مجمـوع الفتـاوى"(1/137)، (8/487)، (18/323)، و"بيــان تلــبيس الجهميــة"(4/538)، و "جــامع الرسائل"(1/146، 152) و"قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" ص (138)، "المستدرك على مجموع الفتاوى"(1/140-141).

أثرها والغاؤه ركوب المحال، وإن كان لقدرة الإنسان شأن ليس كغيرها كما سنوميء إليه إن شاء الله تعالى.
فلعلك أن تقول بعد هذا البيان: أنا لا أفهم الأسباب، ولا أخرج في دائرة التقسيم والمطالبة بأحد القسمين: (إما القول بأن قدرة العبد مستقلة بتأثيرها في وجود الفعل فيلزم الوقوع في الشرك وإلاَّ لزم نفي تأثير قدرة العبدفي وجود الفعل على حد قول المخالف) وما أنت إن قلت هذا إلا مسبوق بخلق من الضلال، قال تعالى: ﭽ ﭼ[1] وموقفك هذا مفرق طرق، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فيعاد عليك البيان:
بأن لها تأثيراً من حيث هي سبب، كتأثير القلم، وليس لها تأثير من حيث الابتداع والاختراع، ونضرب الأمثال لعلك تفهم صورة الحال، ويبين لك: إن إثبات الأسباب مبتدعات هو الإشراك، وإثباتها أسباباً موصلات هو عين تحقيق التوحيد..." [2] .

2) أن لا يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم. " فمن أثبت شيئاً سبب بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلاً، مثل أن يظن أن النذر سبب في الدفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ - أنه نهى عن النذر وقال : إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل[3]" [4].

والعلم بكون الأسباب أسباباً يعلم بطريقين:
الأول: بطريق الشرع.
والثاني: بطريق التجربة.

---

[1] سورة البقرة، الآية (118).
[2] "مجموع الفتاوى"، الآية (8/392).
[3] أخرجه البخاري في "صحيحه" ح(6608)، (6692)، (6693)، ومسلم في "صحيحه" ح (4237)، (4238)، (4239)، (4241)، (4242).
[4] "مجموع الفتاوى"، (1/137) وانظر "المستدرك على مجموع الفتاوى"(1/140).

فالذي يعلم بطريـق الشـرع: الأسـباب الشـرعية، كـالعلم بأن قراءة الفاتحة سبب للشفاء.
والذي يعلم بطريق التجربة: الأسباب القدرية، كالعلم بأن أكل المسهل سبب لانطلاق البطن ، فهذا جُرِّب فوجد أنه نافع في ذلك.
ولا بدَّ في هذا أن يكون أثره ظاهراً مباشـراً، وأمـا مجـرد الشعور النفسي فليس طريقاً لإثبات الأسباب.
وبناءً على ذلك:
لـو لبس الإنسـان حلقـة أو خيطـاً على أنـه سـبب لرفـع البلاء أو دفعه فقد أشرك شركاً أصغر؛ لأن اللـه –تعـالى- لم يجعلـه سـبباَ شـرعياً ولا قـدرياً كونيـاً ، فيكـون شـارك الله- تعالى- في الحكم لهذا الشـيء بأنـه سـبب، واللـه – تعالى – لم يجعله سبباً[1] .
3) أن لا يعتمـد على الأسـباب، بـل يعتمـد على مسـببها وهو الله تعالى.
ولهـذا قـال طائفـة من العلمـاء: الالتفـات إلى الأسـباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكـون أسـباباً نقص في العقـل، والأعـراض عن الأسـباب بالكليـة قـدح في الشرع". [2]
قال شيخ الإسلام : "وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السـبب هو اعتماد القلب عليه، ورجاؤه والاستناد إليـه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا، لأنـه ليس مسـتقلاً ولا بـدّ لـه من شركاء وأضداد، ومع هذا كله فإن لم يسخره مسـبب الأسباب لم يسخر، وهذا مما يبين أن الله رب كـل شـيء ومليكـه، وأن السـموات والأرض ومـا بينهمـا والأفلاك وماحوته ، لها خالق مدبر غيرها، وذلـك أن كـل مـا يصـدر عن فلك أو كوكب أو ملك أو غـير ذلـك فإنـك تجـده ليس

---

[1] انظر "القول المفيد" (1-159-163)، و "القول السديد" ص (42-44).

[2] انظـر" مجمـوع الفتـاوى" (1/131)(8/70، 169، 528)(10/257)،و"منهـاج السـنة"(5/366) و"التحفة العراقيـة" ص (345-346)

مستقلاً بإحداث شيء من الحوادث، بل لابـدَّ من مشـارك ومعاون، وهو مع ذلك له معارضات وممانعات... "[1] .
" فعلى العبـد أن يكـون قلبـه معتمـداً على اللـه، لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسـباب مقـدورة لـه وهـو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفـرائض, وكما يجاهد العدو، ويحمل السـلاح، ويلبس جنـة الحـرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمره به من الجهـاد، ومن تـرك الأسـباب المـأمور بهـا فهو عاجز مفرط مذموم" [2] .
إذاً:
الاعتماد على الأسباب والتوكل عليها شرك، وترك ما أُمر به من الأسـباب محـرم. بـل يفعـل العبـد مـا أُمـر بـه من الأسباب، ويتوكل على الله وحده لا على السبب.

وابن القيم له كلام جميل حـول المـراد بقـول أهـل العلم "الالتفــات إلى الأســباب شــرك في التوحيــد" هــو في الحقيقــة تلخيص وتوضـيح لكلام شـيخ الإسـلام قـال: " فالالتفات إلى الأسـباب ضـربان: أحـدهما شـرك، والآخـر عبودية وتوحيد.
فالشــرك: أن يعتمــد عليهــا ويطمئن إليهــا ويعتقــد أنهــا محصلة للمقصود بذاتها، فهـو معـرض عن المسـبِّب لهـا، ويجعل نظره والتفاته مقصوراً عليها.
وأما إن التفت إليها التفات امتثـال وقيـام بهـا وأداء لحـق العبوديـة فيهـا وإنزالهـا منازلهـا فهـذا الالتفـات عبـــودية وتوحيـد، إذا لم يشـغله عـــن الالتفـات إلى المسبـــب... وحقيقة التوكل : القيام بالأسباب، والاعتماد بـالقلب على المسبِّب، واعتقاد أنها بيـده، فـإن شـاء منعهـا اقتضـاءها، وإن شاء جعلها مقتضـية لضـد أحكامهـا، وإن شـاء جعلهـا

---

[1] "مجموع الفتاوى" (8/169-170)، وانظر (10/257-258) و "منهاج السنة" (5-366-368).
[2] "مجموع الفتاوى" (8/528-529)، وانظر(18/179-183).

مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصــوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه، فالموحد المتوكل: لا يلتـف إلى الأســباب بمعــنى أنــه: لا يطمئن إليهــا، ولا يرجوهــا، ولا يخافها، ولا يركن إليها، ويلتف إليها بمعنى أنه: لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها، بل يكون قائماً بها، ملتفتاً إليها، نــاظراً إلى مسببها سبحانه ومجريها "[1].

الفرع الثالث: إثبات المخلوقات أسباباً لا ينافي خصائص الربوبية.

بعد أن عرفنا شروط العمل بالأسباب أصبح من الواضح جداً معرفة أن إثبات المخلوقات أسباباً لا ينافي خصائص الربوبية، لأن إثبات المخلوقات أسباباً إنما ينافي خصائص الربوبية في الأحوال التالية:

-أن يعتقد تأثير الأسباب على الاستقلال.

-أن يشارك الله في الحكم على الشيء بأنه سبب ولم يجعله الله سبباً.

-أن يعتمد على الأسباب لا على مسببها.

فإذا انتفت هذه الأحوال الثلاث لم يكن إثبات المخلوقات أسباباً منافياً لخصائص الربوبية.

قــال شــيخ الإســلام-رحمــه اللــه- : "فكمــا أن إثبــات المخلوقات أسباباً لا يقدح في توحيد الربوبية، ولا يمنع أن يكون الله خالق كل شيء، ولا يوجب أن يُدعى المخلــوق دعاء عبادة أو دعـاء اسـتغاثة كـذلك إثبـات بعض الأفعـال المحرمـة من شـرك أو غـيره أسـباباً لا يقـدح في توحيـد الألوهية، ولا يمنع أن يكون الله هـو الـذي يسـتحق الـدين

---

[1](?) "مدارج السالكين" (3/493).

الخالص، ولا يوجب أن نستعمل الكلمات والأفعال التي فيها شرك، وإذا كان الله يسخط ذلك، ويعاقب العبد عليه، وتكون مضرة ذلك على العبد أكثر من منفعته، وإذ قد جعل الخير كله في أنا لا نعبد إلاّ إياه، ولا نستعين إلا إياه... "[1] .

وقال-رحمه الله- :"وأما إثبات الأسباب التي لا تستقل بالأثر، بل نفتقر إلى مشارك معاون وانتفاء معارض مانع، وجعلها مخلوقة لله فهذا هو الواقع الذي أخبر به القرآن، ودلَّ عليه العيان والبرهان، وهو من دلائل التوحيد وآياته، وليس من الشرك بسبيل، فإن ذلك مما يبين أنه ليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول من المفعولات"[2] .

وقال أيضاً: "إن إثبات الأسباب مبتدعات هو الإشراك ، وإثباتها أسباباً موصلات هو عين تحقيق التوحيد"[3].

المبحث الأول : حاجة الخلق لدلائل الربوبية

قرّر شيخ الإسلام – رحمه الله – هذا الأصل وهو "حاجة الخلق لدلائل الربوبية" من خلال تقرير حاجة الخلق كلهم إلى الإقرار بالخالق فإن الخلق لما كانوا بحاجة إلى الإقرار بالربوبية الله تعالى عظمت حاجتهم لدلائل ذلك.

وقد بيّن شيخ الإسلام الدليل على حاجة الخلق لدلائل الربوبية وهو: كثرة أدلته وظهورها ويسرها، والمطلوب كلما كان الناس إلى معرفته أحوج يسّر الله للناس دلائله، وكثَّرها، وجعلها ظاهرة بيِّنة.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله- :" ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية، فيها الظاهر البيّن لكل أحد، كالحوادث المشهودة، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر وغير ذلك، وفيها ما يختص به من عَرَفه ، مثل دقائق التشريح، ومقادير الكواكب وحركتها وغير ذلك ، فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق، والإقرار برسله، وما اشتدت الحاجة إليه

[1] "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/710).
[2] "درء التعارض" (9/348).
[3] "مجموع الفتاوى" (8/392).

في الدين والدنيا فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسرا. فلما كانت حاجتهم إلى النَّفس أكـثر من حـاجتهم إلى الماء، وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل ، وكان –سبحانه- قد جاد بالهواء جوداً عاماً في كل مكان وزمان؛ لضرورة الحيوان إليه، ثم الماء دونـه، ولكنه يوجد أكــثر مما يوجد القــوت وأيســر؛ لأنّ الحاجة إليه أشــد. فكــــذلك دلائل الربوبية حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات، ثم دلائل النبوة، فلهـذا يسـرها الله وسـهلها..."[1].

وقال- رحمه الله- : " فإن الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة الشــيء يسر الله أســبابه، كما يتيسر ما كــانت حـاجتهم إليه في أبـدانهم أشـد، فلما كـانت حـاجتهم إلى النَّفس والهـواء أعظم منها إلى المـاء، كـان مبـذولاً لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكـثر من حاجتهم إلى القـوت، كـان وجـود المـاء أكـثر. وكـذلك لما كــانت حــاجتهم إلى معرفة الخــالق أعظم كــانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشـــــيئته وحكمته أعظم من غيرها.

ولما كــانت حــاجتهم إلى معرفة صــدق الرسل بعد ذلك أعظم من حاجتهم إلى غـير ذلك أقـام اللـه-سـبحانه- من دلائل صدقهم، وشواهد نبوتهم، وحسن حـال من اتبعهم ، وســعادته ونجاتــه، وبيــان ما يحصل له من العلم النــافع والعمل الصالح، وقبح حال من خـالفهم، وشـقاوته وجهله وظلمه ما يظهر لمن تدبر ذلك: ... ﭽ   ﮬﮭﮮ   ﭼ."[2][3]

---

[1] "الجواب الصحيح" (5/435-436).

[2] سورة النور، الآية (40).

[3] "الجـواب الصـحيح" (5/140-141)، وانظر (6/359) ، و "درء التعارض" (3/330-331) (9/66) (10/129) ، و "شرح الأصبهانية" ص (133) ، و "النبوات" (2/684) ، و "الرد على المنطقيين" (2/12).

المبحث الثاني: دلائل الربوبية أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول.

لما كـان الـرب – تعـالى- وجـوده أعظم وجـود ، وربوبيته أظهر مـدلول عليه كـانت دلائل ربوبيته أعظم وأكـثر من كل دليل على كل مدلول.

قال شيخ الإسلام-رحمه الله- : "فـإن تعـداد أعيـان دلائل النبوة مما لا يمكن بشراً الإحاطة بـه، إذ كـان الإيمـان به واجباً على كل أحد. فيبين الله لكل قـوم بل لكل شـخص من الآيـات والـبراهين ما لا يـبين لقـوم آخـرين، كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكــثر من كل دليل على كل مدلول"[1] .

فالآيات من دلائل الربوبية وهي أعظم وأكثر من كل دليل على كل مـدلول، فخلق الإنسـان يـدل على ربوبية اللــه، والسموات والأرض، والكـواكب والنجـوم، والليل والنهـار، والرياح والسحاب والمطر، والنبـات، والـدواب وغـير ذلك كلها تدل على الله تعالى ووحدانية .

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد[2]

---

[1] "الجــواب الصــحيح " (6/377-378)ـ ، وانظر ، "مجمــوع الفتاوى" (16/451،444)، و "النبوات" (1/523)، (2/625)، و "درء التعارض" (3/71).

[2] انظر"ديوان أبي العتاهية" ص(120).

وكـذلك الفطـرة من دلائل الربوبية ، وهي من أقـرب ما يكـون للإنسـان إذ إنها تنبع من ذاتـه، وحاجة من حـوائج تكوينه وخلقته.

المبحث الثالث: دلالة الشرع على الربوبية نوعان : سمعية ، وعقلية.

"الأدلة الشرعية نوعان: عقلي وسمعي. فالعقلي : ما دلَّ الشـرع عليه من المعقـولات، والسـمعي: ما دلَّ بمجـرد الإخبار"[1] .

والعقلي هو شرعي، شرعي لأن الشـرع دلَّ عليها وأرشد إليها، وعقلي لأن صحتها تُعلم بالعقل.

قال شيخ الإسلام-رحمه الله-: ودلالة القرآن على الأمـور نوعان:

أحدهما: خبر الله الصادق، فما أخـبر الله ورسـوله به فهو حق كما أخبر الله به .

والثاني: دلالة القرآن بضرب الأمثال، وبيـان الأدلة العقلية الدالة على المطلـوب، فهـذه دلالة شـرعية عقليـة. فهي شرعية؛ لأن الشرع دلَّ عليها وأرشد إليهـا. وعقليـة؛ لأنها تعلم صـحتها بالعقـل. ولا يقـال: إنها لم تعلم إلاَّ بمجـرد الخبر. وإذا أخبر الله بالشيء ودلَّ عليه بالـدلالات العقلية صار مدلولاً عليه بخبر، ومدلولاً عليه بدليله العقلي الـذي يعلم به، فيصير ثابتـاً بالسـمع والعقـل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى . الدلالة الشرعية"[2] .

---

[1](?) "درء التعارض" (8/37).

[2](?) "مجموع الفتاوى" (6/71-72) ، وانظر "شرح الأصبهانية" ص (468)، و"التدمرية" ص(146-147)و "درء التعارض" (1/198-199) (8/37) (9/39).

ومثال الدليل السمعي على الربوبية : قوله تعالى : ﭽﮘﮙ ﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﭼ[3] فهذه الآية دلت على الربوبية بمجرد الإخبار.
وأما الدليل السمعي العقلي على الربوبية فقـد أفـردت له مبحثاً مستقلا.

المبحث الرابع : السمع فيه من بيان الأدلة العقلية على الربوبية أضعاف ما يوجد في كلام النظار .

اشتمال النصـوص على الأدلة العقلية على الربوبية قـرره شيخ الإسلام على وجهين:
الأول: على وجه العموم.
حيث بيّن أن النصـوص اشـتملت على الأدلة العقلية على المطالب الدينية عموماً وأن الرسل بينت ذلـك، ولم يكن تعليمهم مقصوراً على مجرد الخبر.
قـال-رحمه اللـه- : "فـإن الرسل دلّت النـاس وأرشـدتهم إلى ما به يعرفـــون العـــدل، ويعرفـــون الأقيسة العقلية الصحيحة التي يستدلّ بها على المطالب الدينيـة، فليست العلوم النبوية مقصورة على مجـرّد الخـبر، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام، ويجعلـــون مـــالا يعلم بالعقل قسيماً للعلـوم النبويـة، بل الرسل - صـلوات الله عليهم- بيَّنت العلوم العقلية التي بها يتمّ دين الناس علمــاً وعملاً، وضـــــربت الأمثـــال، فكملت الفطـــــرة بما نبهتها عليه وأرشدتها مما كانت الفطرة معرضة عنه، أو كانت الفطر قد فســدت بما حصل لها من الآراء والأهــواء الفاســدة فأزالت ذلك الفساد وبيّنت ما كانت الفطرة معرضة عنه، حـتى صـار عند الفطـرة معرفة المـيزان الـتي أنزلها الله وبيّنها رسله. والقرآن والحديث مملوء من هذا، يــبيِّن الله الحقـائق بالمقـاييس العقلية والأمثـال المضـروبة، ويـبيِّن

---

[3] سورة الأعراف ، الآية (54).

طريق التسـوية بين المتمـاثلين والفـرق بين المختلفين وينكر على من يخرج عن ذلك"[1] .

وقـال: "ثم الأنبيـاء –صـلوات الله عليهم- كمَّلـوا للنـاس الأمــرين، فــدلوهم على الأدلة العقلية الــتي بها تعلم المطــالب الإلهية الــتي يمكنهم علمهم بها بــالنظر والاسـتدلال، وأخـبروهم مع ذلك من تفاصـيل الغيب بما يعجزون عن معرفته بمجـرد نظـرهم واسـتدلالهم. وليس تعليم الأنبياء – صـلوات الله عليهم- مقصـوراً على مجـرّد الخــبر كما يظنه كثــير من النظــار، بل هم بيَّنــوا مــن الـبراهين العقلية الـتي بها تعلم العلـوم الإلهية ما لا يوجد عند هـؤلاء البتـة، فتعليمهم – صـلوات الله عليهم- جـامع للأدلة العقلية والسمعية جميعاً بخلاف الذين خالفوهم، فإن تعليمهم غير مفيد للأدلة العقلية والسمعية مع ما في نفوسهم من الكبر الذي ما هم ببالغيه..." [2] .

وبيَّن –رحمه الله- عدة أمور متعلقة بهذا الأصل هي كالتالي:

1. أن هــذا ما عليه السـلف، وهو أن اللــه-ســبحانه وتعــالى- بيّن الأدلة العقلية قــال – رحمه الله - : "أصـول الـدين إمَّا أن تكـون مسـائل يجب اعتقادها قــولاً أو قــولاً وعملاً كمســائل التوحيد والصــفات، القدر، والنبـوة، والمعـاد، أو دلائل هـذه المسـائل ... وأما القسم الثاني وهو دلائل هذه المسائل الأصولية فإنه وإن كــــــان يظن طوائف من المتكلمين والمتفلســفة أن الشــرع إنما يــدل بطريق الخــبر الصادق، فدلالته موقوفة على العلم بصـدق المخـبر،

---

[1] "الرد على المنطقيين" (2/121).

[2] "الــرد على المنطقــيين" (2/72-73) ، وانظر "شــرح الأصـبهانية" ص (180) ، و "مجمـوع الفتـاوى" (6/71-72) (14/437) (16/251-252) و "منهــاج الســنة" (2/110)، و "التسعينية" (3/985) ، و "التدمرية" ص (146-147) و "درء التعـارض" (1/199) (7/394) ، و "بيـان تلـبيس الجهمية " (8/483-484، 528)

ويجعلــون ما يبــنى عليه صــدق المخــبر معقــولات محضــة فقد غلطــوا في ذلك غلطــاً عظيمــاً ، بل ضــــلوا ضــــلالاً مبينا في ظنهم : أن دلالة الكتـــاب والسـنة إنما هي بطريق الخـبر المجـرد، بل الأمر ما عليه سـلف الأمة وأئمتهـا- أهل العلم والإيمـان- من أن الله –سبحانه وتعالى- بيَّن من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هــؤلاء قدره"[1] .

2. اعتراف النظـار من أهل الكلام والفلسـفة باشـتمال القرآن على الـدلائل العقلية . قـال شـيخ الإسـلام –رحمه اللـه- : "وجميع طوائف النظـار متفقـون على أن القرآن اشـتمل على الأدلة العقلية في المطـالب الدينية، وهم يذكرون ذلك في كتبهم الأصــولية، وفي كتب التفســـير"[2] . وقـــال –رحمه اللـــه- : "وأئمة المتكلمين يعترفون بـأن القـرآن بيَّن الأدلة العقليـة، كما يــذكر ذلك الأشـعري[3] وغــيره، وعبد الجبـار بن أحمد[4] وغيره من المعتزلة"[5] . وممن اعترف بـذلك من الفلاسفة أبو الوليد بن رشد الحفيد[6] .

3. فضيلة ومميزات الأدلة العقلية الـتي اشـتملت عليها النصـوص. قـال –رحمه اللـه- : "فـإن الله – تعـالى- بيَّن في كتابه الحق وأدلته بما ضربه فيه من الأمثـال وسـنة من الـبراهين العقليـة، إذ كـانت دلالة القـرآن

---

[1] "مجموع الفتاوى" (3/295-296) ، وانظر "درء التعارض" (1/27-28).

[2] "مجموع الفتاوى" (13/137) .

[3] انظر "اللمــع" ص (18-24) و "رســالة إلى أهل الثغــر" ص(140-161).

[4] انظر"المختصر في أصول الدين" ص (1/171-199) .

[5] "مجموع الفتاوى" (16/470) وانظر "درء التعارض" (8/37) (9/49-50، 66).

[6] انظر "درء التعارض" (9/66) ، و"الكشف عن مناهج الأدلة" ص (102،117،118- 124)

ليست مجــرد الإخبــار حــتى يكــون الاســتدلال به موقوفـاً على العلم بصـدق المخـبر، بل القـرآن وإن أخـبر بالحقـائق الثابتة في أمر الإيمـان بالله واليـوم الآخر في المبدأ والمعاد فهو يـذكر الأدلة الدالة على ذلــك، ويرشد إليها ويهــدي إليهــا. فــإذا تأمَّل العاقل الخبــير نهاية ما يــذكره أهل النظر من جميع طوائف الكلام والفلســفة وغــيرهم وجد الــذي في القــرآن أكمل منه مع ســـــلامته عن الخطأ ، والتنــــــاقض ، والتلبيس، والتعقيد ، والتطويل، الذي يكــثر في كلام أولئك"[1]

وقـــــال:"... ما عند الأئمة النظـــــار – أهل الكلام والفلســـفة – من الـــدلائل العقلية على المطـــالب الإلهية فقد جــاء القــرآن بما فيها من الحــق، وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجـــــه، مع تنزهه عن الأغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء، فــإن خطــأهم فيها كثــير جــداً ، ولعــلَّ ضــلالهم أكــثر من هــداهم، وجهلهم أكثر من علمهم "[2] .

الثاني: على وجه الخصوص :

حيث بيَّن أن النصوص اشـتملت على الأدلة العقلية الدالة على الربوبيـــــة، وأن فيها من بيـــــان الأدلة العقلية على الربوبية أضعاف ما يوجد في كلام النظار.

قــال-رحمه اللــه- : "ومعلــوم أن الســمعيات مملــوءة من إثبـــات الصـــانع وقدرته وتصـــديق رســوله، ليس فيها ما ينــاقض هــذه الأصــول العقلية الــتي بها يعلم الســمع، بل الذي في السمع يوافق هذه الأصـول، بل الســمع فيه من

---

[1] "شرح الأصبهانية" ص (180).

[2] "الردّ على المنطقيين" (2/70) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (2/46-47) (14/437) ، و "شرح الأصبهانية" ص (51 ، 432) ، و "منهاج السنة" (2/110) ، و "التسعينية" (3/985) ، و "درء التعارض" (8/91).

بيــان الأدلة العقلية على إثبــات الصــانع ، ودلائل ربوبيته وقدرته، وبيـان آيـات الرسـول ودلائل صـدقه أضـعاف ما يوجد في كلام النظار، فليس فيه- ولله الحمد- ما ينـاقض الأدلة العقلية التي بها يعلم صدق الرسول"[1] .

وقال: "وإذا قال القائل: الرسول- صـلى الله عليه وسـلم - إنما عـرف صـدقه بأدلة عقليـة، وأنه لابـدَّ له من الأدلة العقلية فهــذا صــحيح، لكن تلك الأدلة العقلية الــتي بها يعرف صدق الرسول هي مما بينه الرسول – ﷺ - وأرشد إليها القرآن على أحسن الوجوه وأكملهــا، فالأدلة العقلية الــتي تسـتحق أن تسـمَّى أدلة عقلية على المطالب العالية الإلهية، وهي الإيمان بـالرب- تعالى- والإيمـان بكتبه ، ورسـله، والإيمـان بـاليوم الآخـر، والعمل الصالح الذي به يسعد الناس، وينجون من العذاب في الدنيا والآخرة قد دلّ عليه القرآن أحسن دلالــة، وبينه أحسن بيــان، بل ضــرب الله في القــرآن من كل مثل ، وجميع ما يــذكره النـــاس في هـــذا البـــاب متكلمهم، ومتفلســفهم ما كــان فيه حقــاً فقد جــاء القــرآن به ، وبأحسن منه على أكمل الوجوه ..." [2] .

والإيمان بالرب تعالى يشمل الإيمان: بربوبيته ، وألوهيته، وأسـمائه وصـفاته. وقد عقـدت مبحثـاً مسـتقلاً متعلقـاً بالأدلة العقلية النقلية الدالة على الربوبية فيه ذكر بعض النصـــوص الدالة دلالة عقلية على الربوبية ، وهي بمثابة الأمثلة لهذا الأصل.

المبحث الخامس : يخاطب بالبرهان من كان عنده مقدمات علمية.

الرسول –ﷺ- بيَّن الحق ، وبلَّغ البلاغ المبين، وترك أمته على المحجة البيضـاء ليلها كنهارهـا، لا

---

[1] "درء التعارض" (1/92-93).

[2] "بيان تلبيس الجهمية" (8/528) ، وانظر (8/483-484) ، و "شـرح الأصـبهانية" ص (304) و"النبـوات" (2/613-614) ، و "مجموع الفتاوى" (12/81-82) .

يزيغ عنها إلاَّ هالك، وهو عليه الصلاة والسـلام أقـام على الحق الأدلة العقلية البرهانية، ودلَّ علي مجـامع الـبراهين التي يرجع إليها غاية نظر النظار، ودلَّ من الــبراهين على ما هو فـــوق اســـتنباط النظـــار،[1] وأمر –عليه الصـــلاة والسـلام- بطريقة البرهـان حيث يـؤمر بها فإنه ليس كل شـبهة تعـرض تـزال بالبرهـان والاسـتدلال، فالشـبهات القادحة في العلـوم الحسـية والبديهيـة" لا يمكن الجـواب عنها بالبرهان؛ لأن غاية البرهان أن ينتهي إليها، فــإذا وقع الشك فيها انقطع طريق النظر والبحث، ولهــذا كــان من أنكر العلـوم الحسـية والضـرورية لم يُنـاظر ، بل إذا كـان جاحداً معانداً عُوقب حتى يعترف بالحق، وإن كان غالطاً إما لفســادٍ عــرض لحسه أو عقله لعجــزه عن فهم تلك العلـوم ، وإمّا لنحو ذلـك، فإنه يعـالج بما يـوجب حصـول شـــروط العلم له وانتفـــاء موانعـــه، فـــإن عجز عن ذلك لفســاد في طبيعته عــولج بالأدوية الطبيعيــة، أو بالــدعاء والـرقى والتوجه ونحو ذلك وإلا تـرك. ولهـذا اتفق العقلاء على أن كلَّ شبهة تعرض لا يمكن إزالتها بالبرهان والنظر والاسـتدلال، وإنما يخـاطب بالبرهـان والنظر والاسـتدلال من كـانت عنـده مقـدمات علمية ، وكـان ممن يمكنه أن ينظر فيها نظراً يفيــده العلم بغيرها ، فمن لم يكن عنــده مقـــدمات علمية أو لم يكن قـــادراً على النظر لم تمكن مخاطبته بالنظر والاستدلال"[2] .

إذا تقرر ذلك:

فـــإن من وقع في نفسه وســـواس التســـلل في الفاعل فقال:"هـذا الخلق خلقه اللـه، فمن خلق اللـه" ، من وقع هذا الوسواس في نفسه فإنه لا يزال بالبرهـان، بل مـتى فكر العبد ونظر ازداد ورودها على قلبــــــــه، وقد يغلبه الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه، والنبي-

---

[1] انظر "درء التعارض" (3/308).

[2] "المصدر السابق" (3/310).

□□□□ □□□□ □□□□- أخبر بوقوع هذا الوسواس في النفوس، وأخبر بالعلاج من ذلك.

قال - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- : "يأتي الشيطان أحدكم فيقـول: من خلق كـذا؟ من خلق كـذا؟ حـتى يقـول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته"[1] .
وفي رواية عن أنس قال : قال رسول الله - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- :"لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء ، فمن خلق الله"[2] .
وفي رواية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- : "لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هـذا ، خَلَـقَ الله الخلـق، فمن خلق اللــه؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله"[3] وفي رواية "ورسله"[4] .
وفي رواية عن أنس عن رسول الله - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- : "قال الله – عز وجل - : إن أمتك لا يزالون يقولــون: ما كـذا؟ ما كـذا؟ حـتى يقولـوا: هـذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله تعالى؟"[5] .
وفي رواية عن أبي هريـرة قـال : قـال لي رسـول الله - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- : "لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة حتى يقولوا: هذا الله، فمن خلق الله؟ قال: فبينما أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب فقـالوا: يا أبا هريـرة هـــذا الله ، فمن خلق اللـــه؟ قـــال : فأخذ حصى بكفه فرماهم به، ثم قال: قوموا قوموا، صدق خليلي- □□□ □□□□ □□□□ □□□□- "[6] .

---

[1] (?) أخرجه البخاري في صحيحه ح (3276) ، ومسلم في صحيحه ح (345).
[2] (?) أخرجه البخاري في صحيحه ح (7296).
[3] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (343).
[4] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (344).
[5] (?) اخرجه مسلم في صحيحه ح (351).
[6] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (349).

وقد بيَّن شيخ الإسلام علاج هذا الوسواس بعدة أمور أرشد إليها النبي - صلى الله عليه وسلم- في الأحاديث السابقة هي ما يلي :

1- الاستعاذة بالله، فإن الله هو الذي يعيذ العبد، ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية ، "فالاستعاذة بالله طريق مفضية إلى المقصود الذي لا يحصل بالنظر والاستدلال" [1]

2- الانتهاء عن هذا الوسواس مع الاستعاذة إعلاماً : "بأن هذا السؤال (وهو قول من خلق الله) هو نهاية الوسواس فيجب الانتهاء عنه، ليس هو من البدايات التي يزيلها ما بعده، فإن النفس تطلب سبب كل حادث، وأول كل شيء حتى تنتهي إلى الغاية والمنتهى ، وقد قال الله تعالى: ﴿ ﴾ [2] ، وفي الدعاء المأثور الذي ذكره مالك في الموطأ: "حسبي الله وكفى ، وسمع الله لمن دعا، وليس وراء الله مرمى" وفي رواية : "ليس وراء الله منتهى" [3] فإذا حصل العبد إلى غاية الغايات ونهاية النهايات وجب وقوفه ، فإذا طلب بعد ذلك شيئاً آخر وجب أن ينتهي ، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم- العبد أن ينتهي مع استجارته بالله من وسواس التسلل كما يؤمر كل من حصَّل نهاية المطلوب وغاية المراد أن ينتهي، إذ كل طالب ومريد فلا بدَّ له من مطلوب ومراد ينتهي إليه ، وإنما وجب انتهاؤه؛ لأنه من المعلوم بالعلم الضروري الفطري لكل من سلمت فطرته من بني آدم أنه سؤال فاسد، وأنه يمتنع أن يكون لخالق كل مخلوق خالق، فإنه لو كان له خالق لكان مخلوقاً ، ولم يكن خالقاً لكل مخلوق, بل كان يكون من جملة المخلوقات،

---

[1] "درء التعارض" (3/313).

[2] سورة النجم ، الآية (42).

[3] ذكر مالك في "الموطأ" ص (480)ـ ، وانظر "التمهيد" (14/401).

والمخلوقــات كلها لا بــدَّ لها من خــالق، وهــذا معلــوم بالضرورة والفطرة، وإن لم يخطر ببال العبد قطع الــدَّوْر والتسلل ، فإن وجود المخلوقات كلها بدون خالق معلــوم الامتناع بالضرورة... فلما كان بطلان هذا السؤال معلوماً بالفطرة والضرورة أمر النبي - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- أن يُنتهى عنه ، كما يــؤمر أن ينتهي في كل ما يعلم فســاده من الأسـولة الفاسـدة الـتي يعلم فسـادها ، كما لو قيـل: متى حدث الله؟ أو متى يموت؟ ونحو ذلك"[1] .

3- أن يقـول: آمنت باللـه، وفي روايـة: ورسـوله ، "فهـذا من باب دفع الضد الضار بالضد النـافع، فـإن قولـه: آمنت باللــه، يــدفع عن قلبه الوســواس الفاســدة، ولهــذا كــان الشيطان يخنس عند ذكر الله، ويوســوس عند الغفلة عن ذكر الله، ولهذا سُمِّي الوسواس الخناس، فإنه جاثم على فوائد ابن آدم، فإن ذكر الله خنس ، والخنــوس: الاختفــاء بانخفاض "[2] .

وهـذا الأصل الـذي قـرره شـيخ الإسـلام وهو أنه يخـاطب بالبرهان والاستدلال من كان عنده مقدمات علمية ذكــره عند إيراده لسؤال باطل سـئل عنه بعض المتكلمين فقيل له: لِم لَمْ يأمر النبي - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- عند هذا الوســواس بالبرهــان المــبيِّن لفســاد التسلسل بل أمر بالاستعاذة؟

فأجـاب بـأن مثل هـذا، مثل من عـرض له كلب ينبح عليه ليؤذيه ويقطع طريقة فتـارة يضـربه بعصـا، وتـارة يطلب من صاحب الكلب أن يزجره. قال: فالبرهــان هو الطريق الأول، وفيه صــعوبة، والاســتعاذة بالله هو الثــاني، وهو أسهل.

وذكر-رحمه الله- أنه قد اعترض بعضهم على هذا الجواب بأن هذا يقتضي أن طريقة البرهان أقــوى وأكمــل، وليس الأمر كذلك، بل طريقة الاستعاذة أكمل وأقوى، فــإن دفع

---

[1] (?) "درء التعارض" (3/313-315).

[2] (?) "درء التعارض" (3/316).

الله الوســـواس عن القلب أكمل من دفع الإنســـان ذلك عن نفسه.
وبيَّن شـيخ الإسـلام-رحمه اللـه- أن كلا الجـوابين باطـل، لأنهما مبنيان على سؤال باطـل، وما بـني على باطل فهو باطل "وذلك أن هـذا الكلام مبنـاه على أن هـذه الأسـئلة الواردة على النفس تنـدفع بطريقـتين أحـدهما: البرهـان، والآخر: الاستعاذة.
وأن النبي - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- أمر بالاستعاذة، وأن المـبين لفسـاد الـدَّوْر والتسلسل قطعه بطريق البرهـان، وأن طريقة البرهـان تقطع الأسـولة الـواردة على النفس بدون ما ذكره النبي - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- ، وأن النبي - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- لم يأمر بطــريقة البرهان، وهذا خطأ من وجوه، بل النبي - □□□ □□□□ □□□□ □□□□- أمر بطريقة البرهان حيث يؤمر بها ، ودلَّ على مجامع الـبراهين الـتي يرجع إليها غاية نظر النظــار، ودل من الــبراهين على ما هو فـوق اسـتنباط النظـار ، والـذي أمر به في دفع هـذا الوسـواس ليس هو الاسـتعاذة فقـط، بل أمر بالإيمـان، وأمر بالاســـــتعاذة، وأمر بالانتهـــــاء، ولا طريق إلى نيل المطلوب من النجـاة والسـعادة إلاَّ بما أمر به ، لا طريق غير ذلك"[1] .

(?)[1] "درء التعارض" (3/308-309).

المبحث السادس : دلائل الربوبية فيها الظاهر لكل أحد وفيها ما يختص به من عرفه

قرّر شيخ الإسلام-رحمه الله- أن دلائل الربوبية على قسمين:

الأول: الدلائل الظاهرة البيِّنة لكل أحد.

ومثاله: خلق الحيوان والنبات وغير ذلك.

فإن هذا دليل ظاهر بيِّن لكل أحد، إذ إن المخلوق لم يخلق نفسه بل لا بدَّ له من خالق.

الثاني: الدلائل التي يختص بها من عرفها.

ومثاله : مقـادير الكـواكب وحركتهـا. فـإنَّ من عنـده علم بذلك يعرف من دلائل الربوبية من خلال علمه بهذا العالم "عــالم الكــواكب" ما لا يعرفه غــيره، وكــذلك من كــان مختصـــــاً بعلم "الطب" فإنه يطلع على عجيب خلق الله تعالى وقدرته في الإنســان والمــواد مما يدله على ربوبية الله الــتي تــوجب افــراده بالعبــادة ما لا يطلع عليه غــير المتخصص بالطب.

قال شيخ الإسلام-رحمه اللـه- : "ودلائل النبـوة من جنس دلائل الربوبيـة، فيها الظـاهر الـبيِّن لكل أحـد، كـالحوادث المشهودة، مثل خلق الحيوان والنبات والسـحاب وإنـزال المطر وغــير ذلـــك، وفيها ما يختص به من عرفـــه، مثل دقــائق التشــريح[1] ، ومقــادير الكــواكب وحركتها وغــير ذلك"[2] .

---

[1] علم التشريح هو : علم يبحث في كيفية أجزاء بـدن الإنسـان وتركيبها من العـروق والأعصـاب والغضـاريف واللحم وغـير ذلك من أحوال كل عضو، وهو من فروع الطب. انظر "أبجد العلــوم" ص (322،49).

[2] "الجواب الصحيح" (5/435).

المبحث السابع :لكل إنسان من الدلائل المعينة في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها آخرون.

لما بيَّن شيخ الإسلام – رحمه الله – كثرة دلائل الربوبية ، وأنها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول قرَّر أمراً آخر وهو:

أن لكل قوم بل ولكل إنسان من الدلائل المعينة التي يريد الله إياها في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها قوم آخرون.

قـــال-رحمه اللـــه- : "كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول ، ولكل قوم بل ولكن إنسان من الـدلائل المعينة الـتي يريه الله إياها في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها قوم آخرون، قـال تعـالى: ﭽ ﭼ [1] والضمير في ذلك عائد إلى القرآن عند المفسـرين والسـلف وعامة العلمـاء، كما يـدل على ذلك القرآن بقوله: ﭽ ۈ ۋ ۅ ۉ ې ې ى ى ﭼ [2] وقد قيل : إن الضمير عائد إلى اللـه . والصـواب : الأول ، كما قال : ﭽ ﭠ ﭡ ﮪ ﭼ وهذا هو القرآن، ثم قال بعد ذلك : ﭽ ﭼ ثم قال: ﭽ ی ی ﯼ ﭼ وآخــر أنــه سـيرى النـاس في أنفسـهم وفي الآفـاق من الآيـات العيانيــة المشـهودة المعقولـة مـا بين أن الآيـات القرآنية المسموعة المتلوة حق، فيتطابق العقل والنقل ، ويتفق العيان والقرآن ، وتصدق المعاينة للخبر" [3] .

وهـذا الأصـل هـو فـرع للقسـم الثـاني من أقسـام دلائـل الربوبيـــة وهي الـــدلائل الـــتي يختص بهـــا من عرفهـــا، فالمتخصصـــون في علم الفلـــك أو الطب أو غـــير ذلـــك يطلعون على دلائل صـنع اللـه وخلقـه في علـومهم الـتي

(?)[1] سورة فصلت ، الآية (53).

(?)[2] سورة فصلت ، الآية (52-53).

(?)[3] "الجواب الصحيح" (6/378-379).

تدلهم على الله ما لا يطلع عليه غيرهم، وكل واحد من هؤلاء المتخصصين يطلع على ما لا يطلع عليه الآخر الذي معه في نفس التخصص. وكل إنسان يرى في أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر، والنجوم ، والليل والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد والبرق والصواعق، والنبات والأشجار، والجبال والبحار، وغيرها، وفي نفسه من بديع صنع الله وحكمته في عينيه ، وأذنيه، ولسانه، وفمه، وأنفه، ويديه، ورجليه، وغير ذلك ما يدله على ربه، ويعرف من الدلائل في ذلك ما لا يعرف أعيانها آخرون. وهذا كله يدل على ربوبية الله- تعالى – وكرمه وجوده وإحسانه، ورحمته بعباده، وحبه للعذر، إذ جعل دلائل الربوبية تظهر لكل أحد لتدله على وجوب إفراد الله بالعبادة [1] .

المطلب الأول: المراد بالفطرة .

الفطرة لغة :

فطر الشيء يَفْطرُه ، فَطْراً فانْفَطَر وفطّره : شقه . وتفطَّر الشيء : تشقق. والفطْر : الشق ، وجمعه فُطُور ، وفي التنزيل العزيز : ﭽﭼﭽﭾﭿ [2] .

---

[1] للإطلاع على تفاصيل عجائب خلق الله وصنعه في مخلوقاته ، انظر"مفتاح دار السعادة" (ص186-274).

[2] سورة الملك ، الآية (3).

وأصل الفطر : الشق ، ومنه قوله تعـالى : ﭽ ﭙ ﭚ ﭼ[1] وانفطـر الثـوب إذا انشـق ، وتفطّـرت الأرض بالنبـات إذا تصدعت .
ومنه أخذ فِطر الصائم ؛ لأنه يفتح فاه.
وفطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم وبـدأهم . والفِطْـرة : الابتداء والإختراع وفي التنزيل العزيز : ﭽﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥﭼ[2] قال ابن عبّاس –رضـي اللـه عنـه- :"مـا كنت أدري مـا فـاطر السـماوات والأرض حـتى أتـاني أعرابيـان يختصـمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي أنا ابتدأت حفرها"[3]
والفطرة : الخِلقة[4] .

والفطرة اصطلاحاً:

المراد بها : قوة في النفس تقتضـي اعتقـاد الحـق وإرادة النــافع ، كــالإقرار بوجــود اللــه ، وتوحيــده ، ومحبتــه ، وإخلاص الدين له [5] .
والفطرة ورد ذكرهـا في حـديث أبي هريـرة –رضـي اللـه عنه- قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم- : "ما من مولــود إلاّ يولــد على الفطــرة ، فــأبواه يهودانــه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تُحسِّون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة –رضي الله عنه- : ﭽﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦﭼ [6][7] "
وأهـل العلم –رحمهم اللـه- اختلفـوا في المـراد بـالفطرة في هذا الحـديث ، وقـد بيَّن شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه-

---

[1] سورة الانفطار ، الآية (1).
[2] سورة فاطر ، الآية (1).
[3] أخرجه ابن جرير في تفسيره (7/202).
[4] انظر "لسان العرب" (11/196-197)ـ ، و "معجم مقـاييس اللغـة" (4/510)ـ ، و "تهـذيب اللغـة" (13/325-326)ـ ، و "الصحاح " (2/669).
[5] انظر "درء التعارض" (8/456-468).
[6] سورة الروم ، الآية (30).
[7] أخرجه البخاري في صحيحه ح (1358)ـ (1359)ـ (4775)ـ (6599) ، و مسلم في صحيحه ح (6755) (6757) (6758) .

أقوال أهل العلم في المراد بـالفطرة هنـا ، ونـاقش هـذه الأقوال وبيَّن الراجح منها .
فذكر خمسة أقوال في ذلك نقلها عن ابن عبد البر، وهذه الأقوال هي كالتالي :

القول الأول:

أن المراد بالفطرة في الحديث : الإسلام .

واستدلوا على ذلك بما يلي :

الدليل الأول : قول الله تعالى : ﭽﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﭼ[1]

ووجه الدلالة من ذلك :

1- أن السلف فسروا "الفطرة" في الآية بالإسلام ، كما فسـرها بـذلك عبـد الـرحمن بن زيـد بن أسـلم ، ومجاهد ، ومعاذ بن جبل ، وعكرمة[2] .
2- أنهم فسّروا قوله تعـالى : ﭽ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﭼ أي لـدين الله ، كما فسرها بذلك مجاهد وعكرمة ، وسـعيد بن جبير ، والضحّاك ، وابن زيد[3]

وروي عن مجاهـد وعكرمـة تفسـير ذلـك بالإخصـاء[4] ، والمعـنى : لا تغيـير لخلـق اللـه من البهـائم بـأن يخصـى الفحول منها[5] .
قـال شـيخ الإسـلام : " مجاهد وعكرمة : روي عنهما القولان إذ لا منافاة بينهما كما قال تعالى : ﭽﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﭼ[6] فتغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تغيير لخلقـه، والخصاء وقطع الأذن أيضا تغيير لخلقه

[1] سورة الروم ، الآية (30).
[2] أخرجها ابن جرير في تفسيره (21/49-50).
[3] أخرجها عنهم ابن جرير في تفسـيره (21/50-51)ـ ، وانظر "درء التعارض" (8/374-377)
[4] أخرجهما ابن جرير في تفسيره (21/51).
[5] انظر "جامع البيان " (21/51).
[6] سورة النساء ، الآية (119).

ولهذا شبه النبي صلى الله عليه و سلم أحدهما بالآخر في قوله : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " فأولئك يغيرون الدين وهؤلاء يغيرون الصورة بالجدع والخصاء، هذا تغيير لما خلقت عليه نفسه، وهذا تغيير ما خلق عليه بدنه " [1]

3- أن الله تعالى – في الآية أمر نبيه بلزوم فطرته التي فطر الناس عليها ، والله عز وجل إنما يأمره بلزوم ما هو ممدوح لا مذموم [2] ، ثم إن الله -تعالى- أضاف الفطرة إضافة مدح لا إضافة ذم فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة   يبين ذلك أنه قال : ﭽﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞﭼ وهذا نصب على المصدر الذي دل عليه الفعل الأول عند سيبويه وأصحابه فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها كما في نظائره ومثل قوله : ﭽﭙ ﭚ ﭛﭼ[3] وقوله : ﭽﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇﭼ[4] فهذا عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره دل عليه الفعل المتقدم كأنه قال : كتب الله ذلك عليكم وسن الله ذلك وكذلك هنا فطر الله الناس على ذلك : على إقامة الدين لله حنيفا "[5] .

الدليل الثاني :

حديث أبي هريرة السابق قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم- : ""ما من مولود إلاَّ يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تُحسِّون فيها من جدعاء؟ ثم قرأ أبو هريرة –رضي الله عنه- : ﭽﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥﭼ" .

ووجه الدلالة :

---

[1] انظر "درء التعارض" (8/377).

[2] انظر "المصدر السابق" (8/426 ، 445).

[3] سورة النساء ، الآية (24).

[4] سورة الفتح ، الآية (23)

[5] "درء التعارض" (8/372).

1- قراءة أبي هريرة –رضي الله عنه – للآية "فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " ففسّر الحديث بالآية ، والفطرة في الآية المراد بها الإسلام كما فسرها السلف بذلك .

قال شيخ الإسلام : "الدلائل الدالة على أنه أراد : على فطرة الإسلام – كثيرة ...مثل تفسير أبي هريرة وغيره من رواة الحديث ذلك وهو أعلم بما سمعوا " [1] .

2- ألفاظ الحديث الأخرى التي تفسِّر المراد بالفطرة ، وأنها الإسلام .

مثل : " ما من مولود إلاَّ وهو على الملّة".

" إلا على هذه الملّة حتى يبيِّن عنه لسانه".

" ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة حتى يعبِّر عنه لسانه"[2].

" من يولد يولد على هذه الفطرة "[3].

" ما من مولود يولد إلاَّ على فطرة الإسلام حتى يعرب" [4].

3- قوله –صلى الله عليه وسلم- "فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه " بيّن فيه أنهم يغيرون الفطرة التي فطر الناس عليها ، وهي الإسلام ، ولهذا لم تذكر ، فلم يقل النبي –صلى الله عليه وسلم- "ويسلمانه" ؛ لأنها هي الفطرة التي يولد عليها [5]

4- " لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام لما سألوا عَقِب ذلك : "أرأيت من يموت من أطفال

---

[1] "المصدر السابق" (8/371).

[2] هذه الألفاظ الثلاث أخرجها مسلم في صحيحه ح (6759).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6760).

[4] أخرجه ابن حبان في صحيحه ح (132) ، والطبراني في "المعجم الكبير" ح(827) ، وصححه الألباني في "التعليقات الحسان على صحيح ابن حيان" (1/230).

[5] انظر "درء التعارض" (8/372 ، 444 ، 448).

المشركين وهو صغير"[1] ؛ لأنه لـو لم يكن هنـاك مـا يغير تلك الفطرة لما سألوه"[2] .

5- أن النـبي – صـلى اللـه عليـه وسـلم- : "شـبَّه ذلـك بالبهيمة التي تُولد مجتمعـة الخلـق لا نقص فيـه ، ثم تُجدع بعد ذلك ، فعلم أن التغيـير واردٌ على الفطـرة السليمة التي ولد العبد عليها"[3] .

الدليل الثـالث : حـديث عيـاض بن حمـار عن النـبي – صلى اللـه عليـه وسـلم- فيمـا يـروي عن ربـه تعـالى أنـه قــال : "خلقت عبــادي حنفــاء فاجتــالتهم الشــياطين ، وحرَّمت عليهم مـا أحللت لهم ، وأمـرتهم أن يشـركوا بي ما لم أنـزل بـه سـلطاناً"[4] "وهـذا صـريح في أنـه خلقهم على الحنيفيــة وأن الشــياطين اجتــالتهم بعــد ذلــك"[5] والحنيفيـة هي الإسـلام ويشـهد لـذلك قـول اللـه – عـز وجل- : ﭽ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﭼ[6] وقوله تعالى : ﭽ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﭼ[7][8] ومما يدل على أن الحنيفية هي الإسلام ما جاء في بعض ألفاظ الحديث : "حنفاء مسلمين"[9] .

الدليل الرابـع : حـديث الأسـود بن سـريع قـال : بعث النبي –صلى الله عليه وسلم- سرية ، فأفضى بهم القتـل إلى الذرية ، فقال لهم النبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- : "مــا حملكم على قتــل الذريــة ؟ قــالوا : يــا رســول اللـه :أليسـوا أولاد المشـركين ؟ قـال : "أوليس خيـاركم

[1] أخرجه البخــاري في صــحيحه ح (6600)ـ ، ومســلم في صحيحه ح (6758) (6760).

[2] "درء التعارض" (8/371).

[3] "المصدر السابق" (8/372).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه ح (7207).

[5] "درء التعارض" (3/363).

[6] سورة آل عمران ، الآية (67)

[7] سورة الحج ، الآية (78)

[8] انظر "التمهيد" (6/358) ، و "درء التعارض" (8/370-371).

[9] أخرجه الطـبراني في المعجم الكبـير ح (997) قـال ابن عبد الـــبر "... فلا وجه لإنكـــار من أنكر رواية من روى " حنفــــاء مسلمين" ..." "التمهيد" (6/358).

أولاد المشركين ؟ ثم قام النبي –صلى الله عليه وسلم- خطيباً فقال : "ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه"[1] .

"فخطبته لهم بهذا الحديث عقب نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين وقوله لهم: "أوليس خياركم أولاد المشركين " يُبيِّن أنه أراد أنهم ولدوا غير كفار ، ثم الكفر طرأ بعد ذلك ..." [2] .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "فجعله على الفطرة إلى أن يعقل ويميز، فحينئذ يثبت له أحد الأمرين، ولو كان كافرا في الباطن بكفر الأبوين، لكان ذلك من حين يولد قبل أن يعرب عنه لسانه "[3] .

الدليل الخامس : قوله –صلى الله عليه وسلم- : "الفطرة خمس أو خمس من الفطرة : الختان ، والاستحداد ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب"[4] .

وهن من سنن الإسلام ، فدلَّ على أن الفطرة هي الإسلام [5]. وهذا القول من القائلين به أبو هريرة ، والزهري[6] ، وهو ما رجحه شيخ الإسلام[7] .وهو المعروف عند عامة السلف[8].

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده ح (15525) (15526) ، والطبراني في "المعجم الكبير" ح (826-832)ـ (834-835) بألفاظ متقاربة ، وصححه ابن عبد البر في "التمهيد" (6/355) .

[2] "درء التعارض" (8/364).

[3] "المصدر السابق" (8/432).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ح (5889)ـ (5891)(6297)ـ ، ومسلم في صحيحه ح (597) (598).

[5] انظر "درء التعارض" (8/371) ، و "التمهيد" (6/359) .

[6] انظر "التمهيد" (6/359).

[7] انظر "درء التعارض" (8/371 ، 410)ـ ، و "مجموع الفتاوى" (4/245)ـ (10/134-135)ـ (16/344-345)ـ ، و "بيان تلبيس الجهمية" (4/585)ـ ، و "جامع الرسائل" (2/498)، و "جامع المسائل" (5/252-253).

[8] انظر "درء التعارض" (8/367) ، و "التمهيد" (6/357) .

وقد بيّن شيخ الإسلام مسألة مهمة متعلقة بالقول الراجح وهي : المراد بكون كل مولود يولد على فطرة الإسـلام . فقـال: "وإذا قيل : إنه ولد على فطـرة الإسـلام أو خلق حنيفا ونحو ذلك فليس المـراد به أنه حين خـرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده فإن الله تعالى يقول : ﭽﭙﭚﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭼ [1] ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسـلام لمعرفته ومحبته ، فنفس الفطرة تستلزم الإقـرار بخالقه ومحبته وإخلاص الـدين له وموجبـات الفطـرة ومقتضـاها تحصل شيئا بعد شيء بحسب كمـال الفطـرة إذا سـلمت عن المعارض "[2]

وقـال أيضـاً : "ومعلـوم أن قوله : كل مولـود يولد على الفطـرة ليس المـراد به أنه حين ولدته أمه يكـون عارفا بالله موحدا له بحيث يعقل ذلك، فإن الله يقول : ﭽﭙﭚﭛﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭼ[3]   ونحن نعلم بالاضـطرار أن الطفل ليس عنـده معرفة بهـذا الأمر ولكن ولادته على الفطـرة تقتضي أن الفطرة تقتضي ذلك وتستوجبه بحسـبها، فكلما حصل فيه قوة العلم والإرادة حصل من معرفتها بربها ومحبتها له ما يناسب ذلك كما أنه ولد على أنه يحب جلب المنافع ودفع المضار بحسبه "[4] .

القـول الثـاني : أن الفطـرة في الحـديث هي الخلقـة التي خلق عليها المولود من المعرفة بربه ، كأنه قـال في الحديث :"كل مولود يولد على خلقه يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة يريد خلقـه مخالفـة لخلقـة البهـائم الـتي لا تصل بخلقتها إلى معرفة ذلك . وأنكروا أن يكون المولـود يفطـر على كفـر أو إيمـان ، أو معرفـة او إنكـار ، قـالوا : وإنما يولد المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعـاً

(?)[1] سورة النحل ، الآية (78) .

(?)[2] "درء التعارض" (8/383).

(?)[3]سورة النحل ، الآية (78) .

(?)[4] "درء التعارض" (8/460-461)، وانظر "مجمـوع الفتـاوى" (4/247).

وبنية ، ليس معها كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ، ولا إنكـار ، ثم يعتقد الكفر أو الإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا "[1] .
ناقش شيخ الإسلام –رحمه الله- هذا القول ببيان مرادهم بذلك فذكر أربعة احتمالات:
الاحتمـال الأول : "أنهم خلقـوا خـالين من المعرفة والإنكار من غير أن تكون الفطرة تقتضي واحدا منهما بل يكون القلب كاللوح الذي يقبل كتابة الإيمان وكتابة الكفر وليس هو لأحدهما أقبل منه للآخر وهذا هو الذي يشعر به ظاهر الكلام - فهذا قول فاسد"[2]
وبيَّن –رحمه الله- فساد هذا القول من عدة أوجه :
1- أنه إذا قيل بأن هذا الاحتمال هو المراد بقولهم فإنـه حينئـذ لا فـرق بالنسـبة إلى الفطـرة بين المعرفـة والإنكار ، والتهويـد والتنصـير والإسـلام ، وإنمـا ذلـك بحسـب الأسـباب ، فكـان ينبغي أن يقـال : فـأبواه يسلمانه ويهودانه وينصرانه ويمجسانه ، فلما ذكر أن أبويه يكفرانه ، وذكـر الملـل الفاسـد دون الإسـلام : علم أن حكمه في حصول الكفـر بسـبب منفصل[3] ، وأنه يولد على الفطرة الـتي هي الإسـلام ، الـتي لم تذكر في الحديث أنها مما تتغير بها الفطرة .
2- أنه " على هذا التقدير لا يكون في القلب سـلامة ولا عطب، ولا استقامة ولا زيغ إذ نسبته إلى كـل منهمـا نسبة واحدة ، وليس هو بأحدهما أولى منـه بـالآخر ، كما أن الرق قبل الكتابـة فيـه لا يثبت لـه حكم مـدح كالمصحف ، ولا حكم ذم كقرآن مسـيلمة ، والـتراب قبل أن يُبنى مسجداً أو كنيسة لا يثبت له حكم واحد منهمـا . ففي الجملـة كـل مـا كـان قـابلاً للمـدح

---

[1] انظر "التمهيد" (6/355) ، و "درء التعارض" (8/384-385 ، 442)
[2] "درء التعـارض" (8/444) وانظر (8/385) ، و "مجمـوع الفتاوى" (4/243) .
[3] انظر "درء التعـارض" (8/444) ، و "مجمـوع الفتـاوى" (4/244).

والمذموم على السواء لم يستحق مدحاً ولا ذماً ، والله تعالى يقول : ﭽﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟﭼ [1] فأمر بلزوم فطرته التي فطر الناس عليها ، فكيف لا يكون فيها مدح ولا ذم ؟[2] " والفطرة أضيفت إلى الله على وجه المدح .

3- أن النبي –صلى الله عليه وسلم- شبَّه الفطرة "بالبهيمة المجتمعة الخلق ، وشبَّه ما يطرأ عليها من الكفر بجدع الأنف والأذن ، ومعلوم أن كمالها محمود ونقصها مذموم ، فكيف تكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة"[3] .

الاحتمال الثاني:

أن المراد بالفطرة : التمكن من المعرفة والقدرة عليها .

وضعف شيخ الإسلام هذا المراد من عدة أوجه :

1- أن مجرد القدرة على ذلك لا يقتضي أن يكون حنيفاً ، ولا أن يكون على الملة . والنصوص دلت على أنه يولد على الملة ويولد حنيفاً.

2- أن حديث الفطرة فيه ذكر تغيير أبويه لفطرته ، ولو كان المراد مجرد التمكن من المعرفة والقدرة عليها لما احتج إلى ذكر تغيير أبويه لفطرته.

3- أن الصحابة سألوا النبي –صلى الله عليه وسلم- عمّن مات صغيراً من أولاد المشركين ، ولو كان المراد مجرد التمكن من المعرفة والقدرة عليها لما سألوا عن ذلك .

4- أنه لو أريد القدرة لكان البالغون على الفطرة وإن كانوا مشركين مستوجبين للقتل ، بل إن القدرة هي في الكبير أكمل منها في الصغير[4] .

---

[1] سورة الروم ، الآية (30)

[2] "درء التعارض" (8/444ـ 445)، وانظر "مجموع الفتاوى" (4/244)

[3] "درء التعارض" (8/445)ـ ، وانظر "مجموع الفتاوى" (4/244).

[4] انظر هذه الأوجه "درء التعارض" (8/385).

الاحتمال الثالث:

أن المراد بالفطرة : أنهم ولدوا على الفطـرة السـليمة ، التي لو تركت مع صـحتها لاختـارت المعرفـة على الإنكـار والإيمـان على الكفـر، ففي الفطـرة قـوة يميـل بهـا إلى المعرفة والإيمان ، كما في البـدن السـليم قـوة يحب بهـا الأغذية النافعة ، وبهذا كانت محمودة وذم من أفسدها.

وأجاب الشيخ الإسلام عن ذلك بما يلي:

1- أن هـذه الفطـرة الـتي فيهـا هـذه القـوة والقبـول والاسـتعداد والصـلاحية : هـل هي كافيـة في حصـول المعرفة أو تقف المعرفة على أدلة يتعلمها من خـارج ؟ فإن كـانت كافيـة في حصـول المعرفـة ، وأن فيهـا قوة تقتضي المعرفة بنفسها وإن لم يوجد من يعلمهـا أدلة المعرفة .لزم أن يكون المقتضى للمعرفة حاصلاً لكل مولود ، والمقتضى التـام يسـتلزم مقتضـاه وهـو المطلـوب ، فيكـون كـل مولـود يولـد على فطـرة الإسلام . وإن كانت المعرفة تقـف على أدلـة يتعلمهـا من خارج فهذه الأدلة :

- يمكن أن توجد تارة وتعدم أخرى .
- ثم ذلـك السـبب الخـارج يمتنـع أن يكـون موجبـاً للمعرفة بنفسه بل غايته أن يكـون معرِّفـاً ومـذكِّراً . فعند ذلك إن وجب حصول المعرفـة كـانت المعرفـة واجبة الحصول عند وجود تلك الأسـباب وإلاَّ لم يجب حصـول المعرفـة ، وحينئـذ فلا يكـون فيهـا إلا قبـول المعرفة والإيمـان، وعندئـذ يسـتوي الكفـر والإيمـان بالنسـبة إليهـا وذلـك ينفي مـدحها . وإذا لم تكن الفطـرة مقتضـية للإسـلام وجب أن يـذكر في المؤثرات التي ذكرت في الحديث .كما ذكـر التهويـد والتنصير والتمجيس إذ النسبة إليها سواء[1] .

2- إن " حب النفس وخضـوعها لله وإخلاص الـدين له مع الكبر والشرك والنفـور إما أن يكـون نسـبتها إلى

---

[1] انظر "المصدر السابق" (8/445-448) .

الفطرة سواء أو الفطرة مقتضـية للأول دون الثـاني فإن كانا سواء لزم انتفاء المـدح كما تقـدم ولم يكن فـــرق بين دعائها إلى الكفر ودعائها إلى الإيمـــان ويكون تمجيسها كتحنيفها وقد عرف بطلان هـذا وإن كـــان فيها مقتض لهـــذا فإما أن يكـــون المقتضى مسلتزما لمقتضاه عند عدم المعارض وإما أن يكـون متوقفا على شخص خارج عنها فـإن كـان الأول ثبت أن ذلك من لوازمها وأنه مفطـــورة عليه لا تفقد إلا إذا فســـدت الفطـــرة ، وإن قيل : إنه متوقف على شخص فـذلك الشـخص هو الـذي يجعلها حنيفية كما يجعلها مجوسية وحينئذ فلا فرق بين هذا وهـذا ، وإذا قيل : هي الحنيفية أميل كـــان كما يقـــال : هي إلى النصـــرانية أميل ، فتـــبين أن فيها قـــوة موجبة لحب الله والـــــذل له وإخلاص الـــــدين له وأنها موجبة لمقتضاها إذا سلمت من المعارض "[1] .

3- إن الإقرار "بالصـانع بـدون عبادته بالمحبة له والـذل له وإخلاص الـدين له لا يكـون نافعا بل الإقـرار مع البعض أعظم استحقاقا للعذاب فلا بد أن يكـون في الفطـــرة مقتض للعلم ومقتض للمحبـــة، والمحبة مشروطة بالعلم فإن ما لا يشعر به الإنسان لا يحبه، والحب للمحبوبات لا يكـون بسـبب من خـارج بل هو جبلي فطـــــري وإذا كـــــانت المحبة جبلية فطرية فشـرطها - وهو المعرفة أيضا - جبلي فطـري فلا بد أن يكون في الفطـرة محبة الخـالق مع الإقـرار به ، وهـذا أصل الحنيفية الـتي خلق الله خلقه عليها وهو فطرة الله التي أمر الله بها" [2] .

4- "إذا كـانت المحبة فطرية وهي مشـروطة بالشـعور، لزم أن يكون الشـعور أيضا فطريـاً، والمحبة له أيضا فطرية ؛ لأنها لو لم تكن فطرية لكـانت النفس قابلة

---

[1](?) "درء التعارض" (8/449).

[2](?) "المصدر السابق" (8/450-451).

لها ولضدها على السواء، وهذا ممتنع كما تقدم، وإذا كـانت في الفطـرة أرجح لـزم وجودها في الفطـرة، وإلا كـــانت ممكنة الحصـــول وعدمـــه، كما في المجوســـــية وغيرها من الكفر فتبقى الحنيفية مع المجوسـية كاليهودية مع المجوسـية وهـذا باطل كما تقـــدم . فعُلم أن الحنيفية من موجبـــات الفطـــرة ومقتضياتها والحب لله والخضوع له والإخلاص له هو أصل أعمـــال الحنيفيـــة، وذلك مســـلتزم للإقـــرار والمعرفـــة، ولازم اللازم لازم ، وملـــزوم الملـــزوم ملــزوم ، فعلم أن الفطـــرة ملزومة لهـذه الأحـــوال لازمة لها وهو المطلوب"[1] .

وشيخ الإسلام –رحمه الله- نقل أدلة هـذا القـول عن ابن عبد البر ، ونقل ترجيح ابن عبد البر لهذا القول[2] ، ولكنـه لم ينـاقش هـذه الأدلـة بـل اكتفى ببيـان بطلان القـول نفسه .

وهذا الاحتمال الثالث أورده شيخ الإسلام في موضع آخـر مختصـراً، وأجـاب عنـه إجابـة مختصـرة فقـال: "وإن أراد بـالفطرة على المعرفة مع إرادتهـا، فالقـدرة الكاملة مع الإرادة التامّة تسـتلزم وجـود المـراد المقـدور فـدلّ على أنهم فطـروا على القـدرة على المعرفة وإرادتهـا، وذلك مستلزم للإيمان"[3] .

فالقـدرة التامـة هي القـوة الـتي ذكـرت في الاحتمـال السـابق ، والإرادة هي الميـل بهـا إلى المعرفـة والإيمـان الذي ذكر أيضاً في الاحتمال السابق.

القول الثالث :

أن معـنى قـول النـبي – صـلى اللـه عليـه وسـلم- : "كـل مولـود يولـد على الفطـرة" يعـني البـدأة الـتي ابتـدأهم عليهـــا، يريد أنه مولـــود على ما فطر الله عليه خلقه من

---

[1] (?) "درء التعارض" (8/451).

[2] (?) انظر "المصـدر السـابق" (8/384-385 ، 442-444)، و "التمهيد" (6/355-356) .

[3] (?) "درء التعارض" (8/385).

أنه ابتدأهم للحياة والموت، والسـعادة والشـقاء، وإلى ما يصـــيرون إليه عند البلـــوغ من قبـــولهم عن آبـــائهم اعتقادهم"[1].

قال ابن عبد البر : "قال أبو عبد الله بن نصر المــروزي : وهذا المذهب شبيه بما حكاه أبـو عبيـد عن عبـد اللـه بن المبـارك أنـه سـئل عن قـول النـبي –صـلى اللـه عليـه وسلم- : كل مولود يولـد على الفطـرة ، فقـال : يفسـره الحديث الآخر حين سـئل عن أطفـال المشـركين فقـال : الله أعلم بما كانوا عاملين" . قـال المـروزي : ولقـد كـان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القـول ثم تركـه . قـال أبـو عمر : ما رسمه مالك في الموطأ وذكره في أبواب القدر فيه من الآثار ما يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هـذا"[2] .

أدلتهم التي ناقشها شيخ الإسلام :

1- **قوله تعالى :** ﭽ ﯾﯿﰀﰁﰂﰃ ﯽﯾﭼ[3] قال محمد بن كعب القرظي: "من ابتدأ الله خلقـه للضـلالة صـيره إلى الضـلالة وإن عمـل بأعمـال الهـدى ، ومن ابتـدأ اللـه خلقـه على الهـدى صـيره اللـه إلى الهـدى وإن عمــل بأعمــال الضــلالة ، ابتــدأ خلــق إبليس على الضلالة وعمل بعمـل السـعادة مـع الملائكـة ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه من الضلالة قال : وكــان من الكــافرين . وابتــدأ خلــق الســحرة على الهــدى وعملــوا بعمـل الضـلالة ثم هـداهم اللـه إلى الهـدى والســعادة وتوفــاهم عليهــا مســلمين" [4] وبنفس الإسناد عن محمد بن كعب في قوله : ﭽﭦﭧﭨﭩﭪﭫ

---

[1] انظر "التمهيد" (6/359) ، و "درء التعارض" (8/386).

[2] "التمهيد" (6/360) .

[3] سورة الأعراف ، الآية (29-30).

[4] أخرجه ابن جرير في تفسيره (8/199-200) ، وابن عبد البر في "التمهيد" (6/360-361).

ﭬﭭﭮ[1] يقول : فأقروا له بالإيمان والمعرفة الأرواح قبل أن تخلق الأجسام[2]

وعن سعيد بن جبير في قوله : "كما بدأكم تعودون" قال : "كما كتب عليكم تكونوا" ، وعن مجاهد قال : "شقياً أو سعيداً" ، وعنه أيضاً: "يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً" ، وعن أبي العالية:" عادوا إلى علمه فيهم" [3] .

2- **قوله –صلى الله عليه وسلم-** : "إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً"[4] .

وقد ناقش شيخ الإسلام هذا القول وأدلته بما يلي:

أولاً: مناقشة القول نفسه ، وذلك بما يلي:

1) أن "حقيقة هذا القول أن كل مولود فإنه يولد على ما سبق في علم الله أنه صائر إليه، ومعلوم أن جميع المخلوقات بهذه المثابة فجميع البهائم هي مولودة على ماسبق في علم الله لها، والأشجار مخلوقة على ما سبق في علم الله لها، وحينئذ فيكون كل مخلوق مخلوقا على الفطرة"[5]

2) أنه لو كان المراد ماقاله أصحاب هذا القول لم يكن لقوله : " فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" معنى فإنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها على هذا القول، فلا فرق بين التهويد والتنصير حينئذ،

---

[1] سورة الأعراف ، الآية (172).

[2] أخرجه ابن جرير في تفسيره (9/146) ، وابن عبد البر في "التمهيد" (6/361).

[3] أخرجها ابن جرير في تفسيره (8/199-201) ، وابن عبد البر في "التمهيد" (6/360-361)

[4] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6766) ، والترمذي بلفظ "الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً " ح(3150) ، وقال : حسن صحيح غريب .

[5] "درء التعارض" (8/387) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (4/243).

وبين تلقين الإسلام وتعليمه، وبين تعليم سائر الصنائع فإن ذلك كله داخل فيما سبق به العلم"[1] .

3) أن تمثيل النبي –صلى الله عليه وسلم- بالبهيمة التي ولدت جمعاء، ثم جدعت يبين أن أبويه غيّرا ما ولد عليه من الإسلام ، وهذا يبين أن المولود لا يبتدأ خلقه كافراً شقياً ، وانما هذا أمر يطرأ عليه بسبب المؤثرات الخارجية"[2]

4) أن قول النبي –صلى الله عليه وسلم- "على هذه الملة" "على فطرة الإسلام " وقوله في الحديث القدسي : "خلقت عبادي حنفاء" يخالف هذا القول ، ويبيِّن أنهم ولدوا على الإسلام[3] .

5) أن الله سبحانه وتعالى قد سبق علمه بجميع أحوال الإنسان منذ ولادته إلى أن يموت ، لا فرق في ذلك بين حال الولادة وغيرها ، فتخصيص الولادة بكونها على مقتضى علم الله دون غيرها تخصيص بلا مخصص ، وقد ثبت أنه : قبل نفخ الروح فيه يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد[4] ، فلو قيل : كل مولود ينفخ فيه الروح على الفطرة لكان أشبه بهذا المعنى مع أن النفخ هو بعد الكتابة[5] .

ثانياً: مناقشة ما ذكروه عن الأئمة :

1- أن أئمة السنة مقصودهم فيما ذكروا عنهم هو: أن الخلق صائرون إلى ما سبق به علم الله فيهم من إيمان وكفر ، وأن من قال بإثبات القدر وأن الله كتب الشقي والسعيد لم يمنع ذلك أن يكون ولد على الإسلام ثم تغير بعد ذلك ، فإن الله –تعالى-

---

[1] "درء التعارض" (8/387) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (4/243).

[2] انظر "المصدر السابق" (8/387).

[3] انظر "المصدر السابق" (8/388).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ح (3208)، (3332)، (6594)، (7454) ، ومسلم في صحيحه ح (6723) .

[5] انظر "درء التعارض" (8/388)

يعلم الأشياء على ما هي عليه فيعلم أنه يولد سـليما ثم يتغير والآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على القول الذي رجحناه، وهو أنهم ولـدوا على الفطـرة، ثم صـــــاروا إلى ما ســــبق في علم الله فيهم من سعادة وشقاوة لا تدل على أنه حين الـولادة لم يكن على فطرة سليمة مقتضية للإيمان مستلزمة له لولا المعارض[1].

2- أن كلام الإمام أحمد في أجوبة أخـرى لـه تـدل على أن الفطرة عنده : الإسلام وهو آخر قوليه [2].

ثالثاً: الجواب عن الآية والآثار الواردة فيها :

1) أن الآثـار الـواردة عن السـلف في الآيـة فيهـا: إثبات علم الله وقـدره السـابق وأن الخلق يصـيرون إلى ذلك حق لا محالة كما دل عليه الكتـاب والسـنة وإجماع سلف الأمة ، لكن ليس هذا تفسير الآية[3] .

2) أن "لفظ "بدأ الله الخلق" يراد به ابتداء تكوينهم ، وهو ظاهر القرآن ، وقد يراد به ابتداء أسباب خلقهم وعلامات ذلك ، كما في قول السائل للنبي –صلى الله عليه وسلم- : "ما كان أول أمرك ؟ قال: "دعوة أبي إبراهيم ،وبشرى عيسى ، ورؤيا أمي : رأت أنني حين ولدتني كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ""[4][5]

قال ابن القيم –رحمـه اللـه- : "والـذي يظهر من الآية أن معناها معـنى نظرائها وأمثالها من الآيـات الـتي يحتج الله سـبحانه فيها على النشـأة الثانية بـالأولى وعلى المعـاد بالمبدأ فجاء باحتجاج في غاية الاختصار والبيان فقال كما بدأكم تعودون كقوله : ﭽﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﭼ[6] وقوله :

---

[1] (?) انظر "المصدر السابق" (8/389 ، 410)

[2] (?) انظر "المصدر السابق" (8/390 ، 395)

[3] (?) انظر "المصدر السابق" (8/413)

[4] (?) سبق تخريجه . انظر ص (140) .

[5] (?) "درء التعارض" (8/413).

[6] (?) سورة الحج ، الآية (5)

ﭽﮕﮖﮗﮘﮙﮚﭼ[1] وقوله : ﭽﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﭼ إلى قوله : ﭽﯖﯗﯘ ﯙﯚﯛﯜﭼ[2] وقوله : ﭽﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷ ﭸﭼ[3] أي على رجع الإنسان حيا بعد موته هذا هو الصواب في معنى الآية"[4] .

3) أن "المنقــول عن محمد بن كعب يــبين أن الــذي ابتــــدأهم عليه وهو ما كتبه أنهم صـــــائرون إليه قد يعملون قبل ذلك غيره، وأن من ابتدأه على الضـلالة أي كتبه أنه يمـوت ضـالا فقد يكـون قبل ذلك عـاملا بعمل أهل الهـــــدى وحينئذ من ولد على الفطـــــرة السليمة المقتضـية للهـدى لا يمتنع أن يعـرض لها ما يغيرها فيصــير إلى ما ســبق به القــدر لها . كما في الحــديث الصــحيح : " إن أحــدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يصير بينه وبينها إلا ذراع فيســبق عليه الكتــاب فيعمل بعمل أهل النــار فيــدخل النــار، وإن أحــدكم ليعلم بعمل أهل النــار حــتى ما يصــير بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة "[5] . ولهذا قال محمد بن كعب : إن جميع الذرية أقــروا له بالإيمــان والمعرفة فـأثبت هذا وهذا إذ لامنافاة بينهما"[6]

رابعاً: الجواب عن الحديث :

أن المراد بـالطبع "الكتـاب ، أي كتب كـافرا كما قـال : " فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سـعيد "[7] وليس إذا كان الله قد كتبه كـافرا يقتضي أنه حين الـولادة كـافر بل

---

[1] سورة يس ، الآية (78)

[2] سورة القيامة ، الآية (40)

[3] سورة الطارق ، الآية (5-8)

[4] "شفاء العليل" (2/800)

[5] جـزء من الحـديث الـذي فيه أن المولـود قبل نفخ الـروح فيه يكتب رزقه وأجله وعمله وشــقي أو ســعيد ، وقد ســبق تخريجه ص (271) .

[6] "درء التعارض" (8/411-412).

[7] سبق تخريجه ص (271).

يقتضي أنه لا بد أن يكفر وذلك الكفر هو التغيـــير كما أن البهيمة التي ولدت جمعاء وقد سـبق في عمله أنها تجـدع كتب أنها مجدوعة بجدع يحدث لها بعد الـولادة لا يجب أن تكون عند الولادة مجدوعة"[1]

القـول الرابـع : إن معـنى قولـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم- : " كل مولـــود يولد على الفطـــرة " أن الله فطــرهم على الإنكــار والمعرفة وعلى الكفر والإيمــان، فأخذ من ذرية آدم الميثـــاق حين خلقهم فقـــال ألست بــربكم ؟ قـالوا جميعا : بلى فأما أهل السـعادة فقـالوا : بلى على معرفة له طوعا من قلــوبهم وأما أهل الشــقاء فقـالوا : بلى كرها غـير طـوع ، وهـذا قـول إسـحاق ابن راهويه[2] .

أدلتهم التي ناقشها شيخ الإسلام :

1- **قول الله تعالى :** ﭽ[illegible]ﭼ[3]

2- **قول أبي هريرة بعد حديث الفطـرة :** اقـرءوا إن شئتم : ﭽ[illegible]ﭼ[4] قال إسحاق بن راهويه : لا تبـديل لخلقـه الـتي جبـل عليهـا ولـد آدم كلهم يعني من الكفر والإيمان والمعرفة والإنكار.

3- **قول الله تعالى :** ﭽ[illegible]ﭼ[5] قال إسحاق : أجمع أهل العلم : أنها الأرواح قبل الأجساد : استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، فقال : انظروا ألاَّ تقولوا إنا كنّا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل[6] .

4- **قوله –صلى الله عليه وسلم-** "فـأبواه يهودانــه وينصرانه ويمجسانه" أنه أراد به مجـرد الإلحـاق في

---

[1] "درء التعارض" (8/389).
[2] انظر "درء التعارض" (8/413-414) ، و "التمهيد" (6/362)
[3] سورة آل عمران ، الآية (83)
[4] سورة الروم ، الآية (30) .
[5] سورة الأعراف ، الآية (172) .
[6] انظر هذه الأدلة "التمهيد" (6/362-364) ، و "درء التعارض" (8/413-416).

أحكام الدنيا دون أن يكون أراد أنهما يغيران الفطرة قال إسحاق : فلو ترك النبي صلى الله عليه و سلم الناس ولم يبين لهم حكم الأطفال لم يعرفوا المؤمنين منهم من الكافرين ؛لأنهم لا يدرون ما جبل كل واحد منهم عليه حين أخرج من ظهر آدم فبين النبي صلى الله عليه و سلم حكم الطفل في الدنيا فقال : " أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه " يقول : "أنتم لا تعلمون ما طبع عليه في الفطرة الأولى ولكن حكم الطفل في الدنيا حكم أبويه فاعرفوا ذلك بالأبوين فمن كان صغيرا بين أبوين كافرين ألحق بحكم الكفار ومن كان صغيرا بين أبوين مسلمين ألحق بحكم الإسلام وأما إيمان ذلك وكفره مما يصير إليه فعلم ذلك إلى الله"[1]

5- **حديث أبي بن كعب** في قصة الغلام الذي قتله الخضر ، قال -صلى الله عليه وسلم- : "الغلام الذي قتله الخضر ، طبعه الله يوم طبعه كافراً" قال إسحاق: وكان الظاهر ما قال موسى ﭽ   ﭼ[2] فأعلم الله الخضر ما كان الغلام عليه في الفطرة التي فطره عليها ؛ لأنه كان قد طبع يوم طبع كافراً ، قال إسحاق وعن ابن عباس أنه كان يقرأ : "وأما الغلام فكان كافراً ، وكان أبواه مؤمنين"[3]

أولاً : مناقشة شيخ الإسلام للقول نفسه بما يلي :

1- ناقش شيخ الإسلام هذا القول ببيان مرادهم بذلك فذكر احتمالين :

---

[1] انظر "درء التعارض" (8/415-416) ، و "التمهيد" (6/364).

[2] سورة الكهف ، الآية (74) .

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ح (4727) مختصراً، "وأما الغلام فكان كافراً" وذكره معلقاً كاملاً في كتاب التفسير – سورة الكهف باب قوله : "وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا

الأول: أرادوا به أن الله سبق علمه وقدره بأنهم سيؤمنون ويكفرون ويعرفون وينكرون وأن ذلك كان بمشيئة الله وقدرته وخلقه فهذا حق يرده القدرية فغلاتهم ينكرون العلم وجمهورهم ينكرون عموم خلقه ومشيئته وقدرته .

الثاني : أنهم أرادوا أن هذه المعرفة والنكرة كانت موجودة حين أخذ الميثاق كما في ظاهر المنقول عن إسحاق،وهذا يتضمن أنهم حينئذ كانت المعرفة والإيمان موجودا فيهم، وهذا توكيد لكونهم ولدوا على المعرفة والإقرار، وهو لا يخالف ما دلت عليه الأحاديث من أنه يولد على الملة وأن الله خلق خلقه حنفاء بل هو مؤيد لذلك[1] .

2- أن قولهم : "إنهم في ذلك الإقرار انقسموا إلى : طائع وكاره فهذا لم ينقل عن أحد من السلف فيما أعلم إلا عن السدي" ومثل هذا لا يوثق به، فإن هذا في مثل تفسير السدي وفيه أشياء قد عُرف بطلان بعضها؛ إذ كان السدي - وإن كان ثقة في نفسه - فهذه الأشياء أحسن أحوالها أن تكون كالمراسيل، إن كانت أخذت عن النبي - صلى الله عليه و سلم- فكيف إذا كان فيها ما هو مأخوذ عن أهل الكتاب الذين يكذبون كثيرا ؟ وقد عرف أن فيها شيئا كثيرا مما يعلم أنه باطل، لا سيما ولو لم يكن في هذا إلا معارضة لسائر الآثار التي تسوي بين جميع الناس في ذلك الإقرار" [2]

ثم إن هذا الأثر إن كان حقاً ففيه أن كل ولد آدم يعرف الله . قال السدي في قول الله تعالى : ﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ[3] "قالوا : لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبطه من السماء مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر فقال لهم : ادخلوا

---

[1] (?) انظر "درء التعارض" (8/421-422).
[2] (?) "المصدر السابق" (8/423-424)
[3] (?) سورة الأعراف ، الآية (172)

الجنة برحمتي ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال : ادخلوا النار ولا أبالي فذلك قوله : وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال : ﭽﭾﭿﮀﮁﭼ[1] فأطاعه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية فقال هو والملائكة : ﭽ ﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﭼ[2] فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف الله أنه ربه وذلك قوله عز و جل : ﭽ ﭼ[3] وذلك قوله : ﭽﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﭼ[4] يعني يوم أخذ الميثاق..." [5]

ففي الأثر "أن كل ولد آدم يعرف الله فإذا كانوا ولدوا على هذه الفطرة فقد ولدوا على المعرفة، ولكن فيه أن بعضهم أقر كارها مع المعرفة بمنزلة الذي يعرف الحق لغيره ولا يقر به إلا مكرها وهذا لا يقدح في كون المعرفة فطرية"[6]

3- أن الأئمة الذين قالوا بهذا القول مقصودهم بذلك الردّ على القدرية الذين احتجوا بحديث الفطرة على نفي القدر ، وهذا مقصودهم ولكن سلكوا في حصوله طرقاً بعضها صحيح وبعضها ضعيف ، وهذا كحديث احتجاج آدم على موسى بالقدر[7] . فإنه لما توهم من توهم أن ظاهره أن المذنب يحتج بالقدر على من لامه على الذنب اضطربوا في ذلك ، فكذّب بالحديث طائفة من القدرية، وتأوله طائفة من أهل السنة تأويلات ضعيفة قصداً لتصحيح الحديث ، ومقصودهم صحيح ، لكن طريقتهم في ردّ

(?)[1] سورة الأعراف ، الآية (172)
(?)[2] سورة الأعراف ، الآية (172)
(?)[3] سورة آل عمران ، الآية (83)
(?)[4] سورة الأنعام ، الآية (149)
(?)[5] أخرجه ابن جرير في تفسيره (9/145-146) ، وابن عبد البر في "التمهيد" (6/363-364)
(?)[6] "درء التعارض" (8/423)
(?)[7] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6744)

قول القدرية وتفسير الحديث ضعيفة . كقول بعضهم : إنما حجّه لكونه أباه ، وقـول الآخـر : لكـون الـذنب كان في شريعة والملام في أخـرى ، وآدم إنمـا احتج بالقدر على المصيبة التي لحقتـه ، وهي خروجـه من الجنـة لم يحتج بالقـدر على الـذنب ، وموسـى إنمـا لامه لأجل المصيبة[1] والمقصود : "أنهم تشـعَّبوا في حديث الفطرة كتشعبهم في حديث الحجّـة ، وأصـل مقصودهم من الإيمـان بالقـدر صـحيح ، لكن لا يجب مع ذلك أن يُفسر القرآن والحديث إلاَّ بمـا هـو مـراد الله ورسوله ، ويجب أن يُتبـع في ذلـك مـا دلَّ عليـه الدليل"[2] .

4- ممـا يـبين ضـعف هـذا القـول أن الفطـرة : الكفـر والإيمـان ، وأن الإقـرار كـان من هـؤلاء طوعـاً ومن هؤلاء كرها ، مما يضـعف هـذا القـول : قـول طائفـة أخـرى بـأن جميـع أولئـك كـان إقـرارهم جميعـاً لـه بالربوبية من غير تفصيل بطوع وكره[3] .

ثانياً: مناقشة شيخ الإسلام للأدلة التي اسـتدلوا بها :

1- **الجـواب عن احتجاجهم بقوله تعالى:** ﭽ ﭽ.[4]

أن إسلامهم هنا المراد به : ما كـان موجـوداً بعد خلقهم ، وليس حين العهد الأول أسـلموا طوعا وكرهـا ، لم يـذكر ذلك في الآية.

يـــدل على ذلك أن ذلك الإقـــرار الأول جعله الله حجة عليهم من عند من يثبتـه، ولو كـان فيهم كـاره لقـال : لم أقل ذلك طوعا بل كرها فلا تقوم عليه به حجة[5]

---

[1] انظر "درء التعارض" (8/417-420)

[2] "المصدر السابق" (8/421)

[3] انظر "المصدر السابق" (8/437)

[4] سورة آل عمران ، الآية (83)

[5] انظر "درء التعارض" (8/424).

-2 **الجواب عن احتجاجهم بقوله تعالى :** ﭽﯕﯖﯗﯘ ﯙﯚﯛﯜﯝ ﯞﭼ[1] وقول إسحاق : لا تبديل للخلقة التي جُبل عليها ولا آدم كلهم من كفر وإيمان

1) أن السلف فسروا قوله تعالى(ﯙﯚﯛﯜﯝ) "بأنـه : دين اللـه أو تبـديل خلق الحيـوان بالخصـاء ونحـــوه ولم يقل أحد منهم إن المـــراد : لا تبـــديل لأحـوال العبـاد من إيمـان إلى كفر ولا من كفر إلى إيمان ،إذ تبديل ذلك موجود ومهما وقع كان هو الذي سبق به القدر، والله تعالى عـالم بما سـيكون لا يقع خلاف معلومـه، لكن إذا وقع التبـديل كـان هو الـذي علمه، وإن لم يقع كان عالما بأنه لا يقع" [2] .

2) أن قوله تعالى : (ﯙﯚﯛﯜﯝ) المراد به : ما خلقهم عليه من الفطـرة لا تبـدل فلا يخلقـون على غـير الفطـرة لا يقع هـذا قط ،والمعـنى أن الخلق لا يتبدل فيخلقون على غير الفطرة ،ولم يرد بـذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلـق، بل نفس الحـديث يـبين أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعـاء ثم تجـدع، فالله أقـدر الخلق على أن يغـيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته ، كما قال تعالى عن الشيطان : ﭽ ۈۇۆﭼ[3][4]

3) قال أبو إسحاق : "لا تبديل للخلقه التي جبل عليهـا ولد آدم كلهم من كفر وإيمـان" فـإن عـنى بها أن ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه فهـذا حق ولكن ذلك لا يقتضي أن تبـديل الكفر بالإيمـان، والإيمـان بـالكفر ممتنـع، بل العبد قـادر ذلـك بإقـدار الله له كما قال تعالى : ﭽﮱ ﯓﯔﯕﯖﯗﯘ ﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭼ[5] وهـذا التبـديل هـو واقع بقضـاء الله وقـدره، وهـذا

---

[1] سورة الروم ، الآية (30)
[2] "درء التعارض" (8/426-427)
[3] سورة النساء ، الآية (119).
[4] انظر "درء التعارض" (8/425)
[5] سورة النمل ، الآية (10-11).

بخلاف ما فطـروا عليه حين الـولادة، فـإن ذاك خلق الله الـذي لا يقـدر على تبديله غـيره ، وهـو سـبحانه لايبدله قط كما قال تعالى : ﭽ ﭼ[1][2]

4) أن الله -سبحانه وتعالى- قال : ﭽﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﭼ[3] فأمر الله -تعالى –نبيّه بالفطرة ، فهي فطـرة محمودة ، فكيف يكون فيها كفر وإيمان مع أمر اللـه تعالى بها ؟ والله تعالى لا يأمر بالكفر قط[4] .

3- **الجواب عن احتجاج إسحاق بقوله تعـالى** : ﭽ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭼ[5] وما نقله من الإجماع في ذلك :

1- أنا ما حاكاه إسحاق من الإجماع يتضمن أن المعرفة والإيمـان كـانت موجـودة فيهم حين أخـذ الميثـاق ، وهذا توكيد لكونهم ولدوا على تلك المعرفة والإقـرار ، وهو لا يخالف ما دلت عليه الأحاديث من أنـه يولـد على الملّة ، وأن الله خلق خلقه حنفاء ، بل هو مؤيد لذلك[6] .

2- أن الآيــة في تفســيرها نــزاع ، وكــذلك في وجــود الأرواح قبـل الأجسـاد[7] فمـا ذكـر من الإجمـاع ليس بصحيح

4- **الجـواب عن احتجـاجهم بقولـه -صـلى اللـه عليه وسلم-** : "الغلام الذي قتله الخضر طبعه الله يوم طبعه كافراً" واحتجاج إسحاق بذلك .

1- أن قوله –صلى الله عليه وسـلم- : "طُبـع يـوم طُبـع كافر" المراد به : كُتب وخُتم ، وهذا من طبع الكتاب ، وإذا كان الله قد كتبه كافراً فهـذا لا يعـني أنـه حين

---

[1] سورة الروم ، الآية (30)
[2] انظر "درء التعارض"(8/425-426)
[3] سورة الروم ، الآية (30)
[4] انظر "درء التعارض" (8/426)
[5] سورة الأعراف ، الآية (172).
[6] انظر "درء التعارض" (8/421-422)
[7] انظر "المصدر السابق" (8/422)

الولادة يكون كذلك ، بل هو يولد على فطرة الإسلام ثم يكفر ، وذلك الكفر هو التغيير الذي يطرأ عليه .

ولفظ "الطبع" لما كان يستعمله كثير من الناس في الطبيعة التي هي بمعنى الجبلة والخليقة ظن الظان أن هذا مراد الحديث [1].

ب - أن الغلام الذي قتله الخضر إما :

- أن يكون كافراً بالغاً، كفر بعد البلوغ فيجوز قتله ، لأجل كفره الواقع بعد البلوغ ، وهذا واضح لا إشكال فيه ؛ لأنه مرتد وأبواه مؤمنان .
- وإما أن يكون كافراً قبل البلوغ وجاز قتله في تلك الشريعة ؛ لأنه يكون مكلفاً عندهم قبل الاحتلام لتمييزه ، وقتل لئلا يفتن أبويه عن دينهما كما يُقتل الصبي الكافر في ديننا إذا لم يندفع ضرره عن المسلمين إلاَّ بالقتل ، بل الصبي الذي يقاتل المسلمين يُقتل ، فقتل الصبي المميِّز يجوز لدفع صياله الذي لا يندفع إلاَّ بالقتل ، وهذا لا إشكال فيه أيضاً.
- وأما قتل صبي لم يكفر بعد بين أبوين مؤمنين للعلم بأنه إذا بلغ كفر وفتن :

فقد يقال : إنه ليس في القرآن والسنة ما يدل عليه ، والله -تعالى- لم يأمر أن يعاقب أحد بما يعلم أن يكون منه قبل أن يكون منه، ولا هو سبحانه يعاقب العباد بما يعلم أنهم سيعملونه حتى يفعلوه .

وعلى هذا فيكون قتل الخضر للغلام خاصاً به[2].

وقد يقال : بل في السنة ما يدل عليه ، ومنه قول ابن عباس لنجدة الحروي لما سأله عن قتل الغلمان : "إن علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتله وإلا فلا"[3] .

---

[1] (?) انظر "درء التعارض" (8/427 ، 389)

[2] (?) انظر "التمهيد" (6/366) وهذه النتيجة لم يصرح بها شيخ الإسلام .

[3] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (4685) (4686) (4688)

وقصة الخضر ليس فيها شيء من الاطلاع على الغيب الذي لا يعلمه عموم الناس ، وإنما فيها علمه بأسباب لم يكن علم بها موسى ، مثل علمه بأن السفينة لمساكين ووراءهم ملك ظالم ، وهذا أمر يعلمه غيره . وكذلك كون الجدار كان لغلامين يتيمين وأن أباهم كان رجلاً صالحاً، هذا مما قد يعلمه كثير من الناس ، فكذلك كفر الصبي مما يمكن أنه كان يعلمه كثير من الناس حتى أبواه ، لكن لحبهما له لا يُنكران عليه ، أو لا يقبل منهما الإنكار عليه[1] .

فإن كان الأمر على ذلك فليس في الآية حجة أصلاً.

- وإن كان ذلك الغلام لم يكفر بعد أصلاً، ولكن سبق في العلم أنه إذا بلغ كفر فهذا يبين أنه قتل قبل أن يصير كافراً، ومن قال هذا يقول : إنه قتل دفعاً لشره . كما قال نوح : ﴿ى ى یی﴾[2] فقد دعا نوح –عليه السلام – بهلاكهم لدفع شرهم في المستقبل ، وعلى هذا فلم يكن قبل قيام الكفر به كافراً، وإنما كان على الفطرة التي ولد عليها وسيطرأ عليه الكفر.

وقراءة ابن عباس : "وأمّا الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين" ظاهرها أنه كان حينئذ كافراً [3] بمعنى أن الكفر طرأ عليه فقتل على الكفر ، لا أنه فطر على الكفر وولد عليه.

5- **الجواب عن استدلالهم بقول النبي – صلى الله عليه وسلم-** : "فأبواه يهودانه أو

---

[1] وشيخ الإسلام قد بيّن أن قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة ، بل الأمور التي فعلها تباح في الشريعة إذا علم العبد أسبابها كما علم الخضر ، ولتوضيح ذلك انظر "مجموع الفتاوى" (2/234-235)

[2] سورة نوح ، الآية (26-27).

[3] انظر "درء التعارض" (8/427-430) ، و "شفاء العليل" (2/802 ، 807-809)

ينصرانه أو يمجسانه " أنه أراد بـه مجّـرد الإلحـاق في أحكام الدنيا دون أن يكون أراد أنهمـا يغـيران الفطرة :-

1) أن هـذا خلاف مـا يـدل عليـه حـديث الفطـرة ، فإنه –صلى الله عليـه وسـلم- شـبّه تكفـير الأطفـال بجدع البهائم تشبيهاً للتغير بالتغيير[1]

2) أنـه ذكـر هـذا الحـديث "كـل مولـود يولـد على الفطــرة" لمــا قتلــوا أولاد المشــركين ونهــاهم عن قتلهم وقال : "أليس خيـاركم أولاد المشـركين؟ كـل مولود يولد على الفطرة " فلـو أراد أنـه تـابع لأبويـه في الدنيا لكان هـذا حجـة لهم ، يقولـون : هم كفـار كآبائهم فنقتلهم [2] .

3) أن قوله –صلى الله عليه وسلم- : "كل مولود يولد على الفطرة" إنما أراد به الإخبار بالحقيقة التي خلق عليهـا ، وعليهـا الثـواب والعقـاب في الآخـرة ، ولهـذا لمـا قـال ذلـك سـأله الصـحابة ، فقـالوا : يـا رســـول اللـــه : أرأيت من يمـــوت من أطفـــال المشركين؟ فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين" فإن من بلغ منهم فهـو مسـلم أو كـافر، بخلاف من مـات قبل البلوغ . قد علم بالاضـطرار من شـرع الرسـول أن أولاد الكفــار يكونــون تبعــاً لآبــائهم في أحكــام الدنيا ، وأن أولادهم لا ينـتزعون منهم إذا كـان للآبـاء ذمــة ، وإن كــانوا محــاربين اســتُرِقَّت أولادهم ولم يكونوا كأولاد المسلمين ، ولا نزاع بين المسلمين أن أولاد الكفـار الأحيـاء مـع آبـائهم ، لكن تنـازعوا في الطفل إذا مات أبواه أو أحدهما هـل يحكم بإسـلامه أولا[3] .

4) أن قولـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم- : "فـأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" المراد به : أن الأبــوين

---

[1] (?) انظر "درء التعارض" (8/430)

[2] (?) انظر "المصدر السابق" (8/430)

[3] (?) انظر "المصدر السابق" (8/433 ، 435)

يُلقِّنانه الكفـر ويعلِّمانـه إيّـاه ، لا أن الأبـوين يجعلانـه كـافراً في نفس الأمـر بـدون تعليم وتلقين ، ولهـذا فإن جمهور الفقهاء على أن الصبي إذا سُبي منفرداً عن أبويـه فهـو مسـلم ، واحتجـوا على ذلـك بهـذا الحديث ، ووجه الحجة : أنه إذا ولد على الملة فإنمـا ينقله عنها الأبوان اللذان يغيرانه عن الفطرة ، فمتى سـباه المسـلمون منفـرداً عنهما لم يكن هنـاك من يغـير دينه وهو مولـود على الملة الحنيفية فيصـير مسلما بالمقتضى السالم عن المعارض . ومما يـبين ذلك :

قوله في الحديث الآخر : " كل مولود يولد على الفطرة حتى يعـرب عنه لسـانه فإما شـاكرا وإما كفـورا " فجعله على الفطـرة إلى أن يعقل ويمـيز فحينئذ يثبت له أحد الأمـرين ولو كـان كـافرا في البـاطن بكفر الأبـوين لكـان ذلك من حين يولد قبل أن يعـرب عنه لسـانه ، وكـذلك قوله في الحـديث الآخر الصـحيح عن النـبي - صـلى الله عليه و سـلم- فيما يرويه عن ربه : " إني خلقت عبـادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين " صريح في أنهم خلقـوا على الحنيفية ،وأن الشياطين اجتالتهم ، فلو كان الطفل يصير كـافرا في نفس الأمر من حين يولد لكونه يتبع أبويه في الـدين قبل أن يعلمه أحد الكفر ويلقنه إيـاه، لم يكن الشـياطين هم الـذين غـيروهم عن الحنيفية وأمـروهم بالشـرك، بل كـانوا مشـركين من حين ولـدوا تبعا لآبائهم[1] .

ه) أن منشأ الاشتباه في هذه المسألة: اشتباه أحكام الكفر في الـدنيا بأحكـام الكفر في الآخـرة، فـإن أولاد الكفـار لما كـانوا يجـري عليهم أحكـام الكفر في أمـور الـدنيا، مثل ثبـوت الولاية عليهم لآبـائهم، وحضـانة آبـائهم لهم ،وتمكين آبـائهم من تعليمهم وتـأديبهم، والموارثة بينهم وبين آبائهم ،واسترقاقهم إذا كـان آبـائهم محـاربين،

---

[1](?) انظر "درء التعارض" (8/430-432)

وغــير ذلك - صــار يظن من يظن أنهم كفــار في نفس الأمر، كالذي تكلم بالكفر وعمل به . فإذا عُرف أن كونهم ولـدوا على الفطـرة لا ينـافي أن يكونـوا تبعا لآبـائهم في أحكـام الـدنيا زالت الشـبهة[1]. ولهـذا فإنه "قد يكـون في بلاد الكفر من هو مــؤمن في البــاطن يكتم إيمانه من لا يعلم المسلمون حاله إذا قاتلوا الكفار فيقتلونه ولا يغسل ولا يصلى عليه ويدفن مع المشركين وهو في الآخــرة من المؤمـنين أهل الجنة كما أن المنـافقين تجـري عليهم في الــدنيا أحكــام المســلمين وهم في الآخــرة في الــدرك الأســفل من النــار فحكم الــدار الآخــرة غــير حكم الــدار الدنيا" [2] .

القول الخامس :

أن معنى الفطرة المذكورة في الحـديث : "مـا أخـذ اللـه من ذرية آدم من الميثاق قبل أن يخرجـوا إلى الـدنيا يـوم استخرج ذرية آدم من ظهره فخـاطبهم : ﭽ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﭼ[3] فـــــــــأقروا جميعا له بالربوبية عن معرفة منهم به ،ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبــوعين على تلك المعرفة وذلك الإقـــرار، قـــالوا : وليست تلك المعرفة بإيمان ولا ذلك الإقـرار بإيمـان، ولكنه إقـرار من الطبيعة للـــرب فطـــرة ألزمها قلـــوبهم ،ثم أرسل إليهم الرسل يدعوهم إلى الاعتراف له بالربوبية والخضوع، تصـديقا بما جـــــاءت به الرسل ، فمنهم من أنكر وجحد بعد المعرفة وهو به عـارف؛ لأنه لم يكن الله يـدعو خلقه إلى الإيمـان به وهو لم يعرفهم نفسه؛ إذ كـان حينئذ يكـون قد كلفهم الإيمان بما لا يعرفون"[4] .

وقد أجاب شيخ الإسلام عن ذلك بما يلي:

1- أن هذا "القول يحقق القول الأول في أن كل مولـود يولد على الفطرة ، التي هي المعرفة بالله والإقـرار

---

[1] انظر "المصدر السابق" (8/432-433)

[2] "درء التعارض" (8/433)

[3] سورة الأعراف ، الآية (173)

[4] "التمهيد" (6/366) ، وانظر "درء التعارض" (8/437-438)

به وفيه زيـــادة : أن ذلك كـــان قد حصل لهم قبل الولادة حين استخرجوا من صلب آدم"[1]

2- أن قولهم "أن هذا الإقرار ليس هـو بإيمـان يسـتحق عليـه الثـواب " لايضـر ، فـإنهم قـد بينـوا فيـه أن المعرفة بالله ضـرورية وأنه بـذلك صح أن يـأمرهم فإن المأمور إن لم يعـرف الآمر امتنع أن يعـرف أنه أمـره ،ولو لم تكن المعرفة ثابتة في الفطـرة لكـان الرسول إذا قال لقومه : أدعوكم إلى الله لقالوا : لا نعرف الله ، عرّفنا به . ولم يقع ذلك منهم كمـا قـال تعالى : ﭽﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠ ﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﭼ[2] فأخبر الله تعالى أن أولئك المكذبين لما قالوا: (ﮣﮤﮥﮦﮧ ﮨﮩﮪﮫﮬﮭ) وهذا استفهام إنكاري معنى النفي والإنكـار على من يقرّ بهذا النفي، والمعنى : مـا في اللـه شـك ، وأنتم تعلمـون أنـه ليس في اللــه شــك ، ولكن تجحــدون انتفاء الشك جحـوداً تسـتحقون أن ينكـر عليكم هـذا الجحد ، فدلَّ ذلك على أنه ليس في اللـه شـك عنـد الخلق المخاطبين ، وهذا يـبيّن أنهم مفطـورون على الإقرار ، وأما إنكار فرعون للرب -تعالى- فهو إظهار منه لخلاف مـا في نفسـه من الإقـرار والاعتـــراف بالخالق كما قال تعالى : ﭽﭑﭒﭓﭔﭼ[3][4].

وقد نقل شيخ الإسلام أدلـة أصـحاب هـذا القـول عن ابن عبد البر[5] ولم يناقشـها والسـبب في ذلـك : هـو أن هـذا القول يحقق القول الذي رجحه .

وقد بيّن شيخ الإسلام العلاقة بين هـذه الأقـوال مـع الاحتمـالات المـرادة لأصـحابها ، وهـل هي

---

[1] "درء التعارض" (8/440)
[2] سورة إبراهيم ، الآية (9-10)
[3] سورة النمل ، الآية (14)
[4] انظر "درء التعارض" (8/440-441)
[5] انظر "التمهيد" (6/366-367) ، و "درء التعارض" (8/438-440)

متفقة فيما بينها أم ينافي بعضها بعضاً . فــذكر ما يلي:

1) **أن قول من يقول :**

- ولدوا على فطرة الإسلام . "وهو القول الأول".
- أو على الإقــرار بالصــانع وإن لم يكن ذلــك وحــده إيماناً.
- أو على المعرفــة الأولى يــوم أخــذ الميثــاق عليهم . "وهو القول الخامس".

هذه الثلاثة لا منافاة بينها ، بل يحصل بها المقصود.

2) **أن قول من يقول :**

- ولدوا على ما سبق به القدر . "وهو القول الثالث".
- أو على ما سبق به القدر وكانوا مفطورين عليــه من حين الميثاق الأول منهم مقــر طوعــاً وكرهــا. "وهــو القول الرابع".

هذان القولان من جنس واحد .

3) **أن قول من يقول :**

- ولدوا قادرين على المعرفة . "وهو الاحتمــال الثــاني من القول الثاني".
- أو ولدوا قــابلين للمعرفــة وللتهــود والتنصــر إمــا مــع التساوي وإما مــع رجحــان القبــول للإســلام . "وهــو الاحتمال الأول من القول الثاني" .

هذان القولان من جنس واحد. [1]

---

[1] (?) انظر "درء التعارض" (8/453-454).

المطلب الثاني : تقرير دلالة الفطرة على الربوبية .

معرفة الــرب –تعــالى- والإقــرار بربوبيته مغــروز في الفطرة، وهو أمرٌ ضروري بديهي، أولي.

وجعلت "الفطــــرة" دليلاً وبرهانــــاً مع أنها ضــــرورية، والضــروري قســيم النظــري الاســتدلالي؛ لأن الــدليل والبرهان يُعنى به: كل قاطع محتج به، والضروري وإن لم يبرهن عليه، فإنه يبرهن به[1].

وقُــدم دليل الفطــرة على غــيره؛ لأنه دليل ضــروري ، لا يمكن أحداً إنكاره.

وقد قــرَّر شــيخ الإســلام دلالة الفطــرة على الربوبية من أوجه عديدة هي ما يلي:

1- أن الرسل – عليهم الصلاة والسـلام – لم يـدعوا أقوامهم إلى توحيد الربوبية.

وإنما دعــوا أقــوامهم إلى توحيد الألوهيــة؛ وذلك لأن توحيد الربوبية قد دلتهم إليه فطــرهم، فهم يقــرون به، لدلالة الفطرة عليه.

والفطــرة كــذلك تقتضي إقــرارهم بالألوهيــة، ولكن تغــــيرت فطــــرهم عن ذلك فــــدعاهم الرسل إلى الرجوع إلى الحق في ذلك.

كما أن هنـاك أفـراداً انحـرفت فطـرهم في الربوبية كفرعون فدعاه موسى إلى تــذكر ما في فطرته من العلم الــذي به يعــرف ربه ، وهو قد أظهر خلاف ما في نفسه. قال شيخ الإســلام – رحمه الله - : "ليس في الرسل من قــــــــــال أول ما دعا قومه : إنكم مأمورون بطلب معرفة الخـالق، فـانظروا واسـتدلوا حـتى تعرفـوه، فلم يكلفـوا أولاً بنفس المعرفـة، ولا بالأدلة الموصــلة إلى المعرفــة؛ إذ كــانت قلــوبهم تعرفه وتقربه ، وكل مولـود يولد على الفطـرة، لكن

---

[1] انظر "دلائل التوحيد" للقاسمي ص (22).

عـرض للفطـرة ما غيرهـا، والإنسـان إذا ذكر ذكر ما في فطرته" [1] .

وذكر شيخ الإسلام عدة أدلة تـدل على هـذا الوجه هي ما يلي:

الأول: قول الله تعالى: ﭽﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣ ﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﭼ [2]

قال شيخ الإسلام : "فأخبره- تعالى- أن أولئك المكـذبين لما قالوا: "ﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰ" وهذا استفهام إنكار بمعـــنى النفي والإنكـــار على من لم يقـــرّ بهـــذا النفي ، والمعنى: مـا في اللـه شـك، وأنتم تعلمـون أنـه ليس في الله شك ، ولكن تجحدون انتفاء الشك جحـوداً تسـتحقون أن يُنكر عليكم هذا الجحد، فـدَّل ذلـك على أنـه ليس في اللـــه شـــك عنـــد الخلـــق المخـــاطبين، وهـــذا يـــبين أنهم مفطـــورون على الإقـــرار" [3] . وقـــال : "وكـــذلك قـــول الرسل" " ﮬﮭﮮ " هو نفي، أي ليس في الله شـك، وهـو استفهام تقرير[4] يتضمن تقرير الأمم على مـا هم مقـرون به من أنه ليس في الله شك، فهذا استفهام تقرير"[5].

وقـــال أيضـــاً: "ولهـــذا قـــالت الأنبيـــاء – عليهم الســـلام – لأممهم : " ﮬﮭﮮﮯﮰﮱ" وهذا استفهام إنكار يتضمن النفي، ويبين أنه ليس في الله شك .

وقول القائل : ليس في هذا شك يراد به: أنه قـد بلـغ في الظهـور والوضـوح ولـزوم معرفتـه إلى حيث لا ينبغي أن يشك فيه، وإلى حيث لا يٌشك فيه " [6] .

الثاني:

---

[1] "مجموع الفتاوى" (16/338).

[2] سورة إبراهيم ، الآية (9-10).

[3] "درء التعارض" (8/441).

[4] قول شيخ الإسلام استفهام تقرير ليس على المعـنى المشـهور في اصطلاح النحاة ، ومما يدلّ على ذلك أن شـيخ الإسـلام ذكـر في النقل الآتي أنه استفهام إنكار .

[5] "مجموع الفتاوى (16/339).

[6] " درء التعارض" (8/40).

قوله تعالى: ﭽ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﭼ[1] .

وقوله تعالى: ﭽ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﭼ[2] .

وصف الله – تعالى- الرسل بأنهم يذكرون، ووصف الآيات بأنها تـذكرة، فالرسـل والآيـات إنمـا تـذكر النـاس بـالعلم والإقرار الذي فطروا عليه.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله- : "وكل مولـود يولـد على الفطرة، لكن عرض للفطرة ما غيرها، والإنسـان إذا ذكـر ذكر ما في فطرته، ولهذا قال الله في خطابه لموسـى: " ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ " ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه، ويعرف إنعامه عليه، وإحسانه إليه، وافتقاره إليه ، فـذلك يدعوه إلى الإيمان ، أو " ﮮ " ما ينـذره بـه من العـذاب ، فذلك أيضاً يدعوه إلى الإيمان "[3].

وقال : "فـإن أكـثر النـاس غـافلون عمَّا فطـروا عليه من العلم ، فيُذكَّرون بالعلم الذي فطروا عليه، وأصل الإقـرار من هـذا البـاب، ولهـذا توصف الرسل بـأنهم يـذكِّرون ، ويصف اللـه- تعـالى- آياته بأنها تـذكرة وتبصـرة كما في قوله: " ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ "[4]"[5].

وقـال : "وأما الاعـتراف بالخـالق فإنه علم ضـروري لازم للإنســان، ولا يغفل عنه أحد بحيث لا يعرفــه، بل لابـدَّ أن يكون قد عرفه، وإن قُدِّر أنه نسيه، ولهذا يسمَّى التعريف بذلك تذكيراً ، فإنه تذكير بعلوم فطرية قد ينساها العبد... "[6].

الثالث:

---

[1] سورة طه ، الآية (44).

[2] سورة ق ، الآية (8).

[3] " مجموع الفتاوى " (16/338)

[4] سورة ق ، الآية (8).

[5] " جـامع الرسـائل" (1/16)ـ ، وانظر "درء التعـارض" (8/531) ، و "مجموع الفتاوى" (16/348)

[6] "درء التعارض" (8/489) ، وانظر (3/126-127).

قوله تعالى في أول ما أَنزل : ﭽﭻﭼﭽﭾﭿ[1] وقوله : ﭽﮀﮁﮂ ﭼ[2]

ذكـر "الـرب" في الموضـعين بالإضـافة الـتي تـوجب التعريـف، وأنـه معـروفٌ عنـد المخـاطبين ؛ إذ الـرب – تعالى- معروف عند العبـد بـدون الاسـتدلال لكونـه خلـق، وأن المخلوق مع أنه دليل وأنه يدل على الخالق، لكن هو معـروف في الفطـرة، قبـل هـذا الاسـتدلال ، ومعرفتـه فطرية ، مغروزة في الفطر، ضرورية ، بديهية ، أولية .

وقوله "اقرأ" وإن كـان خطابـاً للنـبي – صـلى اللـه عليـه وسـلم – أولاً فهـو خطـاب لكـل احد[3] سـواء قيـل: هـو خطاب للإنسان مطلقاً، والنبي – صلى الله عليه وسـلم – أول من سمع هذا الخطاب، او قيل: هـو خطـاب للنـبي – صلى الله عليه وسلم – خصوصاً، فإنـه وإن قيـل خطـاب له ، فإن ما خوطب به من أمر و نهي فالأمة مخاطبـة مـا لم يقم دليل التخصيص[4]

الرابع :

قول النبي – صلى اللـه عليـه وسـلم – "أمـرت أن أقاتـل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللـه وأني رسـول اللـه ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها"[5] .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – لمعـاذ "إنـك تـأتي أهـل كتاب فليكن ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللــه وأن محمداً رسول الله..." [6] .

فالتكليف لم يـرد بمعرفـة وجـود الـرب وربوبيتـه ، وإنمـا التكليف الذي جاءت به الرسل كان بأن يعبدوا الله وحـده

---

[1] (?) سورة العلق ، الآية (1).

[2] (?) سورة العلق ، الآية (3).

[3] (?) "مجموع الفتاوى" (16/324-325).

[4] (?) انظر "المصدر السابق" (16/325).

[5] (?) أخرجه البخـاري في صـحيحه (25)، (1399)، (6924)، (7284) ، ومسلم في صحيحه ح (124-129).

[6] (?) أخرجه البخاري في صحيحه ح (1458)، (7372)، ، ومسلم في صحيحه ح (121) (123).

ولا يشـركوا بـه شـيئاً ومن كـان من النـاس جاحـداً دعـاه الرسل إلى الاعتراف بالصـانع كفرعـون ونحـوه، مـع أنـه كان في الباطن مقراً بالخالق تعالى. [1]

الخامس:

أنه لم تكن المعرفة بالخـالق والإقـرار بـه ثابتـاً في فطـر الناس لكان الرسول إذا قـال لقومـه: أدعـوكم إلى اللـه، لقالوا مثل ما قال فرعون: وما ربّ العـالمين؟ إنكـاراً لـه وجحداً.

وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في البـاطن بالخـالق ، ولكن أظهر خلاف ما في نفسه ، كما قال تعالى: ڇ ٻ ٻ ٻ پ ڇ[2] وكمـــا قال له موسى: ڇ ۋ ۋ ې ې ٻ ڇ[3][4] .

2- حاجة الخلق إلى ربهم ، ورجوعهم إليه عند الشدائد.

شعور الخلق جميعاً مؤمنهم وكـافرهم بحـاجتهم إلى ربهم التي توجب رجوعهم إليه حال اضطرارهم تدل على أن فطـــرهم قد دلت، على ربوبية ربهم ، وأنه هو الذي بيده ملكوت كل شـيء، وهو وحـده القـادر على كل شـيء، وهو الـذي يـأتيهم بالمنـافع، ويـدفع عنهم المضـــار، والكـــافرون وإن غفلـــوا عن هـــذه الفطـرة في حـال السـراء ، فهم يرجعـون إليها في حال الضراء ، كما قال تعالى : ڇ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ڇ[5] .

وقال تعالى : ڇ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ڇ [6] .

وقال تعالى : ڇ ى ى ې ې

---

[1] انظر "جامع الرسائل " (1/14 ـ 151) ، و"درء التعارض" (3/ 129 – 130) .

[2] سورة النمل ، الآية (14).

[3] سورة الإسراء ، الآية (102).

[4] انظر "درء التعارض" (8/440-441).

[5] سورة يونس ، الآية (22-23).

[6] سورة الإسراء ، الآية (67).

چ [1] .

وقال تعالى: ﭽﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬﭼ [2] .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله - : "فالحاجة التي يقترن مع العلم بها ذوق الحاجة هي أعظم وقعاً في النفس من العلم الذي لا يقترن به ذوق، ولهذا كانت معرفة النفوس بما تحبه وتكرهه، وينفعها ويضرها، هو أرسخ فيها من معرفتها بما لا تحتاج إليه، ولا تكرهه ولا تحبه... ولهذا كان أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري، وذلك أن اضطرار النفوس إلى ذلك أعظم من اضطرارها إلى ما لا تتعلق به حاجتها. ألا ترى أن الناس يعرفون من أحوال من تتعلق به منافعهم ومضارهم، كولاة أمورهم ومماليكهم، وأصدقائهم وأعدائهم، ما لا يعلمونه من أحوال من لا يرجونه ولا يخافونه، ولا شيء أحوج إلى شيء من المخلوق إلى خالقه، فهم يحتاجون إليه من جهة ربوبيته، إذ كان هو الذي خلقهم، وهو الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار " ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ "[3] وكل ما يحصل من أحدٍ فإنما هو بخلقه وتقديره وتسبيبه وتيسيره ، وهذه الحاجة التي تُوجب رجوعهم إليه حال اضطرارهم ، كما يخاطبهم بذلك في كتابه، وهم يحتاجون إليه من جهة الوهيته ، فإنه لإصلاح لهم إلاّ بأن يكون هو معبودهم الذي يحبونه ويعظمونه... " [4][5]

---

[1] سورة النحل ، الآية (53-54).

[2] سورة العنبكوت ، الآية (65).

[3] سورة النحل ، الآية (53).

[4] "درء التعارض" (3/134-136) ، وانظر (3/129) (8/509).

[5] للتوسع حول موضوع "افتقار العبد إلى الله من جهة ربوبيته وإلهيته" انظر: "مجموع الفتاوى"(1/42،45) و "العبودية"ص (131-132) ، و"منهاج السنة" (3/331-333) (5/393-394) ، و "جامع المسائل" (4/285) ، و "شرح حديث النزول" ص (382-384) ، و "جامع الرسائل "(1/166) ، و "درء التعارض" (8/145) ، و "الجواب الصحيح" (6/31).

3- أن الإقرار بالخالق أدلته وبراهينه متعددة جداً[6].
ومن يُستدل عليه لا بدَّ أن يكون مشعوراً به معروفاً قبل حتى يطلب الدليل عليه، وهذا يبين أن الفطرة دلت على ربوبيته تعالى حتى أصبح أمراً ضرورياً .
قال شيخ الإسلام معلقاً على كلام أبي محمد بن عبد في كتابه "أصول السنة والتوحيد" "والآيات تدل على عينه (أي الله) لكن كون الآية دليلاً على عينة مشروطة بمعرفة عينة قبل، إذ لو لم تُعرف عينه لم يعرف أن هذه الآية مستلزمة لها.فعلم أنه في الفطرة معرفة بالخالق نفسه، بحيث يميِّز بينه وبين ما سواه، كما ذكره أبو محمد بن عبد[2] وغيره. ولهذا كل من تطلب معرفته بالدليل فلا بدَّ أن يكون مشعوراً به قبل حتى يطلب الدليل عليه أو على بعض أحواله. وأما ما لا تشعر به النفس بوجهٍ فلا يكون مطلوباً، وإذا كان مطلوباً لها فلا يمكن أن يُستدل عليه بشيء حتى يُعلم أنه يلزم من تحقق الدليل تحققه"[3] .
وقال – رحمه الله - : "والفرق بين الآية وبين القياس : أن الآية تدل على عين المطلوب الذي هي آية وعلامة عليه، فكل مخلوق فهو دليل وآية على الخالق نفسه، كما قد بسطناه في مواضع، ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات، فإنها قد فطرت على ذلك، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات: لم تعلم أن هذه الآية له، فإن كونها آية له ودلالة عليه مثل كون الاسم يدل على المسمّى ، فلا بدّ أن يكون قد تصور المسمّى قبل ذلك، وعرف أن هذا اسم له، فكذلك كون هذا دليلاً على هذا يقتضي تصور المدلول عليه وتصور أن ذلك الدليل

---

[6] انظر "درء التعارض" (3/71)ـ ، و "مجموع الفتاوى" (16/444، 451)

[2] هو أبو محمد بن عبد البصري المالكي، طريقته طريقة أبي الحسن بن سالم وأبي طالب المكي وأمثالهما من المنتسبين إلى السنة والمعرفة والتصوف، انظر "درء التعارض" (8/502).

[3] "درء التعارض" (8/532-533).

مستـــــتلزم لــــه، فلا بد في ذلك أن يعلم أن مســـــتلزم للمدلول، فلو لم يكن المدلول متصــوراً لم يعلم أنه دليل عليــه، فمعرفة الإضــافة متوقفة على تصــور المضــاف والمضاف إليه، لكن قد لا يكون الإنسان عالمــاً بالإضـافة ولا كونه دليلاً ، فإذا تصوره عرف المـدلول إذا عـرف أنه مستلزم له، والنـاس يعلمـون أن هـذه المخلوقـات آيـات ودلائل للخالق ، فلا بدّ أن يكونـوا يعرفونه ، حـتى يعلمـوا أن هذه دلائل مستلزمة له"[1] .

4- أنه إذا ذكر اسم الله – تعالى- تـوجهت القلـوب إليه – تعالى- أبلغ من توجهها إلى أي معيِّن غيره إذا كر.

وذلك لما في الفطرة من معرفته – تعـالى- والإقـرار بـه، وهذا مما يبين أن الفطرة تدل على ربوبية الله تعالى.

قال شـيخ الإسـلام – رحمه الله - : "إذا ذكر الله تـوجهت القلوب إليه – سبحانه- ؛ لما في الفطرة من معرفته أبلغ مما تُوَجَّهُ إلى معين غيره إذا ذكر، فإذا قيـل: الشـمس أو الهلال تـوجهت القلـوب إلى ما عرفته من ذلك ، وتوجهها إلى ما عرفته من الخالق أكمل ، وهـذا أمر مغـروز فيها ، قد فطرت عليه، وآياته دوالٌ وشواهد"[2] .

وقــال :"جمهــور العقلاء مطمئنــون إلى الإقــرار بالله – تعالى- ، وهم مفطورون على ذلك، ولهذا إذا ذكر لأحدهم اسمه تعالى وجد نفسه له مقبلة عليــه، كما إذا ذُكر له ما هو معــروف عنــده من المخلوقــات . والمتجاهل الــذي يقــول: إنه لا يعرفه هو عند النــاس أعظم تجــاهلاً ممن يقول: إنه لا يعرف ما تـواتر خـبره من الأنبيـاء والملـوك، والمــدائن والوقــائع، وذلك عنــدهم أعظم سفســطة من غيره من أنواع السفسطة ، ولهذا من تتبع مقالات الناس المخالفة للحسن والعقل، وجد المسفســطين فيها أعظم بكثــير من المسفســطين المنكــرين للصــانع، فعُلم أن معرفته في الفطـرة أثبت وأقـوى ... وأشـهر من عـرف

---

[1] "مجموع الفتاوى" (48/1-49).

[2] "درء التعــارض" (280/10-281)ـ ، وانظر "بيــان تلــبيس الجهمية" (571/4-572).

تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً في الباطن، كما قال له موسى: "ﭽ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﭼ"[1] وقال تعالى عنه وعن قومه : "ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭼ"[2] ولهذا قال : "ﭽ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼ"[3] على وجه الإنكار له، قال له موسى:" ﭽ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﭼ [4] ... بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشـهر من أن يسـأل عنه بما هو ، فإن هذا إنما هو سؤال عما يجهـل، وهو سـبحانه أعـرف وأظهر وأبين من أن يجهـل، بل معرفته مسـتقرة في الفطـــــرة أعظم من معرفة كل معـــــروف، وهو – سبحانه- له المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو في الســـــماء إله وفي الأرض، فأهل الســـــماوات والأرض يعرفونه ويعبدونـه، وإن كـان أكـثر أهل الأرض، كما قـال تعالى: ﭽ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭼ" [5] [6].

5- الاستدلال بقياس الأولى:

وتقرير ذلك على دلالة الفطرة على الربوبية من جهتين:

أ) أنه إذا كـان الخلق مفطـورين على عبـادة الله ومحبته فمن باب أولى أن يكونوا مفطورين على الإقرار بوجـوده وربوبيته .

قال شيـخ الإسلام – رحمه الله - : "ومعلوم أن السـؤال، والحب والـذل،والخـوف والرجـاء ، والتعظيم، والاعـتراف بالحاجة والافتقـــار ونحو ذلـــك، مشـــروط بالشـــعور بالمسئول، المحبوب ، المرجو المخوف، المعبود المعظّم ، الـذي تعـترف النفـوس بالحاجة إليه والافتقـار، الـذي تواضع كل شيء لعظمته ، واستسـلم كل شـيء لقدرتـه، وذلَّ كل شيء لعزته، فإذا كـانت هـذه الأمـور مما تحتـاج

---

[1] سورة الإسراء ، الآية (102).

[2] سورة النمل ، الآية (14).

[3] سورة الشعراء ، الآية (23).

[4] سورة الشعراء ، الآية (24-28).

[5] سورة يوسف ، الآية (106).

[6] "درء التعارض" (8/ 38- 40).

النفوس إليها، ولا بدّ لها منها، بل هي ضرورية فيهـا، كـان شرطها ولازمها، وهو الاعتراف بالصـانع والإقـرار به أولى أن يكون ضرورياً في النفوس، وقول النـبي – صـلى الله عليه وسـلم – في الحـديث الصـحيح : "كل مولـود يولد على الفطـــرة"[1] ، وقوله فيما يـــروي عن ربه : "خلقت عبـادي حنفـاء"[2] ونحو ذلك لا يتضـمن مجـرد الإقـرار بالصانع فقط، بل إقرار يتبعه عبودية لله بالحب والتعظيم وإخلاص الدين له ، وهذا هو الحنيفية "[3] .

ب- إذا كانت الفطـرة دالة على علو الله فمن بـاب أولى دلالتها على وجوده تعـالى وربوبيتـه. وهـذا دليل ملـزم إلاّ لمن غيّر المتكلمون فطرته بإنكار العلو .

قـال شـيخ الإسـلام عند ردّه على من أنكر هـذه الأولوية وزعم أن الإقـرار بالصـانع إنما يعلم بـالنظر : "هبَّ أن العلم بأنه فوق إذا كان فطرياً ضرورياً كـان العلم بوجـود نفسه أن يكـون فطريـاَ ضـرورياً أولى، فـأي محـذور في ذلك "[4] .

وقال : "ما ذكره أهل الإثبـات من إقـرار العبـاد بفطـرهم أن ربهم فـوقهم، إذا كـان مسـتلزماً لإقـرارهم بـربهم بفطـرهم، وأن الإقـرار به فطـري، فليس في لـزوم ذلك شيء من الاستبعاد، إذ على القول بذلك جمـاهير أصـناف العبـاد، وإنما يسـتبعد ذلك من غيَّر مبتدعـةُ المتكلمين فطرتـه، وسـلكوا به في مسـالكهم الحرجة الضـيقة، وأوهمـوا أنهم هم العـارفون بالحجة والـدليل دون الأولين والآخرين من كل صنف وجيل " [5] .

6- إقرار الخلق جميعهم بالخالق تعالى :

الخلق جميعهم من الإنس والجن مقرون بالخـالق- تعـالى – معترفون به ، وهذه المعرفة من لـوازم نشـأتهم ، وهي

---

[1] (?) سبق تخريجه ص (258) .

[2] (?) سبق تخريجه ص (261) .

[3] (?) "درء التعارض" (3/136-137) ، وانظر (8/450-451).

[4] (?) "بيان تلبيس الجهمية" (4/569).

[5] (?) "المصدر السابق" (4/583).

الفطـرة الـتي فطـرهم الله عليهـا، فـالفطرة دلتهم على هذه المعرفة.
قال شيخ الإسلام : "جميع الإنس والجن مقـرون بالخـالق معـــترفون به ، مقَـــرُّون بعبوديته طوعـــاً وكرها ، وذلك يقتضي أن هـــذه المعرفة من لـــوازم نشـــأتهم ، وأنه لم ينفك عنها أحد منهم، مع العلم بـــأن النظر المعيّن الـــذي يوجبه الجهمية والمعتزلة[1] لا يعرفه أكثرهم ، فعُلم بـــذلك ثبوت المعرفة والإقرار بـدون هـذا النظـر"[2] بل ثبت ذلك بالفطرة .
وقال : "والمقصود هنا : أنـه من المعـروف عنـد السـلف والخلف أن جميع الجن والإنس معترفون بالخالق مقرون به ، مع أن جمهور الخلق لا يعرفـون النظـر الـذي يـذكره هـؤلاء، فعلم أن أصـل الإقـرار بالصـانع والاعـتراف بـه مسـتقر في قلـوب جميـع الإنس والجن، وأنـه من لـوازم خلقهم، ضروري فيهم ، وإن قدّر أنـه حصـل بسـبب، كمـا أن اغتـذاءهم بالطعـام والشـراب هـو من لـوازم خلقهم، وذلـــك ضـــروري فيهم ، وهـــذا هـــو الإقـــرار والشـــهادة المذكورة في قوله: "ﭽﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰ ﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﭼ" [3][4] .

المطلب الأول : المراد بالآيات .

[1] وهو النظر في دليل الأعـــراض وحـــدوث الأجســـام لإثبـــات الصـــانع، انظر "مجمـــوع الفتـــاوى" (16/328-329)ـ ، و "درء التعارض" (8/348،358).

[2] "درء التعارض" (8/479-480).

[3] سورة الأعراف ، الآية (172-173).

[4] "درء التعارض" (8/482).

الآيات جمع آية و "الآية هي : العلامـة، وهي الـدليل الـذي يستلزم عين المدلول لا يكون مدلوله أمراً كلياً مشـتركاً بين المطلــوب وغــيره ، بل نفس العلم به يــوجب العلم بعين المدلول ، كما أن الشمس آية النهار، قال تعالى : ﭽ ﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒ ﭼ[1] فنفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار، وكذلك آيات نبوة محمـد –صـلى اللـه عليه وسلم- نفس العلم بها يوجب العلم بنبوتـه بعينـه ، لا يوجب أمـراً كليـاً مشـتركاً بينـه وبين غـيره وكـذلك آيـات الــرب -تعــالى- نفس العلم بهــا يــوجب العلم بنفســه المقدسـة -تعـالى- لا يـوجب علمـاً كليـاً بينـه وبين غـيره، والعلم بكون هذا مستلزماً لهذا هو جهـة الـدليل"[2] وآياتـه تعالى "هي دلالاتة وبراهينة التي بهـا يعـرف العبـاد خـبره وشهادته"[3] .

والمخلوقات جميعها هي نفسـها آيـات للخـالق –تعـالى- ، فإنها مستلزمة لذاتـه المعيَّنـة ، فمـا من مخلـوق إلاَّ وهـو نفسه آية على خالقه على وجه لا يشركه فيـه غـيره كمـا قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد [4][5] .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "كـون المخلوقـات آيـات للرب –تبارك وتعالى- ودلائل وشـواهد ومظـاهر بمعـنى : أنها تدلُّ وتعرِّف وتشهد بما شهد به القرآن ، واتفق عليـه أهل الإيمـان، وعُلِم ثبوتـه بالبرهـان، بـل آياتـه المخلوقـة

---

[1] سورة الإسراء، الآية (12).

[2] "الـرد على المنطقـيين" (1/158-159) ، وانظر "مجمـوع الفتـاوى" (1/48-49) (2/73-74) و "شـرح الأصـبهانية" ص (394) ، و "النبوات" (2/725-726) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (4/572).

[3] "مجموع الفتاوى" (14/188).

[4] انظر "ديوان أبي العتاهية" ص (120) .

[5] انظر "مجمــوع الفتــاوى" (1/48-49) ، و "الــرد على المنطقيين" (2/140) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (4/572، 584) ، و "شرح الأصبهانية " ص (394).

دلت على صدق آياته المتلوّه ، كما قال تعالى : ﭽ
ﭽ[1] حتى يتبين لهم أن القرآن حق، فالضمير عائد على ما تقدم وهو الذي قيـل فيـه: إن كـان من عنـد الله ثم كفرتهم به [2] ، ولهذا قال : ﭽ
ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﭼ أي : شهادته بما أنزله من القرآن كافية ، وهو مـع هـذا أظهـر للعيـان في الأنفس والآفـاق مـا بيَّن أن القـرآن حـق، فيتفـق السـماع والعيـان ، وبرهـان القـرآن والغيب ، وبرهـان الحـق والشـهادة ، ويتفـق علمـه وعلم الله الذي أنزله على الرسـول، وعالمـه الـذي تسـتدل بـه العقول ، ويتصادق العقل والشرع، والرأي والسمع "[3] .

وآيات الله -تعالى- المخلوقة دلت على إفراد اللـه وحـده بالخلق والملـك والتـدبير والـرزق وغـير ذلـك من صـفات الربوبية، وهذا ممـا شـهد بـه القـرآن ، واتفـق عليـه أهـل الإيمان، وبه يتبين للناس أن القرآن حق.

وشـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- بيَّن أن الآيـات الدالـة على الرب تعالى على قسمين :

القسم الأول :

الآيات القولية ، التي تكلم بها ، كالقرآن .

القسم الثاني :

الآيات الفعلية ، التي خلقها في الأنفس والآفاق[4] .

وأطلق على القسم الأول :

- الآيات المتلوه .
- الآيات المسموعة القرآنية .
- الآيات المتلوه المنزلة.
- الطريق السمعية .

وأطلق على القسم الثاني :

- الآيات المخلوقة .

---

[1] سورة فصلت، الآية (53).

[2] وهي الآية التي قال الله فيها : ﭽ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭽ فصلت الآية : (52).

[3] "الرد على الشاذلي" ص (188-189).

[4] انظر "درء التعارض" (8/534).

- العيانية العقلية .
- الآيات العيانية المشهودة .
- الطريق البصرية.
- الآيات العقلية الشرعية .[1]

شرعية : لأن القرآ ن دلَّ عليها ، وهدى الناس إليها ، وبيَّنها وأرشد إليها .

وعقلية : لأن الناس يعلمون ذلك بعقولهم، فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن ، ومولوداً ومخلوقاً من نطفة ثم من علقه هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول، بل يعلمه الناس كلهم بعقولهم، ويُستدل به العقل على أن القرآن حق[2] .

والمراد بالآيات هنا : القسم الثاني.

كالاستدلال بالسحاب، وإنزال المطر، وإنبات النبات ، وخلق الإنسان وغيره من الحيوان.

والقرآن مملوء من ذكر الآيات الدالة عليه وعلى وحدانيته –تعالى- كقوله تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ

ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭼ[3][4] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن الدليل الذي هو الآية والعلامة ينقسم إلى قسمين:

الأول: ما يدل بمجرده بحيث يمتنع وجوده غير دال.

---

[1] انظر "الرد على الشاذلي" ص (34-35) (188-189) ، وبيان "تلبيس الجهمية" (8/483-484) و "النبوات" (1/292-293) ، و "جامع المسائل" (1/147) ، و "مجموع الفتاوى" (14/173-174 ، 187).

[2] انظر "النبوات" (1/292-293).

[3] سورة البقرة، الآية (164).

[4] انظر "النبوات" (1/305) (2/523، 726) ، و "الرد على المنطقيين" (2/91) ، و "شرح الأصبهانية" ص (393) و "الصفدية" (2/99) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (8/483-484).

كدلالة حدوث الحادث على محدث، فهـذا يـدل بمجـرده ، وإن قدر أن أحداً لم يقصد الدلالة به.

قال شـيخ الإسـلام : "والـذي يـدل بنفسـه يُعلم أنـه يـدل بنفسه ، وإن لم يُعلم أن أحـداً جعلـه دليلاً ، وإن كـان في نفس الأمر كل مخلوق قـد جعلـه اللـه آيـة ودلالـة وهـو - سـبحانه- عليم مريـد ، فلا يمكن أن يقـال: لم يـرد بالمخلوقات أن تكون أدلة له ، ولا أنها ليست دليلاً يجعلها أدلة، كما قد يطلقه طائفة من النظار ،ولكن يسـتدل بهـا مع عدم النظر في كونها جعلت أدلة ، كما قد يطلقـه ، إذ كان فيها مقاصد كثيرة غير الدلالة والذي جعلها دليلاً وهـو الله جعل ذاتها يستدل بها مع قطـع النظـر عن كونهـا هي دليلاً ، فمـا من مخلـوق إلاّ ويمكن الاسـتدلال بـه على الخالق، والمحدَث نفسه يُعلم بصريح العقل أن له محـدِثاً "[1].

وهذه الآيات التي تدل بنفسها مجردة نوعان:

1- ما هو ملـزوم مـدلول عليـه بذاتـه، لا يمكن وجـود ذاته دون وجود لازمه المـدلول عليـه مثـل: دلالـة المخلوقات على الخالق.

2- ما هو مستلزم لـه مـدة طويلـة أو قصـيرة، فتـدل عليه تلـك المـدة ، مثـل نجـوم السـماوات ، فإنـه يستدل بها على الجهات ، والأمكنة.

الثاني: ما هو دليل بقصد الدال وجعله .

فهـذا لـولا القصـد وجعلـه دليلاً لم يكن دليلاً ، فمقصـوده مجرد الدلالة ، والقسم الأول بمجرده هو الدليل.

ومثال ذلك:

الكلام الذي يدل بقصد المتكلم، والإشارة بـالرأس والعين والحاجب واليد.

ومثل: الكتابة ، والأعلام التي نصبت على الطـرق وجعلت علامة على حدود الأرض.

---

[1] "النبوات" (2/737-738).

فهذه الدلائل دلت بالقصد والجعل، وقد كان يمكن أن لا تجعل دليلاً وهذا النوع قسمان:

1. ما يكون بالاتفاق والمواطأة بين اثنين فصاعداً .

كما يتفق الرجل مع وكيله على علامة لمن يرسله إليه، مثل : وضع خنصره في خنصره ، ومثل وضع يده على ترقوته.

2. أن يقصد الدال الدلالة من غير مواطأة مع المستدلين على أنه دليل، لكن هم يعلمون أنه قصد الدلالة ؛ لعلمهم بأحواله.

مثل : أن يرسل الرجل شيئاً من ملابسه المختص به مع شخص فيعلمون أنه أرسلها علامة على أنه أرسله[1] .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله-: "وهذه الأدلة التي تدل بنفسها قد تُسمى : الأدلة العقلية، ويسمى النوع الآخر: الأدلة الوضعية؛ لكونها إنما دلت بوضع واضع والتحقيق : إن كلاهما عقلي، إذا نظر فيه العقل علم مدلوله"[2] .

المطلب الأول : تقرير دلالة الآيات على الربوبية .

قرّر شيخ الإسلام –رحمه الله- دلالة الآيات، على الربوبية من عدة أوجه:

الأول: الحدوث.

الثاني: الافتقار.

الثالث: الاشتراك بين المخلوقات وعدم الاستقلال.

الرابع: الاختلاف بين المخلوقات.

---

[1] (?) انظر "النبوات" (1/539-540)، (2/737-739، 762-772)، (2/946-947).

[2] (?) "المصدر السابق" (2/738).

وإليك تفصيل ذلك:

1) الحدوث:

المراد بالحدوث هنا هو: الإيجاد من العـدم ، وليس التغـير الذي هو مراد المتكلمين .

وقد قـرّر شـيخ الإسـلام دلالة الحـدوث على الربوبية من خلال بيان مقدمتين:

الأولى: حدوث المحدثات .

وهذا مشاهد معلوم بالحس والعقل والضرورة.

فـإن نشـهد حـدوث السـحاب والمطر والـزرع والثمر ، والإنسان وغيره من الحيوان، وحدوث الليل والنهار وغـير ذلك.

الثانية: أن المحدَث لابدّ له من محدث.

وهذا معلوم بصريح العقل والفطرة الضرورية.

والمحدث للمحدثات هو الرب –سبحانه وتعالى-.

واستدل شيخ الإسلام على ذلك بقوله تعالى : ﭽﭬﭭﭮﭯﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ[1] قال شيخ الإسلام –رحمه الله- عنـد بيانـه أن الحقيقة المعتبرة في كل دليل هو اللزوم "وكمـا يعلم أن المحدّث لابدّ له من محدِث كما قال تعالى: ﭽﭬﭭﭮﭯﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ[2] وفي الصحيحين عن جبـير بن مطعم أنه لما قـدم في فداء الأسرى عام بـدر سـمع النـبي –صـلى الله عليه وسلم- يقرأ في المغرب بــ"الطـور" قـال : فلما سـمعت قوله: ﭽﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭼ أحسست بفؤادي قد انصدع "[3]

فإن هـذا تقسـيم حاصـر . يقـول: أخُلقـوا من غـير خـالق خلقهم؟ فهــذا ممتنــع في بدايــة العقــول أم هم خلقــوا أنفسهم؟ فهذا أشد امتناعـاً . فعلم أن لهم خالقـاً خلقهم.

وهو سبحانه ذكر الدليل بصيغة استفهام الإِنكـار ليـبيِّن أن هذه القضية التي استدل بها فطرية بديهية، مسـتقرة في النفوس، لا يمكن أحداً إنكارها، فلا يمكن صـحيح الفطـرة

---

[1] (?) سورة الطور، الآية (35).

[2] (?) سورة الطور، الآية (35).

[3] (?) أخرجه البخاري في صحيحه ح (4854)، ومسلم في صحيحه مختصراً بدون ذكر الآية وما بعدها ح (1035).

أن يدّعي وجود حادث بدون محدِث أحدثـه، ولا يمكنـه أن يقول هو أحدث نفسه " [1].

وقال -رحمه الله- : "فمن المعلـوم بالمشـاهدة والعقـل: وجود موجودات، ومن المعلوم أيضاً أن منها ما هو حـادث بعد أن لم يكن، كمـا نعلم نحن: أنـا حـادثون بعـد عـدمنا، وأن السحاب حـادث، والمطـر والنبـات حـادث، والـدواب حادثة، وأمثال ذلك من الآيات التي نبّه الله -تعالى- عليهـا بقولــه: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ [2] وهذه الحوادث المشهودة يمتنع أن تكـون واجبـة الوجـود بـذاتها، فـإن مـا وجب وجـوده بنفسه امتنع عدمه ووجب قدمه، وهذه كانت معدومــة ثم وجدت ، فدل وجودها بعد عدمها على أنــه يمكن وجودهـا ويمكن عدمها، فإن كليهما قد تحقق فيها، فعلم بالضرورة : اشـتمال الوجـود على موجـود محـدث ممكن. فنقـول حينئذ : الوجود المحدث الممكن لابد لـه من موجـد قـديم واجب بنفسه، فإنه يمتنع وجود المحدث بنفسه كما يمتنـع أن يخلــق الإنســان نفســه، وهــذا من أظهــر المعــارف الضرورية . ومن المعلـوم بالضـرورة : أن الحـادث بعـد عدمه لا بد له من مُحدِث ، وهذه قضية ضـرورية معلومـة بالفطرة حتى للصبيان، فإن الصبي لو ضربه ضارب وهــو غافـل لا يبصـره لقـال: من ضـربني؟ فلـو قيـل لـه : لم يضربك أحد ، لم يقبله عقله أن تكون الضـربة حـدثت من غير محدث، بل يعلم أنه لا بـدّ للحـادث من مُحـدث، فـإذا قيل: فلان ضـربك، بكى حـتى يُضـرب ضـاربه، فكـان في فطرته الإقرار بالصانع، وبالشرع الذي مبناه على العـدل، ولهذا قال تعالى: ﭽ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ [3] في الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قـدم في فـداء أسـارى بـدر قـال: وجدت النبي-صلى اللـه عليـه وسـلم- يقـرأ في المغـرب بالطور، قال فلما سمعت هذه الآية: ﭽ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ

---

[1] "الرد على المنطقيين" (2/10).

[2] سورة البقرة، الآية (164).

[3] سورة الطور، الآية (35).

أحسست بفؤادي قد انصدع"[1] وذلك أن هذا تقسيم حاصر، وذكره الله بصيغة استفهام الإنكار، ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها، يقول:ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭼ أي : من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم؟ وهم يعلمون أن كلتا القضيتين باطلة،فتعين أن لهم خالقاً خلقهم سبحانه وتعالى"[2] .

وبيَّن شيخ الإسلام أن الاستدلال بالحوادث المشهودة على ربوبية الله تعالى معروف عن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم- .

قال –رحمه الله- : "فإذا أراد -سبحانه- أن يخلق كان الخلق عقب الإرادة، والمخلوق عقب التكوين والخلق، كما قال تعالى: ﭽ ﭼ[3] والجهمية لا يقولون بذلك في الفعل، بل يقولون: يفعل مع جواز أن لا يفعل إلى أن قال [4]: وأصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عرفوا ذلك وبينوه للناس، وعرفوا أن حدوث الحوادث اليومية المشهودة تدل على أن العالم مخلوق، وأن له رباً خلقه ويُحدث فيه الحوادث، وقد ذكر ذلك الحسن البصري، كما رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب "المطر"[5] ، ورواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب "العظمة"[6] ، وذكره أبو الفرج بن الجوزي في تفسيره "[7] . قال أبو بكر بن أبي الدنيا: "حدثني هارون، حدثني

---

[1] سبق تخريجه ص (304) .

[2] "شرح حديث النزول" ص (123-126) ، وانظر "درء التعارض" (3/98-99 ، 113، 265) (7/219-220 ، 241) (8/305-307 ، 330) ، و "مجموع الفتاوى" (13/150-151) (16/444-445) ، و "الصفدية" (2/99).

[3] سورة يس، الآية (82).

[4] هكذا في الكتاب .

[5] أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب "المطر والرعد والبرق والريح" ص (81080) وحسن إسناده محققة.

[6] أخرجه الأصبهاني في "العظمة" (1/323-325).

[7] انظر "زاد المسير" (1/147).

عفّـان ، عن مبـارك ابن فضـالة قـال: سـمعت الحسـن يقول: "كانوا يقولون –يعني أصحاب رسـول اللـه –صـلى الله عليه وسلم- : الحمد لله الرفيق الـذي لـو جعـل هـذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصـرف لقـال الشـاك في اللـه : لـو كان لهذا الخلق ربٌ لحادثه، وإن الله قد حادثة بمـا تـرون من الآيات : إنه جاء بضوء طبق ما بين الخـافقين، وجعـل فيها معاشاً وسراجاً وهاجا، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلــق وجاء بظلمة طبقت مـا بين الخـافقين وجعـل فيهـا سـكناً ونجوماً وقمراً منـيراً ، وإذا شـاء بـني بنـاءً جعـل فيـه من المطـر والـبرق والرعـد والصـواعق مـا شـاء ، وإذا شـاء صرف ذلك، وإذا شاء جاء ببرد يقرقف[1] الناس، وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخـذ بأنفـاس النـاس، ليعلم النـاس أن لهذا الخلق رباً يحادثه بما يرون من الآيـات، كـذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة " .

فقد ذكر الحسن عن الصحابة الاسـتدلال بهـذه الحـوادث المشهودة على وجـود الـرب-سـبحانه- المحـدِث الفاعـل بمشيئته وقدرته، وبطلان أن يكون موجباً يقارنـه موجبَـة، فـإن ذلـك يمتنـع محادثتـه، أي إحـداث الحـوادث فيـه. وقولهم: "لو كان هذا الخلق خلقاً دائمـاً لا يتصـرف لقـال الشاك في الله : لو كان لهذا الخلق رب لحادثه" يقتضـي أن هذه الحوادث آيات الله، وأنه رب هذا الخلق، وأن هذا الخلــق محــدث لكــون غــيره يحادثــه، أي يحــدث فيــه الحوادث، ومـا صَـرَّفه غـيره وأحـدث فيـه الحـوادث كـان مقهوراً مدبَّراً ، لم يكن واجباً بنفسه، ممتنعاً عن غيره"[2] .

وذكر شيخ الإسلام –رحمه الله- أن هذه الطريقـة تمـيزت بعدة أمور:

الأول: أنه جاء بها القرآن.

---

[1] القرقفـة: الرِّعـده، يقـال: إني لأُقرقف من الـبرد أي: أُرْعَـد، انظر "لسان العرب" (12/82).

[2] "جـامع الرسـائل" (1/138-140) ، وانظر "تفسـير آيـات أشكلت" (2/485-488).

والثاني: أنها طريقة الأنبياء.
والثالث: اتفق عليها السلف والأئمة.
والرابـــع: أنهـــا طريقـــة في غايـــة الحســـن والســـداد والاستقامة.
والخامس: أنها طريقة عقلية شرعية.
قال شيخ الإسلام : "طريقة الاستدلال بما يشـاهد حدوثـه جاء بها القرآن واتفق عليها السلف والأئمة"[1] .
وقال : "ولهذا كـانت طريقـة الأنبيـاء-صـلوات اللـه عليهم وسلامه- الاستدلال على الرب تعالى بذكر آياتـه"[2] وذكـر في موضع آخر أنها طريقة الحدوث[3] .
وقال بعد مناقشته لبعض الطـرق البدعيـة: "وهـذا بخلاف الطريـق المـذكورة في القـرآن فإنهـا في غايـة السـداد والاسـتقامة. ومن أقـرب ذلـك : إن إثبـات الفاعـل مبـني على مقدمتين ضرورتين: إحداهما : أن الإنسـان محـدث والثانية: أن المحدَث لابدّ له من محـدِث... وأمـا المقدمـة الأولى: وهو أن الإنسان والثمار والمطر والسـحاب ونحـو ذلـــك محـــدث ، فهـــذه مقدمـــة معلومـــة بالمشـــاهدة والضرورة، فإن حدوث الحوادث مشهود ..." [4] .
وقال : "فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسـان في غايـة الحسـن والاسـتقامة، وهي طريقـة عقليـة صـحيحة، وهي شــرعية دلّ القــرآن عليهــا، وهــدى النــاس إليهــا، وبيّنهــا وأرشد إليها... وكذلك غيره من الأدلـة الـتي في القـرآن، مثل الاستدلال بالسحاب والمطر، وهو مذكور في القرآن في غير موضع ، وهو عقلي شرعي..." [5] .

---

[1] "درء التعــارض" (5/294-295) ، وانظر (7/219) ، و "مجموع الفتاوى" (16/444-445) و "شرح الأصبهانية" (393).
[2] "الرد على المنطقيين" (1/158).
[3] انظر "درء التعارض" (3/83).
[4] "المصدر السابق" (8/311-312).
[5] "النبوات" (1/292-293) ، وانظر "درء التعارض" (7/309) (8/35).

وبيَّن –رحمه الله- أن الاستدلال بحدوث الإنسان خصوصاً على الربوبية فيه فوائد عظيمة.

"منهـا : أن ذلـك تعريـف للإنسـان بحـال نفسـه ونوعـه وجنسه، وذلـك أقـرب الأمـور إليـه، فهي دلالـة لازمـة لـه ذاتية.

ومنها : أن ذلك يبين فقره وحاجته ، وأنه مربـوب مقهـور مدبَّر.

ومنهـا: أن ذلـك يثبت القـدر ، وأنـه خـالق الحيـوان وأفعـالهم ، وذلـك يـدّل بطريـق التنبيـه على خلـق غـير الحيوان ، فإن كثيراً من الناس عرضت له شبهة في خلق أفعال الحيوان ، لما له من العلم والقدرة والإرادة"[1] .

2) دلالة الافتقار.

قرّر شيخ الإسلام –رحمه الله- أن افتقار المخلوقـات إلى الخالق من آيات اللـه -تعـالى- الدالـة على ربوبيتـه، فقـد قال: "والمقصود هنا أن الحقيقة المعتبرة في كل برهـان ودليـل في العـالم هـو "اللـزوم"فمن عـرف أن هـذا لازم لهـذا اسـتدل بـالملزوم على اللازم، وإن لم يـذكر لفـظ "اللزوم"، ولا تصور معنى هـذا اللفـظ، بـل من عـرف أن كذا لا بدّ له من كذا، أو أنه إذا كان كذا كـان كـذا، وأمثـال هذا فقد علم "اللزوم"، كما يعرف أن كل مـا في الوجـود فهو آية لله، فإنـه مفتقـر إليـه محتـاج إليـه، لا بـدّ لـه من فيلزم من وجوده وجـود الصـانع، وكمـا يعلم أن المحـدَث لابدّ له من محدث..." [2].

فقد بيّن –رحمه الله- أن كل مـا في الوجـود آيـة للـه من جهة افتقـاره إلى اللـه، وبيّن –رحمـه اللـه- المـراد بفقـر المخلوقات إلى الله وأن ذلك من ربوبيته في موضع آخر، فقال: "وأما فقر المخلوقات إلى الله بمعنى: حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلاَّ بـه فهذا أول درجات الافتقار، وهو افتقارها إلى ربوبيتـه لهـا،

---

[1] "جامع المسائل" (6/79-80).
[2] "الرد على المنطقيين (2/9-10).

وخلقه واتقانه وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله سبحانه الملك والحمد"[1] .

وقرَّر –رحمه الله- دلالة الافتقار على الربوبية من خلال بيان أمرين:

الأول: أن حدوث المخلوقات دليل افتقارها إلى محدثها.

والثاني: أن حاجتها إلى محدثها بعد إحداثه لها دليل افتقارها.

فالمخلوقات مفتقرة إلى ربها حال حدوثها، وحال بقائها، وهذا الافتقار يدل على أنه الخالق لها الرازق المدبر لجميع شئونها.

قال -رحمه الله- بعد كلامه السابق مباشرة : "وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب، فالحدوث دليل افتقار الأشياء إلى محدثها، وكذلك حاجتها إلى محدثها بعد إحداثه لها دليل افتقارها، فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق"[2] .

وقال –رحمه الله- : "وهي مفتقرة إليه حال حدوثها وحال بقائها، لا يمكن استغناؤها عنه لا في هذه الحال ولا في هذه الحال"[3] .

وتحدث شيخ الإسلام عن مسألة تكلّم فيها المتأخرون من النظار وهي : "علة الافتقار إلى المؤثر" وإن شئت قلت: "إلى الصانع" هل هو "الإمكان" أو "الحدوث" ، أو "مجموعهما" وذكر أن فيها ثلاثة أقوال :

الأول: أن علة الافتقار هو الإمكان، وهو قول المتفلسفة المتأخرين كابن سينا ومن وافقهم ومقصودهم بذلك : أن مجرد "الإمكان" بدون "الحدوث" يوجب الافتقار إلى الصانع، فيمكن كون "الممكن" قديما لا محدثا مع كونه مفتقراً إلى المؤثر وهذا القول مما اتفق جماهير العقلاء من الأولين والآخرين على فساده حتى أرسطو وقدماء

---

[1] "مجموع الفتاوى" (1/45).

[2] "المصدر السابق" (1/45-46).

[3] "الرد على المنطقيين" (2/92) ، وانظر "درء التعارض" (3/126-127).

الفلاسـفة ومن اتبعـه من متـأخريهم كـابن رشـد الحفيـد وغيره كلهم يقولون "إن ما أمكن وجوده وأمكن عدمـه لا يكون إلا محدثا".
وأصحاب هذا القول يجعلون الشيء الممكن مفتقـراً إلى الفاعل في حال بقائه فقط فإنه لم يكن لـه حـال حـدوث عندهم.
الثاني: أن علة الافتقار مجرد "الحدوث".
وهذا قول طائفة من أهل الكلام المعتزلة وغيرهم.
وأصـحاب هـذا القـول يقولـون: إن المحـدث يفتقـر إلى الفاعل حال حدوثه لا حال بقائه. وهذا قول فاسدٌ أيضاً.
الثالث: أن علة الافتقار هي "الإمكـان" و "الحـدوث" ولم يجعــل أحــدهما شــرطاً في الآخــر، وقــد يجعــل أحــد الشرطين[1] .
قال شيخ الإسـلام بعد ذكـره للأقـوال الثلاثة : " كل واحد من "الحدوث"و "الإمكان" دليل على الافتقار إلى الصـانع ، وإن كانا متلازمين، فإذا علمنا أن هـذا محـدث علمنا أنه مفتقر إلى من يحدثـه، وإذا علمنا أن هـذا ممكن وجـوده وممكن عدمه أنه لا يــرّجح وجـــود على عدمه إلاَّ بفاعل يجعله موجوداً . وكونه مفتقراً إلى الفاعل هو من لــوازم حقيقته لا يحتـــاج إلى أن يعلّل بعلة جعلته مفتقـــراً ، بل الفقر لازم لذاته، فكل ما سـوى الله فقـير إليه دائمـاً ، لا يستغني عنه طرفة عين، وهذا من معاني اسمه "الصمد" ، "فالصمد" : الذي يحتاج إليه كل شيء وهو مسـتغنٍ عن كل شــيء، وكما أن غــنى الــرب له لنفسه لا لعلّةٍ ففقر المخلوقـــات وحاجتها إليه ثبت لــــذواتها، لا لعلة جعلتها مفتقـرة إليـه. فمن قـال : "علة الافتقـار إلى الفاعل هي الحدوث أو الإمكان أو مجموعهما".
إن أراد أن هــذه المعــاني جعلت الــذات فقــيرة لم يصح شيء من ذلك.

---

[1] (?) هكذا موجود في "الرد على المنطقيين" الطبعة الباكســتانية (ص346) . وفي طبعة دار الفكر اللبنـــــاني ، "وقد يجعل أحد الشرطين" (2/92).

وإن أراد أن هذه المعـاني يعلم بها فقر الـذات فهو حـق. فكل منهما مستلزم لفقر الذات، وهي مفتقـرة إليه حـال حدوثها وحـال بقائهـا، لا يمكن اسـتغناؤها عنه لا في هـذه الحال ولا في

هذه الحال"[1] .

والخلاصة:

أن شيخ الإسلام يرى أن الحـدوث والإمكـان كلاهما دليـلٌ على فقر الأشياء إلى خالقها حال حـدوثها وحـال بقائها لا أنها علة افتقار الأشياء إلى الخالق، وفرقٌ بين الأمرين.

وهو يـرى أن الأشـياء مفتقـرة إلى الخـالق لـذاتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه.

وأخيراً فـإن شـيخ الإسـلام أكّد "أن فقر المخلوقـات إلى الخالق ، ودلالتها عليه وشهادتها له: أمر فطري فطر الله عليه عباده"[2] .

3) الاشتراك بين المخلوقات وعدم الاستقلال :

المخلوقات لا تستقل بفعلها بل لابدّ من مشارك ومعـاون على الفعل والاشـتراك بين المخلوقـات نقص، والكمـال المطلق إنما هو في الوحدانية وليس ذلك إلاَّ للـه-تعـالى- فهو-سـبحانه- وحـده الـذي يسـتقل بالفعل ولا يحتـاج إلى مشارك ومعاون.

وشيخ الإسـلام –رحمه الله – قـرّر أن هـذا الاشـتراك بين المخلوقـات وعـدم الاسـتقلال هو من دلائل ربوبية اللـه-تعالى-.

قال –رحمه الله- : "وإذا عُـرف أنه ليس في المخلوقـات ما هو مستقل بمفعول ولا معلول، فليس في المخلوقات ما هو رب لغـــيره أصـــلاً ، بل فعل كل مخلـــوق له فيه

---

[1] (?)"الرد على المنطقيين" (2/92) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (1/46) (2/9-10) ، و"درء التعارض" (3/125-127) (3/138-142).

[2] (?)"مجموع الفتاوى" (1/47).

شـريك، وقد يكـون له مـانع، وهـذا مما يـدل على إثبـات الصانع تعالى ووحدانيته"[1] .
وقـال : "وأما إثبـات الأسـباب الـتي لا تسـتقل بـالأثر، بل تفتقر إلى مشارك معاون، وانتفاء معـارض مـانع، وجعلها مخلوقة لله ، فهذا هو الواقع الذي أخـبر به القـرآن، ودلَّ عليه العيـــان والبرهـــان، وهو من دلائل التوحيد وآياته ، ليس من الشرك بسبيل، فإن ذلك مما يـبين أنه ليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول من المفعولات"[2] .
وقال -رحمه الله - : "ولهـذا لما كـان وجـوب الوجـود من خصـائص رب العـالمين، والغـنى عن الغـير من خصـائص رب العـالمين: كـان الاسـتقلال بالفعل من خصـائص رب العالمين، وكـان التـنزه عن شـريك في الفعل والمفعـول من خصائص رب العـالمين، فليس في المخلوقـات ما هو مسـتقل بشـيء من المفعـولات وليس فيها ما هو وحـده علة قائمـة، وليس فيها ما هو مسـتغنياً عن الشـريك في شـيء من المفعـولات ، بل لا يكـون في العـالم شـيء موجود عن بعض الأسباب إلاَّ بمشـاركة سـبب آخر لـه... فما من مخلوق إلاّ له شريك وند، والرب –سبحانه- وحده هو الذي لا شريك له، ولا ند، بل ما شاء كـان وما لم يشأ لم يكن. ولهذا لا يستحق غيره أن يسمى خالقـاً ، ولا ربـاً مطلقـاً ونحو ذلـك، لأن ذلك يقتضي الاسـتقلال والانفـراد بالمفعول المصنوع ، وليس ذلك إلاّ لله وحـده... فكما أن الوحدانية واجبة له لازمة له: فالمشاركة واجبة للمخلوق لازمة له، والوحدانية مستلزمة للكمال، والكمال مستلزم لها، والاشتراك مستلزم للنقصان ، والنقصان مستلزم له. وكـذلك الوحدانية مسـتلزمة للغـنى عن الغـير، والقيـام بنفســه، ووجوبه بنفســه، وهــذه الأمــور من الغــنى ، والوجوب بالنفس، والقيام بالنفس مســتلزمة للوحدانية ، والمشاركة مستلزمة للفقر إلى الغير، والإمكان بـالنفس،

---

[1] (?)"درء التعارض" (9/342).
[2] (?)"درء التعارض" (9/348).

وعـدم القيـام بـالنفس . وكـذلك الفقر والإمكـان وعـدم القيـام بـالنفس مسـتلزمة للإشـتراك. وهـذه وأمثالها من دلائل توحيد الربوبية وأعلامها وهي من دلائل إمكـــــــان المخلوقـات المشـهودات ، وفقرهـا، وأنها من بدئـه، فهي من أدلة إثبات الصانع ، لأن ما فيها من الافتراق والتعـداد والاشتراك يوجب افتقارها وإمكانهـا، والممكن المفتقر لا بدّ له من واجب غني بنفسه وإلاَّ لم يوجد"[1] .

ومن أوجه الاشـتراك بين المخلوقـات الـتي ذكرها شـيخ الإسلام :

- أن القلب الـذي هو ملك البـدن وإن كـان تصـدر منه الإرادات المحركة للأعضــاء فلا يســتقل بتحريك إلاَّ بمشاركة الأعضاء وقواها .
- وولاة الأمور المدبرون للمدائن والجيـوش لا يسـتقل أحـدهم بمفعـول إن لم يكن له من يعينه عليـه، وإلاَّ فقوله وعمله أعـراض قائمة به لا تجـاوزه ، وكل ما يصـدر عنه فمتوقف على أسـباب أخـرى خارجه عن محل قدرته وفعله[2] .

4) الاختلاف بين المخلوقات :

الاختلاف بين المخلوقات له صور كثيرة متعـددة ، فهنـاك الاختلاف في أجنــاس الثمــرات والــزروع في أشــكالها ، وطعومها ، وروائحها ، وأوراقها، وأزهارها.

وهنــاك الاختلاف بين الحيوانــات في آلة المشــي، فمنهم من يمشي على بطنــــه، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع.

وهنـــــاك الاختلاف في الألـــوان من البيـــاض والســـواد والحمــرة وغــير ذلك في الآدمــيين والجبــال ، والثمــار ، والدواب ، والأنعام.

---

[1] "مجموع الفتاوى" (2/34-36) ، وانظر (6/125) (20/181-183).

[2] انظر "درء التعارض" (9/341).

وهنـــاك الاختلاف في اللغـــات من العربية ، والعجميـــة، والتركية، والرومية.

وغير ذلك من صور الاختلاف بين المخلوقات الذي هو من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته.

وقد أوضح الله -تعـــالى- ذلك في القـــرآن الكـــريم في مواضع كثيرة .

قال الله تعالى : ﭽﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﭼ [1] .

وقال تعالى : ﭽﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭼ[2] .

وقال تعالى : ﭽﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﭼ[3] .

وقال تعالى : ﭽﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﭼ[4] .

وشـــيخ الإســـلام –رحمه اللـــه- تحـــدث عن الاختلاف بين الآدمـيين في الصـفات كـاللون والصـوت، وقـرّر أن هـذا الاختلاف من دلائل الربوبية فقـــــال : "فـــــإن الصـــــفات والعوارض التي يتصف بها الإنسان وتعـرض له لا يشـترك فيها الإنسان، بل ما من إنسان إلاّ وله صـفات وعـوارض لا يشـركه فيها غـيره كالسَّـحنة[5] والنغمـة، فلا يشـترك اثنان في سـحنة ولا نغمة ، وهـذا من دلائل ربوبيتـه، وأنه بكل شيء عليم"[6] .

---

[1] سورة الرعد، الآية (4).

[2] سورة النور، الآية (45).

[3] سورة الروم، الآية (22).

[4] سورة فاطر، الآية (27-28).

[5] السحنة : لين البشرة والنعمة ،وقيل: الهيئة واللون والحـال. وهي مفتوحة السين وقد تكسر .انظر "لسان العرب"(7/142).

[6] "درء التعارض" (10/188) ، وانظر (1/382) ،و"مفتـاح دار السـعادة" ص (184، 262-263) و "شـفاء العليل " (2/635-638) ، و "الجـامع لأحكـام القـرآن" (9/185) (14/13) ، و "تفسير القـرآن العظيم" (2/518-519) ، و "أضـواء البيـان" (6/320-321).

فإن وقـوع الاختلاف بين الآدمـيين في الألـوان والأصـوات وغـير ذلك يـدل على أن لـذلك خالقـاً ، مـدبراً ، يفعل ما يشاء، هو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.
وأخـيراً فـإن شـيخ الإسـلام بيَّن أن الإيمـان بربوبية الله تعـــالى يعلم بالبديهة والضـــرورة ،وأنَّ إقامة الأدلة على ربوبيته -تعالى- لا ينافي ذلك.
قـال –رحمه اللـه- عند بيانه أن الإقـرار بالصـانع ضـروري فطري كما قـرره السـلف : "ومع هـذا فـالطرق النظرية تفيد العلم والمعرفـة، ولا منافـاة بين كـون الشـيء يعلم بالبديهية والضرورة ويكون عليه أدلة"[1] .
وقال عند حديثه عن إثبات الصانع والرد على المخـالفين في ذلك : "والشـيء قد يكـون ضـرورياً مع إمكـان إقامة الأدلة النظرية عليه، فلا منافاة بين كونه ضرورياً مستقراً في الفطر، وبين إمكان إقامة الدليل عليه"[2] .

المطلب الثالث : نقد شيخ الإسلام لطريقة المتكلمين في الاستدلال بالآيات على الربوبية .

المراد بـ "الآيـات" هنا : "خلق الإنسـان " خصوصـاً ، وهو الـــدليل الـــذي ذكـــره أبو الحسن الأشـــعري في كتابيه

---

[1](?) "بيان تلبيس الجهمية" (4/572).
[2](?) "درء التعارض" (8/103).

"اللمع"و "رسـالة إلى أهل الثغـر" على إثبـات أن للخلق صانعاً صنعه ومدبراً دبره.
وأبو الحسن الأشعري عدل عن طريقه يرى أنها غامضــة، طويلة، كثيرة المقدمات ، مبتدعة وهي طريقة "الأعراض وحدوث الأجسام".
إلى طريقة يـرى أنها واضـحة ومـذكورة في القـرآن وهو "الاستدلال بخلق الإنسان على الخالق".
وقبل بيـــان نقد شـــيخ الإســـلام لطريقة الأشـــعري في الاستدلال بخلق الإنسـان على الخـالق لا بـدَّ من التعريف بأمرين:
الأول: دليل الأعراض وحدوث الأجسام.
الثـاني: طريقة الأشـعري في الاسـتدلال بخلق الإنســان على الخالق.
1) دليل الأعراض وحدوث الأجسام .
هـذا الـدليل أثبت به المتكلمـون الصـانع وحـدوث العـالم فإنهم قالوا:
- لا يمكن إثبات الصانع إلاَّ بإثبات حدوث العالم.
- ولا يمكن حدوث العالم إلاَّ بإثبات حدوث الأجسام.
- والطريق إلى إثبات حـدوث الأجسـام هو أنها لا تخلو من الأعــراض "فمنهم من احتج بالحركة والســكون فقــط، ومنهم من احتج بــالأكوان الــتي هي عنــدهم الاجتمـاع والافـتراق والحركة والسـكون، ومنهم من احتج بالأعراض مطلقاً".
- والأعراض حادثة.
- وما قامت به الحـوادث فهو حـادث أو ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث؛ لامتناع حوادث لا أول لها.
- فالأجســـام حادثـــة؛ لأنها قـــامت بها الأعـــراض والحوادث.

- وإذا ثبت أن الأجسـام حادثة لقيـام الحـوادث بها،فالحادث لها لابدَّ له من محدث[1] .

وهذا الدليل من الناس من يظنه من لـوازم الإيمـان، وأن الإيمـان لا يتم إلاَّ به ومن لم يعـرف ربه بهـذا الـدليل لم يكن مؤمناً به ولا بما جاء به رسوله، وأن هـذا الـدليل هو الأصل في معرفة دين الإسلام ونبوة الرسول –صلى الله عليه وسـلم- وهـذا يقوله الجهمية والمعتزلة وأكـثر الأشاعرة[2] .

وهذا الدليل له لوازم باطلة كثيرة ، فأول لوازمه الباطلة: نفي الصـفات والأفعـال، ونفي العلو والكلام ، ونفي الرؤية.

ومن لوازمـه: القـول بخلق القـرآن، والقـول بفنـاء الجنة والنار[3] .

وهذا الـدليل هو أسـاس الكلام الـذي اشـتهر ذم السـلف والأئمة له.

والذامون لهذا الطريق نوعان:

1. منهم من يذمه ؛ لأنه بدعة في الإسلام. فإن النـبي –صـلى الله عليه وسـلم- لم يـدعو النـاس به ولا أصحابه .

ويقولـون : ليس الإيمـان موقوفـاً عليه ، ولا هي من لوازمه ، ولا هي طريق الرسل ويحرم سـلوكه ؛ ولما فيه من الخطر والتطويل وإن لم يعتقدوا بطلانه.

وهـذه طريقة أبي الحسن الأشـعري في ذمه له ، والغزالي ، والبيهقي ، وغيرهم .

---

[1] انظر "مجمـوع الفتـاوى" (12/213-214) و "شـرح حـديث الـنزول" ص (415) و ما بعـدها، و "درء التعـارض" (1/301-303) ، "الصفدية " (1/274) ، و "شرح الأصبهانية" ص(307-308).

[2] انظر "شرح حديث النزول" ص (416-417) ، و "الصواعق المرسلة" (3/1189-1190) ، و "مختصر الصواعق" (2/480) .

[3] انظر "الصواعق المرسـلة" (3/1191-1194) ، و "مختصر الصواعق" (2/481-485).

2. ومنهم من ذمه؛ لأنه باطل في نفسه ، متناقض، مشتمل على مقدمات باطلة، لا تحصِّل المقصود بل تناقضه.

وهذا قول أئمة السلف ، كابن المبارك ، والشافعي، وأحمد بن حنبل ، ومالك ، وغير هؤلاء من السلف [1]

2) طريقة الأشعري في الاستدلال بخلق الإنسان على الخالق.

أوضح الأشعري[2] طريقته في الاستدلال بخلق الإنسان على الخالق في كتابيه "اللمع" و "رسالة أهل الثغر"؟

قال في "اللمع": "إن سأل سائل فقال : ما الدليل على أن للخلق صانعاً صنعه ومدبراً دبره؟ فقيل له: الدليل على ذلك: أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام، كان نطفه ثم علقه ثم لحماً ودماً وعظماً، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال؛لأنا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعاً ولا بصراً ، ولا أن يخلق لنفسه جارحة. يدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز؛ لأن ما قدر عليه في حال النقصان فهو في الكمال عليه أقدر، وما عجز عنه في حال الكمال فهو في حال النقصان عنه أعجز. ورأيناه طفلاً ثم شاباً كهلاً ثم شيخاً ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم؛ لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر

---

[1] انظر "شرح حديث النزول" ص (417-418) ، و "درء التعارض" (1/97-98) (8/308-310) ، و "الصفدية" (1/274-275) و "الصواعق المرسلة" (3/1189-1190).

[2] أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم ، ينتهي إلى أبي موسى الأشعري اليماني البصري ، أخذ عن : أبي علي الجبائي ، وزكريا الساجي، وأخذ عنه أبو الحسن الباهلي و أبو عبد الله بن مجاهد البصري ، كان عجباً في الذكاء وقوة الفهم ، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه وتاب إلى الله ، ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوارهم ، توفي ببغداد سنة (324) . انظر "سير أعلام النبلاء" (15/85-90).

والهرم ويردها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك؛ فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال، وأن له ناقلاً نقله من حال إلى حال ودبره على ما هو عليه؛ لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلى حال بغير ناقل ولا مدبر، مما يبن ذلك: أن القطن لا يجوز أن يتحول غزلاً مفتولاً، ثم ثوباً منسوجاً، بغير ناسج ولا صانع ولا مدبر، ومن اتخذ قطناً ثم انتظر أن يصير غزلاً مفتولاً ثم ثوباً منسوجاً بغير صانع ولا ناسج كان عن معقول خارجاً، وفي الجهل والجاً، وكذلك من قصد إلى بريه لم يجد قصراً مبيناً فانتظر أن يتحول الطين إلى حالة الآجر[1] ، وينتضد بعضه على بعض بغير صانع ولا بانٍ كان جاهلاً ، وإذا كان تحول النطفة علقه ثم مضغه، ثم لحماً ودماً وعظماً أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﭼ[2] فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون مع تمنيهم الولد فلا يكون ومع كراهيتهم فيكون. وقد قال الله تعالى منبهاً لخلقه على وحدانيته : ﭽﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭼ[3] بيّن لهم عجزهم وفقرهم إلى صانع صنعهم ومدبر دبرهم.

فإن قالوا: فما يؤمنكم أن تكون النطفة لم تزل قديمة؟

قيل لهم: لو كان ذلك كما ادعيتم لم يجز أن يلحقها الاعتمال والتأثير، ولا الانقلاب والتغيير؛ لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغيره، وأن يجرى عليه سمات الحدث؛ لأن ما جرى ذلك عليه ولزمته الضعة[4] لم ينقل من سمات

---

[1] (?) الآجر: فارسي معرب، وهو طبيخ الطين الذي يبنى به. انظر "لسان العرب" (1/59) ، و "الصحاح" (2/502).

[2] (?) سورة الواقعة، الآية (59).

[3] (?) سورة الذاريات، الآية (21).

[4] (?) الضَّعَة هي : الذل والهوان وقد وُضع ضَعَه فهو وضيع . انظر "النهاية" ص (545).

الحـدث، ومـا لم يسـبق المحـدث كـان محـدثاً مصـنوعاً، فبطل بذلك قدم النطفة وغيرها من الأجسام"[1] .

وكذلك ذكر هذا الدليل في كتابه "رسالة إلى أهل الثغــر" ومما قاله:

"وأنه -عليه السلام – دعا جماعتهم إلى الله، ونبههم على حدثهم بما فيهم من اختلاف الصـور والهيئـات وغـير ذلـك من اختلاف اللغــات، وكشــف لهم عن طريــق معرفــة الفاعل لهم بمــا فيهم وفي غـيرهم بمـا تقتضـي وجـوده ويدل على إرادته وتدبيره، حيث قال –عز وجل- : ﭽﭛﭜ ﭼ[2] ، فنبههم –عز وجل- بتقلبهم في سائر الهيئـات الـتي كانوا عليها على ذلك وشرح ذلك بقوله –عز وجل- : ﭽﮖﮗ ﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﭼ[3]

وهذا من أوضـح مـا يقتضـي الدلالـة على حـدث الإنسـان ووجود المحدث له من قبل أن العلم قـد أحـاط بـأن كـل متغير لا يكون قديماً، وذلك أن تغيره تقتضي مفارقة حال كان عليها قبل تغيره وكونه قديماً ينفي تلـك الحـال، فـإذا حصل متغيراً بمـا ذكرنـاه من الهيئـات الـتي لم يكن قبـل تغيره عليها دلّ ذلـك على حـدوثها، وحـدوث الهيئـة الـتي كان عليها قبل حدوثها، إذ لو كانت قديمة لما جاز عـدمها، وذلك أن القديم لا يجوز عدمه. وإذا كان هذا على ما قلنـا وجب أن يكـون مـا عليـه الأجسـام من التغـير منتهيـاً إلى هيئات محدثة لم تكن الأجسام قبلها موجـودة، بـل كـانت قبلها محدثه، ويدل تـرتيب ذلـك على محـدث قـادر حكيم من قبل أن ذلـك لا يجـوز أن يقـع بالاتفـاق فيتم من غـير مرتب له ولا قاصد إلى ما وجد منه فيها ..."[4] .

بيّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن الاستدلال على الخــالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وأنها طريقــة عقلية صحيحة إلاّ أن الأشعري خالف طريقـة القـرآن في

---

[1] "اللمع" ص (18-20).

[2] سورة الذاريات، الآية (21).

[3] سورة المؤمنون، الآية (12-13).

[4] "رسالة إلى أهل الثغر" ص (141-146) ، وانظر ما بعدها.

كيفية الاستدلال بذلك ، وانتقد شيخ الإسلام ما ذكره الأشعري من عدة أوجه:

الوجه الأول:

أن الأشعري جعل الإنسان مستدلاً عليه، فأراد أن يستدل على أن الإنسان مخلوق ، ثم إذا ثبت أنه مخلوق قال إن له خالقاً .

واستدل الأشعري على حدوث الإنسان : بمقارنة التغير والحوادث له ، فلم يخل من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، لامتناع حوادث لا أول لهما .

وليست هذه الطريقة هي المذكورة في القرآن، فالقرآن يستدل بحدوث الإنسان على الخالق ، لا يستدل على حدوثه ، فإن حدوث الإنسان معلوم بالضرورة ومشهود، لا يحتاج إلى دليل.

قال شيخ الإسلام بعد أن نقل كلام الأشعري من رسالته إلى أهل الثغر: "الطريقة المذكورة في القرآن هي: الاستدلال بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات المعلوم حدوثها بالمشاهدة ونحوها على وجود الخالق -سبحانه-، فحدوث الإنسان يُستدل به على المحدِث، لا يحتاج أن يُستدل على حدوثه بمقارنة التغير أو الحوادث له، ووجوب تناهي الحوادث، والفرق بين الاستدلال بحدوثه والاستدلال على حدوثه بيَّن ، والذي في القرآن هو الأول لا الثاني، كما قال تعالى : ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭼ [1] فنفس حدوث الحيوان والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة ، بل مشهود لا يتحاج إلى دليل ، وإنما يعلم بالدليل ما لم يُعلم بالحس وبالضرورة "[2] .

الوجه الثاني:

أن الحدوث عنده إنما هو حدوث صفات لا حدوث أعيان ، وهذا مبني على مسألة الجوهر الفرد ، وأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة ، وأن خلق الإنسان وغيره

[1] سورة الطور، الآية (35).

[2] "درء التعارض" (7/219) ، وانظر (7/304) ، و "مجموع الفتاوى" (16/268).

إنمـا هـو إحـداث أعـراض في تلـك الجـواهر بجمعهـا وتفريقها،ليس هو إحداث عين وهذا "تضمن جحد المعلوم وهو حدوث الأعيان الحادثة، وهذا معلوم للخلـق ، وإثبـات ما ليس بمعلوم بل هو باطل ، وأن الإحداث لهـا إنمـا هـو جمع وتفريق للجواهر، وأنه إحداث أعراض فقط"[1] .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- بعـد نقلـه لكلام الأشـعري من رسالته إلى أهل الثغر : "وقـد تنـازع النـاس في هـذا الموضـع، فقـال طائفـة من أهـل الكلام : هنـا أجسـام وجـواهر منتقلـة من حـال إلى حـال ، كالإجتمـاع بعـد الافتراق، والافتراق بعد الاجتماع، وأن تلك الجواهر باقية، ولكن تغـيرت صـفاتها وأعراضـها. وأنكـر هـؤلاء أن تكـون نفس الأعيان القائمة بنفسها انقلبت حقيقتهـا فاسـتحالت ذاتها ، ولكن تغيرت صفاتها . وهذا مبني على أن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة. وهـؤلاء يقولـون : إنمـا يعلم بـالحس والضـرورة حـدوث مـا يحـدث من الأعـراض والصـفات، وأمـا حـدوث شـيء من الأجسـام القائمـة بأنفسها فلا نعلمه إلاَّ بالاستدلال . والذي ذكـره الأشـعري أولاً مبني على هذا الأصل، وهو في ذلك موافق لمن قال به من المعتزلة وغيرهم، وهذا من البقايا التي بقيت عليه من أصـولهم العقليـة بعـد رجوعـه عن مـذهبهم ، وبيانـه لبطلان أقـوالهم الـتي أظهـروا بهـا خلاف أهـل السـنة والجماعة.

وجمهـور العقلاء من أصـناف النـاس – أهـل النظـر والفلسـفة وغـيرهم – يقولـون : إن هـذا باطـل ، وأن الأجسـام يسـتحيل بعضـها إلى بعض، كمـا يقـول ذلـك الفقهاء والأطباء وغيرهم ، وكما يُشهد ذلك ، وأن الحادث هـو نفس أعيـان الحيـوان والنبـات لا مجـرد صـفاتها، وينكرون أن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة"[2] .

---

[1](?) "مجموع الفتاوى" (16/271).

[2](?) "درء التعـارض" (7/220-221)ـ ، وانظر (7/304)ـ ، و"مجموع الفتاوى" (16/268، 470-471).

وقد بيّن شيخ الإسلام أن الإنسان لما خُلق خُلق كله جواهره وأعراضه، وأن الله ابتدأه ابتداءً كما قال تعالى : ﭽ ﮪ ﮪ ﮫ ﮪ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﭼ[1] ، وقال تعالى : ﭽ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭼ[2] .

وبيّن –رحمه الله- أن القرآن يذكر أن في خلق الأعيان القائمة بنفسها آيات، ويذكر الآيات في خلق الأعيان والأعراض.

كقوله تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ[3] .

فالسموات والأرض والفلك والماء والدابة والسحاب كلها أعيان.

والرياح أيضاً أعيان ، وتصريفها أعراض[4] .

وهذا الوجه يتبين بطلانه ببيان بطلان الجوهر الفرد ، وصفه الخلق التي ذكروها وقد سبق ذلك عند الحديث عن صفة الخلق[5] .

الوجه الثالث:

أن هذا الدليل هو من جنس دليل "الأعراض" فهما يشتركان في البناء على أن ما قامت به الحوادث فهو حادث ؛ لامتناع حوادث لا أول لها.

والأشعري وإن كان قد أنكر على من أوجب سلوك "دليل الأعراض وحدوث الأجسام" إلاّ أن الطريقة التي ذكرها قد اختصرها من "دليل الأعراض"

قال شيخ الإسلام : "والأشعري نفسه أنكر على من أوجب سلوكها (أي دليل الأعراض وحدوث الأجسام) أيضاً في رسالته إلى أهل الثغر[6] مع اعتقاده صحتها،

---

[1] (?) سورة السجدة، الآية (7-8).

[2] (?) سورة مريم، الآية (67).

[3] (?) سورة البقرة، الآية (164).

[4] (?) انظر "النبوات " (1/305-306، 317) .

[5] (?) انظر ص (145-157) .

[6] (?) انظر "رسالة إلى أهل الثغر " ص (185-191).

واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابة المشهور المسمّى بـ "اللمع"في الرد على أهل البدع"[1] .

وقال : "والمقصود هنا: أن الأشعري بنى أصول الدين في "اللمع" و "رسالة إلى أهل الثغر"على كون الإنسان مخلوقاً محدثا ، فلا بدّ له من محدث، لكون هذا الدليل مذكوراً في القرآن فيكون شرعياً عقلياً، لكنه في نفس الأمر سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها ، وهو الاستدلال على حدوث الإنسان بأنه مركب من الجواهر المفردة، فلم يخل من الحوادث، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، فجعل العلم بكون الإنسان محدثا، وبكون غيره من الأجسام المشهودة محدثاً إنما يُعلم بهذه الطريقة، وهو أنه مؤلَّف من الجواهر المفردة، وهي لا تخلو من اجتماع وافتراق، وتلك أعراض حادثة ، وما لم ينفك من الحوادث فهو محدث، وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء ، فإنهم أنكروا المعلوم بالحسّ والمشاهدة والضرورة العقلية من حدوث المحدثات المشهود حدوثها، وادّعوا أنه إنما يشهد حدوث أعراض لا حدوث أعيان "[2] .

وقال عند حديثه عن طريقة الأشعري : "وهي مبنية على أنه أثبت حدوث الإنسان بما فيه من اختلاف الصور والهيئات... ولا بدّ في هذه الطريقة من بيان امتناع حوادث لا أولّ لها ، فهذه الطريقة من جنس طريقة الأعراض، لكنها أخص دليلاً ومدلولاً فإن الهيئات أخص، ومدلولها إنما هو حدوث ما حدثت هيئته، ودليل أولئك يعم ، ولكن الأشعري عَدَل عن طريقة غامضة إلى طريقة واضحة، وهذه الطريقة هي التي يسميها الرازي وأمثاله:

---

[1] (?) "النبوات" (1/260).

[2] (?) "النبوات" (1/295-296).

الاستدلال بحدوث الصفات والأعراض القائمة بالأجسـام" [1][2].

وقال : "... لكن مقصود الأشعري أن هذه الطريقة تغـني الناس عن تلـك الطريقـة الطويلـة، الكثـيرة المقـدمات ، الغامضـة الـتي يقـع فيهـا نـزاع، فـإذا كـانت الطريقتـان مشـتركتين في البنـاء على امتنـاع حـوادث لا أول لهـا ، وهذه الطريقة لا تحتاج إلى ما تحتـاج إليـه تلـك ، فكـانت هذه أقرب وأيسر"[3] .

وقـد بيّن شـيخ الإسـلام أن هـذه الطريقـة الـتي سـلكها الأشـعري هي الـتي يسـميها الـرازي وغـيره "حـدوث الصفات" ؛ لاعتقادهم أن ما تشهده من الحوادث إنما هـو حـدوث الصفـات بنـاءً على إثبـات الجـوهر الفـرد ، وأن الحدوث إنما هو اجتماع الجواهر وافتراقها[4] .

وأخـيراً فـإن شـيخ الإسـلام بيَّن أن الـدليل الـذي ذكـره الأشعري مبني على مقدمتين :

1. على تحول الإنسان من حال إلى حال .
2. أن ذلك لابدّ له من صـانع حولـه من حـال إلى حـال، فالمحدث لابدّ له من محدث.

وبيّن –رحمه الله- أن كلتا المقدمتين ضرورية.

فالأولى هي مسألة حدوث الصفات ، وهي أقرب الطـرق إلى طريقـة القـرآن والثانيـة هي ضـرورية عنـد جمـاهير العقلاء ، ولهذا لم يـذكر الأشـعري عليهـا دليلاً . ولكن من أصـحابه كالقاضـي أبي بكـر البـاقلاني من يقـول : إنهـا

---

[1] انظر "أصـول الـدين: ص (41) و"محصل أفكـار المتقـدمين والمتـأخرين"ص (110)، و "الأربعين"(1/88-90). وانظر من كتب شيخ الإسلام : "النبوات" (1/299-303) و "درء التعـارض" (3/72-87) (7/229-232).

[2] "درء التعارض" (7/228) ، وانظر (7/223-224).

[3] "المصدر السابق" (7/235) ، وانظر (8/100-101، 312-313) ، و "مجموع الفتاوى"(16/269).

[4] انظر "شـرح الأصـبهانية" ص (304) ، و "درء التعـارض" (7/228).

نظريــة لا ضــرورية موافقــة منهم لمن قــال ذلــك من المعتزلة .
واستدل البـاقلاني على أن المحـدث لابـدّ لـه من محـدث بــأن ذلــك يتضــمن الاختصــاص بزمــان دون زمــان، والتخصـيص لا بـدّ لـه من مخصـص ؛ لأنـه تـرجيح لأحـد المتماثلين على الآخر.
وذكر شيخ الإسلام أن القاضي أبـا بكـر البـاقلاني زعم أن الأشـعري يقـول بـأن العلم بـأن المحـدث لا بـدّ لـه من محـدث نظـري لا ضـروري ، وبيّن –رحمـه اللـه- أن كلام الأشعري ليس فيه شيء من هذا، وأن طريقـة الأشـعري أجــود من طريقــة البـاقلاني، وأن الأشـعري أقـرب إلى صريح المعقول وصحيح المنقول من الباقلاني.
وقرّر شيخ الإسلام –رحمه الله- : أن علم العقول بافتقـار المحـدث إلى محـدث أبين وأظهـر من علم العقـول بـأن تخصــيص أحــد المثلين بشــيء دون الآخــر يحتــاج إلى مخصص[1] .
قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "إن طريقة أبي الحســن الأشعري التي في "اللمع "خير من طريقة القاضي، فإنـه بناها على أن المحدث لابـدّ لـه من محـدث، ولم يحتج أن يســتدل على ذلــك بــأن الحــدوث تخصــيصٌ بــوقت دون وقت ، والتخصيص لا بـدّ لـه من مخصـص، فـإن هـذا وإن كان صـحيحاً فـالعلم بافتقـار المحـدَث إلى المحـدث أبين وأقوى من هذا... فإن كون الحادث يحدث نفسه من غـير محدث يحدثـه من أبين الأمـور اسـتحالة في فطـر جميـع الناس والعلم بذلك مستقرٌ في فطر جميـع النـاس حـتى الصــبيان، حـتى أن الصــبي إذا رأى ضـربة حصـلت على رأسه قال : من ضربني؟ من ضـربني ؟ وبكى حـتى يعلم من ضربه.

---

[1] انظر ما سبق ذكره، ومناقشة شيخ الإسلام للبــاقلاني : "درء التعارض" (7/304) (8/73-95، 99-108، 155 ، 305-314).

وإذا قيل لـه : مـا ضـربك أحـد ، أو هـذه الضـربة حصـلت بنفسها من غير أن يفعلها أحد لم يقبل عقله ذلك ، وهو لا يحتـاج في هـذا العلم الفطـري الـذي جُبـل عليـه إلى أن يستدل عليه بأن حدوث هذه الضربة في هذه الحـال دون ما قبلها وما بعدها لا بدّ له من مخصـص ، بـل تصـور هـذا فيه عسر على كثير من العقلاء ، وبيان ذاك بهذا من بـاب بيان الأجلى بالأخفى ، ثم الطرق التي جاء بها القرآن خيرٌ من طريقـة الأشـعري وغـيره ، فـإن فيهـا إثبـات الصـانع بنفس ما يشـاهده النـاس من حـدوث الأعيـان المحدثـة ، وحدوث الأعيان مشهود معلوم ، لا يُحتاج أن يستدل على حدوثها بحدوث صفاتها ، وأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث"[1] .

المطلب الأول : المراد بدليل العناية .

ذكر شيخ الإسـلام –رحمه اللـه- كلام ابن رشد في طـرق إثبات وجود الصانع وأنهما طريقان:

الأول: دليل العناية

والثاني: الاختراع وهو ما سـبق من دلالة الحـدوث الـوارد في دليل الآيات.

وفي كلام ابن رشد الذي نقله شيخ الإسـلام بيـان المـراد بدليل العناية وأنه:

الاعتنـــاء بالمخلوقـــات ، وبالإنســـان خصوصـــاً وموافقة الموجــودات لوجــوده ولغــيره مما وجــدت لــه، وما في

---

[1](?) "درء التعارض" (8/305-306).

المخلوقــات من حكم ومنــافع وغايــات مقصــودة خلقت لأجله المخلوقات[1] .
وبيَّن ابن رشد[2] الدليل على موافقة الموجـودات لوجـود الإنســان فقــال : "فأما كونها موافقة لوجــود الإنســان فيحصل اليقين بـــذلك باعتبــــار موافقة الليل والنهــــار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكـذلك موافقة الأزمنة الأربعة لـــه، والمكـــان الـــذي هو فيه أيضـــاً وهو الأرض، وكذلك تظهر أيضاً موافقة كثـير من الحيـوان له والنبـات والجماد، وجزئيات كثيرة مثل الأمطـار والأنهـار، وبالجملة الأرض والماء والنـار والهـواء، وكـذلك أيضـاً تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان ، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده" [3] .
وكذلك بيَّن موافقة وجود غير الإنسان لما وجد له، كالماء موافقاً للحيوانات المائية، والهواء للحيوانات الطائرة[4] .
وبيَّن شــيخ الإســلام –رحمه اللــه- أن الاســتدلال بما في الوجــــود من الحكمة الغائية يســـميه ابن رشد بــــدليل "العناية"[5] .

---

[1] انظر "درء التعــارض" (9/321-326)ـ ، و "بيــان تلــبيس الجهمية" (1/494-495)ـ ، و "الكشف عن مناهج الأدلة " ص (118-119).
[2] أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شــيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي،مولـده قبل مـوت جـده سنة (520) هــ ، فيلسـوف زمانة ، أقبل على علـوم الأوائل من الفلاسـفة وبلايـاهم حـتى صـار يضـرب به المثل في ذلـك، من تصانيفه "بداية المجتهد" و "تهافت التهـافت" ، هُجر في بيته من جهة الخليفة لا يـــدخل عليه أحـــد؛ لأنه رفعت عنه أقـــوال ردّية ونسبت إليه العلوم المهجورة، ومات محبوساً بـداره، انظر سـير أعلام النبلاء (21/307-309).
[3] "الكشف عن منـاهج الأدلـة" ص (118-119)ـ ، وانظر "درء التعارض" (9/322-323).
[4] انظر "الكشف عن مناهج الأدلة" ص (163).
[5] انظر "بيان تلبيس الجهمية" (2/141-142).

وبيَّن أيضاً : أن الفلاسفة يسمون ظهور الحكمة التي في العالم بـ "العناية" وأنهم أعلم الناس بهذا، وأكـثر النـاس كلامـاً فيما يوجد في المخلوقـات من المنـافع والمقاصد والحكم الموافقة للإنســان وغــيره، وما يوجد من هــذه الحكمة في بدن الإنسان وغيره[1] .

ومن الأمثلة على دليل "العناية"من القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﭽﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﭼ[2] .

قال ابن القيم بعد ذكره للآيـة الثانيـة:"فـذكر تعـالى دليلاً آخر متضـمنا للاسـتدلال بحكمتـه في مخلوقاتـه ، فـالأول متضمن لأصل الخلق والإيجـاد، ويسـمَّى : دليـل الاخـتراع والإنشاء، والثـاني: متضـمن للحكم المشـهودة في خلقـه ويسمَّى : دليل العناية والحكمة. وهو تعالى كثيراً ما يكرِّر هذين النـوعين من الاسـتدلال في القـرآن.ونظـيره قولـه تعالى: ﭽﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿ ﭼ[3] .فــذكر خلــق الســماوات والأرض ثم ذكــر منــافع المخلوقات وحكمها.

ونظيره قوله تعالى: ﭽﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﭼ[4] إلى آخر الآيات . على أن في هـذه الآيـات من الأسـرار والحِكم مـا بحسـب عقـول العالمين أن يفهموا ويُدركوه، ولعله أن يَمُـرَّ بـك إن شـاء الله التنبيه على رائحةٍ يسيره من ذلك. ونظير ذلك أيضـاً: قوله تعــالى: ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼ[5] وهذا كثير في القرآن لمن تأمله"[6].

---

[1] انظر "المصـدر السـابق"(2/19). وانظر "بـدائع الفوائـد" (4/190).

[2] سورة البقرة ، الآية (21-22).

[3] سورة إبراهيم ، الآية (32-33).

[4] سورة النمل، الآية (60-61).

[5] سورة البقرة ، الآية (164).

[6] "بدائع الفوائد" (4/190-191).

ومن الأمثلة على دليل العناية أيضاً:

قوله تعالى : ﭽﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇ ﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﭼ[1] .

وقوله تعالى: ﭽﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜ□ﯞﯟ□□□□ﯤﯥﯦﯧﯨ□□□□□□□□□ □□ﭼ[2] .

وابن رشد ذكر أن هذه الآيات تتضمن دلالة العناية فقط[3] .

وابن تيمية وإن كان قد ذكر أن كلام ابن رشد لدليلي العناية والاختراع كلام صحيح في الجملة[4] ، إلاَّ أنه انتقده في عدة أمور:

الأول:

ما ذكره ابن رشد هنا من أن هذه الآيات تدل على العناية فقط دون الاختراع، فإن شيخ الإسلام انتقده في ذلك، وبيَّن أن كلَّ ما دلَّ على العناية دلَّ على الاختراع[5] .

الثاني:

دعوى ابن رشد انحصار طرق إثبات وجود الصانع في هذين النوعين، دليل العناية ، والاختراع[6] وإن كان يحسب له بيانه أن الأدلة العقلية الدالة على إثبات الصانع مستغنية عما أحدثه المتكلمون من دليل الأعراض.

وبيَّن شيخ الإسلام أن طرق إثبات وجود الله كثيرة كالفطرة والآيات وغير ذلك[7] ، وليست منحصرة في هذين الدليلين.

قال شيخ الإسلام –رحمه الله-: "فهذا الرجل مع أنه من أعيان الفلاسفة المعظمين لطريقتهم ، المعتنين بطريقة

---

[1] سورة النبأ ، الآية (6-16).

[2] سورة عبس ، الآية (24-32).

[3] انظر "الكشف عن مناهج الأدلة " ص (120).

[4] انظر "بيان تلبيس الجهمية" (1/500).

[5] انظر "درء التعارض" (9/331).

[6] انظر "المصدر السابق" (9/330)

[7] انظر "بيان تلبيس الجهمية" (1/500-501) ، و "درء التعارض" (3/71) ، و "مجموع الفتاوى" (16/444، 451).

الفلاسفة المشائين، كأرسطو وأتباعه ، بين أن الأدلة العقلية الدالة على إثبات الصانع مستغنية عما أحدثه المعتزلة ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم من طريقة الأعراض ونحوها، وأن الطرق الشرعية التي جاء بها القرآن هي طرق برهانية تفيد العلم للعامة وللخاصة ، والخاصة عنده يدخل فيهم الفلاسفة ، والطرق التي لأولئك هي مع طولها وصعوبتها لا تفيد العلم لا للعامة ولا للخاصة.
هذا مع أنه لم يقدر القرآن قدره، ولم يستوعب أنواع الطرق التي في القرآن، فإن القرآن قد اشتمل على بيان المطالب الإلهية بأنواع من الطرق وأكمل الطرق"[1].

المطلب الثاني: تقرير دلالة العناية على الربوبية .

قرّر شيخ الإسلام –رحمه الله – دلالة العناية على الربوبية من خلال بيان مقدمتين:
الأولى: أن هناك حكماً ومنافع مطلوبة.
والثانية: أنه لا بدَّ لذلك من فاعل قاصد مريد.
وبيَّن –رحمه الله- أن هاتين المقدمتين ضروريتان ، فالأولى: حسية والثانية عقلية.
وبيَّن –رحمه الله- أن الفلاسفة معترفون بهاتين المقدمتين فهم معترفون بأن :

- في المخلوقات منافع ومقاصد وحكم موافقة للإنسان وغيره.
- ومعترفون بأن هذه الموافقة ضرورة من قبل فاعل قاصد مريد.

قال شيخ الإسلام معلِّقا على اعترافهم بذلك:

---

[1](?) "درء التعارض" (9/333).

"ولا ريب أن الاعتراف بهذا ضروري ، كالاعتراف بأن المحدث لابدَّ له من محدث، والممكن لابدَّ له من مرجح، فكما أن هناك مقدمتين:
إحداهما: أن هنا حوادث مشهودة ، والحادث لابدَّ له من محدث .
والأولى: حسية، والثانية عقلية بديهية ضرورية . وكذلك أن ها هنا ممكنات ، والممكن لابدَّ له من مرجح واجب، فكذلك ها هنا مقدمتان :
إحداهما : أن هنا حكماً ومنافع مطلوبة، والثانية: أنه لابدَّ لذلك من فاعل قاصد مريد.
وهما مقدمتان ضروريتان ، الأولى : حسية ، والثانية : عقلية فإن الإحساس بالانتفاع كالإحساس بالحدوث، وإن كان في تفصيل ذلك ما يعلم بالقياس أو الخبر"[1] .
وقرَّر -رحمه الله- أن اتساق الفعل على الحكمة وانتظامه يدل على أن له صانعاً واحداً ، وأن ذلك لا يكون عن اثنين .
قال -رحمه الله- : "وأما الطريق العقلية التي ذكرها (أي الخطابي) فهي طريق دلّ عليها القرآن ، وأرشد إليها، ونبّه عليها ، وهي الاستدلال بما يجدونه في أنفسهم وفي سائر المصنوعات من آثار الصنعة ، ودلائل الحكمة الشاهدة على أن لها صانعاً حكماً عالماً خبيراً ... إلى قوله[2] (أي الخطابي) : " فعن هذه الوجوه ثبت عندهم أمر الصانع وكونه، ثم تبينوا وحدانيته وعلمه وقدرته بما شاهدوه من اتساق أفعاله على الحكمة ، واطّرادها في سبلها وجريها على إدلالها " وهذا لأن الفعل الواحد المتسق المنتظم لا يكون عن اثنين ، ولا يكون إلاّ عن عالم قادر"[3] .

---

[1] "بيان تلبيس الجهمية" (2/21) ، وانظر (2/19-20) ، وانظر "الكشف عن مناهج الأدلة"ص(118).
[2] هكذا في الأصل.
[3] "درء التعارض" (7/309-310) ، وانظر "مدارج السالكين" (3/339)، ونظر " الغنية عن الكلام وأهله " للخطابي ص (15-

المطلب الأول : المراد بدلائل النبوة .

المراد بدلائل النبوة:
الــدلائل الدالة على صــدق نبــوة الأنبيــاء –عليهم الصــلاة والسلام- والاستدلال بذلك على توحيد الربوبية.
كالآيات "المعجزات" مثلاً:
التي أجراها الله -تعالى- على أيـدي الرسل تصـديقاً لهم.
فإنها أدلة صريحة في الدلالة على الربوبية ، كما أنها أدلة دالة على صدق الرسل .
قـال ابن القيم –رحمه اللـه- : "وهـذه الطريق من أقـوى الطــرق وأصــحها وأدلها على الصــانع وصــفاته وأفعالــه، وارتبـاط أدلة هـذه الطريق بمـدلولاتها أقـوى من ارتبـاط الأدلة العقلية الصريحة بمــدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسـها ، ولهـذا يسـميها الله -سبحانه- آيـات بينـات، وليس في طـرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فـإن انقلاب عصا تُقِلُّها اليد ثعبانـاً عظيمـاً يبتلع ما يمّر به ثم يعــود عصا كما كــانت من أدل الــدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسـول، وعلى المبـدأ المعـاد.

(16).

فكل قواعد الــدين في هــذه العصــا، وكــذلك اليد وفلق البحر طرقــاً والمــاء قــائم بينهما كالحيطــان، ونتق الجبل من موضــعه ورفعه على قـــدر العســـكر العظيم فـــوق رؤوســـــهم، وضـــــرب حجر مربع بعصا فتســـيل منه اثنتا عشرة عيناً تكفي أمة عظيمة، وكذلك سائر آيات الأنبياء، فإخراج ناقة عظيمة من صخرة تمخضت بها ثم انصدعت عنها، والناس حولها ينظــرون ، وكــذلك تصــوير طــائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائراً ذا لحم ودم وريش وأجنحة يطير بمشهد من النــاس، وكــذلك إيمــاء الرســول إلى القمر فينشق نصــفين بحيث يــراه الحاضر والغــائب فيخـــبر به كما رآه الحاضـــرون، وأمثـــال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصــفاته وأفعاله وصــدق رســله واليــوم الآخر وهــذه من طــرق القــرآن الــتي أرشد إليها عباده ودلّهم بها"[1] .

المطلب الثاني : تقرير دلالة دلائل النبوة على توحيد الربوبية .

قررّ شيخ الإسلام-رحمه اللــه- أن النبــوة تــدل على توحيد الربوبية فقـــال عند حديثه عن قصة موسى مع فرعـــون : "وبنبوته يُستدل على تفصيل صفات الله وأســمائه، وعلى توحيــده الــذي هو عبادته وحــده لا شــريك له وهو توحيد الإلهية، وكذلك على توحيد الربوبية"[2]

وبيّن –رحمه الله- أن هذه الطريقة في الاستدلال جاء بها القــرآن فقــال : "وقد جــاء القــرآن بها في قصة فرعــون، فإنه كان منكراً للرب. قال تعـــالى: ﭽ□□ □□□□□□□□□□□ □□ﯽﯾﯿﭼ إلى قولــه : ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚ ﭛﭜﭝ ﭞﭟﭠﭡﭢ ﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻ ﭼﭽﭾﭿﮀﮁ□□□□□□ ﮂﮃﮄ□□□□ ﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍ□ ﮎﮏ□□ ﭼ[3] فهنا قد عرض عليه موســى الحجــة البينــة الــتي جعلهــا دليلاً على صــدقه في

---

[1] "الصــواعق المرســلة" (3/1197-1198)ـ ، وانظر "مختصر الصواعق" (2/487-490).

[2] "درء التعارض" (7/308).

[3] سورة الشعراء ، الآية (16-33).

كونه رسول رب العالمين ، وفي أن له إلهاً غير فرعون يتخذه ، وكذلك قال تعالى: ﭽﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮ ﭯﭰﭱﭼ فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة... وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله ، فتتقرّر بها الربوبية والرسالة"[1].

وبيّن – رحمه الله- أن هذه طريقة السلف من أئمة المسلمين في الاستدلال على معرفة الصانع وحدوث العالم.[2]

وشيخ الإسلام قرَّر :

أنَّ النبوة والرسالة إذا ثبتت بالآيات علم أن هناك مرسلاً أرسله ؛ لأن العلم بالرسول يتضمن العلم بالمرسل[3] .

وأيضاً :

فإنه إذا ثبتت النبوة بالآيات وجب تصديق النبي فيما أخبر به من الغيوب، وما دعا إليه من أمر وحدانية الله تعالى وغير ذلك[4] .

وقرّر –رحمه الله- أن الآيات "المعجزات" "التي هي فعل خارق للعادة تدلّ بنفسها على ثبوت الصانع، كسائر الحوادث بل هي أخصّ من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يسبح الرب عندها، ويمجد ويعظم، ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد؛ إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها، وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله ، فتتقرّر بها الربوبية والرسالة"[5] .

---

[1](?) " مجموع الفتاوى" (11/ 378-379).

[2](?) انظر "درء التعارض" (8/352).

[3](?) انظر "درء التعارض" (9/40-41)

[4](?) انظر "المصدر السابق" (8/352).

[5](?) "مجموع الفتاوى" (11/379)ـ ، وانظر "درء التعارض" (7/307-308) (8/353-354) (9/41).

وقرّر –رحمه الله-:
أن دلالة الآيـات "المعجـزات" كـانقلاب العصا حيّة أعظم من دلالة ما اعتيد من خلق الإنسـان من نطفــة، وأنه إذا كان خلق الإنسان يدل بنفسه على إثبات الصانع فـانقلاب العصا حية من باب أولى.
قال –رحمه الله- عند حديثه عن قصة موسى مع فرعـون والســحرة ودلالة معجــزة موسى فيها على الربوبية : "ولهـذا قـال السـحرة لما عارضـوا معجزته بسـحرهم، فبطل ســحرهم، وتبيَّــن أن تلك آية لا يقــدر عليها المخلوقون" ﭴﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﭼ[1] فكان إيمانهم بالله لما شاهدوا معجزة موسى –صلى اللـه عليـه وسـلم- فكـانت المعجزة مبينة للعلم بالصـانع وبصـدق رسـوله، وذلـك أن الآيات التي يستدل بها على ثبـوت الصـانع تـدلّ المعجـزة كــدلالتها وأعظم ... وبالجملــة فــانقلاب العصــاحية يــدل نفسه على ثبوت صانع قـدير عليم حكيم أعظم من دلالـة ما اعتيد من خلق الإنسان من نطفة، فإذا كـان ذاك يَـدُل بنفسه على إثبات الصانع فهذا أولى "[2] .

---

[1] سورة الشعراء، الآية (47-48).
[2] "درء التعارض" (9/43-44).

المطلب الأول : المراد بالأدلة العقلية النقلية .

الأدلة الشرعية تنقسم إلى قسمين :
الأول: أدلة شرعية . ويطلق عليها : نقلية ، وسمعية.
وهي التي ثبتت بمجرد الخبر.
الثاني: أدلة شرعية عقلية
وهي التي ثبتت بطريق الشرع والعقل .
قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "ودلالة القرآن على الأمور نوعان":
أحدهما : خبر الله الصادق ، فما أخبر الله ورسوله به فهو حق كما أخبر الله به.
والثاني: دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب، فهذه دلالة شرعية عقلية.
فهي شرعية؛ لأن الشرع دلَّ عليها وأرشد إليها.
وعقلية؛ لأنها تعلم صحتها بالعقل. ولا يقال : إنها لم تعلم إلاَّ بمجرد الخبر وإذا أخبر الله بالشيء ودلَّ عليه بالدلالات العقلية صار مدلولاً عليه بخبره، ومدلولاً عليه بدليله العقلي الذي يعلم به . فيصير ثابتاً بالسمع والعقل وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى "الدلالة الشرعية"[1] .
وقد يعبّر عن القسم الثاني بالدليل العقلي ، ويراد به العقلي الشرعي. قال شيخ الإسلام –رحمه الله-: "الأدلة الشرعية نوعان : عقلي وسمعي، فالعقلي: ما دلَّ الشرع عليه من المعقولات ، والسمعي : ما دلَّ بمجرَّد الإخبار"[2] .
فالعقلي هنا المراد به : ما ثبت بالشرع والعقل.
وقال -رحمه الله- عن طرق الاستدلال الشرعية : "والطرق نوعان: سمعية وعقلية، وإن كانت العقلية هي أيضاً شرعية سمعية، باعتبار أن السمع دلَّ عليها وأرشد إليها، وأن الشرع

---

[1] "مجموع الفتاوى" (6/71-72).
[2] "درء التعارض" (8/37).

أحبها ودعا إليها"[1] .
وبناءً على ما سبق فإن المراد بالأدلة العقلية النقلية هنا : هي الأدلة التي ثبتت بطريق العقل والنقل.
ومن الأمثلـة على الأدلـة العقليـة النقليـة : الآيـات الثلاثـة التي سيأتي الكلام عنها .

الفرع الأول : تقرير دلالة قوله تعالى : ﭼﭽﭾﭿﮀﮁ ﮂﮃﮄﮅﮆﮇﭽ **على الربوبية** .

ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله- أن قوله تعالى : ﭼﮃﮄﮅﮆ ﭽ[2] فيها قولان معروفان للمفسرين :
الأول :
أن قوله : ﭼﮃﮄﮅﮆﭽ أي : بالتقرب إليه بالعبادة والسؤال له.
والمعنى:
لو كان الأمر كما يقوله المشركون من أن مـع اللــه آلهـة أخرى لا بتغت تلك الآلهة سبيلاً بالتقرب إلى الله وطاعته،

---

[1] "شرح الأصبهانية" ص (468).
[2] سورة الإسراء ، الآية (42).

فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولـون لكانوا عبيداً له.
وهذا مروي عن قتادة ، واقتصر عليه ابن جرير الطبري.
الثاني:
أن قوله: ﭽﮉﮊﮋﮌﭼ بالممانعة والمغالبة.
والمعنى:
لو كان الأمر كما يقولوه المشركون من أن مع اللـه آلهـة أخرى لا تبعت تلك الآلهة سـبيلاً إلى اللـه بمغالبتـه وإزالـة ملكـه؛ لأنهم يكونـون شـركاءه كمـا يفعـل ملـوك الـدنيا بعضهم ببعض
وهـذا المعـنى مـروي عن ابن عبـاس، وسـعيد بن جبـير ، والحسن ، وصححه البغوي[1] .

وصحح شيخ الإسلام القول الأول لعدة أوجه:
الوجه الأول:
أن المشركين لم يقولوا: إن آلهتهم تغـالب الـرب-تعـالى- وتمانعه وتطلب العلو عليه ، وهو -سبحانه- قد قال : ﭽﭼﭽ ﭾﭿﮀﮁﮂﭼ وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقال: لو كان الأمر كمـا يقولـون لكانت تلك الآلهة عبيداً له فلماذا تعبدون عبيده من دونه.
الوجه الثاني:
أنـــه ســـبحانه لم يقـــل: "لا تبغـــــوا على ذي العـــرش سبيلاً"بل قال: ﭽﮉﮊﮋﮌﭼ ، وهذا اللفظ إنما يستعمــل في التقريب كقوله: ﭽﯓﯔﯕﯖﯗﭼ[2] ، وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى كقوله : ﭽﭬﭭﭮﭯﭰﭼ [3] .
الوجه الثالث:

---

[1] انظر "درء التعارض" (9/350) ، و "جامع البيان" (15/115) ، و"معـالم التنزيـل" (2/684)، و "زاد المسـير" (5/29) ، و "أضواء البيان" (3/433-434).
[2] سورة المائدة ، الآية (35).
[3] سورة النساء ، الآية (34).

أن اتخاذ السبيل إليه مأمور به كقوله: ﭽﯕﯖﯗﭼ[1] ، وقوله: ﭽﯘﯙﯚﯛﯜﯝ ﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﭼ[2] فبيَّن أن الذين يدعون من دون الله يطلبون إليه الوسيلة، وهـذا مناسـب لقوله : ﭽﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼ[3] .

وبناءً على ذلك :

فإن الآية عنـد شـيخ الإسـلام هي لتقريـر توحيـد الألوهيـة وتـدل على الربوبيـة من جهـة التضـمن واللـزوم ، فـإن الألوهية تسـتلزم وتتضـمن الربوبيـة كمـا قـرّر ذلـك شـيخ الإسلام[4]. وأمَّا على القول الثـاني فـإن الآيـة هي لتقريـر توحيد الربوبية، الذي يلزم منه توحيد الألوهية.

الفرع الثاني: تقرير دلالة قوله تعالى: ﭽﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﭼ **على الربوبية**

---

[1] سورة المائدة ، الآية (35).

[2] سورة الإسراء ، الآية (56-57).

[3] انظر "درء التعـارض" (9/350-351) ، و "المسـتدرك على مجمـوع الفتـاوى"(1/188-189) ، و "مجمـوع الفتـاوى" (16/123-124) ، و "منهاج السنة" (3/331).

[4] انظر ص (36-37) .

يرى شيخ الإسلام أن الآية هي لتقرير الألوهية ، وتقرِّر الربوبية عنده من جهة التضمن واللزوم . ومن خلال معرفة المراد بالفساد في الآية ومعرفة سببه يظهر رأي شيخ الإسلام في ذلك .

فإن شيخ الإسلام تحدّث عن المراد بالفساد في الآية وسببه في مواضع كثيرة، وتحدّث عن وجه فساد السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة إلاَّ الله.

فبيّن –رحمه الله- أن الفساد ضد الصلاح، وأن جماع صلاح الآدميين هو طاعة الله ورسوله، وهو فعل ما ينفعهم وترك ما يضرهم، والفساد عكس ذلك وهو فعل ما يضرهم وترك ما ينفعهم ، وجماع فسادهم معصية الله ورسوله وأعظم المعاصي الشرك بالله تعالى[1] .

وبيّن –رحمه الله- أن الفساد ناشيء عن كون الأعمال لغير الله، بمعنى أنه ناشيء عن الوقوع في الشرك.

وبيّن –رحمه الله- وجه كون الشرك بالله في عبادته سبب لفساد السماوات والأرض : وذلك أنه لو جاز أن يشرع أن تكون المخلوقات آلهة معبودة لذواتها لزم من ذلك تجويز عبادة كل شيء وتجويز كل فعل وكل قصد، وذلك مستلزم فساد السماوات والأرض.

قال –رحمه الله-: "فقد تبين بذلك أنه لا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات مقصوداً لنفسه، لا مقصوداً له ولا مقصوداً لغيره، وأن ذلك مستلزم لكون شيء من المخلوقات لا يكون رباً بنفسه ، لا رباً لنفسه ولا رباً لغيره، لكن هذا ممتنع الوقوع كما اعترف به المشركون .وأما الأول فهو محرم الوقوع بمعنى : أنه إذا وقع كان فيه فساد، لكون الحركات إلى غير غاية نافعة، بل إلى غاية ضارة ، كما قال تعالى: ﭽﯗ￼￼￼￼ﯥﯦﭼ[2] ولم يقل: عُدِمتا ، إذ لو جاز أن يشرع أن تكون المخلوقات آلهة مقصودة معبودة لذواتها لزم من ذلك تجويز عبادة

[1] انظر "درء التعارض" (9/372).

[2] سورة الأنبياء ، الآية (22).

كل شيء ، وتجويز كل فعل وكل قصد ، وذلك مستلزم فساد السماوات والأرض ، قال الله تعالى: ﭽﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﭼ [1] فإذا لم يكن الدين لله فتكون حركات العباد لغير الله كانت الفتنة والفساد ، فالصلاح أن تكون الحركات لله ، والفساد أن تكون لغير الله"[2] وقال –رحمه الله- عند حديثه عن آية الأنبياء وما وقع فيه أهل الكلام من الخطأ : "والقرآن إنما أخبر بفسادهما لم يخبر بعدمهما ، والفساد يكون عن الإرادات الفاسدة وهو ضد الصلاح الذي يكون عن الإرادات الصالحة ، والله قد أمر بالصلاح ونهى عن الفساد في غير آية"[3] .

وقال: "فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات بل كان العالم يفسد، وهذا معنى قوله: "ﭽﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﭼ ولم يقل "لعدمتا"[4] .

وقال: "والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب، وكونه يستحق الإلهية مستلزم لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبوداً محبوباً لذاته إلاّ هو ، وكل عمل لا يراد به وجهة فهو باطل، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد كما قال تعالى: ﭽﯚﯛ ﯜ ﯝﯞ ﯟﯠﭼ وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع، وبينا أن هذه الآية ليس المقصود بها ما يقوله من يقوله من أهل الكلام من ذكر دليل التمانع الدال على وحدانية الرب تعالى، فإن التمانع يمنع وجود المفعول لا يوجب فساده بعد وجوده ، وذلك يذكر في الأسباب والبدايات التي تجري مجرى العلل الفاعلات، والثاني يذكر في الحكم والنهايات التي تذكر في العلل التي هي الغايات كما في قوله: ﭽﭢﭣﭤﭥﭼ[5] فقدم الغاية المقصوده على الوسيلة الموصولة "[6] وقال

---

[1] سورة الأنفال ، الآية (39).

[2] "جامع المسائل" (6/126-127).

[3] "جامع المسائل" (6/174-185).

[4] "شرح حديث النزول" ص (384).

[5] سورة الفاتحة ، الآية (5).

[6] " اقتضاء الصراط المستقيم" (2/855- 856).

: "ومن المعلـوم أن كـلَّ حي فلـه إرادة وعمـل بحسـبه ، وكـل متحـرك فأصـل حركتـه المحبـة والإرادة ، ولاصـلاح للموجودات إلاّ أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعـالى، كما لا وجود لها إلاَّ أن يبدعها الله ، ولهذا قال تعالى: ﭽ ﯘ ﭼ ولم يقل : لعدمتا ، إذ هو قادر على أن يبقيها على وجهة الفساد لكن لا يمكن أن تكـون صـالحة، إلاَّ أن يعبد الله وحده لا شـريك لـه ، فـإن صـلاح الحي إنمـا هـو صلاح مقصوده ومراده، وصلاح الأعمال والحركات بصـلاح إرادتها ونياتها"[1] .

وقال: "فلا تطمئن القلوب إلاَّ به ، ولا تسكن النفــوس إلاَّ إليه ، و ﭽ ﯘ ﭼ فكل مألوه سواه يحصل به الفساد، ولا يحصل صلاح القلوب إلاَّ بعبـادة اللـه وحـده لا شريك له "[2] .

وبيَّن -رحمه الله- معاني غير صحيحة في المراد بالفســاد في الآية وردَّ عليها فقال بعد ذكره لكلام لابن رشد :

"الفساد المذكور في الآيـة لم يـوقِّت بـوقت مخصـوص ، والفســاد ليس هــو امتنــاع الوجــود يُقَدِّر عنــد تمــانع الفاعلين ، إذا أراد أحدهما شـيئاً وأراد الآخـر نقيضـه ، ولا هـو أيضـاً امتنـاع الفعـل الـذي يُقَدِّر عن كـون المفعـول الواحد لفاعِلَين ، فإن هذا كله يقتضي عدم الوجود ، وأمـا الفساد فهو ضد الصلاح كما قال تعالى : ﭽ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﭼ[3] وقال تعالى : ﭽ ﮩ ﮪ ﮫ ﭼ[4] ، وقــال : ﭽ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﭼ[5] وقال : ﭽ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﭼ[6] وقال : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭼ[7] وقالت

(?)[1] "جامع الرسائل" (2/200-201).

(?)[2] "مجموع الفتاوى" (1/55)

(?)[3] سورة البقرة ، الآية (11).

(?)[4] سورة الأعراف ، الآية (142).

(?)[5] سورة الأعراف ، الآية (56).

(?)[6] سورة البقرة ، الآية (205).

(?)[7] سورة المائدة ، الآية (32).

الملائكة : "ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭼ[1] وقال تعالى : ﭽ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ
ﭼ[2] وقال تعالى : ﭽ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﭼ[3] وجماع الصلاح للآدمين هو : طاعة الله ورسوله، وهو فعل ما ينفعهم وترك ما يضرهم ، والفساد بالعكس، فصلاح الشيء هو : حصول كماله الذي به تحصل سعادته ، وفساده بالعكس ، والخلق صلاحهم وسعادتهم في أن يكون الله هو معبودهم ، الذي تنتهي إليه محبتهم وإرادتهم ، ويكون ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات، ولهذا كان كل عمل يُعمل لغير الله لا ينفع صاحبه بل قد يضر ، وكانت أعمال الذين كفروا : ﭽ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﭼ[4] ، قال تعالى : ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭼ[5] فعبادته هي الغاية التي فيها صلاحهم..." [6] .

وبناءً على ما سبق فإن الآية عند شيخ الإسلام هي لتقرير توحيد الألوهية وهذا ما ذكره إمام المفسرين ابن جرير الطبري حيث قال عند تفسير الآية:: "يقول تعالى ذكره: لو كان في السماوات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء ، وله العبادة ، والألوهة التي لا تصلح إلاّ له "لفسدتا" يقول : لفسد أهل السماوات والأرض"[7] .

يبقى أن يقال :

إن هناك كلاماً لشيخ الإسلام يشكل على ما سبق ذكره عنه حيث قال في الآية :

"ووجه بيان لزوم الفساد أنه إذا قُدِّر مدبران ما تقدم من أنه يمتنع أن يكونا غير متكافئين لكون المقهور مربوباً لا رباً ، وإذا كانا متكافئين امتنع التدبير منهما ، لاعلى سبيل

(?)[1] سورة البقرة ، الآية (30).

(?)[2] سورة المائدة ، الآية (33).

(?)[3] سورة المؤمنون ، الآية (71).

(?)[4] سورة إبراهيم ، الآية (18).

(?)[5] سورة الذاريات ، الآية (56).

(?)[6] "درء التعارض "(371/9-373)

(?)[7] "جامع البيان" (17/20).

الاتفـاق ولاعلى سـبيل الاختلاف ، فيفسـد العـالم بعـدم التـــدبير، لا على ســـبيل الاســـتقلال ، ولا على ســـبيل الاشتراك كما تقدم. وهذا من جهة امتناع الربوبية لاثنين ، ويلزم من امتناعهما امتناع الإلهية فإن ما لا يفعل شـيئاً لا يصلح أن يكون رباً يُعبد ، ولم يـأمر اللـه أن يُعبـد ، ولهـذا بيَّن الله امتناع الإلهية لغيره : تارة ببيان أنه ليس بخالق ، وتارة أنه لم يأمر بذلك لنا... والمقصـود هنـا أن في هـذه الآية بيان امتناع الألوهيـة من جهـة الفسـاد الناشـيء عن عبـادة مـا سـوى اللـه تعـالى ؛ لأنـه لإصـلاح للخلـق إلاَّ بـالمعبود المـراد لذاتـه، من جهـة غايـة أفعـالهم ونهايـة حركاتهم..." [1] .

فهـذا الكلام يفهم منـه أنـه يـرى أن الآيـة تقـرّر توحيـد الربوبية فإمَّا أن يقال :

1- إن شيخ الإسلام يرى أن الآية هي لتقرير الألوهيـة ولتقرير الربوبية .
2- أو أن يقال :

إنــه يــرى أن الآيــة هي لتقريــر الألوهيــة ، وهي لتقريــر الربوبية من جهـة التضـمن واللـزوم ؛ لأنهـا إن دلت على الألوهية ، فإن الألوهية تستلزم وتتضمن الربوبية .

وهذا هو الظاهر ويدل عليه :

تصريح شيخ الإسلام في مواضع أُخـر أن المقصـود بالآيـة الذي أُنزلت لتقريره هو توحيد الإلهية لا توحيد الربوبية .

وأن الإلهية هنا في الآية تستلزم وتتضمن الربوبية .

قال –رحمه الله- عند كلامه عن الآية : "فلم يقل أحد من العقلاء : إن المفعول الواحد صدر عن اثنين ، وهذا توحيد الربوبيــة ، وهــو متفــق عليــه بين العقلاء ،ولم يكن هــو المقصود بالذكر ، ولا الآية أنزلت لتقريره ، كما يظنـه من يظنه من المتكلمين ، وإنما هي لتوحيد الألهيـة المسـتلزم لتوحد الربوبية ، وهو الذي قصدناه في هذا الموضع"[2] .

---

[1] (?) "منهاج السنة" (3/333-334)، وانظر"مجمـوع الفتـاوى" (1/24) ،و"جامع الرسائل" (2/401).

[2] (?) "جامع المسائل" (6/98).

وقال : "... قد تبيّن بالقياس العقلي : امتناع أن يكون معبود إلاَّ الله ، كما امتنع أن يكون ربٌّ إلاَّ الله ، وهذا قصد بقوله : ﭽﯙ ﯚﯛ ﯜﯝ ﯞﯟﭼ قصد نفي إله سواه ، ولهذا قيل : "لفسدتا"وهذا يتضمن نفي رب غيره .

والمتكلمون قصّروا في معنى الآية من وجهين :

أحدهما : من جهة ظنهم أنه إنما معناه نفي تعدد الأرباب فقط ، كما أقاموا هم الدليل على ذلك .

والثاني : "ظنهم أن دليل ذلك هو ما ذكروه من التمانع..." [1]

والخلاصة :

أن الآية عند شيخ الإسلام هي لتقرير الألوهية ، وهي تقرر الربوبية من جهة التضمن واللزوم ، فإن الألوهية تستلزم وتتضمن الربوبية .

وبعض المفسرين كالبغوي وغيره لما فسّر الآية ذكر ما يدل على أنها لتقرير الربوبية .

فإن البغوي لما فسر الآية قال : " ﯙ ﯚ " أي : من السماء والأرض " ﯛﯜﯝ"أي : غير الله . " ﯟ" لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع من الآلهة ؛ لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام"[2] .

وعلى هذا التفسير فإن الآية ظاهرةٌ في تقريرها للربوبية والربوبية تستلزم إفراد الله تعالى بالألوهية.

الفرع الثالث: تقرير دلالة قوله تعالى : ﭽﭒﭓﭔﭕ ﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭼ **على الربوبية.**

قــرّر شــيخ الإســلام أنــه ليس في أهــل الأرض من أثبت للعالم خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، ولكن مع ذلك هناك من أشرك في بعض الربوبية كالثنوية ، والفلاسفة الدهرية ، والقدرية . وكذلك مشركو العرب

---

[1] "المصدر السابق" (6/174).

[2] "معالم التنزيل (3/155) ، وانظر "زاد المسير" (5/254) ، و "الجامع لأحكام القرآن" (11/185).

فإنهم وإن كـانوا مقـرين بالربوبيـة إلا أنـه وجـد فيهم من أشرك ببعض الربوبية .
وشيخ الإسلام قرّر أنه لما كان هـذا الشـرك موجـوداً في الناس بيَّن القرآن بطلانه كما في هذه الآية .
قال –رحمه الله - : "وقد قلنـا: أنـه ليس في أهـل الأرض من أثبت للعالم خالقين متماثلين في الصفات والأفعـال ، بل هذا ممتنع لذاته ، وامتناعه ظاهر في العقول ، بخلاف ما يظنه كثير من أهل الكلام والفلسفة كمـا سـنبينه ، بـل الـذي ذهب إليـه بعضـهم أن يكـون ثَمَّ خـالق خلـق بعض العـالم ،كمـا تقولـه الثنويـة في الظلمـة ، وكمـا تقولـه القدرية في أفعال الحيوان، وكما تقول الفلاسفة الدهريـة في حركـــة الأفلاك ، أو حركـــات النفـــوس والأجســـام الطبيعية ، فإن هؤلاء ونحوهم يثبتون أموراً محدثـة بـدون إحـــداث اللـــه -تعـــالى- إياهـــا، فهم مشـــركون في بعض الربوبية ، وكثير من مشركي العـرب وغـيرهم قـد يظـــن في آلهته شيئاً من هـذا ، وأنهـا تنفعـه وتضـره ، بـدون أن يخلـق اللـه ذلـك، فلمـا كـان هـذا الشـرك في الربوبيـة موجـوداً في النـاس بيّن القـرآن بطلانـه ، كمـا في قولـه تعالى : ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩﭼ[1] "[2] .
فالآيـة عنـد شـيخ الإسـلام هي لتقريـر توحيـد الربوبيـة .
وتقرير دلالة الآية على الربوبية :
أنه لو قُدِّر إلهان للزم :

1- أن يذهب كل إلـــه بما خلق ، فيكون مفعـول كـل منهمـا مسـتغنٍ عن مفعـول الآخـر ، ومتمـيز عنـه والموجود خلافٌ هذا .

قال شيخ الإسلام : "فتبين أنه لو كان مع الله آلهـة تخلـق لذهب كل إله بما خلق والموجود خلاف هذا ، فإن العــالم مرتبط بعضه ببعض ، متعلق بعضه ببعض ، ما من مخلوق إلاَّ وهـو متصـل بغـيره من المخلوقـات ، محتـاج إليـه ،

---

[1] سورة المؤمنون ، الآية (91).
[2] "شرح الأصبهانية" ص (133-134)، وانظر "منهاج السنة" (3/312-313).

مرتبط به . فالحيوان الواحد ، والنبات الواحد من أصل ، وذلك الأصل من غيره ، وهلُمَّ جَرًّا ، وهو أيضاً مفتقر إلى الهواء والماء والتراب ، بل وإلى أنواع النبات والحيوانات ، ومفتقر إلى أثر الشمس والقمر والليل والنهار وغير ذلك . والفلك مرتبط بعضه ببعض ، والأفلاك مفتقرٌ بعضها إلى بعض . والعالم العلوي مرتبط بالعالم السفلي . فلو قُدِّر أن صانع الأرض غير صانع السماء ، وأنه مستغن عنه ، لا يُغيّر أحدهما مصنوع الآخر : لزم من ذلك أن لا يكون ما في السماء مؤثراً في الأرض فلا تؤثر الشمس والقمر في الأرض ، وأن يكون ما يَصْعد من الأبْخرة والأدْخِنة لا تؤثر في نور الشمس والقمر ، والهواء إن كان لرب السماء لزم أن لا تؤثر فيه الأبخرة والأدخنة والأغْبرة ، وإن كان لرب الأرض لزم أن لا تؤثر فيه الشمس ولا غيرها بالتسخين ولا غيره ، من حوادث الجو : كالسحاب والمطر وغير ذلك من الحوادث التي تحدث بأسباب سماوية ، وهذا أمر واسع لمن اعتبره فتبيّن انتفاء اللازم في قوله تعالى : " ﭥﭦﭧﭨﭩ" وحذف سبحانه نفي اللازم لظهوره ووضوحه ، فإن ذهاب كل إله بمخلوقه وانفراده به ، واستقلاله به أمرٌ يظهر بطلانه لعموم العقلاء ، والمقدمات الظاهر البيِّنة لا يحتاج إلى ذكرها في البيان الفصيح ، الذي هو طريقة القرآن"[1] .

2- اللازم الثاني :

أن يعلو بعضهم على بعض؛ " لأن كونهما قادرين يوجب أن كلاًّ منهما غنيٌ في قدرته عن الآخر وأنه يمكنه أن يفعل بدونه .

فيمتنع أن يفعلا شيئاً ، سواء كانا متفقين ؛ لامتناع صدور الفعل الواحد عن فاعلين ، أو كانا مختلفين ؛ لأن ذلك يستلزم التمانع ، فيكون كل منهما مانعاً للآخر ، فلا بدّ أن يكون أحدهما هو القادر دون الآخر ، فيكون القادر هو

---

[1](?) "شرح الأصبهانية" ص (146-147).

القاهر للآخر فيعلو عليه كما قال تعـالى : "   ٹ ٹ ڤ ڤ " [1] .

قال شيخ الإسلام –رحمـه اللـه- : "فهـذه الآيـة ذكـر فيهـا برهانين يقيـنين على امتنـاع أن يكـون مـع اللـه إلـه آخـر بقوله : " ٹٹٹ ٹٹٹٹٹڤڤ " وقد عُرف أنه لم يذهب كل بمـا خلـق ، ولا علا بعضـهم على بعض ، وتُـرك ذكـر هـذا لعلم المخاطبين به ، وأن ذكره تطويـل بلا فائـدة ، وهـذه طريقــة القــرآن ، وطريقــة الكلام الفصـيح البليـغ ، بــل وطريقـة عامـة النـاس في الخطـاب : يـذكرون المقدمـة التي تحتـاج إلى بيـان ، ويـتركون مـا لا يحتـاج إلى بيـان . مثل أن يقال : لم قلتم : أن كل مسكر حـرام ؟ فيقـال : لأنه قد صح عن النبي –صلى الله عليه وسلم – أنه قال : "كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام" [2] وقد علم أن قـول النبي –صلى اللـه عليـه وسـلم – حجـة يجب اتباعهـا ، فلا يحتاج أن نذكر هذا ومثل هذا قوله تعالى : ﭽﯙ   ﯚﯛﭼ [3] أي : وما فسدتا ، فليس فيهما آلهة إلاّ الله ، وهــذا بيّن لا يحتــاج إلى أن يــبين بالخطــاب ، فــإن المقصــود من الخطاب البيـان ، وبيـان الـبيِّن قـد يكـون من نـوع العيّ ، وبيان الدليل قد يكون محتاجـاً إلى مقدمـة واحـدة ، وقـد يكـون محتاجـاً إلى مقـدمتين ، وإلى ثلاث وأكـثر ، فيـذكر المستدل ما يحتـاج إلى بيـان دون مـا لا يحتـاج إلى بيـان " [4] .

---

[1] "الصفدية" (2/169-170) ، وانظر "شرح الأصبهانية" ص (150-151).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ح (5221) ، وأخرجه البخاري في صحيحه بلفظ "كل مسكر حرام" ح (4343-4345).

[3] سورة الأنبياء ، الآية (22).

[4] "منهاج السنة " (3/313-314) ، وانظر من كتب التفسير لبيـان تقرير الآية على الربوبية : "معـالم التنزيـل" (3/255) ، و"زاد المسير" (5/354) ، و "الجامع لأحكام القرآن" (12/98) ، و "تفسير القرآن العظيم" (3/264).

وبيّن شيخ الإسلام أن أحد البرهانين في الآية مستقل عن الآخر ليس مبيناً عليه وبيَّن وجه ذلك فقال : "وأحد البرهانين ليس مبنياً على الآخر، بل كل منهما مستقل ، وكل منهما لازم على تقدير إله آخر، ليس اللازم أحدهما ، فإنه لما امتنع الاشتراك في فعل واحد ومفعول واحد على سبيل الاستقلال وعلى سبيل التعاون ، لزم أن يذهب كل آله بما خلق . ولما امتنع اجتماع ربين متكافئين لزم علو بعضهم على بعض ، وكل منهما منتفٍ ؛ لأن المخلوقات مرتبط بعضها ببعض؛ ولأن المقصود ليست قدرته من نفسه بل من غيره ، فيكون مربوباً لا رباً "[1] .

والآية وإن كانت لتقرير توحيد الربوبية فهي دالة بطريق اللزوم على الألوهية ،كما قال ابن أبي العز الحنفي[2] : "فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقرَّ في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة ملزمة لتوحيد الإلهية"[3] .

وشيخ الإسلام –رحمه الله- يرى أن إثبات الربوبية يستلزم إثبات الإلهية، وبناءً عليه فالآية عند شيخ الإسلام تقرر الألوهية بجهة اللزوم .

---

[1] "منهاج السنة" (3/329).

[2] علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، الدمشقي ، فقيه ، كان قاضي القضاة بدمشق ، ثم بالديار المصرية ، ثم بدمشق ، امتحن بسبب اعتراضه على قصيدة لابن أيبك الدمشقي، له كتب منها "شرح العقيدة الطحاوية" و "التنبيه على مشكلات الهداية" في الفقه ، توفي سنة (792)هـ . انظر "الأعلام" (4/313) ، و "معجم المؤلفين" (2/480).

[3] "شرح العقيدة الطحاوية" (1/139).

الفرع الأول: تقرير دليل التمانع عند المتكلمين .

مـادة "منع " تعـني خلاف الإعطـاء ، وهو أن تحـول بين الرجل وبين الشـيء الـذي يريـده ومنعت الرجل عن الشيء فامتنع منه، ومانعته الشيء ممانعة[1] .

ولفظ "التمـانع" ورد في كتب المتكلمين ، واسـتدلوا به على وحدانية الله -تعالى- في ربوبيته.

وشيخ الإسـلام –رحمه اللـه- ذكر في مواضع متعـددة من كتبه تقرير دليل التمانع عند المتكلمين من ذلك قوله :

" وجه تقريـره المشـهور : أنه لو كـان للعـالم صـانعان متكافئـان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحـدهما تحريك جسم ويريد الآخر تسـكينه، أو يريد الآخر إحيـاءه ويريد الآخر إماتته إمـا :

أن يحصل مرادهما .

أو مراد أحدهما .

أو لا يحصل مراد واحد منهما .

والأول: ممتنع ؛ لأنه يستلزم الجمع بين الضدين.

والثـالث : ممتنع ؛ لأنه يلـزم خُلُّو الجسم عن الحركة والسـكون وهو ممتنـع، ويلـزم أيضـاً عجـزُ كـلٍّ منهمـا، والعـاجز لا يكـون إلها ، ولأن المـانع من فعل أحـدهما هو فعل الآخر، فلو امتنع مرادهما لزم كـون كل منهما مانعـاً للآخر وممنوعاً للآخر، وذلك يستلزم كون كل منهما قادراً غير قادر؛ لأن كونه مانعاً يقتضي القـدرة، وكونه ممنوعـاً يقتضي العجز، وذلك تناقض.

وإذا حصل مـراد أحـدهما دون الآخر كـان هـذا هو الإله القادر، والآخر عاجز لا يصلح للإلهية " [2] .

---

[1] انظر"تهذيب الغـة" (3/19) ، و "الصـحاح" (3/1066) ، و "لسان العرب" (14/133).

[2] "شرح الأصـبهانية" ص (121-122) ، وانظر "الصـفدية" (2/170-171) ، و "درء التعارض" (9/355) ، و "منهاج السنة" (3/304-305).

واستـــدل المتكلمون على دليل التمانع بقوله تعالى : ﭽﯛ ﯜﯝﯞﯟﯠﯡﭼ[1][2]

وسمِّي بدليل التمانع : لتقـديرِ تمـانع الإلهين وتخالفهمـا . [3]

الفرع الثاني : موقف شيخ الإسلام من دليل التمانع.

يرى شيخ الإسلام – رحمه الله – أن دليل التمانع دليل صحيح في نفسه على وحدانية الله -تعالى- في ربوبيته ولهذا قال : "والمقصود هنا : أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين مماثلين ، مع أن كثيراً من أهل الكلام والنظر والفلسفة تَعِبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره.. والمشهور عند النظار إثبات هذا بدليل التمانع ، وهو دليل صحيح في نفسه"[4] .

---

[1] سورة الأنبياء ، الآية (22).

[2] انظر دليل التمانع في كتب المتكلمين واستدلالهم عليه بهـذه الآية : "اللمـع" ص (21-22). و "الإنصـاف" ص (33) ، و "لمع الأدلة " ص (98-99) ، و "الإرشاد" ص (53-55) ، و "الأربعين " للرازي (1/214-215) ، و "التوحيد" للماتريدي ص (20) ، و "المختصر في أصول الدين " للقاضي عبد الجبار ص (199) .

[3] انظر "تحفة المريد على جوهرة التوحيد" ص (87)

[4] "شرح الأصبهانية" ص (121) ، وانظر ص (138).

وقال أيضاً عند ردّه على ابن رشد لما اعترض على دليل التمانع وقدح فيه :

"قلت : بل الذي ذكره النظار عن المتكلمين ، الذي سموه دليل التمانع ، برهان تام على مقصودهم ، وهو امتناع صدور العالم عن اثنين ، وإن كان هذا هو توحيد الربوبية، والقرآن يبيّن توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية لكن المقصود هنا : أن اعتراض هذا على دليل نظار المتكلمين هو اعتراض مشهور، قد ذكره غيره ، وظنوا أنه اعتراض قادح في الدلالة ، كما ذكر ذلك الآمدي وغيره ، وحتى ظن بعض الناس أن التوحيد إنما يُعرف بالسمع[1]، وليس الأمر كما ظنه هؤلاء ، بل هو برهان صحيح عقلي، كما قدّره فحول النظار"[2] .

وشيخ الإسلام –رحمه الله- لم يكتف ببيان صحة دليل التمانع في نفسه بل ردَّ على من اعترض عليه وقدح في دلالته رداً مفصلاً كما سيأتي، ومع ذلك فإن شيخ الإسلام انتقد المتكلمين في استدلالهم بدليل التمانع من عدة أوجه :

الوجه الأول:

ظنهم أن دليل التمانع هو قوله تعالى: ﭽﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞﭼ[3] ، وليس الأمر كذلك ؛ لأن التمانع يمنع وجود المفعول لا يوجب فساده.

والمفعول قد وجد فدلَّ على أن الآية ليست لتقرير التمانع الذي يذكره أهل الكلام .

الوجه الثاني :

ظنهم أن الآية لتقرير توحيد الربوبية فقط ، وتقرير ذلك لم يكن هو المقصود بالذكر، ولا الآية نزلت لتقريره بل

---

[1] انظر" أبكار الأفكار" (1/ـ 536) ، و" شرح المقاصد" (4/ 34، 38) .

[2] "درء التعارض" (9/354-355) ، وانظر (9/378) ، و "منهاج السنة" (3/312-313).

[3] سورة الأنبياء ، الآية (22).

هي لتقرير توحيد الألوهيـة المسـتلزم والمتضـمن لتوحيـد الربوبية.
الوجه الثالث:
أن الفساد المذكور في الآيـة : "ليس هـو امتنـاع الوجـود الذي يُقَّدر عند تمانع الفاعلين إذا أراد أحدهما شـيئاً وأراد الآخر نقيضه ، ولا هو أيضاً امتنـاع الفعـل الـذي يُقـدِّر عن كون المفعول الواحد لفاعلين ، فإن هذا كله يقتضي عدم الوجود وأما الفساد فهو ضد الصلاح"[1].
قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "والمتكلمون قصّروا في معنى الآية من وجهين : أحدهما : من جهة ظنهم أنه إنمـا معناها نفي تعدد الأربـاب فقـط ، كمـا أقـاموا هم الـدليل على ذلك.
والثاني: ظنهم أن دليل ذلك هـو مـا ذكـروه من التمـانع ، وليس كذلك ، فإن التمانع يوجب عـدم الفعـل ، والتقـدير أن الفعل قد وجد"[2] .
وقال: "وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفسـاد كمـا قـال تعالى: ﭽﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣﭼ[3] وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع، وبينا أن هذه الآية ليس المقصود بها مـا يقولـه من يقولـه من أهـل الكلام من ذكـر دليـل التمـانع الدالّ على وحدانية الرب تعالى، فإن التمـانع يمنـع وجـود المفعول لا يوجب فسـاده بعـد وجـوده ، وذلـك يـذكر في الأسباب والبدايات التي تجـري مجـرى العلـل الفـاعلات ، والثاني يذكر في الحكم والنهايـات الـتي تـذكر في العلـل التي هي الغايات كما في قوله: ﭽﭢ ﭣ ﭤ ﭥﭼ[4] فقدم الغاية المقصودة على الوسيلة الموصلة "[5] .

---

[1] "درء التعارض" (9/371) ، وقد سبق بيـان المـراد بالفسـاد في الآية انظر ص (342-344) .
[2] "جامع المسائل" (6/174).
[3] سورة الأنبياء ، الآية (22).
[4] سورة الفاتحة ، الآية (5).
[5] "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/856).

وقال أيضاً : "وأما التمانع الذي قدروه –أعـني المتكلمين- فذاك تمانع الإرادتين، فهذا لا يكون إلاَّ مفروضـا ، لا يمكن أن يكــون موجــوداً ، فلا يُتصــور صــدور العــالم عن ربَّين متمــانعين، بل المتمانعان لا يفعلان شيئاً وطنهم أن هــذه الآية هي دليل التمانع: غلط عظيم ، فـإن التمـانع لا يقـدر في فعـل موجـود أصـلاً... فلم يقـل أحـد من العقلاء : إن المفعول الواحد صدر عن اثـنين ، وهـذا توحيـد الربوبيـة ، وهو متفق عليـه بين العقلاء، وهـو المقصـود بالـذكر (أي في آية الأنبياء) ، ولا الآية أنزلت لتقريـره كمـا يظنـه من يظنه من المتكلمين ، وإنما هي لتوحيد الإلهيـة المسـتلزم لتوحيد الربوبية"[1] .

وقــال عنــد ردّه على ابن رشــد : "ولكن هــو (أي ابن رشـد) ظن كمـا ظن من المتكلمين أن الإلـه هـو بمعـنى الرب ، وأن دلالة الآية (أي آية الأنبياء) على انتفــاء إلهين إنمــا دلّت على انتفــاء ربيَّن فقــط، وذلــك يظهــر بتقــدير امتناع الفعل من ربين، وسنبيّن إن شاء الله أن الآية دلّت على مــا هــو أكمــل وأعظم من هــذا ، وإن إثبــات ربين للعالم لم يذهب إليه أحد من بني آدم، ولا أثبت أحدٌ إلهين متماثلين ، ولا متساويين في الصفات ولا في الأفعال، ولا أثبت أحد قديمين متماثلين ، ولا واجبي الوجود متماثلين . ولكن الإشراك الذي وقع في العالم إنما وقع بجعــل بعض المخلوقات مخلوقة لغير الله في الإلهية بعبادة غــير اللــه تعالى واتخاذ الوسائط ودعائهـا والتقـرب إليهـا كمـا فعـل عبَّاد الشمس والقمر والكـواكب والأوثـان ، وعبَّاد الأنبيـاء والملائكـة أو تمـاثيلهم ونحــو ذلـك، فأمّـا إثبـات خـالقين للعالم متماثلين فلم يذهب إليه أحد من الآدميين"[2].

ويتبيّن مما سبق أن نقد شيخ الإسـلام لـدليل التمـانع هـو من جهة ربط المتكلمين لدليل التمانع بآيــة الأنبيــاء ، وإلاَّ

---

[1] "جامع المسائل" (6/97).

[2] "درء التعارض" (9/343-344) ، وانظر "شـرح الأصـبهانية" ص (123) ، و "منهاج السنة" (3/304) ، و "جامع الرسائل" (2/200-201).

فإن الدليل في نفسه صحيح ، وإن كان الغرض منه وهو إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته ليس هو مقصود دعوة الأنبياء والمرسلين إذ الكفار مقرون في الجملة بتوحيد الربوبية.

يبقى أن يقال:

إن شيخ الإسلام –رحمه الله- نقد من اعترض على دليل التمانع وقدح في دلالته كابن رشد الحفيد ، وعلي بن أبي علي الآمدي.

ووجه اعتراضهم :

أنه يجوز أن تتفق إرادة الإلهين فلا يفضي إلى الاختلاف وحينئذ لا يلزم ما ذكر في دليل التمانع[1] .

وشيخ الإسلام -رحمه الله- بيَّن أن المتقدمين كأبي الحسن الأشعري[2] وغيره لمَّا ذكروا دليل التمانع لم يذكروا هذا الاحتمال في تقريرهم بخلاف المتأخرين كالجويني والرازي[3] فإنهم ذكروه وأجابوا عن ذلك بوجوه عارضهم فيها غيرهم وبيَّن شيخ الإسلام السبب في عدم ذكر المتقدمين لهذا الاحتمال فقال: "فإن هؤلاء (أي المتقدمين) علموا أن وجوب اتفاقهما في الإرادة يستلزم عجز كل منهما ، كما أن تمانعهما يستلزم عجز كل منهما . فمنهم من أعرض عن ذكر هذا التقرير ؛ لأن مقصوده أن يبيّن أن فرض اثنين يقتضي عجز كل منهما فإذا قيل : إن أحدهما لا يمكنه مخالفة الآخر كان ذلك أظهر في عجزه ، ومنهم من بيَّن ذلك كما بيّنوا أيضاً امتناع استقلال كل منهما"[4] .

---

[1] انظر "الكشف عن مناهج الأدلة" ص (125)ـ ، و "غاية المرام" ص (167)، وانظر "شرح الأصبهانية" ص (121-122)، ، و"درء التعارض" (9/352-356، 368)ـ ، و "منهاج السنة" (3/305) .

[2] انظر "اللمع" للأشعري ص (21/22).

[3] انظر "لمع الأدلة" ص (99)ـ ، و "الإرشاد " ص (53-54) كلاهما للجويني ، و "الأربعين للرازي" (1/215)

[4] "منهاج السنة"(3/306).

وقد بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- الجواب عن هذا الاعتراض إجمالاً وتفصيلاً.
أما على جهة الإجمال:
فقد ذكر أن التعاون نقص في حق كل واحد منهما ، وهو يوجب العجز فيهما[1] .
وأن الاشتراك موجب لنقص الشريك في نفس القدرة[2] .
وأن الاشتراك في الفعل مع التعاون والتناصر هو أيضاً تمانع ؛ لأنه منع من فعل البعض ، والمنع من فعل البعض كالمنع من فعل الجميع، وهذا التمانع يقتضي عجز كل منهما ، والعاجز لا يكون رباً [3] .
وأما على جهة التفصيل :
فقد بيَّن –رحمه الله- الاحتمالات المرادة من اتفاق الإلهين وأبطلها جميعاً وهذه الاحتمالات ذكرها في مواضع متعددة ، يزيد فيها أحياناً وينقص أحياناً [4] .
ومن أجمع هذه المواضع ما ذكره في "منهاج السنة" بقوله:
"إذا فُرض ربَّان ، فإمّا أن يكون كل منهما قادراً بنفسه أو لا يكون قادراً بنفسه ".

1) فإن لم يكن قادراً إلاّ بالآخر كان هذا ممتنعاً لذاته، مقتضياً للدور في العلل والفاعلين، فإنه يستلزم أن يكون كل منهما جعل الآخر قادراً ، ولا يكون أحدهما فاعلاً حتى يكون الآخر قادراً ، فإذا كان منهما جعل الآخر قادراً فقد جعله فاعلاً، ولا يكون كل منهما جعل الآخر رباً ؛ لأن الرب لا بدّ أن يكون قادراً ، فيكون هذا جعل هذا قادراً فاعلاً رباً

---

[1] انظر "جامع المسائل" (6/174)، و "درء التعارض" (9/369).
[2] انظر "مجموع الفتاوى" (20/175) وما بعدها.
[3] انظر "جامع المسائل" (6/96-97).
[4] انظر "الصفدية" (1/92-94) (2/171-172)، و "منهاج السنة" (1/438-440) (2/181-182)، و "درء التعارض" (9/356-359 ، 369).

وكـذلك الآخـر. وهـذا ممتنـع في الـربين الواجـبين بأنفسهما القديمين ؛ لأن هذا لا يكون قادراً رباً فاعلاً حتى يجعله الآخر كذلك، وكذلك الآخر فهو بمنزلة أن يقال: لا يكون هذا موجوداً حتى يجعله الآخر موجوداً . وهذا ممتنع بالضرورة ...

2) فإذا فرض أن هذا لا يمكنـه أن يريـد ويفعـل إلاَّ ما يريده الآخر ويفعل لزم عجز كل منهما ، بـل هـذا أيضاً ممتنع لنفسه ، كما أنه إذا كان هذا لا يقدر حتى يقدر هذا كـان ذلـك ممتنعـاً لذاتـه. فـإذا كـان هـذا لا يكون ممكنا إلاَّ بتمكين الآخر فهو بمنزلـة أن يقـال : لا يكون قادراً إلاَّ بإقدار الآخر.

وأيضاً: فإنه في هذا التقدير يكون المـانع لكـل منهمـا من الانفراد هو الآخر فيكون كل منهما مانعاً ممنوعاً ، وهذا لا يكون مانعاً إلاَّ إذا كان قادراً على المنع ، ومن كان قـادراً على منع غـيره من الفعـل فقدرتـه على أن يكـون فـاعلاً أولى، فصار كل منهما لا يكون فاعلاً حتـــى يكـون قـادراً على الفعل، وإذا كان قـادراً على الفعـل امتنـع أن يكـون ممنوعاً منه ، فامتنع كون كل واحد منهما مانعاً ممنوعــاً ، وذلـك لازم لوجـوب اتفاقهمـا على الفعـل، فعلم امتنـاع وجـوب اتفاقهمـا على الفعـل، وثبت إمكـان اختلافهمـا ، فمتى فُرض لزوم اتفاقهما كان ذلك ممتنعـاً لذاتـه، وإنمـا يمكن هذا في المخلوقِين ؛ لأن القدرة لهم مسـتفادة من غيرهما.

3) فإذا قيل : لا يقـدر هـذا حـتى يقـدر هـذا ، كـان يمكن أن يكون هنـاك ثـالث يجعلهمـا قـادرين ، ومن هنـا أمكن المخلـوق أن يعـاون المخلـوق، وامتنعت المعاونة على الخالقين ؛ لأن المخلـوقين المتعـاونين لكل منهما قدرة من غير الآخر أعانه بهـا وجعلـه بهـا قادراً ؛ لأن كلاً منهما كان قبل إعانة الآخر له قدرة ، وعند اجتماعهما زادت قوة كل منهمـا بقـوة الآخـر ، بمنزلة اليـدين اللـتين ضـمت إحـداهما إلى الأخـرى، فـإن كـل منهمـا كـان لهـا قـوة ، وبالاجتمـاع زادت

قوتهما ؛ لأن هذا زاد ذلك تقوية ، وذاك زاد هذا تقوية ، فصار كل منهما معطياً للآخر وآخذاً منه، فزادت القوة بالاجتماع. وهذا ممتنع في الخالقين ، فإن قدرة الخالق القديم الواجب نفسه من لوازم ذاته ، لا يجوز أن تكون مستفادة من غيره ؛ لأن كل منهما إن كان قادراً عند الانفراد أمكنه أن يفعل عند الانفراد ما يقدر عليه ولم يشترط في فعله معاونة الآخر، وحينئذ فيمكن أحدهما أن يفعل ما يريده الآخر أو ما يريد خلافه ، وإن لم يكن قادراً عند الانفراد امتنع أن يحصل عند الاجتماع لهما قوة لما في ذلك من الدَّوْر ؛ لأن هذا لا يقدر حتى يقدر ذاك، ولا يقدر ذاك حتى يقدر هذا ، وليس هنا ثالث غيرهما يجعلهما قادرين فلا يقدر أحدٌ منهما. والمخلوقان اللذان لا قدرة لهما عند الانفراد لا يحصل لهما قدرة عند الاجتماع إلاَّ من غيرهما . والخالقان لا يمكن أن يكون لهما ثالث يعطيهما قدرة ، فلا بدّ أن يكونا قادرين عند الانفراد.

4) وإذا قيل: أحدهما يقدر على ما يوافقه الآخر عليه ، لم يكن قادراً إلاَّ بموافقته.

5) وإذا قيل: يقدر على ما لا يخالفه الآخر فيه، كان كل منهما مانعاً للآخر من مقدوره فلا يكون واحداً منهما قادراً .

وأيضاً: فإن منع هذا لذاك لا يكون إلاَّ بقدرته ، ومنع ذاك لهذا لا يكون إلاَّ بقدرته ، فيلزم أن يكون كل منهما قادراً حال التمانع ، وهو حال المخالفة ، فيكونان قادرين عند الاتفاق وعند الاختلاف .

وأيضاً: فلا يكون هذا ممنوعاً حتى يمنعه الآخر وبالعكس ، فلا يكون أحدهما ممنوعاً إلاَّ بمنع الآخر .

وأيضاً: فيكون هذا مانعاً لذاك ، وذاك مانعاً لهذا ، فيكون كل منهما مانعاً ممنوعاً وهذا جمعٌ بين النقيضين.

وهذه الوجوه وغيرها مما يبيّن امتناع ربّين كل منهما معاون للآخر أو كل منهما مانع للآخر، فلم يبق إلاَّ أن

يكون كل منهما قادراً مستقلاً ، وحينئذ فيمكن اختلافهما، وإذا اختلفا لزم أن لا يفعل واحد منهما شيئاً ولزم عجزهما ، ولزم كون كل واحد منهما مانعاً ممنوعاً . فتبين امتناع ربين: سواء فرضا متفقين أو مختلفين ... "[1][2] .

بقي وجه أخير لاتفاق الإلهين أورده الآمدي ومثّل له ، وقد ذكره شيخ الإسلام وأجاب عنه وبيَّن بطلانه .

فقال –رحمه الله- : "فإن قيل : قد أوردوا هنا سؤالاً معروفاً ، أورده الآمدي وغيره وذكروا أنه لا جواب عنه.

وهو : أنه يجوز أن يكون كل منهما قادراً بشرط أن لا يفعل الآخر معه ، ولا يقدح ذلك في القدرة ، كما يكون هو قادراً على أحد الضدين بشرط عدم الآخر، فإن اجتماع الضدين محال، فالقدرة على فعل أحدهما ينافي القدرة على فعل الآخر معه ، ولا ينافي القدرة على فعل الآخر حال عدمه ، بل كل من الضدين مقدور بشرط عدم الآخر ، وهو مقدور على سبيل البدل لا على سبيل الجمع فكذلك يقال في القادرين : كل منهما قادر على الفعل المعين حال عدم قدرة الآخر عليه.

قيل: هذا تشبيه باطل ، وذلك أن القادر على الضدين يفعل كل منهما بمشيئته وإذا فعل أحدهما لم يكن عاجزاً عن فعل الآخر ، لكنه قادر عليه إن اختاره ، والجمع بينهما ممتنع لذاته ، ليس بشيء ، وذلك لا ينافي القدرة بوجه من الوجوه ، فإن الفاعل لأحد الضدين يختار هذا دون ذاك ، فلم يكن عدمه إلاَّ لكونه لم يرده ، لا لأن غيره منعه منه ، ولا أن قدرته عاجزة عنه إذا أراد أن يفعله ، بخلاف القادر ، وإذا قيل : أنه لا يمكنه الفعل إلاَّ إذا أمكنه غيره ولم يرد أن يفعل معه ، ولو أراد الآخر أن يفعل ما فعله لم يقدر أن يفعله هو ، فإنه حينئذ لا يكون

---

[1](?) "منهاج السنة" (3/306-311).

[2](?) ملاحظة : ترقيم الاحتمالات من الباحث ، وليس من صنيع شيخ الإسلام .

قادراً بنفسه ، بل يكون غير قادر حتى يمكنه الآخر ويمتنع من أن يفعل ما يفعله ..." [1] .

وبهذا يتبين بطلان هذا الاعتراض على دليل التمـانع ، وبـه يعلم صحة دليل التمانع على وحدانية الرب –تعالى- .

وخلاصة الكلام في هذا الفرع :

أن المستدلين بـدليل التمـانع قصَّـروا في معرفـة مـا في القرآن، فظنوا أن دليـل التمـانع هـو الـدليل المـذكور في قوله تعالى: ﭽﯛ ﯜ ﯝﯞ ﯟﯠﭼ ، والمعترضون على دليل التمـانع قصّـروا في معرفـة كلام هـؤلاء المقَصِّـرين ، فلم يهتـدوا إلى معرفــة تقريــرهم وتــوجيههم دليــل التمــانع ، فاستشكلوه وزيّفوه ، وليس الأمر كما ظنوه [2] .

المبحث الأول : وجوب إفراد الله بالربوبية.

أول حكم من أحكـام الربوبيـة هـو : وجـوب أفـراد اللـه بربوبيته، فإن إفراد الله -تعالى- بـذلك واجب، ، وإن كـان ذلك وحده ليس كافياً بل لابدَّ من إفراد الله تعالى بجميـع أنواع التوحيد.

قال شيخ الإسلام –رحمه اللـه - : "أمـا الأول (أي توحيـد الربوبية) فلا ريب أنه من التوحيد الواجب ، وهـو الإقـرار بأن خالق العالم واحـد ، لكنـه هـو بعض الـواجب ، وليس هـو الـواجب الـذي بـه يخـرج الإنسـان من الإشـراك إلى التوحيد"[3].

وقــال –رحمــه اللــه- : "هــو (أي توحيــد الربوبيــة) من التوحيد الواجب ، لكن لا يحصل بــه الواجـــب ، ولا يخلص بمجـرده عن الإشـراك الـذي هـو أكـبر الكبـائر ، الـذي لا

---

[1] "درء التعارض" (9/362) ، وانظر "شـرح الأصـبهانية" ص (122-123) وص(134) وما بعـدها. وانظر : "غاية المـرام" ص (167-168) و "أبكار الأفكار" (1/526 -528) .

[2] انظر"منهاج السنة" (3/304، 312-313).

[3] "درء التعارض" (9/378).

يغفره الله ، بل لا بـدّ أن يخلص للـه الـدين ، فلا يعبـد إلاَّ إياه ، فيكون دينه لله "[1] .
قال –رحمه الله- : "ولا بدً من توحيد الربوبيـة بـأن يكـون الله خالق كل شيء "[2] .
وشيخ الإسلام –رحمـه اللـه- أولى هـذا الحكم من أحكـام الربوبية اهتماماً كبيراً، وهـذا واضـح وظـاهر في كتبـه من خلال بيانه للأدلة الدالة على وجوب إفـراد اللـه بالربوبيـة كدليل الفطرة والآيـات والعنايـة والنبـوة والأدلـة العقليـة النقلية وقد سبق ، وكذلك من خلال ردِّه للقوادح القادحـة في وجوب إفراد الله بالربوبية وهي كثـيرة ، وقـد عقـدت لهـا بابـاً مسـتقلاً ، ومن أبـرز القـوادح الـتي ردَّهـا وبيَّن فسـادها وخصَّـها بمزيـد من الـردّ قـول الفلاسـفة بقـدم العالم والقول بالحلول والاتحاد ، وهذا يبيِّن مـدى اهتمـام شيخ الإسلام في إبراز هـذا الحكم وبيانـه ، وذلـك لأهميـة توحيـد الربوبيـة حيث أنـه الطريـق الـذي يحتج بـه على وجوب إفراد الله بالألوهيـة ، والخلـل في توحيـد الربوبيـة يؤدي إلى الخلل في توحيد الألوهية لما بينهما من العلاقة .

المبحث الثاني : وجوب إفراد الله بالعبادة .

من أحكام الربوبية : وجوب إفراد الله بالعبادة ، وقد قرَّر شيخ الإسلام ذلك من خلال بيان ما يلي:

1- أن الربوبية تستلزم الألوهية .
2- أن من مقتضيات توحيد الربوبية إفراد الله تعالى بالعبادة .
3- أن توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية ، كما يحتجّ الله على المشركين بإقرارهم بالربوبية على وجوب إفراده بالألوهية .
4- أن توحيد الربوبية سبب لتوحيد الألوهية .

[1] "اقتضاء الصراط المستقيم " (2/854-855).
[2] "جامع المسائل" (6/155).

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "والربوبية تستلزم الألوهية"[1] .

وقال : "والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد (أي الربوبية) وبيانه ، وضرب الأمثال له ، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ويبيّن أنه لا خالق غير الله ، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبدوا إلاَّ الله ، فيجعل الأول دليلاً على الثاني ، إذ كانوا يسلمون الأول وينازعون في الثاني ، فبيّن لهم سبحانه أنه إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلاَّ الله ، وهو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له في ذلك ، فلماذا تعبدون غيره؟! وتجعلون معه آلهة أخرى ؟! كقوله تعالى : ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈ إلى قوله: ﭽﮢﮣﮤﮥ ﮬﮭﮮ ﯔﯕﯖﯗﭼ[2]– يقول تعالى: ﭽ ﮔ ﮕ ﮖ ﭼ فعل هذا؟ وهذا استفهام الإنكار يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرِّين بأنه لم يفعل ذلك غير الله ، فاحتج بذلك عليهم"[3] .

وقال : "فقوله:"لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت "[4] توحيد الربوبية الذي يقتضي أنه سبحانه : هو الذي يسأل ويدعى ، ويتوكل عليه ، وهو سبب لتوحيد الألهية ، ودليل عليه ، كما يحتج به في القرآن على المشركين..." [5] .

ودلالة الاقتضاء هي من دلالة الالتزام ، وكون الربوبية تستلزم وتقتضي الألوهية ، وهي سبب ودليل على الألوهية ، هذا كله يفيد أن من أحكام الربوبية وجوب إفراد الله بالعبادة .

---

[1] "مجموع الفتاوى" (14/13).

[2] سورة النمل ، الآية (59-61).

[3] "شرح الأصبهانية" ص (132) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (1/23) (332-10/331) (14/380).

[4] سبق تخريجه ص (181) .

[5] "مجموع الفتاوى" (14/377) ، وانظر (14/379).

المبحث الثالث : لا يتم التوحيد والاعتراف بالربوبية إلاَّ بالإيمان بصفاته تعالى.

قرّر شيخ الإسلام هذا الحكم من أحكام الربوبية وهو: أن الإيمان بالربوبية لايتم إلاّ بالإيمان بصفاته تعالى وأن الخلل في إثبات صفات الله يؤدي إلى الخلل في إثبات الربوبية من خلال بيان ما يلي:

1- أنه لولا ثبوت صفات لله تعالى لم يكن رباً خالقاً .

قال -رحمه الله- : "فإنه لولا ثبوت هـذه الصـفات ، الـتي هي العلم والقدرة والكلام ونحوها لم يكن رباً خالقاً ، بـل لولا ثبوت أصل الصفات لم يكن موجوداً أصلاً"[1] .

2- أن ما كان منفي الصفات لم يكن إلاَّ معدوماً.

قال : "والمعبـود المـراد المحبـوب لا يكـون إلاّ موجـوداً ، فإن المعدوم لا يراد لذاتـه ، ومـا كـان منفي الصـفات لم يكن إلاَّ معـدوماً ، فـإن إثبـات ذات بلا صـفات ، أو وجـود مطلق لا يتعين ، إنما يتحقـق في الأذهان لا في الأعيـان ، فمن لم يثبت لله الصـفات لم يحقـق عبادتـه لـه ، فلهـذا وغـيره كـان الشـرك بعبـادة غـير اللـه واقعـاً في نفـاة الصفات "[2] .

---

[1] "وجـوب الاعتراضـات المصـرية" ص (137)ـ ، وانظر "درء التعارض" (1/375).

[2] "شرح الأصبهانية" ص (116)ـ ، وانظر "جواب الاعتراضـات المصرية" ص (137-138).

وإنما كان الأمر كذلك من أنه ما كان منفي الصفات لم يكن إلاَّ معدوماً لأن الاعتراف بالربوبية لا يتم إلاَّ بالإيمان بصفاته تعالى، فمن نفي صفات الله تعالى فهو لم يعترف بوجوده.

3- أن نفي الصفات مستلزم ومتضمن لنفي الذات .

قال –رحمه الله- : "فإن جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته"[1] .

وقال : "ونفاة الصفات وإن كانوا لا يعتقدون أن ذلك متضمن لنفي الذات لكنه لازم لهم لا محالة، لكنهم متناقضون ، ولهذا لا يوجد فيهم إلاَّ من فيه نوع من الشرك ، ولا بدَّ من ذلك ؛ لنقص توحيدهم الذي به يتخلصون من الشرك"[2] .

4- أن من أسباب الانحراف في الربوبية نفي الصفات.

لما كان الاعتراف بالربوبية لا يتم إلاَّ بالإيمان بصفاته تعالى، كان نفي صفات الله تعالى من أسباب الانحراف في باب الربوبية .

فإن ابن سينا انحرافه في باب الربوبية بقوله بقدم العالم سببه هو نفي صفات الله -تعالى- ولهذا يقول ابن تيمية : "ويتبين للفاضل أنه (أي ابن سينا) إنما بنى إلحاده في قدم العالم على نفي الصفات ... وهو بها تمكن من الاحتجاج عليهم (أي المتكلمين) في قدم العالم ، وبها تمكّن من إنكار المعاد ، وتحريف الكلم عن مواضعه"[3] .

وكذلك الاتحادية انحرفوا في باب الربوبية ، بقولهم إن الوجود واحد ، فوجود الخالق هو وجود المخلوق ، وسبب هذا الانحراف هو نفيهم لصفات الله ، وهو أول أمرهم .

قال –رحمه الله- : "وهؤلاء الاتحادية في أول أمرهم ينفون الصفات ، ويقولون : القرآن هو الله أو غير الله ، فإذا قيل لهم : غير الله ، قالوا : فغير الله مخلوق ، وفي

---

[1] "مجموع الفتاوى" (12/351) ، وانظر "النبوات" (1/458).

[2] "درء التعارض" (10/307)، وانظر (5/75).

[3] "درء التعارض" (8/241-242) ، وانظر (9/268).

آخر أمرهم يقولون : ما ثم موجود غير اللـه ، أو يقولـون: لا هو الله ولا هو غيره"[1] .

5- أن قــول نفــاة الصــفات مــأخوذ من المنحــرفين في الربوبية .

قال شيخ الإسـلام : "والجهميـة نفـاة الصـفات الـذين هم رؤوس أهــل الكلام المــذموم قــولهم مــأخوذ من قــول خصمائه (أي إبراهيم عليه السلام) ، كما هــو مــأخوذ من قول فرعون خصم موسى –عليه السـلام – فـإن فرعـون أظهر جحـد الصـانع وعلـوه على خلقـه ، وجحـــد تكليمـه لموسى ، وقوم إبراهيم كانوا مشـركين كمـا أخـبر اللـه - تعالى- عنهم بذلك ، وكان فيهم من هو معطل ، كما ذكـر الله -تعالى- ذلك . والفلاسفة القائلون بدعوة الكــواكب : فيهم المشــرك ، وفيهم المعطــل ، ونفي الصــفات من أقــوالهم ، فمنهم من لا يثبت لهـذا العـالم المشـهود ربـاً أبدعه، كما هـو قـول الدهريـة الطبيعيـة منهم ، ويجعلـون العـالم نفسـه واجب الوجـود بذاتـه، ومنهم من يثبت لـه مبدعاً واجباً بنفسه أبدعه ، كما هو قـول الدهريـة الإلهيـة منهم ، ويقولـون إن الـواجب ليس لـه صـفة ثبوتيـة ، بـل صفاته : إما سلب ، وإما إضافة ، وإما مركبة منهما. وكان الجعـدين درهم من أهــل حــرَّان ، وكــان فيهم بقايــا من الصــابئين والفلاســفة ، خصــوم إبــراهيم الخليــل –عليــه السلام- فلهذا أنكر تكليم موسى وخلة إبـراهيم ، موافقـة لفرعون والنمرود، بناءً على أصـل هـؤلاء النفـاة، وهـو أن الرب –تعالى- لا يقوم به كلام ، ولا يقوم به محبة لغيره ، فقتله المسلمون ، ثم انتشرت مقالته فيمن ضلَّ من هذا الوجه"[2] .

6- أن حقيقة قول الجهمية المعطلة نفاة الصـفات هـو قول فرعون وهو جحد الخالق.

---

[1] (?) "مجمــوع الفتــاوى" (2/376)ـ ، وانظر "درء التعــارض" (313-5/312).

[2] (?) "درء التعارض" (176-7/175)

قال : "وحقيقة قول الجهمية المعطلة هـو قـول فرعـون، وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه ، كما كـان فرعـون يفعل ، فكان يجحد الخالق –جلّ جلاله- ويقول : "ﭻﭼﭽﭾ ﭿﮀ"[1]، ويقول لموسى : "ﮁﮂﮃﮄﮅﮆ ﮇ"[2] ، ويقول : ﮈ ﮉﮊﮋ[3] ، وكان ينكر أن يكون الله كلّم موسى ، أو يكون لموسى إله فوق السماوات، ويريد أن يبطـل عبـادة اللـه وطاعته ، ويكون هـو المعبـود المطـاع ، فلمـا كـان قـول الجهمية المعطلـة النفـاة ، يـؤول إلى قـول فرعـون كـان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادتـه ، وإنكـار كلامه ، حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفـان ، فصـاروا يقولـون : العـالم هـو اللـه ، والوجـود واحـد والموجـود القـديم الأزلي الخـالق هـو الموجـود المحـدث المخلـوق ، والـرب هـو العبـد ، مـا ثم رب وعبـد وخـالق ومخلوق "[4].

وشيخ الإسلام –رحمه الله- ذكر كلام السلف والأئمـة في بيـان مـا يفيـد أن الإيمـان بالربوبيـة لا يتم إلاّ بـالاعتراف بصـفات اللـه تعـالى، حيث ذكـر عنهم أن هـؤلاء النفـاة للصفات في الحقيقة هم لا يثبتون شـيئاً ، وأنهم جاحـدون للرب يحـاولون أن يقولـوا ليس في السـماء شـيء. وقـد تقـدم ذكـر نصـوص السـلف في ذلـك كمـا أوردهـا شـيخ الإسلام[5] .

والخلاصة:

أن هذا الحكم من أحكام الربوبية يتضح من خلال معرفـة العلاقة القوية بين توحيد الأسـماء والصـفات وبين توحيـد الربوبية ، فإن توحيد الأسماء والصفات يستلزم ويتضـمن توحيـد الربوبيـة ، والخلـل في توحيـد الأسـماء والصـفات يؤدي إلى الخلل في الربوبية ، ولا يتم الاعتراف بالربوبية

---

[1] (?) سورة القصص، الآية (38).

[2] (?) سورة الشعراء ، الآية (29).

[3] (?) سورة النازعات ، الآية (24).

[4] (?) "مجموع الفتاوى" (13/185) ، وانظر (12/351).

[5] (?) انظر ص (86-92) .

إلاَّ بالإيمان بصفات الله تعالى ، ولهذا قال ابن أبي العـز : "لا يتمّ التوحيد والاعـتراف بالربوبيـة إلاَّ بالإيمـان بصـفاته تعالى"[1] .

المبحث الرابع : التسلسل في أفعال الربّ .

عند الحديث عن لوازم الربوبية بيّنت تقرير شيخ الإســلام لكون فعل الرب تعـالى بمشـيئته وقدرتـه هـو من لـوازم ربوبيته، وهنا أذكر تقرير شيخ الإسلام لأمر زائد على ذلك وهـو إثبـات التسلسـل في أفعـال الـرب تعـالى بمعـنى : إثبات دوام أفعاله تعالى في الماضـي والمسـتقبل ، وأنـه سبحانه لم يكن معطلاً في وقت من الأوقات عن الفعل ، بل لم يزل ولا يزال فعالاً لما يريد.

وشيخ الإسلام قد بيَّن ذلك ووضَّحه واعتنى به اعتناءً كبيراً ، وردّ على المخالفين في ذلك.

والتسلســل في أفعــال الــرب تعــالى هــو من أحكــام الربوبية ، وقد بيّن شيخ الإسلام أن السلف –رحمهم الله- يوجبون ذلك ويقولون بلزومه.

قال-رحمه الله- معرّفاّ التسلسل في الآثـار : " تسلسـل في الآثار ، وهو وجود كلام بعد كلام ، أو فعل بعـد فعـل ، والنزاع في هذا مشهور ، وإنما يُعـرف نفيـه عن الجهميـة والقدريــة ومن وافقهم من كلاّبي وكــرّامي ومن وافقهم

---

[1](?) "شرح الطحاوية" (2/416).

من المتفقهة . وأما أئمة السلف وأئمة السنة فلا يمنعـون هذا، بل يجوّزنه ، بل يوجبونه ، ويقولون: إن الله لم يــزل متكلماً إذا شاء، بل يقولون: إنـه لم يـزل فـاعلاً تقـوم بـه الأفعـال الاختياريـة بمشـيئته وقدرتـه"[1]. وقـال : "وأمـا السلف فقولهم إنه لم يزل متكلماً ، وإنـه يتكلم بمشـيئته وقدرته وكـذلك قـالوا بلـزوم الفاعليـة ونقلـوا عن جعفـر الصادق بن محمد أنه قال بدوام الفاعلية المتعدية ، وأنــه لم يزل محسنا بما لم يزل فيما لم يـزل إلى مـا لم يـزل "[2].

وشيخ الإسلام ذكر أن السلف قالوا بالتسلسل في أفعال اللــه ذكــر ذلــك عنهم على وجــه الإجمــال وعلى وجــه التفصيل.

أمَّا على وجه الإجمال :

فإنه قال: "الذي يـبين فسـاد مـذهب هـؤلاء الفلاسـفة أن يقــال : قــد عُلم بصــريح العقــل واتفــاق العقلاء امتنــاع التسلسـل في العلـل، وأمـا وجـود حـوادث لا تتنـاهى فلا ننازعهم فيه مطلقاً ، إذ كان أئمة السنة يقولون بذلك في أفعال الرب وأقواله"[3].

وقال أيضاً : "فالرب تعـالى أوجـد كـل حـادث بعـد أن لم يكن موجـداً لـه ، وكـل مـا سـواه فهـو حـادث بعـد أن لم يكن ، ولا يلــزم من ذلــك أن يكــون نفس كمالــه الــذي يستحقه متجدداً ، بل لم يـزل عالمـاً قـادراً مالكـاً غفـوراً متكلماً إذا شاء ، كما نطق بهـذه الألفـاظ ونحوهـا الإمـام أحمد وغيره من أئمة السلف"[4].

---

[1] "الرد على المنطقيين" (1/227-228)

[2] "منهــاج الســـنة" (2/246-247) وســـيأتي ذكر كلام جعفر الصادق.

[3] "درء التعارض" (8/161).

[4] "الصفدية" (1/65).

وقال : "بخلاف الرب القديم الأزلي الواجب بنفسه ، فإنه إذا كان لم يزل متكلماً إذا شاء فعَّالا لما يشـاء كـان ذلـك من كماله، وكان هذا كما قاله أئمة السنة والحديث"[1].

هذا على وجه الإجمال .

وأمَّا على وجه التفصيل:

فقد ذكر أقـوال السـلف في التسلسـل في أفعـال الـرب تعالى من ذلك:

1- قول ابن عباس –رضي الله عنهما-:

"قـال رجـل لابن عبـاس : إني أجـد في القـرآن أشـياء تختلف عليّ ... وذكر منهما : وقال تعالى: "ﭿﮀﮁﮂ"[2] ﮃ ﮄﮅ"[3] ﮆﮇﮈ"[4] فكأنه كان ثم مضى فقال: ... ﮉﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ سـمَّى نفسـه ذلـك، وذلـك قولـه، أي: لم يـزل كذلك..." [5].

2- قول جعفر بن محمد الصادق :

سئل عن قوله تعالى: ﮏ   ﮐ لم خلق اللـه الخلـق؟ فقال: لأن الله سبحانه كان محسناً بما لم يـزل فيمـا لم يـزل إلى مـا لم يـزل ، فـأراد سـبحانه وتعـالى أن يفيض إحسـانه على خلقـه ، وكـان غنيـاً عنهم ، لم يخلقهم لجـر منفعـة ولا لـدفع مضـرة، ولكن خلقهم وأحسـن إليهم وأرسل إليهم الرسـل حـتى يفصـلوا بين الحـق والباطـل، فمن أحسن كافأه بالجنة ، ومن عصى كافأه بالنار" [6].

3- قول الإمام أحمد :

---

[1] "درء التعارض" (4/293).

[2] سورة النساء ، الآية (96).

[3] سورة النساء ، الآية (56).

[4] سورة النساء ، الآية (58).

[5] أخرجه البخاري في صحيحه ، حم السـجدة ، وانظر "مجمـوع الفتاوى" (16/369) ، و "التسعينية" (1/322-328) (2/459-460 ، 578-579).

[6] أخرجه الثعلبي في تفسيره (7/ 60) ، وانظر "شرح حديث النزول" ص (412) ، و "منهاج السنة" (2/246-247).

قال : "لم يزل الله عالماً متكلماً غفوراً" [7].
علّق شيخ الإسلام على ذلك بقوله: "فبيَّن اتصافه بالعلم ، وهو صفة ذاتية محضة.
و "المغفرة" وهي من الصفات الفعلية ، و "الكلام " الذي يشبه هذا وهذا ، وذكر أنه لم يزل متصفاً بهذه الصفات والأسماء " [2].
وقال الإمام أحمد أيضاً : "إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء"[3].
وقال : "لم يزل الله عالماً قادراً، لا متى ولا كيف"[4].
4- الدارمي :
قال : "أمارة ما بين الحي والميت التحرك ، كل حي متحرك لا محالة، وكل ميت غير متحرك لا محالة"[5][6].
قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "صرَّح أئمة الإسلام بأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، قادراً على ما يشاء ، فاعلاً يقوم به الفعل الذي يشاؤه ، بل وصرحوا أنه لم يزل فاعلاً ، وأن الحي لا يكون إلاَّ فعَّالا ، يقوم به الفعل . ولفظ بعضهم : إن الحي لا يكون إلاَّ متحركاً ، وعبارة بعضهم ، كان محسناً فيما لم يزل ، عالماً بما لم يزل ، إلى ما لم يزل، وعبارة بعضهم ، كان غفوراً رحيماً ، عزيزاً حكيماً، ولم يزل كذلك"[7].

---

[7] أخرجه الخلال في "السنة" (6/24) ، وابن بطة في "الإبانة" الكتاب الثالث (2/33).
[2] "مجموع الفتاوى " (12/438) ، وانظر (6/160) ، و "التسعينية" (1/336) .
[3] "الرد على الجهمية والزنادقة" ص (133) .
[4] "المصدر السابق" ص (134) ، وانظر أقوال الإمام أحمد في كتب شيخ الإسلام : "مجموع الفتاوى" (6/160) (12/438) (16/370)، و "التسعينية" (1/336) (2/461-462).
[5] "نقض الدارمي على المريسي" (2/215).
[6] انظر قول الدارمي في كتب شيخ الإسلام : "شرح حديث النزول" ص(409) ، و "شرح الأصبهانية" ص (251) ، و "مجموع الفتاوى" (18/227) .
[7] "درء التعارض" (9/262).

وقد أوضح شيخ الإسلام أن وصف الله تعالى بأنه لم يزل فعّالا لما يشاء هو من وصفه بالكمال الذي يليق به.
قال –رحمه الله- : "الإقرار بأن الله لم يزل يفعل ما يشاء ويتكلم بما يشاء هو وصف الكمال الذي يليق به، وما سوى ذلك نقص يجب نفيه عنه"[1].
وقال : "... بخلاف الربّ القديم الأزلي الواجب بنفسه ، فإنه إذا كان لم يزل متكلماً إذا شاء، فعّالا لما يشاء كان ذلك من كماله ، وكان هذا كما قاله أئمة السنة والحديث"[2].
وقال :"وأمّا دوام الفعل فهو أيضاً من الكمال ، فإن الفعل إذا كان صفة كمال فدوامه دوام الكمال"[3].

وشيخ الإسلام –رحمه الله- بيّن أن التسلسل يُراد به نوعان[4]:

1) التسلسل المتفق عليه.

وهو التسلسل في المؤثرات والفاعلين ، وهو أن يكون للفاعل فاعل ، وهلمَّ جرّا إلى غير نهاية.
فهذا التسلسل اتفق العقلاء على امتناعه. وهو الذي ورد في الحديث أنه من وسوسة الشيطان ، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم- : "يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليستعذ بالله ولينته" وفي رواية أخرى: "لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خلق

---

[1] "مجموع الفتاوى" (18/237).
[2] "درء التعارض" (4/293).
[3] "منهاج السنة" (1/420).
[4] انظر "الصفدية" (1/10-11، 49-94) (2/120، 134-135) ، و "مجموع الفتاوى" (8/152، 380-381) (12/45) (16/386) ، و "منهاج السنة" (1/146-148 ، 176 ، 436-438) (2/392-393) ، و "شرح الأصبهانية" ص(311-313 ، 332) ، و "درء التعارض" (1/305، 321) (3/144) (4/292 293) (8/158، 345-346) (9/242-243).

الخلق ، فمن خلق الله؟ فـإذا وجـد ذلـك أحـدكم فليتعـوذ بالله ولينته"[1] .

2) التسلسل المتنازع فيه:

وهو التسلسـل في الحـوادث والآثـار : "وهـو أن لا يكـون الشيء حتى يكون قبله غـيره، أولا يكـون إلاَّ ويكـون بعـد غيره"[2] .

فهذا الناس فيه على ثلاثة أقوال :

الأول: أن ذلـك ممتنـع في الماضـي والمسـتقبل ، وهـذا القول الجهم وأبي الهذيل العلاف ، ولهذا قال الجهم بفناء الجنة والنار، وقال أبو الهذيل بفناء حركات أهلهما .

الثاني: أنـه يمكن دوامهمـا في المسـتقبل دون الماضـي، وهذا قول كثـير من أهـل الكلام من الجهميـة والمعتزلـة، ومن وافقهم من الكرّامية والأشعرية.

الثالث: أنه لا يمتنع دوامها في الماضي والمسـتقبل وهـذا قول أئمة أهل الملل، وأئمة السنة ، وهو أيضاً قـول أئمـة الفلاسفة.

والحوادث عرّفها شيخ الإسلام بأنها هي الآثار[3] والحوادث والآثار هي المفعولات ويطلقهـا شـيخ الإسـلام أيضـاً على أفعال الرب تعالى.

- فمن اطلاقة التسلسل في الآثار على أفعال الله قوله: "وأما التسلسل في الآثار بأن يكون الفاعـل يفعـل شـيئاً بعد شيء دائماً فهذا متنازع فيه، هل هو ممتنع أزلاً وأبداً، أو جـائز أزلاً وأبـداً، أوممتنـع أزلاً وجـائز أبـداً؟ على ثلاثـة أقوال معروفة للناس"[4] .

وقال عند ذكـره لأنـواع التسلسـل : "والثـاني: التسلسـل في الآثار ، مثل أن يقال : إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء

---

[1] سبق تخريجهما ص (253) .

[2] "منهاج السنة" (2/393).

[3] انظر "درء التعارض" (1/338).

[4] "الصفدية" (2/120).

، ويقـال : إن كلمـات اللـه لا نهايـة لهـا. فهـذا التسلسـل يجوزه أئمة أهل الملل ، وأئمة الفلاسفة..." [1] .
وقال معرفـاً التسلسـل في الآثـار : " تسلسـل في الآثـار وهو : وجود كلام بعد كلام أو فعل بعد فعـل، والـنزاع في هذا مشـهور ، وإنمـا يُعـرف نفيـه عن الجهميـة والقدريـة ومن وافقهم من كلابي وكـــــــرّامي، ومن وافقهم من المتفقهه ، وأما أئمة السلف وأئمة السنة فلا يمنعون هذا ، بل يجّوزنه ، بـل يوجبونـه ، ويقولـون : إن اللـه لم يـزل متكلماً إذا شاء ، بل يقولون : إنه لم يزل فـاعلاً تقـوم بـه الأفعال الاختيارية بمشيئته وقدرته"[2] .
- ومن إطلاقه الحوادث على أفعـال الـرب قولـه : "وأمـا دوام الحوادث فمعناه هنـا: دوام كونـه متكلمـاً إذا شـاء ، وهذا دوام كماله ونعوت جلاله ودوام أفعاله، وبهـذا يمكن أن يكون العالم وكل ما فيه مخلوق له حـادث بعـد أن لم يكن ، لأنـه يكـون سـبب الحـدوث هـو مـا قـام بذاتـه من كلماتــه وأفعالــه وغــير ذلــك ، فيعقــل ســبب حــدوث الحــوادث ، ويمتنـع مـع هـذا أن يقـال بقـدم شـيء من العالم"[3] .
ويمكن ذكر أقسام التسلسل بعبارة أخرى فيقال:
التسلسل ثلاثة أقسام :
الأول : ممتنع .   والثاني: واجب .   والثالث: ممكن .
وهـذا مـا ذكـره ابن القيم عن أهـل السـنة وفصّـل كـل قسم .
فقال عند ذكره للمنـاظرة بين السـني والقـدري : "قـالوا (أي أهل السنة) : والتسلسل لفظ مجمـل لم يـرد بنفيـه ولا إثباتـه كتـاب نـاطق ، ولا سـنة متبعـة فيجب مراعـاة لفظه ، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن.

---

[1] "مجموع الفتاوى" (8/380-381).
[2] "الرّد على المنطقيين" (1/227-228).
[3] "منهاج السنة" (2/388-389).

فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته ، وهو أن يكون بين مؤثرين كل واحد منهما استفاد تأثيره ممن قبله لا إلى غاية.
والتسلسل الواجب: ما دلَّ عليه العقل والشرع من دوام أفعال الرب تعالى في الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيماً آخر لانفاد له ، وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل ، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر، فهذا واجب في كلامه؛ لأنه لم يزل متكلماً إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت ، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته، فإن كلّ حيّ فعَّال ، والفرق بين الحي والميت بالفعل، ولهذا قال غير واحد من السلف : الحي الفعال ، وقال عثمان بن سعيد : كل حيّ فعَّال[1] ، ولم يكن ربنا –تبارك وتعالى- قط في وقت من الأوقات المحققة أو المقدّرة معطلاً عن كماله من الكلام والإرادة والفعل.
وأما التسلسل الممكن: فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف كما يتسلسل في طرف الأبد . فإنه إذا لم يزل حياً قادراً مريداً متكلماً ، وذلك من لوازم ذاته، فالفعل ممكن له بوجوب هذه الصفات له ، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل ، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه ، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له ، فلكل مخلوق أول ، والخالق سبحانه لا أول له ، فهو وحده الخالق ، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن"[2] .
وبهذا يتبيّن أن التسلسل في الماضي والمستقبل في أفعال الله تعالى من أحكام الربوبية .
وهنا مسائل مهمَّة ينبغي التنبه لها:
1- أن المراد بالتسلسل في الحوادث، والآثار هو التسلسل في نوعها لا في آحادها وهذا هو الفرق

[1] انظر "نقض الدارمي على المريسي" (2/215).
[2] "شفاء العليل" (2/453-454) ، وانظر "شرح الطحاوية" (1/197-198).

بين قول أهل السنة والجماعة وقول الفلاسفة ، فإن الفلاسـفة يقولـون بقـدم الآحـاد ولهـذا قـالوا بقـدم العالم، وأما السلف فيقولـون: بقـدم النـوع. وسـبب الغلط والاشتباه في هذه المسألة هو عـدم التفريـق بين النوع والآحاد.

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "فالأزل معناه: عدم الأولية، ليس الأزل شيئاً محـدوداً ، فقولنـا : لم يـزل قادراً بمنزلـة قولنـا: هـو قـادر دائمـاً ، وكونـه قـادراً وصف دائم لا ابتـداء لـه، فكـذلك إذا قيـل : لم يـزل متكلماً إذا شاء ، ولم يزل يفعل ما شاء يقتضي دوام كونــه متكلمــاً وفــاعلاً بمشــيئته وقدرتــه، وإذا ظن الظان أن هذا يقتضي قدم شيء معه كان من فساد تصوره ، فإنه إذا كان خالق كل شيء فكل ما سـواه مخلـوق مسـبوق بالعـدم ، فليس معـه شـيء قـديم بقدمه .

وإذا قيل : لم يزل يخلق كان معنـاه: لم يـزل يخلـق مخلوقـاً بعـد مخلـوق، كمـا لا يـزال في الأبـد يخلـق مخلوقاً بعـد مخلـوق ، تنفي مـا تنفيـه من الحـوادث والحركات شيئاً بعد شيء ، وليس في ذلك إلاَّ وصفه بـدوام الفعـل ، لا بـأن معـه مفعـولاً من المفعـولات بعينــه ... لكن يشــتبه على كثــير من النــاس النــوع بالعين، كما اشـتبه ذلـك على كثـير مــن النـاس في الكلام ، فلم يفرقوا بين كـون كلامـه قـديماً بمعـنى أنــه لم يــزل متكلمــاً إذا شــاء ، وبين كــون الكلام المعين قـديماً . وكـذلك لم يفرقـوا بين كـون الفعـل المعين قديماً وبين كون نـوع الفعـل المعين قـديماً ، كالفلك محدث مخلوق مسبوق بالعـدم، وكـذلك كـل ما سواه وهذا الذي دلّ عليه الكتاب والسنة والآثــار، وهو الذي تدل عليـه المعقـولات الصـريحة الخالصـة من الشبه"[1] .

---

[1](?) "مجموع الفتاوى" (18/239-240).

وقـال –رحمـه اللـه- : "... مـا عنـد المتفلسـفة من الأدلـة الصـحيحة العقليـة فإنمـا يـدلّ علــى مـذهب السلف أيضاً، فإن عمدتهم في قـدم العـالم على أن الرب لم يزل فاعلاً ، وأنه يمتنع أن يصـير فـاعلاً بعـد أن لم يكن ، وأن يصير الفعـل ممكنـاً لـه بعـد أن لم يكن ، وأنـه يمتنـع أن يصـير قـادراً بعـد أن لم يكن ، وهذا وجميع ما احتجوا بـه إنمـا يـدل على قـدم نـوع الفعل ، لا يدل على قدم شـيء من العـالم ، لا فلـك ولا غـيره، فـإذا قيـل: أنـه لم يـزل فـاعلاً بمشـيئته وقدرته، وأن الفعل من لوازم الحياة ، كما قال ذلـك من قاله من أئمة السنة، كان هذا قولاً بموجب جميع أدلتهم الصحيحة العقليـة ، وكـان هـذا موافقـاً لقـول السلف: لم يزل متكلماً إذا شـاء ، فلم يـزل متكلمـاً إذا شــاء ، فــاعلاً لمــا يشــاء وجميــع مــا احتج بــه الكلابية[1] والأشـعرية[2] والسـالمية[3] وغـيرهم على

---

[1] الكلابية : هم اتبــاع أبي محمد عبد الله بن ســعيد بن كلاّب، زعم بأن كلام الله معـنى واحد قـائم بـذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عبّر عنه بالعربية كان قرآنـا، وإن عبّر عنه بالعبرانية كان توراة، نفى أن يقوم بالله تعالى ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعـال ، كـان الإمـام أحمد يحـذر منه ومن اتباعه . انظر "درء التعـارض" (2/6) ، و "شـرح الطحاويـة" (1/254-255).

[2] الأشعرية: هم أتباع أبي الحسن الأشعري الذي كـان له ثلاث مراحل في العقيــدة : مرحلة الاعــتزال، ثم مرحلة ســلك فيها طريقة ابن كلاب، ثم مرحلة اعتناق مذهب أهل السنة والجماعة والمتــأخرون الــذين ينتســبون إليه أخــذوا بالمرحلة الثانية من مراحل عقيدته، والتزموا طريقة التأويل في عامّة الصفات ، ولم يثبتــوا إلاَّ ســبع صــفات وهي : الحيــاة والعلم والقــدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر . والأشـعرية هم أقـرب الفـرق إلى أهل السـنة والجماعة . انظر "الملل والنحـل" (1/81) ، و "مجمـوع الفتاوى" (6/358-359) ، و "القواعد المثلى" (81-82).

[3] السالمية: هم أتباع أبي الحسن بن سـالم صـاحب سـهل بن عبد الله التسـتري ، يضـاف إليهم أو إلى بعضـهم القـول بإثبـات

قدم الكلام إنما يدل على أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، لا يدلّ على قدم كلام بلا مشيئة ولا على قـدم كلام معين ، بل على قدم نوع الكلام .

وجميع ما يحتج به الفلاسفة على قدم الفاعلية إنمـا يـدلّ على أنه لم يزل فاعلاً لما يشـاء، لا يـدل على قـدم فعـل معين ، ولا مفعولٍ معين ، لا الفك و لا غيره .

والغلط إنما نشـأ بين الفـريقين من اشـتباه النـوع الـدائم بالعين المعينة"[1] .

وقـال –رحمـه اللـه- عنـد ذكـر المنـاظرة بين المتكلمين والسنة : "فقـال متكلمـة الجهميـة والقدريـة : والإحـداث والفعـل لا يُعقـل إلاَّ مسـبوقاً بالعـدم ، فـإن معـنى كـون الشيء مفعولاً هو معنى كونه محدثا والمحدث لا يكون إلاَّ مسبوقاً بالعدم.

فقـال أهـل السـنة : الـذين ليس في قـولهم مـا ينـاقض صـريح المعقـول ولا صـحيح المنقـول : هـذا الكلام حـقٌ أيضـاً ، وهـو دليـل على بطلان قـول الفلاسـفة الدهريـة الذين يقولون : إنه قديم وهو مفعول للرب، فـإن كـل مـا هو مفعول فهو محدث ، لكن فُرِّق بين حدوث نوع الفعـل والكلام وحدوث عين الفعل والكلام ، بأنا نعقل أن كل مـا يفعله فلا بُدَّ أن يكون مُتَقَدِّما عليه ، ونعقل أنه يمكن أنــه لم يزل فاعلاً متكلماً ، ونعقل أنه يمكن دوام كونه متكلماً فعَّالاً ، وأن تكون كلماته لا نهاية لها ، كما قال تعالى : ﭽ ی ی یی ﭼ[2] وقال تعالى: ﭽ

العلو ونوع من الحلول أحدثوا قـولاً مبتـدعاً في كلام الله تعـالى فقــالوا: إنه حــروف وأصــوات أزلية مجتمعة في الأزل لا تتعلق بمشيئته وقدرته ، ومن رجالهم : أبو علي الأهوازي ، وأبو طـالب المكي. انظر "درء التعارض" (4/129) (10/287) ، و "مجموع الفتـاوى" (5/124 ، 483) ، و "منهـاج السـنة" (1/157) (2/360).

[1] "مجموع الفتاوى" (6/300-301).

[2] سورة الكهف ، الآية (109).

ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ چ[1] ولهذا نعقل أنه سبحانه يفعل ويتكلم ، وإن كان كل واحد من أعيان ذلك ينقضي وينفذ ، وجنس الفعل والمفعول لا انقضاء له ولا نفاد ، كما قال تعالى : چ ﭙ ﭚ چ[2] وقال تعالى: چ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ چ[3] فالجنس دائم لا نفاد له ، وإن كان كلٌ من أجزاء الأكل والزرق له نفاد ، وهو لا يدوم "[4].

وأقوال شيخ الإسلام في التفريق بين النوع والآحاد كثيرة[5] .

ويترتب على معرفة الفرق بين نوع الحوادث وآحادها المسألة التالية:

2- أن دوام فاعلية الرب -تعالى- لا تستلزم قدم شيء من العالم ، لأن المراد بدوام فاعليته دوام نوع الفعل .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "وأما دوام الحوادث فمعناه هنا : دوام كونه متكلماً إذا شاء ، وهذا دوام ونعوت جلاله ، ودوام أفعاله ، وبهذا يمكن أن يكون العالم وكل ما فيه مخلوق له حادث بعد أن لم يكن ، لأنه يكون سبب الحدوث هو ما قام بذاته من كلماته وأفعاله وغير ذلك ، فيعقل سبب حدوث الحوادث ، ويمتنع مع هذا أن يقال بقدم شيء من العالم"[6] .

وقال –رحمه الله- : "وإذا قيل: "لم يزل خالقاً "فإنما يقتضي قدم نوع الخلق ودوام خليقته لا يقتضي قدم

---

[1] سورة لقمان ، الآية (27).

[2] سورة الرعد ، الآية (35).

[3] سورة ص ، الآية (54).

[4] "شرح الأصبهانية" ص (300-301) .

[5] انظر "مجموع الفتاوى" (12/590-593) (16/94-95، 365) ، و "الصفدية" (2/140 ، 160) و "الرد على المنطقيين" (2/120) ، و "منهاج السنة" (1/251-240 ، 426-431) ، و "درء التعارض" (4/160) (8/344) (9/72) ، و "جامع المسائل" (3/348).

[6] " منهاج السنة" (2/388-389).

شيء من المخلوقات . ولكن لم يزل فعالاً خالقـاً ، ودوام خالقيته من لوازم وجوده، فهذا ليس قولاً بقدم شيء من المخلوقات ، بل هو متضمن لحدوث كل ما سواه"[1] .

وقال : "وإن قُدّر دوام الخالقية لمخلوق بعد مخلوق فهذا لا ينافي أن يكون خالقاً لكل شيء وكل ما سـواه محـدَث مسبوق بالعدم ، ليس معه شيء سواه قديم بقدمه ، بـل ذلك أعظم في الكمال والجود والإفضال"[2] .

وقال : "وأمّا إذا قيل : لا يفعل فعلاً حتى يفعـل فعلاً آخـر لم يكن نوع الفاعلية حادثاً بل أعيانهـا ، وهـذا فيـه الـنزاع المشهور، والفلاسفة تجوِّز مثل هذا، وهو لا يستلزم قــدم شـيء من العـالم، ولا يلـزم أن يكـون تـأثيره في شـيء معين أزلياً"[3].

وقال –رحمه الله- : "ولا يُعقل أن يفعل الفاعـل شـيئاً إلاَّ إذا أحدث ما كان معدوماً، ومن لم يُحدث شيئاً فلم يفعل، وحقيقة الفعل هو الإحداث، فيلزم من كون كل مـا سـواه مفعوله أن يكون كل ما سواه حادثاً كائناً بعد أن لم يكن ، ولا يلـزم من دوام كونـه فـاعلاً أن يكـون معـه شـيء من مفعولاته ، ولا أن يكون في العالم ما هو قديم بقدمه، بل هو الخالق لكل شيء كما أخبرت به الأنبياء ، ولهذا وصفه أئمة أهل الحديث بأنه لم يزل متكلماً فاعلاً، بل قـالوا: إن الحياة مسـتلزمة للكلام والفعـل، وأنـه لا يكـون الحي إلاّ متكلماً فاعلاً، وصـرح بعضـهم بلفـظ "الحركـة"[4] وكـذلك قال أساطين الفلاسفة القـدماء كمـا ذكـر بعض ألفـاظهم في غير هذا الموضع[5] فتبين أنه يمتنع أن يكـون مـع اللــه تعالى شيء قديم بقدمـه، وإن جـاز وجـود حـوادث لا أول لها ، وإن قُدّر أنه لم يزل متكلماً إذا شاء، ولم يزل قـادراً على الفعـل ، وإن قُـدِّر أنـه لم يـزل فـاعلاً أفعـالاً تقـوم

(?)[1] "مجموع الفتاوى" (16/95).

(?)[2] "الرد على المنطقيين" (1/155-156).

(?)[3] "الصفدية" (1/56).

(?)[4] كالدارمي، انظر "نقض الدارمي على المريسي" (2/215).

(?)[5] انظر "شرح الأصبهانية" ص(188-196).

بنفسه ، بل لو قُدِّر أنه لم يزل يفعل شـيئاً بعـد شـيء لم يكن في العالم شيء قديم معه ، بل كـل مـا سـوى اللـه تعـالى مخلـوق حـادث كـائن بعـد أن لم يكن، وإن كـان سبحانه لم يزل موصوفاً بصفات الكمـال، كمـا قـال أئمـة السنة والحـديث : لم يـزل اللـه متكلمـاً إذا شـاء ، فـاعلاً أفعالاً تقوم بذاته فإنه من المعلوم بصـريح العقـل أن من يقدر على أن يُحدث شيئا بعـد شـيء أكمـل ممن لا يقـدر على إحداث شيء ، ومعلـوم بصـريح العقـل أن الفعـل لا يكون فعلاً إلاَّ إذا حدث بعد أن لم يكن ، وأما ما يلزم ذات الشيء لا يكون فاعلاً له ، بل يكون صفة له "[1] .

وشيخ الإسلام -رحمه الله – ذكـر أقـوال النـاس في دوام فاعلية الرب، وأنها ثلاثة أقوال.

فقال: "والناس قد تنازعوا فيما يستلزم الحوادث، وهو ما لا يخلو عن الحوادث وما لا بدّ أن تقارنـه الحـوادث ، هـل يجب أن يكـون حادثـاً ، أولا يجب حدوثـه بـل يجب قدمـه سواء كان هو الواجب الغني عمّا سواه أو كان ممكنــا، أو يفرق بين الواجب بنفسه الغني عمّـا سـواه وبين الممكن الفقير إلى غيره ؟

على ثلاثة أقوال:

فالأول: قول من يقـول من طوائـف النظـار وأهـل الكلام بامتنـاع دوام فاعليـة الـرب وامتنـاع فعـل الـرب وتكلمـه بمشـيئته وقدرتـه في الأزل وأن ذلـك غـير ممكن وهـؤلاء متنـازعون في إمكـان دوام فاعليتـه في المسـتقبل على قولين.

والقول الثـاني: قـول الفلاسـفة الـذين يقولـون بقـدم مـا سـوى اللـه : إمّـا الأفلاك وإمـا العقـول وإمـا غـير ذلـك، ويجعلون الرب سبحانه موجباً بذاته لا يمكنه إحداث شيء ولا تغيير شيء من العالم، بل حقيقة قولهم: إن الحوادث لم تصدر عنه بل صدرت وحدثت بلا محدث.

---

[1] (?) "شرح الأصبهانية" ص(359-360).

والقول الثالث: قول أئمة أهل الملل الـذين يقولـون : إن الله خالق كل شيء وكل ما سـوى اللـه كـائن بعـد أن لم يكن مع دوام قادرية الله ، وأنه لم يـزل متكلمـاً إذا شـاء، بل لم يزل فاعلاً أفعالاً تقوم بنفسه.
وأقـوال أئمـة الفلاسـفة وأسـاطينهم الـذين كـانوا قبـل أرسطو توافق قول هؤلاء بخلاف أرسـطو وأتباعـه الـذين قـالوا بقـدم الأفلاك ، فـإن قـول هـؤلاء معلـوم الفسـاد بصحيح المنقول وصريح المعقول"[1].

وبيّن –رحمه الله- أن جميع ما يـذكره الفلاسـفة القـائلون بقدم العالم من الأدلة[2] إنما يدل على دوام نوع الفاعليـة لا على قدم العالم .
قال : "وليس معهم دليل أصـلاً يـدلّهم على أن العـالم لم يـزل ولا يـزال هكـذا وجميـع مـا يحتجـون بـه على دوام الفاعل والفاعلية والزمـان والحركـة وتوابـع ذلـك ، فإنمـا يدلّ على قدم نوع ذلك ودوامه ، لا على قدم شيء معيّن ولا دوام شيء معين"[3] .
وقـال –رحمـه اللـه- : "وليس لهم على أزليـة شـيء من العالم دليل صحيح ، كما قد بسط في موضعه وإنما غايـة أدلتهم تستلزم دوام نوع الفاعلية ، ونوع المادة والمـدة ، وذلك ممكن موجود عين بعـد عين من ذلـك النـوع أبـداً ، مع القول بأن كل مفعول محدث مسبوق بالعدم ، كما هو مقتضـى الصـريح والنقـل الصـحيح . فـإن القـول بـأن المفعـول المعيّن مقارنـاً لفاعلـه أزلاً وأبـداً ممـا يقضـي صريح العقل بامتناعه ، أي شـيء قُـدر فاعلـه ، ولا سـيما

[1] "منهـاج السـنة" (3/125-126) ،وانظر "درء التعـارض" (1/125-127).
[2] عقدت فصلاً مستقلاً في جهود شيخ الإسـلام في ردّ القـول بقدم العالم . سيأتي فيه تفصيل فساد قولهم.
[3] "الرد على المنطقيين" (1/147-148).

إذا كان فاعلاً باختياره ، كما دلت عليه الدلائل اليقينيـة"[4] .

وقـال –رحمـه اللـه- : "وكـل مـا يحتجـون بـه من دوام الفاعليـة ولوازمهـا : من دوام الحركـة أو مقـدار الحركـة الـذي يسـمونه الزمـان ، أو دوام جنس المـدة ، أو جنس المادة فلا يـدل على قـدم شـيء بعينـه من العـالم أبـداً . لكن لمـا كـان من نـاظرهم من أهـل الكلام المبتـدع كلام الجهمية والقدرية قـد قـالوا: إن جنس الفعـل وملزوماتـه حـادث ، وإن الـرب تعـالى لم يمكنـه أن يفعـل ويتكلم بمشـيئته ، بـل كـان ذلـك ممتنعـاً عليـه ثم صـار ممكنـاً ، واحتجوا على ذلك بامتناع حوادث لا أول لها ، صـار هـؤلاء إذا أثبتوا إمكان حوادث لا أول لها أو وجوب ذلك ظنوا أن ذلـك السـلب الكلي العـام إذا بطـل : ثبت مـا ادعـوه من التعيين..."[1] .

3- أنه بما سبق ذكره من المسـألتين يتـبيّن أن شـيخ الإسلام –رحمه الله- لا يقول بقدم العالم ، بل هو –رحمـه اللـه- يبطـل هـذا القـول ويـبيَّن فسـاده ، وأقوالـــه في ذلـــك كثـــيرة جـــداً ، وهي واضـــحة وصريحة . ومن ذلك:

قولــه : "... فتــبين أن حججهم (أي الفلاســفة) ، الهائلــة التي أرعبت قلوب النظار ، ليس فيها مـا يـدل على قـدم شيء من العالم ألبته ، فقولهم بقدم شــيء من العــالم : الأفلاك أو غيرها قول بلا حجة أصلاً ، بل هو قـول باطـل ، كمـا بيَّن في موضـع آخـر . نعم هـذه الحجج إنمـا أرعبت قلوب أهل الكلام المبتدع المحدث في الإسلام الـذي هـو كلام الجهمية والقدرية ومن سـلك سـبيلهم من الأشـعرية والكرامية، ومن تبعهم أوقلّدهم من المتفققهة وغيرهم فما ذكره الفلاسفة إنما يبطل قول هـؤلاء ، الـذين زعمـوا أن

---

[4] "المصدر السابق" (1/155).

[1] "شـــرح الأصـــبهانية" ص (330)ـ ، وانظر "الـــرد على المنطقـيين" (2/23-24)ـ ، و "درء التعـارض" (8/235، 279-280).

الــرب لم يــزل معطلاً عن أن يفعــل بمشــيته أو يتكلم بمشـيئته ، ثم يفعـل أو يتكلم بمشـيئته من غـير حـدوث شيء .
وهذا القول مما اتفق سلف الأمـة وأئمتهـا على بطلانـه ، فـإذا ليس معهم حجـة عقليـة تنـاقض نصـوص الكتـاب والسـنة ، بـل ولا مـذهب السـلف والأئمـة ، وهـو المطلوب"[1] .
وقوله: "وإذا كان مدلول الدليل العقلي أنه لا بدّ أنه قديم تقوم به الأفعال شيئاً بعـد شـيء فهـذا إنمـا ينـاقض قـول المبتدعة من أهل الملل الـذين ابتـدعوا الكلام المحـدث ، الذي ذمته السلف والأئمة ، الذين قالوا: إن الربّ لم يزل معطلاً عن الفعـل والكلام ، فصـار مـا علمتـه العقلاء من أصناف الأمم من الفلاسفة وغيرهم بصريح المعقـول هـو عاضد وناصر لما جاء به الرسول –[illegible]– [illegible] .
وكان مـا علم بالشـرع مـع صـريح العقـل أيضـاً راداً لمـا يقوله الفلاسفة الدهرية من قدم شيء من العالم مع الله ، بل القول بقدم العالم قـول اتفـق جمـاهير العقلاء على بطلانه ، فليس أهل الملل وحدهم تبطله ، بل أهل الملـل كلهم وجمهـور من سـواهم من المجـوس وأصـناف المشركين : مشركي العرب ومشركي الهند وغـيرهم من الأمم ، وجماهير أساطين الفلاسـفة كلهم معـترفون بـأن هذا العـالم محـدث كـائن بعـد أن لم يكن ، بـل وعـامتهم معترفون بأن الله خالق كل شيء ، والعـرب المشـركون كلهم كانوا يعترفون بـأن اللـه خـالق كـل شـيء وأن هـذا العالم كلّه مخلوق ، والله خالق وربه"[2] .
وقـال : "ومعلـوم بالاضـطرار من دين الرسـل أن اللـه -تعالى- خالق كل شـيء ، ولا يكـون المخلـوق إلاَّ محـدثاً ،

---

[1] "درء التعارض" (9/240).
[2] "شرح حديث النزول" ص (444-445).

فمن جعل مع الله شيئاً قديمه بقدمه فقد عُلم مخالفته لما أخبرت به الرسل مع مخالفته لصريح العقل"[1] .
وبعد هذا فمن اشتبه عليه شيء من كلام شيخ الإسلام فليردّ ما اشتبه عليه إلى المحكم من كلامه الذي لا يحتمل إلاَّ بحدوث العالم وبطلان قدمه .
4- أن هناك فرقاً بين التسلسل في أفعال الرب -تعالى- والتسلسل في مفعولاته فالتسلسل في أفعال الرب واجب ، فإنه تعالى لم يزل ولا يزال فعالاً لما يشاء ولم يكن تعالى في وقت من الأوقات معطلاً عن الفعل ، وأما التسلسل في المفعولات فهو جائز وليس بواجب.
هذا وإنه ليس المقصود في هذا المبحث تتبع كل ما ذكره شيخ الإسلام في مسألة التسلسل وما يرتبط بها من مسائل وردود على المخالفين ، وإنما المقصود هو بيان أن التسلسل في أفعال الله واجب مع الإشارة إلى بعض المسائل المهمَّة المتعلقة بذلك ، وإلاَّ فإن كلام شيخ الإسلام في ذلك كثير جداً ، وهي مسألة أولاها شيخ الإسلام اهتماماً كبيراً ، ووصفها بأنها من الأصول الكبار التي ينبني عليها الكلام في كلام الله تعالى وفي خلقه ، وأن أصل الكلام المحدث في الإسلام الذي ذمّة الأئمة هو القول بمنع دوام الحوادث[2] .

المبحث الخامس : ربوبية الله شاملة لجميع ما في العالم من ذوات وأفعال وأحوال.

---

[1](?) "منهاج السنة" (2/386) ، وانظر (1/147-148) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (1/462-465) ، و "شرح الأصبهانية" ص (161-162 ، 289) ، و "تفسير آيات أشكلت" (2/489-490) ، و "درء التعارض" (1/125-127) (2/272-273) (8/280) (9/239-240 ، 242) ، و "الصفدية" (1/53 ، 54 ، 56) ، و "مجموع الفتاوى" (6/298) (9/281) (12/45-46) (17/286-287) .

[2](?) انظر "شرح حديث النزول" ص(413).

قرَّر شيخ الإسلام –رحمه الله- هذا الحكم من أحكام الربوبية من خلال ما يلي:

1- التصريح بأن الله –سبحانه وتعالى- رب كل شيء ، لا ربَّ غيره ، وأن جميع ما في العالم من الذوات والأفعال والأحوال مربوبة لله تعالى.

قال –رحمه الله- : "مذهب أهل السنة والجماعة : أن الله -تعالى- خالق كل شيء وربه ، ومليكه ، لا ربَّ غيره ، ولا خالق سواه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم "[1] .

وقال –رحمه الله- : "جميع ما سوى الله من الأعيان وصفاتها وأحوالها مخلوقة لله ، مملوكة لله ، هو ربها ، وخالقها ، ومليكها ، ومدبرها ، لا ربَّ لها غيره ، ولا إله سواه ، له الخلق والأمر..." [2] .

وقال : "فإن الله سبحانه خالق كل شيء وربّ كل شيء ومليكه ، سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته شيء ، ولا يكون شيء إلاَّ بمشيئته"[3] .

2- أن كونه تعالى "رب العالمين" يقتضي ربوبيته للعالمين ، فلا يخرج شيء من العالمين عن ربوبيته تعالى.

قال –رحمه الله-: "وبالجملة : فمعنى "رب العالمين"أبلغ من معنى "واجب الوجود" فإن كونه "ربّ العالمين" يقتضي ربوبيته للعالمين ، ويستلزم قيامه بنفسه"[4] .

3- أن وصفه تعالى بأنه "رب العالمين" من خصائصه تعالى التي اختص بها فلا يوصف بها غيره ، ولا يستحق غيره أن يسمَّى رباً مطلقاً.

---

[1] "مجموع الفتاوى" (8/63).

[2] "المصدر السابق" (8/519).

[3] "المصدر السابق" (2/409).

[4] "بيان تلبيس الجهمية" (7/573).

قـال –رحمـه اللـه- : "فالأسـماء والصـفات نوعـان : نـوع يختص به الرب مثل : الإلـه ، ورب العــالمين ونحــو ذلـك فهذا لا يثبت للعبد بحال ، ومن هنا ضلَّ المشركون الذين جعلوا لله نداً . والثاني : ما يوصف به العبد في الجملــة ، كالحي والعالم والقادر ، فهذا لا يجوز أن يثبت للعبد مثــل ما يثبت للربّ أصلاً... "[1] .

وقال : "ووصف نفسه بأنه رب العالمين ، وبأنه مالك يوم الدين ، وأنه له الملك ولـه الحمـد وأنـه الحي القيـوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنـه على كـل شـيء قـدير ، وبكـل شيء عليم ، ونحو ذلك من خصائص الربوبية ، ولم يصف شيئاً من مخلوقاته لا ملكـاً مقربـاً ولا نبيـاً مرسـلاً بشـيء من الخصائص الـتي يختص بهـا ، الـتي وصـف بهـا نفسـه سبحانه وتعالى"[2] .

وقال : "وكل اسم لا يسـمّى بـه غـيره ، كاللـه ، والقـديم الأزلي ، ورب العالمين ، ومالـك يـوم الـدين ، ونحـو ذلـك فمعناه من خصائصه"[3] .

وقـال : "فمـا من مخلـوق إلاَّ لـه شـريك ونـدّ ، والـرب -سبحانه- هو الذي لا شريك له ، ولا ندّ لـه ، ولا مثـل لـه ، بل ما شـاء كـان ومـا لم يشـأ لم يكن ، ولهـذا لا يسـتحق غيره أن يسمَّى خالقاً ولا رباً مطلقاً ونحو ذلك ، لأن ذلــك يقتضي الاستقلال والانفـراد بـالمفعول المصـنوع ، وليس ذلك إلاَّ لله وحده"[4] .

---

[1] (?) "منهاج السنة" (2/596).

[2] (?) "الجواب الصحيح" (4/45-46).

[3] (?) "درء التعارض" (10/279) ، وانظر (5/46) ، و"الصفدية" (4/39).

[4] (?) "مجموع الفتاوى" (22/182).

المبحث السادس: ليس في المخلوقات علة تامّة تستلزم معلولها .

العلَّة في اللغة: عبارة عما اقتضى تغييراً ، ومنه : سميت علّة المريض؛ لأنها اقتضت تغيير الحال في حقه.
ويقال: هذا علّة لهذا أي سبب[1] .
وفي "المعجم الفلسفي" العلة: "ما يؤثر في غيره ، ويقابل المعلول . آثر الفلاسفة المسلمون لفظ "علة" ، واستعمل الغزالي والمتكلمون لفظ "سبب" ، وهو ما جرى به العرف الآن "[2].
قال شيخ الإسلام : "العلة ، والموجِب ، والمقتضى ، والباعث ، والسبب ، والمناط ، والمحرّك ، والداعي ، ونحو ذلك من الأسماء هي أسماء متقاربة ، تكون مترادفة من وجه ، ومتباينة من وجه"[3] .
والعلّة التامَّة، عرَّفها شيخ الإسلام بأنها: "هي التي تستلزم معلولها، لا يتأخر عنها معلولها ، ولا يقف اقتضاؤها على غيرها"[4] .
وهذا الحكم من أحكام الربوبية وهو أنه " ليس في المخلوقات علّة تامّة تستلزم معلولها" عبَّر عنه شيخ الإسلام بعبارات متعددة ، من خلالها يتبين معناه ، وهي ما يلي:

---

[1] انظر "لسان العرب" (10/261) ، و "روضة الناظر" (1/245) ، و "المذكرة في أصول الفقه"ص (49).
[2] "المعجم الفلسفي" ص(129).
[3] "جامع المسائل" (6/207) ، وللتوسع : انظر "روضة الناظر" (1/244-247) ، و"الكليات" (3/21 ، 186 ، 220-224) ، و "إرشاد الفحول" (2/157-158) ، و "المذكرة في أصول الدين " ص (49-51) .
[4] "درء التعارض" (1/395) ، وانظر "التعريفات" ص(190).

- قال : "فليس في المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شيء ، ولا علة مستقلة بمعلولها من غير مشارك أصلاً " [1]
- وقال : "وليس في المخلوق شيء واحد هو علّة تامّة لشيء أصلاً ، لكن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمراده بها ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وما سوى ذلك من الأسباب الموجودة فليس شيء منها بمفرده علّة تامّة لشيء ، ولكن يكون سبباً ، والسبب بمنزلة الشرط ، الذي إذا ضُمّ إليه غيره من الأسباب صار المجموع علّة ، ولكن ذلك المجموع لا يكون إلاّ بمشيئة الله ، لا يكون المجموع بعلة غير مشيئة الله قط ، فإذاً وصف العلّيّة التامّة لا تقوم بشيء من المخلوقات"[2]
- وقال : "ليس في المخلوقات شيء هو وحده علة تامّة وسبب تامّ للحوادث، بمعنى : أن وجوده مستلزم لوجود الحوادث ، بل ليس هذا إلاَّ مشيئة الله تعالى خاصة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن "[3].
- وقال : "ليس في الكائنات شيء واحد هو علة تامة لفعل، بل لا يصدر شيء إلاَّ عن اثنين فصاعداً "[4] .
- وقال : "ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تامّ لحصول المطلوب"[5] .
- وقال : "فإن السبب ليس علّة مستقلة بمسبَّبه ، بل لا بدّ له من أسباب أخر ، ولا بدّ له من صرف الموانع ، والله خالق مجموع الأسباب ، وصارف

---

[1] "الصفدية" (1/217).

[2] "بيان تلبيس الجهمية" (5/201) ، وانظر (5، 203 ، 206 ، 210)

[3] "مجموع الفتاوى" (8/123) .

[4] "بيان تلبيس الجهمية" (5/231) ، وانظر (5/236- 237 ، 244 ، 249-250) ، و "جامع الرسائل" (2/210)

[5] "مجموع الفتاوى" (18/179).

جميع الموانع ، وهذا هو الخلق المطلق والتأثير المطلق ، الذي ليس إلاّ لله وحده ، وكل ما سواه مما يجعل سبباً ومؤثراً فإنه جزء سبب ، فلا ينفي هذا الجزء، ولا يعطي ما لا يستحقه من كونه مبدعاً خالقاً ، ومن كونه واحداً لا شريك له ، فهو ربّ كل شيء ومليكه "[1] .

- وقال : "فإنه ليس في الوجود سبب يستقل بحكم، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضمّ إليه ، وله موانع وعوائق تمنع موجبه ، وما ثم سببه مستقل بالإحداث إلاّ مشيئة الله وحده ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما شاء خلقه بالأسباب التي يحدثها ويصرف عنه الموانع "[2] .
- وقال : "ليس من الأسباب ما هو مستقل بوجود المسبب ، لكن له شريك فيه ، وما ثَمَّ علّة تامّة إلاّ مشيئة الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن"[3] .
- وقال : "ليس في المخلوقات ما هو مستقل بمفعول ولا معلول"[4] .
- وقال : "والباري تعالى هو المبدع لوجود كل ما سواه ، فلا يُعلم أمر صادر عن ممكن إلاّ عن شيئين فصاعداً ، مع أنه قد يكون هناك مانع يمنع التأثير، وليس في الموجودات ما يصدر عنه وحده شيء إلاّ الله تعالى"[5] .

---

[1] "التسعينية" (3/980).

[2] "منهاج السنة" (5/367) ، وانظر (1/414) ، و "الرد على المنطقيين" (2/256) ، و "التدمرية " ص (211) ، و"جامع المسائل" (6/207-208).

[3] "بيان تلبيس الجهمية " (4/538).

[4] "درء التعارض" (9/342) ، وانظر (9/338 ، 341 ، 348).

[5] "منهاج السنة" (1/402).

- وقـال : "والسـبب لا يسـتقل بـالحكم ولا يوجبـه ... فليس في الوجود ما يستقل بالتأثير إلاَّ الله"[6] .

والمـراد بهـذا الحكم : هـو إثبـات إفـراد اللـه تعـالى – بالفعـل ، فـإن الاسـتقلال بالفعـل من خصائصـه تعـالى، والمخلوق لا يستقل بالفعل ، بـل لا بـدَّ لـه من مشـارك ، وإذا قيل : إن المخلوق علّـة تامّـة يسـتلزم معلولـه فهـذا يعنى أنـه مسـتقل بفعلـه ، ولا يفتقـر إلى سـبب آخـر ولا إلى دفع المعارض، وهذا باطل ومن الأمثلـة الـتي ذكرهـا شيخ الإسلام لبيان هذا الحكم مايلي:

- أن السخونة التي تكون للشـمس لا تسـتقل بنفسـها في التأثير، بـل لهـا مشـاركون في تأثيرهـا بغيرهـا ، فالفاكهة مثلاً أثـرت سـخونة الشـمس في إنضـاجها، ولكنها لم تنضج بالسخونة وحدها ، بل بمشـاركة من الماء والهواء والتربة [2] .
- والشـعاع الـذي يكـون عـن الشـمس لا بـدَّ لـه من جسم يقبل انعكاس الشـعاع عليـه ، ولا بـدَّ من دفـع المانع ، فإنه إذا حصـل حـاجز من سـحاب أو سـقف لم يحصل الشعاع تحته[3] .
- والناقر إذا نقر في طشت فحدث صـوت ، فالصـوت لا بدَّ له من فعل الإنسان ، ومن الجسم الذي جعلت عليه النقرة [4] .
- والنار لا تحرق إلاَّ مع سبب آخر وهـو المحـل القابـل للإحراق ، وإلاَّ فإنه إذا طُلي الجسم بما يمنع إحراقه لم تحرق[5] .

---

[6] "المستدرك على مجموع الفتاوى" (1/141) ، وانظر "جامع الرسائل " (1/146، 152)، (2/79).

[2] انظر "منهاج السنة " (1/414).

[3] انظر "التدمريـة" ص(212) ، و"بيـان تلـبيس الجهميـة" (5/235).

[4] انظر "بيان تلبيس الجهمية" (5/205).

[5] انظر "المصدر السابق" (5/232) ، و "التدمرية" ص(212).

- ونزول المطر ليس موجباً للنبات ، بل لا بدَّ من أن يخلق الله أموراً أخرى ، ويدفع عنه الآفات المانعة، فيربِّيه بالتراب والشمس والريح ، ويدفع عنه ما يفسده[1] .
- والإنسان إذا ضرب بحجر فقد فعل الحذف ، ووصول الحجر إلى منتهاه حصل بهذا السبب ، وبسبب آخر من الحجر والهواء .
- وكذلك الشبع والرّي للإنسان حصل بسبب أكله وشربه الذي هو فعله ، وبسبب ما في الطعام والشراب من قوة التغذية ، وما في بدنه من قوة القبول لذلك ، والله خالق ذلك كله .
- وأيضاً القلب الذي هو ملك البدن ، وإن كان منه تصدر الإرادات المحرّكة للأعضاء ، فلا يستقلّ بتحريك إلاّ بمشاركة الأعضاء وقواها .
- وولاة الأمور المدبّرون للمدائن والجيوش لا يستقل أحدهم بمفعول ، إن لم يكن له من يعينه عليه وإلاّ فقوله وعمله أعراض قائمة به لا تجاوزه ، وكل ما يصدر خارجاً عنه فمتوقف على أسباب أخرى خارجة عن محل قدرته وفعله [2] .

ومن خلال هذه الأمثلة يتضح المراد بهذا الحكم من أحكام الربوبية فإنه بالمثال يتضح المقال.

ثم إن هذه الأمثلة أدلة على هذا الحكم ، وهو دليل المشاهدة والإحساس .

وبما سبق يتبين عجز المخلوق عن الاستقلال بمفعول ما ، وأن المخلوقات ليست علّة تامّة تستلزم معلولها .

وشيخ الإسلام –رحمه الله- ذكر أن أهل السنة والجماعة قرّروا هذا الحكم ، وأن هذا مذهبهم .

---

[1] انظر "جامع المسائل " (1/146).

[2] انظر الأمثلة الأخيرة : "درء التعارض" (9/340-341).

قال –رحمه الله- :"مذهب أهل السنة والجماعة : أنه ليس في الموجود مؤثر تامّ إلا الله -تعالى- فلا ربّ غيره ، ولا إله سواه"[1] .

وقال : "...وهذا هو القول الوسط وهو : إثبات كون الربّ خالقاً لكل شيء مع كون أفعال العباد مخلوقة له ، ومع كونها أفعالاً للعباد أيضاً، وأن قدرة العباد لها تأثير فيها كتأثير الأسباب في مسبباتها ، وأن الله خالق كل شيء بما خلقه من الأسباب ، وليس شيء من الأسباب مستقلاً بالفعل ، بل هو محتاج إلى أسباب أخر تعاونه ، وإلى دفع موانع تعارضه ، ولاتستقل إلاَّ مشيئة الله تعالى ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فما شاء الله كان وإن لم يشأ العباد ، وما لم يشأ لم يكن ولو شاء العباد ، وهذا الذي عليه سلف الأمة وأئمتها وجمهورها"[2] .

وقال : "وأهل السنة لا ينكرون وجود ما خلقه الله من الأسباب ، ولا يجعلونها مستقلة بالآثار، بل يعلمون أنه ما من سبب مخلوق إلاَّ وحكمه متوقف على سبب آخر ، وله موانع تمنع حكمه، كما أن الشمس سبب في الشعاع، وذلك موقوف على حصول الجسم القابل لها ، وله مانع كالسحاب ، والسقف ، والله خالق الأسباب كلها ودافع الموانع ..." [3] .

ووضّح شيخ الإسلام الأسباب التي من أجلها قيل إن المخلوقات ليست علّة تامّة تستلزم معلولها وهي ما يلي:

1- أن الوحدانية بالفعل خاصّة بالله تعالى، واجبة له ولازمة .
2- أن التنزه عن الشريك في الفعل والمفعول من خصائص ربّ العالمين.

---

[1] "بيان تلبيس الجهمية" (5/250) ، وانظر (5/234).
[2] "درء التعارض" (10/115).
[3] "درء التعارض " (9/29-30) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (8/487).

3- أن المشـاركة في الفعـل واجبـة للمخلـوق لازمـة له .

4- أن النقص لازم للمخلوقات بأسرها.

قـال-رحمـه اللـه- : "ولهـذا لمـا كـان وجـوب الوجـود من خصائص ربّ العـالمين ، والغـنى عن الغـير من خصـائص ربّ العالمين : كـان الاسـتقلال بالفعـل من خصـائص ربّ العالمين ، وكان التنزه عن شـريك في الفعـل والمعفـول من خصائص ربّ العالمين ، فليس في المخلوقات ما هـو مستقل بشيء من المفعولات ، وليس فيها ما هـو وحـده علّة تامّة ، وليس فيهـا مـا هـو مسـتغنياً عن الشـريك في شــيء من المفعــولات ، بــل لا يكــون في العــالم شــيء موجـود عن بعض الأسـباب إلاَّ يشـاركه سـبب آخـر لـه ، فيكــون –وإن ســمّى علّــة- علّــة مقتضــيه ســببيّة لا علّــة تامّة"[1] .

ويكون كل منهما شرطاً للآخر، كمـا أنـه ليس في العـالم سبب إلاّ وله مانع يمنعه في الفعل فكل ما في المخلــوق مما يسمّى علّة ، أو سبباً ، أو قادراً ، أو فـاعلاً ، أو مـؤثراً فله شريك هو له كالشرط ، وله معارض هو له مانع وضد ، وقد قال سبحانه : ﭽ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﭼ[2] ، والزوج : يراد بـه : النظير المماثل، والضد المخـالف ، وهـذا كثـير ، فمـا من مخلوق إلاّ له شـريك ونـد ، والـربّ -سـبحانه- وحـده هـو الذي لا شريك له ، ولا ندّ ولا مثل لـه ، بـل مـا شـاء كـان وما لم يشـأ لم يكن ، ولهـذا لا يسـتحق غـيره أن يسـمّى خالقــاً ولا ربّــاً مطلقــا ، ونحــو ذلــك ؛ لأن ذلــك يقتضــي الاستقلال والانفراد بـالمفعول المصـنوع ، وليس ذلـك إلاّ الله وحده...وأما الواحد الذي يفعل وحده فليس إلاّ الله ، فكما أن الوحدانية واجبة له لازمة لـه فالمشـاركة واجبـة للمخلــوق لازمــة لــه ، والوحدانيــة مســتلزمة للكمــال ،

---

[1] العلّة المقتضية هي القاصرة التي تقف على وجود الشـروط وانتفـــاء الموانـــع، ويقابلها العلّة الموجبة التامّة الـــتي يوجد بها المعلول لا محالة ، انظر "جامع المسائل" (6/207).

[2] سورة الذاريات ، الآية (49).

والكمال مستلزم لها ، والاشتراك مستلزم للنقصان ، والنقصان مستلزم له . والوحدانية مستلزمة للغنى عن الغير ، والقيام بنفسه ، ووجوبه بنفسه ، وهذه الأمور من الغنى والوجوب بالنفس والقيام بالنفس مستلزمة للوحدانية ، المشاركة مستلزمة للفقر إلى الغير ، والإمكان بالنفس ، وعدم القيام بالنفس ، وكذلك الفقر والإمكان وعدم القيام بالنفس مستلزم للإشتراك ، فهذه وأمثالها من دلائل توحيد الربوبية وأعلامها ، وهي من دلائل إمكان المخلوقات المشهودات وفقرها ، وأنها مربوبة ، فهي من أدلة إثبات الصانع " [1] .

وقال : "فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية ؛ إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامّة قط ، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ، ولا يصدر شيء في الآثار إلاَّ عن اثنين من المخلوقات كما قد بيّنا هذا في غير هذا الموضع. وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامّة ؛ إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء ، فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان:

أحدهما : أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علّة تامّة لا فاعلية ولا غائية .

والثاني: أن ما كان فيها علّة فله علّة ، سواء كان علّة فاعلية أو غائية .

فالله سبحانه ربّ كل شيء ومليكه ، وهو ربّ العالمين ، لا ربّ لشيء من الأشياء إلاَّ هو ، وهو إله كلّ شيء ، هو في السماء إله ، وفي الأرض إله ، وهو الله في السماوات وفي الأرض ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وما من إله إلا الله سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيرا "[2] .

---

[1] (?) "مجموع الفتاوى" (20/181-183).

[2] (?) "جامع الرسائل" (2/210).

وقـــــد أورد شـيخ الإسـلام إشـكالاً على هـذا الحكم من أحكام الربوبية وأجاب عنه فقال : "فإن قلت : قد ذكـرت أنه ليس في الوجـود علّـة تامّـة وحـدها إلاَّ مشـيئة اللـه ، فكيـف تصـنع بـالإحراق والإغـراق والإزهـاق والتكسـير والتعليم ونحو هذه الأفعال التي لها أفعال مطاوعة ، فـإن الكسر مستلزم للإنكسار، والإحراق مسـتلزم للاحـتراق ، والإزهاق مستلزم للزهوق ونحو ذلك.

قلت : الإحـراق ونحـوه إمَّا أن يُعـنى بـه فعـل المحـرق فقط ، أو يُعنى به فعله وقبول المحترق .

فإن عُني به فعل الفاعل فقط فهو من العلل المقتضية لا الموجبة يقال : أحرقتُـه فلم يحـترق، وعلَّمتُـه فلم يتعلَّم ، وكسرتُه فلم ينكسر ، وإن عُنيَ بـه فعـل الفاعـل وقبـول القابل فهما أمران مركّبان ، وهـذا طـرد قولنـا: ليس في الوجود علّة تامّة إلاَّ مركّبة سوى مشيئة الله تعالى" [1] .

وذكر شيخ الإسلام أنـه من خلال تقريـر هـذا الحكم يُعلم ما يلي :

1- أن غير الله لا يجوز أن يكون مسـتعاناً بـه متـوكلاً عليه .

قال رحمه الله : "فغير الله لا يجوز أن يكون مسـتعاناً بـه متوكلاً عليه ؛ لأنه لا يستقل بفعل شيء أصلاً ، فليس من الأسباب ما هو مستقل بوجود المسبّب ، لكن لـه شـريك فيه ، وما ثَمَّ علّة تامّة إلاَّ مشيئة الله ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن"[2] .

وقال ابن أبي العز : "فإنه لو قُـدِّر أن شـيئاً من الأسـباب يكـون مسـتقلاً بـالمطلوب ، وإنمـا يكـون بمشـيئة اللـه وتيسيره ، لكان الواجب أن لا يُـرجى إلاّ اللـه ، ولا يتوكـل إلاّ عليــه ، ولا يُســأل إلاّ هــو ، ولا يُســتغاث إلاّ بــه ، ولا يُسـتعان إلاّ بـه ، فلـه الحمـد وإليـه المشـتكى ، وهـو المسـتعان ، وبـه المسـتغاث ، ولا حـول ولا قـوة إلا بـه ،

---

[1] "جامع المسائل" (6/211-212).

[2] "بيان تلبيس الجهمية" (4/538).

فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوب ، بـل لا بدَّ من انضمام أسباب أُخر إليه ، ولا بدّ أيضاً من صـــرف الموانع والمعارضات عنه ، حتى يحصل المقصـود ، فكـل سبب فله شريك ، وله ضدّ ، فإنه لم يُعاونه شريكه ، ولم ينصرف عنه ضده ، ولم تحصل مشيئته . والمطر وحده لا ينبت النبات ، إلاَّ بما ينضمّ إليه من الهـواء والـتراب وغـير ذلك ، ثم الزرع لا يتمّ حتى تُصرف عنه الآفـات المفسـدة له ، والطعام والشـراب لا يغـذي إلا بمـا جُعـل في البـدن من الأعضاء والقوى ، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تُصرف عنه المفسدات .

والمخلوق الذي يعطيك أو ينصرك فهو ، مع أن الله يجعل فيه الإرادة والقـوة والفعـل فلا يتمّ مـا يفعلـه إلاَّ بأسـباب كثيرة ، خارجة عن قدرته ، تُعاونه على مطلوبه ، ولو كان ملكاً مطاعاً ، ولا بُدَّ أن يُصرف من الأسباب المتعاونة مـا يُعارضها ويمانعها ، فلا يتم المطلوب إلاَّ بوجـود المقتضـى وعـدم المـانع . وكـل سـبب معين فإنمـا هـو جـزء من المقتضي ، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضى تامّ ، وإن سـمّي مقتضـيا، وسُـمّي سـائر مـا يُعينـه شـروطاً ، فهـذا نـزاع لفظي ، وأمـا أن يكـون في المخلوقـات عِلّـة تامّة تستلزم معلولها ، فهذا باطل .

ومـــن عرف هذا حقَّ المعرفة انفتح له باب توحيـد اللــه ، وعلم أنه لا يستحق أن يُسـأل غـيره ، فضـلاً عن أن يُعبـد غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يُرجى غيره"[1] .

2- أنـه ليس في المخلوقـات مـا هـو ربّ لغـيره ربوبيـة مطلقة .

قال –رحمه الله- بعد ذكر الأمثلة التي تـبين أن المخلـوق لا يستقل بالفعل : "وهذا كلّه مما يبيِّن عجـز كـل مخلـوق عن الاســتقلال بمفعـــول مـــا ، فلا يكـــون شـــيء من المخلوقات رباً لشـيء مـــن المخلوقـات ربوبيـة مطلقـة أصلاً؛ إذ ربّ الشـيء من يَرُبُّه مطلقـاً من جميـع جهاتـه ،

---

[1](?) "شرح الطحاوية" (2/559-560).

وليس هذا إلاّ لله رب العالمين ، ولهـذا منـع في شـريعتنا من إضـافة الـرب إلى المكلفين ، كمـا قـال –صـلى اللـه عليه وسلم- : "لا يقل أحدكم : اسق ربـك ، أطعم ربـك " [1] بخلاف إضافته إلى غير المكلفين ، كقول النبي –صـلى الله عليه وسلم – لمالك بن عوف الجشـمي : "أرب إبـل أنت أم ربّ شاء"[2] ، وقولهم : رب الثـوب والـدار . فإنـه ليس في هذه الإضافة ما يقتضي عبادة هذه الأمـور لغـير الله ، فإن هذه لا يمكن فيها ، فإن الله فطرهـا على أمـر لا يتغير بخلاف المكلّفين ، فإنهم يمكن أن يعبدوا غير الله ، كما عبد المشركون به من الجن والإنس وغـيره ، فمنـع من الإضافة في حقهم؛ تحقيقاً للتوحيد الذي بعث الله بـه رسـله ، وأنـزل بـه كتبـه ، ولهـذا لم يكن شـيء يسـتلزم وجود المفعولات إلاَّ مشيئة الله وحده ، فما شاء كان وإن لم يشأ ذلك غيره ، وما لم يشأ لا يكون ، ولو شاءه جميع الخلـق ، وإذا عُـرف أنــه ليس في المخلوقـات مـا هـو مستقل بمفعـول ولا معلـول ، فليس في المخلوقـات مـا هو ربّ لغيره أصلاً ، بل فعل كلّ مخلوق له فيه شــريك ، وقد يكون لـه مـانع ، وهـذا ممـا يـدل على إثبـات الصـانع تعالى ووحدانيته"[3] .

3- معرفـة ضـلال المتفلسـفة القـائلين بـأن الواحـد لا يصدر عنه إلاَّ واحد .

هؤلاء يقولون : إن الربّ واحد ، والواحد لا يصدر عنــه إلاَّ واحد ، ويعنون بكونه واحداً: أنه ليس له صفة ثبوتية أصلاً ولا يعقـل فيـه معـان متعـددة . وهـذا الأصـل إنمـا يتمّ إذا أثبت موجـود مجـرد لا صـفة لـه ولا نعت ، وإلاَّ فـإذا كـان الخالق موصوفاً بصفات متنوعة ، كالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة، وبأفعال متنوعة ، كـالخلق والاسـتواء ونحو ذلك لم يكن واحداً عندهم بل كان مركباً .

---

[1] سبق تخريجه ص (44) .
[2] سبق تخريجه ص (45) .
[3] "درء التعارض" (9/341-342).

وهــذا الأصــل أدّى بأصــحابه إلى القــول بنظريــة الفيض والصـدور ، وهـو القـول بـأن العـالم يفيض عن اللـه كمـا يفيض النور في الشمس ، بمعنى أن الله لم يخلق العالم .

وأصــل هــذه النظريــة تعــود إلى الفيلســوف المصــري "أفلوطين"[1] وتـأثر بهـا ابن سـينا وغـيره ، فاللـه عنـدهم واحد صدر عنه واحد وهو العقل الأول ، وصدر عن العقـل الأول العقـل الثـاني، وعن العقـل الثـاني العقـل الثـالث وهكذا ، ويتوالى الفيض إلى أن يصل إلى "العقل الفعــال " ، وهذا الأخـير هـو المبـدع لمـا تحت السـماء من هـواء وسحاب وجبال وحيوان ونبات ومعدن.

ومــتى بطــل واحــدهم بطــل توحيــدهم ، فبطــل نفيهم للصفات ، وبطل قولهم : الواحد لا يصـدر عنـه إلاَّ واحـد ، وإذا بطل قـولهم : الواحـد لا يصـدر عنـه إلاَّ واحـد بطلت نظرية الفيض والصدور[2] .

والمقصود هنا معرفة ضلال هؤلاء المتفلسفة القائلين بأن الواحــد لا يصــدر عنــه إلاَّ واحــد من خلال هــذا الحكم من أحكام الربوبية ، وهو المتعلـق بالتـأثير فهـذا الأصـل يعلم بطلانه من جهة المخلوق ومن جهة الخالق .

أمّا من جهة المخلوق :

فإن المخلوق لا يصدر عنه شـيء إلاّ من اثـنين فصـاعداً ؛ لأن الواحد من المخلوقين لا يستقل بالفعل ، بل لا بدّ لــه من مشارك .

---

[1] أفلــوطين تلميــذ أمونيــوس ســكاس ، أول المعلمين الاســكندريين الــذين حــاولوا التوفيــق بين تعــاليم أرســطو وأفلاطون ، وأكبر مؤيديه والمنتصرين لمذهبه تلميذه أفلـوطين ، وربما عدّ مؤسس المذهب ، ولد سـنة (205)م ، وتـوفي سـنة (270)م . انظر "تاريخ الفلسفة " ص(286)ومابعدها ، و"حاشــية الملل والنحل" (2/475).

[2] انظر "مجمـوع الفتـاوى" (17/287) ، و "درء التعـارض" (8/247-248 ، 265) ، و "المبـاحث العقدية المتعلقة بـاللوح المحفوظ والقلم " ص (189-193).

قال شيخ الإسلام : "فليس في المخلوق واحد يصدر عنه شيء فضلاً عن أن يقال : الواحد لا يصدر عنه إلاّ واحد ، بل لا يصدر من المخلوق شيء إلاَّ عن اثنين فصاعداً ،وأما الواحد الذي يفعل حده فليس إلاَّ الله "[1] .

وقال : "ومعلوم أنه ليس في المخلوقات شيء هو وحده علّة تامّة وسبب تامّ للحوادث ، بمعنى أن وجوده مستلزم لوجود الحادث، بل ليس هذا إلا مشيئة الله – تعالى- خاصة ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وأمّا الأسباب المخلوقة كالنار في الإحراق ، والشمس في الإشراق ، والطعام والشراب في الإشباع والإرواء ونحو ذلك فجميع هذه الأمور سبب لا يكون الحادث به وحده ، بل لابدّ من أن ينضم إليه سبب آخر ، ومع هذا فلها موانع تمنعها عن الأثر ، فكل سبب فهو موقوف على وجود الشرط وانتفاء الموانع ، وليس في المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شيء ، وهذا مما يبيِّن لك خطأ المتفلسفة الذين قالوا : الواحد لا يصدر عنه إلاَّ واحد ، واعتبروا ذلك بالآثار الطبيعية ، كالمسخَّن والمبرَّد ونحو ذلك. فإن هذا غلط ، فإن التسخين لا يكون إلاَّ بشيئين أحدهما : فاعل كالنار .

والثاني : قابل كالجسم القابل للسخونة والاحتراق ، وإلاَّ فالنار إذا وقعت على السَّمندل[2] والياقوت[3] لم تحرقه ، وكذلك الشمس فإن شعاعها مشروط بالجسم المقابل

---

[1] "مجموع الفتاوى" (2/36).

[2] السمندل : دابة دون الثعلب حمراء العين ذات ذنب طويل ،ينسج من وبرها مناديل،إذا اتسخت ألقيت في النار فتنصلح ولاتحترق.وزعم آخرون أن السمندل طائر ببلاد الهند يبيض ويفرخ في النار،وهو بالخاصية لاتؤثر فيه النار،ويعمل من ريشه مناديل،فإذا اتسخ بعضها طرح في النار فتأكل النار وسخه الذي عليه ولايحترق المنديل. انظر"حياة الحيوان الكبرى" (2/46).

[3] الياقوت : من الجواهر ، أجوده الأحمر الرُّمَّاني ، يقال : إنه فارسي معرّب ، وهو فاعول ، الواحدة ياقوته ، والجمع اليواقيت . انظر "الصحاح" (1/240) ، و "القاموس المحيط " ص(163).

للشـمس الـذي ينعكس عليـه الشـعاع ، ولـه موانـع من السحاب والسقوف وغير ذلك ، فهذا الواحد الذي قـدّروه في أنفسهم لا وجود له في الخارج "[1].

وأما من جهة الخالق :

فإنه تعالى خالق كل شيء ، وهو وحـده مسـتقل بالفعـل ليس له شريك ، وليس ما صدر عنه واحد ، بل هو تعـالى خالق كلُ شيء ، ولا واحد يفعل وحده إلاّ هو .

قـال شـيخ الإسـلام : "فليس في الوجـود شـيء واحـد يستقل بفعل شيء إلاّ الله وحده ، قال تعالى : ﭽ ﯽ ﯾ ﯿ ﭼ [2] أي فتعلمـون أن خـالق الأزواج واحـد . ولهـذا من قال : إن الله لا يصدر عنه إلاّ واحد ؛ لأن الواحـد لا يصـدر عنه إلاَّ واحد كان جاهلاً ، فإنه ليس في الوجود واحد صدر عنه وحده شـيء لا واحـد ولا اثنـان إلا اللـه ، الـذي خلـق الأزواج كلهـا ممـا تنبت الأرض ومن أنفسـهم وممـا لا يعلمون... "[3] .

وقال : "والمخلوقات جميعاً يعاون بعضاً بعضاً في الأفعال ، فليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول ينفرد به ، بـل لا بدّ له من مشارك معاون مستغن عنه ، ثم مع احتياجـه إلى المشارك له من يعارضه ويعوقه عن الفعـل ، فلا بـدّ له من مانع يمنع التعارض المعوق ، وهذا في كل ما يقال إنه مؤثر بالطبع أو بالاختيار أو شيء آخر إن قـدّر . ولهـذا لم يكن في المخلوقـات واحـد يصـدر عنـه وحـده شـيء أصلاً، فلا واحد يفعل وحده إلاَّ الله سبحانه وهذا مما يـبيّن ضلال هؤلاء المتفلسفة القائلين بأن الواحد لا يصـدر عنـه إلاَّ واحـد ، جعلـوا هـذه قضـية كليـة ليـدرجوا فيهـا واجب الوجود ، ويقولوا : لم يصدر عنه إلاَّ واحد بسيط ، وهو مـا يسمونه العقل . فإن هذا القول وإن كان فسـاده معلومـاً من وجـوه كثـيرة ، لكن المقصـود هنـا أن هـذه القضـية الكلية لا تصدق في موضع واحد غير محل النزاع ، ومحـل

---

[1] "مجموع الفتاوى" (8/133-134) ، وانظر (17/289).
[2] سورة الذاريات ، الآية (49).
[3] "التدمرية" ص(211).

النزاع عُلم فيه أن الفاعل واحد ، لكن لم يُعلم فيه أنـه لا يفعل إلاَّ واحد ، وأيضاً فالوحدانية التي يستحق الربّ أن يوصف بها ليست هي الوحدة التي يدّعونها ، فإن تلك الوحدة التي يدّعونها لا تصدق إلاَّ على الممتنع الذي لا يمكن وجوده إلاَّ في الذهن لا في الخارج ؛ إذ يثبتون وجوداً مطلقاً أو مشروطاً بسلب الأمور الثبوتية ، أو الثبوتية والعدمية وهذا لا يكون إلاَّ في الأذهان ، كما قد قرروا ذلك في منطقهم ، وهو معلوم بصريح العقل" .[1]

وقد بيَّن شيخ الإسلام أن واحدهم الذي لا صفة له ولا قدرة ولا فعل لا يُعقل أنه يوجد عنه شيء لا واحد ولا غير واحد ؛ لأنه لا وجود له في الخارج وإنما هو موجود في أذهانهم[2] .

وبيَّن –رحمه الله- أيضاً أن مقصودهم بالصدور هو لزومه له ووجوبه عنه لا يعنون به حدوثه عنه وفعله له بمشيئته وقدرته فعلاً يسبق به الفاعل مفعوله ، فالصدور عندهم هو التولد العقلي ، والرب تعالى لا يصدر عنه شيء بهذا المعنى ولا يتولد عنه شيء أصلاً ، ولم يتولد عنه شيء ولم يصدر عنه شيء ، ولكن خلق كل شيء خلقاً، وخلق من كل شيء زوجين اثنين . وحقيقة قول هؤلاء أن العقول والنفوس متولدة عنه ، فهم خرقوا له بنين وبنات بغير علم [3].

"وهذا القول يوجد في مشركي العرب وفي النصارى وغيرهم، والذي يوجد في هؤلاء شرّ من هذا كلّه؛ وذلك لأن مشركي العرب والنصارى ونحوهم يقرّون بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه ، ولكن يثبتون تولداً من بعض الوجوه ، وهو تولّد حادث كما تقوله النصارى في المسيح ، وكما كانت تقوله مشركو العرب في الملائكة ونحو ذلك ، وأمّا هؤلاء فيقولون : إن العقول والنفوس

---

[1] "درء التعارض" (9/338-339).

[2] انظر "الصفدية" (1/279).

[3] انظر "مجموع الفتاوى" (4/130) ، و"شرح الأصبهانية" ص (462-463 ، 465-466).

متولدة عن اللـه تولّـداً قـديماً أزليـاً لازمـاً لذاتـه، والعـالم متولّد عن ذلك ، فالعالم كله عندهم متولد عن الله تولـداً قديماً أزلياً لازمـاً لذاتـه ، وإن كـانوا قـد لا يعبّـرون بلفـظ الولد"[1] .

وأيضاً فإن قول هـؤلاء أعظم فسـاداً في العقـل ، وكفـراً في الملل من قول أولئك العـرب الـذين خرقـوا لـه بـنين وبنـات بغـير علم ، من جهـة أن أولئـك العـرب لم يكونـوا يجعلون شيئاً من البنين والبنات مبدعـة لكـل مـا سـواه ، وهؤلاء يجعلـون أحـد البـنين وهـو "العقـل" أبـدع كـلّ مـا سواه"[2] .

والنصوص الشرعية الدالة على أن الله -تعالى- منزّه عن الولد تبطل قوله هؤلاء كقوله تعـــالى : ﭽﮬﮬﮬ ... ﮃﮂﭼ[3] .

وقوله تعالى: ﭽ ... ﯼﯼﯿ ... ﭼ[4] .

وقوله تعالى : ﭽ ... ﯼﭼ[5] .

وقوله تعالى : ﭽ ﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭼ[6] .

والنصوص الدالة على تنزيه الله عن الولد كثيرة جداً .

---

[1] "الصفدية" (1/215-216) ، وانظر (1/8-9) ، و "مجموع الفتاوى" (17/286 ، 290-295).

[2] انظر "الرد على المنطقيين" (1/216-217).

[3] سورة البقرة ، الآية (166).

[4] سورة الأنعام ، الآية (101).

[5] سورة الصافات ، الآية (151-152).

[6] سورة الإخلاص ، الآية (1-3).

المطلب الأول : المراد بالشهود .

مادة "شهد" المشتملة على الشين والهاء الدال أصلٌ يدل على حضور وعلم وإعلام ، لا يخرج من فروعه عن ذلك:

فالشهيد من أسماء الله -تعالى- : الأمين في شهادته ، وقيل : هو الذي لا يغيب عن علمه شيء .

وشَهِدَ شُهود أي : حضره ، فهو شاهد ، وقومٌ شهود : أي حضور.

وأشهدني إملاكه : أحضرني .

والشاهد والشهيد : الحاضر ، والجمع : شُهداء ، وشُهَّد وأشهادٌ وشهودٌ.

وقوله تعالى : ﭽ ﮬ ﮭ ﭼ[1]. أي : محضور يحضره ، أهل السماء والأرض ومثله قوله تعالى : ﭽ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ[2]، يعني : صلاة الفجر يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار .

وقوله تعالى : ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭼ[3]، أي : أحضره سمعه وقلبه شاهد لذلك غير غائب عنه .

ويقال: امرأة مُشْهِدٌ بغير هاء إذا كان زوجها حاضراً عندها ، وامرأة مُغيبة : إذا كان زوجها غائباً عنها .

والمشهد : محضر الناس.

---

[1] سورة هود ، الآية (103).

[2] سورة الإسراء ، الآية (78).

[3] سورة ق ، الآية (37).

والشـهيد : القتيـل في سـبيل اللـه ؛ سـمِّي بـذلك ؛ لأن ملائكة الرحمة تشهده : أي تحضره ، وقيل : لأنــه حيٌ لم يمت كأنه شاهد أي حاضر . وقيل غير ذلك .

والشـهادة تجمـع الحضـور والعلم والإعلام ، يقـال : شـهد شهادة .[1] .

والمراد بالشهود هنا هو : الحضور والعلم .

وهذا المعنى مناسب لأصل مادة "شـهد" وهي الحضـور والعلم .

وأما الشـهود في اصـطلاح الصـوفية فهـو : "رؤيـة الحـق بالحق"[2] . والمراد : رؤية الحق أي اللـه ، بـالحق أي عن طريق الحق ، وهو طريق الشهود والفناء .

المطلب الثاني : توضيح المراد بالجمع بين الشهودين .

---

[1] انظر : "معجم مقـاييس اللغـة" (3/221-222)ـ ، و "لسـان العـرب" (8/151-154)ـ ، و "تهـذيب اللغـة" (6/75-77)ـ ، و "الصحاح" (2/430) ، و "القاموس المحيط" ص (292).

[2] اصــطلاحات الصــوفية "للقاشــاني" ص (153)ـ ، وانظر "التعريفات"ص (135).

مصطلح الشهود والفناء مصطلحان غير شرعيين ، وشيخ الإسلام هنا يخاطب القوم ويردّ عليهم بمصطلحاتهم ، ويبيّن لهم المعاني الصحيحة من خلال المصطلحات التي يستعملونها ، وذكره لذلك هو في مقام المناظرة والردّ لافي مقام التقرير .

بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن العبد يجمع بين شهود أمرين :

الأول : شهود الربوبية .

والثاني : شهود الألوهية .

ومراده بذلك :

أن يشهد العبد تفرّد الرب تعالى بالخلق والملك ، والتدبر والنفع والضر والإعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال ، والقيومية .

ولا يكتفي بهذا الشهود ، فإن الإكتفاء بذلك نقص . بل لابدَّ من شهود الألوهية أيضاً.

فيشهد تفرَّد الرب تعالى بالعبادة من المحبة والخوف والرجاء والتعظيم وغير ذلك من أنواع العبادة .

قال شيخ الإسلام : "فالعبد مع شهوده الربوبية العامة الشاملة للمؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر عليـه أن يشهد ألوهيته التي اختص بها عباده المؤمنين ، الذي عبدوه وأطاعوا أمره ، واتبعوا رسله" [1] .وقال –رحمه الله- عند حديثه عن أنواع الفناء: "فإنه إذا شهد أن الله رب كل شيء ومليكه وأمر بطاعته وطاعة رسله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسوله ، فشهد حقائق أسمائه وصفاته وأحكامه خلقاً وأمراً : كان أتمّ معرفة وشهوداً ، وإيماناً وتحقيقاً من أن يفنى بشهود معنى عن شهود معنى آخر..." [2] .وقال أيضاً: "وهو كما يشهد ربوبيته وتدبيره العالم المحيط وحكمته ورحمته فكذلك يشهد إلهيته

---

[1] "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/856-857).

[2] "مجموع الفتاوى" (2/370).

العامّة ، فإنه الذي في السماء إله وفي الأرض إليه ، إله في السماء وإله في الأرض ..." [1] .
وقال –رحمه الله- : "وكثير من المتوجّهين السالكين يشهد في سلوكه الربوبية والقيومية الكاملة الشاملة لكل مخلوق من الأعيان والصفات ... فيغيب ويفنى بهذا التوحيد الرباني عما هو مأمور به أيضاً ومطلوب به ، وهو محبوب الحق ومرضية من التوحيد الإلهي ، الذي هو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة رسوله ، والأمر بما أمر به ، والنهي عمّا نهى عنه ، والحب فيه ، والبغض فيه ..." [2] .
وقال عند حديثه عن غلط كثير من العامّة بل ومن السالكين في ذلك : "فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد الحقيقة الكونية دون الدينية ، فيرى أن الله خالق كل شيء وربه ، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه ، وبين ما يسخطه ويبغضه وإن قدّره وقضاه ، ولا يمّيز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية ، فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات ، سعيدها وشقيها ، مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر ، والنبي الصادق والمتنبئ الكاذب، وأهل الجنة وأهل النار ، وأولياء الله وأعداؤه ، والملائكة المقربون والمردة الشياطين ، فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه "الحقيقة الكونية" وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم ، لا ربّ لهم غيره ، ولا يشهد الفرق الذي فرّق الله به بين أوليائه وأعدائه ، وبين المؤمنين والكافرين ، والأبرار والفجار ، وأهل الجنة والنار وهو : توحيد الألوهية ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة رسوله ، وفعل ما يحبه ويرضاه ، وهو ما أمر الله به ورسوله وأمر إيجاب ، أو أمر استحباب ، وترك ما نهى الله عنه ورسوله ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ،

---

[1](?) "المصدر السابق" (2/404).
[2](?) "مجموع الفتاوى" (2/457).

والأمــر بــالمعروف والنهي عن المنكــر ، وجهــاد الكفــار والمنــافقين بــالقلب واليــد واللســان ، فمن لم يشهـــــد هـــذه "الحقيقـة الدينيـة " الفـــارقة بين هـؤلاء وهـؤلاء ، ويكـون مـع أهـل "الحقيقـة الدينيـة " وإلاَّ فهـو من جنس المشـــركين ، وهــو شــر من اليهــود والنصــارى ، فــإن المشركين يقرّون بالحقيقـة الكونيـة ؛ إذ هم يقـرون بـأن الله رب كل شيء... " [1] .

المطلب الثالث : الأدلة على وجوب الجمع بين الشهودين.

ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله- الأدلة على وجود الجمع بين الشهودين وهي النصوص التي جمع الله فيها بين العبادة والتوكل كقوله تعالى: ﭽﭣﭤﭥﭦﭼ[2].

وقوله تعالى : ﭽ ﯽﯾﯿﰀﰁﰂﭼ[3].

---

[1] "مجمــوع الفتــاوى" (10/668-669)ـ ، وانظر (8/347)ـ (17/28-29)ـ ، و "الــرد على الشــاذلي" ص (70-71)ـ ، و "العبوديـة" ص (196-198)ـ ، و "الاسـتغاثة" (1/221، 225-226) (2/646).

[2] سورة الفاتحة ، الآية (5).

[3] سورة هود ، الآية (88).

وقوله تعالى:ﭽﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕ ﮖﮗﮘﭼ[1].

وقوله تعالى : ﭽﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭼ[2].

وقوله تعالى : ﭽ□□□□□□ﭼ[3].

وقولـــه تعالى : ﭽﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﭼ[4].

وقوله تعالى : ﭽﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞ□□□□□□ﮟﮠﭼ[5].

فالعبادة متعلقة بألوهية الله تعالى واسمه "الله".

والتوكل متعلق بربوبيته الله تعالى واسمه "الرب"[6].

قال شيخ الإسـلام : "الفنـاء المحمـود عنـد العـارفين هـو تحقيـق شـهادة أن لا إلــه إلا اللــه ، فلا يشــهد شـيئاً من الألهية ، فيشهد أن لا خالق غيره، ويشـهد انـه لا يسـتحق العبادة غيره ، ويتحقـــق بحقيقـة قولـه : ﭽ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭼ[7]. وقوله: ﭽ ﮖﮗﮘﭼ[8]. وإلاَّ فإذا شهدت أنه المستحق للعبادة مع رؤيتك نفسك لم تشهد حقيقة ﭽﭣﭤﭥﭦﭼ وإذا شهدت حقيقة أنه الفاعل لكـل شـيء ولم تشـهد أنـه المسـتحق للعبـادة دون مـا سـواه وأن عبادتـه إنمـا تكـون بطاعـة رسوله لم تشهد حقيقة ﭽﭣﭤﭥﭦﭼ[9]- ثم ذكر أكثر الآيات السابقة.

---

[1] سورة هود ، الآية (123).

[2] سورة الرعد ، الآية (30).

[3] سورة الممتحنة ، الآية (4).

[4] سورة المزمل ، الآية (8-9).

[5] سورة الطلاق ، الآية (2-3).

[6] انظر "مجموع الفتاوى" (1/74، 89) ، و "مدارج السالكين" (1/139-140).

[7] سورة الفاتحة ، الآية (5).

[8] سورة هود ، الآية (123).

[9] "الرد على المنطقيين" (2/242) ، وانظر "التحفة العراقية" ص(314-315 ، 345).

المطلب الأول : مسلك شهود الربوبية وحدها دون الألوهية .

المراد بشهود الربوبية هنا: الاستغراق في توحيد الربوبية ، وهو رؤية تفـردّ الـرب -تعـالى- بخلق الأشـياء وملكها واختراعها ، وأنه ليس في الوجود قطٌّ إلاَّ ما شاءه وكوّنه .

فيشهد ما اشـتركت فيه المخلوقـات من خلق الله إياهـا، ومشـيئته لها ، وقدرته عليها ، وشـمول قيوميته وربوبيته لها.

وهو مشـهد الجمع الـذي يشـترك فيه المـؤمن والكـافر، والبر والفاجر ، والنـبي الصـادق والمتنـبي الكـاذب، وأهل الجنة وأهل النـار ، وأوليـاء الله وأعـداؤه والملائكة المقرّبون والمردة والشياطين .

فـإن هـؤلاء يشـتركون في هـذا الجمع وهـذه "الحقيقة الكونية".

ولا يشهد الفـرق الـذي فـرّق الله به بين أوليائه وأعدائه ، وبين المؤمنين والكافرين ، والأبرار والفجار ، وأهل الجنة والنار ، وهو توحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شـريك له ، وطاعة رسوله ، وفعل ما يحبه ويرضاه .

وهـذا الاسـتغراق في شـهود الربوبية إذا قـوي عليه فإنه يغيب بمشـهوده عن شـهوده وبمعبـوده عن عبادته ، وبمذكوره عن ذكـره ، وبموجـوده عن وجـوده ، وبمحبوبه عن حبه، بحيث يغيب عن شـعوره بنفسه وبما سـوى الله

، وهذا هو الفناء [1] عن شهود السِّوي[2] الذي يذكره بعض الصّوفية .

وقد يسمّون هذا :

- الجمع[3] .
- والاصطلام [4] .
- والسكر[5] .

---

[1] الفنـــاء في التصـــوف : نظرية تتلخص في ذهـــاب الحسّ والوعي وانعدام الشـعور بـالنفس وبالعـالم الخـارجي ، وانمحـاء العبد في جلال الــرب ، فــيزعمون أن العبد يفــنى في شخصه ، ويبقى في ربّه ، بعد مجاهـدة ومجالـدة وتصـفية للنفس بدعية . وأولّ من قـــال بها : أبو يزيد البســـطامي في القـــرن الثـــالث الهجـري ، وتوسّـع فيها متصـوفة آخـرون من بعـده " " المعجم الفلسفي ص (141) ، وانظر "اصطلاح الصوفية" لابن عربي ص (410) ، و "التعريفات" ص (179).

[2] السِّوي: قال الجرجاني: "السِّوي هو الغير ، وهو الأعيان من حيث تعُّيناتها " التعريف ص (138)، وانظر "اصطلاح الصـوفية" ص (415) ، و "القاموس الصوفي" ص (42).

[3] الجمع : قال المنـاوي: " عند أهل الحقيقة : إشـارة إلى حق بلا خلق ، وقيل : مشاهدة العبودية، وقيل : الفرق ما نسب إليك ، والجمع ما سـبلك عنـك، ومعنـاه: أن ما يكـون كسـباً للعبد من إقامة وظائف العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فــرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معانٍ وابتداء لطائف وإحسان فهو جمع ، ولابدَّ للعبد منهما ، ومن لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له معرفة له ، فقــول العبد "إيــاك نعبــد" إثبــات للتفرقة بإثبات العبودية ، وقوله : "إياك نستعين" طلب الجمع ، فالتفرقة بداية الإرادة، والجمع نهايتهـا." "القـاموس الصــوفي" ص (25-26). وبنحو ذلك عرّفه الجرجــاني انظــر"التعريفــات" ص (80-81)ـ ، وأما ابن عــربي فاقتصر على قوله "إشـارة إلى حق بلا خلـــق" " اصـــطلاح الصـــوفية" ص(409)ــ ، وقـــال القاشاني:"شهودالحق بلا خلق"."اصطلاحات الصوفية"(41).

[4] الاصـطلام : قـال ابن عــربي : "نعتُ وله يــرد على القلب فيسكن تحت سـلطانه" "اصـطلاح الصـوفية" ص (413) وانظر "اصطلاحات الصوفية" ص (30)، و "القـاموس الصـوفي" ص (

- والمحو [1][2] .

وشــهود توحيد الربوبية وأن الله خــالق كل شــيء وربه ومليكه هو شهود القدر[3] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام أنه في هذا الفناء قد يقـول أحـدهم : أنا الحق ، أو ســــبحاني ، أو ما في الجبة إلاّ الله ونحو ذلك .

وبيّن حكم من يقع منه ذلك في حــال الفنــاء والشــهود فقال : "وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نــوع من الحلول أو الاتحاد فإن الاتحــاد فيه حق وباطل ، ولكن لما ورد عليه ما غيّب عقله أو أفنـاه عمّا سـوى محبوبه ، ولم يكن ذلك بـذنب منه : كـان معـذوراً غـير معـاقب عليه ما دام غير عاقل ، فإن القلم رفع عن المجنون حـتى يفيق ، وإن كان مخطئاً في ذلك كان داخلاً في قوله : ﭽﭙﭚﭛﭜ ﭽ "[4] وقال : ﭽﮨﮩﮪﮫﮬﭼ[5] .

وهذا كما يحكى أن رجلين كان أحدهما يحب الآخـر فوقـع المحبوب في اليمّ فألقى الآخر نفسه خلفـه ، فقـال : أنـا

---

31).

(?)⁵ السـكر : قـال ابن عـربي: " غيبة بـوارد قـوي" . "اصـطلاح الصوفية" ص (410) ، وانظر "التعريفات" ص (135).

(?)¹ المحو : قـال الجرجـاني :"رفع أوصـاف العـادة بحيث يغيب العبد عنــدها عن عقله ، ويحصل منه أفعــال وأقــوال لا مــدخل لعقله فيها ، كالســكر من الخمــر" . "التعريفــات " ص(317) وانظر "اصطلاح الصوفية" ص (410) ، و "اصطلاحات الصوفية" ص(79).

(?)² انظر "مجموع الفتاوى " (10/68-69 ، 242، 497، 594) (2/313 ، 368-370) (13/199) (19/277) ، و "التدمرية" ص (221-222) ، و "العبودية" ص (188) ، و "الاستغاثة" (2/634) ، و "الــردّ على الشــاذلي" ص(69، 102) ، و "الــردّ على المنطقيين" (2/240) ، و "مدارج السـالكين" (1/222-223 ، 226).

(?)³ انظر "مجموع الفتاوى" (10/497).

(?)⁴ سورة البقرة ، الآية (286).

(?)⁵ سورة الأحزاب ، الآية (5).

وقعت ، فما الذي أوقعك ؟ فقال : غبت بك عـني فظننت أنك أني.

فهـذه الحـال تعـتري كثـيراً من أهـل المحبـة والإرادة في جـانب الحــق ، وفي غــير جانبــه ، وإن كــان فيهــا نقص وخطــأ ، فإنــه يغيب بمحبوبــه عن حبــه وعن نفســه ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانه ، وبمشهوده عن شـهوده ، وبموجـوده عن وجـوده ، فلا يشـعر حينئـذ بـالتمييز ولابوجـوده ، فقـد يقـول في هـذه الحـال : أنـا الحق ،أو سبحاني ، أو مـا في الجبـة إلاَّ اللـه ونحـو ذلـك، وهو سكران بوجد المحبة الذي هو لذة وسرور بلا تمييز.

وذلــك الســكران : يطــوى ولا يــروى إذا لم يكن ســكره بسبب محظور.

فإمَّا إذا كان السبب محظوراً : لم يكن السكران معذوراً.

وأمّـا أهـل الحلـول: فمنهم من يغلب عليـه شـهود القلب وتجليه ، حتى يتوهم أنه رأى الله بعيني رأسه "[1] .

وأوضح –رحمه الله- أنه كما لا جنـاح عليهم فإنه لا يجـوز الاقتـداء بهم ولا حمل كلامهم وفعـالهم على الصـحة، بل هم في الخاصّــة مثل الغافل والمجنــون في التكــاليف الظاهرة[2] .

وبيَّن –رحمه الله- أن سبب الفناء الذي يقعون فيه هو :

1-قوة الوارد عليهم .

2-ضعف قلوبهم وعجزهم عن كمال الشـهود المطـابق للحقيقة ، وهو شـــــهود الربوبية وشــــــهود الألوهية أيضاً[3].

---

[1] "مجمــوع الفتــاوى" (2/396-397)ـ ، وانظر (2/461)ـ (8/312-313)ـ (10/338-340) و "التحفة العراقيــة" ص(395-397)ــ ، و "الــردّ على الشـــاذلي" ص (102-103)ــ ، و "الاستقامة" (2/143) .

[2] انظر "مجموع الفتاوى" (10/340-341).

[3] انظر "المصدر السابق" (2/343 ، 368، 370) (10/338).

وبيَّن –رحمه الله- أن الفناء في توحيد الربوبية فيه فضيلة من جهة إقبـــــال القلب على الله ، وفيه نقص من جهة عدم شهوده للأمر على ما هو عليه[1] .
وبيَّن –رحمه الله- أن هذا الفنـاء الـذي يقع منهم هو فنـاء عن شهود المخلوقات، لاأنها في نفسها فنيت .
قال : " فإن ما عدم وفني : شهوده له وعلمه به ونظره إليه ، فالمعـــدوم الفـــاني صـــفة هـــذا الشـــخص ، وإلاَّ فالموجودات في نفسها باقية على حالها لم تتغير ، وعدم العلم ليس علماً بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شـهوداً للعدم ، ولكن هـذه الحـال يعـتري كثـيراً من السـالكين ، يغيب أحـدهم عن شـهود نفسه وغـيره من المخلوقـات ، وقد يسمّون هذا : فنــاء واصطلاما ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقـات ، لا أنها في نفسـها فـنيت ، ومن قـال : فـنى ما لم يكن وبقي ما لم يـزل ، فـالتحقيق – إذا كـان صـادقاً- أنه فـنى شـهوده لما لم يكن ، وبقي شـهوده لما لم يـــزل ، لا أن ما لم يكن فـــنى في نفسه ، فإنه بـــاقٍ موجود ، ولكن يتوهمون إذا لم يشـهدوه أنه قد عـدم في نفسه"[2] .

المطلب الثاني : شبهتهم والردّ عليهم .

أصل غلط هؤلاء يرجع إلى أمرين:
1-غلطهم في مسمَّى التوحيد ، حيث ظنوا أن التوحيد المطلوب هو توحيد الربوبية فقط، وأنه هو الغاية، والفناء فيه عند طائفة منهم هو النهاية.
2-غلطهم في الإرادة ، حيث جعلوا الإرادة نوعاً واحداً، ولم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية ، وجعلوها هي المحبة والرضا.

---

[1] انظر "المصدر السابق" (2/370) ، و"الردّ على الشاذلي " ص (103).
[2] "المصدر السابق" (13/198-199) ، وانظر "العبودية" ص (188).

ثم هؤلاء يستشهدون على شهودهم للربوبية وحدها دون الألوهية بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ أو ببعض غلطات بعضهم[1].

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "وقد غلط في مسمّى التوحيد طوائف من أهل النظر والكلام ، ومن أهل الإرادة والعبادة حتى قلبوا حقيقته فطائفة ظنت أن التوحيد هو نفي الصفات بل نفي الأسماء الحسنى أيضاً ...وطائفة ظنوا أن التوحيد ليس إلاَّ الإقرار بتوحيد الربوبية ، وأن الله خالق كل شيء ، وهو الذي يسمونه : توحيد الأفعال ... ثم إن طائفة ممن تكلم في تحقيق التوحيد على طريق أهل التصوف ظن أن توحيد الربوبية هو الغاية ، والفناء فيه هو النهاية ، وأنه إذا شهد ذلك سقط عنه استحسان الحسن واستقباح القبيح ، فآل بهم الأمر إلى تعطيل الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ولم يفرقوا بين مشيئته الشاملة لجميع المخلوقات وبين محبته ورضاه المختص بالطاعات ، وبين كلماته الكونيات التي لا يجاوزها برّ ولا فاجر ، لشمول القدر لكل مخلوق ، وكلماته الدينيات التي اختصّ بموافقتها أنبياؤه وأولياءه "[2].

وقال عند حديثه عن فناء الصوفية في شهود الربوبية : "أصل غلط هؤلاء أنهم لم يثبتوا لله إلاَّ الإرادة العامة المتناولة لكل مقدرو ... وكثير من الناس القدرية الجهمية الجبرية ومن دخل معهم في التصوف جعلوا الإرادة نوعاً واحداً، وجعلوها هي المحبة والرضا ، قالت القدرية : والله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان فيكون في ملكه ما لا يشاء ولم يخلقه ، وقالت الجهمية : بل كل ما وقع فهو بمشيئة الله ، والمشيئة هي الإرادة ، وهي المحبة والرضا ، فكل ما وقع فإنه يحبه ويرضاه ، ولكن

---

[1] انظر "التحفة العراقية" ص(334)، و "مجموع الفتاوى" (8/346) (10/684)

[2] "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/854، 856)، وانظر "مجموع الفتاوى" (8/100-101، 339-346) (10/683-684).

يريد ويحبّ ويرضى المأمور به مأموراً به ديناً يثيب عليه ، ويريد ويحب ويرضى المنهي عنه منهياً عنه معاقباً عليه ، فالفرق بينهما يعود إلى أنه يريد ويحب ويرضى أن يُنعَّم هؤلاء ويعذب هؤلاء من غير فرق يعود إليه ، ولا يحب بعض المخلوقات ويبغض بعضا، كما لا يشاء بعضها دون بعض ، فعنده لا يحب بعض المخلوقات دون بعض .

والجهمية الجبرية والقدرية المعتزلة ومن وافقهم مشتركون في أنه ليس بين المأمور والمحظور فرق يعود إلى الربّ –تبارك وتعالى- والقائلون بالجمع من غير فرق يشاركون هؤلاء ، ورأوا أنه لا فرق بالنسبة إلى الربّ ، لكن الفرق يعود إلى العبد من حيث أن أحد العملين يقتضي حصول لذة له والآخر يقتضي حصول ألم له ، وهذا من حظوظ العباد .

ثم قال غلاة هؤلاء : وهذا الفرق من العبد نقص؛ لأنه فرق يعود إلى نفسه فالعمل له سعى في حظ النفس ، وأما الكمال فهو أن يفني العبد بمراداته جملة ولا يبقى له حظ ، وأن لا يشهد إلاّ ربه ، وإرادة الرب –عز وجل– عندهم هي المشيئة المتناولة لكل شيء ، وهي المحبة والرضا عندهم ، ولهذا قالوا : إنه حينئذ لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة"[1] .

وشيخ الإسلام –رحمه الله- ردّ عليهم من أوجه عديدة ، هي ما يلي:

1- أن هؤلاء غاية تحقيقهم هو شهود توحيد الربوبية ، وهذا التوحيد يقرّبه المشركون عبّاد الأصنام ، كما

---

[1] "الاستغاثة" (2/644 ، 646-647) ، وانظر (1/228-230) ، و "مجموع الفتاوى" (10/496-497 ، 683-684) ، و "جامع المسائل " (4/279-280) .

أخبر الله عنهم في القرآن في غير موضع كقوله تعالى : ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﭼ[1] .

وقوله تعالى : ﭽ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﭼ[2] .

وقوله تعالى : ﭽ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﭼ[3] .

والآيات في هذا كثيرة .

ومجرد شهود الربوبية من غير فعل ما يحبه الله ويرضاه ليس بإيمان ينجي من عذاب الله فضلاً عن أن يكون غاية العارفين .

بل التوحيد المنجي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بحيث يُقرّ بأن الله هو المستحق للعبادة دون ما سواه ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن عصى رسوله فقد عصى الله ، فيحلّ ما حلّله الله ورسوله ، ويحرّم ما حرّمه الله ورسوله ، ويأمر بما أمر الله به ورسوله ، وينهى عمّا نهى الله عنه ورسوله[4] .

قال شيخ الإسلام بعد ذكره للآيات الدالة على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية : "فإن هؤلاء المشركين كانوا يقرّون بأن الله خالق السماوات والأرض وخالقهم ، وبيده ملكوت كل شيء ، بل كانوا مقّرين بالقدر أيضاً ، فإن العرب كانوا يثبتون القدر في الجاهلية ، وهو معروف عنهم في النظم والنثر ، ومع هذا فلم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، بل عبدوا غيره ، كانوا مشركين شراً من اليهود والنصارى ، فمن كان غاية توحيده وتحقيقه هو هذا التوحيد كان غاية توحيده توحيد المشركين. وهذا

---

[1] سورة المؤمنون ، الآية (84-89)

[2] سورة العنكبوت ، الآية (61-63).

[3] سورة يونس ، الآية (30-31).

[4] انظر "الاستغاثة " (1/224-225 ، 232-233) ، و "مجموع الفتاوى" (8/100-102) (10/684-685) ، و "درء التعارض" (6/56) ، و "الردّ على المنطقيين" (2/239).

المقام مقام وأيّ مقـام ! زلت فيـه أقـدام ، وضـلت فيـه أفهام ، وبدّل فيه المسـلمين ، والتبس فيـه أهـل التوحيـد بعبــاد الأصــنام ، على كثــير من يــدعون نهايــة التوحيــد والتحقيق والمعرفة والكلام " [1] .

2- أن هنـاك فرقـاً بين الإرادة الكونيـة والإرادة الدينيـة ، فــالإرادة الدينيــة بمعــنى المحبــة والرضــى ، وهي لا تستلزم وقوع المراد ، بـل قـد يقـع وقـد لا يقـع وأمـا الإرادة الكونية فهي بمعنى المشيئة ، وهـذه لا بـدّ أن تقع .

قـــال شيخ الإسلام –رحمـه اللـه- : "ينبغي أن يعـرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين :

أحدهما : الإرادة الكونية ، وهي الإرادة المستلزمة لوقـوع المراد ، التي يقال فيها : ما شاء الله كان وما لم يشـأ لم يكن ، وهذه الإرادة في مثل قوله : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞﭼ[2] وقوله : ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ

ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘﭼ[3] .

وقوله تعالى : ﭽ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂﭼ[4] .

وقال تعالى : ﭽ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍﭼ[5] .

وأمثال ذلك ...

وأما النـوع الثـاني : فهي الإرادة الدينيـة الشـرعية ، وهي محبة المراد ورضاه ، ومحبة أهله والرضـا عنهم وجـزاهم بالحسنى .

كما قال تعالى : ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘﭼ[6]

(?)[1] "مجموع الفتاوى" (8/103)

(?)[2] سورة الأنعام ، الآية (125).

(?)[3] سورة هود ، الآية (34).

(?)[4] سورة البقرة ، الآية (253).

(?)[5] سورة الكهف ، الآية (39).

(?)[6] سورة البقرة ، الآية (185).

وقال تعالى : ﭽﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﭼ[1]

وقوله تعالى : ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭼ[2]

فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلاّ أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة "[3] .

وبهذا التقسيم والتفصيل يزول الاشتباه ويندفع الضلال [4] ، فليس كل ما أراده الله فهو يحبه ، بل هو سبحانه يحب الطاعات دون المعاصي ، ويحب أهل الإيمان دون أهل الكفر والعصيان ، فهو سبحانه يحب ما أراده إرادة شرعية دينية .

ولهذا فإنه "يُفرّق بين عباد الله : بين العبد الذي عبد الله بقدرته ومشيئته وربوبيته ، وبين العابد الذي عبد الله ، فعبده وحده لا يشرك به شيئاً ، وأطاع أمره الشرعي الديني ، فالأول:

كقوله تعالى : ﭽ ... ﯽﯾﭼ[5] "

والثاني :

كقوله : ﭽﮙﮚﮛﮜﭼ[6]

وقوله : ﭽﯙﯚﯛﯜﯝﯞﭼ[7]

وقوله : ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭼ [8]

وقوله ﭽﭑﭒﭓﭼ[9]

وقوله : ﭽﭼﭽﭾﭿﮀﭼ[10]

---

[1] سورة المائدة ، الآية (6).

[2] سورة النساء ، الآية (26-28).

[3] "مجموع الفتاوى" (8/187-188) ، وانظر (8/58-60 ، 131 ، 140 ، 197-198 ، 201 -202 ، 440-441 ، 474-477) ، (2/411-412) (10/581-583).

[4] انظر "مجموع الفتاوى" (8/202 ، 441).

[5] سورة مريم ، الآية (93-94).

[6] سورة الحجر ، الآية (42).

[7] سورة الفرقان ، الآية (63).

[8] سورة الإنسان ، الآية (6).

[9] سورة الإسراء ، الآية (1).

[10] سورة الجن ، الآية (19).

وقوله : ﭽ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﭼ[1]

وقوله: ﭽ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ[2][3]

فـالمعنى الأول للعبـد يشـمل المـؤمن والكـافر ، والـبرّ والفـاجر ، أهـل الجنـة وأهـل النـار ، إذ هـو ربّهم كلّهم ومليكهم ، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته .

وأمّا المعنى الثاني فهو العابـد المـؤمن الـذي وافـق أمـر الله الشرعي الديني [4].

3- أن النبي –صلى اللـه عليـه وسـلم- لم يعـرض لـه مثل هذا الفناء ونحوه ، ولم يرد مثـل هـذا عليـه –صلى الله عليه وسلم- وهو أفضل الرسـل وإمـام أهـل الإيمـان والعرفـان ، ولمـا عُـرج بـه إلى السماوات وعاين ما هنالك من الآيات وأوحي إليه ما أوحي من أنـواع المناجـاة أصـبح فيهم وهـو لم يتغير حاله ولا ظهر عليه ذلك .

وهو –صلى الله عليه وسلم- سيد المقرّبين قاتل الكفار ، وكـان يـأمر بقطـع يـد السـارق، ورجم الـزاني ، وجلـد الشـارب، ويـأمر بـالمعروف وينهى عن المنكـر ، ويحـل الطيبات ويحرم الخبائث فلو غلب عليـه مشـهد القيوميـة وأن الأشياء جميعها مخلوقة لله ، ولم يشهد مـا فيهـا من الفرق لما كان ينبغي أن يأمر أحداً ولا ينهى أحداً ولا يقتل أحـداً، ولكـان ينبغي أن يـردّ كفـر الكـافرين وفسـق الفاسقين إلى الخالق[5].

" وهذا القرآن ينطق عن جميع الأنبياء والمرسـلين – وهم سـادات المقـربين – بـأنهم كـانوا يفرقـون بين المعـروف والمنكر ، والإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، ويـأمرون

---

[1] (?) سورة البقرة ، الآية (23).

[2] (?) سورة النجم ، الآية (10).

[3] (?) "جامع المسائل" (4/279-280).

[4] (?) انظر "العبودية" ص (38-45).

[5] (?) انظر "التدمرية" ص (222) ، و "التحفة العراقية" ص (396-397) ، و "العبودية" ص (192) و "الاستغاثة" (1/236-237) ، و "الردّ على الشاذلي" ص (102).

بعبادة الله وحده ، وينهون عن عبـادة مـا سـواه ، ولـو لم يشهدوا إلاّ القيومية التي تردّ فيها الأفعال إلى خالقها ، لم يأمروا ولم ينهوا ، ولم يمدحوا ويذمّوا ، فإن العبد لا يـأمر اللـه ولا ينهـاه ولا يذمّـه ولا يعاقبـه ، والأنبيـاء كلهم على شهود الفرق ، ومدح المحسن وذم المسـيء ، وإن كـانوا مقرّين بأن الله خالق كـل شـيء وربّـه ومليكـه ، فشـهود القيومية العامّـة لا ينـاقض أن يفعلـوا مـا أمُـروا بـه ، وأن يأمروا الخلق بعبادة الله وحده ، وينهـونهم عن عبـادة مـا سواه"[1].

فهذا الشهود والفناء من جعله " نهاية السالكين فهو ضالّ ضلالاً مبيناً، وكذلك من جعله من لوازم طريـق اللـه فهـو مخطئ ، بـل هـو من عـوارض طريـق اللـه الـتي تعـرض لبعض النـاس دون بعض ، ليس هـو من اللـوازم الـتي تحصل لكل سالك"[2].

4- أن أكابر الأولياء كأبي بكر وعمر ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، لم يقعوا في هـذا الفنـاء ، فإن الصحابة –رضي الله عنهم- كـانوا أكمـل وأقـوى وأثبت في الأحوال الإيمانيـة من أن تغيب عقـولهم ، أو يحصـل لهم غشـي أوضـعف أو سـكر أو فنـاء ، أو وَلهٌ[3] أو جنون ، وإنمـا كـان مبـادئ هـذه الأمـور في التابعين من عبّاد البصرة ، فإنه كان فيهم من يُغشى عليـه إذا سـمع القـرآن ، ومنهم من يمـوت ، كـأبي

---

[1] "الاستغاثة" (1/238) ، وانظر (2/647).

[2] "التدمرية" ص (222).

[3] الوله : ذهاب العقل والتحيّر من شدة الوجد انظر "الصحاح" (5/1803) ، قال ابن عربي : "الوله : إفراط الوجد" . "اصطلاح الصوفية" ص (411) .

جهير الضرير[1] وزرارة بن أوفى [2] وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف عنه تمييزه ، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه[3].

5- أن أئمة القوم كأبي سليمان الدراني ، ومعروف الكرخي ، والفضيل بن عياض والجنيد وأمثالهم لم يقعوا في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه .

وكان الجنيد بن محمد لما رأى طائفة من أصحابه كأبي الحسين النوري[4] وأمثاله وصل إلى هذا المقام أمرهم بالفرق الثاني ، وهو أن يفرّقوا بين المأمور والمحظور ومحبوب الله ومرضيه ، ومسخوطه ومكروهه ، وهو مشهد الإلهية ، فمنهم من أنكر على الجنيد ، ومنهم من

---

[1] هو أبو جهير مسعود الضرير من أهل البصرة ، طلب من صالح المري أن يقرأ فابتدأ فقرأ فما استمم الاستعاذة حتى خرَّ مغشياً عليه ، ثم أفاق إفاقة فقال له : عُدْ في قراءتك يا صالح ، فعاد فقرأ : ﭽﭾﭿ ﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇ ﮈ (الفرقان : 23) فصاح صيحة ثم انكبّ لوجه وانكشف بعض جسده فجعل يخور كما يخور الثور ثم مات . انظر "صفة الصفوة" (3/223-225) .

[2] الإمام الكبير ، قاضي البصرة ، أو حاجب العامري ، البصري ، سمع عمران بن حصين وأبا هريرة وابن عباس ، وروى عنه أيوب السختياني وقتادة وآخرون . صحّ أنه قرأ في صلاة الفجر فلما قرأ : (ﭽ ﯿ ﯾ ﯽ ﭼ (المدثر : 8) خرّ ميتاً ، وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين . انظر "سير أعلام النبلاء" (4/515-516).

[3] انظر "العبودية" ص (190) ، و "مجموع الفتاوى" (10/338) ، و "التحفة العراقية " ص (396-397)، و"التدمرية" ص (222) ، و "الردّ على الشاذلي" ص (102).

[4] هو أحمد بن محمد الخرساني البغوي الزاهد ، شيخ الطائفة بالعراق ، وأحذقهم بلطائف الحقائق، وله عبارات دقيقة ، يتعلق بها من انحرف من الصوفية ، نسأل الله العفو ، كان الجنيد يعظّمه ، لكنه في الآخر رقّ له وعذره لما فسد دماغه ، توفي قبل الجنيد سنة (295) هـ . انظر "سير أعلام النبلاء" (14/70-77).

توقف ، ومنهم من وافق ، والصواب ما قاله الجنيد من الفرق بين المأمور والمحظور [1] .

قال شيخ الإسلام : "والناس في الإرادة ثلاثة أقسام :

قوم يريدون ما يهوونه ، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان .

وقوم يزعمون أنهم فرغوا من الإرادة مطلقاً ، ولم يبق لهم مراد إلاَّ ما يقدره الرب ، وأن هذا المقام هو أكمل المقامات ، ويزعمون أن من قام بهذا فقد قام بالحقيقة ، وهي الحقيقة القدرية الكونية ، وأنه شهد القيومية العامّة ، ويجعلون الفناء في شهود توحيد الربوبية هو الغاية ، وقد يسمّون هذا : الجمع ، والفناء ، والاصطلام ونحو ذلك . وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع . وفي هذا المقام كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من أصحابه الصّوفية، فإنهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية ، وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وهو شهود القدر ، وسموا هذا مقام الجمع . فإنه خرج به عن الفرق الأول وهو الفرق الطبيعي ، بإرادة هذا وكراهة هذا ، ورؤية فعل هذا وترك هذا ، فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلاً يتفرّق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات ، ويكون متبعاً لهواه فما يريده ، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع ، ثم شهد أنه خالق كل شيء ، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق ، فلما اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد بن محمد "الفرق الثاني" وهو بعد هذا الجمع ، وهو الفرق الشرعي . ألا [2] ترى أنك تريد ما أمرت به ، ولا تريد ما نهيت عنه؟! وتشهد أن الله يستحق العبادة دون ما سواه ، وأن عبادته هي بطاعة رسله ، فتفرق بين المأمور والمحظور ، وبين أوليائه وأعدائه ، وتشهد توحيد

---

[1] انظر "العبودية"ص (191) ، و "مجموع الفتاوى" (14/355) (19/277-278) ، و"الردّ على المنطقيين" (2/240)، و "الاستغاثة" (2/635-642، 652-653) ، و "الردّ على الشاذلي" ص (69-71 ، 102-105)

[2] هكذا في الكتاب ، ولعلّ الصواب " أن ترى".

الألوهية ، فنازعوه في هذا الفرق..." [1] ثم ذكـر نـزاعهم في ذلك .

6- أنه لا بدَّ للعبد من الفرق بين ما يؤلمـه وبين مـا يلـذّه ، بين مـا يؤكـل ويشـرب ومـالا يؤكـل ولا يشرب ، بين ما يؤذيه من الحـرّ والـبرد ومـا ليس كذلك ، بين ما ينفعه وما يضرّه ، وهذا التمييز بين ما ينفـع ومايضـر وهـو الفـرق الشـرعي، فـإن لم يفرّق بالفرق الشرعي ، فيفرّق بين محبوب الحق ومكروهه ، وبين ما يرضاه وما يسخطه ، وإلاّ كان مـع الفـرق الطـبيعي النفسـاني أو مـع فـرق آخـر شيطاني [2] .

قال شيخ الإسـلام : "الفـرق بين الأفعـال الحسـنة والـتي يحصل لصاحبها بها لذّة وبين السيئة الـتي يحصـل لـه بهـا ألم أمـر حسّـي يعرفـه جميـع الحيـوان . فمن قـال من المدّعين للحقيقـة القدريـة ، والفنـاء في توحيـد الربوبيـة والاصطلام: أنـه يبقى في عين الجمـع بحيث لا يفـرّق بين ما يؤلم أو ما يلذ، كان هذا مما يعلم كذبـه فيـه ، إن كـان يفهم ما يقول ، وإلاّ كان ضالاً يتكلم بما لا يعرف حقيقته ، وهـو الغـالب على من يتكلم في هـذا ، فـإن القـوم قـد يحصـل لأحـدهم هـذا المشـهد "مشـهد الفنـاء في توحيـد الربوبية " فلا يشهد فرقاً ما دام في هـذا المشـهد ، وقـد يغيب عنه الإحساس بما يوجب الفرق مـدة من الزمـان ، فيظن هذا الفنـاء مقامـاً محمـوداً ويجعلـه إمّـا غايـة وإمّـا لازماً للسالكين ، وهذا غلط فإن عدم الفرق بين مـا ينعم ويعذّب أحياناً هو مثل عدم الفـرق بين النـوم والنسـيان ، والغفلة والاشتغال بشيء عن آخر ، وهـو لا يزيـل الفـرق الثابت في نفس الأمر ، ولا يزيـل الإحسـاس بـه إذا وجـد سـببه. والواحـد من هـؤلاء لابـدّ أن يجـوع أو يعطش فلا يسوي بين الخبز والشـراب وبين الملح والأجـاج والعـذب

---

[1] "مجموع الفتاوى" (10/496-497)، وانظر (10/243).

[2] انظر "التدمريـة" ص(218-220)، "مجمـوع الفتـاوى" (14/356) ، و"الاستغاثة" (1/228-231، 238) (2/645).

الفرات، بل لا بدّ أن يفرّق بينهما ويقول : هذا طيّب وهـذا ليس بطيّب ، وهذا هو الفرق بين كلّ ما أمر الله ورسوله به ونهى عنه ، فإنه أمر بالطيّب من القول والعمـل ونهى عن الخبيث ... " [1].

7- أن الفناء " يراد به ثلاثة أمور:

أحـدها : هـو الفنـاء الـديني الشـرعي ، الـذي جـاءت بـه الرسل، ونزلت به الكتب[2] ، هـو : أن يفـنى عمّـا لم يـأمر الله به بفعـل مـا أمـر اللـه بـه ، فيفـنى عن عبـادة غـيره بعبادته، وعن طاعة غيره بطاعتـه وطاعـة رسـوله ، وعن التوكل على غـيره بالتوكـل عليـه ، وعن محبـة مـا سـواه بمحبته ومحبة رسوله ، وعن خوف غيره بخوفه ، بحيث لا يتبع العبد هـواه بغـير هـدى من اللـه ، وبحيث يكـون اللـه ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، كما قال تعالى : ﭽﭾﭿﮀ ﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗ ﭼ [3] فهذا كله هو مما أمر الله به ورسوله .

وأما الفناء الثاني :

وهو الذي يذكره بعض الصوفية ، وهو أن يفنى عن شهود مـا سـوى اللـه تعـالى ، فيفـنى بمعبـوده عن عبادتـه ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفتـه ، بحيث قـد يغيب عن شـعوره بنفسـه وبمـا سـوى اللـه ، فهـذا حـال ناقص ، قد يعرض لبعض السالكين ، وليس هو من لوازم طريق الله ، ولهذا لم يعرض مثل هذا للنـبي –صـلى اللـه عليه وسلم- والسابقين الأوليين...

وأمَّا الثالث:

فهـو الفنـاء عن وجـود السـوى ، بحيث يـرى أن وجـود المخلـوق هـو عين وجـود الخـالق، وأن الوجـود واحـد

---

[1] "مجموع الفتاوى" (8/310-311) ، و انظر (8/445-446).

[2] الفناء ليس من المصطلحات الشرعية التي دلت عليه النصوص ، واستعمال شـيخ الإسـلام لهـذا المصـطلح إنمـا كـان في مقـام المناظرة والردّ ، ومخاطبـة المخـالف بمـا هـو أقـرب إلى فهمـه على ماتقدم التنبيه عليه .

[3] سورة التوبة ، الآية (24).

بالعين ، فهـذا قـول أهـل الإلحـاد والاتحـاد الـذين هم من أضلِّ العباد"[1] .

8- أنهم إذا شهدوا ربوبية الله تعالى ولم يشهدوا إلهيتــة فلم يفرّقوا بين المـأمور والمحظـور، وبين مـا يحبـه وما يسخطه ، بل سوّوا بين ما فرّق اللـه بينـه كـانوا ممن أنكر الله عليهم بقوله : ﭽﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣ ﭤ ﭼ[2] .
وقوله : ﭽ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﭼ[3] .
وقوله : ﭽ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ[4] [5]

9- أن هذا الشهود والفناء لـه آثـار سـيئة تـرتبت عليـه ، وبمعرفة هذه الآثار السيئة يتبين بطلان القول الــذي بُني عليها ، وهذه الآثار السيئة هي موضـوع المطلب التالي.

المطلب الثالث: الآثار السيئة المترتبة على شهود الربوبية وحدها دون الألوهية.

شهـــود الربوبية وحدها دون الألوهية له آثار سيئة بيّنها شيخ الإسلام –رحمه الله – هي ما يلي :

1-التسوية بين الأجناس المختلفة التي فرّق الله بينها.

2-تعطيل الأمر والنهي ، والوعد والوعيد.

قـال –رحمـه اللـه- : "وهـؤلاء يـؤول الأمـر بهم إلى أن لا يفرَّقـوا بين المـأمور والمحظـور، وأوليـاء اللـه وأعدائـه ،

---

[1] "التدمريـة" ص (221-222) ، وانظر "مجمـوع الفتـاوى" (2/313-314، 343 ، 369-370، 459-460) (10/337-338 ، 342-343) (13/199-200) ، و "الاستقامة" (2/142-144) ، و "العبودية" ص(185-195) ، و "الردّ على الشاذلي" ص(101-106، 211-212) ، و "الردّ على المنطقيين" (2/238-239 ، 242) ، و "الصفدية" (2/339).

[2] سورة ص ، الآية (28).

[3] سورة الجاثية ، الآية (21).

[4] سورة القلم ، الآية (35-36).

[5] انظر "الردّ على المنطقـيين" (3/240) و "اقتضـاء الصـراط المستقيم" (2/857) ، و "التحفة العراقية" ص(333).

والأنبيـــاء والمتقين، ويجعلـــون الـــذين آمنـــوا وعملـــوا الصـــالحات كالمفســـدين في الأرض ، ويجعلـــون المتقين كالفجـار ، ويجعلـون المسـلمين كـالمجرمين ، ويعطّلـون الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والشرائع ، وربمـا سـمّوا هـذا "حقيقـة" ولعمـري إنـه حقيقـة كونيـة ، لكن هـذه الحقيقة الكونية قد عرفها عبّاد الأصنام"[1] .

وقال : "والذين ادّعوا المحبة من الصـوفية وكـان قـولهم في القدر من جنس قول الجهميـة المجـبرة هم في آخـر الأمر لا يشهدون للرب محبوباً إلاَّ ما وقـع وقـدر وكـل مـا وقع من كفر وفســوق وعصيان فهو محبوبه عنـدهم ، فلا يبقى في هذا الشهود فرّق بين موسى وفرعون ، ولا بين محمـد وأبي جهـل، ولا بين أوليـاء اللـه وأعدائـه ، ولا بين عبادة الله وحده وعبادة الأوثان ، بل هذا كلّه عنـد الفـاني في توحيد الربوبية سواء ، ولا يفرّق بين حادث وحادث إلاّ من جهة ما يهواه ويحبه ، وهذا هو الذي اتخذ إلهه هواه... "[2] .

وقال : "ثم إن طائفة ممن تكلّم في تحقيق التوحيـد على طريق أهل التصوف ظن أن توحيـد الربوبيـة هـو الغايـة ، والفناء فيه هـو النهايـة ، وأنـه إذا شـهد ذلـك سـقط عنـه استحسان الحسن واستقباح القـبيح، فـآل بهم الأمـر إلى تعطيل الأمر والنهي ، والوعـد والوعيـد ، ولم يفرّقـوا بين مشيئته الشاملة لجميع المخلوقات ، وبين محبتـه ورضـاه المختص بالطاعـــات ، وبين كلماتـــه الكونيـــات الـــتي لا يجاوزهـا بـرّ ولا فـاجر ، لشـمول القـدر لكـل مخلـوق ، وكلماته الدينيات الـتي اختصّ بموافقتهـا أنبيـاؤه وأوليـاؤه "[3] .

---

[1] "مجموع الفتاوى" (10/685).

[2] "المصـــدر الســـابق" (8/365) ، وانظر (8/100) ، و "التدمرية" ص(218) ، و"الردّ على المنطقيين" (2/241) ، و "العبودية" ص(60) ، "الاستغاثة" (1/228).

[3] "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/856) ، و انظر "الاستغاثة" (2/645).

3-ظن أحدهم أنه إذا لم يشـهد إلاَّ فعـل الـرب فيـه فلا إثم عليه.

4-آل الأمــر بكثــير منهم إلى أن جعلــوا أوليــاء اللــه المتقين يقاتلون أنبيائه ويعاونون أعداءه.

قال شيخ الإسلام : "وأهل الفنـاء في توحيـد الربوبيـة قـد يظن أحدهم أنه إذا لم يشـهد إلاَّ فعـل الـربّ فيـه فلا إثم عليـه ، وهم في ذلـك بمنزلـة من أكـل السّـموم القاتلـة وقال : أنا أشهد أن الله هـو الـذي أطعمـني فلا يضـرّني ، وهذا جهل عظيم ، فإن الذنوب والسـيئات تضـرّ الإنسـان أعظم مما تضره السّموم ، وشهوده أن الله فاعل ذلك لا يدفع ضررها ، ولو كان هذا دافعاً لضررها لكان أنبياء اللـه وأولياءه المتقون أقدر على هذا الشهود الذي يدفعون بــه عن أنفسهم ضرر الذنوب.

ومن هؤلاء من يظنّ أن الحق إذا وهبه حالاً[1] يتصرف بــه وكشفاً[2] لم يحاسبه على تصـرفه بـه ، وهـذا بمنزلـة من يظنّ أنه إذا أعطـاه ملكـاً لم يحاسـبه على تصـرفه فيـه ، وقد قال النبي –صلى اللـه عليـه وسـلم- : "اللهم لا مـانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد[3] " فبين أنه مع أنه المعطي المانع فلا ينفع المجدود جده ، إنما ينفعـه الإيمـان والعمـل الصـالح . فهـذا أصـل عظيم ضلّ بالخطأ فيه خلق كثير ، حـتى آل الأمـر بكثـير

---

[1] (?) الحال: عند الصوفية "معنى يـرد على القلب بغـير تصـنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حــزن أو قبض أو بسط أو هيئة ، وتـزول بظهـور صـفات النفس ، فـإذا دام وصـار ملكـاً يسـمّى مقاماً، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تـأتي من عين الجــود،والمقامــات تحصل ببــذل المجهــود ". "القــاموس الصوفي" ص (27) ، وانظر "اصطلاح الصوفية" ص(408) ، و "اصطلاحات الصوفية" ص(26) ، و "التعريفات" ص (85).

[2] (?) الكشف : عند الصوفية "هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقة وجوداً وشـهوداً" . "التعريفـات" ص(193) ، وانظر "القاموس الصوفي" ص (61) ، و "المعجم الفلسفي" ص(153).

[3] (?) سبق تخريجه ص (181) .

من هــؤلاء إلى أن جعلــوا أوليــاء اللــه المتقين يقــاتلون أنبياءه ، ويعاونون أعـداءه وأنهم مـأمورون بـذلك ، وهـذا أمـر شـيطان قـدري، ولهـذا يقـول من يقـول منهم : أن الكفـار لهم خفـراء[1] من أوليـاء اللـه ، كمـا للمسـلمين خفراء من أولياء الله ، ويظنّ كثير منهم : أن أهل الصّـفة قاتلوا النبي –صلى اللـه عليـه وسـلم- في بعض المغـازي فقال : يا أصحابي ! تخلوني وتذهبون عني؟ فقالوا : نحن مـع اللـه ، من كـان مـع اللـه كنّـا معـه . ويجـوّزون قتـال الأنبياء وقتلهم ، كما قال شيخ مشهور منهم كان بالشام : لـو قتلت سـبعين نبيـاً مـا كنت مخطئـاً ، فإنـه ليس في مشهدهم لله محبوب مرضي مراد إلاَّ ما وقـع ، فمـا وقـع فالله يحبّه ويرضاه ، وما لم يقع فالله لا يحبّه ولا يرضاه ، والوقع هو تبع القدر لمشيئة الله وقدرته ، فما شـاء كـان وما لم يشـأ لم يكن ، فهم من غلب كـانوا معـه ؛ لأن من غلب كان القدر معه، والمقدور عندهم هو محبوب الحـق، فإذا غلب الكفار كانوا معهم، وإذا غلب المسـلمون كـانوا معهم ، وإذا كان الرسول منصـوراً كـانوا معـه ، وإذا غُلب أصحابه كانوا مع الكفار الذين غلبوهم..." [2] .

5-أن هذا الشهود طريق إلى الاتحاد والحلــول ، فمنهم من قد ينتقل من هذا الفنـاء وهـو الفنـاء عن شـهود السوي إلى فناء الملحدين أهـل وحـدة الوحـدة وهـو الفناء عن وجود السوي.

قال شيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- : "والـذين يسـلكون في محبة الله مسلكاً ناقصاً يحصل لأحدهم نوع من ذلك (أي استيلاء صورة المحبوب على المحبّ حـتى لا يـرى غيرهـا

---

[1] خفراء: خَفَر الرجل وخَفَر به وعليه يخْفِر خَفراً : أجاره ومنعه وأمَّنه ، وكان له خفيراً يمنعه . انظر "لسان العرب" (5/110) . وفي المعجم الوسـيط ص (201-202) : "خَفَر خفْـراً وخَفَـراً : حمى وأمّن السـلامة ، حَـرَس ، وخُفُـوراً بالعهد : وفَّى به ... الخَفِير جمع خُفراء : الحامي الحارس".

[2] "مجمـوع الفتـاوى" (8/348-350)ـ ، وانظر "الاسـتغاثة" (1/232) ، و "الردّ على الشاذلي" ص(72).

ولا يسـمع غـير كلامهـا) يسـمَّى "الاصـطلام" و "الفنـاء" يغيب بمحبوبـــه عن محبتـــه، وبمعروفـــه عن معرفتـــه، وبمذكوره عن ذكـره ، حـتى لا يشـعر بشـيء من أسـماء الله وصفاته، وكلامه وأمـره ونهيـه. ومنهم من قـد ينتقـل من هذا إلى الاتحاد ، فيقول : أنا هو ، وهو أنـا ، وأنـا اللـه ويظن كثير من السالكين أن هذا هو غاية السالكين ، وأن هـذا هـو التوحيـد ، الـذي هـو نهايـة كــل سـالك . وهم غـالطون في هـذا ، بـل هـذا من جنس قـول النصـارى ، ولكن ضــلّوا ؛ لأنهم لم يســلكوا الطريــق الشــرعية في الباطن في خبر الله وأمره "[1] .

وقـال أيضـاً عنـد ردّه على الاتحاديـة: "ولكن الواحـد من هؤلاء قد يغيب عن شهود المغيبات كمـا يغيب عن شـهود نفسه ، فيظن أن ما لم يشهده قد عدم في نفسه وفــني وليس كذلك ، فإن ما عدم وفـني شـهوده لـه وعلمـه بـه ونظره إليه ، فالمعدوم الفـاني صـفة هـذا الشـخص، وإلاّ فالموجودات في نفسها باقية على حالها لم تتغيّر ، وعدم العلم ليس علماً بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شـهوداً للعدم ، ولكن هذه الحال يعتري كثيراً من السالكين يغيب أحـدهم عن شـهود نفسـه وغـيره من المخلوقـات ، وقـد يسمّون هذا فناء واصـطلاماً ، وهـذا فنـاء عن شـهود تلـك المخلوقات ، لا أنها في نفسها فنيت ، ومن قال: فني مــا لم يكن وبقي ما لم يزل ، فالتحقيق إذا كان صـادقاً : أنـه فني شهوده لما لم يكن، وبقي شهوده لما لم يزل ، لا أن مــا لم يكن فــني في نفســه ، فإنــه بــاقٍ موجــود، ولكن يتوهمون إذا لم يشهدوه أنه قد عدم في نفسه .

ومن هنا دخلت طائفة في الاتحاد والحلـول، فأحـدهم قـد يذكر الله حـتى يغلب على قلبـه ذكـر اللـه ويسـتغرق في ذلك فلا يبقى لـه مـذكور مشـهود لقلبـه إلاَّ اللـه ، ويفـنى ذكره وشهوده لما سواه ، فيتـوهم أن الأشـياء قـد فـنيت

---

[1](?) "مجموع الفتاوى" (10/594).

وأن نفسه فنيت حتى يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هـو الله"[2] .
وبمعرفة هذه الآثار السـيئة لشـهود الربوبيـة وحـدها دون الألوهيـة يتـبين بطلان هـذا الشـهود وفسـاده، فـإن الآثـار السيئة للقول تبين فساد القول الذي بُني عليها.

المطلب الأول : توضيح المراد بالأحوال التي يؤمر العبد فيها بشهود الربوبية .

العبد يشهد عبوديته المحضة لرّبه، ويشهد أيضاً ربوبية ربه ، فيشهد مع كونه لا يعبد إلاَّ الله ، وأنه يعبده بما شرع أنه هو جعله كذلك ، فهو الذي شاء أن يكـون من المسـلمين المطيعين ، وأنه هو الذي أعانه على ذلك ووفقه ، وأنـه لا حول له ولا قوة إلاَّ بالله .
فيجمع بين الشهودين شهود الألوهية وشهود الربوبية .
وهو مأمورٌ في بعض الأحـوال ومتعبـدٌ أن يشـهد الربوبيـة فشـهوده الربوبيـة في الأحـوال المـأمور بهـا هـو مرتبـط بالعبادة لأن العبادة في تلك المواضع التي أمـره اللـه بهـا هي شهود الربوبية فهو مأمور عند وقوع المصائب، وعنـد فعلـه للطاعـات بشـهود الربوبيـة، وهـذا لا يعـني إلغـاء الألوهية وعدم اعتبارهـا كمـا يقـع من الصـوفية ، بـل هـو يشهد الربوبية في تلك الأحـوال ؛ لأنهـا هي العبـادة الـتي أمره الله بها.

---

[2] "المصدر السابق" (13/198-199) ، وانظر (14/356-357) ، و "الردّ على الشاذلي" ص(106) ، و "العبودية" ص(60-62) ، و "الردّ على المنطقيين" (2/242) .

الفرع الأول: شهود الربوبية عند المصائب .

بيَّن شيخ الإسلام أن الناس مأمورون عند المصائب بشهود الربوبية وذكر الأدلة على ذلك فقال : "والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر، وشهود الربوبية، كما قال تعالى : ﭽ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ [1] قال ابن مسعود أو غيره : " هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم"[2] وفي الحديث الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم- : "احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ، ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فإن "لو" تفتح عمل الشيطان"[3] فأمره بالحرص على ما ينفعه وهو طاعة الله ورسوله ، فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله ، وأمره إذا أصابته مصيبة مقدرة أن لا ينظر[4] إلى القدر ، ولا يتحسر بتقدير لا يفيد، ويقول: قدر الله وما شاء فعل ، ولا يقول: لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، فيقدّر ما لم يقع ، يتمنى أن لو كان وقع ، فإن ذلك إنما يورث حسرة وحزناً لا يفيد، والتسليم للقدر هو الذي ينفعه ، كما قال بعضهم : الأمر أمران : أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه"[5] .

---

[1] (?) سورة التغابن ، الآية (11).

[2] (?) ذكره البخاري معلّقا في صحيحه – كتاب التفسير – سورة التغابن عن ابن مسعود بلفظ "هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي بها وعرف أنها من الله ". وباللفظ الذي ذكره المؤلف أخرجه ابن جرير في تفسيره (28/150) عن علقمة ، وصححه الشيخ سليمان بن عبد الله في "تيسير العزيز الحميد" ص (442).

[3] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (6774)

[4] (?) هكذا في الكتاب ، ولعلّ الصواب " أن ينظر" .

[5] (?) "مجموع الفتاوى" (8/319-320) ، وانظر (8/328-329) ، و "منهاج السنة" (2/26-27) ، و "اقتضاء الصراط المستقيم" (

إذاً العبد مأمور عند المصائب بشهود الربوبية ، فيشهد أن الله هو الذي قدّر هذه المصيبة عليه ، وشاءها ، وخلقها.

الفرع الثاني : شهود الربوبية عندما ينعم على العبد بفعل الطاعات .

بيَّن شيخ الإسلام أن العبد مأمور عندما ينعم الله عليه بفعل الطاعات بشهود الربوبية، فيشهد أن الله -سبحانه- هو الذي وفّقه للطاعات، وأعانه على ذلك، وسهّل ذلك عليه ويسّره له، وهو وحده الذي أنعم عليه بفعل الطاعات، وجعله من المطيعين ، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله.

وبيَّن أيضاً أنه يشهد الربوبية قبل فعل الطاعات ، فيشهد قبل فعلها حاجته وفقره إلى إعانة الله له ، وإلى تيسير الرب وتسهيله وتوفيقه .

قال –رحمه الله- : "وكما أن الإنسان مأمور بشهود القدر وتوحيد الربوبية عند المصائب ، فهو مأمور بذلك عندما ينعم الله عليه من فعل الطاعات ، فيشهد قبل فعلها : حاجته وفقره إلى إعانة الله له ، وتحقق قوله : ﭽ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭼ[1] ويدعو بالأدعية التي فيها طلب إعانة الله له على فعل الطاعات كقوله : "أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"[2] وقوله : "يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك"[3] ، "ويامصرّف القلوب اصرف قلبي إلى

(2/857).

[1] سورة الفاتحة ، الآية (5).

[2] أخرجه أبو داود في سننه ح (1522) ، والنسائي في سننه ح (1304) ، وصحّحه الألباني في "صحيح سنن أبي داود " (1/417).

[3] أخرجه الترمذي في سننه ح (2140) وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في سننه ح (3834) ، و صححه الألباني في "صحيح سنن الترمذي" (3/443-444).

طاعتك وطاعة رسولك" [1] ، وقوله : ﭽ ﭼ[2] ، وقوله : ﭽﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﭼ[3] .

ومثل قوله : "اللهم ألهمني رشدي ، واكفني شر نفسي"[4] . ورأس هذه الأدعية وأفضلها قوله : ﭽﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭼ[5] فهذا الدعاء أفضل الأدعية وأوجبها على الخلق، فإنه يجمع صلاح العبد في الدين والدنيا والآخرة ، وكذلك الدعاء "بالتوبة" ، فإنه يتضمن الدعاء بأن يلهم العبد التوبة ، وكذلك دعاء "الاستخارة"[6] فإنه طلب تعليم العبد ما لم يعلمه وتيسيره له ، وكذلك الدعاء الذي كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يدعو به إذا قام من الليل ، وهو في الصحيح : "اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"[7] . وكذلك الدعاء الذي فيه : "اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا"[8] . وكذلك الدعاء باليقين والعافية كما في حديث أبي بكر [9] ، وكذلك قوله : "اللهم اصلح

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6750) دون قوله "وطاعة رسولك".

[2] سورة آل عمران ، الآية (8).

[3] سورة الكهف ، الآية (10).

[4] أخرجه الترمذي في سننه ح (3483) ، وقال : حسن غريب ، وضعّفه الألباني في "ضعيف سنن الترمذي " ص (405-406).

[5] سورة الفاتحة ، الآية (6-7).

[6] أخرجه البخاري في صحيحه ح (1162).

[7] أخرجه مسلم في صحيحه ح (1811).

[8] أخرجه الترمذي في سننه ح (3502) ، وقال : حسن غريب ، وحسّنه الألباني في "صحيح سنن الترمذي" (3/442) .

[9] أخرجه أحمد في مسنده ح (6) ، والترمذي في سننه ح (3558) وقال : حسن غريب ، وقال الأليابي : حسن صحيح ،

لي قلبي ونيتي"[1] ومثل قـــول الخليـل وإسـماعيل : "ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ"[2] وهذه أدعية كثيرة تتضمن افتقار العبد إلى اللـه في أن يعطيـه الإيمـان والعمـل الصـالح ، فهـذا افتقار واستعانة بالله قبل حصول المطلوب ، فـإذا حصـل بدعاء أو بغير دعاء شهد إنعام الله فيه ، وكـان في مقـام الشكر والعبودية لله ، وأن هذا حصل بفضله وإحسانه ، لا بحول العبد وقوته "[3] .

المطلب الثالث : الآثار الحسنة المترتبة على شهود الربوبية في مثل هذه الأحوال

بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- الآثار الحسنة المترتبة على شهود الربوبية في مواضعها .

انظر "صحيح سنن الترمذي" (3/463-464).

[1] أورده ابن الأثير في "جامع الأصول" ح (2278) موقوفاً على أبي واقد الليثي .

[2] سورة البقرة ، الآية (128).

[3] "مجمـوع الفتـاوى" (8/330-331) ، وانظر "الاسـتغاثة" (2/645) ، و "الردّ على الشاذلي" ص (70).

فبيَّن أن شهــود الربوبيــة عنــد المصــائب يــورث التســليم للقدر ، والسلامة من الحسرة والحزن ، الــتي يقــع فيهمــا من لم يشهد ربوبية الله تعالى عند المصائب[1] .
وبيَّن أن شهود الربوبية عند فعل الطاعات يورث:
التوكــل على اللــه تعــالى ، وشــكره ، وشــهوده المنَّة لــه تعالى ، والبراءة من الحول القوة.
ومن لم يشهد الربوبية عند فعل الطاعات فإن هذا يورثــه تعطيل التوكل والشكر ، ويورثه العجب ، والكبر ، ودعوى القوة والمنة بعمله ، واعتقاد استحقاق الجزاء .
قال –رحمه الله- :"فشهود القدر في الطاعــات من أنفــع الأمور للعبد ، وغيبته عن ذلك من أضــر الأمــور بــه ، فإنــه يكــون قــدرياً منكــراً لنعمــة اللــه عليــه بالإيمــان والعمــل الصالح ، وإن لم يكن قدري الاعتقاد كــان قــدري الحــال ، وذلك يورث العجب والكبر ، ودعوى القوة والمنة بعمله ، واعتقاد استحقاق الجزاء على الله به ، فيكون من يشــهد العبودية مع الذنوب والاعتراف بها ، لا مع الاحتجاج بالقدر عليهــا ، خــيراً من هــذا الــذي يشــهد الطاعــة منــه لا من إحسان الله إليه ، ويكون أولئــك المــذنبون بمــا معهم من الإيمان أفضل من طاعة بدون هذا الإيمان..." [2] .
وقال : "وأما الفنــاء في توحيــد الربوبيــة فــذاك نقصٌ عن الشهود الواجب وحسب صــاحبه أن يكــون معــذوراً لغلبــة الوارد عليه لا أن يكــون مشــكوراً ، وهــو كحــال من غــاب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفتــه ، حــتى فَنِي من لم يكن ، وبقي من لم يــزل ، فهذا حالٌ عــارض لبعض الســالكين ، ليس هــو من لــوازم الســلوك ، ولا هــو غايــةٌ للســالكين ، بــل هــو حــالٌ نــاقص بكــون العجز[3] صــاحبه عن الشــهود المطــابق للحقيقــة ، فإن ذلك هو: أن يشهد الأمر على مــا هــو عليــه ، فيشــهد

---

[1] انظر "مجموع الفتاوى" (8/320).
[2] "المصــدر الســابق" (8/331)ـ ، وانظر (11/260-262)ـ ، و"الاستغاثة" (2/645).
[3] هكذا في الكتاب ، ولعلّ الصواب " لكون عجز صاحبه ".

عبوديته المحضة، ويشهد ربوبية ربه ، ويشهد مـع كونـه لا يعبُد إلاَّ إيّاه ، وأنه يعبده بما شرع لا يعبـده بالبـدع ، وأنـه هو الذي جعله كذلك ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ، فيحصل لـه من الشـكر ، وشـهود المنّـة والـبراءة من الحـول والقوة ، ما يحقّق مع إخلاصه لله توكله عليه ، وشكره له ... "[1] .

المطلب الأول : تجريد التوحيد في القلب .

إذا علم العبد أن الله –سـبحانه وتعـالى- هو المنفـرد بالخلق والملك والتدبير ، والنفع والضر، والعطاء والمنع ، والـرزق ، والخفض ، والرفع ، والإحيـاء والإماتة ، وغـير ذلك من صفات الربوبية ويتيقن ذلك فإنه يثمر له : تجريد التوحيد ، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، فيخـرج من قلبه كل ما سـوى الله ، فلا يخـاف إلاَّ من الله ، ولا يستعين إلاَّ بالله ، ولا يرجو أحداً غـير الله ، ولا يتوكل إلاَّ على الله، ولا يسجد إلاَّ لله ، ولا ينذر إلاَّ لله.

[1] "الـردّ على الشـاذلي" ص (69-70)ـ ، وانظر "مجمـوع الفتاوى" (11-31) (17/64-65).

قـال شـيخ الإسـلام –رحمه اللـه- عند حديثه عن أنـواع الشرك : "وأمَّا النوع الثاني : فالشرك في الربوبية ، فإن الـرب –سـبحانه- هو المالك ، المـدبر ، المعطي المـانع ، الضار النافع ، الخـافض الرافع ، المعز المذل ، فمن شهد أن المعطي أو المـانع ، أو الضـار أو النـافع ، أو المعز أو المذل غـيره فقد أشـرك بربوبيته . ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر إلى المعطي الأول مثلاً فيشـكره على ما أولاه من النعم ، وينظر إلى من أســـــدى إليه المعروف فيكافيه عليه ، لقوله عليه السلام : "من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فـادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه" [1] ؛ لأن النعم كلها للـه تعالى ، كما قال تعالى : ﭽ ﯼ ﯽ ﯾ ﭼ [2] ، وقال تعالى : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﭼ [3]. فالله -سبحانه- هو المعطي على الحقيقة ، فإنه هو الـذي خلـق الأرزاق وقـدّرها ، وسـاقها إلى من يشاء من عبـاده ، فـالمعطي هـو الـذي أعطـاه ، وحرّك قلبه لعطاء غيره ، فهو الأول والآخـر، وممـا يقـوي هذا المعنى قوله –صلى الله عليـه وسـلم- لابن عبـاس –رضي الله عنهما- : "واعلم أن الأمة لـو اجتمعـوا على أن ينفعـوك لم ينفعـوك إلاَّ بشـيء قـد كتبـه اللـه لـك ، ولـو اجتمعوا على أن يضروك لم يضـروك إلاَّ بشـيء قـد كتبـه اللـــه عليـــك. رفعت الأقلام وجفت الصـــحف"[4] قـــال الترمذي : هذا حديث صحيح . فهذا يـدلّ على أنـه لا ينفـع في الحقيقة إلاّ الله، ولا يضر غيره , وكذا جميع مـا ذكرنـا في مقتضى الربوبيـة . فمن سـلك هـذا المسـلك العظيم اسـتراح من عبوديـة الخلـق ونظـره إليهم ، وأراح النـاس من لومه وذمَه إيّاهم ، وتجـرّد التوحيـد في قلبـه ، فقـوي إيمانه ، وانشرح صدره ، وتنور قلبه. ومن توكل على الله

(?)[1] سبق تخريجه ص (182).

(?)[2] سورة النحل ، الآية (53).

(?)[3] سورة الإسراء ، الآية (20).

(?)[4] أخرجه الترمذي في سننه ح (2416) ، وأحمد في المسند ح (2669) (2763).

فهو حسبه ،ولهذا قال الفضيل ابن عيـاض – رحمـه اللـه - : "من عرف الناس استراح . يريـد – واللـه أعلم – أنهم لا ينفعون ولا يضرون"[5] .

المطلب الثاني: الاستراحة من عبودية الخلق .

إذا كان المخلوق لا يملك لغيره نفعاً ولا ضراً ، ولا عطاءً ولا منعـاً ، ولارزقـاً ، فإنه لايسـتحق أن يتعلق القلب به ، فلا يسـتحق أن يخـاف ، ولا أن يُـرجى ، ولا أن ينتظر منه نفعـاً ، أو عطـاء أو رزقـاً ، وإنما الـذي يملك ذلك هو الله وحـده ، فيتعلق القلب بالله وحـده، وعنـدها يسـتريح من عبودية الخلق والنظر إليهم.

قـال شـيخ الإسـلام –رحمه اللـه- عند حديثه عن أنـواع الشرك : "وأمَّا النوع الثاني : فالشرك في الربوبية ، فإن الـرب –سـبحانه- هو المالك ، المـدبر ، المعطي المـانع ، الضار النافع ، الخـافض الرافع ، المعز المذل ، فمن شهد أن المعطي أو المـانع ، أو الضـار أو النـافع ، أو المعز أو المذل غـيره فقد أشـرك بربوبيته . ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر إلى المعطي الأول مثلاً فيشـكره على ما أولاه من النعم ، وينظر إلى من أسـدى إليه المعروف فيكافيه عليه ، لقوله عليه السلام : "من أسدى

---

[5] "مجموع الفتاوى" (1/92-93) .

إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فـادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه" [1] ؛ لأن النعم كلها للـه تعالى ، كما قال تعالى : ﭽ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﭼ [2] ، وقال تعالى : ﭽ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﭼ [3] . فالله -سبحانه- هو المعطي على الحقيقة ، فإنه هو الـذي خلـق الأرزاق وقـدّرها ، وسـاقها إلى من يشاء من عبـاده ، فـالمعطي هـو الـذي أعطـاه ، وحرّك قلبه لعطاء غيره ، فهو الأول والآخـر، وممـا يقـوي هذا المعنى قوله –صلى اللـه عليـه وسـلم- لابن عبـاس -رضي الله عنهما- : "واعلم أن الأمة لـو اجتمعـوا على أن ينفعـوك لم ينفعـوك إلاَّ بشـيء قـد كتبـه اللـه لـك ، ولـو اجتمعوا على أن يضروك لم يضـروك إلاَّ بشـيء قـد كتبـه اللـــه عليـــك. رفعت الأقلام وجفت الصـــحف"[4] قـــال الترمذي : هذا حديث صحيح . فهذا يـدلّ على أنـه لا ينفـع في الحقيقة إلاّ الله ، ولا يضر غيره , وكذا جميع ما ذكرنـا في مقتضى الربوبيـة . فمن سـلك هـذا المسـلك العظيم اسـتراح من عبوديـة الخلـق ونظـره إليهم ، وأراح النـاس من لومه وذمَه إيّاهم ، وتجـرّد التوحيـد في قلبـه ، فقـوي إيمانه ، وانشرح صدره ، وتنور قلبه. ومن توكل على الله فهو حسبه ،ولهذا قال الفضيل ابن عيـاض – رحمـه اللـه - : "من عرف الناس استراح . يريـد – واللـه أعلم – أنهم لا ينفعون ولا يضرون"[5] .

المطلب الثالث: الإيمان بالقضاء والقدر .

إذا علم العبـد أن اللـه – سـبحانه وتعـالى – بكـل شـيء عليم ، فأقرّ بأن الله يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأن كـل مـا يقـع من مصـائب ونعم فالله تعالى علمها قبل أن تقع ، وهو سبحانه أراد وقوعها ، وخلقها ، فهو خالق كل شـيء . وإذا علم العبـد أن هـذا

---

[1] سبق تخريجه ص (182).
[2] سورة النحل ، الآية (53).
[3] سورة الإسراء ، الآية (20).
[4] سبق تخريجه ص (438) .
[5] "مجموع الفتاوى" (1/92-93).

الملك هو ملك الله يفعل فيه ما يشاء ، لا معقب لأمــره ولا رادّ لقضائه ، فالملــك ملكــه ، والأمــر أمــره ، والخلــق خلقه ، وهو على كـل شـيء قـدير . إذا علم العبـد ذلـك وتيقّنـه أثمـر لـه : الإيمـان بالقضـاء والقـدر ، فصبر على المصـائب ، ورضـي بمـا قضـاه اللـه وقـدّره عليـه ، ولم يسخط ولم يجزع ، ولم يندم على ما فاته .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- معلِّقاً على كلام للواسطي والجنيـد : "كلام الواسـطي [1] والجنيـد المـذكور هنـا هـو توحيد الربوبية ، وأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقــه ، وفيه الردّ على القدرية الذين يجعلون أفعال العباد خارجة عن قدرته وخلقه وملكه ، وكـذلك جعـل فيهم الواسـطي شبهاً من فرعون ، فإن فرعون كشف كفره ، وقال : ﭽﭾ ﭿﮀ[2] فادّعى الربوبية علانية ، والقدرية تدعى أنها ربّ الأفعال ومـا يتولـدّ عنها[3] ، فقـد ادّعت ربوبيتـه لكن في

---

[1] هو يزيد هـارون أبو خالد ، الإمـام القـدوة ، شـيخ الإسـلام ، الحافظ ، ولد سنة (118)هـ ، كان رأسـاً في العلم والعمل ، ثقة حجة ، كبـــير الشـــأن . حـــدّث عنه بقية بن الوليد ، وعلي بن المـديني ، وأحمد بن حنبل وغـيرهم ، تـوفي سـنة (206) هــ . انظر"سير أعلام النبلاء" (9/358-371).

[2] سورة النازعات ، الآية (24).

[3] أفعال الإنسـان وغـيره من الحيـوان على نـوعين : أحـدهما المباشر وهو ما كـان في محل القـدرة كالقيـام والقعـود والأكل والشــرب. والثــاني : المتولّد وهو ما خــرج عن محــلّ القــدرة كخــروج الســهم من القــوس ، وقطع الســكين للعنق ، والألم الحاصل من الضـــرب ، والشـــبع الحاصل من الأكل ، والـــرّي الحاصل من الشرب . والناس متنـازعون في الأفعـال المتولـدة. فالأشــعرية وغــيرهم يقولــون : إن جميع المتولــدات فعل الله ليست فعلاً للعبد ، وهم وإن كانوا لا يثبتون لقدرة العبد أثـراً في حصول المقـدور، فـإنهم يفرّقـون بين ما كـان في محـلّ القـدرة فيجعلونه مقـدوراً للعبد ، وما كـان خارجـاً عن محـلّ القـدرة فلا يجعلونه مقــدوراً للعبــد. وهــذا كلام لا يعقل ، فإنه إذا لم يثبت للقدرة أثر لم يكن الفـرق بين الأفعـال المباشـرة والمتولـدة إلاّ فرقاً في محل الحادث من غير أن يكون للقدرة في ذلك تـأثير ،

السـرّ ، وهي ربوبيـة أفعـال الأعيـان , لكن مقصـود أهـل التحقيق كالجنيد ونحوه أن يكون هذا التوحيد للعبـد خلقـاً ومقاماً ، بحيث يعطيه ذلك كمال توكله على الله تعالى ، وتفويضه إليه ، والصـبر لحكمـه والرضـا بقضـائه ، مـا لم يخرجه ذلك إلى إسقاط الأمر والنهي والثواب والعقـاب ، والوعـد والوعيـد ، كمـا يقـع في بعض ذلـك طائفـة من المتصوفة"[1].

المطلب الرابع : التوكل على الله وتفويض الأمر إليه.

اللـه –سبحـــانه وتعـالى – هـو المنفـرد بـالخلق والملـك والتـدبير ، والعطـاء والمنـع ، والنفـع والضـر ، والإحيـاء والإماتة ، والـرزق . والنعم الـتي تحصـل للعبـاد كلهـا من الله ، لا يقدر أن يأتي بها أحد إلاّ الله ، فلا يأتي بالحسنات إلاّ الله ، ولا يذهب السيئات إلاّ الله ، ولا يكشف الضر إلاّ الله ، ولا يستطع أحـد كائنـاً من كـان أن يـردّ فضـل اللـه وإحسانه وخيره عن أحد من خلقه .

والعبد إذا علم ذلـك ويتقنـه أثمـر لـه : التوكـل على اللـه وتفويض الأمر إليه ، فاعتمد في جميع أمـوره على ربّـه ، وسلّم أمره إلى من بيده ملكوت كل شـيء ، ومن أمـره

وتســـمية هـــذا مقـــدوراً دون هـــذا تحكّم محض، وتفريق بين المتمـاثلين . والمعتزلة يجعلـون المتولّد من فعل العبد فقط كما يقولون في الأمور المباشرة . والقول الوسط هو أن المتولـدات حاصلة بسـبب فعل العبد وبالأسـباب الأخـرى الـتي يخلقها الله ، فالشـبع يحصل بأكل العبد وابتلاعه ، وبما جعله الله في الإنسـان وفي الغـذاء من القـوى المعينة على حصـول الشـبع ، وكـذلك الزهـــوق حاصل بفعل العبد وبما جعله في المحـــلّ من قبـــول الانقطاع . وهـو سـبحانه خـالق للأثر المتولّد عن هـذين السـببين اللذين أحدهما فعل العبد ، وهو خالق للسببين جميعاً .

انظر : "الصـفدية " (1/150-151)ـ ، و"درء التعـارض" (9/30-32، 340-341)ـ ، و"الرد على البكري" (1/311-313، 321-322) .

[1] "الاستقامة" (1/179).

إذا أراد شيئاً إنما يقول لـه كن فيكـون ، وقطـع من قلبـه التوكل على المخلوقين والاعتماد عليهم والنظر إليهم .
قـال شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- : "فقولـه ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ[1] إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته من المحبـة والخـوف والرجاء والأمر والنهي ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ[2] إشارة إلى ما اقتضته الربوبيـة من التوكـل والتفـويض والتسـليم ؛ لأن الـرب – سبحانه وتعالى- هو المالـك ، وفيـه أيضـاً معـنى الربوبيـة والإصلاح ، والمالك الذي يتصرف في ملكـه كمـا يشـاء .
فإذا ظهر للعبد من سرّ الربوبيـة أن الملـك والتـدبير كلّـه بيد الله تعالى ، قال تعالى : ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ[3] فلا يرى نفعاً ولا ضراً ، ولا حركة ولا سكوناً ، ولا قبضاً ولا بسـطاً ، ولا خفضـاً ولا رفعـاً إلاّ اللـه –سـبحانه وتعـالى – فاعلـه ، وخالقه ، وقابضه ، وباسـطه ، ورافعـه ، وخافضـه ، فهـذا الشهود هـو سـرّ الكلمـات الكونيـات ...[4] هـو علم صـفة الربوبية ، والأول هو علم صفة الألهية ، وهو كشـف سـرّ الكلمات التكليفيات . فالتحقيق بـالأمر والنهي ، والمحبـة والخوف والرجاء يكون عن كشف علم الإلهية ، والتحقيق بالتوكـل والتفـويض والتسـليم يكـون بعـد كشـف علم الربوبية ، وهو علم التدبير الساري في الأكوان كما قال – عز وجل- : ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ[5] فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ، ووفقه لذلك ، بحيث لا يحجبه هـذا المشـهد عن المشـهد الأول فهـو الفقيـه في عبوديتـه ، فـإن هـذين المشهدين عليهما مدار الدين"[6] .
وقال ابن القيم –رحمه الله-: "فعلم العبـد بتفـرد الـرب - تعـالى- بالضـر والنفـع ، والعطـاء والمنـع ، والخلـق ،

---

[1] سورة الفاتحة ، الآية (5) .
[2] سورة الفاتحة ، الآية (5) .
[3] سورة الملك ، الآية (1) .
[4] هكذا في الكتاب .
[5] سورة النحل ، الآية (40)
[6] "مجمـوع الفتـاوى" (1/89-90)ـ ، وانظر (1/27-28)ـ (8/225) (14/225، 341) ، و "الاستقامة" (1/179).

والرزق ، والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً "[1] .
وقال أيضاً: "فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة؟ قلت: هو حالٌ للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى ، والإيمان بتفرده بالخلق ، والتدبير ، والضر ، والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس ، فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به ، وثقة به ، وتيقُّناً بكفايته لما تُوُكِّل عليه فيه ، وأنه مَلِيٌّ به ، ولا يكون إلاَّ بمشيئته شاءه الناس أو أَبَوه . فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مليَّان بهما . فانظر في تجرّد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه وحبسه همّه عن إنزال ما ينوبه بهما . فهذه حال المتوكّل ، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولابُدَّ ، قال الله تعالى : ﭽ ﮩﮪﮫﮬﮭﭼ[2] أي : كافيه ، والحسب : الكافي ... "[3] .

المطلب الخامس: تعظيم الله وإجلاله .

علم العبد بأسماء الله تعالى وصفاته يثمر له تعظيم الله وإجلاله ، ومن تلك الصفات التي تثمر تعظيم الله وإجلاله صفات الربوبية فإن علم العبد بأن الله غني عن العالمين ، وأن الغني وصف لازم له تعالى ، وعلمه بأن الله تعالى متصف بالتعالي والعظمة والكبرياء والحياة والقيومية ، والربوبية للعالمين ، وأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه خالق الخلق ، ومالكهم ، لا يصل إليهم نفع إلاَّ منه ، ولا يدفع عنهم الضر إلاّ هو ، علم العبد بذلك يثمر له : تعظيم الله وإجلاله المتصف بهذه الصفات العلى.

---

[1] "مفتاح دار السعادة" ص(384).
[2] سورة الطلاق ، الآية (3)
[3] "مدارج السالكين" (1/145-146) ، وانظر (3/365) ، و "الفوائد" ص (131).

قـــال شـــيخ الإســـلام –رحمـــه اللـــه- : "فنفس العلم والتصـديق باللـه ومالـه من الأسـماء الحسـنى والصـفات العلى توجب محبة القلب لـه وتعظيمـه وخشـيته ، وذلـك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته" [1] .
وقال السعدي –رحمه الله- : "فكـل مطلب يطلبـه العبـد من ربه من أمور دينه ودنياه فليتوسل إليه باسم مناسـب لـه من أسـماء اللـه الحسـنى ، فمن دعـاه لحصـول رزق فليسأله باسمه الرزاق ، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكـريم العفـو الغفـور التـواب ونحـو ذلك . وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسـمائه وصـفاته دعـاء العبــادة ، وذلــك باستحضــار معــاني الأســماء الحســنى وتحصــيلها في القلــوب حــتى تتــأثر القلــوب بآثارهــا ومقتضياتها وتمتلئ بأجلّ المعارف . فمثلاً أسماء العظمـة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيماً للـه وإجلالاً له ..." [2] .

المطلب السادس : محبة الله عزوجل .

اللـه –سـبحانه وتعـالى- هـو الـرزاق لعبـاده، وهـو المنعم عليهم والمحسـن إليهم ، ونعم اللـه على عبـاده كثـيرة لا تعدُّ ولا تحصى ، وهـو سـبحانه المعطي الحقيقي لعبـاده ، فكل عطاء وصل إلى المخلـوقين عن طريـق المخلـوقين فالمعطي الحقيقي هو الله ، لأنه هو الذي حـرّك القلـوب للعطــاء ، والعبــد ســبب مــؤثر في العطــاء بــإذن اللــه. والقلوب مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسـن إليهـا

[1] "الإيمان الأوسط" ص(407).
[2] "القول السديد" ص (161).

فيكف بمن الإحسان كله والنعم كلها والرزق كله والعطاء كله والنفع كله منه . واستحضار هـذه المعـاني في القلب تثمر محبة العبد لربه تعالى.
قال شيخ الإسلام –رحمه الله- عند ذكر للأوجه التي تـبين توحيد اللـه وإخلاص الوجـه والعمـل لـه عبـادة واسـتعانة: "الوجه الثالث: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضـر ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفـع ، ولا عـز ولا ذل ، بـل ربـه هـو الـذي خلقه ورزقه ، وبصره وهـداه ، وأسـبغ عليـه نعمـه ، فـإذا مسّه الله بضر فلا يكشفه عنه غـيره ، وإذا أصـابه بنعمـةٍ لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبـد فلا ينفعـه ولا يضـره إلاَّ بـإذن اللـه ... فهـذا الوجـه يقتضـي التوكـل على اللـه والاستعانة به ودعـاه ومسـألته دون مـا سـواه . ويقتضـي أيضـاً: محبـة اللـه وعبادتـه لإحسـانه إلى عبـده ، وإسـباغ نعمه عليه ، وحاجة العبد إليه في هـذه النعم ... والقـرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سـواه ، ومن ذكر نعمائه عليهم ، ومن ذكر مـا وعـدهم في الآخـرة من صـنوف النعيم واللـذات، وليس عنـد المخلـوق شـيء من هذا . فهذا الوجه يحقق التوكل على اللـه ، والشـكر لـه ، ومحبته على إحسانه"[1] .
والله سبحانه وتعالى يُحب لإحسانه إلى خلقه ، ويحب لما له من صفات الكمال ونعـوت الجلال ، ومن ذلـك صـفات الربوبية .
فـإن علم العبـد بـأن اللـه هـو المنفـرد بـالخلق والملـك والتدبير، والغنى ، والإحياء والإماتة والقيوميـة ، والربوبيـة للعالمين ، وغـير ذلـك من صـفات الربوبيـة يـوجب للعبـد محبة هذا الإله العظيم المتصف بهذه الصفات العلى.
قـال شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- : "وأصـل المحبـة هـو معرفة الله سبحانه ، ولها أصلان:

---

[1](?) "مجموع الفتاوى" (1/27-28)

أحدهما : وهو يقال محبـة العامّـة ، محبتـه لأجـل إحسـانه إلى العباد ، وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحــد ، فإن القلوب مجبولـة على حبّ من أحسـن إليهـا ، وبغض من أسـاء إليهـا ، واللـه –سـبحانه وتعـالى- هـو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة . فإنه المتفضل بجميع النعم وإن جـرت بواسـطة ؛ إذ هـو ميسّـر الوسـائط ، ومسـبب الأسباب ، ولكن هـذه المحبـة في الحقيقـة إذا لم تجـذب القلب إلى محبة الله نفسه فمـا أحبَّ العبـد في الحقيقـة إلاّ نفسه ، إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسـه فمـا أحبّ العبد في الحقيقة إلاّ نفسـه ، وكـذلك كـل من أحبّ شيئاً لأجل إحسانه إليه فما أحبّ في الحقيقـة إلاّ نفسـه ، وهذا ليس بمذموم بل محمود ، وهذه المحبة هي المشار بقوله –صلى الله عليه وسلم - :"أحبوا اللـه لمـا يغـذوكم بـه من نعمـه ، وأحبـوني لحب اللـه ، وأحبـوا أهـل بيـتي بحبي"[1] والمقتصـر على هـذه المحبـة هـو لم يعـرف من جهة الله ما يستوجب به أنه يحبه إلاّ إحسانه إليـه ، وهـذا كما قالوا: إن الحمد للـه على نـوعين : حمـد هـو شـكر ، وذلك لا يكون إلاّ على نعمته ، وحمد هو مـدح وثنـاء عليـه ومحبة له ، وهـو بمـا يسـتحقه لنفسـه سـبحانه . فكـذلك الحب ، فإن الأصل الثاني فيه هو محبته لما هو له أهــل ، وهذا حبّ من عرف من الله ما يسـتحق أن يحبّ لأجلـه ، وما من وجه من الوجوه الـتي يعـرف اللـه بهـا ممـا دلّت عليه أسماؤه وصفاته إلاَّ وهو يستحق المحبة الكاملــة من ذلك الوجـه ، ولهـذا اسـتحق أن يكـون محمـوداً على كـل حال ، ويسـتحق أن يحمـد على السـراء والضـراء ، وهـذا أعلى وأكمــل ، وهــو حبّ الخاصــة ، وهــؤلاء هم الــذين يطلبون لـذة النظـر إلى وجهـه الكـريم ويتلـذذون بـذكره ومناجاتـه ، ويكـون ذلـك لهم أعظم من المـاء للسـمك ،

---

[1](?) أخرجه الترمـذي في سـننه ح (3789) وقـال : هـذا حـديث حسن غـــريب ، وأخرجه الحـــاكم في مســـتدركه ح (4716) وصـححه ووافقه الـذهبي ، وضـعفه الألبـاني في "ضـعيف سـنن الترمذي" ص(462).

حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجـدوا من الألم مـا لا يطـاق ، وهم السابقون ..."[1] .

وقـال ابن القيم –رحمـه اللـه- : "والحب تبـع للأسـباب المقتضية له ، وهو ما عليه المحمـود من صـفات الكمـال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير ، فإن هذه هي أسباب المحبة ، وكلّمـا كـانت هـذه الصـفات أجمـع وأكمـل كـان الحمد والحبّ أتمّ وأعظم . واللـه -سـبحانه – لـه الكمـال المطلق الذي لا نقص فيه بوجـه مـا ، والإحسـان كلـه لـه ومنه ، فهو أحقّ بكـل حمـد وبكـل حبّ ، من كـلّ جهـة ، فهـو أهـل أن يحبّ لذاتـه ولصـفاته ولأفعالـه ولأسـمائه وصـفاته ، ولإحسـانه ، ولكـل مـا صـدر منـه سـبحانه وتعالى"[2] .

المبحث الثاني : الفرق بين ما يظهره الله من آثار ألوهيته في عبده وبين ما يظهره من آثار ربوبيته في بعض عباده.

---

[1] "التحفة العراقيـة" ص (449-452)ـ ، وانظر "الإيمـان الأوسط" ص(407).

[2] "جلاء الأفهام" ص(376)ـ ، وانظر "مـدارج السـالكين" (2/596).

بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- الفرق بين ما يظهـره اللـه من آثار ألوهيته في عبده وبين ما يظهره من آثار ربوبيتـه في بعض عباده فأمَّا :
الأول: وهو ما يظهره الله من آثار ألوهيته في عبده :
فإنـه يقـع ممن يعبـد اللـه تعـالى ويتـولاَّه ويطيعـه ويـنيب إليه . فتظهـر آثـار ألوهيـة اللـه تعـالى عليـه بتعبـده لربـه وطاعته له.
وأما الثاني : وهو ما يظهره الله من آثار ربوبيته في بعض عباده :
فهو واقع فيمن يعطيه الله ملكاً وسلطاناً ، أو مالاً وجمالاً ، أو يعطيه شيئاً من خوارق العادات .
وقد يجتمع القسمان في عبـد من عبـاد اللـه فتظهـر فيـه آثار ألوهيـة اللـه تعـالى وآثـار ربوبيتـه فيكـون عابـداً للـه مخلصاً لـه العبـادة ، ويكـون ذا سـلطان وملـك ، أو مـال وجمــال ، أو تقــع على يديــه خــوارق العــادات كالأنبيــاء والأولياء والملائكة.
فإن نـبي اللـه سـليمان كن عبـداً صـالحاً ، وكـان ذا ملـك وسلطان ، ونبي الله يوسف كان أيضاً عبداً صالحاً ، وكان ذا جمال. والملائكة عباد لله مكرمون لا يعصـون اللـه مـا أمرهم ويفعلـون مـا يـؤمرون وهم أيضـاً ذو جمـال وقـوة وقدرة .
فاجتمع في هؤلاء القسمين ظهور آثـار ألوهيـة اللـه فيهم وظهور آثار ربوبية الله تعالى.
والقسم الأول لا شك أنه مختلف عن القسم الثاني، فـإن الأول واقع بأمر الله وكلماته الشرعية ، والله تعالى يحبـه ويرضاه .
وأما القسم الثاني فهو واقع بـأمر اللـه الكـوني وبكلماتـه الكونية والمراد به ما وقع بمشيئة الله وقدرته ، ولا يلــزم أن يكون محبوباً لله . ومن الناس من غلط في ذلــك فلم يفـرِّق بين القسـمين بـل جعلهمـا قسـماً واحـداً ، فـألحق بعض العباد المعبّدين الذين ظهرت فيهم آثار ربوبيـة اللـه ببعض العبـاد العابـدين الـذين ظهـرت فيهم آثـار ألوهيـة

الله ، حيث إنهم لم يفرِّقوا بين المحبـة والمشـيئة فظنـوا أن كلَّ ما شاءه الله فقد أحبّه.
قال شيخ الإسلام –رحمـه اللـه- :"وهـذا القسـم (أي من تظهر فيهم آثار ألوهية اللـه) إنمـا يقـع فيمن يعبـد اللـه -سـبحانه- ويتـولاّه ، أو يظن بـه ذلـك ، فإنـه بـذلك تظهـر ألوهيـة اللـه في عبـده ، وتظهـر إنابـة العبـد إلى ربـه ، وموافقته له في محبته ورضاه ، وأمره ونهيه . وقد يشتبه بهذا قسم آخر وهو : ما يظهره الرب من آثار ربوبيته في بعض عبـاده ، وإن كـان ذلـك ليس مـأموراً بـه ، ولا هـو عبـادة لـه ، مثـل مـا يعطيـه من ملكـه وسـلطانه بعض الملوك المسلطين ، ممن قد يكون مسلماً ، وقد لا يكون كفرعـون وجنكسـخان ونحوهمـا ، ومـا يهبـه من الـرزق والمـال لبعض عبـاده ، ومـا يقسـمه من الجمـال لبعض عباده من الرجال والنسـاء . وكـذلك مـا يهبـه من العلـوم والمعارف ، أو يهبـه من الأحـوال ، أو يعطيـه من خـوارق العـادات من أنـواع المكاشـفات والتـأثيرات ، سـواء كـان هؤلاء مؤمنين أو كفاراً مثل الأعور الـدجال ونحـوه . فإنـه في هذا القسم يقـوم في العبـد المعيّن من آثـار الربوبيـة وأحكام القدرة أكثر مما يقوم بغيره ، كما يقـوم بالقسـم الأول من آثـار الألوهيـة وأحكـام الشـرع أكـثر ممـا يقـوم بغيره . وقد يجتمع القسـمان في عبـده ، كمـا يجتمـع في الملائكة والأنبياء والأوليـاء ، مثـل نبينـا –صـلى اللـه عليـه وسلم – والمسيح بن مريم وغيرهما . فهذا القسم وحـده كـاف في أحكـام الكلمـات الكونيـة ، كالقسـم الأول في أحكام الكلمات الدينية ، فإن الحوادث إنما تكون بمشـيئة الله وقدرته . وقد كـان النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- يستعيذ ويعوذ ، ويـأمر بالاسـتعاذة بكلمـات اللـه التامـات التي لا يجاوزها برّ ولا فاجر .
فالكلمات التي بها كوّن الله الكائنات لا يخرج عنها بـرّ ولا فاجر ، فما من ملك ولا سلطان ، ولا مال ولا جمـال ، ولا علم ولا حـال ، ولا كشـف ولا تصـرف إلاَّ وهـو بمشـيئته وقدرته وكلماته التامات ، ولكن من ذلك مـا هـو محبـوب

لله مأمورٌ به ، ومنه ما هو مكروه لله منهي عنه بل مبـاح أو عفو. وإذا كان واقعاً بمشيئة الله وقدرتـه وكلمتـه ، ولا يقـدر على ذلـك غـيره ، وهـو مضـاف إلى اللـه من جهـة ربوبيتـه وملكـه ، فبينـه وبين القسـم الأول من الاشـتراك والمشـابهة مـا أوجب أن أقوامـاً غلطـوا في أمـر اللـه ، فجعلوه في القسـمين واحـداً بـل غلطـوا أيضـاً في نفس الربّ ، فألحقوا بعض العباد المعبـدّين من القسـم الثـاني ببعض العبـــاد العابـــدين من القســـم الأول، ودخلـــوا في الاتحـاد والحلـول من هـذا الوجـه ، حـتى عبـد من عبـد فرعـون والـدجال ، وعبـد آخـرون الصـور الجميلـة ونحـو ذلك ، ويزعمـون أن هـذا مظـاهر الجمـال ، وكفـر هـؤلاء بالعبادات والإيمان تارة ، وبالمعبود تارة ... وقد فرّق الله في كتابه بين القسمين : بين من قـام بكلماتـه الكونيـات وبين من اتبع كلماته الدينيات ، وذلـك في أمـره وإراداتـه وقضائه ، وحكمه ، وإذنه ، وبعثه ، وإرساله.

فقال في الأمر الديني الشرعي :

ﭽ ﭼ (1) ﭽ ﭼ (2) ﭽ ﭼ (3)

وقال في الأمر الكوني القدري:

ﭽ ﭼ (4) ﭽ ﭼ (5) وكذلك قوله : ﭽ ﭼ (6) على أحد الأقوال.

وقال في الإرادة الدينية الشرعية :

ﭽ ﭼ (7) ﭽ ﭼ (8)

ﭽ ﭼ (9) .

(?)[1] سورة النحل ، الآية (90)

(?)[2] سورة النساء ، الآية (58)

(?)[3] سورة البقرة ، الآية (67)

(?)[4] سورة يس ، الآية (82)

(?)[5] سورة النحل ، الآية (1)

(?)[6] سورة الإسراء ، الآية (16)

(?)[7] سورة البقرة ، الآية (185)

(?)[8] سورة النساء ، الآية (26)

(?)[9] سورة المائدة ، الآية (6)

وقال في الإرادة الكونية القدرية : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭼ[1] ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﭼ[2] ﭽ ﭼ[3] وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي : هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا ؟ فإن التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية ، وإن كان مستلزماً للإرادة الدينية الشرعية .

وقال في الإذن الديني :

ﭽ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭼ[4]

وقال في الإذن الكوني:

ﭽ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﭼ [5]

وقال في القضاء الديني:

ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﭼ [6] أي أمر ربك بذلك .

وقال في القضاء الكوني:

ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭼ [7]

وقال في الحكم الديني:

ﭽ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﭼ[8]

وقال: ﭽ ﯥ ﭼ[9] وقال : ﭽ ﯦ ﭼ[10]

وقال في الحكم الكوني:

ﭽ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﭼ [11]

---

[1] سورة الأنعام ، الآية (125)

[2] سورة هود ، الآية (34)

[3] سورة المائدة ، الآية (41)

[4] سورة الحشر ، الآية (5)

[5] سورة البقرة ، الآية (102)

[6] سورة الإسراء ، الآية (23)

[7] سورة فصلت ، الآية (12)

[8] سورة المائدة ، الآية (1)

[9] سورة الممتحنة ، الآية (10)

[10] سورة المائدة ، الآية (50)

[11] سورة يوسف ، الآية (80)

وقـد يجمـع الحكمين مثـل مـا في قولـه : ﭽ   ﭼ[1]
وكذلك فعله : ﭽﮯ
ﭿﮀﭼ [2] .
وقال في البعثين والإرسالين:
ﭽﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭼ[3] ﭽﮔﮕﮖﮗﮘﭼ[4] وقوله : ﭽﭤﭥﭦﭧﭨﭼ[5] ﭽ ﭒ
ﭓﭔﭼ[6]

وقد قال : ﭽﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﭼ[7] وقال : ﭽﮇﮆﮅﭼ [8] " [9] .
وقد بيَّن شيخ الإسلام –رحمـه اللـه- أن الكلمـات الدينيـة والأمر والإرادة والقضاء والحكم والإذن والبعث والإرسال الديني هو : ما كان موافقاً لمحبة الله ورضاه .
وأن الكوني منها هو: ما كان موافقاً لمشيئة الله [10] .
وما يظهره الله من آثار ألوهيته في عبده هـو من القسـم الأول.
ومـا يظهــره من آثــار ربوبيتــه في بعض عبــاده هــو من القسم الثاني.
وقد يجتمع القسمان في عبد من عباد الله .

(?)[1] سورة الأنعام ، الآية (57)
(?)[2] سورة غافر ، الآية (20)
(?)[3] سورة الجمعة ، الآية (2)
(?)[4] سورة الإسراء ، الآية (5)
(?)[5] سورة الأحزاب ، الآية (45)
(?)[6] سورة الحديد ، الآية (25)
(?)[7] سورة مريم ، الآية (83)
(?)[8] سورة الحجر ، الآية (22)
(?)[9] "مجموع الفتاوى" (2/407-413)
(?)[10] انظر "التحفة العراقيــة" ص (325-330)ـ ، و "مجمــوع الفتاوى" (8/58-61) (11/265-271).

المطلب الأول : تعريف الشرك .

تعريف الشرك لغة :

الشين والرَّاء والكاف أصلان :

أحدهما : يدلُ على مقارنة وخلاف وانفراد . وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما.

فالشِّرْكة والشَّركة: مخالطة الشريكين . يقال : اشتراكنا بمعنى تَشاركَنا وقد اشترك الرجلان وتَشارَكا وشارك أحدهما الآخر .

والشريك : المشارك ، والشِّرْك : كالشَّريك . والجمع : أشْراك وشُركاء .

يقال : شريك و أشراك كما قالوا : يتميم وأيتام ، ونصير وأنصار.

والإشراك أيضاً: جمع الشِّرْك ، وهو النصيب ، كما يقال : قِسم وأقسام .

وقوله تعالى : ﴿ ﴾[1] أي اجعله شريكي فيه .

ويقال في المصاهرة : رغبنا في شرككم وصهركم أي : مشاركتكم في النسب .

والأصل الثاني : يدلَّ على امتداد واستقامة .

فالشَرَك : لقم الطريق ، وهو شِرَاكُه أيضاً . وشراك النَّعْل مشبَّه بهذا . ومنه شَرَك الصائد، سمِّي بذلك لامتداده.[2]

والمعنى اللّغوي الأول هو المعنى المناسب للمعنى الاصطلاحي.

تعريف الشرك اصطلاحاً :

عرّفه شيخ الإسلام بتعريفين :

---

[1] سورة طه ، الآية (32).

[2] انظر "معجم مقاييس اللّغة" (3/265) ، و "تهذيب اللّغة" (10/16-19) ، و"الصحاح" (4/1307-1308) ، و "لسان العرب" (8/67-69) ، و "القاموس المحيط" ص (944-945).

الأول : اقتصر فيه على تعريف الشرك في العبادة .
والثاني : اشتمل على الشرك في العبادة وفي الربوبية .

قال في الأول :
"وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله وهو : أن يدعو مع الله إلهاً آخر كالشمس والقمر والكواكب ، أو كملك من الملائكة ، أو نبي من الأنبياء ، أو رجل من الصالحين ، أو أحد من الجن ، أو تماثيل هؤلاء أو قبورهم ، أو غير ذلك مما يُدعى من دون الله تعالى ، أو يستغاث به أو يسجد له . فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرّمه الله على لسان جميع رسله"[1] .
وقال في الثاني :
" الشرك : أن تجعل لغيره شركاً أي نصيباً في عبادتك وتوكلك واستعانتك"[2] .
وقال : "الإشراك : أن يُجعل لله ندٌّ فيما يختصّ به من العبادة أو التوكل"[3] .
والعبادة متعلقة بالألوهية ، والتوكل والاستعانة متعلقتان بالربوبية [4] والتوكل أعمّ من الاستعانة فالتوكل : "يتناول التوكل عليه ليعينه على فعل ما أمره ، والتوكل عليه ليعطيه ما لا يقدر العبد عليه ، فالاستعانة تكون على الأعمال ، وأمّا التوكل فأعمّ من ذلك ، ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرّه" [5] .

---

[1] "الاستقامة" (2/210) ، وانظر "التدمرية" ص (186) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (3/291) ، و "التسعينية" (3/797) .
[2] "مجموع الفتاوى" (1/74).
[3] "جامع المسائل" (4/298).
[4] انظر "مجموع الفتاوى"(1/74، 89) ، و "مدارج السالكين" (1/139-140).
[5] "مجموع الفتاوى" (8/177).

المطلب الثاني : أقسام الشرك

ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله- عدة تقسيمات للشرك هي ما يلي :-

التقسيم الأول:

أن الشرك نوعان :

1) شرك يكفر به صاحبه ، وهو نوعان :

الأول : شرك في الربوبية.

والثاني : شرك في الألوهية .

2) الشرك الخفي : ويريد به شيخ الإسلام الشـرك الأصغر ، وهو ما فيـه نـوع تعلّـق بغـير اللـه لا يصـل بصاحبه إلى الشرك الأكبر ، ولا يكفر به صاحبه .

قال شـيخ الإسـلام : "فالشـرك إن كـان شـركاً يكفـر بـه صاحبه وهو نوعان:

شرك في الألوهية، وشرك في الربوبية .

فأمّا الشرك في الألهية فهو : أن يجعل لله نداً ، أي : مثلاً في عبادتـه ، أو محبتـه ، أو خوفـه أو رجائـه ، أو إنابتـه ، فهذا هو الشــرك الذي لا يغفره الله إلاّ بالتوبة منه . قـال تعالى: ﭽﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﮲ ﮳ ﮴ﭼ[1] وهذا هو الذي قاتل عليه رســول الله صلى الله عليه وسـلم مشـركي العــرب ؛ لأنهــم أشركوا في الإلهية . قال الله تعـالى: ﭽﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﭼ[2] الآية ،ﭽﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﭼ[3] الآية،ﭽﭸ ﭹ ﭺﭻﭼ[4]وقال تعالى ﭽﭑﭒﭓ ﭔﭕﭼ إلى قوله : ﭽﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﭼ[5] وقـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم لحصـين : "كم تعبد؟ قال : سـتة في الأرض وواحـد في السـماء . قـال : فمن الذي تعدّ لرغبتك ورهبتك؟ قال : الذي في السماء . قال : "ألا تسلم فأعلمـك كلمـات ؟ فأسـلم فقـال النـبي

---

[1] سورة الأنفال ، الآية (38).

[2] سورة البقرة ، الآية (165).

[3] سورة الزمر ، الآية (3).

[4] سورة ص ، الآية (5).

[5] سورة ق ، الآية (24-26).

صلى اللـه عليـه وسـلم : "قـل : اللهم ألهمـني رشـدي ، وقني شرّ نفسي"[1] .
وأمَّا الربوبية فكانوا مقرّبين بها ، قال الله تعالى: " ﭽﯖﯗﯘﯙ ﯚﯛﯜﯝﯞﭼ"[2] وقال : " ﭽ ﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﭼ إلى قوله : ﭽ ﭼ[3]
ومـا اعتقـد أحـدٌ منهم قـطّ أن الأصـنام هي الـتي تـنزل الغيث, وترزق العـالم وتـدبّره ، وإنمـا كـان شـركهم كمـا ذكرنا ، اتخـذوا من دون اللـه أنـداداً يحبـونهم كحب اللـه، وهذا المعـني يـدلّ على أن من أحبّ شـيئاً من دون اللــه كما يحبّ الله تعالى فقد أشرك ، وهذا كقوله : ﭽﮕﮖﮗﮘﮙﮚ ﮛﮜﮝ ﮞﮟﮠﮡ ﭼ[4] وكذا من خاف أحداً كما يخاف الله ، أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك.
وأما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية ...
وأما الشرك الخفي : فهو لا يكاد أحد أن يسلم منه ، مثل : أن يحب مع الله غيره ، فإن كانت محبته لله مثل : حبّ النبيين والصالحين ، والأعمال الصـالحة فليسـت من هـذا البــاب،لأن هــذه تــدل على حقيقــة المحبــة؛ لأن حقيقــة المحبة أن يحبّ المحبوب مـا أحبّـه ، ويكـره مـا يكرهـه ، ومن صحت محبتـه امتنعت مخالفتـه ؛ لأن المخالفـة إنمـا تقع لنقص المتابعة

ويدلّ على نقص المحبة قول الله تعالى : ﭽﭴﭵﭶ ﭷﭸﭹﭺ ﭻﭼﭽ ﭼ[5] الآية ... [6] فليس الكلام في هذا، إنما الكلام في محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعـالى ، فهـذا لا شـك أنـه نقص في توحيـد المحبـة للـه ، وهـو دليـل على نقص محبة الله –تعالى- إذ لو كملت محبته لم يحبّ سواه . ولا يردّ علينا الباب الأول ؛ لأن ذلك داخـل في محبتـه . وهـذا

---

[1] (?) سبق تخريجه ص (43) .
[2] (?) سورة لقمان ، الآية (25).
[3] (?) سورة المؤمنون ، الآية (84-89).
[4] (?) سورة الشعراء ، الآية (96-98).
[5] (?) سورة آل عمران ، الآية (31).
[6] (?) هكذا في الكتاب.

مـيزان لم يجـر عليـك ، كلمـا قـويت محبـة العبـد لمـولاه صـغرت عنـده المحبوبـات وقلّت ، وكلّمـا ضـعفت كـثرت محبوباتـه وانتشـرت . وكـذا الخـوف والرجـاء ومـا أشـبه ذلك ، فإن كمـل خـوف العبـــد من ربّـه لم يخـف شيئـــاً ســواه ، قال الله تعالى : ﭽﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﭼ [1] وإذا نقص خوفـه خـاف من المخلـوق ، وعلى قــدر نقص الخــوف وزيادته يكون الخوف كما ذكرنا في المحبة،

وكذا الرجاء وغيره ، فهذا هو الشرك الخفي، الذي لا يكاد أحدٌ أن يسلم منه إلاَّ من عصمة الله تعالى . وقد روى أن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل[2].[3]

التقسيم الثاني:

أن الشرك نوعان :

1- شرك في الربوبية .
2- شرك في الألوهية "بأن يُدعى غيره دعـاء عبـادة أو دعاء مسألة ، كما قال تعالى : ﭽﭣﭤﭥﭦﭼ[4] " [5] .

وهذا التقسيم قـريبٌ من الأول، فهـو القسـم الأول الـذي ذكره شيخ الإسلام في التقسيم السـابق. واقتصـر عليـه هنا .

التقسيم الثالث :

ذكر شيخ الإسلام أن الشرك نوعان :

الأول: الشرك الأرضي.

والثاني : الشرك السماوي.

قـــال : "... وذلـــك أن نوحـــاً أول رســـول بعث إلى المشركين، وكـان مبـدأ شـرك قومـه من تعظيم المـوتى

---

[1] سورة الأحزاب ، الآية (39).

[2] أخرجه البخـاري في"الأدب المفـرد" ح (737)ـ ، وصـححه الألباني في "صحيح الأدب المفرد" ص (265-266).

[3] "مجموع الفتاوى" (1/91-94).

[4] سورة الفاتحة ، الآية (5).

[5] "اقتضـاء الصـراط المسـتقيم" (2/710)ـ ، وانظر "درء التعارض" (7/390-391).

الصالحين ، وقوم إبـراهيم كـان مبـدأ شـركهم من عبـادة الكـــواكب ، ذاك الشـــرك الأرضـــي ، وهـــذا الشـــرك السماوي"[1] .

وهذا التقسيم هو باعتبار أصل الشرك في الألوهية وسببه .

قـال –رحمـه اللـه- :"والشـرك في بـني آدم أكـثره عن أصلين:

أولهما : تعظيم قبور الصالحين ، وتصوير تماثيلهم للتـبرّك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون الشـرك ، وهو شرك قوم نوح ...

والسـبب الثـاني: عبـادة الكـواكب . فكـانوا يصـنعون للأصـنام طلاسم[2] للكـواكب ويتحـرّون الـوقت المناسـب لصـنعة ذلـك الطلسـم ، ويصـنعونه من مـادّة تناسـب مـا يرونه ومن طبيعة ذلك الكوكب، ويتكلمون عليها بالشـرك والكفـــر . فتـــأتي الشـــياطين فتكلّمهم وتقضـــي بعض حوائجهم . ويسمّونها "روحانية الكواكب" وهي الشـيطان أو الشيطانة التي تضلّهم "[3] .

وهذا باعتبار أكثره في بني آدم ، وإلاَّ فإنـه – رحمـه اللـه- ذكر أن من الشرك ما كـان أصـله عبـادة الملائكـة والجنّ واتخاذ الأصنام لهم[4] .

التقسيم الرابع :

---

[1] "تفسير آيات أشكلت" (1/232)، وانظر "مجموع الفتاوى" (6/255-256).

[2] طلاسم : جمع طِّلَسم و طِّلَّسم ، وهو عبـــــــارة عما يدعيه أصحابه من ربط الطبائع العلوية السـماوية بالطبـائع السـفلية ، والطبـــائع العلوية عنـــدهم: هي روحانيـــات الكـــواكب ، ولـــذلك يسـتعين صـاحبه في غـالب الأمر بالنجامة ، وهو قـريب المأخذ بالنسـبة إلى السـحر ، لكـون مبادئه وأسـبابه معلومة . انظر "مقدمة ابن خلدون" ص (540) ، و"أبجد العلوم" ص (440) ، و"المعجم الوسيط" ص (341) .

[3] "الردّ على المنطقيين" (2/39/40).

[4] انظر "مجموع الفتــاوى" (17/460-461) ، و "شـــرح الأصبهانية" ص (129).

أن الشرك نوعان :
1- شرك أكبر .
2- شرك أصغر[1] .
قال -رحمه الله- : "فجميع ما نهى الله عنه هو من شعب الكفر وفروعه ، كما أن كلّ ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص لدين الله ، ولهذا قال تعالى : ﭽﮑﮒﯘﯙﯚﯛﯜﯝﭼ[2] لكن قد يكون ذلك شركاً أكبر وقـد يكـون شـركاً أصـغر ، بحسب ما يقترن به من الإيمـان ، فمـتى اقـترن بمـا نهى الله عنه الإيمان لتحريمه وبغضـه وخـوف العقـاب ورجـاء الرحمة لم يكن شـركاً أكـبر ، وأمّـا إن اتخـذ الإنسـان مـا يهواه إلها من دون الله وأحبه كحبّ الله فهو شرك أكبر ، والدرجات في ذلك متفاوتة"[3] .
وفي موضع آخر أضاف أن منه ما هو خفي وجلي فقـال : "والشرك: منه جليل ودقيق ، وخفي وجلي "[4] .

التقسيم الخامس :

أن الشرك ثلاثة أقسام :
1- شرك في العبادة والتأله .
2- شرك في الطاعة والانقياد .
3- شرك في الإيمان والقبول .
قال شيخ الإسلام:" فـإن الإشـراك في هـذه الأمـة أخفى من دبيب النمــل ، دع جليلــه ، وهــو شــرك في العبــادة والتأله ، وشرك في الطاعة والانقياد ، وشرك في الإيمان والقبــول . فالغاليــة من النصــارى والرافضــة وضــلال الصـوفية والفقـراء والعامـة : يشـركون بـدعاء غـير اللـه تارة ، وبنوع من عبادته أخرى ، وبهما جميعـاً تـارة ، ومن أشرك هذا الشرك أشرط في الطاعة .
وكثـير من المتفقهـة وأجنـاد الملـوك ، وأتبـاع القضـاة ، والعامة المتبعة لهؤلاء يشـركون شـرك الطاعـة ... فتجـد

(?)[1] انظر "تفسير آيات شكلت" (1/364).
(?)[2] سورة الأنفال ، الآية (39).
(?)[3] "جامع الرسائل" (2/292-293).
(?)[4] "المصدر السابق" (2/254).

أحد المنحرفين يجعل الواجب ماأوجبه متبوعه ، والحـرام ماحرّمه ، والحلال ماحلله ، والدين ماشـرعه ، إمـا دينـاً ، وإما دنيا ، وإما دنيا ودينـا , ثم يخـوف من امتنـع من هـذا الشـرك ، وهـو لايخـاف أنـه أشـرك بـه شـيئاً في طاعتـه بغيرسلطان من الله ، وبهذا يخرج من أوجب الله طاعتـه من رسول وأمير وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك .
وأمـا الشـرك الثـالث : فكثـير من أتبـاع المتكلمـة والمتفلسفة ، بل وبعض المتفقهة والمتصوفة ، بل وبعض أتباع الملوك والقضاة ، يقبل قول متبوعـه فيمـا يخـبر بـه من الإعتقـادات الخبريـة ، ومن تصـحيح بعض المقـالات وإفساد بعضها ، ومدح بعضـها، وبعض القـائلين وذم بعض بلا سـلطان من اللـه . ويخـاف ماأشـركه في الإيمـان والقبول ، ولايخاف إشراكه بالله شخصاً في الإيمـان بـه ، وقبول قوله بغير سلطان من الله . وبهذا يخرج من شرع الله تصديقه من المرسلين والعلماء المبلغين ، والشـهداء الصادقين وغير ذلك .
فباب الطاعة والتصـديق : ينقسـم إلى مشـروع في حـق البشر وغير مشروع .
وأما العبادة والاستعانة والتأله : فلا حق فيها للبشر بحـال ". [1]
وهـذه التقسـيمات ليس بينهـا تعـارض ، بـل تعـددها هـو للتوضيح والبيان ، كل مقام بحسبه.

المطلب الثالث : تعريف الشرك في الربوبية .

ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله- عدّة تعريفات للشرك في الربوبية هي ما يلي :

التعريف الأول :

---

[1] " مجموع الفتاوى " (1/ 97-98).

قال عند ذكره لأنواع الشرك : "وأما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية ، فإن الربّ -سبحانه- هو المالك ، المدبر ، المعطي المانع ، الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، فمن شهد أن المعطي أو المانع ، او الضارّ أو النافع ، أو المعزّ أو المذل غيره ، فقد أشرك بروبيته"[1] .

التعريف الثاني :

قال : "وجماع الأمر : أن الشرك نوعان :

شرك في ربوبيته : بأن يجعل لغيره معه تدبيراً ما ، كما قال سبحانه : ﭽ ﯼ ﯽ ﯾ ﭼ[2]

فبيّن سبحانه أنهم لا يمكن ذرة استقلالاً ، ولا يشركونه في شيء من ذلك ، ولا يعينونه على ملكه ، ومن لم يكن مالكاً ، ولا شريكاً ، ولا عوناً ، فقد انقطعت علاقته"[3] .

التعريف الثالث :

قال : "والشرك نوعان : أحدهما : شرك في الربوبية ، والثاني : شرك في الألوهية ، فأمّا الأول : فهو إثبات فاعل مستقل غير الله ، كمن يجعل الحيوان مستقلاً بأحداث فعله ، ويجعل الكواكب ، أو الأجسام الطبيعية ، أو العقول ، أو النفوس ، أو الملائكة ، أو غير ذلك مستقلاً بشيء من الأحداث"[4] .

التعريف الرابع :

قال : "ليس في جميع الكفار من جعل لله شريكاً مساوياً له في ذاته وصفاته وأفعاله ، هذا لم يقله أحدٌ قطّ ، لا من المجوس الثنوية ، ولا من أهل التثليث ، ولا من الصائبة المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة ، ولا من عباد الأنبياء والصالحين ، ولا من عباد التماثيل والقبور وغيرهم ، فإن جميع هؤلاء – وإن كانوا كفاراً

---

[1] "مجموع الفتاوى" (1/92).

[2] سورة سبأ ، الآية (22).

[3] "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/710).

[4] "درء التعارض" (7/390).

مشـرـكين متنـوعين في الشـرك – فهم مقـرّون بـالربّ الحق الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته وجميع أفعالـه ، ولكنهم مع هذا مشـركون في ألوهيتـه : بـأن يعبـدوا معـه آلهة أخرى يتخذونها شـفعاء أو شـركاء ، أو في ربوبيتـه : بأن يجعلوا غـيره رب بعض الكائنـات دونـه مـع اعـترافهم بأنه ربّ ذلك الربّ ، وخالق ذلك الخالق"[1] .

وهذه التعريفات هي متفقة في المعنى والمضمون ، فهي تتفـق في أن الشـرك في الربوبيـة هـو جعـل خصـائص الربوبية لبعض المخلـوقين فشـيخ الإسـلام يـذكر في كـل تعريف أفراد خصائص الربوبية التي من جعلهـا لغـير اللـه فقد أشرك في ربوبيته . وهذه الأفراد لا تعارض بينها.

المطلب الرابع : وجه كون الشرك ظلماً في الربوبية .

قـرَّر شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- أن الشـرك ظلم في الربوبيـة فقـال عنـد بيانـه للأوجـه الدالـة على أن فعـل المأمور أعظم من ترك المنهي: "الوجـه الحـادي عشـر : أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى : ﭽﭾﭿ ﮀﮁﮂﮃ[2] وذلك هو أصل ما أمرهم به على ألسن الرسل " والإسلام : هو الاستسلام لله وحده ، وهو أصـل عبادتـه وحده ، وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضـوع لـه ، وهـذا المعنى الذي خلق الله لـه الخلـق : هـو أمـر وجـودي من باب المأمور به ، ثم الأمر بعد ذلك بما هو كمال مـا خلـق

---

[1] "مجموع الفتاوى "(11/51).

[2] سورة الذاريات ، الآية (56).

له . وأما المنهي عنه : فأمّا مانع من أصل ما خلق له ، وأمّا من كمال ما خلق له ، فهو عن الإشراك ؛ لأنه مانع من الأصل ، وهو ظلم في الربوبية ، كما قال تعالى : ﭽﭲ ﭳ ﭴ ﭵﭼ[1] " ، ومنعوا عن ظلم بعضهم بعضاً في النفوس والأموال والأبضاع والأعراض ؛ لأنه مانع من كمال ما خلق له . فظهر أن فعل المأمور به أصل ، وهو المقصود وأن ترك المنهي عنه فرع ، وهو التابع . وقال تعالى : ﭽﮢﮣ ﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﭼ[2] ؛ لأن الشرك منع الأصل ، فلم يك في النفس استعداد للفلاح في الآخر ، بخلاف ما دونه فإن مع المغفور له أصل الإيمان الذي هو سبب السعادة"[3] .

وبيّن –رحمه الله- وجه كون الشرك ظلماً في الربوبية : من خلال بيان أن التسوية بين المتفاضلين ظلم ، فالتسوية بين الله وغيره من المعبودات هي تسوية باطلة .

فإن الرب –سبحانه الخالق ، الرازق ، المحي ، المميت ، العليم بكل شيء تسويته بالعبد الضعيف الفقير بذاته المحتاج إلى غيره هي تسوية بين المتفاضلين ، تفاضلاً عظيماً ، الذي لا شيء أعظم من التفاضل بينهما ، وهذا ظلم عظيم ، بل هو أعظم الظلم .

قال –رحمه الله- : عند تفسيره لآية آل عمران " ﭽﭬﭭ ﭼ[4] : "هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم"[5] ، وهل مثل ضرب الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله : ﭽﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲ

---

[1] سورة لقمان ، الآية (13).

[2] سورة النساء ، الآية (48).

[3] "مجموع الفتاوى" (20/115-116)ـ ، وانظر (15/348-349).

[4] سورة آل عمران ، الآية (18).

[5] سورة يونس ، الآية (35).

ﮃﭽ[1] ، وقال : ﭽﭰﭱ ﭲﭳﭼ ، الآيات إلى قوله : ﭽﮏﮐﮑﮒ ﭼ[2] ، فأخبر أنه خالق منهم ، عالم ، وما يدعون من دونـه لا تخلق شيئاً ولا تنعم بشيء ، ولا تعلم شيئاً ، وأخـبر أنهـا ميتة ، فهل يستوي هذا وهـذا ؟ فكيـف يعبـدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منـه ؟ ولهـذا كـان هذا أعظم الظلم والإفك"[3] .

وقال أيضاً: "فالإسلام يتضمن العـدل ، وهـو التسـوية بين المتماثلين والتفريق بين المتفاضلين من المخلوقـات ، إذ ذلك من الإسلام لله ربّ العـالمين وحـده ، فإنـه إذا كـان الدين كله لله وكانت كلمة الله هي العليا كـان اللـه يـأمر بالعـدل وينهى عن الظلم ، وأصـل العـدل هـو القسـط ، والقسط هو الإقساط في حق الله تعـالى – بـأن لا يُعـدل به غيره ولا يُجعل له شريك ، كما قال النـبي –صـلى اللـه عليه وسلم – لمعاذ : "حقُّ الله على عباده أن يعبـدوه ولا يُشركون به شيئاً"[4] فإن لم يُسلموا له بل عَدَلوا به غـيره كان ذلك ظلماً عظيماً، وإذا فعلوا هذا الظلم في حق الله فهم في حقوق العبـاد أظلم ، والتسـوية بين المتفاضـلين ظلم ، كمـا أن التفضـيل بين المتمـاثلين ظلم ، والشـرك من نوع الأول كما قال تعالى : ﭽ   ﭼ[5] والاستكبـــار قد يكون من نوع الثاني ، والإسلام يتضـمن العـدل كلـه ، كما أنه ينافي في الشرك الكبر "[6] .

والشرك وإن كان ظلماً في الربوبية فـإن اللـه -سـبحانه- لايضرّه عباده ولا ينفعونه ، وإنما يضـرّون أنفسـهم ولهـذا قال تعالى : ﭽﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﭼ[7] فأخبر

---

[1] سورة النحل، الآية (76).

[2] سورة النحل ، الآية (17-21).

[3] "مجموع الفتاوى" (14/178).

[4] أخرجه البخـاري في "صـحيحه" ح (2856)ـ ، ومسـلم في "صحيحه" ح (144).

[5] سورة الشعراء ، الآية (98).

[6] "جامع المسائل" (6/231).

[7] سورة آل عمران ، الآية (176).

أن الكافر الذي كفـر بربـه وتـرك حقَّه وأشـرك بـه وعبـد غيره وتعدّى حدوده وانتهـك محارمـه لا يضـرُّه شـيئاً كمـا يَضرُّ المخلـوق من السـادة ونحـوهم من يجحـد حقـوقهم ويكفر نعمهم ويعتدي عليهم فالله –سبحانه وتعالى- ليس كمثله شيء ، ولا تُضرب له الأمثال ، ولهذا قال تعالى في الحديث الصحيح عن أبي ذر – وهـو أشـرف حـديثٍ رواه أهل الشـام : "يـا عبـادي إني حـرّمت الظلم على نفسـي وجعلته بينكم محرّمـا فلا تظـالموا " الحـديث إلى قولـه : "يـا عبـادي إنكم لن تبلغــوا ضـري فتضـرُّوني ولن تبلغـوا نفعي فتنفعوني" إلى قوله : "فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلى نفسه"[1] وكذلك أخبر في القرآن أنه غنيٌّ عن خلقه ، لن يبلغوا نفعه فينفعــوه ، كما يبلغ بعضهم نفع بعض كما قال : "ﭽ ۇ ۆ ۈ ۉ ۋ ۅ ۅ ﭼ"[2] وقال : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﭼ[3] ، وقـال موسى : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﭼ[4] بعد أن أخبرهم أن ربهم تأذن : ﭽ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ[5]،

وقال سليمان : ﭽ ﮀ ﮁ ... ﮪ ﮫ ﮬ ... ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﭼ[6] ،وقال: ﭽ ... ﭼ[7] الآية ، وقال : ﭽ ﮨ ... ﭼ[8] الآية ، وقال : ﭽ ﯘ ... ﭼ[9]، وقال عن بني اسرائيل : ﭽ ... ﭼ[10] فهـــذا نصٌ في أنهم لم يظلمــوا اللـــه وإنمـــا ظلمـــوا أنفسهم ...".[11]

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6572).

[2] سورة آل عمران ، الآية (97).

[3] سورة الزمر ، الآية (7).

[4] سورة إبراهيم ، الآية (8).

[5] سورة إبراهيم ، الآية (7).

[6] سورة النمل ، الآية (40).

[7] سورة فصلت ، الآية (46).

[8] سورة الإسراء ، الآية (7).

[9] سورة البقرة ، الآية (286).

[10] سورة البقرة ، الآية (57).

[11] "جامع المسائل" (6/235-236).

المطلب الأول : تعريف التعطيل .

تعريف التعطيل لغة:
مادة "عطل" المشـتملة على العين والطـاء واللام وأصل صحيح واحد يدلّ على: خلو وفراغ.
تقـول: عّطِلَت المـرأة تَعْطل عَطَلاً وعُطـولاً وتَعَطَّلَت إذا لم يكن عليها حُلي ولم تلبس الزينة وخلا جيــــــدها من القلائد .
وقوْسٌ عُطُلٌ : لا وتر عليها ، ورجلٌ عُطُـلٌ : لا سـلاح له ، وإبلٌ معطَّلةٌ : لا راعي لها ، وعَطَّل الدار : أخلاها .
والرَّعية إذا لم يكن لها والٍ يسوسها فهم مُعَطَّلـون ، وقد عُطِّلوا أي: أُهملوا .
والمواشي إذا أهملت بلا راع فقد عُطِّلت . والبـــئر إذا لم تُورد ولم يستق منها فقد عُطِّلت منه قوله تعالى: ﭽﯴ ﭼ[1] ، وقيل : بئر معطَّلة لبُيود أهلها .
وكل شيء خلا من حافظ فقد عُطِّل[2] .
تعريف التعطيل اصطلاحاً:
التعطيل له تعريف عام يدخل فيه أنواع التعطيل .

(?)[1] سورة الحج ، الآية (45).
(?)[2] انظر "معجم مقـاييس اللغـة" (4/351-352)ـ ، و "تهـذيب اللغـة" (2/165-166)ـ ، و "الصـحاح" (4/1441)ـ ، و"لسـان العرب" (10/194-195).

وله تعريف خاص بحسب أنواعه، فكل نــوع من أنواعه له تعريفه المختصّ به .

أمّا التعريف العام :
فقد عرّفه الشـــيخ ابن عــثيمين[1] –رحمه اللـــه- بقوله : "أما في الاصطلاح فالتعطيل هو تعطيل الله عما يجب له ، وهو أنواع بحسب ما ترك من واجب له"[2] .
قوله : "عما يجب لـــــــــه" أي من ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته .
والمـراد بـالتعريف : نفي وإنكـار ما يحب الله من ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.
أما التعريف المختصّ بكل نوع من أنواع التعطيل فسيأتي في المطلــب التــالي.

---

[1] (?) العلامـة ، المفسّـر ، الفقيـه ، الزاهـد ، الـورع ، أبـو عبداللـه محمد بن صالح بن عثيمين الوهبي التميمي ، ولد في عنيزة سنة (1347)، ظهرت عليه أمارات النبوغ والذكاء وصاحب ذلك همــة وحرص وجد واجتهاد جعله يحصّل أضعاف مايحصّـل أقرانـه ، من مشايخه : الشيخ عبـدالرحمن السـعدي ، والشـيخ عبـدالعزيز بن باز ، تأثر بشـيخه السـعدي كثـيراً في طريقـة التـدريس وعـرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني ، توفي سنة (1421) ه . انظر " محمد بن صلح العثيمين العالم القدوة" ص (11-57) .

[2] (?) "شرح العقيدة السفارينية "ص (291).

المطلب الثاني: أنواع التعطيل.

التعطيل في باب التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب أقسام التوحيد:

1-تعطيل في باب الربوبية .
2-تعطيل في باب الألوهية .
3-تعطيل في باب الأسماء والصفات [1] .

أمّا الأول: التعطيل في الربوبية فهو "تعطيل المصـــــنوع عن صانعه وخالقه"[2] .

ومن أمثلته :

- كفر فرعون ، حيث أنه أنكر الرب تعالى فقال : ﭽﭬ ﭭﭮﭽ[3] .
- وقول الفلاسفة بقدم العالم . فإن قولهم بقدم العالم يعني أن الله تعالى لم يخلق هذا العالم ، بل لم يزل ولا يزال معه .
- وقول القدرية بأن العبد يخلق فعله . فهذا تعطيل لخلق الله لأفعال العبد ،وإضافة ذلك إلى العبد [4] .

الثاني : التعطيل في باب الألوهية :

وهو : "تعطيل معاملتـه عمـا يجب على العبـد من حقيقـة التوحيد" [5] .

وهذا كشرك عبّاد القبور حيث عطلــوا معاملة الله تعـالى مما يجب على العبد من إخلاص جميع أنـــواع العبــادة ، فصرفوا ذلك لغير الله ، فاستغاثوا بغير الله ، وذبحوا لغير الله ، ونذروا لغير الله ، وهم بهـذا قد وقعـوا في التعطيل

---

[1] انظر "مقالة التعطيل والجعد بن درهم" ص (21).
[2] "الداء والدواء" ص (231).
[3] سورة الشعراء ، الآية (23).
[4] انظر الأمثلة في "منهاج السـنة " (3/278-281) ، و "درء التعارض" (8/490) ، و "الداء والـدواء " ص (231-232) ، و "مقالة التعطيل" ص(21-22).
[5] "الداء والدواء" ص (231).

في توحيد الألوهية . ومثل تعطيل فرعـــون حيث لم يعبد الله ألبتة[1] .

الثالث : التعطيل في باب الأسماء والصفات .

وهو "إنكار ما يجب لله تعالى – من الأسماء والصفات أو إنكار بعضه . فهو نوعان :

1-تعطيل كلي ، كتعطيل الجهمية الـــذين ينكـــرون الصفات، وغلاتهم ينكرون الأسماء أيضاً .

2-تعطيل جــزئي ، كتعطيل الأشــعرية الــذين ينكــرون بعض الصفات دون بعض"[2] .

المطلب الثالث : العلاقة بين التعطيل والشرك .

بيَّن شيخ الإسلام العلاقة بين التعطيل والشــرك من خلال ما يلي:

1) أن "كل معطل مشـــــرك ، وليس كل مشرك معطلاً" [3] .

وقرّر كون "كل معطل مشرك" من خلال ما يلي:

1- أنه لا يوجد أحــدٌ من أهل التعطيل إلاَّ وفيه نــوع من الشرك العملي .

---

[1] (?) انظر"منهاج السنة" (5/393).

[2] (?) "فتح رب البرية بتلخيص الحموية" ص (18-19) ، وللتوسع انظر"مقالة التعطيل والجعد بن درهم " ص(22-38) .

[3] (?) "درء التعارض" (10/279).

قـــال عند حديثه عن نـــوعي التوحيد والعلاقة بينهما : "وإن كان أحد النـوعين مرتبطـاً بـالآخر ، فلا يوجد أحـدٌ من أهل التعطيل والجهمية وأهل التمثيل المشـــبهة إلاّ فيه نوعٌ من الشرك العملي ، إذ أصل قولهم فيه شرك ، وتسوية بين الله وبين خلقه ، وبينه وبين المعدومات ، كما تسوي المعطلة بينه وبين المعدومات في الصـفات السـلبية الـتي لا تسـتلزم مـدحاً ولا ثبـوت كمـال ، أو يسوون بينه وبين النـاقص من الموجـودات في صـفات النقص، وكما يسـوون إذا أثبتـوا هم ومن ضـاهاهم من الممثلة مساواة بينه وبين المخلوقات في حقائقها حتى قد يعبــدونها فيعــدلون بــربهم ويجعلــون له أنــداداً ، ويشبهون المخلوق برب العالمين"[1] .

ب- أن نفي الصفات عن الفلاسفة والمعتزلة مسـتلزم للإشراك. قال : "وأما التوحيد الذي يذكر عن الفلاسفة من نفي الصفات فهو مثل تسمية المعتزلة لما يقولونه توحيـداً ، وهـذا في التحقيق تعطيل مسـتلزم للتمثيل والإشراك"[2] .

ج- أن عبــادة الأوثــان مشـــهورة ومعروفة عن نفـــاة الصــفات من الفلاســفة الصــائبين ، مثل النمــرود بن كنعـان وقومه أعـداء الخليل – عليه الصلاة والسـلام – وأتباعه ، وأوليـاء الجهمية ونفـاة الصـفات ومن يـدخل

---

[1] "التحفة العراقية" ص (386).

[2] "بيان تلبيس الجهمية" (3/145).

فيهم من الاتحادية والقرامطة[1] ومثل فرعون عدو موسى[2] .

فإن فرعون كان معطلاً للربوبية والألوهية، وكان يعبد الأوثان.

أما تعطيله للربوبية فبإنكاره للرب ، وهذا ظاهر. وأما تعطيله للألوهية فبعدم عبادته لله ، فإنه لم يعبد الله ألبته. قال شيخ الإسلام : "ومن لم يعبد الله فإنه فاسد هالك ، والله لا يغفر أن يشرك به فيعبُد معه غيره ، فكيف بمن عطّل عبادته فلم يعبده ألبته كفرعون وأمثاله"[3] .

ولم يكن فرعون يجمع بين عبادة الله وعبادة غيره فيشرك بينهما في آن واحد ولهذا يقول شيخ الإسلام : "ومن لم يشرك به ولم يعبده فهو معطل عن عبادته وعبادة غيره كفرعون وأمثاله ، فهو أسوأ حالاً من المشرك"[4] .

---

[1] القرامطة : أتباع حمدان القرمطي ،كان رجلاً متوارياً صار إليه أحد دعاة الباطنية ودعاه إلى معتقدهم فقبل الدعوة ، ثم صار يدعو الناس إليها، من المستجيبين لدعوته أبو سعيد الجنَّابي ، كان من أشدهم بأساً ، ظهر في سنة (286هـ) ، وقوي أمره وقتل ما لا يحصي من المسلمين ، وخرّب المساجد ، وأحرق المصاحف ، وفتك بالحجاج، وخلف بعده ابنه أبو طاهر ففعل مثل فعله، وهجم على الكعبة فأخذ ما فيها من الذخائر ، وقلع الحجر الأسود فحمله إلى بلده . تزعم القرامطة أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض ، وأنه هو المهدي الذي تقدّمت البشارة به. انظر "مقالات الإسلاميين" (1/100-101) ، و "الفرق بين الفرق" ص (251) ، و "العقائد والديانات" ص (119-120) ، و"اعتقاد فرق المسلمين والمشركين" ص (108).

[2] انظر "بيان تلبيس الجهمية" (3/68-69).

[3] "منهاج السنة" (5/393).

[4] "مجموع الفتاوى" (14/477).

وأمّا كونه يعبد الأوثان فقد قال شيخ الإسلام : "ففرعـون هو الذي قال لموسى : "ﭽﭬ ﭭ ﭮ ﭼ[1]ـ ثم كانت له آلهة يعبدها كما قاله له قومه: ﭽﮖﮗﭼ[2]".

وقال : "وإنما يقال : إن المستكبر لابدّ أن يكـون مشـركاً ؛ لأن الإنسان حارث همـام، فلابـدّ له من حـرث هو عمله وحركته ، ولابدّ لذلك من همّ هو قصـده ونيِّته وحبـه، فـإذا اسـتكبر عن أن يكـون الله هو مقصـوده الـذي ينتهي إليه وإرادته ،فيسلم وجه الله ، فلابدّ أن يكون له مقصود آخر ينتهي إليه قصده، وذاك هو إلهه الذي أشرك ، ولهذا كـان قوم فرعون الـذي وصـفهم بالاسـتكبار والعلو في الأرض وهم الــذين اســتعبدوا بــني إســرائيل، كــانوا مع ذلك مشركين بفرعون اتخذوه إلهاً ورباً ، كما قال لهم : "ﭽﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ"[3] ، وقال لهم :" ﭽﭲ ﭳ ﭴ ﭼ[4] ، وقال : ﭽﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﭼ[5]ـ ، وفرعون نفسه الذي كان هو المستكبر الأعظم على قومه وغيرهم كان مع هذا مشـركاً ، كــما ذكـر ذلك تعالى في قوله : ﭽﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗﭼ[6] ، قيل : كان له آلهة يعبدها سـراً ، وقـد وصـفهم جميعـاً بالإشـراك في قول الرجل المؤمن: "ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ[7] وقال قبل هذا : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭼ[8] " الآية ، وقد ذكر الله قول يوسف : ﭽﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ[9] وهذا إخبار عن جميعهم بالشرك واتخاذ آلهة يدعونها من دون الله"[10] .

---

[1] (?) سورة الشعراء ، الآية (23)

[2] (?) سورة الأعراف ، الآية (127).

[3] (?) سورة القصص ، الآية (38) .

[4] (?) سورة النازعات ، الآية (24) .

[5] (?) سورة الزخرف ، الآية (54) .

[6] (?) سورة الأعراف ، الآية (127) .

[7] (?) سورة غافر ، الآية (41-43) .

[8] (?) سورة غافر ، الآية (34) .

[9] (?) سورة يوسف ، الآية (39-40) .

[10] (?) "جامع المسائل" (6/226-227).

وذكر نحواً من هذا في موضع آخر ثم قال: "وقـــد وصف فرعون بالشرك في قوله : ﭽﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﭼ[1] " بـل الاسـتقراء يـدل على أنـه كلّمـا كـان الرجـل أعظم استكباراً عن عبادة الله كـان أعظم إشـراكاً باللـه ؛ لأنـه كلمـا اسـتكبر عن عبـادة اللـه ازداد فقـره وحاجتـه إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود مقصود القلب بالقصد الأول، فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك"[2] .

والمـراد بكـون فرعـون مشـركاً أنـه كـان يعبـد الأوثـان وحدها ؛ لأنه كان يعبد الله ويعبد الأوثان معاً.

وبمـا سـبق ذكـره مـا جـاء في شـيخ الإسـلام في شـأن فرعـون في هـذا الموضـوع ، وبـه تجتمـع أقـوال شـيخ الإسلام. والله تعالى أعلم. وبه نعرف كيف أن قـول نفـاة الصفات مسـتلزم للإشـراك إذ أن نفي الصـفات يسـتلزم قـول فرعـون ، وهـو نفي الـرب تعـالى ، وذلـك يسـتلزم عبادة غير الله ، فإن الله عنـدهم معـدوم فلا يعبـد ، ومن لم يعبد الله عبد غيره.

هذا ما يتعلق بقول شيخ الإسلام "كل معطل مشرك".

وأما قوله : "وليس كل مشرك معطلاً " فقد بيَّن – رحمه الله- أن الشرك قد يكون فيمن ليس من المعطلـة النفاة ، فإن كفار العرب "وإن كـانوا مشـركين ، فإنـه لم يكن الظاهر فيهم التعطيل للصانع وإن كان قد يكـون في أضعافهم من هو من المرتـابين في الصـانع أو الجاحـدين له كما في تصاعيف كل أمة..." [3] .

قال شيخ الإسلام عنـد ذكـره لأقـوال النـاس في المباينـة والحلول : "ولهذا كـانت الجهميـة النفـاة داخلين في نـوع من الشـرك ، إذ كـل معطـل مشـرك وليس كـل مشـرك معطلا ، والجهميـــة قـــولهم مســـتلزم للتعطيـــل ، ففيهم شـرك، وقـد يكـون الشـرك فيمن ليس منهم ، إذ إخلاص

---

[1] سورة الأعراف ، الآية (127) .

[2] "العبودية" ص (140).

[3] "درء التعارض" (7/73).

الدين مستلزم لإثباته ، ولس إثباته مستلزماً للإخلاص..."[1] .

وبيَّن –رحمه الله- أن من المشركين من يجمع بين الشرك والتعطيل ، فيعطل الخالق أو بعض ما يستحقه من أسمائه وصفاته[2] .

2) العلاقة بينهما من جهة أصل الشرك:

فإن أصل الشرك: إمّا التعطيل ، وإمّا الإشراك.

قال شيخ الإسلام: "وأصل الشرك : إمّا التعطيل ، مثل تعطيل فرعون موسى ، والذي حاجَّ إبراهيم في ربّه خصم إبراهيم ، والدجال مسيح الضلال خصم مسيح الهدى عيسى بن مريم –صلى الله عليه وسلم- ، وإمَّا الإشراك ، وهو كثير في الأمم أكثر من التعطيل ، وأهله خصوم جمهور الأنبياء . وفي خصوم إبراهيم ومحمد – صلى الله عليه وسلم – معطّلة ومشركة . لكن التعطيل المحض للذات قليل ، وأمّا الكثير فهو تعطيل صفات الكمال ، وهو مستلزم لتعطيل الذات"[3] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام أنه "لا يلزم إثبات التوحيد المنافي للإشراك إبطال قول أهل التعطيل ، ولا يلزم من مجرّد الإثبات المبطل لقول المعطلة الردّ على المشركين إلاَّ ببيان آخر. والقرآن يذكر فيه الردّ على المعطلة تارة ، كالردّ على فرعون وأمثاله ، ويذكر فيه الرد على المشركين ، وهذا أكثر ، لأن القرآن شفاء لما في الصدور، ومرض الإشراك أكثر في الناس من مرض التعطيل"[4] .

وشيخ الإسلام –رحمه الله- عقد مقارنة بين التعطيل والشرك من عدة أوجه:

1- المقارنة بينهما من جهة الأكثر.

---

[1] "درء التعارض" (10/289).

[2] انظر"مجموع الفتاوى" (27/284).

[3] " منهاج السنة " (3/292).

[4] "مجموع الفتاوى" (6/83).

فبيَّن –رحمه الله- أن الشرك أكثر من التعطيل .
قال –رحمه الله- : "والشرك في العالم أكثر من التعطيل... ومرض الإشراك أكثر في الناس من مرض التعطيل"[1] .

2- المقارنة بينهما من جهة الأعظم منهما والأشرّ والأسوأ حالاً.

حيث بيَّن أن التعطيل أعظم من الشرك ،وأشر ، وأسوأ حالاً.
قال –رحمه الله- : "ومن لم يعبد الله فإنه فاسد هالك، والله لا يغفر أن يشرك به فيُعبد معه غيره، فكيف بمن عطّل عبادته فلم يعبده ألبته كفرعون وأمثاله؟! وقد قال تعالى : ﭽﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﭼ[2] والتعطيل ليس دون الشرك بل أعظم منه . فالمستكبرون عن عبادته أعظم جرماً من الذين يعبدونه ويعبدون معه غيره، وهو لا يغفر لهم ، فأولئك أولى "[3] .
وقال –رحمه الله- : "ولا ريب أن المعطلة شرّ من المشركين"[4] .
وقال : "ومن لم يشرك به ولم يعبده فهو معطل عن عبادته وعبادة غيره كفرعون وأمثاله ، فهو أسوأ حالاً من المشرك"[5] .

3- المقارنة بينهما من جهة العامّ منهما والخاص :

قال : "الذي في الحديث إن الشياطين أمرتهم أن يشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً[6] ، وهذا المرض العامّ في أكثر بني آدم وهو الشرك كما قال تعالى : ﭽﭢﭣﭤﭥ

---

[1] "مجموع الفتاوى" (6/83).
[2] سورة النساء ، الآية (48) .
[3] "منهاج السنة" (5/393).
[4] "درء التعارض" (7/73) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (13/164).
[5] "مجموع الفتاوى" (14/477).
[6] سبق تخريجه ص (261) .

ﭪ ﭫ ﭬ [1] وأما التعطيل فهو مرض خاص لا يكـاد يقـع إلاّ عن عنــاد كمــا وقــع لفرعــون ، وليس في الحــديث أن الشياطين سوّلت لهم الاستغناء عن الصانع ، فـإن هـذا لا يقــع إلاَّ خاصــاً لبعض النــاس ، أو لكثــير منهم في بعض الأحوال ، وهو جنس السفسطة ، بل هو شر السفسطة ، والسفسطة لا تكون عامة لعـدد كثـير دائمـاً ، بـل تعـرض لبعض الناس أو لكثير منهم في بعض الأشياء"[2] .

4- المقارنة بينهما من جهـة من يكـثر فيهم التعطيــل ومن يكــثر فيهم الإشــراك من معطلة صفة العلو لله تعالى .

قال –رحمه الله- : "وهكذا كان السلف يقولون عن قــول الجهمية ، إنهم لما قالوا إن الله ليس على العرش وأنه لا يكون في مكان دون مكان : صاروا تارة يقولـون إنــه في كل مكـان ، ويقـول من يقـول منهم إنـه موجـود لا نهايـة لذاتــه ، فيجعلونــه من الموجــودات المخلوقــة . أو نفس وجودها ، وتارة يقولـون ليس في مكـان أصـلاً، ولا داخـل العـالم ولا خارجـه فيجعلونـه كالمعـدومات ، فهم دائمـاً مــترددون بين الإشــراك وبين التعطيــل : إمــا يجعلونــه كالمخلوقات ، وإما أن يجعلوه كالمعدومات ، فالأول يكثر في عبــادهم ومتصــوفتهم ، والثــاني يكــثر في علمــائهم ومتكلمتهم . ولهذا لما كان صـاحب الفصـوص (وهـو ابن عـــربي) ونحـــوه من القســـم الأول جعلـــوه نفس الموجـودات ، وجـوزوا كـل شـرك في العـالم ، وجعلـوه نفس العابــد والمعبــود والنــاكح والمنكــوح ، والشــاتم والمشتوم ، وقالوا ما عبد أحدٌ إلا الله ، ولا يمكن أحـد أن يعبـد إلاَّ اللـه ، بـل لا يتصـور أن يكـون العابـد والمعبـود عندهم إلاّ الله ، ولما كان صاحب التأسيس (وهو الرازي) ونحوه من القسم الثاني جعلوه كالمعدومات المحضة ، ولهذا يقال فيهم : متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، وهـذا

---

[1] سورة يوسف ، الآية (106) .

[2] "درء التعارض" (3/133).

هو نهاية التعطيل . ومتصوفتهم يعبدون كل شـيء ، وهـذا نهاية الإشراك"[1] .

المطلب الرابع : توضيح كون الشرك والتعطيل لازمين لكل من أثبت فاعلاً مستقلاً غير الله .

قرّر شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- هـذا الأصـل وهـو : "أن الشرك والتعطيل لازمان لكل من أثبت فاعلاً مستقلاً غير الله" .

ووضّحه بذكر مثالين :

الأول :

أن القدرية أثبتوا فاعلاً مستقلاً غير الله فقالوا : إن العبــد يخلق فعله . فلزمهم بهذا القول التعطيل والشرك .

أما التعطيل :

فبإخراجهم أفعال العباد عن خلق الله .

وأما الشرك :

فبإثباتهم شركاء لله يفعلونها ، وهم العباد أنفسهم .

الثاني:

الفلاسفة أيضاً أثبتوا فاعلاً مسـتقلاً غـير اللـه فقـالوا : إن الفلــك هــو المحــدث للحــوادث الــتي في الأرض كلّهــا . فلزمهم بهذا القول التعطيل والشرك .

أمّا التعطيل:

فلأنهم لم يجعلوا لله شيئاً أحدثه .

وأما الشرك :

فلأنهم قـالوا إن الفلـك هـو المحـدث للحـوادث الـتي في الأرض كلِّها .

قــال شــيخ الإســلام –رحمــه اللــه- مقــرِّرا لهــذا الأصــل وموضحاً له : " قول القدرية يتضمن الإشراك والتعطيل ، فإنه يتضمن إخراج بعض الحوادث عن أن يكون لها فاعل ، ويتضمن إثبات فاعل مستقل غير الله . وهاتان شـعبتان من شــعب الكفــر ، فــإن أصــل كــل كفــر التعطيــل أو الشرك . وبيان ذلك :

---

[1](?) "بيان تلبيس الجهمية" (3/783-784).

أنهم يقولون : إن الإنسان صار مريداً فاعلاً بإرادته بعد أن لم يكن كـذلك بـدون محـدث أحـدث ذلـك ، فإنـه لم يكن مريداً للفعل ولا فاعلاً له ثم صار مريداً للفعل فـاعلاً لـه . وهذا الأمر حادث بعد أن لم يكن , وهو عنـدهم حـادث بلا إحداث أحد ، وهذا أصـل التعطيـل ، فمن جـوَّز أن يحـدث حـادث بلا إحـداث أحـد ، وأن يـترجّح وجـود الممكن على عدمـــه بلا مـــرجّح ، وأن يتخصـــص أحـــد المتمـــاثلين بلا مخصص، كان هـذا تعطيلاً لجنس الحـوادث ، والممكنـات أن يكون لها فاعل ، والله فاعلها بلا شك ، فهو تعطيل له أن يكون خالقاً لمخلوقاته .

وأما الشرك :

فلأنهم يقولون : العبد مستقل بإحداث هذا الفعل من غير أن يكون اللـه جعلـه محـدثاً لـه ، كـأعوان الملـوك الـذين يفعلون أفعالاً بدون أن يكون الملوك جعلتهم فاعلين لها ، وهذا إثبات شركاء مع الله يخلقون كبعض مخلوقاته.

وهـذان المحـذوران : التعطيـل والإشـراك في الربوبيـة لازمان لكل من أثبت فاعلاً مسـتقلاً غـير اللـه كالفلاسـفة الذين يقولون : إن الفلك يتحرك حركة اختياريـة ، بسـببها تحدث الحوادث من غير أن يكون قد حدث من جهـة اللـه ما يوجب حركته ، ولا كان فوقه متجـدد يقتضـي حركتـه ، وذلـك لأن حركـة الفلـك حينئـذ باختيـاره تكـون كحركـة الإنسان باختيـاره" [1] وردّ –رحمه الله- هـذا القـول وبيَّن فسـاده ، ثم بيَّن التعطيـل والشـرك في قـولهم ، وأنـه أعظم بكثير من شرك القدرية وتعطيلهم فقال : "وشرك هـؤلاء المتفلسـفة وتعطيلهم أعظم بكثـير من شـرك القدرية وتعطيلهم ، فإن هؤلاء يجعلون الفلك هو المحدث للحـوادث الـتي في الأرض كلهـا ، فلم يجعلـوا للـه شـيئاً أحدثه ، بخلاف القدرية ، فإنهم أخرجوا عن إحداثه أفعـال الحيوان وما تولّد عنهـا. فقـد لـزمهم التعطيـل من إثبـات

---

[1](?) "منهاج السنة" (279-3/278)

حوادث بلا محدث ، وتعطيل الربّ عن إحـداث شـيء من الحوادث ، وإثبات شريك فعل جميع الحوادث"[1] .

وبيَّن –رحمه الله- أن المـراد بالشـرك هنـا : الشـرك في الربوبيـة فقـال : والشـرك نوعـان : أحـدهما : شـرك في الربوبية ، والثاني : شـرك في الألهيـة . فأمّـا الأول فهـو: إثبات فاعل مستقل غير الله كمن يجعل الحيوان مستقلاً بإحداث فعله ، ويجعل الكواكب أو الأجسام الطبيعيـة ، أو العقول ، أو النفوس ، أو الملائكة ، أو غـير ذلـك مسـتقلاً بشــيء من الإحــداث ، فهــؤلاء حقيقــة قــولهم تعطيــل الحوادث عن الفاعل ، فإن كلّ ما يذكرونه من فعل هــذه الفاعلات أمر حـادث يفتقـر إلى محـدث يتم بـه إحداثـه ، وأمر ممكن لا بدّ له من واجب يتم بـه وجـوده ، وكـل مـا سوى الخالق القديم الـواجب الوجـود بنفسـه مفتقـر إلى غيره ، فلا يتم به حدوث حادث ولا وجود ممكن"[2] .

وقال أيضاً: "فمن جعل أفعال العباد مع الله بمنزلة أفعال نوّاب السلطان معه ، فهذا صـريح الشـرك الـذي لم يكن يرتضــيه عبَّاد الأصــنام ؛ لأنــه شــرك في الربوبيــة لا في الألوهية ، فإن عبّاد الأصنام كانوا يعـترفون بأنهـا مملوكـة لله ، فيقولون : "لبيك لا شريك لـك – إلاَّ شـريكاً هولـك ، تملكه وما ملـك" وهـؤلاء لا يجعلـون مـا يملكـه العبـد من أفعاله ملكاً لله " .[3]

المبحث الثالث : من لم يوفِّ توحيد الربوبية حقه فمن باب أولى أن لا يوفّيَ الألوهية حقها .

[1] "المصدر السابق " (3/282).
[2] "درء التعارض" (7/390-391) .
[3] "منهاج السنة " (3/277).

قرَّر شيخ الإسلام –رحمه الله- هذا الأصل عند بيانه أن متكلمة الإثبات الذين يثبتون القدر خير في التوحيد وإثبات الصفات من القدرية من المعتزلة وغيرهم فقد قال –رحمه الله- : "ومتكلمة أهل الإثبات الذين يقرّون بالقدر هم خير في التوحيد وإثبات صفات الكمال من القدرية من المعتزلة والشيعة[1] وغيرهم ؛ لأن أهل الإثبات يثبتون لله كمال القدرة وكمال المشيئة وكمال الخلق، وأنه منفرد بذلك ، فيقولون : إنه وحده خالق كل شيء من الأعيان والأعراض ، ولهذا جعلوا أخصّ وصف الرب القدرة على الاختراع ، والتحقيق أن القدرة على الاختراع من جملة خصائصه ، وليست هي وحدها أخص صفاته . وألئك يخرجون أفعال الحيوان عن أن تكون مخلوقة له ، وحقيقة قولهم : تعطيل هذه الحوادث عن خالق لها ، وإثبات شركاء لله يفعلونها ، وكثير من متأخرة

---

[1] الشيعة: قيل لهم ذلك لأنهم شايعوا علياً ، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ، وهم ثلاثة أصناف : الغالية سمّوا بذلك ؛لأنهم غلوا في علي وقالوا فيه قولاً عظيما ، وهم فرق متعددة ، منهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ ، كان يزعم أن علياً هو الله تعالى ، وقد أحرق علي منهم جماعة. والصنف الثاني: الرافضة ، سمّوا بذلك لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر ، وهم أيضاً فرق متعددة . والصنف الثالث : الزيدية ، سمّوا بذلك لتمسكهم بقول زيد بن علي بن الحسين ، وهم أيضاً فرق متعددة ، والإمامة عند الشيعة قضية أصولية ، وهي ركن لا يجوز للرسول إغفاله وإهماله. ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص ، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً في الكبائر والصغائر ، والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً وعقداً لا في حال التقية ، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك ولهم في تعدية الإمام كلام وخلاف كثير، وعند كل تعدية وتوقف مقالة ، ومذهب وخبط . وفرقهم بعضهم يميل في الأصول إلى التشبيه ، وبعضهم إلى الاعتزال ، وبعضهم إلى السنة . انظر "مقالات الإسلاميين" (1/65-66، 86، 88-89، 136) ، و"الملل والنحل " (1/144-145) و "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" ص (71).

القدرية يقولون: إن العبادَ خالقون لها ، ولم يكن سـلفهم يجترئون على ذلك. وأيضاً : فمتكلمة أهل الإثبـات يثبتـون لله صفات الكمال : كالحياة ، والعلم ، والقـدرة ، والكلام ، والسمع ، والبصر. وهؤلاء يثبتون ذلك ، لكن قصّـروا في بعض صـفات الكمـال ، وقصّـروا في التوحيد ، فظنـوا أن كمال التوحيد هو توحيد الربوبية ، ولم يصـعدوا إلى توحيد الإلهية ، الـذي جـاءت به الـرسل ونـزلت به الكتب وذلك أن كثـــيراً من كلامهم أخـــذوه من كلام المعتزلة ، والمعتزلة مقصّـرون في هـذا البـاب ، فـإنهم لم يوفـوا توحيد الربوبية حقه ، فكيف بتوحيد الإلهية"[1] .

فشيخ الإسلام –رحمه الله- يقرّر هذا الأصل ، ويضـرب له مثالاً بالمعتزلة.

فإنهم لم يوفّوا الرّبوبية حقِّها ، وذلك لأنهم أخرجوا أفعـال الحيوان عن أن تكون مخلوقة لله فعطّلوا هـذه الحـوادث عن خـالق لهـا، وأثبتـوا شـركاء لله يفعلونها ، فهم يـرون أنهم مسـتقلون بأفعـالهم ، وأن مشـيئتهم مسـتقلة عن مشيئة الله ، وأنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه .

فإذا لم يوفّوا توحيد الربوبية حقّه .

فمن بـاب أولى أن لا يوفّـوا الألوهية حقِّها . ولهـذا فـإنهم سـوف يعطّلـون عبـادة التوكل والاسـتعانة على الله ، والشـكر لله على فعل الطاعـات؛ لأنهم يعتقـدون أنهم مستقلون بفعلهم ، فمن لم يسلم من الخلل في الربوبية فمن باب أولى أن لا يسلم من ذلك في الألوهية.

قـال ابن القيم –رحمه اللـه- : "وحقيقة الأمر أن التوكل حالٌ مركبة من مجمـوع أمـور لا تتمّ حقيقة التوكل إلاّ بها ، وكلٌّ أشار إلى واحد من هذه الأمـور أو اثـنين أو أكـثر ، فـأولّ ذلك : معرفـةٌ بـالربّ وصـفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصـدورها عن مشـيئته وقدرته . وهـــذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل . قال شيخنا –رضي الله عنـه- : ولـذلك

---

[1] "منهاج السنة" (295-3/239).

لا يصـحّ التوكل ولا يُتصـور من فيلسـوف، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه كون في ملكه ما لا يشاؤه ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفـاة لصـفات الـرب –جـلّ جلالـه- ولا يسـتقيم التوكل إلاّ من أهل الإثبـات ، فـأيّ تـوكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العـالم سـفليّة وعلويّة ، ولا هو فاعلٌ باختياره ، ولا له إرادة ولا مشـيئة ، ولا تقـوم به صـفة ؟! فكل من كـان بالله وصـفاته أعلم وأعـرف كـان توكّله أصح وأقوى "[1] .

وقال –رحمه اللـه- في معـرض حديثه عن مشـاهد الخلق في المعصية : "المشـهد الرابع : مشـهد القدرية النفـاة : يشهدون أن هذه الجنايات والـذنوب هم الـذين أحـدثوها ، وأنها واقعةٌ بمشـيئتهم دون مشـيئة الله تعـالى ، وأن الله لم يقدّر ذلك عليهم ولم يكتبه ولا شاءه ولا خلق أفعالهم، وأنه لا يقدر أن يهدي أحداً ولا يضله إلاّ بمجرد البيـان ، لا أن يلهمه الهدى والضـلال والفجـور والتقـوى فيجعل ذلك في قلبه . ويشهدون أنه يكون في ملك الله ما لا يشـاء ، وأنه يشاء ما لا يكون ، وأن العباد خالقون لأفعالهم بـدون مشـيئة الله ، فالمعاصي والـذنوب خلقهم ومـوجب مشـيئتهم ، لاأنها خلق الله ، ولا تتعلّق بمشـيئته . وهم لـذلك مبخوسو الحظ جـداً من الاسـتعانة بالله تعـالى ، والتوكل عليه ، والاعتصام به ، وسـؤاله أن يهـديهم ، وأن يثبِّت قلـوبهم ، وأن لا يزيغها ، وأن يـوفِّقهم لمرضـاته ويُجنِّبهم معصـيته ، إذ هـذا كلّه واقع بهم وعين أفعـالهم ، ولا يدخل تحت مشيئة الرب تعالى شيء منه"[2] .

ومما يبيّن هذا الأصل:

أن ابن القيم -رحمه الله – اعتبر القدرية الـذين لم يوفّـوا الربوبية حقها بنفيهم لمرتبتي الخلق والمشيئة من مراتب القـدر ، اعتـبرهم من أهل الإشـراك بالله في الربوبية والألوهية.

---

[1] "مدارج السالكين" (2/145-146).

[2] "المصدر السابق" (1/486)، وانظر (1/145).

قـال –رحمه اللـه- عند بيانه لتضـمن سـورة الفاتحة الـرد على القدرية : "ثم المثبتون للخالق -تعالى- نوعــان: أهل توحيد ، وأهل إشراك . وأهل الإشراك نوعان :
أحدهما : أهل إشـراك به في ربوبيته وإلهيته . كـالمجوس ومن ضـاهاهم من القدرية ، فـإنهم يثبتـون مع الله خالقـاً آخر ، وإن لم يقولـــــوا : إنه مكـــــــافئ له ، والقدرية المجوسية تثبت مع الله خـالقين للأفعال ، ليست أفعالهم مقدورةً لله ولا مخلوقة له ، وهي صـادرة بغـير مشـيئته ، ولا قدرة له عليها ، ولا هو الذي جعل أربابها فـاعلين لها ، بل هم الـذين جعلـوا أنفسـهم شـائين مريـدين فـاعلين!! فربوبية العــالم الكاملة المطلقة الشــاملة تبطل أقـــوال هـــــــؤلاء كلهم ؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الـذوات والصـفات والحركـات والأفعـال . وحقيقة قـول القدرية المجوسية أنه تعالى ليس رباً لأفعال الحيـوان ولا تناولتها ربوبيته ، إذ كيف تتنــاول ما لا يــدخل تحت قدرته ومشـيئته وخلقـه؟! . مع أن في عمـوم حمـده ما يقتضي حمـده على طاعـات خلقه ، إذ هو المعين عليها والموفّق لها، وهو الذي شاءها منها ، كما قـال في غـير موضع من كتابه : ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﭼ[1] ، فهو محمود على أن شاءها منهم فجعلهم فاعليها بقدرته ومشيئته ، فهو المحمود عليها في الحقيقة . وعنــدهم : أنهم هم المحمـــودون عليها ، فلهم الحمد على فعلها ، وليس لله حمد على نفس فاعليتها عنـــــدهم ، ولاعلى ثوابه وجزائه عليها . أما الأول؛ فلأن فاعليتها بهم لا به ، وأما الثـــاني ؛ فلأنَّ الجــزاء مســتحق عليه استحقاق الأجرة على المستـأجر ، فهو محض حقّهم الذي عاوضوه عليه . وفي قوله : ﭽﭢﭣﭤﭥﭼ[2] ردّ ظاهر عليهم ؛ إذ استعانتهم به إنما تكـون على شـيء هو بيـده وتحت قدرته ومشـيئته ، فكيف يسـتعين من بيـده الفعل وهو موجود ، إن شـاء أوجـده وإن شـاء لم يوجـده ، بمن

---

[1] سورة الإنسان ، الآية (30).
[2] سورة الفاتحة ، الآية (5).

ليس ذلك الفعل بيـــــده ولا هو داخل تحت تصـــــرّفه ولا مشيئته؟ ..." [1] .

فكونهم من أهل الإشـراك بالربوبية ظـاهر ، وكـونهم من أهل الإشـراك في الألوهية فلأنهم عطلـوا عبـادة الحمد ، وحمدوا أنفسهم من دون الله تعالى .

ومن الأمثلة التي تبيّن هذا الأصل :

- أن فرعــون لما أنكر ربوبية الله -تعــالى- لم يــوفِّ الألوهية حقها ، فإنه لم يعبد الله ألبته؛ إذ كيف يعبده وهو ينكره أصلاً.
- والاتحادية لما قالوا باتحاد الخـالق بـالمخلوق فضّـلوا بـــذلك في توحيد الربوبية لم يوفّــوا الألوهية حقها ، فعبدوا كلَّ شيء ؛ لأنهم يرون أن كل موجود هو الله

وأيضاً:

فــإن من لبس الحلقة أو الخيط ونحوها معتقــداً أنها هي بنفســها الرافعة للبلاء قبل نزوله أو الرافعة له بعد نزوله فإنه لن يعلِّق قلبه بالله طمعاً ورجاء لنفعه ؛ لأنه لم يوفّ الربوبية حقها حيث إنه اعتقد شــريكاً مع الله في الخلق والتدبير فأشرك في الربوبية ، فمن باب أولى أن لا يوفي الألوهية حقها ولهذا فإن اعتقـاده ذلك شـرك في الربوبية والألوهية .

قال الشيخ السـعدي[2] –رحمه اللـه- : "فمن لبس الحلقة أو الخيط أو نحوهما قاصداً بذلك رفع البلاء بعد نزوله ، أو دفعه قبل نزوله فقد أشــــــرك ؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهــذا الشــرك الأكــبر . وهو شــرك في

---

[1] "مدارج السالكين" (1/127-128).

[2] عبد الــرحمن بن ناصر بن عبد الله السـعدي ، مفسر ، من علماء نجد ، مولده ووفاته في عنيزة ولد سـنة (1307)هــ ، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها ســنة (1358)هـــ ، له نحو (30) كتابــاً منها "الوســائل المفيــدة للحيــاة الســعيدة" و "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الدين" و "التوضـيح والبيـان لشـجرة الإيمان" ، توفي سنة (1376)هـ ، انظر "الأعلام" (3/340).

الربوبية حيث اعتقد شـريكاً مع الله في الخلق والتـدبير . وشرك في العبودية حيث تألّه لذلك وعلّق به قلبه طمعـاً ورجاء لنفعه ، وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده ، ولكن اعتقـدها سـبباً يسـتدفع بها البلاء فقد جعل ما ليس سبباً شرعياً ولا قـدرياً سـبباً ، وهـذا محـرّم وكـذب على الشرع وعلى القدر"[1] .

وأيضاً:

فـإن من أضـاف نعمة الخـالق إلى غـيره على أنه الفاعل من دون الله فإنه لن يقم بواجب الشكر لله تعـالى ؛ لأنه لم يوفِّ الربوبية حقها – حيث إنه أضـاف النعمة إلى غـير الله على أنه الفاعل – فمن بـــاب أولى أن لا يـــوفى الألوهية حقها .

ولهـــذا فـــإن اعتقـــاد ذلك خلل بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية قال الشيخ ابن عـثيمين عند شــرحه لبـاب قـول الله تعالى : ﭽﮑﮒﮓﮔﮕﭼ[2] من كتاب التوحيد : "مناسبة هذا الباب للتوحيد: أن من أضاف نعمة الخـالق إلى غـيره فقـد جعـل معـه شـريكاً في الربوبيـة ؛ لأنـه أضـافها إلى السبب على أنه فاعل هذا من وجه ، ومن وجـه آخـر أنـه لم يقم بالشـكر الـذي هـو عبـادة من العبـادات ، وتـرك الشـكر منـافٍ للتوحيـد ؛ لأن الـواجب أن يشـكر الخـالق المنعم –سـبحانه وتعـالى- ، فصـارت لـه صـلة بتوحيـد الربوبية وبتوحيد العبادة ، فمن حيث إضافتها إلى السـبب على أنــه فاعـل هـذا إخلال بتوحيـد الربوبيـة ، ومن حيث ترك القيام بالشـكر الـذي هـو العبـادة هـذا إخلال بتوحيـد الألوهية" .[3]

---

[1] "القول السديد" ص (43).

[2] سورة النحل ، الآية (83).

[3] "القول المفيد" (2/312).

المبحث الرابع: لم يجعل الله أحداً من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيء من الربوبية والألوهية بل غاية ما يكون العبد سبباً .

بيَّن شيخ الإسلام أن الواسطة بيننا وبين الله يُراد بها عدة أمور:

الأول:

يراد بذلك الواسطة التي تبلغنا أمر الله . فهذا حق ، فـإن الخلق لا يعلمــون ما يحبّه الله ويرضــاه ، وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعــــدّه لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعـداءه من عذابه ، ولا يعرفـون ما يسـتحقه الله تعـالى أسمائه الحسنى ، وصفاته العلى الـتي تعجز العقـول عن معرفتها وأمثال ذلك إلاَّ بالرسل ، الذين أرسلهم الله إلى عباده .

وهـذا مما أجمع عليه أهل الملل من المسـلمين واليهـود والنصارى ، فإنهم يثبتون الوسـائط بين الله وبين عبـاده ، وهم الرسل الذين بلّغوا عن الله أمره وخبره . ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل.

الثاني:

ويـراد بـذلك الواسـطة في جلب المنـافع ودفع المضـار ، مثل : أن يكـون واسـطة في رزق العبـاد ، ونصـرهم ، وهـداهم ، يسـألونه ذلك ويرجـون إليه فيه : فهـذا من أعظم الشرك الذي كفّر الله به المشركين ، حيث اتخذوا

من دون الله أوليـــاء وشـــفعاء يجتلبـــون بهم المنـــافع ويجتنبون المضار .
ومن جعل أحـــــداً من الخلق من الملائكة أو الأنبيـــاء أو غـيرهم وسـائط يـدعوهم ويتوكل عليهم ، ويسـألهم جلب المنافع ودفع المضار ، مثل أن يسألهم غفـران الـذنوب ، وهداية القلوب ، وتفريج الكـروب ، وسـدّ الفاقـات : فهو كافر بإجماع المسلمين.
الثالث:
إثبات وسائط من مشايخ العلم والدين يراد به أمران :
1) أنهم وسائـط بين الرسـول وأمته ، يبلغـونهم ، ويعلمونهم ، ويؤدبونهم ويقتدون بهم , فهذا حق.
وهـؤلاء العلمـاء إذا أجمعـوا فإجمـاعهم حجة قاطعة ، لا يجتمعون على ضـلالة ، وإن تنـازعوا في شـيء ردّوه إلى الله والرســـول ؛ إذ الواحد منهم ليس بمعصـــوم على الإطلاق ، بل كل أحد من النــاس يؤخذ من كلامه ويــترك إلاّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم-.
2) أنهم وســائط بين الله وبين خلقه – كالحجــاب الـذين بين الملك ورعيتـه- بحيث يكونـون هم الـذين يرفعـــون إلى الله حـــوائج خلقه ، فالله إنما يهـــدي عباده ويرزقهم بتوسطهم ، فالخلق يسألونهم ، وهم يســـألون الله ، كما أن الوســـائط عند الملـــوك : يسـألون الملـوك الحـوائج للنـاس ؛ لقـربهم منهم ، والنـاس يسـألونهم ؛ أدبـاً منهم أن يباشـروا سـؤال الملك ؛ أو لأن طلبهم من الوســـــائط أنفع لهم من طلبهم من الملك ؛ لكـــونهم أقـــرب إلى الملك من الطـالب للحـوائج . فمن أثبتهم وسـائط على هـذا الوجه فهو كـافر مشـرك ، يجب أن يسـتتاب ، فـإن تاب وإلاّ قتل[1] .

---

[1] انظر "مجمـوع الفتـاوى" (1/121-126) بتصـرف يسـير . وللتوسع حول تقرير أن الأنبياء وسائط في تبليغ الرسالة وليسوا وســائط في الربوبية والألوهية ، انظر : "مجمــوع الفتــاوى" (27/279-280)ـ ، و "الــردّ على المنطقــيين" (2/256)ـ ، و

إذ تقرّر ذلك:
فإن المراد بالواسطة في هذا الأصل وهو :
(أن الله لم يجعل أحداً من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيء من الربوبية والألوهية) :
المعنى الثاني من الواسطة
والفقرة الثانية من المعنى الثالث
وقوله : "بل غاية ما يكون العبد سبباً ":
من ذلك الأنبياء فإنهم أسباب في تبليغ أمر الله ونهيه ووعده ووعيده . قال شيخ الإسلام : "فإن العباد إنما يحتاجون إلى الوسائط في تبليغ أمر الله ونهيه وخبره ، وهو سبحانه قد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وأما وجود الأعمال منهم والثواب على الأعمال فالله خالق ذلك ، لا يحتاج فيه إلى رسول ، لكنه قد خلقه بأسباب وهو يخلق الأسباب ، فالرسل ليسوا أسباباً في خلق ذلك ، وإنما هم أسباب في تبليغ الرسالة "[1] .
بل إن الإيمان بذلك هو من الإيمان بالرسول . قال شيخ الإسلام : "ومن الإيمان به (أي الرسول –صلى الله عليه وسلم-) الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحلاله وحرامه ، فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرّمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله –صلى الله عليه وسلم- ، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد –صلى الله عليه وسلم- فهو كافر من أولياء الشيطان . وأمّا خلق الله تعالى – للخلق ، ورزقه إياهم وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع

"الاستغاثة" (2/476-478) ، و "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة"ص (138، 180-181) ، و "جامع المسائل" (2/78-79).

[1](?) "جامع المسائل" (4/288).

المضار فهذا لله وحـده يفعله بما يشـاء من الأسـباب ، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل "[1] .
وقد بيَّن شـيخ الإسـلام أوجهـاً أخـرى لكـون بعض العبـاد أسباباً من ذلك :
- أنهم أسباب بالدعاء والشفاعة .
قال –رحمه الله-: "والله –سبحانه- لم يجعل له أحـداً من الأنبيـــاء والمؤمـــنين واســـطة في شـــيء من الربوبية والألوهية ، مثل ما ينفــرد به من الخلق والــرزق ، وإجابة الدعاء والنصر على الأعداء ، وقضـاء الحاجـات ، وتفـريج الكربات ، بل غاية ما يكون العبد سبباً : مثل أن يــدعو أو يشفع "[2] .
أما الشفاعة :
فإنـه-رحمه اللـه- بعد كلامه السـابق ذكر بعض النصـوص الواردة في الشفاعة وذكر أقـوال النـاس في الشـفاعة ، وذكر منها قـــول أهل الســـنة والجماعة في ذلك ، وهي الشـفاعة الـتي أرادها هنا قـال : "والقسم الثـالث : هم أهل الســـنة والجماعة ، وهم ســـلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحســـان ، أثبتـــوا ما أثبته الله في كتابه ، وســـنة رسـوله –صـلى الله عليه وسـلم –ونفـوا ما نفـاه الله في كتابه وســنة رســوله. فالشــفاعة الــتي أثبتوها هي الــتي جــاءت بها الأحــاديث ، كشــفاعة نبينا محمد –صــلى الله عليه وسلم- يوم القيامة، إذا جاء الناس إلى آدم ، ثم نوح ، ثم إبـــــراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم يأتونه عليه السلام ، قال : "فأذهب إلى ربي ، فإذا رأيت ربي خررت له ســـاجداً ، فأحمد ربي بمحامد يفتحها عليّ ، لأحسنهـا الآن، فيقول: أي محمد! ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، واشــفع تشــفع [3] فهو يــأتي ربه ســبحانه ، فيبــدأ بالسجود والثناء عليه ، فـإذا أذن له في الشـفاعة شـفع ،

---

[1] "مجموع الفتاوى" (11/170-171).
[2] "المصدر السابق" (24/340).
[3] أخرجه البخـاري في صـحيحه ح (4712)ـ ، ومسـلم في صحيحه ح (479-480).

بـأبي هو وأمي –صـلى الله عليه وسـلم-. وأما الشـفاعة التي نفاها القـرآن: كما عليه المشـركون والنصـارى ومن ضـاهاهم من هـذه الأمة ، فينفيها أهل العلم والإيمـان ، مثل أنهم يطلبـون من الأنبيـاء والصـالحين الغـائبين والميتين قضاء حوائجهم ويقولون : إنهم عند الله -تعالى- كخواص الملوك عند الملوك ، يشفعون بغير إذن الملـوك ، ولهم على الملـوك إدلال يقضـون به حـوائجهم ، فيجعلـونهم لله -تعـالى- بمنزلة شـركاء الملك ، وبمنزلة أولاده . والله -تعـالى- قد نـزّه نفسه المقدسة عن ذلك كما قال تعالى: ﴿ﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗ﴾[1] ولهذا قال النبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم - : "لا تطـروني كمـا أطرت النصارى ابن مريم ، فإنمـا أنـا عبـد ، فقولـوا عبـد الله ورسوله"[2] "[3] .

وأما الدعاء :

فقد وضَّـحه في مواضع أخـرى مع ذكـره لأسـباب أخـرى أيضاً: كالعبادة والاستغاثة.

قال –رحمه اللـه- : "ولفظ الغـوث[4] والقطب [5] في حق البشر لم ينطق به كتـاب ولا سـنة ، ولا تكلّم به أحـدٌ من

---

[1] سورة الإسراء ، الآية (111).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ح (3445)، وأخرج مسـلم في صـحيحه قـول النـبي –صـلى الله عليه وسـلم- "أنا عبد الله ورسوله" ح (3557) وليس فيه " لاتطروني ... " .

[3] "مجموع الفتاوى" (24/341-343).

[4] الغـوث عند الصـوفية هو : القطب حين ما يلتجأ إليه ، ولا يسـمّى في غـير ذلك الـوقت غوثـاً . انظر "اصـطلاحات الصوفية"ص (167).

[5] القطب عند الصوفية هـو: الواحد الـذي هو موضع نظر الله تعالى من العـالم في كل زمـان ، وهو على قلب إسـرافيل عليه السلام . انظر "اصطلاحات الصوفية" ص (145).

الصــحابة والتــابعين لهم بإحســان في هــذا المعــنى ، بل غياث المستغيثين على الإطلاق هو الله –تعالى- كما قــال : "ﭽ ﭒ ﭓ ﭔ ﭼ[1]"ولم يجعل الله أحداً من الخلق غوثاً يغيث الخلق في كل ما يســتغيثونه فيه ، لا ملك ولا نــبيّ ولا غيرهما ، بل في الصحيحين أن النبي –صلى الله عليه وســلم- قــال :"لا أُلْفِيَنَّ أحــدكم يــأتي يــوم القيامة على رقبته بغير له رُغَاءُ فيقول : يا رسول الله أغثـني أغثـني ، فـــأقول : لا أملك من الله شـــيئاً ، يا عبـــاس عمِّ قد أبلغتـك"[2] وهـذا كقوله : "يا فاطمة بنت محمد ، لا أُغـني عنكِ من الله شـيئاً ، يا عبـاس عمِّ رسـول الله ، لا أُغـني عنك من الله شيئاً ، يا صـفية عمّة رسـول الله ، لا أُغـني عنكِ من الله شيئاً ، سـلوني ما شـئتم"[3] وهـذا من تأويل قوله : ﭽ ﭼ[4] وقد يكون بعض الناس سبباً لشرّ يندفع في بعض الأمور فيقال : فلان يسـتغيث بفلان ، كمـا قـال تعالى: ﭽ ﭼ[5] هذا كلفظ النصر والرزق والهدى ، فالله هو الهادي النصـير الـرزاق وليس هـذا النعت على الإطلاق لأحدٍ إلاّ وحده ، لا ملكٍ مقـرَّب ولا نـبي مُرسـل . لكن من الخلق من يكون سبباً في رزق أو هـدىً أو نصــر يحصل لغيره ، وهو في ذلك سـبب ، لا يسـتقلّ بـالحكم ، بل لا بُدّ معه من أسباب أُخر، ولا بدّ من موانع يدفعها الله وإلاّ لم يحصل المطلوب ...وأمـا لفـظ "القطب" فمـا دار عليـه أمـر من الأمـور قيـل : إنـه قطبـه، كقطب الرَّحَـا وقطب الفلــك . فمن كـانت مرتبــةٌ من إمـارة أو علم أو دين فهـو قُطُب تلـك الأمـور الـتي دارت عليـه ، فالمَلِـك قطب المُلْك ، والوالي قطب الولاية ونحـو ذلـك . وقُطب

---

[1] سورة الأنفال ، الآية (9).

[2] أخرجه البخــاري في صــحيحه ح (3073)ـ ، ومســلم في صحيحه ح (4734) .

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ح (2753)، ومسلم في صحيحه ح (504).

[4] سورة الشعراء ، الآية (214).

[5] سورة القصص ، الآية (15).

الدين الذي يُؤخذ عنه ولا يُزاحمه أحـد هـو محمـد –صـلى الله عليه وسلم- ومن الصالحين من يُجري الله على يديه من الخـير مـا يكـون قطب أمتـه وأمـا أن يكـون للوجـود قُطب يدور عليـه بـه يـنزل المطـر مطلقـاً ، وبـه يحصـل الهدى مطلقاً ، وبه يحصل النصر مطلقـاً ، فهـذا لا يكـون لمخلوق ألبته ، ولكن قد يكون من المخلوقين من يحصل به ما يحصل من نصر ورزق وهدى كما قال النبي –صـلى اللـــه عليـــه وســـلم- :"وهـــل تنصـــرون وترزقـــون إلاّ بضعفائكم ، بدعائكم وإخلاصهم وصلاتهم"[1] "[2]

وقـال – رحمه الله – : " وقد يكـون في الزمـان رجلٌ هو أفضل أهل الأرض ، كماقد يكـــــون رجلان وثلاثة وأربعة ، ولكن ليس في الوجود رجلٌ هو أفضل أهل الأرض ، وفيه ما يقتضي أنه بوجوده يحصل للنـاس الـرزق ، وينتصـرون على الأعـداء، وتهتـدي قلـوبهم مع كـونهم معرضـين عن طاعة الله ورسـوله ، بل كـان نـوح أفضل أهل الأرض ، وقد مكث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامـاً يـدعوهم إلى الله ، وقد قال نوح : ﭽ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﭼ[3] ثم إن الله أغرق أهل الأرض إلاَّ من آمن به ، وكذلك غيره من الرسل كهـود وصـالح وشـعيب ولوط وغيرهم . نعم قد يحصل
بدعائه وعبادته من الخير وينـدفع من الشـر مـا لا يحصـل بدون ذلك كما في قوله :"بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم"[4] . وقد قال تعالى لنبيه: ﭽ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﭼ[5] وقال

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ح (2896) دون قوله :"بدعائهم وإخلاصـهم وصـلاتهم" ، وأخرجه النسـائي في سـننه ح (3180) بلفظ "إنما ينصر الله هـذه الأمة بضـعيفها، بـدعوتهم وصـلاتهم وإخلاصـهم". وصـححه الألبـاني في "صـحيح سـنن النسـائي" (2/399).

[2] "جامع المسائل" (1/77-79).

[3] سورة نوح ، الآية (5-7).

[4] سبق تخريجه ص (493) .

[5] سورة الأنفال ، الآية (33).

تعالى: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﭼ[1]
يقول: لولا أن تطأوا أولئك المؤمنين والمؤمنات الذين لم تعلمـوهم إذا دخلتم مكـة بالسـيف ، لسـلّطكم على أهـل مكة ، ولو تميَّز المؤمنون من الكفَّار لعذَّبنا الكفـار عـذاباً أليماً ، فهذا ونحوه مما يوافق دين المسلمين ... "[2] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام أن هذه الأسباب لا تسـتقل بـالحكم والمطلوب بل لا بدّ من أسـباب أُخـر ومن دفـع الموانـع ، وقد سبق تفصيل ذلك في مباحث مستقلة[3].

المبحث الخامس : القول بأن عين ما يطلب من الله بطريق التوحيد يطلب من غيره ويضاف إلى غيره بدعوى أنه سبب شرك في الربوبية والألوهية .

قرّر شيخ الإسـلام –رحمه اللـه-هـذا الأصل عند ردّه على البكري[4] وذلك أن البكري ذكر أنه كثيراً ما تنفى الأشـياء عن الخلق في النصـوص الشـرعية إشـارة إلى التوحيد

---

[1] سورة الفتح ، الآية (25).

[2] "جامع المسائل" (2/72-73).

[3] انظر ص (235- 238).

[4] هو أبو الحسن علي بن يعقـوب بن جبريل البكـري الشـافعي المصري ، نور الدين ، الزاهد ، ولد سنة (673) هــ ، قـرأ مسـند الشافعي على وزيرة بنت المنجي . لما دخل ابن تيمية مصر قام عليه وأنكر ما يقوله وآذاه ، وما مثاله إلاَّ مثـال سـاقية ضـعيفة كدرة لا طمت بحـراً عظيمـاً صـافياً، أو رملة أرادت زوال جبل ، وقد أضحك العقلاء عليه ، وتوفي سـنة (724)هــ . انظر "البداية والنهاية" (9/365-366) ، و "شذرات الذهب " (6/220) ، و "الأعلام" (5/32-33).

وانفـراد البـاري بخلقها ، ويثبتها البـاري -تعـالى- لهم في مواضع أخرى اعتباراً بالسـبب والحكمة وذكر لـذلك عـدة أمثلة[1] منها :

1- النصرة .

نفاها الله عن الخلق إشارة إلى التوحيد فقال : ﭽﮕﮖﮗﮘﮙﮚ ﮛﭼ[2]

وأثبتها الله تعالى للخلق اعتباراً بالأسباب فقال : ﭽﮜﮝﮞﮟ ﮠﮡﭼ . وقال –صلى الله عليه وسلم- : "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" [3].

2- الهداية :

نفاها الله تعالى بقوله : ﭽﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﭼ[4]

إشارة إلى التوحيد . وأثبتها الله للخلـق اعتبـاراً بالأسـباب فقال : ﭽﭦﭧﭨﭩﭼ[5].

3- الاستعانة :

قال الله -تعالى- فيها إشارة إلى التوحيد : ﭽﭢﭣﭤﭥﭼ[6]

وأثبتها للخلق اعتباراً بالأسباب فقال : ﭽﯓﯔﯕﭼ[7] وقال : ﭽﯫﯬﯭﯮﭼ[8] وقال –صلى الله عليه وسلم- : "والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[9] .

4- الرمي :

---

[1] كتـاب البكـري الـذي ذكر فيه هـذا الكلام وردّ فيه على ابن تيمية لم يصل إلينا من شـيء سـوى ما ذكـره ابن تيمية عنه في ثنايا كتابه الاسـتغاثة . ذكر ذلك د. عبد الله السـهلي في مقدمة تحقيقه لكتاب "الاستغاثة" (1/81).

[2] سورة الأنفال ، الآية (72).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ح (2443).

[4] سورة القصص ، الآية (56).

[5] سورة الشورى ، الآية (52).

[6] سورة الفاتحة ، الآية (5).

[7] سورة البقرة ، الآية (45).

[8] سورة المائدة ، الآية (2).

[9] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6853).

أثبته الله ونفاه بالاعتبارين السابقين فقال : ﭽﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭼ [1] .
وهذا وأمثاله من الضالين لما جعلوا المنفي عين المثبت ، فيكون ما يضاف إلى الـرب بطريـق التوحيـد يضـاف إلى غـيره بطريـق السـبب قـالوا: إن كـل مـا يطلب من اللـه يطلب من غيره بطريق السبب ، فجعلـوا مـا يضـاف إلى المخلوق يضاف إلى اللـه ، فمفعـولات اللـه كلهـا تضـاف إلى المخلوق ، ومقدورات الرب كلها تطلب من المخلوق ، فأشركوا في الربوبية وفي الألوهية .
قال شيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- : "قولـه (أي البكـري) وكثيراً ما تنفى الأشياء في النصوص الشرعية إشارة إلى التوحيد ويثبتها الباري -سبحانه- في مواضـع أخـر اعتبـاراً بالأسبـاب وإثباتـاً لبسـاط الحكمـة " هـو كلام باطـل فـإن الله -سـبحانه- لا ينفي شـيئاً ويثبتــه ؛ إذ الجمـع بين نفيـه وإثباته تناقض ، وكلام الله منزه عن التنـاقض قـال اللـه -تعالى- : ﭽﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﭼ [2] ولكن المنفي غير المثبت، فالذي ينفيه في موضـع ليس هـو الـذي يثبتـه في موضـع آخر ، ولكن هؤلاء الضـلال يجعلـون المنفي عين المثبت ، فيكون ما يضاف إلى الـرب بطريـق التوحيـد يضـاف إلى غيره بطريق السبب والحكمة ، ولهـذا قـالوا : إن كـل مـا يطلب من الله يطلب من غـيره بهـذا الطريـق. فأشـركوا في ربوبية الله ، وفي دعاء الله وعبادته ، حيث جعلوا مــا يضاف إلى المخلـوق يضـاف إليـه تعـالى ، فصـار حقيقـة قولهم : إن المخلـوق تضـاف إليـه مفعـولات اللـه كلهـا ، ويطلب منـه مقـدورات الـرب كلهـا ؛ لمـا في الخلـق من السبب والحكمة" [3] .
وقــد بيَّن شـيخ الإسـلام خطـأ البكـري فيمـا ذكـره من طريقين :
الأول : ما يتعلق بالأسباب .

---

[1] سورة الأنفال ، الآية (17).
[2] سورة النساء ، الآية (82).
[3] "الاستغاثة" (1/302-303).

والثاني: ما يتعلق بالآيات التي استدل بها.

أما الأول : وهو ما يتعلق بالأسباب. فقد ذكر عدة أوجه تبين خطأه ، من ذلك :

الوجه الأول :

أنه لم يعلم أن السبب يستقل بالتأثير ، بل تأثيره متوقف على سبب آخر وله موانع ، وحينئذ فلا يجوز تخصيصه بالإضافة إليه وإن كان سبباً .

الوجه الثاني:

أنهم أثبتوا أسباباً ما أنزل الله بها من سلطان ، بل إثباتها مخالف للشرع والعقل[1] .

فمن الذين جعل الاستغاثة بالمخلوق ودعاءه سبباً في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، ومن الذي قال : إنك إذا استغثت بميت أو غائب من البشر نبياً كان أو غير نبيّ كان ذلك سبباً في حصول الرزق والنصر والهدى وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلاّ الله ؟ ومن الذي شرع ذلك وأمر به؟ ومن الذي فعل ذلك من الأنبياء والصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين[2] .

ولهذا "فإن هذا المقام يحتاج إلى مقدمتين :

أحدهما : أن هذه أسباب لحصول المطالب التي لا يقدر عليها إلاّ الله.

والثانية : أن هذه الأسباب مشروعة لا يحرم فعلها . فإنه ليس كل ما كان سبباً كونياً يجوز تعاطيه ، فإن قتل المسافر قد يكون سبباً لأخذ ماله، وكلاهما محرم ، والدخول في دين النصارى قد يكون سبباً لمال يعطونه ، وهو محرم ، وشهادة الزور قد تكون سبباً لما يؤخذ من المشهود له ، وهو حرام . وكثير من الفواحش والظلم قد يكون سبباً لنيل مطالب ، وهو محرم . والسحر والكهانة سبب في بعض المطالب ، وهو محرم . كذلك الشرك مثل دعوة الكواكب والشياطين وعبادة البشر قد يكون

---

[1] (?) انظر "المصدر السابق" (1/303).

[2] (?) انظر "الاستغاثة" (1/330).

سبباً لبعض المطالب ، وهو محرم . فإن الله -تعالى- حرّم من الأسباب ماكانت مفسدته راجحة على مصلحته ، وإن كان يحصل به بعض الأغراض أحياناً . وهذا المقام مما يظهر به ضلال هؤلاء المشركين خلقاً وأمراً ، فإنهم مطالبون بالأدلة الشرعية على أن الله شرع لخلقه أن يسألوا ميتاً أو غائباً أو يستغيثوا به ، سواء كان ذلك عند قبره أو لم يكن عند قبره، وهم لا يقدرون على ذلك "[1] .

الثاني : ما يتعلق بالآيات التي استدل بها .

قرّر شيخ الإسلام –رحمه الله- أن الله -سبحانه- لا ينفي ما يثبته ولا يثبت ما نفاه ، وأجاب –رحمه الله- تفصيلاً عن الآيات التي استدل بها البكري في أن الله -سبحانه- ينفي الشيء إشارة إلى التوحيد ويثبته اعتباراً بالأسباب.

أولاً: آيات النصر.

بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن النصر المنفي عن غير الله في قوله تعالى : ﭽﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﭼ [2] لم يثبته الله لغيره . والنصر الذي ذكره الله في قوله : ﭽﮙﮚﮛﮜﮝﮞﭼ [3] ليس هذا هو ذاك فإن النصر المنفي عن غير الله هو النصر المطلق وهو : خلق ما به يغلب العدو ، فهذا لا يقدر عليه إلاَّ الله .

يبين ذلك :

إن الله تعالى قال : ﭽﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﭼ [4] .

وقال تعالى : ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭼ [5] .

فالله -سبحانه- قد أمدَّهم بالملائكة ، ومعلوم أن نصر الملائكة لهم أعظم من النصر الذي أمروا به في قوله :

---

[1] "المصدر السابق" (1/330-331).
[2] سورة آل عمران ، الآية (126).
[3] سورة الأنفال ، الآية (72).
[4] سورة آل عمران ، الآية (124-126).
[5] سورة الأنفال ، الآية (9-10).

ﭽﮕﮖﮗﮘﮙﮚﭼ [1] فإن هؤلاء غاية ما يفعلونه دون ما تفعله الملائكة ، ثم بيّن أنه وإن نزلت الملائكة وقاتلت ، فالنصر لا يحصل بمجـرد هـذا ، إن لم يحـدث اللـه مـا بـه ينتصـر المؤمنون ، وذلك لأن المقاتل من الملائكـة والبشـر غايـة قدرته نفسه ، وأما ما يتولد عن ذلك فهو لا يستقل بـه [2] ، فالملائكـة وإن حضـرت فاللـه تعـالى هـو الـذي يخلـق القدرة فيهم وفي المؤمـنين ، والقـدرة إن حصـلت فاللـه تعالى هو الـذي يخلـق الأسـباب الخارجـة كقبـول الجلـود للجرح ، وحصول الزهوق بعد الجرح [3] .

"فالنصر الذي قال الله -تعالى- فيه : ﭽﮓﮔﮕﮖﮗﮘﭼ [4] لا يقدر عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا يقـدر عليـه إلاّ الله، ليس في الموجودات سبب يحصل بـه هـذا النصـر ، ولا موجب له إلاَّ مشيئة الله ، فما شاء كـان ومـا لم يشـأ لم يكن ، فـإن كـل مـا يكـون لسـبب فلا بـدّ من حصـول سـبب آخـر، ومن رفـع موانـع ، ثم خلـق الأسـباب ورفـع الموانع لابدَّ أن يُحدث هو -سبحانه- ذلك الأثـر بفعـل منـه على أصح قولي الجمهور الذين يقولـون : إن الخلـق غـير المخلوق ... وهذا الفعل الذي هو تكوين الربّ، خـارج عن جميع الأسباب المخلوقة "[5] .

والمخلوق يستنصر به فيما يقدر عليه ، كمـا أنـه يسـتعان به فيما يقدر عليه [6] .

ثانياً: آيات الهداية .

---

[1] سورة الأنفال ، الآية (72).

[2] سبق الكلام عن "المتولدات" وأقوال الناس فيها . ص (440-441) .

[3] انظر "الاستغاثة" (1/300-301، 310-311 ، 313-314) ، و "مجموع الفتاوى" (1/113).

[4] سورة آل عمران ، الآية (126).

[5] "الاستغاثة" (1/314).

[6] انظر "مجموع الفتاوى" (1/113).

بيَّن شيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- أنَّ الهدايـة المنفيـة وفي قوله تعالى : ﭽﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓﭼ [1] في قوله تعالى: ﭽﭧ ﭨ ﭩ ﭪﭼ [2] وذكر –رحمه الله- اتفاق المسلمين على هذا[3] .

قـال –رحمـه اللـه-: "وأمـا الهدايـة الثابتـة فهي الـدعوة والبيان ، وهذا يشترك فيـه من يحبـه ومن لا يحبـه ، فـإن عليه البلاغ المبين ، وقـد بلـغ –صـلى اللـه عليـه وسـلم – البلاغ المـبين ، وقـــال في آخـر عمـره في حجـة الـوداع ""اللهم هل بلغت، قالوا: نعم ، قـال : "اللهم اشهـــد" [4] ونظير هذا قوله تعالى : ﭽ ﯗ ﯘﭼ[5] وقوله : ﭽﭺ ﭻ ﭼ[6] وقال تعالى : ﭽﭿ ﮀ ﮁﭼ[7] ، والهداية هي : الدلالة والإرشاد بكلامه وبعلمه وأمره ونهيه وترغيبه وترهيبه ، وأما حصول الهدى في القلب فهذا لا يقـدر عليـه إلاّ اللـه باتفـاق المسـلمين سنيهم وقدريهم . أما أهل السنة ، فيقولون : إن الاهتـداء الذي في القلـب لا يقدر عليه إلاّ اللـه ، ولكن العبـد يقـدر على أسبابه وهو المطلوب منه بقوله تعالى : ﭽﭢ ﭣ ﭤﭼ[8] وهـو المنفي عن الرسول بقوله : ﭽﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓﭼ[9] وقوله : ﭽﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜﭼ[10] وقوله : ﭽﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉﭼ[11] ..." [12].

---

[1] (?) سورة القصص ، الآية (56).

[2] (?) سورة الشورى ، الآية (52).

[3] (?) انظر "الاستغاثة" (1/318).

[4] (?) أخرجه البخــاري في صـحيحه ح (1741)ـ ، و مسـلم في صحيحه ح (4386).

[5] (?) سورة فصلت ، الآية (17).

[6] (?) سورة التغابن ، الآية (6).

[7] (?) سورة الرعد ، الآية (7).

[8] (?) سورة الفاتحة ، الآية (6).

[9] (?) سورة القصص ، الآية (56).

[10] (?) سورة النحل ، الآية (37).

[11] (?) سورة البقرة ، الآية (273).

[12] (?) "الاستغاثة" (1/318-320)

وبيّن رحمه الله أن الهداية المنفية التي لا يقـدر عليهـا إلاّ الله هي التي يسميها بعضهم بالإلهام[13] .

ثالثاً: آيات الاستعانة .

بيَّن شـيخ الإسـلام أن الاسـتعانة الـتي يختصّ بهـا باللـه -تعالى- لم يثبتها لغيره أبداً، وهي
المشار إليها بقوله تعالى : ﭽﭥﭦﭧﭼ[2] فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلاّ اللـه ، فـإن إعانـة اللـه لعبـده على عبادته تكون بأمور لا يقدر عليهـا غـيره ، مثـل جعـل العلم والهـــدى في القلب ، وجعـــل الإرادة والطلب في القلب ، وخلق القوى الباطنـة والظـاهرة . وبيّن –رحمـه الله- أنه قد يستعان بالمخلوق فيما يقـدر عليـه كمـا قـال تعالى : ﭽﯜﯝﯞﯟﭼ[3][4] .

" وأما قوله تعالى: ﭽﯓﯔﯕﭼ[5] فالمستعان به فعل يفعله العبـد ، والمعـنى اصـبروا وصـلوا فـإن ذلـك يعينكم على المطلوب والأعمال الصالحة بينها تصادق وتلازم كما قـال النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- : "عليكم بالصـدق فـإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنـة ، ولا يـزال الرجـل يصـدق ويتحـرى الصـدق حـتى يكتب عنـد اللـه صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكـذب يهـدي إلى الفجـور ، وإن الفجـور يهـدي إلى النـار ، ولا يـزال الرجـل يكـذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[6] أخرجـاه في الصـحيحين عن ابن مسـعود –رضـي اللـه عنـه-، وهدايـة الصدق مثل إعانة الصبر والصلاة ، وليس ذلك هو ما أثبته الله لنفسه ونفـاه عن غـيره ، سـبحانه وتعـالى أن يكـون

---

[13] انظر "مجموع الفتاوى" (18/172).

[2] سورة الفاتحة ، الآية (5).

[3] سورة المائدة ، الآية (2).

[4] انظر " الاستغاثة " (1/300 ـ 322) ، و"مجموع الفتاوى" (1/ 113) .

[5] سورة البقرة ، الآية (45)

[6] أخرجه البخاري في صحيحه ح (6094) ، ومسلم في صحيحه ح (6639).

تأثيره مثل تأثير الأعراض . قول النبي –صلى الله عليه وسلم- : "والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[1] هو من جنس قوله تعالى : ﭽﯰﯱﯲﯳﭼ[2] "[3] .

رابعاً: آية الرمي .

بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن الذي أثبته الله -تعالى- لنبيه –صلى الله عليه وسلم- من الرمي في قوله تعالى : ﭽﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟﭼ[4] غير الذي نفاه عنه ، فالله أثبت له رمياً بقوله : "ﭞ ﭟ" ، ونفى عنه رمياً بقوله : "ﭙ ﭚ" ، فالرمي المثبت للرسول –صلى الله عليه وسلم- هو الحذف الذي يقدر عليه والرمي المنفي هو وصول الرمي إلى الكفار وتأثيره فيهم . فإن الرمي له طرفان : حذف بالمرمي ، ووصول إلى العدو ونكاية فيهم ، والنبي –صلى الله عليه سلم- فعل الأول ، والله فعل الثاني ، والمعنى : ما أوصلت الرمي إذ حذفته ولكن الله أوصله وهزمهم به[5] .

وبذلك يتبيّن " أن جميع ما ذكره من النصوص ليس فيه أن ما نفاه عن غيره أثبته لغيره في موضع آخر ، بل الذي أثبته لغيره غير الذي نفاه عن غيره"[6] .

وإذا علم ذلك علم بطلان ما بناه البكري عليه من أن عين ما يطلب من الله بطريق التوحيد يطلب من غيره بدعوى السبب .

---

[1] سبق تخريجه ص (496) .
[2] سورة المائدة ، الآية (2).
[3] "الاستغاثة" (1/323-324).
[4] سورة الأنفال ، الآية (17)
[5] انظر"الاستغاثة" (1/198-199، 323)
[6] "المصدر السابق" (1/324).

المطلب الأول : تعريف التمثيل .

المثل لغة : النظير .

قال ابن فـارس : "الميم والثـاء واللام أصـل صـحيح يـدل على منــاظرة الشــيء للشــيء . وهــذا مثــل هــذا أي : نظيره . والمِثـل والمِثـال في معـنىً واحـد . وربمـا قـالوا مَثِيل كشبيه .

تقول العرب : أمثل السلطان فلاناً : قتله قَوَدا ، والمعنى أنه فعل به مثل ما كان فعله .

والمثل : المِثْل أيضـاً. كشَـبَه وشِـبه . والمثـل المضـروب مــأخوذ من هــذا ؛ لأنــه يــذكر مــورّي بــه عن مثلــه في المعنى .

وقولهم : مَثَّل به ، إذا نكَّل هو من هذا أيضاً ؛ لأن المعـنى أنه إذا نكَل به جعل ذلك مثالاً لكلّ من صـنع ذلـك الصـنيع أو أراد صنعه . ويقولون : مَثَل بالقتيل : جَدَعه.

والمَثُلات من هذا أيضاً . قال الله تعالى : ﭽﭙﭚﭛﭜﭽ[1] أي العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجلــه ، وواحــدها مَثُلَة كسَمُرة وصَدُقَة . ويحتمل أنها الـتي تـنزل بالإنسـان فتُجعَل مثالاً ينزجر به ويرتدع غيره.

ومَثَل الرجل قائماً : انتصـب ، والمعـنى ذلـك ؛ لأنـه كأنـه مِثال نُصب . وجمع المِثال أمثلة .

والمِثَال : الفِراش ، والجمع مُثُل ، وهـو شـيء يُماثـل مـا تحته أو فوقه .

وفلان أمثل بني فلان : أدناهم للخير ، أي إنه مماثل لأهل الصلاح والخير . وهؤلاء أماثل القوم أي : خيارهم "[2] .

وبهـذا يتـبين أن جميـع تصـريف هـذه الكلمـة يرجـع إلى مناظرة الشيء للشيء ، وهـذا المعـنى مناسـب للمعـنى الاصطلاحي للتمثيل.

---

[1] (?) سورة الرعد ، الآية (6).

[2] (?) "معجم مقــاييس اللغــة" (5/296-297)ـ ، وانظر "تهــذيب اللغــة" (15/95-100)ـ ، و "الصــحاح" (4/1477-1478)ـ ، و "لسان العرب" (14/17-20).

وأما التمثيل اصطلاحاً:

فقد عرّفه شيخ الإسلام عند بيانه لحقيقة التمثيل المنفي عن الله فقال : "هو ما كان وصفه بشيء من خصائص المخلوقين ، أو أن يُجعل شيء من صفاته مثل صفات المخلوقين ، بحيث يجوز عليه ما يجوز عليه ، أو يجب له ما يجب لهم ، أو يمتنع عليه ما يمتنع عليهم مطلقاً . فإن هذا هو التمثيل الممتنع المنفي بالعقل مع الشرع"[1] .

وذكر –رحمه الله- أمثلة على التمثيل فقال : "وقال تعالى في النفي : ﭽﭢﭣﭤﭥﭼ[2] ﭽﯙﯚﯛﯜﭼ[3] ﭽﭙﭚﭛﭜﭝﭼ[4] ﭽﭦﭧﭨﭩﭪﭼ[5] فبيّن في هذه الآيات أن الله لا كفو له ، ولا ندّ له ، ولا مثل له ، ولا سميّ له ، فمن قال : إن علم الله كعلمي ، أو قدرته كقدرتي ، أو كلامه مثل كلامي ، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضاي وغضبي ، أو استواءه على العرش كاستوائي ، أو نزوله كنزولي ، أو إتيانه كإتياني ، ونحو ذلك ، فهذا قد شبّه الله ومثّله بخلقه ، تعالى الله عما يقولون ، وهو ضالّ خبيث مبطل ، بل كافر"[6].

المطلب الثاني : أنواع التمثيل .

بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن التمثيل نوعان :

---

[1] (?) "منهاج السنة" (8/29) ، وانظر "الصفدية" (1/100-101).

[2] (?) سورة الشورى ، الآية (11).

[3] (?) سورة البقرة ، الآية (22).

[4] (?) سورة مريم ، الآية (65).

[5] (?) سورة الإخلاص ، الآية (4).

[6] (?) "مجموع الفتاوى" (11/481-482) ، وانظر "التدمرية" ص(31).

الأول :
تمثيل الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق من صفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها .
وهذا ما وقع من اليهود حيث قالوا : إن الله فقير ، وقالوا : يد الله مغلولة ، وقالوا: إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت وغير ذلك .
ووقع أيضاً من الجهمية النفاة فإنهم قالوا : إن الله تعالى لا يتكلم ولا يحب ونحو ذلك من نفيهم .
الثاني :
تمثيل المخلوق بالخالق فيما يختص به الخالق من صفات الكمال .
وهذا وقع من النصارى حيث قالوا عن المسيح : إنه خالق السماوات والأرض ، وأنه رب العالمين ، وأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير.
ووقع أيضاً من الحلولية الذين يصفون المخلوق بصفات الكمال التي لا تصلح إلاّ لله كما فعلت النصارى في المسيح .
ووقع أيضاً من أهل الشرك الذين ينذرون للمخلوق ويسجدون له ويدعونه ويحبونه مثل ما يحبون الخالق .
وكما يقول بعضهم : إذا كانت لك حاجة : استوح الشيخ فلانا فإنك تجده، أو توجه إلى ضريحه خطوات وناد : يا شيخ ، تقضى حاجتك . وقول بعضهم : كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده [1] .

وبيَّن شيخ الإسلام أن هناك من وقع في كلا النوعين من التمثيل وهما :

---

[1](?) انظر "الجواب الصحيح" (1/71-72) (2/140-144 ، 260-261) (3/100) ، و "درء التعارض" (7/95 ، 260) و "التحفة العراقية" ص(387) ، و "جامع المسائل" (2/111-112) (4/296-297) ، و "مجموع الفتاوى" (1/126) (371-372) (11/526-527) (18/322) (27/340-341) ، و "الصفدية" (2/310).

1- الشيعة .
2- الحلولية الجهمية .

قال –رحمه الله- بعد أن ذكر فرق الشيعة المشبهة الأوائل وذكر غلو الشيعة في أئمتهم : "فإن أهل العلم متفقون على أن هذه المقالات الغالية في وصف الربّ بالعيوب والنقائص المتضمنة تشبيه الخالق بالمخلوق في صفات النقص ، وتشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية هي أكثر ما يكون في الشيعة باتفاق الناس ، فلا يوجد في طوائف الأمة أشنع في الحلول والتمثيل والتعطيل مما يوجد فيهم . ولهذا صارت الملاحدة والغالية علمين على بعض من ينتسب إليهم ، فالملاحدة علم على الإسماعيلية[1] ، والغالية علم على القائلين بالإلهية في البشر كالنصيرية[2] ، والمشهور بالغلو وادِّعاء

[1] الإسماعيلية: يقولون إن الإمام بعد جعفر الصادق اسماعيل بن جعفر ، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام ، تُسمَّى بأسماء مختلفة: الباطنية لقولهم إن لكل ظاهر باطناً ، والسبعية لاعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة وأن السابع يكون الناطق وهو الذي ينقضي به دور الناطق الذي كان قبله، ولتمسكهم بهذا العد فإن السماوات سبع والكواكب السيارة سبع والأرضين سبع والأيام سبع وأعضاء الإنسان سبع وغير ذلك من الأقوال ، والتعليمية لإبطالهم النظر والاستدلال والرأي والقياس والاكتفاء على تعاليم الإمام المعصوم . ينكرون صفات الله ويقولون بالتناسخ ، والإمامة عندهم أصل من أصل الإسلام قطب الدين وأساسه . والإمام وارث الأنبياء جميعاً ووارث كل من سبقه من الأئمة . ويؤمنون بالتقية والسرية . انظر "الملل والنحل" (1/170) ، و"اعتقادات فرق المسلمين" ص(65) ، و "الإسماعيلية" ص(95، 261 ، 349) ، و "الموسوعة الميسرة" (1/386، 390) .

[2] النصيرية : مؤسسها أبو شعيب محمد بن نصير النميري ، جعلوا علياً إلهاً ، وقالوا بأن ظهوره الروحاني بالجسد الجسماني الفاني كظهور جبريل في صورة بعض الأشخاص . يعتقد بعضهم أن علياً يسكن السحاب بعد تخلصه من الجسد الذي كان يقيده . ويقولون : إن الرعد صوته والبرق سوطه . ويعتقدون أن علياً خلق محمد –صلى الله عليه وسلم- وأن

الإلهية في البشر هم النصارى والغالية من الشيعة ، وقد يوجد بعض الإلحاد والغلو في غيرهم من النساك وغيرهم ، لكن الذي فيهم أكثر وأقبح"[1] .

وقال بعد نقله لكلام الإمام أحمد : "فإن الجهمية النفاة يشبهون الخالق تعالى بالمخلوق في صفات النَّقص ، كما ذكر الله تعالى عن اليهود أنهم وصفوه بالنقائص وكذلك الجهمية النفاة إذ قالوا : هو في نفسه لا يتكلم ولا يحب ونحو ذلك من نفيهم . والحلولية يشبهون المخلوق بالخالق ، فيصفونه بصفات الكمال التي لا تصلح إلا لله ، كما فعلت النصارى في المسيح . ومن جمع بين النفي والحلول ، كحلولية الجهمية : مثل صاحب الفصوص[2] وغيره قالوا : " ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص والذم ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق فهي كلها صفات له ، كما أن صفات المخلوق حق لله[3] " فهم يصفون المخلوق بكل ما يوصف به الخالق ، ويصفون الخالق بكل ما يوصف به المخلوق ، فإن الوحدة والاتحاد والحلول العام يقتضي ذلك" .[4]

محمداً خلق سلمان الفارسي ، وأن سلمان الفارسي خلق الأيتام الخمسة الذين هم : المقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري وعبد الله بن رواحة وعثمان بن مضعون وقنبر بن كادان . أطلق عليهم الاستعمار الفرنسي لسوريا اسم "العلويين" تمويهاً وتغطية لحقيقتهم الرافضية الباطنية . انظر "الملل والنحل" (1/192-193) ، و"اعتقادات فرق المسلمين والمشركين " ص (75-76) ، و "الموسوعة الميسرة" (1/393-395) .

[1] "منهاج السنة" (2/513-514).

[2] وهو ابن عربي ، محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي ، صوفي ، متكلم ، من مصنفاته "فصوص الحكم" يقول فيه الذهبي : "من أرادأ تواليفه كتاب" "الفصوص" فإن كان لا كفر فيه فما في الدين كفر" . توفي سنة (638)هـ . انظر "سير أعلام النبلاء " ، (23/48-49) ، و "معجم المؤلفين" (3/531).

[3] انظر "فصوص الحكم مع شرح مصطفى زاده" ص (85).

[4] "درء التعارض" (7/260-261).

المطلب الثالث: وجه كون تمثيل المخلوق بالخالق من قوادح الربوبية.

قرّر شيخ الإسلام أن تنزيه الرب -تعالى- يرجع إلى أصلين :

الأول : تنزيهه عن النقص المناقض لكماله .

الثاني : أنه منزّه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "فالذي ينفى عنه وينزه عنه : إمّا أن يكون مناقضاً لما علم من صفاته الكاملة ، فهذا ينفى عنه جنسه ، كما قال : ﭐﮬﮭﮮﭼ[1] ، وقال : ﭽﭦﭧﭨﭩﭪﭼ[2] فجنس السنة والنوم والموت ممتنع عليه ، لا يجوز أن يقال في شيء من هذا " أنه يجوز عليه كما يليق بشأنه " ؛ لأن هذا الجنس يوجب نقصاً في كماله . كذلك لا يجوز أن يقال: هو يكون في السفل لا في العلو ، وهو سفول يليق بجلاله . فإنه -سبحانه- العلي الأعلى لا يكون قط إلاّ علياً ، والسفول نقص هو منزه عنه ...

والنوع الثاني : أنه منزه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته"[3]

فالأصل الأول إبطال للنوع الأول من التمثيل وهو تمثيل الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق من صفات النقص.

---

[1] سورة البقرة ، الآية (255).

[2] سورة الفرقان ، الآية (58).

[3] "مجموع الفتاوى" (16/425-426)، وانظر (16/97-99، 363) ، و "منهاج السنة"(8/29) ، و "شرح الأصبهانية" ص(432-433).

وهـذا النـوع من التمثيـل هـو من قـوادح التوحيـد ؛ لأنـه مناقض لما علم من صفات الكمال لله –تعالى- .
والأصل الثاني هو : إبطال للنوع الثـاني من التمثيـل وهـو تمثيل المخلوق بالخالق فيما يختص به الخالق من صفات الكمال .

وهذا النـوع من التمثيـل هـو من قـوادح الربوبيـة ، ووجـه ذلك :
أنه منازعـة للربوبيـة ، ومضـاهاة لهـا ، وتسـوية بين اللـه وبين المخلوقين .
قــال شــيخ الإســلام : "والتعــالي والتكــبر والثنــاء على النفس ، وأمر الناس لعبادته ودعائه ، والرغبة إليه ، ونحو ذلك مما هو من خصائص الربوبية ، هذا كمال محمود من الرب –تبارك وتعالى- ، وهو نقص مذموم من المخلــوق . وهذا كالخبر عما هو من خصائص الربوبية كقـوله : ﭽﭙﭚ ﭛﭜﭝﭞﭟﭽ[1] وقوله تعالى: ﭽﭡﭢﭽ[2] وقوله : ﭽﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅ ﮆﭽ[3] وقـوله : ﭽﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝﭽ[4] وقـوله : ﭽﮒﮓﮔﮕﮖﭽ[5] وقوله تعالى : ﭽﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭽ[6] وقوله : ﭽﮒﮓﮔﮕ ﮖﮗﮘﮙ ﮚﮛﮜﮝﮞﮟﭽ[7] وأمثال هذا الكلام الذي يذكر الربّ فيه عن نفسه بعض خصائصه ، وهو في ذلك صادق في إخباره عن نفسه بما هو من نعوت الكمال : هو أيضاً من كماله ، فإن بيانه لعباده وتعريفهم ذلـك هـو أيضـاً من كماله . وأما غيره فلو أخـبر بمثـل ذلـك عن نفسـه لكـان كاذبـاً مفتريـاً، والكـذب من أعظم العيـوب والنقـائص ... فالكبرياء والعظمـة لـه بمنزلـة كونـه حيـاً قيومـاً ، واجبـاً

---

(1) سورة طه ، الآية (14).
(2) سورة غافر ، الآية (60).
(3) سورة البقرة ، الآية (284).
(4) سورة العنكبوت ، الآية (4).
(5) سورة الحجر ، الآية (42).
(6) سورة غافر ، الآية (51).
(7) سورة الطلاق ، الآية (2-3).

بنفسه ، وأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه العزيز الذي لا ينال ، وأنه قهار لكل ما سواه . فهذه صفات لا يستحقها إلاَّ هو ، فما لا يستحقه إلاَّ هو كيف يكون كمالاً من غيره وهو معدوم لغيره؟ فمن ادّعاه كان مفترياً منازعاً للربوبية في خواصها ، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال : يقول الله تعالى: " العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما عذبته"[1] وجملة ذلك :
أن الكمال المختص بالربوبية ليس لغيره فيه نصيب ، فهذا تحقيق اتصافه بالكمال الذي لا نصيب لغيره فيه . ومثل هذا الكمال لا يكون لغيره ، فادعاؤه منازعة للربوبية وفرية على الله"[2] .
وقال –رحمه الله- : "وأما القدرية الإبليسية فهم الذين يقرون بوجود الأمر والنهي من الله ، ويقولون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه ، لكن يقولون : هذا فيه جهل وظلم ، فإنه بتناقضه يكون جهلاً وسفهاً ، وبما فيه من عقوبة العبد بما خلق فيه يكون ظلماً, وهذا حال إبليس ، فإنه قال : ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ[3] فأقر بأن الله أغواه ، ثم جعل ذلك عنده داعياً يقتضي أن يغوي هو ذرية آدم . وإبليس هو أول من عادى الله ، وطغى في خلقه وأمره ، وعارض النصّ بالقياس ... ثم قوله لربه ، فبما أغويتني لأفعلن ، جعل فعل الله - الذي هو إغواؤه له - حجة له ، وداعياً إلى أن يغوي ابن آدم . وهذا طعن منه في فعل الله وأمره ، وزعم منه أنه قبيح ، فأنا أفعل القبيح أيضاً ، فقاس نفسه على ربه ، ومثل نفسه بربه . ولهذا كان مضاهياً للربوبية ، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي –صلى الله عليه وسلم- : "إن إبليس ينصب عرشه على البحر ، ثم يبعث سراياه ، فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة ، فيجيء الرجل فيقول : ما زلت به

---

[1] سبق تخريجه ص (194) .
[2] "مجموع الفتاوى" (6/137-139).
[3] سورة الحجر ، الآية (39).

حتى فعل كذا ، ثم يجيء الآخر فيقول : ما زلت بـه حـتى فرقت بينه وبين زوجته ، فيلتزمـه ويدنيـه منـه ، ويقـول : أنت أنت"[1] "[2].

وقال : "فكــل من جعـل مخلوقـاً مثلاً للخـالق في شـيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخـالق ، أو وصـفه بمثـل ما يوصف به الخالق فهـو مشـرك ، سـوى بين اللـه وبين المخلـوق في شـيء من الأشـياء فعـدل بربـه . والـرب -تعالى- لا كفؤ له ، ولا سمي له ، ولا مثل له ، ومن جعلــه مثل المعدوم والممتنـع فهو شر من هؤلاء ، فإنـه معطـل ممثل ، والممثل شر من المشرك "[3] .

المطلب الأول : المراد بتعظيم الأنبياء والصالحين تعظيم ربوبية .

بيَّن شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- أن الأنبيـاء والصـالحين يسـتحقون من المسـلمين المحبـة والاحـترام والمـوالاة والتكريم والثناء .

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ح (7106).
[2] "مجموع الفتاوى" (16/239-240).
[3] "مجموع الفتاوى" (13/163-164).

وبيَّن أن الناس في ذلك طرفان ووسط ، فبعضهم غلا في تعظيم الصالحين حتى وقع في الشرك بالله تعالى ، وبعضهم جفا وقصّر فلم يعطِ الأنبياء والصالحين حقهم الذي يستحقونه.

قال –رحمه الله- : "والملائكة والأنبياء ، بل الصالحون يستحقون المحبة والموالاة والتكريم والثناء مع أنه يحرم الغلو والشرك بهم ، فلهذا صار بعض الناس يزيد في التعظيم على ما يستحقونه فيصير شركا ، وبعضهم يقصر عما يجب لهم من الحق فيصير فيه نوع من الكفر ، والصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو القيام بما أمر الله به رسله في هذا وهذا ، والله تعالى يميز حقه من حق غيره ..." [1] .

وبيَّن –رحمه الله- كيفية تعظيم الرسل التعظيم الحق بقوله : "إنما تعظيم الرسل بتصديقهم فيما أخبروا به عن الله ، وطاعتهم فيما أمروا به ، ومتابعتهم[2] ، ومحبتهم وموالاتهم ، لا التكذيب بما أرسلوا به ، والإشراك بهم ، والغلو فيهم ، بل هذا كفر ، وطعن فيهم ، ومعاداة لهم "[3]. وبيَّن –رحمه الله- أن أعظم أحوال الناس مع الأنبياء وأفضلها هو حال الصحابة مع الرسول –

---

[1] "الاخنائية" ص (485).

[2] وهذا في حق من خوطبوا برسالته .

[3] "الاخنائية" ص (122).

..."[1].

وبيَّن –رحمه الله – أن خصائص الرب تعالى إذا نفيت عن الأنبياء والصالحين لم يكن ذلـك تنقصـاً بهم ، قـال-رحمـه اللـه- : "والصـواب قـول الجمهـور وأنـه لا تنعقـد اليمين بمخلوق لا نبي ولا غيره ، بل ينهى عن الحلـف بـه ، فـإذا قيل لا يحلف به أولا يحلف بالأنبيـاء ولا بـالملائكة لم يكن هـذا معـاداة لهم ولا سـباً ولاتنقصـاً بهم عنـد أحـد من المسلمين ، وكذلك سـائر خصـائص الـرب إذا نفيت عنهم فقيل لا تعبد الملائكة ولا الأنبياء ولا يسـجد لهم ولا يصـلى لهم ولا يصام ، ولا يدعون من دون اللـه ونحـو ذلـك كـان هذا توحيداً وإيماناً لم يكن هـذا تنقصـاً بهم ولا سـباً لهـم ولا معاداة ، كما قال تعالى : چقڦڤڃڄڃڃڃڇ چ إلى قوله : چ گ ﮔ ﮕ چ[2] فإذا قيل : لا يجوز لأحـد أن يتخـذ الملائكـة والنبيين أرباباً كما ذكـر اللـه ذلـك في القـرآن ، ولم يقـل مسـلم هـذا معـاداة لهم ولامنقصـة ولا سـباً ، وكـذلك إذا قيل: إنهم عباد الله وإن المسيح وغيره عباد لله كان هـذا توحيداً وإيماناً لم يكن ذلك تنقصاً ولا سـباً ولا معـاداة... "[3].

فـإذاً الأنبيـاء والصـالحون يسـتحقون منَّا التعظيم ، ولكن هذا التعظيم لا يصل إلى حدِّ الغلو وذلك بوصفهم بصـفات وخصائص الربوبية التي اختصّ اللـه بهـا ، ولا تصـلح لأحـد من المخلوقين مثل أن يوصف بأنـه خـالق الخلـق ، ورب

---

[1] "الاخنائية" ص (227-228).
[2] سورة آل عمران ، الآية (79-80).
[3] "الاخنائية" ص (219-220).

العالمين ، وأنه على كل شيء قدير ، وبكل شـيء عليم ، وأنـه النَّافع وبيـده الخـير فـيرجو حصـول المطـالب من جهتهم فإذا وصل التعظيم إلى هذا الحـدّ كـان هـذا قـدحاً في الربوبيـة . وهـو المـراد بتعظيم الأنبيـاء والصـالحين تعظيم ربوبية .

قـال شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- عنـد ردّه على البكـري وأمثاله : "وعنـدهم تعظيم للأنبيـاء والصـالحين من جنس تعظيم النصارى والمشركين يعظمونهم تعظيم ربوبية من جهـة مـا يرجونـه من حصـول مطـالبهم من جهتهم ، لا يعظمـونهم لكـونهم رسـل اللـه الـذين أمـروا بطـاعتهم ، فيجب أن يطاعوا فيمـا أمـروا بـه ، وأن يقتـدى بهم فيمـا شـرع التأسـي بهم فيـه ، يعرضـون عن بعض طـاعتهم والتأسي بهم ، ويقبلـون على نـوع من دعـائهم وسـؤالهم والإشـراك بهم ، وهـؤلاء بالنصـارى أشـبه منهم بالصـائبة الفلاسفة ، لكن الجميع فيهم شرك"[1] .

والنصـارى عظمـوا المخلـوق تعظيم ربوبيـة فوصـفوه بصفات وخصائص الربوبية التي اختص الله بها .

قـال شـيخ الإسـلام : "والنصـارى يصـفون المخلـوق بمـا يتصف بـه الخـالق فيجعلونـه رب العالميـن ، خـالق كـل شيء ، ومليكه ، الـذي هـو بكـل شـيء عليم ، وعلى كـل شيء قدير ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلاّ ليعبـدوا إلهاً واحـداً ، لا إلـه إلا هـو سـبحانه عمـا يشـركون ، واتخـذوا الملائكـة والنبيين أربابـاً ، وصوروا تماثيل المخلوقات ، واتخـذوهم شفعاء لهم عند الله كما فعل عباد الأوثان ... ". [2]

فما وقع فيه النصـارى ومن شـابههم من وصف الأنبيـاء والصـالحين بصـفات وخصـائص الربوبية هو المـراد هنا بتعظيم الأنبياء والصالحين تعظيم ربوبية .

---

[1] "الاستغاثة" ص (2/415-416).

[2] "الجواب الصحيح " (2/141-142).

المطلب الثاني : وجه كون تعظيم الأنبياء والصالحين من قوادح الربوبية .

شيخ الإسلام –رحمه الله- ذكر عـدداً من الـذين عظّمـوا الأنبيـــــاء والصــــــالحين أو من يعتقد المعظَّم أنهم من الصــالحين تعظم ربوبية ، فوصــفوهم بخصــائص الربوبية التي لا تصلح لأحد من المخلوقين . من أولئك:

1- النصارى .

حيث إنهم غلو في المسيح فقالوا : إنه رب العالمين ، وخالق السموات والأرض ، وأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير . وقد سبق ذكر ذلك عنهم عند الحديث عن أنواع التمثيل ، وفي المطلب السابق[1] .

2- غلاة الصوفية .

قال شيخ الإسلام عند حديثه عن قـول الصـوفية وغلـوهم في القطب والغـوث : "وكـذلك ما يدّعيه بعضـهم من أن الواحد من هـــؤلاء قد يعلم كل ولي لله كـــان ويكـــون ، واســــــمه واسم أبيه ، ومنزلته من الله ، ونحو ذلك من

---

[1] انظر "أنواع التمثيـل" ص (506) ، وانظر المطلب السـابق ص (515-516) .

المقـــالات الباطلة الـــتي تتضـــمن أن الواحد من البشر يشارك الله في بعض خصائصه ، مثل أنه بكل شيء عليم ، أو على كل شـيء قـدير ونحو ذلك . كما يقـول بعضـهم في النـبي –صـلى الله عليه وسـلم – وفي شـيوخه : إن علم أحـدهم ينطبق على علم الله ، وقدرته منطبقة على قدرة الله ، فيعلم ما يعلمه الله ، ويقدر على ما يقدر الله عليه . فهـذه المقـالات وما يشـبههما من جنس قـول النصـارى والغالية في علي ، وهي باطلة بإجمـاع علمـاء المسلمين "[1] .

وقال : "وتـارة يدّعي أحدهم المهدية أو القطبية ، ويقـول : أنا القطب الغـوث الفـرد الجـامع ، ويـدخل في هـذه الأسـماء ما هو من خصـائص الربوبية ، مثل كونه يعطي الولاية من يشاء ، ويصرفها عمن يشاء ... " [2] .

وقـال : "وأما ما يدّعيه قـوم في القطب ، والمرتبة الـتي يُسمُّونها "القطبية" و "القطبانية" فمن الغلو الـذي يشـبه غُلو النصـارى والرافضة كقـول أحـدهم : القطب الغـوث الفـرد الجـامع ، وتفسـيرهم ذلك : بـأن مـدد أهل الأرض يكون من جهته ، وأن الله إذا أنزل إلى أهل الأرض خـيراً من هدىً ورزق ونصر فإنه ينزله عليه ، ثم منه يفيض إلى سائر الخلق . وقد يدّعي أنه منه مدد الملائكة السـماوات وطير الهواء وحيتان المـاء ، وأنه يعطي الملك وولاية الله لمن يشاء ويصرف ذلك عمَّن يشاء ، ونحو هذه المقـالات الـتي تجعل للقطب نوعـاً من الإلهية والربوبية الـتي لم تحصل للأنبياء "[3] .

وقال : "وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخ يدبرون العـالم بالخلق والرزق وقضاء الحاجات وكشف الكربـات ، وهـذا ليس من دين المسلمين ، بل النصارى تقول هذا المسيح وحده بشبهة الاتحاد والحلول"[4] .

---

[1] (?) "منهاج السنة " (1/95-96).
[2] (?) "بغية المرتاد " ص (393-394).
[3] (?) "جامع المسائل " (2/73).
[4] (?) "الاستغاثة" (2/536).

3- الرافضة الاثنا عشرية .

قال : "والمقصود هنا : أن هؤلاء هم أول من أظهر القول بـأن في المؤمـنين من لاذنب له كما قـال هـذا السـائل ، وادّعـوا عصـمة الأئمة الاثـني عشر حـتى عن الخطأ عن الاجتهـاد ، وعن نسـيان العلم ، وعن عـدم معرفة شـيء من العلم فقــالوا : إنهم يعلمــون كل شــيء ، وادّعــوا عصـمتهم من صـغير الـذنوب وكبيرها وغـير ذلك ، وادعو ذلك في الأنبياء أيضــاً ؛ لأنهم أفضل من الأئمة . ولم يقل هــذا في الأمة غــيرهم على هــذا الوجه . لكن ظهر في صــنفين من الأمة بعض بــدعتهم : طائفة من النُّســاك والعُبَّاد يزعمـون في بعض المشـايخ أو فيمن يقولـون أنه ولي الله أنه لا يذنب ، وربما عيّنوا بعض المشايخ وزعموا أنه لم يكن لأحــدهم ذنب ، وربما قــال بعضــهم : النــبي معصـوم ، والـوليّ محفـوظ . ومن غالية هـؤلاء من يعتقد في بعض المشــايخ من الإلهية والنبـوة ما اعتقدته الغالية في علي ، ويـزعم أن الشـيخ يخلق ويـرزق ، ويـدخل من يشـاء الجنة ومن يشـاء النـار ، ويعبـده ويـدعوه كما يعبد الله ، ويقــول : كل رزق لا يرزقنيه الشــيخ فلان فــإني لا أريده ، ويذبح الـذبائح باسـمه ، ويصـلي ويسـجد إلى جهة قبره ، ويستغيث به في الحاجات كما يستغاث بالله تعالى "[1] .

والرافضة يزعمون أن الأئمة يعلمـون جميع العلـوم الـتي خــرجت إلى الملائكة والأنبيــاء والرسل ، وأنهم يعلمــون علم ما كــان وما يكــون ، وأنهم لا يخفى عليهم شــيء ، وأنهم لا يحجب عنهم علم الســـــــماء والأرض ، والجنة والنار[2] .

وزعم الرافضة هــذا هو من قــوادح الربوبية ، لأن الــذي بكل شــيء عليم هو الله وحــده ، وهــذا من خصــائص

---

[1] "جامع الرسائل" (1/264-265) ، وانظر "منهـاج السـنة" (8/139، 143) .

[2] انظر "الكـافي" للكليـني(1/59-61) ، و "بحـار الأنـوار" (26/117-137).

الربوبية التي لا تصـلح لأحد من المخلـوقين لا ملكا مقرّبا ولا نبياً مرسلاً .

4- النصيرية .
5- الإسماعيلية .
6- الدروز .

قــال شــيخ الإســلام –رحمه اللـــه-: "وفي الملاحـــدة المنتســبين إلى الأمة من فيه بــدع من الغلو يشبــه غلو النصارى ، كمن يـدعي الإلهية من الإسـماعيلية ، كبـني عبيد القداح[1] كالحــاكم [2] وغيـــره ، ويــــدعي الإلهية في علي بن أبي طـالب أو غـيره كـدعوى النصـيرية، وهـــؤلاء كفـار عند

---

[1] وهم العبيــديون ذرية عبيد الله بن ميمــون القــداح ، يــدّعون أنهم من ولد علي ، وجمهور الأمة تطعن في نسـبهم ، ويـذكرون أنهم من أولاد المجوس واليهود ، وهذا مشهور من شهادة علماء الطوائف من الحنفية والمالكية والشـافعية وأهل الحــديث وأهل الكلام وعلماء النسب والعامة وغـيرهم .كـانوا يظهـرون الإسـلام ويبطنـــون الكفر ، ولأجل ما كــانوا عليه من الزندقة بقيت البلاد المصرية مدة دولتهم نحو مائتي سنة قد انطفأ فيها نـور الإسـلام والإيمان حتى قالت العلماء فيها : إنها كانت دار ردة ونفاق كـدار مسيلمة الكذاب ، وكـان في أثنـاء دولتهم يخـاف السـاكن بمصر أن يروي حديثاً عن رسـول الله –صـلى الله عليه وسـلم- فيقتل وكان بالجامع الأزهر عـدة مقاصـير يلعن فيها الصـحابة بل يتكلم فيها بـالكفر الصـريح ، وبنـوا أرصـاداً على الجبـال وغـير الجبـال يرصدون فيها الكواكب يعبدونها *ويسبحونها ، وأزال الله على يد صلاح الدين الأيوبي الـذي فتح مصر دعـوة العبيـدين وأظهر فيها شرائع الإسـلام . انظر "مجمـوع الفتـاوى"(35/128-139)ـ ، و "منهاج السنة" (8/11-12).

[2] صـاحب مصر ، الحـاكم بـأمر الله أبو علي منصـور بن العزيز نـزار بن المعز معد بن المنصـور إسـماعيل بن القـائم محمد بن المهدي ، العبيدي المصـري الرافضي ، بل الإسـماعيلي الزنـديق المـدّعي الربوبية ، ولد سـنة (375)هــ ، كـان شـيطاناً مريـداً ، جباراً عنيداً ، كثير التلوّن ، سفاكاً للدماء ، خبيث النحلة ، عظيم المكر ، كان فرعون زمانه ، يخترع كل وقت أحكاماً يلزم الرّعية بها ، أمر بسب الصـــحابة وبكتابة ذلك على أبـــواب المســـاجد والشـوارع ، تـوفي سـنة (411)هــ . انظر "سـير أعلام النبلاء" (15/173) وما بعدها ، و "الأعلام" (7/305).

المسلمين ، وكذلك من يدعي الإلهية في بعض المشايخ ، كغلاة العدوية[1] والحلاجية[2] واليونسية[3] وغيرهم "[4] .

وقال في معرض حديثه عن النصارى :"وقد ضـاهاهم في ذلك أهل البدع والضلال ، المشـبهون لهم من المنتسـبين إلى الإسـلام الـذين يقولـون نحو قـولهم من الغلو في الأنبيـاء ، وأهل الـبيت والمشـايخ وغـيرهم ، ومن يـدعي الوحـدة أو الحلـول أو الاتحـاد الخـاص المعين ، كـدعوى

---

[1] العدوية : هم أتبـاع الشـيخ أبي البركـات عـدي بن مسـافر الأموي ، كان رجلاً صالحاً عابداً فاضلاً وعقيدته المحفوظة عنه لم يخـرج فيها عن عقيـدة من تقدمه من المشـايخ الـذين سـلك سبيلهم كالشيخ الإمـام الصـالح أبي الفـرج عبد الواحد بن محمد بن علي الأنصـاري الشـيرازي ثم الدمشـقي وغـيره ، وهم لم يخرجـوا في الأصـول الكبـار عن أصـول أهل السـنة والجماعة ، وللشـيخ عـدي أتبـاع صـالحون ، لم يحفظ أنه دعا أتباعه إلاّ إلى السنة التي يقولها غيره كالشيخ أبي الفرج ، ومن أتباعه من فيه غلو عظيم يبلغ بهم غليظ الكفر ، فقد زادوا في السـنة أشـياء كذب وضلال من الأحاديث الموضـوعة والتشـبيه الباطل ، والغلو في الشيخ عدي ، حـتى قـال بعضـهم : كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده . انظر "مجموع الفتاوى" (3/363، 377-378) (4/482) (11/103 ، 527).

[2] الحلاجيـة : ينتسـبون إلى أبي المغيث الحسـين بن منصـور الحلاج ، من أرض فـارس من بلد يقـال لـه : بيضـاء ، قتله المسلمون بسبب قوله بالحلول والاتحـاد ونحو ذلك من مقـالات أهل الزندقة والإلحاد ، كقوله : أنا الله ، وقوله : إله في السـماء وإله في الأرض ، ومثل دعواه أنه يقـدر على أن يعـارض القـرآن بخـير منه ، ودعـواه أنه من فاته الحج فإنه يبـني بيتاً يطـوف به ويتصـدق بشـيء قـدّره ، وذلك يسـقط الحج عنه ، كـانت له مخاريق وأنواع من السحر ، وله كتب منسوبة إليه في السـحر . انظر "الفـرق بين الفـرق "ص(234) ، و "مجمـوع الفتـاوى" (2/480-481) (8/316-318) (35/108-109) .

[3] اليونسية : هم أتبـاع يـونس بن يوسف بن مسـاعد الشـيباني المخـارقي المشـرقي القُنَيّي ، شـيخ طائفة اليونسـية أولي الشطارة والشطح وقلة العلم ، لم يكن الشـيخ يـونس من أولي العلم بل من أولي دعـوى الحـال والكشف ، وكـان عريـاً من الفضيلة . وله أبيـات منكـره ، قـال الـذهبي : سـمعت ابن تيمية ينشد ليونس:

موسى على الطـور لما خـرّ لي نـاجى
واليـثربي أنا جبتـوه حـتى جا

فقلت : هـذا يحتمل أن يكـون أنشـده على لسـان الربوبية فـإن

النصارى ، ودعـوى الغالية من الشـيعة في علي ، وطائفة من أهل الـبيت كالنصـيرية ، ونحـوهم ممن يـدعي إلهية على ، وكـدعوى بعض الإسـماعيلية الإلهية في الحـاكم وغيره من بـني عبد الله بن ميمـون القـداح ، المنتسـبين إلى محمد بن إسـماعيل بن جعفر ، ودعـوى كثـير من النـاس نحو ذلك في بعض الشـيوخ ، إما المعـروفين بالصلاح ، وإما من يظن به الصلاح وليس من أهله ، فـإن لهم أقوالاً من جنس أقـوال النصـارى ، وبعضـها شـرّ من أقوال النصارى "[1] .

وقـال –رحمه اللـه- عن النصـيرية : "فأما النصـيرية فهم أتباع أبي شعيب محمد بن نصير ، وكـان من الغلاة الـذين يقولون : إن علياً إلهاً ، وهم ينشدون :

أشهد أن لا إله إلاّ	حيدرة الأنزع البطين
ولا حجاب عليه إلاَّ	محمد الصادق الأمين
ولا طريق إليه إلاَّ	المتين[2] .

كان عني ذلك فالأمر قريب ، وإن كـان عـني نفسه فهـذه زندقة عظيمة . وكان شـيخنا ابن تيمية يتوقف في أمـره أولاً ثم أطلق لسـانه فيه وفي غـيره من الكبـار . واليونسـية هم شر الطوائف الفقراء ، ولهم أعمال تدل على الاستهتار والانحلال قـالاً وفعـالاً، اسـتحي من الله ومن النـاس من التفـوه بها . انظر "تـاريخ الإسلام" (13/591- 593) ،
و "سير أعلام النبلاء" (22/178-179) . وهناك اليونسية : أتبـاع يـونس بن عبد الـرحمن القمي ، وكـان في الإمامة على مـذهب القطعية الـذين سـاقوا الإمامة بعد جعفر إلى ابنه موسى ثم قطعـوا بمـوت موسى وقـالوا إن المهـدي المنتظر محمد بن الحسن ، وكان يـونس مفرطـاً في التشـبيه.انظر "التبصـرة في الدين" (34 ، 101). وهناك أيضاً اليونسية : من فرق المرجئة ، أتباع يـونس بن هـون ، كـان يقـول : إن الإيمـان في القلب وفي اللسان ، وحقيقته المعرفة بالله سبحانه والمحبة له والخضوع له والتصديق لرسله وكتبه . انظر "التبصرة في الدين" ص (83)

(?)[4] "الجواب الصحيح" (2/403-404).

(?)[1] "المصدر السابق" (3/185-186).

(?)[2] "مجموع الفتاوى" (35/161) ، وانظر (28-554).

وتأليه علي-رضي الله عنــه- عند النصــيرية هو من أبــرز عقائدهم ، ويزعمــون أنه لم يلد ولم يولد ، ولم يمت ولم يقتل ، ولا يأكل ولا يشرب ، وبالغوا في كفــرهم فقــالوا : إن علياً خلق محمد [1] . وقد ذكر ابن كثـير –رحمه الله – أن رجلاً من النصـــــيرية يقــــــال له : محمد بن الحسن المهــدي القــائم بــأمر الله كــان يــدعي أن علي بن أبي طالب فاطر السماوات والأرض -تعـالى الله عما يقولـون علــواً كبــيراً- , وكــان أصــحابه يقولــون لمن أســروه من المسلمين : قل لا إله إلاَّ علي ، واسـجد لإلهك المهـدي ، الذي يحيي ويميت حتى تحقن دمك[2] .

وأما الإسـماعيلية فكـانوا يخـاطبون أئمتهم مخاطبة العبد لربه ويصــفونهم بصــفات الربوبية الــتي لا تليق إلاَّ بالله تعالى . فقد كان الجهال إذا رأوا الحكام يقولون : يا واحد ، يا أحد ، يا محــيي يا مميت[3] . وأبيـــات ابن هـــانئ[4] مشهورة في المعز الإسماعيلي [5] التي قال فيها :

---

[1] (?) انظر "فرق معاصرة" (2/ 561) ، و "الموسوعة الميسرة" (1/395).

[2] (?) انظر "البداية والنهاية" (9/333-334).

[3] (?) انظر "المصدر السابق" (8/126) ، و "سـير أعلام النبلاء" (15/181).

[4] (?) أبو الحسن محمد بن هــانئ الأزدي المهلــبي الأندلســي، ولد ســنة (326) بإشــبيلية ، اتهمه أهلها بمــذهب الفلاســفة ، وفي شعره نزعة إسـماعيلية بـارزة ، رحل إلى إفريقية والجزائر ، ثم اتصل بالمعز العبيدي . وله ديوان كبير ، فيه مدائح تفضي به إلى الكفر ، وهو أشعر المغاربة على الإطلاق ، وهم عندهم كالمتنبي عند أهل المشـرق . تـوفي سـنة (362) هــ . انظر "سـير أعلام النبلاء" (16/131-132) ، و "الأعلام" (7/130).

[5] (?) المعز لــدين الله محمد بن إسـماعيل بن القـائم بن المهـدي عبيد الله الفــاطمي العبيــدي ، صـــاحب مصر وإفريقية ، وأحد الخلفاء في هذه الدولة ، وهو ممدوح ابن هانئ الأندلسي ، أشار إلى القائد جــوهر بالســير إلى مصر بعد مــوت صــاحبها كــافور الأخشيدي فقصـدها ودخلها فاتحـاً سـنة (358)ـ ، واختط مدينة القاهرة سنة (359-361)ـ ، وسماها "القاهرة المعزيـة" وأقـام

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم أنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأحبار والأخبار
هذا إمام المتقين ومن به قد دوّخ الطغيان والكفار
هذا الذي ترجي النجاة بحبه وبه يحط الإصر والأوزار
هذا الذي تجدي شفاعته غداً حقاً وتخمد أن تراه النار[1]

وأمَّا الدروز فقد قال عنهم شيخ الإسلام : "وأما "الدرزية" فأتباع هشتكين الدرزي، وكان من موالي الحاكم ، أرسله إلى أهل وادي تيم الله بن ثعلبه ، فدعاهم إلى إلهية الحاكم ، ويسمونه "الباري" و "العلام" ويحفلون به ، وهم من الإسماعيلية القائلين بأن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله ، وهم أعظم كفراً من الغالية ، يقولون بقدم العالم ، وإنكار المعاد ، وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته ..." [2] .

والمؤمن بالحاكم عندهم يقولون العهد – الذي يقولون : إن الحاكم بأمر الله أمر بكتابته على جميع الموحدين الذين آمنوا به – وهذا العهد ورد في مصحف الدروز ونصه : "آمنت بالله ، ربي الحاكم ، العلي الأعلى ، رب المشرقين ، ورب المغربين ، وإله الأصلين والفرعين ، منشئ الناطق والأساس ، ومظهر الصورة الكاملة بنوره ، الذي على العرش استوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، وآمنت به ، وهو رب الرجعى ، وله الأولى والآخرة ، وهو الظاهر والباطن ... وأعيد فأقول : إنني قد سلّمت روحي وجسدي ، وما ملكت يداي وولدي لمولانا الحاكم – جلّ ذكره – ورضيت بجميع أحكامه لي أو علي ،

الدعوة للمعز بمصر والشام والحجاز ، توفي المعز سنة (635) . انظر "الأعلام" (7/265).

[1] "ديوان ابن هانئ" ص (146) ، انظر "الإسماعيلية" لاحسان إلهي ص (366)

[2] "مجموع الفتاوى" (35/161-162) .

غير معترض ، ولا منكر منها شيئاً ، سرني ذلك أم ساءني ، وإذا رجعت أو حاولت الرجـوع عن دين مولانا الحـاكم – جل ذكــره – والــذي كتبته الآن وأشــهدت به على روحي ونفسي ، أو أشـرت بـالرجوع إلى غـيري ، أو جحـدت أو خــالفت أمــراً أو نهيــاً عن أوامر مــولاي – جل ذكــره – ونواهيه كـان مـولاي الحـاكم – جل ذكـره- بريئـاً مـني ، واحــترمت الحيــاة من جميع الحــدود ، واســتحقت عليَّ العقوبة في جميع أدواري من بـارئ الأنـام – جل ذكـره – وعلى هذا أشهدك ربي ومولاي ، من بيدك الميثاق ، وأقر ، فاجعلني من الموحدين الفائزين الذي جعلتهم في أعلى عليين ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخـرين ، مـولاي إن تشأ آمين"[1] .

وقد ذكر الـذهبي –رحمه اللـه- أن الـدرزي الزنـديق قتل لادعائه ربوبية الحاكم[2] .

وما وقع من هذه الطوائف من تعظيم الأنبياء والصــالحين ومن يظن أنه من الصالحين لا شك أنه من الكفر الصريح ومن قـوادح الربوبية ؛ لأنه تمثيل للمخلـوق بالخـالق فيما هو من الكمـال الـذي لا يسـتحقه إلا الله تعـالى ، ووصف المخلوق به منازعة للربوبية ، ومضاهاة لهـا، وتسـوية بين الله وبين الخلق .

وقد سبق ذكر كلام شيخ الإسـلام في ذلك عند الحـديث عن وجه كون تمثيل المخلوق بالخالق من قوادح الربوبية [3] .

---

[1] (?) "مصــحف الــدروز " ص (107-108) عن "الإســماعيلية" لإحسان إلهي ص (708-709).

[2] (?) انظر "سير أعلام النبلاء" (15/180).

[3] (?) انظر ص (510-512) .

المطلب الأول : تعريف التنجيم وبيان حكمه .

النجـــوم من آيـــات الله الدّالة عليه ، المســـبّحة له ، الساجدة له كما قال تعالى : ﭽﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﭼ[1] وقد أخبر الله -سـبحانه- في كتابـه عن منـافع النجوم بأنها :

1- يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر . قال تعالى : ﭽ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭼ[2] .
2- وأنها زينة للسماء الدنيا .
3- وأنها رجوم للشياطين [3].

قال تعالى : ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﭼ[4] " وإن كانت النجـوم التي ترجم بها الشياطين من نوع آخر غـير النجـوم الثابتـة في السماء التي يهتـدى بهـا ، فـإن هـذه لا تـزول عن مكانهـا بخلاف تلك ، ولهذه حقيقة مخالفة لتلك ، وإن كـان اسـم النجوم يجمعها ، كما يجمع اسـم الدابـة والحيـوان للملـك والآدمي والبهائم والذباب والبعوض"[5] .

وقد ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله- أن النجوم نوعان :

الأول : حساب .

وعرّفه بقوله :"فأما الحسـاب فهـو معرفـة أقـدار الأفلاك والكواكب، وصفاتها ومقـادير حركاتهـا ، ومـا يتبـع ذلـك . فهذا في الأصـل علم صـحيح لا ريب فيـه كمعرفـة الأرض وصفتها ونحو ذلك" [6] .

---

[1] سورة الحج ، الآية (18).
[2] سورة الحج ، الآية (16) .
[3] انظر "مجموع الفتاوى" (35/166-168).
[4] سورة الملك ، الآية (5) .
[5] "مجموع الفتاوى" (35/168) .
[6] "المصدر السابق" (35/ 168) .

وقال –رحمه الله-: "... العلم بالعادة في الهلال علم عام يشترك فيه جميع الناس ، وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما ، وليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب ، ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التي يكون كذبه فيها أعظم من صدقه ، فإن ذلك قول بلا علم ثابت، وبناءً على غير أصل صحيح "[1].

2- أحكام وتأثير:

وعرّفها –رحمه الله- وبيَّن حكمها بقوله :"وصناعة "التنجيم" التي مضمونها الأحكام والتأثير ، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوى الفلكي والقوابل الأرضية : صناعة محرّمة بالكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، بل هي محرّمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل "[2] .

وبيَّن –رحمه الله- : أن هذا القسم هو من جنس السحر[3] .

وذكر –رحمه الله- أن النجوم التي من السحر نوعان:

"أحدهما: علمي :

وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث من جنس الاستقسام بالأزلام.

والثاني: عملي :

وهو الذي يقولون إنه القوى السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية كطلاسم ونحوها . وهذا من أرفع أنواع السحر . وكل ما حرّمه الله ورسوله فضرره أعظم من نفعه"[4] .

وهذا القسم الثاني من أقسام التنجيم وهو "الأحكام والتأثير" هو المراد هنا بكونه قادحاً من قوادح الربوبية .

وقد ذكر شيخ الإسلام أدلة كثيرة على تحريمه من ذلك:

---

[1] (?) "مجموع الفتاوى" (24/256) ، وانظر(24/257).

[2] (?) "المصدر السابق" (35/192) ، وانظر (35/181) ، و "المستدرك على مجموع الفتاوى" (5/130).

[3] (?) انظر"مجموع الفتاوى" (35/181).

[4] (?) "المصدر السابق" (35/171).

1- قوله تعالى: ﭽﮎﮏﮐ ﮑﮒﭼ[1] والتنجيم من السحر. والاستقراء يدل على أن أهل النجـوم لا يفلحـون ، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

2- حديث ابن عباس قـال: قـال رسـول اللـه –صـلى الله عليه وسـلم- : "من اقتبس علمـاً من النجـوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد"[2] .

فقد صرّح رسول الله –صلى الله عليـه وسـلم- بـأن علم النجوم من السحر.

3- حديث قبيصـة بن مخـارق عن النـبي –صـلى اللـه عليه وسلم- قال :"العيافة والطـرق والطـيرة من الجبت " . قال عـوف[3] راوي الحـديث :" العيافـة زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض "[4] . وقيل : بالعكس.

"فـإذا كـان الخـطّ ونحـوه الـذي هـو من فـروع النّجامـة من الجبت فكيـف بالنجامـة ، وذلـك أنهم يولدون الأشـكال في الأرض؛ لأن ذلـك متولـد من أشكال الفلك "[5] .

4- عن صفية بنت عبيد عـن بعض أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم- أنها قال: "من أتى عرّافاً فسـأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً"[6] .

(?)[1] سورة طه ، الآية (69).

(?)[2] أخرجه أحمد في مسنده ح (2000) ، وأبو داود في سننه ح (3905) ، وابن ماجه في سننه ح (3726) . وصحّح إسناده شيخ الإسلام انظر "مجموع الفتاوى" (35/193).

(?)[3] عـــوف بن أبي جَميلة ، بفتح الجيم ، الأعـــرابي العبـــدي البصـــري، ثقة ، مـــات ســـنة ست أو ســـبع وأربعين ، وله ست وثمانون سنة ، انظر "تقريب التقريب" ص(504).

(?)[4] أخرجه أحمد في مسنده ح (20482) ، وأبو داود في سننه ح (3907)، (3908) . وحسّـن إسـناده شـيخ الإسـلام . انظر "مجموع الفتاوى" (35/192-193).

(?)[5] "مجموع الفتاوى" (35/193) .

(?)[6] أخرجه مسلم في صحيحه ح (5821).

" والمنجم يدخل في اسم العـرّاف عنـد بعض العلمـاء ، وعند بعضهم هو في معناه [1] ، فإذا

كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول "[2] .
وفـي مـوضع آخرٍ صـرّح شـيخ الإسـلام بـأن العـرّاف يعمّ المنجم إما لفظاً وإمّا معنى . قال :"والعرّاف يعمّ المنجم وغيره ، إمّا لفظاً وإمّا معنى"[3] .

5- حديث معاويـة بن الحكم السـلمي قـال : قلت يـا رسول الله : إن قوماً منّـا يـأتون الكهـان . قـال : "فلا تأتوهم"[4] .

" فنهى النبي –صلى الله عليه وسلم- عن إتيان الكهّـان ، والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغـيره من العلماء ، وحكي ذلك عن العرب[5] , وعند آخـرين هـو من جنس الكـاهن وأسـوأ حـالاً منـه ، فلحـق بـه من جهـة المعنى" [6][7].

المطلب الثاني : وجه كون التنجيم من قوادح الربوبية .

التنجيم هـو قـادح من قـوادح الربوبيـة ، وقـد بيَّن شـيخ الإسلام وجه ذلك بقوله : "وأما إقسام الله بالنجوم ، كمـا أقسم بها في قوله : ﭽﮋﮌﮍﮎﮏﮐﭼ[8] " فهو كإقسامـه بغير

[1] (?) وانظر "مجموع الفتاوى" (35/173).
[2] (?) "مجموع الفتاوى" (35/193) .
[3] (?) "المصدر السابق" (24/200) .
[4] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (1199) (5813) .
[5] (?) انظر "معالم السنن" (3/275) ، و "فتح الباري" (10/227).
[6] (?) "مجموع الفتاوى" (35/193-194) .
[7] (?) انظر هـذه الأدلـة وغيرهـا "المصـدر السـابق" (35/192-195) .
[8] (?) سورة التكوير ، الآية (15-16).

ذلك من مخلوقاته ، كما أقسم بالليل والنهار ، والشمس والقمر وغير ذلك : يقتضي تعظيم قدر المقسم به ، والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة ، والمنفعة للناس ، والإنعام عليهم وغير ذلك ، ولا يوجب ذلك أن تتعلّق القلوب به ، أو يظن أنه هو المسعد المنحس ، كما لا يظن ذلك في ﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼ[1] ، وفي ﭽﭾﭿﮀﮁﮂ[2] وفي ﭼﮃﮄﮅﮆﭽ[3]

وأمثال ذلك . واعتقاد المعتقد أن نجماً من النجوم السبعة[4] هو المتولي لسعده ونحسه اعتقاد فاسد، وأن المعتقد أنه هو المدبر له : فهو كافر ، وكذلك إن انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كفراً ، وشركاً محضاً "[5] .

فاعتقاد الإنسان أن النجوم تتولى اسعاده ونحسه ، وأنها هي المدبّرة له قدح في الربوبية ، فإن التدبير من خصائص الربوبية ، فالله -سبحانه- هو الذي يدبر شؤون العباد ويتولى أمورهم.

وشيخ الإسلام بيَّن في موضع آخر أن اعتقاد مدبر مع الله شرك في الربوبية ، فإنه لما عرّف

الشرك في الربوبية قال: "الشرك نوعان : شرك في الربوبية : بأن يجعل لغيره معه تدبيراً ما"[6].

---

[1] سورة الليل ، الآية (1-2).

[2] سورة الذاريات ، الآية (1-2).

[3] سورة الطور ، الآية (1-2).

[4] النجوم السبعة السيارة هي : الشمس ، والقمر ، والزهرة ، والمشتري ، والمريخ ، وزحل ، وعطارد . فهذه السبعة لها سيران ، سير إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك ، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها . انظر "تيسير الكريم الرحمن" (5/377).

[5] "مجموع الفتاوى" (35/177).

[6] "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/710).

وأيضاً فإن التنجيم يكون قادحاً من قوادح الربوبية إذا ادّعى من خلاله علم الغيب الذي استأثر الله به . فإن الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى . وهو سبحانه بكل شيء عليم ، وهذا من خصائص الربوبية التي لا تصلح لأحد من المخلوقين ، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ، واعتقاد أحد من المخلوقين أنه يعلم الغيب هو شرك في الربوبية .

قال الشيخ حافظ حكمي[1] – رحمه الله- عند ذكره لأنواع السحر : "فمنها : علم التنجيم ، وهو أنواع : أعظمها ما يفعله عبدة النجوم ويعتقدونه في السبعة السيّارة وغيرها ، فقد بنوا بيوتاً لأجلها وصوّروا فيها تماثيل سمّوها بأسماء النجوم وجعلوا لها مناسك وشرائع يعبدونها بكيفياتها ، ويلبسون لها لباساً خاصاً وحلية خاصة ، وينحرون لها من الأنعام أجناساً خاصة ، لكل نجم منها جنس زعموا أنه يناسبه ، وكل نجم جعلوا لعبادته أوقاتاً مخصوصة كأوقات الصلوات عند المسلمين ، واعتقدوا تصرّفها في الكون . وهذا هو المعروف عن قوم إبراهيم ببابل وغيرها، وإياهم خاطب فما حكى الله عنهم متحديّا لهم مبيناً سخافة عقولهم وضلال قلوبهم قال تعالى: ﭽﭦﭧ ﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮ ﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓ ﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟ ﮠﮡ ﮢﮣ[illegible]ﮤﮥﮦ[illegible]ﭼ[2] إلى آخر الآيات . ومنها ما يفعله من يكتب حروف أبي جاد[3] ،

---

[1] هو الشيخ حافظ بن أحمد حكمي ، من علماء جيزان ، لما بلغ السادسة عشرة بدأ بطلب العلم ، وهو يواصل رعي الغنم ، ثم تفرغ للدراسة . تولى النيابة في إدارة مدارس التعليم بسامطة ، ثم عُيّن مديراً للمعهد العلمي واستمر إلى أن توفي بمكة سنة (1377هـ) ، من مصنفاته "أعلام السنة المشهورة" و "سلم الوصول إلى علم الأصول" أرجوزة، و "معارج القبول " شرح لها . انظر "معجم المؤلفين" (1/519)

[2] سورة الأنعام ، الآية (75-78) .

[3] حروف أبي جاد هي : أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ. وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمّي علم الحرف ، وهو محرم . وأما تعلمها للتهجي

ويجعل لكل حرف منها قدراً من العـدد معلومـاً ، ويجـري على ذلـك أسـماء الآدمـيين والأزمنـة والأمكنـة وغيرهـا ، ويجمع جمعاً معروفاً عنده ، ويطـرح منهـا طرحـاً خاصّـا ، ويثبت إثباتـاً خاصّـا وينسـبه إلى الأبـراج الاثـني عشر[1] المعروفة عند أهل الحساب ، ثم يحكم على تلك القواعـد بالسعود والنحـوس وغيرهـا ممـا يوحيـه إليـه الشـيطان ، وكثـير منهم يغيّـر الاسـم لأجـل ذلـك ويفـرّق بين المـرء وزوجـــه بـــذلك، ويعتقـــد أنهم إن جمعهم بيت لا يعيش أحـدهم . وقـد يتحكّم بـذلك في الغيب ، فيـدّعي أن هـذا يولد له وهذا لا ، وهذا الذكر وهذا الأنثى وهذا يكـون غنيـاً وهذا يكون فقيراً ، وهذا يكون شريفاً وهذا وضـعياً ، وهـذا محبّباً وهذا مبغضا ، كأنه هو الكاتب ذلك للجنين في بطن أمّه ، لا والله لا يدريه الملك الذي يكتب ذلك حـتى يسـأل ربه أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد ؟ ما الرزق وما الأجل؟ فيقول له فيكتب . وهذا الكاذب المفـتري يـدّعي علم مـا استأثر الله بعلمه ، ويدّعي أنه يدركـه بصـناعة اخترعهـا ، وأكاذيب اختلقها. وهـذا من أعظم الشـرك في الربوبيـة ، ومن صدّقه به واعتقده فيه كفر . والعياذ بالله "[2] .

المطلب الأول: تعريف الكهانة وبيان حكمها .

عـرّف شـيخ الإسـلام الكهانـة ، وبيَّن أين يكـثر الكهـان بقوله : "فالكهانـة مثلاً: وهـو الإخبـار ببعض الغائبـات عن

وحساب الجمل فلا بأس به . انظر "تيسير العزيز الحميـد" ص (355) ، و"فتح المجيد" (2/497) ، و "حاشية كتاب التوحيد" ص (207-208) ، و "القول المفيد" (2/64).

[1] وهي: الحمل ، والثَّوْر ، والجَـوْزاء ، والسَّـرطان ، والأَسد ، والسُّنْبُلة ، والميزان ، والعقرب ، والقـوس ، والجَـدْي ، والـدلو ، والحوت . انظر "معـالم التنزيل " (2/577) ، و"زاد المسـير" (4/295).

[2] "معارج القبول" (2/701-702)

الجن معروف عند الناس . وأرض العـرب كـانت مملـوءة من الكهـان ، وإنمـا ذهب ذلـك بنبـوة محمـد –صـلى اللـه عليه وسلم- . وهم الكثيرون في كل موضع نقص فيه أمر النبـوة ، فهم كثـيرون في أرض عبَّاد الأصـنام ، ويوجـدون كثيراً عند النصارى ، ويوجدون كثيراً في بلاد المسـلمين ، حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول " [1] .

وبيَّن –رحمـه اللـه- أن الكهـان وإن كـانوا يخـبرون أحيانـاً بشيء من المغيَّبات ويكون صدقاً إلاَّ أنهم يكذبون كثـيراً ، وهم يخبرون بذلك عن الشياطين ، وعليهم من آثارهم ما يدلّ على أن الكاهن أفاك أثيم كما قال تعالى : ﭽ ﮪﮫﮬ ﯓﯔﯕﯖ ﭼ [2] "[3] .

والكهانـة محرَّمة[4] وقـد نهى النـبي –صـلى اللـه عليـه وسلم- عن إتيان الكهان ، فعن معاوية بن الحكم السلمي قـال : قلت : يـا رسـول اللـه ! أمـوراً كنـا نصـنعها في الجاهلية ، كنا نأتي الكهان قال –صلى الله عليه وسـلم- : "فلا تأتوا الكهان"[5] .

وأخـبر النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- أن الكـاهن ولي الجني ، وأنه ليس بشيء . فعن عائشة –رضي الله عنها- قالت : سأل الناس رسول الله –صلى اللـه عليـه وسـلم- عن الكهـان فقـال : "ليس بشـيء . فقـالوا : يـا رسـول اللـه ، إنهم يحـدثوننا أحيانـاً بشـيء فيكـون حقـاً ، فقـال رسول الله –صلى الله عليـه وسـلم- : "تلـك الكلمـة من الحق يخطفهـا الجـني فيقرُّهـا في أذن وليـه ، فيخلطـون معها مائة كذبة"[6] .

---

[1] "النبوات" (1/166).
[2] سورة الشعراء ، الآية (221-223) .
[3] انظر "شرح الأصبهانية" ص (542) ، و "النبوات" (2/997).
[4] انظر "مجموع الفتاوى" (27/177).
[5] سبق تخريجه ص (528).
[6] أخرجه البخـاري في صـحيحه ح (5762)ـ ، ومسـلم في صحيحه ح (5816) (5817).

وأطلق على الكاهن ولي الجني لكونه يواليه[7] .

وقال –صلى الله عليه وسلم- : "من أتى حائضاً ، أو امرأة في دبرها ، أو كاهناً فصدّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد"[2] .

وهذا فيه دليل على كفر الكاهن ؛ لأنه يدّعي علم الغيب ، وذلك كفر ، والمصدّق له يعتقد ذلك ويرضى به ، وذلك كفر أيضاً [3] .

المطلب الثاني : وجه كونه الكهانة من قوادح الربوبية .

قرّر شيخ الإسلام أن من خصائص الربوبية التي اختصَّ الله تعالى بها وصفه بأنه بكل شيء عليم[4]. فهو -سبحانه – يعلم الغيب والشهادة ، وهو تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

---

[7] انظر "فتح الباري" (10/230).

[2] أخرجه أبو داود في سننه ح (3904) ، و الترمذي في سننه ح (135) ، وابن ماجه في سننه ح (639) واللفظ له . وصححه الألباني انظر "صحيح ابن ماجه" (1/198).

[3] انظر "تيسير العزيز الحميد" ص (350-351) ، و "فتح المجيد" (2/491)

[4] سبق بيان ذلك . انظر ص (211) .

والله -تعالى- هو وحده الذي يعلم الغيب ولهذا قال تعالى : ﭽﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴ [1] .
وقال : ﭽ   ﭼ [2]
وقال : ﭽ   ﯽﯾﯿ   ﭼ [3]
وعلم الله تعالى بـالغيب هـو من خصـائص الربوبيـة الـتي اختص الله تعـالى بهـا ، ولا تصـلح لأحـد من المخلـوقين ، فمن ادعى أنه يعلم الغيب فهو كاذب ، وهو منـازع للـربّ في ربوبيته.
والكهانة هي قادح من قوادح الربوبية ؛ لأن الكاهن يدعي أنـه يعلم الغيب ، فهـو ينـازع الـرب فيمـا اختص بـه من صـفاته . ولهـذا قـال الشـيخ حافـظ حكمي –رحمـه اللـه- :"وأمـا كفـر الكـاهن فمن وجـوه : ... الثـامن وهـو أعظمها : تشبهه بالله – عز وجل – في صفاته ومنـازعته لـه تعـالى في ربوبيتـه ، فـإن علم الغيب من صـفات الربوبية التي استأثر الله – تعـالى – بهـا دون من سـواه ، فلا سمّي له ولا مضاهي ولا مشارك... "[4] .
وقال الشيخ السعـدي في شـرح كتـاب التوحيـد معلِّقـاً على بـاب ما جاء في الكهان ونحـوهم :"أي من كـل من يدّعي علم الغيب بأي طريق من الطرق . وذلك أن الله -تعالى- هو المنفرد بعلم الغيب ، فمن ادّعى مشاركة اللـه في شيء من ذلك بكهانـة أو عرافـة أو غيرهمـا أو صـدّق من ادّعى ذلـك ، فقـد جعـل للـه شـريكاً فيمـا هـو من خصائصه ، وقد كـذّب اللـه ورسـوله ، وكثـير من الكهانـة المتعلقة بالشياطين لا تخلـو من الشـرك ، والتقـرّب إلى الوسائط التي تسـتعين بهـا على دعـوى العلـوم الغيبيـة ،

---

[1] سورة النمل ، الآية (65).
[2] سورة الأنعام ، الآية (59).
[3] سورة الجن ، الآية (26-27).
[4] "معارج القبول" (2/716) ، وانظر "تيسير العزيز الحميد" ص (354) ، و "فتح المجيد" (2/496).

فهو شرك من جهة دعوى مشاركة اللـه في علمـه الـذي اختصّ به ، ومن جهة التقرّب إلى غير الله "[1] .

المطلب الأول : المراد بالاستسقاء بالأنواء وبيان حكمه .

المراد بالاستسقاء بالأنواء : نسبة السُّـقيا ومجيء المطـر إلى الأنواء[2] .

"والنوء في كلام العرب واحد أنـواء النجـوم ، يقـال : نـاء النجم ينوء ، أي نهض ينهض للطلوع ، وقد يكون أن يميل للمغيب ، ومما قيل : نـاوأت فلانـاً بالعـداوة أي ناهضـته ، ومنـه قـولهم الحمـل ينـوء بالدابـة أي : يميـل بهـا . وكـل ناهض بثقـل وإبطـال فقـد نـاء . والأنـواء على الحقيقـة : النجـوم الـتي هي منـازل القمـر ، وهي ثمـان وعشـرون منزلة ، يبدو لعين الناظر منها أربعة عشر مـنزلاً ، ويخفى أربعة عشر ، فكلما غاب منها منزل بالمغرب طلـع رقيبـه من المشـــرق ، فليس يعـــدم منهـــا أبـــداً أربعـــة عشـــر للناظرين في السماء ، وإذا لم ينزل مع النوء مـاء قيـل : خوى النجم وأخوى ، وخوى النـوء وأخلـف . وأمـا العـرب

[1] "القول السديد" ص(100).

[2] انظر "تيسير العزيز الحميد" ص (387) ، و "فتح المجيد" (2/535) ، و "قرة عيون الموحدين" ص (155).

فكانت تضيف المطـر إلى النـوء ، وهـذا عنـدهم معـروف مشهور في أخبارهم وأشعارهم ، فلما جاء الإسلام نهـاهم رسول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسـلم – عن ذلـك وأدّبهم وعرّفهم ما يقولون عند نـزول المـاء ، وذلـك أن يقولـوا : مطرنـا بفضـل اللـه ورحمتـه ، ونحـو هـذا من الإيمـان والتسليم لما نطق به القرآن "[1] .

ونسبة السقيا ومجي المطر إلى الأنواء محرّم ، فعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله –صـلى اللـه عليـه وسـلم- قـال : "أربـع في أمـتي من أمـر الجاهليـة لا يـتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة "[2] .

وعن زيد بن خالد الجهني قال : صـلى بنـا رسـول اللـه – صلى اللـه عليـه وسـلم- صـلاة الصـبح بالحديبيـة في إثـر سماء كانت من الليـل ، فلمـا انصـرف أقبـل على النـاس فقال : "هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قـالوا: اللـه ورسـوله أعلم. قال : "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر . فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمتـه فـذلك مـؤمن بي كـافر بالكوكب ، وأما من قـال : مطرنـا بنـوء كـذا وكـذا فـذلك كافرٌ بي مؤمن بالكوكب"[3] .

---

[1] "التمهيـد" (5/337)ـ ، وانظر "النهاية في غـريب الحـديث والأثـر" ص (944)ـ ، و "تهـذيب اللغـة" (15/536-539)ـ ، و "لسان العرب" (14/376-377) .

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ح (2160).

[3] أخرجه البخـاري في صـحيحه ح (1038)ـ ، ومسـلم في صحيحه ح (231) واللفظ له .

المطلب الثاني : وجه كون الاستسقاء بالأنواء من قوادح الربوبية .

نعم الله – سبحانه وتعالى- على عباده كثيـــرة ، لا تعـدّ و لا تحصى كما قال تعالى : ﭽﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭼ[1] ، وهو سبحانه وتعالى المستحق وحـده للشـكر على النعم ، ومن شـكر النعمة إضـافتها إلى المنعم الحقيقي وهـو اللـه –سـبحانه وتعالى- .

ومن تلـك النعم الـتي يجب إضـافتها للـه -تعـالى- نعمـة المطر ، فإنه سبحانه هو الـذي يـنزل المطـر، وهـو الـذي يستحق وحـده أن يشـكر على هـذه النعمـة ، ومن شـكر الله على ذلك إضـافتها إليـه فيقـال : مطرنـا بفضـل اللـه ورحمته ، وإذا أضاف العبد هذه النعمة إلى الأنواء فقال : مطرنا بنوء كذا وكذا فإن هذا مؤمن بالكوكب كافر بالله . فإذا أراد بقولـه : "مطرنـا بنـوء كـذا وكـذا" أن النجم هـو المنزِّل للمطر فهذا شرك في الربوبية ؛ لأنَّه أضـاف هـذا الفضل وهو إنزال المطـر الـذي هـو من صـفات الربوبيـة إلى غير الله -تعالى- على أنه هو الفاعل بنفسـه من دون الله.

وإن أراد بقوله : "مطرنا بنو كذا وكـذا" أن الأنـواء سـبب لنزول المطر والله تعـالى هـو الفاعـل لـذلك الخـالق لـه فهذا شرك أصغر .

قـال الشـيخ عبـد الـرحمن بن حسن[2] : "إذا اعتقـد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر فهـذا كفـر ؛ لأنـه شـرك في

---

[1](?) سورة إبراهيم ، الآية (34).

الربوبية ، والمشرك كـافر ، وإن لم يعتقـد ذلـك فهـو من الشرك الأصغر ؛ لكونه نسب نعمة اللـه إلى غـيره ؛ ولأن الله لم يجعل النوء سـبباً لإنـزال المطـر فيـه ، وإنمـا هـو فضلٌ من الله ورحمة ، يحبسه إذا شـاء ، وينزله إذا شاء" [1] .

وقـد بيَّن شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- أنـه كثـيرٌ جـداً في الكتاب والسنة مـا يـذم سـبحانه من يضيـــف إنعامـه إلى غيره ويشركه بـه قـال : "وقـد ذمّ سـبحانه من كفـر بعـد إيمانه كما قال : ﭽﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﭼ[2] الآية ، فهــذا في كشف الضر ، وفي النعم قال : ﭽﭨﭩﭪﭫﭼ[3] أي : شكركم وشكر مــا رزقكم اللـــه ونصــيبكم تكـــذيباً ، وهـــو الاستســقاء بالأنواء ،كمـا ثبت في حـديث ابن عبـاس الصـحيح قـال : مطــر النـاس على عهـد رسـول اللـه –صـلى اللـه عليـه وسلم- فقال –صلى الله عليه وسلم- : "أصبح من النـاس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، قال : فنزلت هذه الآية : ﭽ ﯨﯩ ﯪﯫﭼ حتى إذا بلغ ﭽﭨﭩﭪﭫﭼ[4] . رواه مسلم[5] . وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة عن رسـول اللـه –صـلى اللـه

(?)[2] هو الشـيخ عبد الـرحمن بن حسن بن الشـيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولد سنة (1196) هـ في الدرعية وشبّ بها ، أخذ العلم عن جـدّه الشـيخ محمد بن عبد الوهـاب ، وعمومته ، وأخذ العلم أيضـاً عن علمـاء مصر . من تصـانيفه "قـرة عيـون الموحـدين" حاشية على كتـاب التوحيد . تـوفي بالدرعية سـنة (1285) هــ . انظر "الأعلام" (3/304)ـ ، و "معجم المـؤلفين" (2/88)ـ ، و "الدرر السنية" (16/404) وما بعدها .

(?)[1] "فتح المجيد " (2/543)ـ ، وانظر "تيسـير العزيز الحميد " ص(390)ـ ، و "قرة عيـون الموحـدين" ص(158)ـ ، و"حاشـية كتاب التوحيـد" ص (233)ـ ، و "القـول المفيـد" (2/115-116، 312)، و "إعانة المستفيد" (2/32) ، و "التمهيد" ص(356).

(?)[2] سورة الأنعام ، الآية (63).

(?)[3] سورة الواقعة ، الآية (82).

(?)[4] سورة الواقعة ، الآية (75-82).

(?)[5] أخرجه مسلم في صحيحه ح (234).

عليه وسلم- : "مـا أنـزل من السـماء من بركـة إلاَّ أصـبح فريق من الناس بها كافرين ، يـنزل اللـه الغيث فيقـول : الكوكب كذا وكذا ، وفي لفظ له : "بكوكب كذا وكذا"[1] . وفي الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني قال : صـلى بنـا رسول الله –صلى الله عليه وسلم- صلاة الصبح على إثـر سماء كـانت من الليـل قـال : "أتـدرون مـاذا قـال ربكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبــادي مؤمن بي وكافر ، فمن قال : مطرنا بفضل الله ورحمتــه فذلك مؤمن بي كافر بـالكوكب ، ومن قـال : مطرنـا بنـو كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بـالكوكب"[2] . وهـذا كثـير جداً في الكتاب والسـنة يـذم سـبحانه من يضـيف إنعامـه إلى غيره ويشركه به . قـال بعض السـلف : هـو كقـولهم كـانت الـريح طيبـة والملاح حاذقـاً. ولهـذا قـرن الشـكر بالتوحيد في الفاتحة وغيرها : أولها شكر وأوسطها توحيد ، وفي الخطب المشروعة لا بدَّ فيها من تحميـد وتوحيـد ، وهـذان همـا ركن في كـل خطـاب ، ثم بعـد ذلـك يذكـــر المتكلـــم من مقصـــوده مـــا يناســـب من الأمـــر والنهي والترغيب والترهيب وغير ذلك ..." [3] .

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ح (233).

[2] سبق تخريجه ص (537) .

[3] "مجموع الفتاوى" (32/8-33).

المطلب الأول : تعريف الطِّيرة وبيان حكمها .

الطِّيرة بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكَّن ، هي : التشاؤم بالشيء .

وهي مصدر تطيّر، يقال: تطيّر طيرة ، وتخيّر خيرة .

وأصـل التطيّـر: أنهم كـانوا في الجاهليـة يعتمـدون على الطير ، فإذا خرج أحدهم لأمر ، فإن رأى الطير طار يمنة تيمّن بـــه واســتمرّ ، وإن رآه طــار يسّــره تشــاءم بــه ورجع ،وربما كـان أحـدهم يهيج الطـير ليطـير فيعتمـدها . فجاء الشرع بالنهي عن ذلك ، وأبطله ، وبيَّن أنه ليس لـه تأثير في جلب نفع أو دفع ضر[1]

وقد بيَّن شيخ الإسلام المراد بالطِّيرة والـدليل على النهي عنها بقوله : " وأما الطِّيرة : بأن يكون فعل أمـراً متـوكلاً على الله أو يعزم عليه فيسمع كلمـة مكروهـة مثـل : مـا يتم ، أو ما يفلح ونحو ذلك ، فيتطيّـر ويـترك الأمـر. فهـذا منهي عنه كما في الصحيح عن معاوية بن الحكم السلمي قال : " قلت يا رسول الله ! منّـا قـوم يتطـيرون . قـال : ذلك شيء يجده أحدكم قال: ذلك شيء يجده أحدكم في نفســه فلا يصـدَّنكم"[2] . فنهى النـبي –صـلى اللـه عليـه وسلم- أن تصدّ الطيرة العبد عمّا أراد ، فهو في كل واحد من محبتـه للفـأل وكراهتـه للطيّـرة إنمـا يسـلك مسـلك الإستخارة لله ، والتوكل عليه ، والعمل بما شـرع لـه من الأسباب ،لم يجعل الفأل آمراً لـه وباعثـاً لـه على الفعـل، ولا الطّيرة ناهية له عن الفعـل ، وإنمـا يـأتمر وينتهي عن مثل ذلك أهل الجاهلية الذي يستقسمون بالأزلام"[3] .

والطيرة شـرك كمـا في حـديث ابن مسـعود عن رسـول الله –صلى الله عليه وسلم- قال :

---

[1] انظر " النهاية في غريب الحديث والأثر" ص (574) ، و "فتح الباري" (10/223) .

[2] سبق تخريجه ص (528) .

[3] "مجمــوع الفتــاوى" (23/67)ـ ، وانظر (28/29)ـ ، و "المستدرك على مجموع الفتاوى" (1/27).

" الطــيرة شــرك ، الطيِّرة شــرك" ثلاثــاً [1]. وهي من الشرك الأصغر[2] .

المطلب الثاني : وجه كون الطِّيرة من قوادح الربوبية .

وجه كون الطّيرة من قوادح الربوبية :
أن المتطيِّر يعتقد أن الطّيرة تجلب له نفعاً أو تدفع عنه ضراً إذا عمل بموجبها، ومن المعلوم أن المنفرد بالنفع والضر هو الله سبحانه وتعالى ، واتصاف الرب-تعالى- بالنفع والضر هو من صفات الربوبية وخصائصها ، فإذا جعل المتَطَيَّر به كذلك فكأنه أشركه مع الله .
قال ابن الأثير[3] عند شرحه لقول النبي –صلى الله عليه وسلم- : "الطيرة شرك"[4] : "وإنما جعل الطيرة من الشرك ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً أو يدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبه ، فكأنهم أشركوه مع الله في ذلك"[5] .

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه ح (3910) ، والترمذي في سننه ح (1614) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في سننه ح (3538) ، وأحمد في مسنده ح (3687) . وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود " (2/474) .

[2] انظر"فتح المجيد" (2/506)، و "حاشية كتاب التوحيد" ص (212).

[3] مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري ، القاضي الرئيس ، العلامة ، الكاتب ، ابن الأثير ، صاحب "جامع الأصول" ، حدّث وانتفع به الناس ، وكان ورعاً عاقلاً زاهداً ، ذا برّ وإحسان . انظر "سير أعلام النبلاء" (21/488) وما بعدها .

[4] سبق تخريجه ص (541) .

[5] "النهاية في غريب الحديث والأثر"ص (574) ، وانظر "المنهاج في شرح صحيح مسلم" (14/439) ، و "فتح الباري" (10/224) ، و"تيسير العزيز الحميد" ص (375) ، و "فتح المجيد" (2/523) ، و "حاشية كتاب التوحيد" ص(212 ، 219).

وقال شمس الحق العظيم آبادي[1] عند شـرح الحـديث :" " الطيرة شرك" أي لاعتقادهم أن الطّيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً ، فإذا عملوا بموجبها فكـأنهم أشـركوا بالله في ذلك ، ويسمّى شركاً خفياً، ومن اعتقد أن شـيئاً سوى اللـه ينفـع أو يضـرّ بالاسـتقلال فقـد أشـرك شـركاً جلياً" [2] .

المطلب الأول : تعريف الإطراء وبيان حكمه .

الإطراء هو " المدح بالباطل، تقول : أطريت فلاناً مدحته فأفرطت في مدحه"[3] .

وعرّفه ابن الأثير بأنه " مجاوزة الحدّ في المدح والكذب فيه"[4] .

والإطراء محرّم ، نهى عنه النبي –صلى الله عليه وسلم- كما في حديث عمر قال : سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم- يقول : "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله"[5] .

قـال الشـيخ سـليمان بن عبـد اللـه [6] معلّقـاً على هـذا الحـديث : "أي لا تمـدحوني فتغلـوا في مـدحي كمـا غلت النصـارى في عيسـى ، فـادّعوا فيـه الربوبيـة، و"إنمـا أنـا

---

[1] (?) هو محمد شـمس الحق العظيم آبـادي الهنـدي أبو الطيب ، المحدّث ولد في ذي القعدة سـنة (1273هـ) ، من آثـاره شـرح كبـير على سـنن أبي داود, انظر "معجم المـؤلفين" (3/346-347).

[2] (?) "عون المعبود" (10/288).

[3] (?) "فتح الباري" (6/565) ، وانظر "عمدة القاري" (16/58).

[4] (?) "النهاية في غريب الحديث والأثر" ص(562).

[5] (?) سبق تخريجه ص (491) .

[6] (?) سـليمان بن عبد الله بن الشـيخ محمد بن عبد الوهـاب ، ولد سـنة (1200)هـ ، كـان آية في العلم والحلم والحفظ والـذكاء، وقد أجازه الشـيخ الشـوكاني ، نُمي به عند إبـراهيم باشا فقتلـه، وكـان ذلك سـنة (1233)هـ . انظر "الـدرر السـنية" (16/384-386) ، و "الأعلام" (3/129).

عبد" لله فصفوني بذلك كما وصفني به ربي ، و "قولوا : عبد الله ورسوله" فأبى عبّاد القبور إلاَّ مخالفةً لأمره وارتكاباً لنهيه ، وناقضوه أعظم المناقضة ، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه" عبد الله ورسوله" وأنه لا يدعي ولا يستغاث به، ولا ينذر له ، ولا يطاف بحجرته ، وأنه ليس له من الأمر شيءٌ ، ولا يعلم من الغيب إلاَّ ما علَّمه الله أن في ذلك هضماً لجنابه، وغضاً من قدره ، فرفعوه فوق منزلته ، وادّعوا فيه ما ادّعت النصارى في عيسى أو قريباً منه ، فسألوه مغفرة الذنوب ، وتفريج الكروب..."[1] .

المطلب الثاني : وجه كون الإطراء من قوادح الربوبية .

خصائص الربوبية التي اختصّ الله تعالى بها لا يصحّ ألبتة ، إطلاقها على المخلوق ، كالاتصاف بالخلق، والربوبية للعالمين، والغنى عن العالمين ، والملك ، والتدبير ، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير وغير ذلك من صفات الربوبية ، وإثبات ذلك للمخلوق هو إطراء له ، وهو من قوادح الربوبية ؛ لأنه تمثيل للمخلوق بالخالق ، ومشاركة لله فيما هو من خصائصه.

قال شيخ الإسلام –رحمه الله-: "فإذا قال قائل : لا يجوز التوكل إلاّ على الله وحده ، ولا العبادة إلاّ لله وحده ولا يتقى ويخشى إلاّ الله وحده ، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم كان هذا تحقيقاً للتوحيد، ولم يكن هذا سبّاً لهم ولا تنقصاً بهم ولا عيباً لهم ، وإن كان فيه بيان نقص درجتهم عن درجة الربوبية، فنقص المخلوق عن الخالق من لوازم كل مخلوق ، ويمتنع أن يكون المخلوق مثل الخالق، والملائكة والأنبياء كلّهم عباد لله يعبدونه ،كما قال تعالى :

---

[1] (?) "تيسير العزيز الحميد"ص (262)ـ ، وانظر "فتح المجيد" (381-1/380).

ﭽﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛﭼ[1]وقــال تعــالى: ﭽﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭼ إلى قوله:ﭽﮑ ﮒ ﮓﭼ[2] فإذا نفى عن مخلوق ملك أو نبي أو غيرهما ما كان من خصـائص الربوبيـة وبيّن أنـه عبـدٌ للـه كان هذا حقاً واجب القبول، وكان إثباته إطراء للمخلوق ، فإن رفعه عن ذلك كان عاصـياً بـل مشـركاً ، ولهـذا قـال النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- في الحـديث الـذي في الصحيحين عن ابن عباس عن عمر قال: قال رسول اللـه - صــلى اللــه عليــه وســلم- :"لا تطــروني كمــا أطــرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد الله فقولوا: عبد الله ورسوله"[3]..." [4] .

ومن أمثلة الإطراء الذي هو من قوادح الربوبية:

- قــول النصــارى في المســيح : إنــه رب العــالمين ، وخالق السماوات والأرض ، وأنه بكـل شـيء عليم ، وعلى كل شيء قدير.
- وقــول غلاة الصــوفية في النــبي –صــلى اللــه عليــه وسلم- وفي شيوخهم : إنهم يعلمون ما يعلمه اللـه ، ويقدرون على ما يقدر عليه الله .
- وقــول غلاتهم أيضــاً في الرّســل والمشــايخ : إنهم يــدبّرون العــالم بــالخلق والــرزق وقضــاء الحاجــات وكشف الكربات .

وقـد سـبق ذكـر كلام شـيخ الإسـلام عنهم في ذلـك عنـد الحديث عن تعظيم الأنبياء والصالحين تعظيم ربوبية[5] .

---

[1] (?) سورة النساء ، الآية (172).
[2] (?) سورة الأنبياء ، الآية (26-29).
[3] (?) سبق تخريجه ص (491) .
[4] (?) " الاخنائية" ص (488-489).
[5] (?) انظر ص (517-518) .

المطلب الأول: القائلون بهذا القول .

بيَّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن القائلين بأن العبد يخلق فعله هم القدرية من المعتزلة وغيرهم.

قال شيخ الإسلام عند ردّه على ابن حزم : "أما اتفاق السلف وأهل السنة والجماعة على أن الله وحده خالق كل شيء فهذا حق، ولكنهم لم يتفقوا على كفر من خالف ذلك ، فإن القدرية الذين يقولون: إن أفعال الحيوان لم يخلقها الله أكثر من أين يمكن ذكرهم من حيث ظهرت القدرية في أواخر عصر الصحابة إلى هذا التاريخ، والمعتزلة كلهم قدرية، وكثير من الشيعة ، بل عامّة الشيعة من المتأخرين ، وكثير من المرجئة والخوارج ، وطوائف من أهل الحديث والفقه نُسبوا إلى ذلك ، منهم طائفة من رجال الصحيحين ، ولم يجمعوا على تكفير هؤلاء . والمنصوص عن مالك والشافعي وأحمد في القدرية أنهم إذا جحدوا العلم كفروا ، وإذا لم يجحدوا لم يكفروا"[1] .

---

[1] "جامع المسائل" (3/343)، وانظر "جامع الرسائل" (1/123، 129) ، و "الاستغاثة" (2/417) ، و"درء التعارض" (9/165-166) ، و "المستدرك على مجموع الفتاوى" (1/139) و "مجموع الفتاوى" (2/400) (8/444، 520-521) (12/327-328) ، و "منهاج السنة"(1/99-100)(2/299-301)(3/8-9،12)،وانظر "مقالات الإسلاميين"(1/114-115، 148، 204، 234، 298) ، و"شرح الأصول الخمسة " ص(323) وما بعدها ، و "المختصر في أصول الدين" (1/208) ، و "التبصرة في التوحيد والعدل" ص (63-64) ، و "منهاج الكرامة"ص (4-6، 8 ومابعدها). وللوقوف على أسماء من رمي بالقدر من رجال الصحيحين انظر "تدريب الراوي" (1/278-279).

وقد بيَّن شيخ الإسلام عدة أمور متعلقة بقول القدرية هي ما يلي:

1) أن جمهور القدرية يقرّون بعلم الله – تعالى – وكتابه لأفعال العباد ، ولم ينكر ذلك إلاَّ الغلاة من القدرية[1] وغيرهم ، وأمّا جمهور القدرية فهم يثبتون ذلك ، ولكنهم ينكرون عموم مشيئة الله ، وعموم خلقه وقدرته ، ويظنون أنه لا معنى لمشيئته إلاّ أمره، فما شاء فقد أمر به ، وما لم يشأه لم يأمر به ، فلزمهم أن يقولوا : إنه قد يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء [2].

2) أن القدرية يقرّون بأن الله خالق العباد ، ويعترفون بأن الله خلق الإنسان مريداً ، ولكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول أي: قابلاً لأن يريد هذا وهذا وأمّا كونه مريداً لهذا المعيّن وهذا المعيّن ، فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله ، وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً، فإن الله خالق كل شيء[3] .

3) أن " القدرية متفقون على أن العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة، والله عندهم ما أحدث لا هذا ولا هذا ، بل أمر بهذا ونهى عن هذا...ومن توهم عنهم أو من نقل عنهم أن الطاعة من الله والمعصية من العبد فهو جاهل بمذهبهم، فإن هذا لم يقله أحد من علماء القدرية،

---

[1] غلاة القدرية هم : الذين ينكرون علم الله -عز وجل- بالأشياء قبل وجودها وكتابته لها ، وكان أول من أظهر ذلك بالبصرة معبد الجهني ، وأخذ عنه هذا المذهب غيلان الدمشقي ، وهذا القول حدث في زمان المتأخرين من الصحابة ، وقد تبرأوا منه . انظر "الفرق بين الفرق" ص (25)، و "التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية" ص(253-254).

[2] انظر "مجموع الفتاوى" (8/288 ، 429-430 ، 450).

[3] انظر "التدمرية" ص (181)، و "مجموع الفتاوى" (8/206) (14/298-299) ،و"الردّ على المنطقيين" (2/246).

ولا يمكن أن يقوله ، فإن أصل قولهم أن فعل العبــد للطاعة كفعله للمعصية ، كلاهما فعله بقدرة تحصــل له من غير أن يخصّه الله بإرادة خلقها فيـه، ولا قـوة جعلها فيه تختصّ بأحدهما"[1] .

4) متأخرة القدريـة يصـرّحون بـأن العبـاد خـالقون لأفعــالهم ، وسـلفهم وإن كــانوا يخرجــون أفعــال الحيــوان عن أن تكــون مخلوقــة للــه ، إلاَّ أنهم لا يتجرئون على القول بأنهم خالقون لها[2] .

المطلب الثاني : شبهتهم والردّ عليهم .

استدلّ القدرية على قولهم بأن العبد يخلق فعله بأدلة عقلية ونقلية ، ومن أدلتهم التي ذكرها شيخ الإسلام ما يلي :

أولاً:

قالوا : إن الله عدلٌ لا يظلم ، ولو كان خالقاً لأفعال العباد لكان ظالماً لهم ؛ لأنه يعاقبهم على ما خلقه فيهم ، ولا يتمّ تنزيه الله عن الظلم إلاّ بإخراج أفعال العباد عن خلق الله [3].

وأجاب شيخ الإسلام عن ذلك بما يلي :

1- أن وصـف اللـه بالعـدل ونفي الظلم عنـه متفـق عليـه بين المسـلمين " ولكن النّـزاع في تفسـير ذلك ، فهو إذا كان خالقاً لأفعال العباد هـل يقـال : إنه فعل ما هو قبيح منه وظلم أم لا؟ فأهل السنة المثبتون للقدر يقولون : ليس هو بذلك ظالمـاً ولا

---

[1] "مجموع الفتاوى" (8/116).

[2] انظر "منهاج السنة" (3/294).

[3] انظر "جـامع الرسـائل" (1/123، 129)، و "تفسـير آيـات أشكلت" (1/446-447)، و "منهاج السنة" (2/294)، (3/20) ، وانظر "منهاج الكرامة" ص (9-10) ، و "انقاذ البشر من الجبر والقـدر" للشـريف المرتضى ضـمن رسـائل العـدل والتوحيـد" (1/279) ، و "الأصـول" ضـمن "مجمـوع كتب ورسـائل الإمـام المرتضى محمد بن يحيى" (2/706-708) .

فاعلاً قبيحاً ، والقدرية يقولون : لو كان خالقاً لأفعال العباد كان ظالماً فاعلاً لما هو قبيح منه"[1] .

2- ليس كل ما كان ظلماً من العبد يكون ظلماً من الربّ ، ولا ما كان قبيحاً من العبد يكون قبيحاً من الربّ ، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. والقدرية من المعتزلة وغيرهم جعلت الظلم الذي ينزه عنه الخالق من جنس الظلم الذي ينهى عنه المخلوق، وشبهوا الله تعالى بخلقه ، فأوجبوا عليه وحرّموا عليه من جنس ما يجب ويحرم على المخلوق، فهم مشبِّهة الأفعال[2] .

3- أن الله سبحانه يخلق ما يخلقه لحكمه ، ومن جملة المخلوقات ما قد يحصل به ضرر عارض لبعض الناس ، كالأمراض والآلام وأسباب ذلك ؛ فخلق الصفات والأفعال التي هي أسبابه من جملة ذلك . فهذا الحادث بالنسبة إلى الربّ له فيه حكمة يحسن لأجل تلك الحكمة ، وبالنسبة إلى العبد عدلٌ؛ لأنه عوقب على فعله ، فما ظلمه الله ولكن هو ظلم نفسه " واعتبر ذلك بأن يكون غير الله هو الذي عاقبه على ظلمه ، ولو عاقبه ولي امر على عدوانه على الناس فقطع يد السارق، أليس ذلك عدلاً من هذا الوالي؟ وكون الوالي مأموراً بذلك يبيّن أنه عادل . لكن المقصود هنا أنه مستقر في فطر الناس وعقولهم أن ولي الأمر إذا أمر الغاصب بردّ المغصوب إلى مالكه ، وضمن التالف بمثله أن يكون حاكماً بالعدل ، ومازال العدل معروفاً في

---

[1] "منهاج السنة" (2/294).

[2] انظر "منهاج السنة" (3/151) ، و "مجموع الفتاوى" (8/505-506) ، و "شرح الأصبهانية" ص (697) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (6/547-548).

القلوب والعقول ، ولو قال هذا المعـاقب: أنـا قـد قُـدِّر عليَّ هـذا لم يكن هـذا حجـة لـه ، ولا مانعـاً لحكم الوالي أن يكون عـدلاً . فاللـه تعـالى أعـدل العـــادلين إذا اقتصّ للمظلـــوم من ظالمـــه في الآخرة أحق بأن يكون ذلك عـدلاً منـه ، فـإن قـال الظالم: هـذا كـان مقـدّراً عليّ لم يكن هـذا عـذراً صحيحاً ولا مسقطاً لحق المظلوم ، وإذا كان اللــه هو الخالق لكل شيء فذاك لحكمة أخـرى لـه في الفعل. فخلقه حسن بالنسبة إليه لمـا لـه فيـه من الحكمة ، والفعل القبيح المخلوق قبيح من فاعلــه لما عليه فيـه من المضـرّة ، كمـا أن أمـر الـوالي بعقوبة الظالم يسّر الوالي لما فيـه من الحكمـة ، وهو عدله وأمره بالعدل ، وذلك يضرّ المعاقب لما عليه فيه من الألم . ولو قُدِّر أن هـذا الـوالي كـان سـبباً في حصـول ذلـك الظلم على وجـه لا يُلام عليه لم يكن عذراً للظالم ، مثل حاكم شهد عنده بيِّنَـة بمـال لغـريم فـأمر بحبسـه أو عقوبتـه حـتى ألجأه ذلـك إلى أخـذ مـال آخـر بغـير حـق ليوفيّـه إياه ، فإن الحاكم أيضـاً يعـاقب فيـه ، فـإذا قـال : أنت حبستني وكنت عاجزاً من الوفـاء، ولا طريـق لي إلى الخلاص إلاّ اخـذ مـال هـذا ، لكـان حبسـه الأول ضرراً عليـه ، وعقوبتـه ثانيـاً على أخـذ مـال الغـير ضـرراً عليـه ، والـوالي يقـول : أنـا حكمت بشهادة العـدول ، فلا ذنب لي في ذلـك ، وغـايتي أني أخطـأت ، والحـاكم إذا أخطـأ لـه أجـر ، وقـد يفعل كلّ من الرجلين بالآخر من الضرر ما يكــون فيـه معـذوراً والآخـر معاقبـاً . بـل مظلومـاً لكـل بتأويـل . وهـذه الأمثـال ليسـت مثـل فعـل اللـه تعالى ، فإن اللـه ليس كمثلـه شـيء في ذاتـه ولا في صـفاته ولا في أفعالـه، فإنـه سـبحانه يخلـق الاختيـــار في المختـــار ، والرّضـــا في الرّاضـــي ،

والمحبـــة في المحبّ، وهـــذا لا يقـــدر عليـــه إلاّ الله"[1]. ويوضحه الوجه التالي.

4- أن جهة خلق الله تعالى وتقـديره غـير جهـة أمـره وتشريعه ، فـإن أمـر اللـه وتشـريعه مقصـوده بـه بيان ما ينفع العباد إذا فعلـوه وبيـان مـا يضـرهم ، بمنزلة أمـر الطـبيب للمـريض بمـا ينفعـه ، فاللـه تعـالى أخـبر على ألسـن رسـله بمصـير السـعداء وأمر بما يوصل إلى السعادة ، وأخـبر على ألسـن رسـله بمصـير الأشـقياء، ونهى عمـا يوصـل إلى الشقاوة . وخلقه تعالى وتقديره يتعلق به وبجملة المخلوقات ، فهـو يفعـل لمـا فيـه حكمـة متعلقـة بعمـوم خلقـه ، وإن كـان في ضـمن ذلـك مضـرّة لبعـض الناس ، كما أنه ينزل المطـر لمـا فيـه من الرحمة والنعمة والعامّة والحكمــة ، وإن كــان في ضمن ذلك تضـرر لبعض النـاس ، بسـقوط منزلـه وانقطاعه عن سـفره وتعطيـل معيشـته ، وكـذلك يرسل نبيّه محمداً –صـلى اللـه عليـه وسـلم- لمـا في إرســاله من الرّحمــة العامّــة، وإن كــان في ضمن ذلك سقوط رياسة قوم وتألمهم بذلك. فإذا قُدِّر على الكافر كفره ، قـدّره اللـه لمـا في ذلـك من الحكمة والمصلحة العامة، وعاقبه لاسـتحقاقه ذلك بفعله الاختياري وإن كان مقدّراً، ولما لـه في عقوبته من الحكمة والمصلحة العامّة[2] .

ثانياً:

قـالوا : إن أفعالنـا الاختياريـة متعلقـة بنـا ، وموجـودة من جهتنا ، وواقعة بحسب قصـودنا ودواعينـا ، مثـــل حركتنـا يمنة ويسرة ، وحركة البطش باليـد والرجـل في الصـنائع المطلوبة لنا ، فهذا يدل على أنها غير مخلوقة لله ، وأننــا نحن المحـدثون لهـا ، بخلاف الأفعـال الاضـطرارية مثـل

---

[1](?) "منهاج السنة" (3/33-36).

[2](?) انظر"المصدر السابق" (3/36-37) .

حركة النبض وحركة الواقع من شاهق بإيقاع غـيره فإنهـا مخلوقة لله ، والضرورة قاضية بالفرق بينهما . ولو قيــل: بأن أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لله للزم التسوية بينها وبين أفعاله الاضطرارية وهذا باطل[1] .

وأجاب شيخ الإسلام عن ذلك بما يلي:

1- "أن هذا يلزم من يقول إن العبد لا قـدرة لـه على أفعاله الاختيارية ، وليس هذا قـول إمـام معـروف ولا طائفة معروفة من طوائـف أهـل السـنة . بـل ولا من طوائـف المثبـتين للقـدر إلاَّ مـا يحكى عن الجهم بن صفوان وغلاة المثبتة أنهم سـلبوا العبـد قدرته ، وقالوا: إن حركته كحركة الأشجار بالرّيـاح إن صـحّ النقـل عنهم. وأشـدّ الطوائـف قربـاً من هـؤلاء هـو الأشـعري ومن وافقـه من الفقهـاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، وهو مع هذا يثبت للعبد قدرة محدثه واختيارا ، ويقـول: إن الفعل كسب للعبـد ، لكنّـه يقـول: لا تـأثير لقـدرة العبد في إيجاد المقدور ، فلهذا قال من قال : إن هـذا الكسـب الـذي أثبتـه الأشـعري غـير معقـول. وجمهور أهل الإثبـات على أن العبـد فاعـل لفعلـه حقيقة ، ولـه قـدرة واختيـار ، وقدرتـه مـؤثرة في مقدورها كما تؤثر القوى والطبائع وغــير ذلـك من الشروط والأسباب"[2] .

2- بنــاءً على مــا ســبق فــإن مــا ذكــر من الفــرق الضروري بين الأفعال الاختياريـة الواقعـة بحسـب قصودنا ودواعينـا وبين الأفعـال الاضـطرارية مثـل حركــة النبض وحركــة الواقــع من شــاهق بإيقــاع غيره حق يقوله جميع أهل السنة وجماعة أتباعهم ، لم ينازع في ذلك أحد من أئمة المسلمين الذين

---

[1] انظر "منهاج السنة" (3/ـ 107-108)ـ ، و "منهاج الكرامـة" ص(10)ـ ، و"شرح الأصول الخمسة" ص (332)،و"التبصرة في التوحيد والعدل" ص (63).

[2] "منهاج السنة" (3/109).

لهم في الأمة لسان صدق من الصحابة والتــابعين لهم بإحسان"[1] .

3- أن جمهـور أهـل السـنة من السـلف والخلـف مـع قولهم إن العبد له قدرة وإرادة وفعل وهـو فاعـل حقيقة يقولون : واللـه خـالق ذلـك كلـه ،كمـا هـو خالق كل شيء. وقد دلت النصوص على ذلك .
قال تعالى عــن إبراهيم:ﭽﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭼ[2] . وقال أيضاً عن إبراهيم : ﭽ□□ﭿﮀﮁﭼ [3] .
وقال تعالى: ﭽﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭼ[4] .
وقال : ﭽ□ﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭼ [5] .
فـأخبر أن اللـه يجعـل المسـلم مسـلماً، والمقيم للصلاة مقيم الصلاة ، والإمام الهادي إماماً هادياً.
وقال عن المسيح : ﭽﮒﮓﮔﮕﭼ إلى قوله : ﭽﮠﮡ ﮢﮣﮤﭼ [6] .

فبيّن أن الله هو الذي جعله براً لوالدته ولم يجعلـه جبـاراً شقياً. وهذا صريح قول أهل السنة في

أن الله عز وجل خالق أفعال العباد[7] .
وقال تعالى : ﭽﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﭼ[8] .
وقال : ﭽﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡ□□□□□□ﭼ [9] .
وقال : ﭽﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﭼ[10] .
وقال : ﭽ□□□□□ﭼ [11] .

(?)[1] انظر "منهاج السنة" (3/115).
(?)[2] سورة البقرة ، الآية (128).
(?)[3] سورة إبراهيم ، الآية (40).
(?)[4] سورة السجدة ، الآية (24).
(?)[5] سورة الأنبياء ، الآية (73).
(?)[6] سورة مريم ، الآية (31-32).
(?)[7] انظر "منهاج السنة" (3/110-111) .
(?)[8] سورة الزمر ، الآية (62).
(?)[9] سورة الرعد ، الآية (16).
(?)[10] سورة غافر ، الآية (62).
(?)[11] سورة الفرقان ، الآية (2).

وكل ما دلَّ على أن الحوادث مخلوقة لله فهـو يـدل على أن أفعال العباد مخلوقة للـه ؛ إذ هي جـزء من الحـوادث، ولهذا فإن أئمة السلف بيّنوا : أن من أخرج أفعـال العبـاد عن خلق الله فهو مثل من أنكر خلق اللـه لغـير ذلـك من المحـدثات كالسـماء والأرض ، فـإن اللـه رب العـالمين ، ومالــك الملــك، وخــالق كــل شــيء ، فليس شــيء من العالمين خارجاً عن ربوبيته، ولا شـيء من الملـك خارجـاً عن ملكه ، ولا شيء من المحدثات خارجاً عن خلقه.

وبهذا يعلم كثرة الأدلة وقوتها الدّالة على أن أفعال العبـاد مخلوقة لله[1].

4- أن النفـــاة في الحقيقة هم من خـــالفوا العلم الضروري " فـإن كـون العبد مريـداً فـاعلاً بعد أن لم يكن فاعلاً أمر حادث بعد أن لم يكن ، فإمّا أن يكون له محدِث وأما أن لا يكون له محـدِث، فـإن لم يكن له محـــدِث لـــزم حـــدوث الحـــوادث بلا محــدث، وإن كــان له محــدث فإمّا أن يكــون هو العبد ، أو الرب تعالى ، أو غيرهمـا. فـإن كـان هو العبد فـــالقول في إحداثه لتلك الفاعلية كـــالقول في إحداثه أحـــداثها ، فيلـــزم التسلسل ، وهو هنا باطل بالاتفــاق ؛ لأن العبد كـائن بعد أن لم يكن ، فيمتنع أن تقــوم به حـوادث لا أول لها ، وإن كـان غير الله فالقول فيه كالقول في العبد ، فتعيّن أن يكـون الله هو الخـالق لكـون العبد مريـداً فـاعلاً، وهو المطلوب"[2] .

ثالثاً:

---

[1] انظر "مجموع الفتاوى" (12/328-329 ، 332) ، و "جامع المسائل" (6/111-112، 149) ، و "منهاج السنة" (3/116) .

[2] "منهاج السنة" (3/236).

ذكروا أن القـرآن مملـوء من اسـناد أفعـال البشر إليهم ، وهـــذا يـــدل على أنهم هو المحـــدثون لها ، وذلك كقوله تعالى : ﭽﯘﯙﭼ [3] .

وقوله : ﭽﭑﭒﭓﭔﭼ[2] .

وقوله : ﭽﭟﭠﭡﭢﭣﭼ[3] .

وقوله : ﭽﭤﭥﭦﭧﭼ [4] .

وقوله : ﭽﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﭼ [5] .

وقوله : ﭽﯘﯙﯚﯛﯜﭼ [6] .

وقوله : ﭽﮒ ﮓﮔﮕ ﮖﭼ[7] .

وأمثال ذلك من النصوص[8] .

وأجاب شيخ الإسلام عن ذلك بما يلي:

1- أن هذا حق، وجمهور أهـل السـنة قـائلون بـذلك ، وهم قـائلون : إن العبــد فاعــل لفعلــه حقيقــة لا مجازاً ، وإنمـا نـازع في ذلـك طائفـة من متكلمـة أهل الإثبات ، كالأشعري ومن اتبعه [9] .

2- أن القرآن مملوء بمـا يـدل على أن أفعـال العبـاد حادثة بمشيئة الله وقدرته وخلقه ، فيجب الإيمـان

(?)[3] سورة النحل ، الآية (32).

(?)[2] سورة غافر ، الآية (17).

(?)[3] سورة طه ، الآية (15).

(?)[4] سورة النمل ، الآية (90).

(?)[5] سورة الأنعام ، الآية (160).

(?)[6] سورة البقرة ، الآية (286).

(?)[7] سورة الطور ، الآية (21).

(?)[8] انظر "منهاج السنة" (3/256-257) ، و "منهاج الكرامة"ص (12) ، " شرح الأصـول الخمسة "ص (361) ، و "الـردّ على المجــبرة القدريــة" ليحــيى الحســين ضــمن " رســائل العــدل والتوحيد" (2/50-51) .

(?)[9] انظر "منهاج السنة" (3/257).

بكـل مـا في القـرآن ، ولا يجـوز أن نـؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض.

قال تعالى : ﭽﮯﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﭼ [1] .

وقال : ﭽ ٱﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭼ [2] .

وقال : ﭽﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﭼ [3] .

وقال : ﭽﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﭼ [4] .

وقال: ﭽ ٱﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭼ [5] .

وقال: ﭽﯖﯗﯘﯙﭼ [6] .

وأيضـاً ففي القـرآن من ذكـر تفصـيل أفعـال العبـاد الـتي بقلوبهم وجوارحهم ، وأنه هو تبارك وتعالى يحـــدث ذلـك ما يطول وصفه ، كقوله تعالى : ﭽﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﭼ [7] ، وقوله : ﭽﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﭼ [8] , وقوله : ﭽﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﭼ [9] .

وفي القــرآن من الآيــات المبيّنــة أن اللــه خــالق أفعــال العباد ، وأنه هو الذي يقلّب قلوب العباد فيهدي من يشــاء ويضل من يشاء ، وأنــه هــو المنعم بالهـدى على من أنعم عليه الكثير جداً.

وكذلك فيه ما يبين عموم خلقه لكل شيء كقوله : ﭽﮉﮊﮋﮌﭼ [10] ، وغير ذلك ، وفيه ما يبين أنه فعّال لما يريد ، وفيه ما يبيّن أنه لو شاء لهدى الناس جميعـاً وأمثـال ذلـك ممـا يطول وصفه [11] .

---

[1] سورة البقرة ، الآية (253).

[2] سورة الأنعام ، الآية (125).

[3] سورة الأنعام ، الآية (112).

[4] سورة البقرة ، الآية (26).

[5] سورة يس ، الآية (41-42).

[6] سورة الصافات ، الآية (96).

[7] سورة الأعراف ، الآية (30).

[8] سورة البقرة ، الآية (213).

[9] سورة الحجرات ، الآية (7).

[10] سورة الرعد ، الآية (16).

[11] انظر "منهاج السنة" (3/257-264).

المطلب الثالث : وجه كون القول بأن العبد يخلق فعله من قوادح الربوبية.

بيّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أن قول القدرية بأن العبد يخلق فعله هو من قوادح الربوبية لأنهم بهذا جعلوا لله شريكاً في الخلق والملك.

قال شيخ الإسلام في معرض حديثه عن القدرية: " وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قدير ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء عليماً، وأنكروا أن يكون خالقاً لكل شيء وأن يكون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنكروا أن يكون الله فعالاً لما يشاء، وأثبتوا لغير الله الانفراد بالإحداث وشركاء خلقه كخلقه، كما فعلت المجوس، واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونهيه إلاَّ مع تعجيزه أو تجهيله ، وأنه لا يمكن أن يوصف بالإحسان والكرم إن لم يجعل عاجزاً وإلاّ لزم أن يكون بخيلاً. كما أن القدرية المجبرة قالوا: لا يمكن أن يجعل عالماً قادراً إلاّ بتسفيهه وتجويره . فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيئته أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس في الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقاً ، وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ..." [1] .

وقال أيضاً: " إنه ليس في أهل الأرض من أثبت للعالم خالقين متماثلين في الصفات والأفعال ، بل هذا ممتنع لذاته، وامتناعه ظاهر في العقول، بخلاف ما يظنه كثير من أهل الكلام والفلسفة كما سنبينه . بل الذي ذهب إليه بعضهم أن يكون ثمَّ خالق خلق بعض العالم، كما تقوله الثنوية في الظلمة ، وكما تقوله القدرية في أفعال

---

[1] "مجموع الفتاوى" (13/212-213).

الحيوان ، وكما تقول الفلاسفة الدهرية في حركة الأفلاك ، أو حركـات النفـوس والأجسـام الطبيعيـة ، فـإن هـؤلاء ونحوهم يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياهـا، فهم مشركون في بعض الربوبية "[1] .

وقال أيضاً: "وأصل المشركين والمعطلة باطـل ، وكـذلك اصل المجوس والقدرية ، تخرج بعض الحوادث عن خلــق الله وقدرته ، ويجعلون له شريكاً في الملك"[2] .

وقال عنـد حديثـه عن التوحيـد عنـد المتكلمين : "وجمـاع قولهم إن التوحيد يجمع ثلاث معان:

أنه واحد في نفسه لا صفة لـه وقَـدْر ، فليس بمـركب ولا محدود ، ولا موصوف بصفة تقوم به ، وهـو أيضـاً واحـد لا شبيه له ، فهـذان نفي التجسـيم والتشـبيه . والثـالث أنـه واحد في أفعاله لا شريك له . وهذا الثالث هو متفق عليه بين المسلمين ، لكن الناس يقولون : هـذا التوحيـد لا يتمّ للقدرية الـذين يجعلـون بعض العـالم مفعـولاً لغـير اللـه ، ويجعلون من يفعل كفعل الله ، فإن هذا إثبات شريك لــه في الملك"[3] .

---

[1] "شرح الأصبهانية" ص (133-134) ، وانظر "منهاج السنة" (3/331) . و "درء التعارض" (9/345-347).

[2] "منهاج السنة" (1/410).

[3] "بيـان تلـبيس الجهميـة" (3/106-107) ، وانظر "منهـاج السنة" (3/77)، و "جامع المسائل" (2/279).

المطلب الأول : أقسام الطاعة في التحليل والتحريم .

أصل الـدين : أن الحلال ما أحلّه الله ورسـوله ، والحـرام ما حرّمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله.

وقد ذمّ الله المشركين على أن حلّلوا وحرّموا وشرعـــوا ديناً لم يأذن به الله فقال:"چھ□□□□ڤ ڤ ڭ ڭ ۋ ۇ ۆ ۈ چ "[1][2] .

والله سبحانه وتعالى جمـع ذنـوب المشـركين في سـورة الأعراف والأنعام وغيرهما في نوعين:

الأول: أمر بما لم يأمر الله به ، كالشرك .

والثاني: نهى عما لم ينه الله عنه ، كتحريم الطيبات.

فالأول شرع من الدين لم يأذن به اللـه ، والثـاني تحـريم لما لم يحرمه الله .

وفي الحديث الصحيح حديث عياض بن حمار عن النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- عن اللـه تعـالى: "إني خلقت عبادي حنفـاء فاجتـالتهم الشـياطين ، فحـرمت عليهم مـا أحللت لهم، وأمـرتهم أن يشـركوا بي مـا لم أنـزل بـه سلطاناً"[3] .

ولهذا كان ابتداع العبادات الباطلة من الشرك ونحـوه هـو الغالب على النصارى ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة والمتصوفة.

وابتداع التحريمات الباطلـة هـو الغـالب على اليهـود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة[4] .

والدين كلّه مأخوذ عن الرسول –صلى اللـه عليـه وسـلم- ليس لأحـد بعـده أن يغيّـر من دينـه شـيئاً ، هـذا هـو دين المسـلمين، بخلاف النصـارى فـإنهم يجـوّزون لعلمـائهم وعبادهم أن يشرّعوا شرعاً يخالف شرع الله.

---

[1] سورة الشورى ، الآية (21).

[2] انظر"مجموع الفتاوى" (10/388-389)، (20/357-358)، (27/148-149، 371).

[3] سبق تخريجه ص (261) .

[4] انظر "مجمـوع الفتـاوى" (1/86-87)، (4/195-196)، و "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/582-585) .

قال تعالى: ﭽﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﭼ [1] .
عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي –صلى الله عليه وسلم- يقرأ هذه الآية ﭽﯗﯘﯙﯚﯛﯜ ... ﭼ فقلت : إنا لسنا نعبدهم ، قال: أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟ قال : فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم" [2][3] .
وقد بيّن شيخ الإسلام –رحمه الله- أقسام طاعة الأحبار والرهبان وغيرهم في التحليل والتحريم فقال: "وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ الله يكونون على وجهين :
أحدهما : أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدوا تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحلّ الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلّون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.
والثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ . فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب..." [4] .
ثم بيّن -رحمه الله – مسائل متعلقة بالاجتهاد والتقليد في التحليل والتحريم فقال: "ثم ذلك المحرِّم للحلال والمحلّل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما

---

[1] سورة التوبة ، الآية (31).
[2] أخرجه الترمذي في سننه ح (3095) ، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ح (218) . والحديث حسّنه شيخ الإسلام . انظر "الإيمان" ص (58).
[3] انظر "مجموع الفتاوى" (27/374).
[4] "الإيمان" ص (60-61).

استطاع فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربّه.
ولكن من علم أن هذا الخطأ فيما جاء به الرسول، ثم اتبعه على خطئه ، وعدل على قول الرسول ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمّه الله ، لاسيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره باللسان واليد ، مع علمه بأنه مخالف للرسول . فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه...
وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل ، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد ، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة.
وأما إن قلّد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبوعة مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعة مخطئاً كان آثماً ، كمن قال في القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار، وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة[1] ، فإن ذلك لما أحبّ المال حباً منعه من عبادة الله وطاعته ، صار عبداً له، وكذلك هؤلاء ، فيكون فيه شرك أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك"[2] .
وشيخ الإسلام سمَّى هذا النوع بشرك الطاعة فقال: "فإن الإشراك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، دع جليله وهو شرك في العبادة والتألة، وشرك في الطاعة والانقياد، وشرك في الإيمان والقبول... وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك، وأتباع القضاة والعامّة المتبعة لهؤلاء يشركون شرك الطاعة، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم- لعدي بن حاتم لما قرأ:ﭽﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﭼ[3]
فقال : يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال : " ما عبدوهم

[1] انظر "الإيمان" ص (56-58).
[2] "المصدر السابق" ص (61-62).
[3] سورة التوبة ، الآية (31).

ولكن أحلّــوا لهم الحــرام فأطــاعوهم ، وحرّمــوا عليهم الحلال فأطاعوهم"[1] فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه، والحرام ما حرّمـه ، والحلال مـا حللـه ، والدين ما شرعه إمّا ديناً، وإما دنيـا ، وإمّـا دينـاً ودنيـا. ثم يخوّف من امتنع من هذا الشرك، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاً في طاعته بغير سلطان من الله. وبهذا يخرج من أوجب الله طاعته من رسول ، وأمير وعالم ووالـد وشـيخ وغير ذلك"[2] .

وبيّن –رحمه اللـه- أن بـاب الطاعـة ينقسـم إلى مشـروع في حقّ البشر وغير مشروع[3] .

أمّا المشروع فهو طاعة الرسول –صلى الله عليه وسلم- فإن طاعته طاعة لله، كما قال تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭼ[4] .

وكـذلك من الطاعـة المشـروعة : طاعـة ولاة الأمـر من العلمــاء والأمراء كما قال تعالى: ﭽ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﭼ[5] فطاعتهم واجبة ما لم يأمروا بمعصية اللـه فإنـه لا طاعـة لمخلوق في معصية الله.[6]

---

[1] سبق تخريجه ص (560).

[2] "مجموع الفتاوى" (1/97-98).

[3] انظر"المصدر السابق" (1/98)

[4] سورة النساء ، الآية (80).

[5] سورة النساء ، الآية (59).

[6] انظر "مجموع الفتاوى" (10/266-267) ، و"الإيمان" ص (61).

المطلب الثاني : وجه كون طاعة الأحبار والرهبان وغيرهم في التحليل والتحريم من قوادح الربوبية .

الله سبحانه وتعالى هو الحكم الذي يحكم بين عباده، والحكم له وحده لا شريك له قال تعالى: ﭽﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐ ﭼ[1] وقال : ﭽﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﭼ[2] وقال : ﭽﯦﯧ ﭼ[3] وقال : ﭽﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﭼ[4] وقال : ﭽ ﭼ[5] وقال : ﭽ ﭼ[6][7] وغيرها من الآيات .

وحكم الله تعالى شرعياً كان أو كونياً هو من خصائص الربوبية ، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[8] -رحمه الله- عند ذكر الآيات القرآنية التي أوضح الله تعالى بها صفات من له الحكم والتشريع : "ومنها قوله تعالى : ﭽﮒ ﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﭼ[9] الآية . فقوله : (ﮓﮔ) صيغة تعجيز، فهم عاجزون عن بيان مستند التحريم . وذلك واضح في أن غير الله لا يتصف بصفات التحليل ولا التحريم . ولما كان التشريع وجميع الأحكام شرعية كانت أو كونية قدرية من خصائص الربوبية كما دلّت عليه

---

[1] سورة يوسف ، الآية (40).

[2] سورة الأنعام ، الآية (114).

[3] سورة القصص ، الآية (70).

[4] سورة القصص ، الآية (88).

[5] سورة الكهف ، الآية (26).

[6] سورة الشورى ، الآية (10).

[7] انظر "مجموع الفتاوى" (35/361-363) .

[8] هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ولد سنة 1325هـ مفسر، مدرس ، من علماء شنقيط، ولد وتعلّم بها ، وحج سنة 1367هـ ، واستقر مدرّسا في المدينة المنورة ، ثم الرياض، وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة ، وتوفي بمكة سنة 1393هـ . انظر "معجم المؤلفين " (3/146-147).

[9] سورة الأنعام ، الآية (150).

الآيات المذكورة كان كلّ من اتبع تشريعاً غير تشريع اللــه فقد اتخذ ذلك المشرّع رباً ، وأشركه مع الله"[1] .

ومن الآيات التي ذكرها الشـيخ محمـد الأمين الدّالـة على أن التشريع وجميع الأحكام من خصائص الربوبية:

- قوله تعالى: ﭽ□□□□□□□□ﭼ ثم قال تعالى مبيِّنا صفات من له الحكم ﭽ□□□□ﯨﯩﯪﯫ□ﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚ ﭛﭜﭝﭞ ﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭼ[2] فمن يستحق أن يشرّع ويحلّل ويحرّم هو من يوصف بأنــه الرب الذي تفوض إليـه الأمـور، ويتوكـل عليـه، وأنـه فاطر السماوات والأرض ، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجاً، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية ، وأنــه ليس كمثلــه شــيء وهــو الســميع البصــير، ولــه مقاليــد السماوات والأرض ، وأنـه يبسـط الـرزق لمن يشـاء ويضيقه على من يشاء، وهو بكل شيء عليم.
- ومن الآيات أيضاً: قوله تعالى: ﭽﭑﭒﭓﭔ□□□□□□□□□□□□□□□□□ﭼ[3] الذي يستحق أن يشرّع ويحلّل ويحرّم من يوصـف بـأن لـه غيب السـماوات والأرض ، ومن أحــاط ســمعه بكــل المســموعات، وبصــره بكــل المبصرات ، وأنه ليس لأحد دونه من ولي.

فدلّت هذه الآيـات وغيرهـا على أن التشـريع وجميـع الأحكام من خصائص الربوبية.[4]

قـال الشـيخ ابن عـثيمين –رحمـه اللـه- : "إن الحكم بمـا أنزل الله -تعـالى- من توحيـد الربوبيـة؛ لأنـه تنفيـذ لحكم الله الـذي هـو مقتضـى ربوبيتـه، وكمـال ملكـه وتصـرّفه، ولهذا سمَّى الله -تعالى- المتبوعين في غير ما أنزل اللــه -تعالى- أرباباً لمتبعيهم فقال -سبحانه-: ﭽﯗﯘﯙﯚﯛ□ﯜﯝ□□□□ﯞﯟﯠﯡ□□□□□□□ﭼ[5] فسمَّى الله -تعالى- المتبوعين أرباباً،

(?)[1] "أضواء البيان" (7/108-109).

(?)[2] سورة الشورى ، الآية (10-12).

(?)[3] سورة الكهف ، الآية (26).

(?)[4] انظر "أضواء البيان" (7/105-108)

(?)[5] سورة التوبة ، الآية (31).

حيث جعلوا مشرّعين مع الله -تعالى- ، وسمّى المتبعين عُبَّاداً حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى... "[1] .

وإذا علم أن التحليل والتحريم مرتبط بتوحيد الربوبية فإن الخلل فيه خلل في الربوبية ولهذا يقول شيخ الإسلام – رحمه الله- :" من فعل المحارم مستحلاً لها فهو كافر بالاتفاق، فأنه من آمن بالقرآن من استحلَّ محارمه، وكذلك لو استحلّها بغير فعل، والاستحلال إعتقاد أنها حلال له، وذلك يكون تارة باعتقاد أن الله أحلّها ، وتارة باعتقاد أن الله لم يحرّمها، وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرّمها . وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية، أو لخلل في الإيمان بالرسالة، ويكون جحداً محضاً غير مبني على مقدمة "[2] .

وطاعة العلماء والعباد وغيرهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرّم الله ويكون قدحاً وخللاً في الربوبية ، لأنه بهذا أثبت حاكماً غير الله تعالى يحكم بين الخلق في التحليل والتحريم[3] . وهي أيضاً قدح في توحيد الألوهية ، لأن الطاعة في التحليل والتحريم يجب أن يفردها العبد لله تعالى، فهي عبادة من العبادات كالصلاة والصوم والذبح، فإذا صرفها لغير الله فقد أشرك. ولهذا يقول شيخ الإسلام معلِّقاً على حديث عدي بن حاتم في تفسير آية التوبة "فقد أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى: أن رؤوسهم لما أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم كانت تلك الطاعة عبادة لهم وشركاً بالله"[4] .

---

[1] "مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين" (2/140) ، وانظر "شرح ثلاثة الأصول " للعثيمين ص(158) .

[2] "الصارم المسلول" (3/971)

[3] انظر "اللباب في علوم الكتاب " (8/407) ، و "تفسير القاسمي" (3/ 419) ، و "مجموع الفتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين" (7/285).

[4] "الاخنائية" ص (479).

وقال : "فمن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعــاً في ذلك لغيره، لم يحققّ قوله: لا إله إلا الله"[1] .
ولما كان الأمر كذلك أورد الإمام محمد بن عبـد الوهـاب في كتاب التوحيد قوله تعالى: ﭽ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﭼ [2] في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله .
قـال الشـيخ سـليمان بن عبـد اللـه : "ومـراد المصـنف – رحمه الله- بإيراد الآية هنـا أن الطاعـة في تحـريم الحلال وتحليل الحرام من العبادة المنفية عن غـير اللـه تعـالى ، ولهـذا فُسِّـرت العبـادة بالطاعـة ، وفُسِّـر الإلـه بـالمعبود المطاع، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك فقد عَبَـده، إذ معـنى التوحيـد وشـهادة أن لا إلـه إلا اللـه يقتضـي : إفـراد اللـه بالطاعــة ، وإفــراد الرســول بالمتابعــة ، فــإن من أطــاع الرسول –صلى الله عليه وسلم- فقـد أطـاع اللـه . وهـذا أعظم ما يبيّن التوحيـد وشـهادة أن لا إلـه إلا اللـه ؛ لأنهـا تقتضي نفي الشرك في الطاعة ..." [3] .
وأيضاً فإن الإمام محمد بن عبد الوهاب عقد باباً مســتقلاً في كتاب التوحيد بعنوان" باب من أطاع العلماء والأمـراء في تحريم ما أحـلّ اللـه ، أو تحـريم مـا حرّمـه اللـه فقـد اتخذهم أرباباً من دون الله".
قال الشيخ سليمان بن عبد الله : "لما كانت الطاعــة من أنواع العبادة، بل هي العبادة ، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله –صـلى اللـه عليهم وسـلم- نبّـه المصــنف –رحمــه اللــه- بهــذه الترجمــة على وجــوب اختصاص الخالق – تبارك وتعالى – بها ، وأنه لا يطاع أحد من الخلــق إلاَّ حيث كــانت طاعتــه مندرجــة تحت طاعــة اللــه ، وإلاَّ فلا تجب طاعــة أحــد من الخلــق اســتقلالاً . والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام ..." [4] .

---

[1] "الإيمان " ص (60).
[2] سورة التوبة، الآية (31).
[3] "تيسير العزيز الحميد" ص (114).
[4] "تيسير العزيز الحميد" ص (469).

المطلب الأول : تعريف الإلحاد .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "لفظ "الإلحـاد" يقتضـي ميلاً عن شيء إلى شيء بباطل"[1] .
وهذا ما يدلّ عليه مادته (لَ حَ دَ) ، كما قال ابن فـارس : "اللام والحاء والدال أصل يـدلّ على ميـل عن اسـتقامة ، يقال : ألحد الرجل إذا مال عن طريقـة الحـق والإيمـان ، وسمّي اللحـد ؛ لأنه مائل في أحد جانبي الجدَث . يقـال : لحدت الميِّت وألحدت. والملتحد : الملجأ ، سمِّي بـذلك ؛ لأن اللاجئ يميل إليه"[2] .
ومنه : الملحد في الدين : المائل عن الحقّ إلى الباطل[3] .

المطلب الثاني : أنواع الإلحاد .

شيخ الإسلام-رحمه الله- كثيراً ما يتحدّث عن الإلحاد في أمرين :
الأول : الإلحاد في أسماء الله تعالى .
والثاني : الإلحاد في آيات الله تعالى .
من ذلك قوله :
"فـالمؤمن يـؤمن باللـه ، ومالـه من الأسـماء الحسـنى ، ويدعوه بهـا ، ويجتنب الإلحـاد في أسـمائه وآياتـــه ، كمـا

---

[1] "مجموع الفتاوى" (12/124).
[2] "معجم مقاييس اللغة" (5/236) .
[3] انظر "تهـذيب اللغـة" (4/421)ـ ، و "لسـان العـرب" (13/176) ، و "بدائع الفوائد" (1/255).

قال تعالى : ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇ[1] وقال تعالى : ﭽﭬﭭﭮ ﭯﭰﭱﭲﭼ "[2][3] .

وقوله :

"وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها : إثبات مـا أثبتـه من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريـف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسـه مـع مـا أثبته من الصفات ، من غير إلحاد ، لا في أسـمائه ولا في آياته ، فإن اللـه ذمّ الـذين يلحـدون في أسـمائه وآياتـه ، كما قال تعالى : ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇ ﮈﭼ[4] وقال تعالى: ﭽﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﭼ[5] "[6] .

وقـال أيضـاً عنـد حديثـه عن اعتقـاد الفرقـة الناجيـة المنصورة :

"فلا ينفون عنه ما وصـف بـه نفسـه ، ولا يحرفـون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ..." [7] .

وقال أيضاً: "فإذا جعل الجاعل ربّ محمـد بعض الملائكـة فهذا مـع أنـه من أعظم الإلحـاد في أسـماء اللـه وآياتـه . أليس يعلم كـلّ مسـلم عاقـل أنـه معلـوم الفسـاد بالضرورة"[8] .

وقال أيضاً: "فلهذا كان ابن سينا وأمثالـه من أهـل دعـوة القرامطة الباطنية من أتبـاع الحـاكم الـذي كـان بمصـر ، وهؤلاء وأمثالهم من رؤوس الملاحدة الباطنية ، وقـد ذكـر ذلك عن نفسه ، وأنه كان هو وأهـل بيتـه من أهـل دعـوة

[1] (?) سورة الأعراف ، الآية (180).
[2] (?) سورة فصلت ، الآية (40).
[3] (?) "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/865).
[4] (?) سورة الأعراف ، الآية (180).
[5] (?) سورة فصلت ، الآية (40).
[6] (?) "التدمرية" ص(7).
[7] (?) "مجموع الفتاوى" (3/130).
[8] (?) "بيان تلبيس الجهمية" (6/307).

هؤلاء المصريين الذين يسـمّيهم المسـلمون : الملاحـدة ؛ لإلحادهم في أسـماء اللـه وآياتـه إلحـاداً أعظم من إلحـاد اليهود والنصارى"[1] .

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً[2] .

وهذا يفهم منه أن شيخ الإسلام يرى أن الإلحاد نوعان[3] :

الأول: إلحاد في أسماء الله .

الثاني : إلحاد في آياته .

أمـا الإلحـاد في أسـماء الله فهـو " العـدول بهـا وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها"[4] وهو أنواع :

1- جحدها وإنكارها بالكلية .
2- تشبيهه فيها بصفات المخلـوقين ومعـاني أسـمائهم ، وأن الثابت له منها مماثل للثابت لخلقه .
3- إنكار حقائقها ومعانيها والتصريح بأنها مجازات .
4- أن يشتقّ منها أسماء للأصـنام ، كاشـتقاق اللات من الإله ، والعزى من العزيز ونحو ذلك .
5- تسمية الله بما لم يسمِّ به نفسه ، كتسمية النصارى له : أباً ، وتسمية الفلاسفة له : موجباً بذاته ، أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك .
6- وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقـول اليهود : إنه فقير ، وقولهم : إنه استراح بعد أن خلق خلقه[5] .

---

[1] "درء التعارض" (1/289-290).

[2] انظر "بيـان تلـبيس الجهميـة" (5/38، 284 ، 385) ، و "مجموع الفتـاوى" (2/135 ، 215) (3/373) (7/405) (5/197) (6/359) ، و "درء التعارض" (10/270) ، و "الردّ على الشاذلي" ص(175) ، و "جـامع الرسـائل" (1/171) ، و "منهاج السنة" (1/7) .

[3] انظر "شرح العقيدة الواسطية " لابن عثيمين (1/119).

[4] "بدائع الفوائد" (1/255).

[5] انظر "بدائع الفوائد" (1/256-257) ، و"مختصر الصواعق" (3/862) ، و "مدارج السـالكين" (1/93) ، و"القواعد المثلى" ص(26).

وأمّا الإلحاد في آيات الله :

فإن شيخ الإسلام –رحمه الله- ذكـر أن الإلحـاد في آيـات الله يكون في أمرين :

الأول: الإلحاد في آيات الله المخلوقة .

الثاني : الإلحاد في آيات اللـه المتلـوّة المنزّلـة في كتابـه المبين[1] .

وآيات الله المخلوقة هي كـلّ المخلوقـات من السـماوات والأرض والنجوم والجبال والشجر وسائر الدواب.

والإلحاد فيها ثلاثة أنواع :

1- اعتقاد أن ماسوى الله منفرد بها أو ببعضها .
2- اعتقاد أن ماسوى الله مشارك لله فيها .
3- اعتقـاد أن للـه فيهـا معينـاً في إيجادهـا وخلقهـا وتدبيرها .

والدليل قوله تعالى : چ□□□□□□□□□□□□ى ى يې□□□□□□□□ □□چ [2] .

وكل ما يخلّ بتوحيد الربوبيـة فإنـه داخـل في الإلحـاد في الآيات المخلوقة .

وأما آيات الله المتلوّة المنزّلة في كتابـه المـبين فالإلحـاد فيها ثلاثة أنواع أيضاً:

1- تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار .
2- مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام .
3- التحريق في الأخبار والأحكام .[3]

هذا وإن جميع قوادح الربوبية داخلة في الإلحـاد ، إلاَّ أنهـا متفاوتة في ذلك ، وأعظم الإلحاد في الربوبية ما سـيذكر في هذا الباب وهو :

---

[1] "مجموع الفتاوى" (2/135 -215).

[2] سورة سبأ الآية (22).

[3] انظر "القـول المفيـد" (3/79-80)ـ ، و "شـرح العقيـدة الواسطية" لابن عثيمين (1/124-125)، و "فتح ربِّ البرية"ص(22).

1- الإلحاد المحض وهو إنكار الرب – جلّ وعلا - .
2- القول بقدم العالم ، وهو مستلزم لنفي الصانع[1] .
3- القول بالإتحـاد العـامّ "وحـدة الوجـود" . وحقيقتـه قول فرعون الجاحد لربّ العالمين[2] .

المطلب الأول : القائلون بالإلحاد .

المراد بالإلحاد هنا : إنكـار الـرب-جـلّ وعلا- وهـو مـا عبَّر عنه شيخ الإسلام بـ "الإلحـاد المحضَ" حيث قـال : "فـإن الإلحـاد المحض : نفي الصـانع بالكلّيـة ، وأن هـذا العـالم الموجود ليس له صانع" [3].

وقد ذكر شيخ الإسلام عدداً من القـائلين : بهـذا الإلحـاد ، وهم :

1) فرعون وقومه .

قال شيخ الإسلام : "ومن الكفّار من أظهر جحود الخالق، كفرعون حيث قال: ﭽﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑ ﮒﭼ [4] ، وقــال : ﭽﭾﭿﮀﭼ[5] ، وقال لموسى : ﭽﮕﮖﮗﮘﮙﮚ ﮛﭼ[6] وقال : ﭽﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﭼ[7] " [8].

وقال أيضاً: "فإن قوم فرعون كذَبوا بجميع آيات موســى، وجميع آيات الأنبياء قبله، وكذّبوا بالآيات على وجود الـرب

---

[1] انظر "الصفدية" (2/230) .
[2] انظر "بيان تلبيس الجهمية" (6/616).
[3] "جامع المسائل" (4/425).
[4] سورة القصص ، الآية (38).
[5] سورة النازعات ، الآية (24).
[6] سورة الشعراء ، الآية (29).
[7] سورة غافر ، الآية (36-37).
[8] "مجموع الفتاوى" (16/332-333).

وقدرتــه ومشــيئته، إذ كــانوا جاحــدين للخــالق، منكّــرين فكذّبوا بآياته كلّها"[1].

2) غالية القرامطة الباطنية.
3) غلاة الإسماعيليَّة والنصيريّة .

قال شيخ الإسلام : "فإن اسم الصمد وإن استلزم وجوب وجوده بنفسه ، لكن ليس معنـاه مجـرّد وجـوده بنفسـه ، ولا هذا المعنى مما كان يجهله السـائلون من المشـركين وأهل الكتاب ، ولا هو مما فيه نزاع بين أهل الأرض ، فإن الخلائق متفقون على ثبوت وجــود ، وإن الوجــود لا يمكن أن يكون كلّه مفتقراً إلى غيره ، بل لا بـدَّ من وجـود غـير مفتقر إلى غيره، ولكن قد يقـول المبطلـون : هـو أصـول للعالم ونحو ذلك ، كما يقوله الجاحدون المعطّلـون الـذي يظهرون جحـود ربّ العـالمين ، كفرعـون وذويـه، وغاليـة القرامطة الباطنية"[2] .

وقـــال: "فـــإني وقفت على مقالـــة غلاة الإســـماعيلية والنصــيرية في كتبهم الــتي يظنُّون بهــا إلاَّ على خــواصّ أكـابرهم ، فـرأيتهم يصـرِّحون فيهـا بنفي الصـانع الخـالق وجحوده بالكلية ، كالمذهب الذي ذكره اللــه عن فرعــون وحزبه، وعن الذي حاجّ إبراهيم في ربِّه[3]"[4] .

---

[1] "الجواب الصحيح " (6/448).

[2] "بيـان تلـبيس الجهميـة" (7/572-573) ، وانظر "مجمـوع الفتاوى" (2/160) ، و "شرح حـديث الـنزول" ص (437) ، و "المستدرك على مجموع الفتاوى" (1/34-35).

[3] في موضع آخر لم يجزم شيخ الإسلام بأن الذي حاجّ إبــراهيم في ربِّه كان يجحد الصـانع ، بل قـال: "فهـذا قد يقـال : إنه كـان جاحـداً للصـانع ، ومع هـذا فالقصة ليست صـريحة في ذلك ، بل يدعو الإنسان إلى عبادة نفسه وإن كان لا يصـرّح بإنكـار الخـالق مثل إنكار فرعون"، "مجموع الفتاوى" (6/256).

[4] "جامع المسائل" (4/423).

وقال أيضاً: "فالغالية من القرامطة والباطنية كالنصيرية والإسماعيلية يخرجون إلى مشابهة الصائبة الفلاسفة ، ثم إلى الإشراك ، ثم إلى جحود الحق تعالى"[1] .

4) السّمنيّة[2] الدّهرية[3] .

---

[1] "مجموع الفتاوى " (11/455-456) ، وانظر (35/153) ، و "منهاج السنة" (7/410).

[2] هم من فلاسفة الهند ، كانوا مشركين يعبدون الأصنام ، ومن القائلين بالتناسخ وقدم العالم ، أنكروا وجود ما لا يمكن الإحساس به ، ولم ينكروا وجود ما لا يحسّون هم به ، ومن حكى عنهم أنهم حصروا الموجودات في المحسوسات بمعنى أن ما لم يحسّه الشخص المعيّن لا يصدّق به، وأنه لا يصدّق بالأخبار المتواترة وغيرها فإنه لم يفهم مرادهم ، فإن أمة من الأمم لها بلاد يعيشون فيها لا بدَّ أن يميّز الرجل بين أمّه وأبيه ، وأن يعرف من حوادث بلده وسير ملوكهم وعاداتهم ما لا يعرفه إلاّ بالخبر . انظر "مجموع الفتاوى" (5/22) ، و "درء التعارض" (5/130) ، و "الردّ على المنطقيين" (2/77-78) ، و "التسعينية" (1/250-252) ، و "الفرق بين الفرق" ص (241) .

[3] قوم عطّلوا المصنوعات عن صانعها ، وقالوا ما حكاه الله عنهم : ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭼ سورة الجاثية الآية (24) ، وهم فحول المعطّلة . "انظر إغاثة اللهفان" ص (754) . وشيخ الإسلام أطلق الدّهرية على : السّمنية ، والفلاسفة الطبيعية ، والفلاسفة الإلهيين ، وغلاة القرامطة والإسماعيلية . وذكر أن أكثر المتكلمين إذا ذكروا قول الدهرية لا يذكرون منهم إلاّ من ينكر الصانع فيقول : الدهرية وهم الذين يقولون بقدم العالم وإنكار الصانع ، وعندهم أن كلّ من آمن بالصانع فإنه يقول بحدوث العالم ، وأما الرازي وابن الهيصم وأمثالهما فيذكرون الدهرية أعمّ من هذا بحيث أدخلوا فيهم أرسطوا وذويه وغيرهم . انظر "بيان تلبيس الجهمية" (1/438-439)، و"درء التعارض" (7/175) ، و "شرح الأصبهانية" ص (50) ، و "منهاج السنة" (3/452).

قال شيخ الإسلام:"مبدأ حدوث هـذا (أي نفي الصـفات) في الإسلام هو مناظرة الجهمية للدهرية ، كما ذكر الإمام أحمد –رحمـه اللـه تعـالى – في منـاظرة جهم للسُّـمنيّة ، وهم الدهرية ، حيث أنكروا الصانع ، وإن كان غــيرهم من فلاسـفة الهنـد كالبراهمة[1] لا ينكـره، بـل يقـول العـالم محدث فعله فاعل مختار كمـا يحكي عنهم المتكلمـون ... ولا ريب أن إنكـار الصـانع بالكليـة قـول السّـمنية الـذين نـــاظرهم الجهم بن صـــفوان وغـــيرهم من الدهريـــة، وكطوائف غير هؤلاء من الأمم المتقدمة "[2] .

وقال أيضاً بعد نقله مناظرة الجهم للسـمنية الـتي ذكرهـا الإمام أحمد : "فهذا الذي ذكره الإمام أحمـد من منـاظرة لأولئك السّمنية هم الذي يحكي أهل المقـالات عنهم أنهم أنكروا من العلم ما سوى الحسّيات ، ولهذا سألوا جهمـاً : هل عرفه بشيء من الحواسّ الخمس؟ فقال : لا . قالوا: فمـا يـدريك أنـه إلـه؟ فـإنهم لا يعرفـون إلاَّ المحسـوس، وليس مـرادهم أن الرجـل لا يعلم إلاَّ مـا أحسّـه ، بـل لا يثبتـون إلاَّ مـا هـو محسـوس للنـاس في الـدنيا، وهـؤلاء كالمعطّلــة الدهريــة الطبائعيــة من فلاســفة اليونـــان ونحـوهم ، الـذين ينكـرون مـا سـوى هـذا الوجـود الـذي يشاهده الناس ويحسّونه ، وهو وجود الأفلاك وما فيهـا ... وهذا هو القول الذي أظهره فرعون "[3] .

5) الدّهرية الطبيعيّة .

قـال شـيخ الإسـلام عنـد بيانـه أقـوال النـاس في دوام الحوادث :

---

[1] (?) قبيلة بالهند ، فيهم أشراف أهل الهند ، ويقولون إنهم من ولد برهمي ، ملك من ملوكهم قديم، ولهم علامة ينفردون بها ، وهي خيــوط ملونة بحمــرة وصــفرة يتقلّــدونها تقلّد السّــيوف . وهم يقولـون بحـدوث العـالم وتوحيد الصـانع إلاَّ أنهم ينكـرون جميع الأنبياء . انظر "الفصل في الملل والنحل" (1/86) ، و "التبصير في الدين" ص (126) ، و "الملل والنحل" (3/706-707).

[2] (?) "بيان تلبيس الجهمية " (1/437-438 ، 440).

[3] (?) "درء التعارض " (5/168) .

"وقـالت الطائفـة الثانيـة : بـل يجـوز دوام الحـوادث في الماضي والمستقبل ، ويجوز دوام ما تقوم به الحــوادث ، وما تقارنـه من الأجسـام وغيرهـا أزلاً وأبـداً ، وهـذا قـول الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم الأفلاك . ثم هؤلاء نوعان :

دهريّة معطّلة محضـة يقولـون : بـأن العـالم قـديم أزلي، وجب بنفسه ، ليس له مبدع ولا صانع ، لا فاعل بالاختيـار ولا موجب بالذات . وهؤلاء قولهم من جنس القـول الـذي أظهره فرعون حيث قال : ﭽﭬﭭﭼ[1] فاستفهــم استفهام إنكار عن ربّ العالمين ، لا استفهام استعلام عن ما هيتــه كما يظنه بعضهم [2]، فـإن فرعـون كـان مظهـراً للجحـود والتعطيل كما قال : ﭽﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭼ[3] وقال : ﭽﭵ ﭶ ﭷ ﭼ[4] وقال : ﭽﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞﭼ[5] ... "[6] .

وقـال –رحمـه اللـه- أيضـاً: "والفلاسـفة القـائلون بـدعوة الكـــواكب : فيهم المشـــرك ، وفيهم المعطـــل ، ونفي الصــفات من أقــوالهم ، فمنهم من لا يثبت لهــذا العــالم المشـهود ربـاً أبدعـه ، كمـا هـو قـول الدهريـة الطبيعيـة منهم ، ويجعلون العالم نفسه واجب الوجود بذاته، ومنهم من يثبت له مبـدعاً واجبـاً بنفسـه أبدعـه ، كمـا هـو قـول الدهريــة الإلهيــة منهم ، ويقولــون : إن الــواجب ليس لــه صفة ثبوتية ، بل صفاته : إمـا سـلب، وإمّـا إضـافة ، وإمّـا مركبة منهما"[7] .

وقال : "والقائلون بوحدة الوجود حقيقة قـولهم هـو قـول ملاحدة الدهرية الطبيعية الذين يقولون : ما ثمَّ موجود إلاَّ

---

[1] (?) سورة الشعراء ، الآية (23).

[2] (?) انظــر"مجمــوع الفتــاوى " (16/334) ،و "منهــاج الســنة" (2/271) ، و "درء التعارض" (8/39) (10/271-272).

[3] (?) سورة القصص ، الآية (38).

[4] (?) سورة النازعات ، الآية (24).

[5] (?) سورة غافر ، الآية (36-37).

[6] (?) "شرح الأصبهانية" ص (313-314).

[7] (?) "درء التعارض" (7/175).

هذا العالم المشهود ، وهو واجب بنفسه ، وهو القول الذي أظهره فرعون "[1] .

وقال أيضاً: "والفلاسفة الصائبة القائلون بقدم العالم يقولون بواجب الوجود وبأنه ليس هو العالم ولا جزءاً منه ، لكن يُحكى عن فريق من الدهرية إنكار الصانع ، وهذا هو الذي ذكره الله في القرآن عن فرعون أنه أنكر ربّ العالمين"[2] .

المطلب الثاني : بيان فساد قول القائلين بالإلحاد .

المنكرون للخالق -جلّ وعلا- قولهم فاسد بالضرورة ، وهذا القول العلم به كافٍ وحده في معرفة بطلانه ، ومع ذلك فإن شيخ الإسلام –رحمه الله- ذكر أوجهاً متعددة في بيان فساد قول القائلين بهذا الإلحاد وهي كالتالي:

1- أن المنكّرين للربّ كفرعون وأمثاله وإن أظهروا بألسنتهم إنكار الرب-تعالى- إلاَّ أنهم يقرّون بذلك في نفوسهم ، فالفطرة التي في نفوسهم تردّ عليهم ما يظهرونه ، وتبيّن فساد قولهم .

قال شيخ الإسلام في معرض ردّه على من أوجب النظر والاستدلال من المتكلمين : "وقولهم : إن نفوس العقلاء تتشوف إلى الاستدلال . يقول لهم المنازعون : لا نسلّم أن جميع العقلاء كذلك ، بل جمهور العقلاء مطمئنون إلى الإقرار بالله تعالى ، وهم مفطرون على ذلك. ولهذا إذا ذكر لأحدهم اسمه تعالى ، وجد نفسه له مقبلة عليه ، كما إذا ذكر له ما هو معروف عنده من المخلوقات . والمتجاهل الذي يقول : إنه لا يعرفه ، هو عند الناس أعظم تجاهلاً ممن يقول إنه لا يعرف ما تواتر خبره من

---

[1] "المصدر السابق" (3/129) ، وانظر (3/75) (5/4) (9/255 ، 299) ، و "الإيمان الأوسط " ص (508) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (2/289).

[2] "جامع المسائل" (4/416-417).

الأنبياء والملوك والمدائن والوقائع ، وذلـك عنـدهم أعظم سفسطة من غيره من أنواع السفسطة . ولهـذا من تتبّع مقـــالات النـــاس المخالفـــة للحسّ والعقـــل ، وجـــد المسفسـطين فيهـا أعظم بكثـير من المسفسـطين المنكّـرين للصـانع ، فعُلم أن معرفتـه في الفطـرة أثبت وأقـوى ، إذ كـان وجـود العبـد ملـزوم وجـوده ، وحاجاتـه معلّقة به سبحانه وتعالى ، بل كل مـا يخطـر بقلب العبـد ويريده فهو ملزوم له ، وخـواطر العبـاد وإدارتهم لا نهايـة لها ، وانتقال الذهن من الملزوم إلى اللازم لا ينحصر، بل إقرار القلـوب بـه قـد لا يحتـاج إلى وسـط وطريـق ، بـل القلــوب مفطــورة على الإقــرار بـــه أعظم من كونهــا مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات ، وأشـهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعـون ، وقـد كـان مستيقناً في الباطن ، كما قاله له موسى : ﭽﯙﯚ ﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﭼ[1] ، وقال تعالى عنه وعن قومه : ﭽﭑﭒﭓﭔ ﭕﭼ[2] ولهذا قال : ﭽﭬﭭﭼ[3] على وجه الإنكار له ، قال له موسى : ﭽﭯﭰﭱﭲﭳﭴ ﭶﭷﭸ ﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌ ﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﭼ[4]

فلهـذا بيّن لهم موسـى أنـه معـروف، وأن آياتـه ودلائـل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو ، فـإن هـذا إنما هو سـؤال عمـا يجهـل، وهـو سـبحانه أعـرف وأظهـر وأبين من أن يجهـل ، بـل معرفتـه مسـتقرة في الفطـرة أعظم من معرفة كل معروف"[5] .

---

[1] سورة الإسراء ، الآية (102).

[2] سورة النمل ، الآية (14).

[3] سورة الشعراء ، الآية (23).

[4] سورة الشعراء ، الآية (24-28).

[5] "درء التعـارض" (8/37-39) ، وانظر (8/440-441) ، و "جـامع الرسـائل" (1/14-15) ، و "جـامع المسـائل" (4/416-417) ، و "مجموع الفتاوى" (12/9-10) ، و "شرح الأصبهانية" ص (313-314).

2- وكما أنه يعلم فساد قولهم بالضرورة فإنه يعلم أيضاً بالنظر ، قال شيخ الإسلام بعد أن ذكر قول الدهرية المعطلة المحضة القائلين بأن العالم قديم أزلي وجب بنفسه ليس له مبدع ولا صانع لا فاعل بالاختيار ولا موجب بالذات قال : "وهؤلاء يُعلم فساد قولهم تارة بالضرورة ، وتارة بالنظر من وجوه كثيرة ، فإن ما في العالم من الحوادث المشهودة التي تدلّ على أن محدِثها عالم قدير حكيم ، وما في العالم من الحاجة والافتقار الذي يدلّ على أن جميعه وكلّ جزء منه محتاج مفتقر ، وأن جميع ما هو فقير محتاج يفتقر إلى ما هو خارج عنه ، وأن الوجود إمّا واجب وإمّا ممكن ، وإمّا قديم وإمّا محدث، وإمّا غني لا محتاج وإمّا محتاج ، وإمّا مخلوق أو غير مخلوق ، ولابدّ للمكن من واجب، وللمحدث من قديم ، وللفقير من غني، والمخلوق من خالق غير مخلوق ، فيلزم وجود الخالق الغني القديم الواجب بنفسه بالضرورة"[1] .

3- أن الإقرار بالرب –تبارك وتعالى- معروف عند عامّة الأمم ، والكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الرب -تعالى- إلاّ من شذّ من هؤلاء الشرذمة الذين لا يعتدّ بهم ، وهم قلّة قليلون لا يذكرون بالنسبة إلى من يقرّ بالرب تعالى .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- : "وهو سبحانه وتعالى لما أقسم بـ " الصافات" ، و "الذاريات " ، و "المرسلات" ذكر المقسم عليه فقال تعالى : ﭽﭙﭚﭛﭜ[2] فقال : ﭽ   ﭼ[3] وقال تعالى : ﭽ   ﭼ[4] ولم يذكره في النازعات . فإن الصافات هي الملائكة، وهو لم يقسم

---

[1] "شرح الأصبهانية" ص(314).
[2] سورة الصافات ، الآية (4).
[3] سورة الذاريات ، الآية (5-6).
[4] سورة المرسلات ، الآية (7).

على وجودها ، كما لم يقسم على وجود نفسه ؛ إذ كـانت الأمم معترفة بالصافات، وكانت معرفته ظاهرة عندهم لا يحتاج إلى أقسام بخلاف التوحيد ، فإنه كما قـال تعـالى : ﭽﭙﭚﭛ ﭜﭝﭞﭟﭠﭼ[1] وكذلك الملائكة يقرّ بها عامّة الأمم ، كمـا ذكـر اللـه عن قـوم نـوح وعـاد وثمـود وفرعـون مـع شركهم وتكذيبهم بالرسل أنهم كانوا يعرفون الملائكـة ... وكـذلك مشـركوا العـرب... فكـانت هـذه الأمم المكذّبـة للرّسل المشركة بالربّ مقرة بالله وبملائكته فكيـف بمن سواهم ؟ فعلم أن الإقرار بالرب وملائكتـه معـروف عنـد عامّـة الأمم ، فلهـذا لم يقسـم عليـه وإنمـا أقسـم على التوحيد؛ لأن أكثرهم مشركون"[2] .

وقال : "فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله"[3] .

والإلحاد المعاصر وإن كـان قـد أصـبح ظـاهرة منتشـرة ، وهنـاك دول قـامت عليـه إلاَّ أن المعتقـدين إذا قورنـوا بالمقرِّين بالربِّ من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم فهم قلّة قليلة وحتى الـدول الـتي تبنت الإلحـاد ليس كـل شعوبها ملاحدة ، بل فيهم النصارى وغيرهم من المقـرِّين بالرب.[4]

4- ما سـبق ذكـره من دلائـل الربوبيـة الـتي قرّرهـا شيخ الإسلام ، كدليل الآيات المشـتمل على دليـل الحدوث ، والافتقار والاشـتراك بين المخلوقـات ، وعـــدم الاســـتقلال ، والاختلاف بينهـــا ، ودليـــل العناية ، كلّ ذلك ردًّ على هؤلاء الملاحدة.[5]

---

[1] (?) سورة يوسف ، الآية (106).
[2] (?) "مجموع الفتاوى" (13/318-320).
[3] (?) "المصدر السابق" (12/9).
[4] (?) انظر "قول فلاسفة اليونان الوثنيين في توحيد الربوبية " أد. سعود الخلف ضـمن "مجلة الجامعة الإسـلامية" العـدد : 120 – السنة 35-1423هـ .
[5] (?) انظر ص (298-332) .

هذا ما يتعلّق بالردّ على هؤلاء الملاحـدة المنكـرين للـربِّ تعالى يبقى هنا سؤال : وهو هل هؤلاء المنكـرون للصـانع يثبتون وجود موجود واجب الوجود؟
قــرّر شــيخ الإســلام أنهم يثبتــون وجــود موجــود واجب الوجود، فإن الاعتراف بهذا أمـر ضـروري لا يمكن دفعـه، والشأن إنما هو في تعيينه.
قـال شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- : "والـذي علم بصـريح العقل : ان ما كان واجب الوجـود بذاتـه لا تكـون حقيقتـه مفتقرة إلي حقيقة أخرى مباينة لذاته ؛ لأن ذلك يمنــع أن يكون واجباً بذاته ، ولذلك انحصرت قسـمة الموجـود إلى واجب بذاتــه وممكن بذاتــه، وكــان الاعــتراف بــالموجود الواجب أمراً ضرورياً لا يمكن دفعه ، وليس من الاعتراف به اعتراف بصانع العالم، بـل فرعـون وأمثالـه ممّن ينكـر الخالق تعالى لا يدفع وجود موجـود واجب الوجـود، وإنمـا الشأن في تعيينه ، فقد يقرّ به ، ويزعم أنـه العـالم ، كمـا هــو حقيقــة قــول هــؤلاء (أي الاتحاديــة الــذين يقولــون المخلوقات هي الخالق) "[1] .

وقـال –رحمـه اللـه- عنـد شـرحه لـدليل الأصـبهاني على وجود الخالق : "فهذا الدليل مبني على مقدمتين :
إحداهما : أن الممكنات موجودة .
والثانية : أن الممكن لا يوجد إلاَّ بواجب الوجود .
والمقدمـة الأولى لم يقررهـا بحـال ، ولا يمكن أن يسـلك في ذلك طريقة ابن سـينا وأمثالـه من المتفلسـفة الـذين قالوا : نفس الوجود يشهد بوجود واجب، فإن الوجود إمّــا ممكن وإمّــا واجب ، والممكن مســتلزم للــواجب، فيثبت وجود الواجب على التقديرين .
فــإن هــذه الطريقــة وإن كــانت صــحيحة بلا ريب ، لكن نتيجتها إثبـات وجـود واجب، وهـذا لم ينـازع فيـه أحـد من العقلاء المعتبرين ، ولا هو من المطـالب العاليـة، ولا فيـه إثبـات الخـالق ، ولا إثبـات وجـود واجب أبـدع السـماوات

---

[1](?) "بغية المرتاد" ص (427).

والأرض... وإنما فيـه أن في الوجـود وجـوداً واجبـاً، وهـذا يسلّمه منكرو الصـانع كفرعـون ، والدهريـة المحضـة من الفلاسفة والقرامطة ونحوهم، ويقولون : إن هـذا الوجـود واجب الوجود بنفسه"[1] .

إذا علم ذلك فإن شيخ الإسلام قرّر:

أن القول بأن العالم حدث من غير محـدث ، وأن الوجـود كلّه مخلوق مربوب محدث ، بمعنى أنـه ليس في الوجـود موجود واجب الوجود : أن هذا القول لا يعرف عن طائفة قالته ، وإنما تقديراً كما تقدّر الشبه السوفسطائية لتبـيين بطلانها.

قـال شـيخ الإسـلام : "قـد علم بالضـرورة أن الموجـود ينقسم إلى واجب قـديم قيـوم غـني خـالق ، وإلى ممكن محدَث مدَبَّر فقير مخلـوق ، فلا سـبيل إلى جعـل الوجـود كله واحداً واجباً كمـا يقولـه أهـل الوحـدة ، ولا إلى جعلـه كلـه مخلوقـاً مربوبـاً محـدثاً ، كمـا يـذكر عن بعضـهم أنـه ادّعى حدوث الوجود كله بدون محـدثٍ ، فـإن فسـاد كـل من القولين من أبين العلـوم الضـرورية البديهيـة ، ولهـذا كـان أهـل الوحـدة متناقضـين لا يلـتزمون قـولهم ، وأمـا حدوث الوجود جميعه بدون محدث فلا تعرف طائفة قالته ، وإنمـا يقـدّر تقـديراً ذهنيـاً كمـا تُقـدَّر كثـير من الأقـوال السوفسطائية لتبين بطلانها وانتفائها" [2] .

وقــال –رحمــه اللــه- ومن المعلــوم ببداهــة العقــول أن الحادث لا يحدث بنفسه، ولهذا قال تعالى : " ﭽﭬﭭﭮﭯ ﭰﭱﭲﭼ[3] وقد قيل : "أم خلقوا من غير شيء " من غير ربّ خلقهم ، وقيل : من غير مادة ، وقيل: من غير عاقبة وجزاء . والأول مراد قطعاً ، فإن كلّ ما خلق من مـادة أو لغاية فلا بّد له من خالق . ومعرفة الفطـر أن المحـدث لا بدّ له من محدث أظهر فيها من أن كـلّ محـدث لا بـدّ لـه من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فإن كثيراً من العقلاء

[1] "شرح الأصبهانية" ص(48-50).

[2] "الصفدية" (2/18).

[3] سورة الطور ، الآية (35).

نازع في هذا وهذا ولم ينازع في الأول ... وأما أن يقول : إنه محدث حدث بنفسه بلا صانع فهذا لايعرف عن طائفة معروفة ، وإنما يحكى عمن لايعرف ، ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله ممّن حصل له فساد في عقله صار به إلى السفسطة ، والسفسطة تعرض لآحاد الناس، وفي بعض الأمور ، ولكن أمة من الأمم كلهم سوفسطائية في كل شيء هذا لا يتصور ، فلهذا لا يعرف عن أمة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث"[1] .

وشيخ الإسلام مع أنه اعتبر هذا القول مما يقدّر تقديراً ذهنياً ، وأنه من السفسطة إلاَّ أنه لم يكتف بذلك ، وإنما ردّ عليه فقال : "وإن فرض أن قائلاً يقول أو يخطر له : إن الفلك ليس بقديم واجب بنفسه ، ولا معلول علة قديمة ، بل يقول : حدث بنفسه بعد أن لم يكن ، وهذا لا نعلم به قائلاً ، وقد ذكر أرباب المقالات أنهم لم يعلموا به قائلاً ، لكن هو مما يخطر بالقلب ويوسوس به الشيطان.

فيقال : هذا الموجود المشهود إمّا أن يكون موجوداً بنفسه وإمّا أن لا يكون فإذا كان موجوداً بنفسه ، فإمّا أن يكون قديماً ، وهو القسم الذي تقدّم بيان تناقض أصحابه ، وإمّا أن يكون محدثاً بنفسه فيقال : هذا القول أظهر فساداً وتناقضاً ، فإنه من المعلوم بالفطرة البديهية : أن المحدث قبل أن لم يكن لا يتصور أن يحدث من غير محدث ولا أن يحدث نفسه ، فلا يكون الشيء صانعاً لنفسه ، لا مصنوعاً لنفسه ، كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضع[2] قال تعالى : ﭽﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭼ[3] قالوا : من غير خالق خلقهم . قال جبير بن مطعم : لما سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم – يقرأ هذه الآية في صلاة

---

[1] "مجموع الفتاوى" (13/150-151) ، وانظر "منهاج السنة" (3/295-296).

[2] انظر "الجواب الصحيح" (3/203) ، و "درء التعارض"(3/113، 221) ، و"مجموع الفتاوى" (2/11).

[3] سورة الطور ، الآية (35).

المغرب أحسست بفؤادي قـد انصـدع[1] وقـد تكلمنـا عن هذه الآية في غـير هـذا الموضـع . بيّن سـبحانه باسـتفهام الإنكــار الــذي يتضــمن أن الأمــر المنكــر من المعلــوم المســتقرة الملازمــة للمخــاطب الــتي ينكــر على من جحـدها ؛ لأنـه سفسـط بجحـد العلـوم البديهيـة الفطريـة الضرورية [2]، فإنه من المعلوم أن ما حـدث لا يكـون من غير محدث أحدثه ، ولا يكون هو حدث بنفسه فقال : ﭽﭬ ﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭼ[3] وهذا يستلزم الجمع بين النقيضين وغيره من المحـالات . وإن كـانت إحالتـه في العقـل من أظهـر العلوم الضـروريات فـإن كونـه فـاعلاً لنفسـه يقتضـي أن يكـون وجـوده قبلهـا ، وكونهـا مفعولـه يقتضـي أن يكـون وجــوده بعــد نفســه ، فيجب أن تكــون نفســه موجــودة معدومة في آن واحد"[4] .

المبحث الأول : القائلون بهذا القول والتعريف بهم وبأقسامهم.

القائلون بقدم العالم هم الفلاسفة من أرسطو ومن بعده ، وأمَّا أساطين الفلاسفة قبل أرسـطو فلم يكن منهم من قال بقدم العالم .

وقبل ذكر أقــوال شــيخ الإســلام في ذلك يحسن بي أولاً التعريف بالفلسفة والفلاسـفة . وسـيكون الكلام عن ذلك على النحو الآتي:

أولاً: تعريف الفلسفة .

ثانياً: التعريف بالفلاسفة وأقسامهم.

أولاً: تعريف الفلسفة :

---

[1] سبق تخريجه ص (304) .

[2] انظر "النبـوات" (1/312-313)ـ ، و "مجمـوع الفتـاوى" (13/151) (18/236-237).

[3] سورة الطور ، الآية (35).

[4] "بيان تلبيس الجهمية" (1/482-484).

سيكون الكلام على تعريف الفلسفة من عدة جهات:

- تعريف الفلسفة من جهة اشتقاق اسمها .
- تعريف الفلسـفة من جهة فعلهـا، أو بتعبـير آخر من جهة السلوك الإنساني .
- تعريف الفلسـفة من جهة ما يحـدّ به عين الفلسـفة، أو بتعبير آخر تعريف الفلسفة التقليدي.

- تعريف الفلسفة من جهة اشتقاق اسمها.

قال شـيخ الإسـلام : "والفلسـفة لفظ يونـاني ، ومعناهـا: محبة الحكمة ، والفيلسوف في لغتهم : محب الحكمــة"" [1] .

فاسم الفلســفة دخيل في العربية ، فــإن هــذه الكلمة مــأخوذة من كلمة يونانية هي "فيلا" "ســـوفيا" ، "فيلا" بمعــنى الحب ، و"ســوفيا" بمعــنى الحكمة . فالفلســفة بمعنى : "محبة الحكمة"[2] .

والفلسفة عند مؤرخي الفكر الفلسـفي العـام كمصـطلح محدّد المعالم ظهر على يد اليونان ،

ولم يكن له من قبل سبيل في المعاجم اللغوية [3] .

---

[1] "الصفدية" (2/323).

[2] انظر "الملل والنحـــل" (2/363-364)، و "المعجم الفلسفي" ص (138) ، و "موسوعة مصطلحات الفلسـفة عند العرب" ص (603) ، و "الفلسفة في الإسلام " ص (35-36).

[3] انظر "الفلسفة في الإسلام" ص (36).

وعنــدهم أيضــاً أن تلامــذة ســقراط [1] من أفلاطــون [2] وأرسطو كانوا أول من أطلق هـذه اللفظة "الفلسـفة" [3] والتي بمعنى محبة الحكمة .
والحكمة اسم يجمع العلم والعمل به في كل أمة ، وكل أمة لها حكمة بحسب علمها ودينهـا. فالهند لهم حكمة مع أنهم مشـركون كفـار، والعـرب قبل الإسـلام كـانت لهم حكمة ، وكان فيهم حكماء ، والعرب مع كونهم مشــركين يعبـدون الأوثـان ، وكـذلك اليونـان لهم حكمة بحسـبهم . وحكمــاء كل طائفة هم أفضل تلك الطائفة علمــاً وعملاً، لكن لا يلزم من ذلك أن يكونـوا ممـدوحين عند الله وعند رسوله . فإن الممدوح عند الله وعند رسوله لا يكون قطّ إلاَّ من المؤمنين المسلمين [4] .
"وأصــحّ الطوائف حكمة من كــانت حكمتهم أقــرب إلى حكمة الرسل التي جاءوا بها عن الله تعالى ، قـال تعـالى عن نبيه داود –عليه السلام-ﭽﭬﭭﭮﭯﭰ [5] وقال عن المسيح –عليه السـلام-ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ [6] وقـال عن يحـيى –عليـه

---

[1] سـقراط : ولد في أثينا سـنة (469) ق.م ، وعُلّم فيها ، وهو أســتاذ أفلاطــون ، اتهم بــالكفر بآلهة المدينة ، وبتعليم التلاميذ تغليب الباطل على الحق فحكم عليه بالإعــدام ، تــوفي ســنة (399) ق.م . انظر "تاريخ الفلسفة اليونانية" ص (50) وما بعدها .

[2] أفلاطـون : ولد سـنة (427) ق.م ، وأبـوه أريسـطون ، وقد سمّاه باسم جدّه أرسطو قليس ، لكنه لما كـان ذا قامة طويلة ، عظيم الجبهة ، ضخماً عريض الأكتاف سمّي أفلاطون واشتهر به ، وهو تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو . تـوفي سـنة (347) ق.م . انظر "تاريخ الفلسفة اليونانيـة" ص (62) وما بعـدها، و "حاشـية الملل والنحلل" (2/405).

[3] انظر "أسس الفلسفة" ص (29) ، و"الفلسفة في الإسلام" ص (36).

[4] انظر "الـردّ على المنطقـيين" (2/176) ، و "الصـفدية" (2/325).

[5] سورة ص ، الآية (20)

[6] سورة آل عمران ، الآية (48)

السلام- ﭽﭗﭘﭼ[1] والحكم هو الحكمة ، وقال لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم - ﭽ[2]ﭼ ، وقال ﭽﯥﯦ ﯧﯨ[3]ﭼ وقال لأهل بيت رسوله ﭽﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﭼ [4] فالحكمة الـتي جـاءت بهـا الرسـل هي الحكمـة الحـق المتضـمنة للعلم النـافع والعمـل الصـالح ، للهـدى ودين الحق ، لإصابة الحق اعتقـاداً قـولاً وعملاً، وهـذه الحكمـة فرّقها الله -سبحانه- بين أنبيائه ورسله ، وجمعهـا لمحمـد –صلى الله عليه وسلم- ، كما جمع لـه من المحاسـن مـا فرّقــه في الأنبيــاء قبلــه ، وجمــع في كتابــه من العلــوم والأعمال ما فرّقه في الكتب قبله، فلو جمعت كل حكمـة صحيحة في العالم من كل طائفة لكانت في الحكمة التي أوتيها –صلى الله عليه وسلم- جـزءً يسـيراً جـداً لا يـدرك البشر نسبته"[5] .

- تعريـــف الفلســـفة من جهـــة فعلها[6] ، أو بتعبير آخر من جهة السلوك الإنساني[7].

(?)[1] سورة مريم ، الآية (12)

(?)[2] سورة النساء ، الآية (113)

(?)[3] سورة البقرة ، الآية (269)

(?)[4] سورة الأحزاب ، الآية (33)

(?)[5] "إغاثة اللهفان" ص (755-756).

(?)[6] انظر "موسوعة مصطلحات الفلسفة" ص (603).

(?)[7] انظر "التفكير الفلسفي في الإسلام" ص(308).

عرّفها الجرجاني[1] بقوله : "الفلسفة التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة
الأبدية ، كما أمـر الصـادق –صـلى اللـه عليـه وسـلم- في قوله : "تخلقوا بأخلاق الله""[2] .
وهـذا القـول منهم هـو من أعجب العجب، إذ إنهم ينفـون صفات الله ، فكيف يكون التشبه به؟! .
قال ابن أبي العز الحنفي : "ومن أعجب العجب : أن من غلاة نفاة الصفات الذين يسـتدلون بهـذه الآيـة الكريمـة ، (وهي قوله تعالى : ﭽﭞ ﭟ ﭠﭡ ﭢ ﭣﭼ[3]) على نفي الصفات والأسماء ، ويقولون : واجب الوجود لا يكون كذا ولا يكون كذا ، ثم يقولون : أصل الفلسـفة هي التشـبه بالإلـه على قدر الطاقة ، ويجعلون هذا غايـة الحكمـة ونهايـة الكمـال الإنسـاني ، ويـوافقهم على ذلـك بعض من يطلـق هـذه العبارة ، ويروي عن النبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- أنـه قال : "تخلقوا بأخلاق الله" فـإذا كـانوا ينفـون الصـفات ، فبأي شـيء يتخلـق العبـد على زعمهم؟! "[4] . والحـديث الذي ذكروه "تخلقوا بأخلاق الله" قال عنه شيخ الإسلام : "وهذا اللفظ لا يعرف عن النبي –صلى الله عليـه وسـلم- في شيء من كتب الحديث ، ولا هو معروف عن أحد من أهل العلم ، بل هو من باب الموضوعات عندهم"[5] .

---

[1] علي بن محمد بن علي الجرجـــــاني الحســـــيني الحنفي ، المعـروف بالشـريف الجرجـاني ، ولد سـنة (740)هــ ، متكلم ، وفيلسوف ، ومتصوف ، توفي سنة (816)هـــ . انظر "الأعلام" (5/7)ـ ، "معجم المــؤلفين" (2/515)ـ ، و "مقدمة كتــاب التعريفات" ص (3).

[2] "التعريفــات"ص(176)ـ ، وانظر "الشــفاء" "الإلهيــات" (1/390).

[3] سورة الشورى ، الآية (11).

[4] "شرح العقيدة الطحاوية" (1/181).

[5] "بيان تلبيس الجهمية" (6/518-519).

- **تعريف الفلسـفة من جهـة مـا يحـدّ بـه عين الفلسفة[1] ، أو بتعبير آخر تعريف الفلســفة التقليدي[2] .**

عُـرّفت الفلسـفة من هـذه الجهـة بأنهـا : "علم الأشـياء الأبديـة الكليـة ، إنياتها[3] ، ومائياتها[4] وعللهـا بقـدر طاقـة الإنسان"[5] .

وعُرّفت أيضاً بأنها:"الوقوف على حقائق الأشياء كلها"[6] .

وهم لهم يلتزموا بالقيد الذي ذكروه في التعريــف الأول ، وهو "بقدر طاقة الإنسان" ، ولو التزموا بذلك لمـا دخلـوا في باب الغيبات بعقولهم ، ولما أعرضوا عن الوحي الذي لا يمكن للإنســان أن يعلم الأمــور الغيبيــة على وجــه التفصيل إلاّ عن طريقه .

ثم إن الوقوف على حقائق الأشياء ، وعللهـا فيمـا يتعلـق بالله تعالى لا يجوز ولا يمكن للإنسان أن يدركه ، وهو من التأويل الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى .

قال تعالى : ﭽ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﭼ [7] وجمهور سلف الأمة وخلفها على أن الوقف عند قوله (ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ) وعليه فيكون المراد بالتأويل : الحقيقة التي يؤول إليها الكلام .

(?)[1] انظر "موسوعة مصطلحات الفلسفة" ص (604).

(?)[2] انظر "التفكير الفلسفي في الإسلام" ص (309).

(?)[3] الأنيّة : تحقق الوجــود العيــني من حيث رتبته الذاتية . انظر "التعريفات" ص (39).

(?)[4] المائية : المشـهور أنها هي الماهية ، والماهية مشـتقة من ما هو ، وهي ما به يجاب عن السؤال بـ (ما هو) ، وهذا سؤال عن حقيقة الشــيء وذاته ، انظر "الكليــات" (4/287-288) ، و"الفصل في الملل والأهواء والنحل" (2/13) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (2/387) (8/295-296).

(?)[5] انظر "موســوعة مصــطلحات الفلســفة" ص (604) ، و "التفكير الفلسفي في الإسلام" ص (309)

(?)[6] انظر "المعجم الفلسفي" ص(138).

(?)[7] سورة آل عمران ، الآية (7).

وحقائق ما أخبر الله - عـز وجـل- بـه عن نفسـه هـو من التأويل الذي لا يعلمه إلاّ الله .
ونحن إذ أخبرنا الله – عز وجـل- بـالغيب الـذي اختصّ بـه من حقائق صفاته تعالى ، علمنا معـنى ذلـك ، وفهمنـا مـا أريد منّا فهمـه بـذلك الخطـاب وفسّـرنا ذلـك ، أمـا نفس الحقيقة المخبر عنها فذلك من التأويـل الـذي لا يعلمـه إلا الله . ولهذا لما سئل الإمام مالك عن قوله تعالى : ﭽﮉﮊﮋ ﮌ ﭼ [1] كيف استوى؟ قـال : "الإسـتواء معلـوم ، والكيـف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة" [2] .
فبيّن أن الاستواءِ معلوم ، وأن كيفية ذلك مجهولة ، ومثل ذلك يوجـد كثـيراً في كلام السـلف والأئمـة ، ينفـون علم العباد بكيفية صفات الله وأنه لا يعلم كيـف اللـه إلا اللـه ، فلا يعلم ما هو إلاّ هو [3] .

ثانياً: التعريف بالفلاسفة وأقسامهم :
الفلاسفة لا تختصّ بأمةٍ من الأمم ، بل هم موجـودون في سائر الأمم ، وإن كان المعروف عند الناس الـذين اعتنـوا بحكاية مقالاتهم أنهم : هم فلاسـفة اليونـان ،وهم طائفـة من طوائــف الفلاســفة، وأمــة من الأمم ، لهم مملكــة وملوك ، وعلماؤهم فلاسفتهم [4] .

---

[1] سورة طه ، الآية (5).
[2] أخرجه الـــدارمي في "الـــردّ على الجهميـــة" ح (104)ـ ، واللالكائي في "شـرح أصـول اعتقـاد أهل السـنة والجماعـة"ح (664) ، والصابوني في " عقيدة السلف وأصحاب الحديث" ص (180-181)ـ ، والـبيهقي في "الأسـماء والصـفات" ح (867-868)ـ ، وأورده الذهبي في "العلو" وقال : هذا ثابتٌ عن مالك . (2/954).
[3] انظر "التدمرية" ص (98-99).
[4] انظر "إغاثة اللفهان" ص (762).

ولهذا يقول شيخ الإسلام - رحمه الله- : "الفلاسفة هم حكماء اليونان ، وكل أمة من أهل الكتب المنزّلة وغيرهم فلهم حكماء بحسب دينهم ، كما للهند المشركين حكماء، وكان للفرس المجوس حكماء ، وحكماء المسلمين هم أهل العلم بما بعث الله به رسوله وأهل العلم به ... فلما كان هذا أصل لفظ "الفلسفة" صار هذا مطلقاً على كل من سلك سبيل أولئك اليونان واتبعهم في حكمتهم . والذين اتبعوهم من المتأخرين فصرّحوا فيها بأشياء وقرّبوها إلى الملل" [1] .

وقال ابن القيم –رحمه الله- : "الفلاسفة اسم جنس لمن يُحبّ الحكمة ويؤثرها . وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصاً بمن خرج عن ديانات الأنبياء ، ولم يذهب إلاّ إلى ما يقتضيه العقل في زعمه . وأخصّ من ذلك أنه في عرف المتأخرين : اسم لأتباع أرسطو وهم المشَّاءون [2] خاصّة . وهم الذين هذَّب ابن سينا طريقتهم وبسطها وقرّرها ، وهي التي يعرفها بل لا يعرف سواها المتأخرون من المتكلمين" [3] . وقد ذكر شيخ الإسلام - رحمه الله- أن الفلاسفة طوائف كثيرون ، وأصناف متفرقون ، وبينهم من التفرّق والاختلاف ما لا يحصيه إلاّ الله ، أعظم مما بين الملّة الواحدة ، كاليهود والنصارى أضعافاً مضاعفة [4] .

والفلاسفة على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم قسّمهم الغزالي [5] إلى ثلاثة أقسام ، وذكر هذا التقسيم شيخ الإسلام ولم يعلِّق عليه :

(?)[1] "الصفدية" (2/325).

(?)[2] المشاءون : هم أتباع أرسطو طاليس، وكان من عادته أنه يلقي على تلاميذه الدروس وهو يتمشى وهم يسيرون من حوله ، فلقب لذلك هو وأتباعه بالمشائين . انظر "تاريخ الفلسفة اليونانية"ص(13).

(?)[3] "إغاثة اللهفان" ص(756).

(?)[4] انظر "الردّ على المنطقيين" (2/80-84) ، و"درء التعارض" (1/157-159)، و "الصفدية"(2/293-294).

"الصنـــف الأول : الـدّهريون وهم : طائفـة من الأقـدمين جحدوا الصانع المدبِّر العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكـذلك يكـون أبداً ، وهؤلاء هم الزنادقة .

الصنف الثاني : الطبيعيون وهم : قـوم أكـثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجـائب الحيـوان والنبـات ، وأكـثروا الخوض في علم تشـريح أعضـاء الحيوانـات ، فـرأوا فيهـا من عجائب صنع اللـه تعـالى وبـدائع حكمتـه مـا اضـطروا معـه إلى الاعـتراف بفـاطر حكيم ، مطلـع على غايـات الأمـــور ومقاصـــدها ... إلاّ أن هـــؤلاء لكـــثرة بحثهم عن الطبيعـة ظهـر عنـدهم لاعتـدال المـزاج تـأثير عظيم في قِـوام قـوى الحيـوان بـه . فظنـوا أن القـوة العاقلـة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضـاً ، وأنهـا تبطـل ببطلان مزاجـه فينعدم ، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا . فـــذهبوا إلى أن النفس تمـــوت ولا تعـــود ، فجحـــدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والقيامـة والحسـاب ، فلم يبق عنـدهم للطاعـة ثـواب، ولا للمعصـية عقـاب، فانحـل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة ؛ لأن أصل الإيمـان هـو الإيمـان باللـه واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنـوا باللـه تعالى وصفاته .

الصـنف الثـالث: الإلهيـون وهم : المتـأخرون منهم مثـل: ســقراط وهـــو أســتاذ أفلاطـــون، وأفلاطـــون أســتاذ أرســطوطاليس، وأرســطوطاليس هــو الــذي رتبّ لهم

---

[5](?) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشـــــــافعي الغــزالي ، صــاحب التصــانيف والــذكاء المفــرط، ألــفّ في ذمّ الفلاسفة كتاب "التهافت" كشف عـوارهم ، ووافقهم في مواضع ظناً منه أن ذلك حق أو موافق للملّة، لم يكن له علم بالآثار، ولا خبرة بالسنن النبوية، قيل : إنه في خاتمة أمـره أقبل على طلب الحديث ومجالسة أهله ومطالعة الصـحيحين . انظر "سـير أعلام النبلاء" (19/322) وما بعدها .

المنطق ، وهـذّب العلـوم، وخمّـر لهم مـا لم يكن مخمّـرا من قبـل ، وأنضـج لهم مـا كـان فِجـاً من علـومهم . وهم بجملتهم ردّوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعة ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غــيرهم ، وكفى اللـه المؤمــنين القتـال بتقـاتلهم ، ثم ردّ أرسـطو طـاليس على أفــلاطون وسـقراط ومن كـان قبلـه من الإلهيين رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عنـه جميعهم ، إلاّ أنـه استبقى أيضاً من رذائل كفـرهم وبـدعتهم بقايـا لم يوفـق للــنزوع عنهــا، فــوجب تكفــيرهم وتكفــير متبعيهم من متفلسفة الإسلاميين ، كابن سينا والفارابي وغيرهم " [1] .

وشـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- قسّـم الفلاسـفة الدهريـة القائلين بقدم الأفلاك إلى قسمين:

الأول: دهرية معطلة محضة .

يقولون بأن العـالم قـديم أزلي ، وجب بنفسـه ، ليس لـه مبدع ولا صانع ، ولا فاعل بالاختيار ولا موجب بالـذات[2] .

وهؤلاء قولهم من جنس القول الذي أظهـره فرعـون من إنكار ربّ العالمين .

الثاني: الدهرية الإلهيون .

يقولون بأن العالم قـديم والأفلاك قديمـة ، ولكن لـه علّـة قديمة هو مفتقر إليها . وهذا قول أرسطو وأتباعــه ، وابن سينا وأمثاله من الفلاسفة[3] .

ويطلــق شــيخ الإســلام على القســم الأول : الفلاســفة الطبيعية أو الطبيعيون .

---

[1] "المنقذ من الضــــلال" ص (63-64)ــ ، وانظر "شــــرح الأصبهانية" ص (584-586) .

[2] قال شيخ الإسلام : "والموجب بالـذات هو : الـذي تكـون ذاته مستلزمة لموجبه ومقتضـاه ، فلا يجـوز أن يتـأخر عنه شـيء من موجبه ومعلوله" . "الصفدية" (1/10).

[3] انظر "شرح الأصبهانية" ص (313-314).

ويطلق على القسم الثاني : الفلاسفة الإلهية أوالإلهيون[1] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام أن أرسطوطاليس هو من عُرف عنه القول بقدم العالم ، وأمّا أساطين الفلاسفة قبله فلم يكن منهم من قال بقدم العالم .
قال شيخ الإسلام :"وكتب المقالات تنطق بأن أرسطو هو الذي اشتهر عنه القول بقدم العالم ، وأما أساطين الفلاسفة قبله فلم يكن هذا قولهم ، وهذا يحكيه المعظَّمون لأرسطو وغير المعظمين له"[2] .
وقال : "وجمهورهم (أي الفلاسفة) يقولون بحدوث هذا العالم ، وإنما عرف القول بقدمه من أرسطو ومتبعيه"[3] .
وقال : "وأمّا الأفلاك فالمنقول عن أفلاطون وغيره أنها محدثه ، فإن أرسطوطاليس يقول بقدم الأفلاك والعقول والنفوس...وهم ينقلون : أن أول من قال من هؤلاء بقدم العالم هو أرسطوطاليس ، وهو صاحب التعاليم ، وأمّا القدماء كأفلاطن وغيره فلم يكونوا يقولون بقدم ذلك ، وإن كانوا يقولون أو كثير منهم بقدم أمور أخرى ، قد يخلق منها شيء آخر ، ويخلق من ذلك شيء آخر إلى أن ينتهي الخلق إلى هذا العالم . فهذا قول قدمائهم أو كثير منهم ، وهو خير من قول أرسطو وأتباعه"[4] .

---

[1] انظر "المصدر السابق" ص (313-414) ، و "الإيمان الأوسط" ص(507-508) ، و"درء التعارض" (3/75 ، 129) (5/4) (9/255 ، 299)

[2] "الصفدية" (2/259) .

[3] "الردّ على المنطقيين" (2/23).

[4] "درء التعارض" (9/124) ، وانظر (8/286) (9/253-254 ، 258، 261) ، و "الردّ على المنطقيين" (2/84) ، و "الصفدية" (1/130) (2/152-153 ، 167 ، 300-301) ، و "شرح حديث النزول" ص (414) ، و "منهاج السنة" (1/237 ، 360 ، 364) (

وقد بيَّن شيخ الإسلام السـبب الـذي من أجلـه لم يعـرف عن أساطين الفلاسفة :ابندقلس[1]

وفيثاغورس[2] وسقراط وأفلاطن القول بقدم العالم وهو: أنهم قدموا إلى أرض الأنبياء بلاد الشـام وأخـذوا من بـني إسرائيل بخلاف أرسطو فإنه لم يقدم الشام [3] .

المبحث الثاني : بيان تقريراتهم لهذا القول والردّ عليها .

بيّن شيخ الإسلام –رحمـه اللـه- تقريـر الفلاسـفة لقـولهم بقدم العالم فذكر أن أرسطو وأتباعه قالوا :

(2/282) .

[1] ابنـدقلس ولد سـنة (490) ق.م ، اشـتهر بالفلسـفة والطبّ والشـــعر والخطابة ، تـــوفي ســـنة (430) ق.م . انظر "الملل والنحل" (2/379) ، و "تاريخ الفلسفة اليونانية"ص(35).

[2] فيثاغورس بن منسارخس ، ولد سـنة (572) ق.م ، كـان في زمن ســليمان عليه الســلام ، يــذكر أنه هو الــذي وضع لفظ "فلسـفة" إذ قـال : "لست حكيما ، فـإن الحكمة لا تضـاف لغـير الآلهـة، وما أنا إلاّ فيلسـوف" أي محب الحكمة . تـوفي سـنة (497)ق.م . انظر "الملل والنحـل" (2/385) و "تـاريخ الفلسـفة اليونانية" ص (20-22) .

[3] انظر "الردّ على المنطقيين" (2/84) ، و "الجواب الصحيح" (6/499-500) ، و "مجموع الفتاوى" (4/136).

إن الفلــك قــديم أزلي بنفســه ، ليس لــه مبــدع ، ولكن يتحرك للتشبه بالعلّة الأولى ، فهـو مفتقـر إليهـا من هـذه الجهة ، لا من جهة أنها مبدعة له.
ولم يقـل أرسـطو : إن العلّـة الأولى أبـدعت الأفلاك ، ولا قال : إن الأول فاعل بالمشيئة ولا موجب بالذات ، وإنمـا أثبت له علة غائيـة ، وأثبت ذلـك بطريـق الحركـة ، بنـاءاً على أن حركة الفلك حركة شوقية إراديـة ، وأنـه يتحـرك للتشـبه بمن فوقــه ، فتلــك العلــة تحركــه كمــا يحــرِّك المعشــوق العاشــق، وكمــا يحــرِّك الإمــام المقتــدى بــه للمأموم المقتدي الذي يُحبّ التشبه به.
وأمّـا أتبـاع ارسـطو المنتسـبون إلى الإسـلام كـابن سـينا وأمثاله فهم يقولون ما يعلم جمـاهير العقلاء أنـه مخـالف لضرورة العقل:
إذ يثبتون مفعولاً ممكنا يمكن وجوده ويمكن عدمــه، وهــو مع هذا قديم أزليّ لم يزل ولا يزال، وهو مفعــول معلــول لعلّــة فاعلــة لم يــزل مقارنــاً لهــا مقارنــة المعلــول لعلتــه التامة .
وإذا قالوا : العالم محدث فمعناه عندهم : أنه معلول لعلّة قديمة موجبة بالذات فلم يزل معها . وقـول أرسـطو وإن كان أشد فسـاداً في العقـل والشـرع من قـول ابن سـينا فليس فيه المكابرة بـأن الممكن المفعـول يكـون قـديماً أزلياً[1].
قـال شـيخ الإسـلام :"... والمشـهور عن القـائلين بقـدم العالم أنه لا صانع له فينكرون الصـانع –جـل جلالـه- وقـد ذكر أهل المقـالات أن أول من قـال من الفلاسـفة بقـدم العـالم أرسـطو ، صـاحب التعـاليم الفلسـفية ، المنطقي

---

[1](?) انظر "الــردّ على المنطقــيين" (2/245-246) ، و"شــرح الأصـبهانية" ص (295، 314-315) ، و"الجـواب الصـحيح" (4/463) ، و "درء التعارض" (1/126) (8/186 ، 250، 290) ، و "بيــان تلــبيس الجهميــة" (5/188) ، و"مجمــوع الفتــاوى" (6/331) (11/227) ، و "الصفدية" (2/158-159) ، و "منهاج السنة" (1/200-201 ، 236-237).

والطبيعي والإلهي . وأرسطو وأصحابه القدماء يثبتون في كتبهم : العلة الأولى . ويقولون : إن الفلك يتحرك للتشبه بها ، فهي علة له بهذا الاعتبار ، إذ لولا وجود من تشبه به الفلك لم يتحرك ، وحركته من لوازم وجوده ، فلـو بطلت حركته لفسد. ولم يقل أرسطو : إن العلـة الأولى أبـدعت الأفلاك ولا قال هو موجب بذاته، كما يقوله من يقـول من متأخري الفلاسفة كابن سينا وأمثاله ، ولا قال : إن الفلك قديم وهو ممكن بذاتـه ، بـل كـان عنـدهم مـا عنـد سـائر العقلاء إن الممكن هـو الـذي يمكن وجـوده وعدمـه ، ولا يكـون كـذلك إلاّ مـا كـان محـدثاً ، والفلـك عنـدهم ليس بممكن بل هو قديم لم يـزل ، وحقيقـة قـولهم أنـه واجب لم يزل ولا يزال . فلهذا لا يوجد في كتب الكلام المتقدمة القول بقدم العالم إلاّ عمَّن ينكر الصانع . فلمـا أظهـر من أظهر من الفلاسفة كابن سينا وأمثاله أن العالم قديم عن علة موجبة بالذات قديمة ، صـار هـذا قـولاً آخـر للقـائلين بقدم العالم ، أزالوا به ما كـان يظهـر من شـناعة قـولهم من إنكـار صـانع العـالم ، وصـاروا أيضـاً يطلقـون ألفـاظ المسـلمين من أنـه مصـنوع ومحـدث ونحـو ذلـك ، ولكن مرادهم بذلك : أنه معلول قـديم أزلي ، لا يريـدون بـذلك أن الله أحـــدث شيئاً بعد أن لم يكن ، وإذا قالوا : إن الله خالق كل شيء ، فهذا معناه عندهم ..." [1] .

وإليك أقوال أرسطو وابن سينا من كتبهم :

---

[1] "شرح حديث النزول" ص (414).

قال أرسطو[1] : "ومن الاضطرار أن يوجد جوهر أزلي غير متحرك ، فإن الجوهر يتقدم على سائر الموجودات ، فإن كانت الجواهر فاسدة فالأمور كلها تكون فاسدة ، إلاَّ إنه ليس يمكن في الحركة أن تكون كائنة أو فاسدة ، وذاك أنها دائمة ، ولا الزمان أيضاً فإنه ليس يمكن أن يوجد متقدم أو متأخر إن لم يكن زمان ، والحركة أيضاً يجب أن تكون متصلة على مثال الزمان"[2] .

وقال : "إن ها هنا شيئاً يتحرك حركة دائمة غير متغيّر ، وهذا هو المحرّك على الاستدارة ، وليس ينال هذا بالقوة حسب ، ولكن بالفعل ظاهر . فإن كانت السماء تتحرك حركة دائمة أزلية ، فالمحرّك لها بهذه الصفة . وإن كان ها هنا شيء يحرِّك بأن يتحرك ، فيجب أن يوجد شيء يحرِّك من غير أن يتحرك هو جوهر وذاته فعله . وتحريكه إنما هو على طريق أنه معشوق ومعقول فالأشياء المحرّكة على هذه الجهة إنما تحرّك من غير أن تتحرك "[3] .

وقال : "فطبيعة الكواكب إذا كانت أزلية فالمحرك لها أزلي وأقدم من المتحرك[4] "[5] .

---

[1] أرسطوطاليس ولد سنة (384) ق.م ، من أشهر الفلاسفة اليونان ، تلميذ أفلاطون ، سمّاه أفلاطون "العقل" لذكائه الخارق، و "القرّاء" لاطلاعه الواسع ، وهو وزير الإسكندر بن فيلبس اليوناني المقدوني ، وكان على دين الفلاسفة الذين يعبدون الأصنام المجسدة التي لها ظل . توفي سنة (322) ق.م . انظر "تاريخ الفلاسفة اليونانية" ص(112) ، و "الجواب الصحيح" (1/344-345) ، و "منهاج السنة" (1/317-318، 409-410) .

[2] مقالة اللام ضمن " أرسطو عند العرب" د. عبد الرحمن بدوي ص (3).

[3] "المصدر السابق" ص (5).

[4] المراد أنه متقدم على المتحرك بالشرف والغلبة ونحو ذلك ، وليس متقدماً عليه بالزمان . انظر "بيان تلبيس الجهمية" (5/170 ، 174 ، 188) ، و "منهاج السنة" (1/149).

وقال ابن سينا[1] : "وجود كل معلول واجب مع وجود علته ، ووجود علته واجب عنه وجود المعلول ، وهما معاً في الزمان أو الدهر أو غير ذلك..."[2] .

وقال : "وكل واحد مما هو علة فهو ومعلوله معاً "[3] .

وقال : "إن المعلول بذاته ممكن الوجود ، وبالأول واجب الوجود، ووجوب وجوده بأنه عقل ، وهو يعقل ذاته ، ويعقل الأول ضرورة ، فيجب أن يكون فيه من الكثرة معنى عقله لذاته ممكنة الوجود في حيزها ، وعقله وجوب وجوده من الأول المعقول بذاته ، وعقله الأول ، وليست الكثرة له عن الأول ، فإن إمكان وجوده أمر له بذاته لا بسبب الأول ، بل له من الأول وجوب وجوده"[4] .

وقال أيضاً: "وأما كون المعلول ممكن الوجود في نفسه ، واجب الوجود لغيره فليس يناقض كونه دائم الوجود بغيره"[5] .

(?)[5] مقالة "اللام" ضمن "أرسطو عند العرب" ص (8) ، وانظر كتاب "النفس" ص (112) ، و"الكون والفساد" ص(171 ، 247 ، 257-258) .

(?)[1] الفيلسوف أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري ، الملقب بالشيخ الرئيس ، صاحب التصنيف في الطبّ والفلسفة والمنطق ، أشهر أطباء العرب ، فارسي الأصل ، ولد سنة (370) هـ ، وكان أبوه كاتباً من دعاة الإسماعيلية . له كتاب "الشفاء" وغيره ، وأشياء لا تحتمل ، كفّره الغزالي في كتاب "المنقذ من الضلال" ، توفي سنة (428)هـ . انظر "سير أعلام النبلاء" (17/531-535) ، و "المنقذ من الضلال" ص (64) ، و "تاريخ فلاسفة الإسلام" ص (53) وما بعدها .

(?)[2] "الشفاء" "الإلهيات" (1/167).

(?)[3] "المصدر السابق" (1/264).

(?)[4] "الشفاء" "الالهيات" (1/406) ، وانظر (1/47 ، 263 ، 266-267 ، 374-375).

(?)[5] "الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسي" (3/113) ، وانظر (3/84-88 ، 197-201 ، 216-223) ، وانظر "التعليقات" ص (266 ، 270 ، 333 ، 370 - 371 ، 393) .

وذكر شـيخ الإسـلام –رحمه اللـه- أن أعظم وأظهر حجج الفلاسفة على قدم العالم التي اعتمـدوا عليها ، هو الـذي اعتمـده أفضل متـأخريهم ابن سـينا ونحـوه من الملاحـدة "وهو طلب سـبب التخصـيص ، وهو أنهم قـالوا : العقل الصـريح الـذي لا يكـذب قـطّ يعلم أن الـذات إذا كـانت واحدة من جميع جهاتها ولم تفعل ، ثم فعلت فعلاً فلا بـدَّ من تجديد شـيء لها : إما قـدرة أو علمـاً أو إرادة أو غـير ذلك مما هو من الشروط وزوال الموانع . وإلاَّ فإذا كانت كما لم تزل امتنع صـدور الفعل عنهـا؛ لأن تخصـيص بعض الأوقـات بالفعل لابـدّ له من مخصِّـص ، والقـول في ذلك الحـادث المتجـدد كـالقول في جملة العـالم ، وإذا صـدر الفعل عنها لم يكن صـــادراً بعد أن لم يكن لئلا يلــــزم المحـال المـذكور وبالجملة : فإمّا أن تكـون هي علّة تامّة للفعل أو لا تكــون ، فــإن كــانت علّة تامّة وجبت مقارنة الفعل لها ، وإن لم تكن علة تامة فلا بـــدّ من تجـــدد أمر يصير به علّة تامّة ، والقول في ذلك المتجدد كـالقول في العــالم إن كــانت علته تامة وجبت مقارنته ، وإن لم تكن علة تامّة فلا بدّ من تجدد أمر ويلزم التسلسل"[1] .

وذكر شيخ الإسلام أن الحجة مبناها:

على أنه لا بدّ أن يكون في الأزل مؤثر تامّ لئلا يلزم :

1- الترجيح بلا مرجح
2- أو التسلسل [2]

الردّ عليهم :

---

[1] "بيـان تلـبيس الجهميـــة" (5/225-227) ، وانظر (2/292-293) ،و"الصفدية" (1/10، 28) ، و"منهاج السنة" (1/148) ، و "درء التعـارض" (8/282) ، و "شــرح الأصــبهانية" ص (159-160) ، و "مجمـوع الفتـاوى" (6/333) ، وانظر "الإشـارات والتنبيهـات مع شــرح الطوســي" (3/96-97) ، و "الشــفاء" "الإلهيات" (1/377-379) ، و"التعليقات" ص(387-388) .

[2] انظر "الصفدية" (1/49) ، وانظر (1/39) (2/112 ، 120 ، 124) ، و "منهاج السنة" (1/205) .

اهتمَّ شيخ الإسلام –رحمه اللـه- اهتمامـاً بالغـاً بـالردّ على الفلاسفة بقولهم بقدم العـالم ، وفنَّد حججهم على ذلـك ، وأكــثر –رحمـــه اللـــه- من عـــرض أقـــوالهم في كتبـــه ومناقشــتها، ومناقشـــة من ردّ عليهم من المتكلمين بمـــا يمكن أن يكتب في ذلك بحّد ذاته رسائل علمية ، إلاّ أنني هنا سأقتصر على أبـرز ردود شـيخ الإسـلام عليهم . وهي كالتالي:

1) اتفاق جماهير العقلاء على بطلان القـول بقـدم العالم .

قال شيخ الإسـلام : "... القـول بقـدم العـالم قـولٌ اتفـق جماهير العقلاء على بطلانـه ، فليس أهـل الملـل وحـدهم تبطلـه ، بـل أهـل الملـل كلّهم وجمهـور من سـواهم من المجـــوس وأصـــناف المشـــركين : مشـــركي العـــرب، ومشـركي الهنـد وغـيرهم من الأمم ، وجمـاهير أسـاطين الفلاسـفة كلّهم معـترفون بـأن هـذا العـالم محـدث كـائن بعد ، بل وعامّتهم معترفون بـأن اللـه خـالق كـل شـيء ، والعرب المشركون كلّهم كانوا يعـترفون بـأن اللـه خـالق كـل شـيء وأنّ هـذا العـالم كلّـه مخلـوق ، واللـه خالقـه وربه"[1] .

2) أن قول أرسـطو بـأن الأول ليس مـؤثراً إلاَّ من جهة كونه معشوقاً يبطل قولهم بقدم العالم .

قـال شـيخ الإسـلام : "هـذا القـول الـذي قلتمـوه يبطـل حجتكم على قدم العالم أيضاً، فإنه إذا لم يكن مـؤثراً في العـالم وعلّـة لـه ، ومبـدأ ومحرّكـاً لـه إلاّ من جهـة كونـه محبوباً شائقاً معشوقاً أمكن تأخر وجود العالم عن وجوده ، فإن الشيء المشتاق إليـه قـد يتـأخر عنـه مـا يشـتاقه ، والشيء المشتاق إليه هو مستلزم لوجود المشـتاق ، بـل الأمـر بـالعكس ، فالمشـتاق إليـه غـني عن المشـتاق، والمشتاق محتاج إلى المشتاق إليه . وحينئذ فيمكن وجود

---

[1](?) "شرح حديث النزول" ص (444-445).

الأول للمشتاق إليه[1] ، بدون وجود العـالم المشـتاق ، ثم بعد هذا يوجد العالم المشتاق ، ولا يقـدح ذلـك في كمـال المشتاق إليه . فإن قلتم : فما الموجب لوجود العالم بعد هذا ؟

قيل لكم : هو الموجب لوجـوده قبـل هـذا على أصـلكم ، فإنكم لم تثبتوا للعالم مبـدعاً فـاعلاً وحينئـذ فلا فـرق بين تقـــدم وجـــوده وبين تـــأخره . إلاّ أن تقولـــوا: إنـــه واجب الوجـود بنفســه وإذا قلتم : إن العــالم مــع احتياجــه إلى المعشوق الغني عنـه واجب الوجـود بنفسـه كـان قـولكم أعظم تناقضاً " [2].

3) إن إثبــات ابن ســينا لمفعــول ممكن يمكن وجـــوده ويمكن عدمه وهو مع هذا قديم أزلي جمـعٌ بين النقيضـين ، والفطرة تـرد ذلك ولا تقبله ، وجمـاهير العقلاء من أهل الملل والفلاسفة حـتى أرسـطو وأتباعه القـدماء على أن الممكن الـذي يقبل الوجـود والعـدم لا يكـون إلاَّ محـدَثاً، وأما القديم فلا يكون عندهم ممكناً يقبل الوجود والعـدم.

وقد أنكر على ابن سينا طائفة من إخوانه الفلاسفة كـابن رشد الحفيـد، وبيّنـوا أنه خـرج بـذلك عن مـذهب سـلفه القدماء كما خرج به عن المعقول الصريح .

قال شيخ الإسلام: "ومعلوم أن الشيء الذي يريد الفاعل أن يفعله لا يكون شيئاً قديماً أزلياً لم يزل ولا يـــزال ، بل لا يكون إلاَّ حادثاً بعد أن لم يكن ، وهـذا معلـوم بضـرورة العقل عند عامة العقلاء، وهو متفق عليه عند نظــار الأمم المسلمين وغير المسـلمين ، وجمـاهير الفلاسـفة الأولين والآخـرين حـتى أرسـطو وأتباعـه، ولم ينـازع في ذلك إلاّ شـــرذمة قليلة من المتفلســـفة جـــوّز بعضـــهم أن يكـــون الشيء مفعولاً ممكناً وهو قديم أزلي ، كابن سينا وأمثاله ، وجـوز بعضـهم مع ذلك أن يكـون مـراداً ، وأما جمـاهير العقلاء فيقولون : إن فساد كل من هذين القولين معلـوم

---

[1] (?) هكذا في الكتاب .

[2] (?) " درء التعارض" (9/297-298) .

بضرورة العقل، حتى المنتصـرون لأرسـطو وأتباعه كـابن رشد الحفيد وغـيره، أنكـروا كـون الممكن يكـون قـديماً أزلياً على إخوانهم كابن سينا وبيّنوا أنهم خـالفوا في هـذا القـــول أرســـطو وأتباعه[1] وهو كما قـــال هـــؤلاء وكلام أرســـطو بيِّن في ذلك في "مقالة اللام" الـــتي هي آخر كلامه في علم ما بعد الطبيعة[2] وغـــير ذلـــك. وأرســـطو وقـدماء أصـحابه مع سـائر العقلاء يقولـون: إن الممكن الذي يمكن وجوده وعدمه لا يكون إلاّ محدثاً كائناً بعد أن لم يكن ، والمفعول لا يكـون إلاّ محـدثاً[3] ، وهم إذا قـالوا بقدم الأفلاك لم يقولوا إنها ممكنة ولا مفعولة ولا مخلوقة ، بل يقولـون : إنهـا تتحـرك للتشـبه بالعلـة الأولى ، فهي محتاجة إلى العلة الأولى الـتي يسـمّيها ابن سـينا وأمثالـه واجب الوجود، من جهة أنـه لابـدّ في حركتهـا من التشـبه به، فهو لها من جنس العلة الغائية ، لا أنه علّة فاعلـة لهـا عند أرسطو وذويه...فالمقصود هنا : أن هؤلاء مع ما فيهم من الضلال لم يرضوا لأنفسـهم أن يجعلـوا الممكن الـذي يمكن وجوده وعدمه قديماً أزلياً، بل قالوا: إنه لا يكون إلاّ محـــدثاً ، ولا رضـــوا لأنفســـهم أن يقولـــوا: إن المفعـــول المصـنوع المبـدع قـديم أزلي، ولا أن المـراد الـذي أراد

---

[1] انظر"تهافت التهافت" ص(122 ، 140-141).

[2] ويعرف بـ"كتاب الحروف" و"بالإلهيات" يشـتمل الكتـاب على أربع عشـرة مقالة مرقومة بـأحرف الهجـاء اليونانية غـير أن ما فيها من تكـــرار كثـــير ، وما بينها من قلة التناسق يحمل على الاعتقـــاد بـــأن أرســـطو لم يقصد إلى جمعها في مؤلف واحد وترتيبها على النحو الموجـــود، لـــذلك أســـماها البعض "الكتب الميتافيزيقيـة" ، إلاَّ أن بعضـاً آخر يـذهب إلى أنه يمكن تعـيين ترتيب مقبول لها . من مقالات الكتـاب : المقالة الثانية عشـرة ، في ضـرورة محـرّك أول دائم وفي ما هية المحـرّك الأول وفي عقـول الكـواكب ، وتعـرف عند الإسـلاميين بـــ "مقالة اللام" . انظر "الفهرست" ص(409) ، و "تاريخ الفلسفة اليونانية" ص (168-169).

[3] انظر "مقالة اللام" ضمن "أرسطو عند العرب" ص(4).

الباري فعله هو قديم أزلي ، فإن فساد هذه الأقوال ظاهر في بداية العقول"[1] .
وقال أيضاً: "وأمّا كون الفلك مفعولاً قديماً فإنما هو قول طائفة قليلة من الفلاسفة ، وعند جمهور العقلاء أنه معلوم الفساد بالضرورة ، ولهذا كلّ من تصور من العقلاء أن الله خلق السماوات والأرض تصوّر أنها كانت بعد أن لم تكن ، وكلّ من تصوّر أن شيئاً من الموجودات مصنوع مفعول لله تصوّر أنه حادث، فأمّا تصوّر أنه مفعول وأنه قديم فهذا إنما تتصوره العقول تقديراً له ، كما يتصوّر الجمع بين النقيضين تقديراً له ، والذي يقول ذلك يتعب تعباً كثيراً في تقدير إمكان ذلك وتصويره كما يتعب سائر القائلين بأقوال ممتنعة ثم مع هذا فالفطر تردّ ذلك وتدفعه ولا تقبله"[2] .
وقال :"... وإذا قيل لبعضهم: هو قديم مخلوق أو قديم محدث ، وعنى بالمخلوق والمحدَث ما يعنيه هؤلاء المتفلسفة الدهرية المتأخرون الذين يريدون بلفظ المحدث أنه معلول ويقولون: إنه قديم أزلي مع كونه معلولاً ممكناً يقبل الوجود والعدم. فإذا تصوّر العقل الصريح هذا المذهب جزم بتناقضه وأن أصحابه جمعوا بين النقيضين ، حيث قدّروا مخلوقاً محدثاً معلولاً مفعولاً ممكناً أن يوجد وأن يعدم ، وقدّروه مع ذلك قديماً أزلياً واجب الوجود بغيره يمتنع عدمه"[3] .
وبيّن شيخ الإسلام –رحمه الله-:

---

[1] "منهاج السنة"(1/235-237).
[2] "منهاج السنة" (1/200).
[3] "المصدر السابق" (1/168) ، وانظر (1/374-376) (2/280-281) ، و "الصفدية" (2/149-153 ، 156-161 ، 181 ، 186 ، 192 ، 298-299) ، و "درء التعارض" (8/172 ، 186-189 ، 200-201)، و "الردّ على المنطقيين" (2/55-56 ، 245) و "شرح الأصبهانية" ص(163 ، 333-334).

أن ابن سينا قد تناقض حيث قـرّر في المنطـق خلاف مـا ذكره هنا فقد قرّر في المنطـق أن الممكن هـو مـا أمكن وجوده وعدمه.
قال شيخ الإسلام: "فإن الممكن الذي يُعلم أنه ممكن هو ما علم أنه وُجد بعد عدمه، أو عدم بعد وجوده ، هذا الذي اتفــق العقلاء على أنــه ممكن ، وهــو الــذي يســتحق أن يُسـمَّى ممكنـا بلا ريب ، وهـذا محـدَث ، فـإذا كـلّ ممكن محـدث . وأمـا تقـدير ممكن لم يـزل واجبـاً بغـيره فـأكثر العقلاء دفعوا ذلك حـتى القـائلون بقـدم العـالم كأرسـطو وأتباعه المتقدمين ، وحتى هـؤلاء الـذين قـالوا ذلـك ، ابن سـينا وأتباعـه لا يجعلـون هـذا من الممكن ، بـل الممكن عنـدهم مـا أمكن وجـوده وعدمـه ، فكـان موجـوداً تـارة ومعدوماً أخرى[1] . وإنما جعـل هـذا من الممكن ابن سـينا وأتباعه مع تناقضه وتصريحه بخلاف ذلـك لمـا سـلكوا في إثبات واجب الوجود الاسـتدلال بـالموجود على الـواجب ، فقالوا: كل مـا سـواه يكـون ممكنـاً بنفسـه واجبـاً بغـيره، وجعلوا العالم قديماً أزلياً مـع كونـه ممكنـاً بنفسـه. وهـذا خلاف قــول ســلفهم ، وقــول أئمــة الطوائــف ســواهم، وخلاف ما صـرّحوا أيضـاً بـه، وهـذا ممـا أنكـره ابن رشـد وغيره على ابن سينا"[2] .
4) أن الفلاسفة ليس لهم حجـة تـدل على قـدم العـالم ، وإنما حجتهم تبطل قول الجهمية والمعتزلــة ومن وافقهم الذين قالوا: إن الربّ -تعالى- كـان معطلاً عن الفعـل ثم صار فاعلاً بعد أن لم يكن بدون سبب اقتضى ذلـك. وظن الفلاسفة أنهم إذا أبطلـوا قـول المتكلمين فقـد صـحّ لهم القول بقدم العالم . ولا يلــزم من بطلان قــول المتكلمين صحة قولهم ؛ لأن الحق في غير هذين القولين .
قال شيخ الإسلام عند ردّه على الفلاسفة:"... لكن هـؤلاء يقال لهم: من أين لكم قدم شيء من العالم ، وليس في

---

[1] (?) انظر "الشفاء" ، "المنطق" (1/116-117) (2/174-175).
[2] (?) "درء التعارض" (3/268) ، وانظر (3/11) (8/133).

العقـل مـا يـدلّ على شـيء من ذلـك؟ وأنتم فجميـع مـا تذكرونه أنتم وأمثالكم إنما يدلّ على دوام الفعل ، لا على دوام فعـــل معيّن ولا مفعـــول معيّن، فمن أين لكم دوام الفلك أو مادة الفلك أو العقول أو النفوس أو غـير ذلـك ، مما يقول القائلون بالقدم إنه قديم أزلي لم يزل ولا يزال مقارناً للرب تعالى قديماً بقدمه أبدياً بأبديته؟ فيخـاطبون أولاً مخاطبة المطالبة بالدليل، وليس لهم على ذلك دليـل أصـلاً ، بـل إنمـا طمعـوا في منـاظرتهم من أهـل الكلام والفلسـفة الـذين قـالوا: إن جنس الكلام والفعـل صـار ممكناً بعد أن كـان ممتنعـاً من غـير تجـدد شـيء ، وصـار الفاعـل قـادراً على ذلـك بعـد أن لم يكن ، وأنـه يحـدث الحـوادث لا في زمـان ، وأنـه لم يـزل القـديم معطلاً عن الفعل والكلام ، لا يتكلم ولا يفعـل من الأزل إلى أن تكلّم وفعــل ، ثم يقــول كثـير منهم : إنــه يتعطّــل عن الفعــل والكلام فتفنى الجنة والنار، أو تفنى حركتهمـا ، كمـا قالـه الجهم بن صفوان في فناء الجنة والنـار ، وكمـا قالـه أبـو الهـذيل العلاف في فنـاء الحركـات ، وجعلـوا مـدة فعـل الـربّ وكلامــه مــدة في غايــة القلــة بالنســبة إلى الأزل والأبـد. فطمـع هـؤلاء في هـؤلاء المبتـدعين من الجهميـة والمعتزلـة ومن اتبعهم في أصــولهم ، وأقــاموا الشــناعة على أهـل الملــل بسـبب هـؤلاء المتكلمين والمبتـــدعين وظنوا أن لا قول إلاّ قول هؤلاء المبتدعين ، أو قول أولئك الفلاسفة الملحدين ، ورأوا أن العقـل يفسـد قـول هـؤلاء المبتدعين ... وهؤلاء المتفلسفة رأوا مـا قالـه أولئـك في مسألة حـدوث العـالم بـاطلاً ، ورأوا أنهم إذا بطلـوا قـول هؤلاء بقي قولهم..." [1] .

وقال –رحمه الله- بعد أن ذكر أن المعتزلة والكلابية ومن وافقهمـا يعتقـدون أنـه ليس في القـرآن إلاّ قـولان : أنـه قـديم ومخلـوق وأنـه لا وجـود إلا قـديم بعينـه أو مخلـوق منفصل عن الله وبعـد أن ذكــر أقـوال النـاس في الكلام

---

[1] "منهاج السنة" (1/350-354).

هـل هـو من صـفات الـذات أو من صـفات الفعـل قـال : "فإذا عُـرف منشـأ اضـطراب النـاس نقلاً وعقلاً في كلام الله فكذلك في أفعاله، فإن الذين لم يجعلـوا إلاّ نـوعين : قديماً بعينه أو مخلوقاً منفصلاً عنه من المعتزلة ونحوهم ، وقد علموا أن الله خـالق كـل شـيء صـاروا يفهمـون من كون الله خالق كل شيء : إن الله بقي معطلاً عن الفعل أو من الفعــل والكلام تعطيلاً أزليــاً قــديماً لا أولّ لــه، ثم فعل أو تكلّم بدون سبب اقتضى ذلك أصلاً، ثم يقول كثير منهم : وهكــذا يصــير معطّلا في الأبــد لا يفعــل شــيئاً ولا يتكلم ، فكــان لا يفعــل ولا يتكلم ، ثم يصــير لا يتكلّم ولا يفعـل شـيئاً ، وإنمـا المـدة الـتي تكلّم فيهـا وعمـل مـدة محدودة الطرفين ، ويجعلون هـذا هـو دين الرسـل الـذي جاءت به الكتب وبعثت به الرسل ، ويترجمون عمّا جاءت بـه الرسـل بعبـاراتهم بحسـب فهمهم ، فيقولـون: العـالم محدث، والعالم ما سوى اللـه ومعـنى ذلـك : أن اللـه لم يزل معطلاً عن الفعل والكلام حتى أحدث العالم بلا سبب أصلاً، بل نفس القـادر المختـار يـرجِّح أحـد المتمـاثلين بلا مرجّح أصلاً، كالجائع إذا قُدِّم له رغيفان ، والهارب إذا عنَّ له طريقان . فطمع المنـاظرون لهم في قـدم العـالم من الدهرية اليونان أتباع أرسطو وغيرهم ، واعتقـدوا أنهم إذا أثبتوا امتناع حدوث العالم بعد دوام التعطيل الذاتي ، فقد قطعوا هؤلاء وأثبتوا قدم العالم وقدم هذه الأفلاك كما هو قول أرسطو "[1] .

وقال أيضاً بعد أن ذكر أن المتكلمين ظنوا أن القـول بـأن اللـه خـالق كـل شـيء لا يتم إلاَّ بـالقول بـأن الـرب كـان معطّلاً عن الفعل ثم فعـل : "فاسـتظهر الفلاسـفة عليهم بهذا ، وطوّلوا الكلام عليهم في إبطال هـذا ، وظنـوا أنهم بردّهم ثبت لهم قدم العالم . وكان خطأ هـؤلاء الفلاسـفة أعظم من خطـأ أولئـك ، فـإن نفس الأصـل الكلي الـذي اعتمدوا عليه لـو أعطـوه حقَّه لم يكن فيـه دليـل إلاَّ على

---

[1] "الصفدية" (2/89-90).

إبطـال قـول من زعم أن الـربّ كـان معطلاً عن الفعـل والكلام ، ليس فيه دليل على قدم شيء من العـالم ، بـل هو بعينه يدل على أن كل ما سوى الله حـادث كـائن بعـد أن لم يكن"[1] .

وقـد بيَّن شـيخ الإسـلام أن حجـة الفلاسـفة الآنفـة الـذكر أرعبت قلـــوب أهـــل الكلام وأعيت كثـــيراً منهم ، فـــإن المتكلمين لما قالوا: إن الـربّ كـان معطلاً عن الفعـل ثم فعل ، احتجّ عليهم الفلاسـفة أنـه لا بـدَّ من سـبب للفعـل بعـــد أن لم يكن وإلاَّ لـــزم الـــترجيح بلا مـــرجح ، فلم يسـتطيعوا الجـواب عن ذلـك إلاَّ بالمكـابرة أو بـالإلزام ، فالمكابرة : دعواهم حدوث الحوادث بلا حدوث سبب .

والإلزام : قولهم هذا الإشكال لازم للفلاسفة كما هو لازم لنا ، فإن الحوادث إذا امتنع حدوثها عن علّة تامّـة أزليـة – وليس عندهم إلاّ العلّـة التامّـة الأزليـة – لـزم أن لا يكـون للحوادث محدث .

وأمَّا سلف الأمة وأئمتها الذين يقولون: إن الربّ -تعــالى- لم يــزل متكلمــاً إذا شــاء ، ولم يــزل فــاعلاً لمــا يشــاء ، ويقولون : إنه تقوم بذاتـه الأمـور الاختياريـة ، ويقولـون : إنه كان ولم يزل متصفاً بمـا أخـبر أنـه كـان موصـوفاً بـه فهـذا السـؤال لا يـرد عليهم؛ لأنهم يعتقـدون أن الـرب -تعالى- لم يكن في وقت من الأوقـات معطلاً عن الفعل[2] .

وبيّن شيخ الإسلام أيضاً أن فساد قول المتكلمين لا يلــزم منه صحة قول الفلاسفة بقدم العالم إلاَّ إذا انحصر الحــق

---

[1] "الصفدية" (2/176) ، وانظر (2/98-99 ، 159-163) ، و "ودرء التعـارض" (8/279-284) (9/235-236) ، و "مجمـوع الفتاوى" (12/213-217) ، و "شرح حديث النزول" ص(412-416 ، 420 ، 438-439).

[2] انظر "درء التعارض" (9/240) ، و "الصفدية" (1/17) ، و "شرح الأصبهانية" ص(183-185) ، و "منهاج السنة" (1/155-156) ، و "مجموع الفتاوى" (12/186-188 ، 228).

فيهما ، وليس الأمر كذلك ، بل الحقّ في قول ثـالث غـير قولهما[1].

5) أن هذه الحجّـة الـتي يحتج بهـا الفلاسـفة لا تـدلّ على قدم شيء من العالم ، وإنما تدلّ على أن الرب تعالى لم يزل فاعلاً، بل وجميع ما يحتجّ به الفلاسفة إنما يـدلّ على ذلـك ، وعلى قـدم نـوع الفعـل . وإثبـات نـوع الفعـل لا يستلزم إثبات فعل معيّن ولا مفعول معيّن.

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- :"إن ما عند المتفلسفة من الأدلة الصحيحة العقلية فإنما يدلّ على مذهـب السلف أيضاً ، فإن عمدتهم في قدم العالم على أن الربّ لم يزل فاعلاً، وأنه يمتنع أن يصير فاعلاً بعد أن لم يكن ، وأن يصير الفعل ممكناً له بعد أن لم يكن ، وأنه يمتنع أن يصير قادراً بعد أن لم يكن ، وهذا وجميع ما احتجوا به إنما يدلّ على قدم نوع الفعل ، لا يدلّ على قدم شيء من العالم لا فلك ولا غيره ، فإذا قيل : إنه لم يزل فاعلاً بمشيئته وقدرته ، وإن الفعل من لوازم الحياة ، كما قال ذلك من قاله من
أئمة السّنة ، كان هذا قولاً بموجب جميع أدلتهم العقلية ، وكان هذا موافقاً لقول السلف لم يزل متكلماً إذا شاء ، فلم يزل متكلماً إذا شاء ، فاعلاً لما يشاء ، وجميع ما احتجّ به الكلابية والأشعرية والسالمية وغيرهم على قدم الكلام إنما يدلّ على أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، لا يدلّ على قدم كلام بلا مشيئة ، ولا على قدم كلام معيّن ، بل على قدم نوع الكلام. وجميع ما يحتج به الفلاسفة على قدم الفاعلية إنما يدلّ على أنه لم يزل فاعلاً لما يشاء، لا يدلّ على قدم فعل معين ، ولا مفعول معين لا الفلك ولا غيره . والغلط إنما نشأ بين الفريقين من اشتباه النوع الدائم بالعين المعيّنة"[2] .

---

[1] "درء التعارض" (9/249) ، وانظر (9/252-254).

[2] "مجموع الفتاوى" (6/300-301) ، وانظر (6/330).

وقال : "وعمدة الفلاسفة على قـدم العـالم هـو قـولهم : يمتنع حدوث الحوادث بلا سبب حادث ، فيمتنع تقدير ذات معطلـة عن الفعـل لم تفعـل ثم فعلت من غـير حـدوث سـبب. وهـذا القـول لا يـدلّ على قـدم شـيء بعينـه من العالم ، لا الأفلاك ولا غيرها ، إنما يـدلّ على أنـه لم يـزل فعّالاً ، وإذا قدّر أنه فعّال لأفعال تقوم بنفسه أو مفعولات حادثة شيئاً بعد شيء كان ذلك وفاءً بموجب هذه الحجة ، مع القول بأن كلّ ما سوى الله محدث مخلوق بعد أن لم يكن كما أخبرت الرسـل أن اللـه خـالق كـلّ شـيء ، وإن كان النوع لم يزل متجدداً ، كما في الحوادث المستقبلة ، كلّ منها حادث مخلـوق ، وهي لا تـزال تحـدث شـيئاً بعـد شيء . قال هؤلاء : والله قـد أخـبر أنـه خلـق السـماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وأخبر أنه خالق كل شيء ، ولا يكون المخلوق إلاّ مسبوقاً بالعدم ، فالقرآن يدلّ على أن كلّ ما سـوى اللـه مخلـوق مفعول محدث . فليس شيء من الموجودات مقارنـاً للـه تعالى ، كما يقوله دهرية الفلاسفة ..." [1] .

وقال أيضاً: "وهؤلاء الفلاسفة ليس معهم قطّ دليل يدلهم على قدم شيء من العـالم ، ولا أن الخـالق قارنـه شـيء من مخلوقاتـه ، ولكن غايـة مـا معهم أنـه لم يـزل فـاعلاً، وإثبـات نـوع الفعـل لا يسـتلزم إثبـات فعـل معيّن ولا مفعول معيّن ، فقولهم بقدم الأفلاك أو مـادة الأفلاك ، أو العقـول والنفـوس أو غـير ذلـك ، ليس لهم عليـه حجـة أصلاً" [2].

---

[1] (?) "منهاج السنة" (1/148-149).

[2] (?) "الصفدية" (1/59-60) ، وانظر (1/56-57 ، 131-132) (2/133-134 ، 135-138 ، 140، 116 ، 161-167) ، و "شرح الأصـبهانية" ص(161-162 ، 298 ، 330-331) ، و "شـرح

وبهذا يتبين الأصل الذي قـرّره شـيخ الإسـلام وهـو أن مـا يحتجّ بـــه المخـــالفون من الحجج الســمعية والعقليـــة الصحيحة على مذاهبهم إنما يدلّ على قـول السـلف ومـا جاء به الكتاب والسنة ، لا يدلّ على مـا ابتـدعوه وخـالفوا به الكتاب والسنة [1].

6) أن القـول بالعلـة التامـة يقتضـي بطلان القـول بقـدم العالم ، لأن العلّة التامّة معلولهـا مقـارن لهـا أزلاً وأبـداً لا يتأخر منه شيء عن الأول ، وهذا يلـزم منـه أن لا يحـدث في العالم شيء ، وهـو خلاف المشـاهدة ؛ لأن الحـوادث تحدث شيئاً بعد شيء ، وإذا كانت الحوادث متعاقبة شـيئاً بعد شـيء لم تكن عن علّـة تامّـة أزليـة فبطلت حجتهم ، وبطل قولهم بقدم العالم .

قـال شيخ الإسلام : "قولهم بأن المبدع علّة تامّـة موجبـة بذاته هو نفسه يستلزم فساد قـولهم ، فـإن العلّـة التامّـة تسـتلزم معلولهـا ، فلا يجـوز أن يتـأخر عنهـا شـيء من معلولها .

فالحوادث مشهودة في العالم ، فلـو كـان الصـانع موجبـاً بذاته علّة تامّـة مسـتلزمة لمعلولهـا لم يحـدث شـيء من الحوادث في الوجود ، إذ الحادث يمتنـع أن يكـون صـادراً عن علّة تامّة أزلياً، فلـو كـان العـالم قـديماً لكـان مبدعـه علّــة تامّــة ، والعلّــة التامــة لا يتخلــف عنهــا شــيء من معلولها ، فيلزم من ذلك أن لا يحدث في العـالم شـيء . فحدوث الحـوادث دليـل على أن فاعلهـا ليس بعلّـة تامّـة في الأزل . وإذا انتفت العلّة التامّة في الأزل بطل القـول

حديث النزول" ص(442 ، 444) و "درء التعـارض" (8/235 ، 279-280)، (9/250-251)، و "منهاج السنة" (2/220-221)، (3/120-121)، و "الردّ على المنطقيين" (1/147-148 ، 155) (2/24) .

[1] انظر "مجموع الفتاوى" (6/333-334)، و "درء التعارض" (9/216).

بقدم شيء من العالم . لكن هذا لا ينفي أن الله لم يــزل متكلماً إذا شاء ، ولم يزل حيّا فعّالاً لمــا يشاء "[1] .
وقال عند ردّه على الفلاسفة : "فيقال لهم : الحجج الـتي تقيمونها في وجوب قـدم الفاعليـة كمـا أنهـا تبطـل قـول أهل الكلام المحدث فهي أيضاً تبطل قـولكم ، وذلـك أنهـا لو دلّت على دوام الفاعلية بالمعنى الذي ادّعيتم للـزم أن لا يحدث في العـالم حـادث ، إذا كـان المفعـول المعلـول عندكم يجب أن يقارنه علّته الفاعلة في الزمان ، وكلّ ما سوى الأول مفعول معلول لـه ، فتحـدث مقارنـة كـل مـا سواه فلا يحدث في العالم حادث . وهو خلاف المشـاهدة والمعقول ، وباطل باتفاق بني آدم كلّهم ، مخـالف للحس والعقل"[2] .
وقال : "... وقـد تقـدم بيـان أن قـولهم بقـدم العـالم عن العلّة التامّة باطل قطعاً، وأن العلّـة التامّـة لا يجـوز تـأخر شـيء من معلولهـا عنهـا ، بـل وجـود علّـة تامّـة لم تـزل مقارنة لمعلولهـا ممتنـع ، ويمتنـع أن يكـون المقـارن في الزمان مفعولاً للفاعل، والحوادث متعاقبة شيئاً بعد شيء لا يجــوز حــدوثها عن علّــة تامّــة أزليّــة فبطلت حجتهم ، وبطل قولهم بقدم العالم ، وتـبيّن إمكـان حـدوث كـلّ مـا سوى الله ، وأنه يمتنـع أن يكـون العـالم صـادراً عن علّـة تامّة أزليّة موجبة بالذات ، وهو المطلوب "[3] .
وقال : "فإن الواجب بذاتـه الأزلي الـذي يسـتلزم موجبـة ومقتضـاه في الأزل ، الـذي لم يـزل ولا يـزال موجَبـاً لـه يمتنع أن يتخلّف عنه شيء من موجَبه ومقتضاه أو يحـدث عنــه شــيء بعــد شــيء . والعــالم مملــوء من الحــوادث المشهودة وغير المشهودة ، فيمتنع أن تصدر عن مــوجِب بذاتـه بواسـطة أوب غـير واسـطة ، فـإن تلـك الواسـطة سواء قيل: إنها العقول والنفوس ، أو قيل غير ذلك ، وإن

---

[1](?) "منهاج السنة" (1/148).
[2](?) "مجموع الفتاوى" (6/335).
[3](?) "الصفدية" (2/140-141) ، وانظر (1/18-22 ، 28 ، 37 ، 39-74 ، 77-78) (2/98) .

كانت لازمة لذاته كما يقولون امتنع أيضاً أن يحدث عنها شيء ، وإن لم تكن لازمة كانت حادثة ، وذلك يبطل قولهم"[1] .

7) أن قولهم بقدم العالم يستلزم تسلل العلل والفاعلين ، وهو باطل بصريح العقل واتفاق العقلاء.وذلك لأن العلّة التامّة لا يتأخر عنها معلولها ، والحوادث تحدث شيئاً بعد شيء فلا يكون شيء من الحوادث معلولها ، فيلزم أن تكون الحوادث لا فاعل لها أو فاعلها ليس هو ، بل يكون فاعل كل محدَث محدِثاً وهلّم جرّا ويلزم تسلسل الفاعلين .
قال شيخ الإسلام عند ذكر أوجه الردّ على الفلاسفة : "وأيضاً فالحادث لا يحدث حتى يحصل الفعل التامّ المحدث له ، والممكن لا يحصل حتى يحصل الموجب التامّ المرجّح له ، والموجب التامّ يستلزم موجبه ومقتضاه ، فكلّ من الحوادث الممكنات ما حدث ووجد حتى حصل له الموجب التامّ، وذلك الموجب التامّ لا بدّ له من موجب تامّ، وهلمّ جرّا ، فيلزم أن يحصل لكل من الحوادث موجبات تامّة لا نهاية لها في آن واحد ، وذلك تسلسل في العلل والمؤثرات ، وهو باطل باتفاق العقلاء . وإنما لزم ذلك ؛ لأن الحوادث يمتنع حدوثها عن العلّة التامّة القديمة ، فإن العلّة التامّة القديمة لا يتخلف عنها معلولها ، والمحدث يجب أن تكون علته تامّة عند حدوثه ، وهم يقولون بكلا القولين ، فلزم من هذين القولين أن واجب الوجود لم يحدث شيئاً من الحوادث ، وأن الحوادث لا محدث لها ، ويلزم أيضاً: وجود علل

---

[1] "شرح الأصبهانية" ص (317-318) ، وانظر "درء التعارض" (8/134 ، 162-163 ، 269 ، 271 ،285-286) (9/214-215 ، 218 ، 251) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (5/214 ، 228-229 ، 278-279) ، و "الاستغاثة" (2/418-420) ،و "مجموع الفتاوى" (12/221-222) .

ومعلولات لا نهاية لها ، وفاعلين لانهاية لهم . وكلّ ذلك مما يعلمون هم وسائر العقلاء فساده ، ولا مخلص لهم عن هذا إلاّ بأن يقولوا بأن واجب الوجود تقوم به الأفعال الاختيارية المقدورة له ، وتقوم به الصفات . وإذا قالوا ذلك بطل قولهم بنفي الصفات ووجوب قدم الأفلاك "[1] .

وقال أيضاً: "إذا كان العالم صادراً عن علّة مستلزمة له لا يتأخر عنها موجبها لزم أن لا يكون لشيء من الحوادث فاعل؛ لأن العلّة التامّة لا يتأخر عنها شيء من معلولها ، فلا يكون شيء من الحوادث معلولاً لها ، ولا لشيء من معلولاتها ، فلزم أن تكون الحوادث لا فاعل لها ، أو يكون فاعلها ليس هو ، بل يكون فاعل كل محدّث محدثاً وهلّم جرّا ، ويلزم تسلسل الفاعلين . وهذا مع اتفاق العقلاء على فساده ، ففساده معلوم بالضرورة من وجوه كثيرة"[2] .

وقال بعد أن ذكر الوجه السابق في الردّ عليهم : "وأيضاً إذا وجب في العلّة أن يقارنها معلولها في الزمان فكل حادث يجب أن يحدث مع حدوثه حوادث مقترنة في الزمان، لا يسبق بعضها بعضاً ولا نهاية لها . وهذا قول بوجود علل لا نهاية لها ، وهذا أيضاً باطل بصريح العقل واتفاق العقلاء ، ولا فرق بين امتناع ذلك في ذات العلّة أو شرط شروطها فكما يمتنع أن يحدث عند كلّ حادث ذات علل لا تتناهى في آن واحد ، وكذلك شروط العلّة ، وتمامها فإنها إحدى جزئي العلّة ، فلا يجوز وجود ما لا يتناهى في آن واحد لا في هذا الجزء ولا في هذا الجزء ، وهذا متفق عليه بين الناس"[3] .

وبهذا الوجه والذي قبله يتبين أصلاً قرّره شيخ الإسلام وهو : أنَّ ما يحتجّ به المخالفون من الحجج الصحيحة

---

[1] "درء التعارض" (9/215-216).

[2] "درء التعارض" (9/251).

[3] "مجموع الفتاوى" (6/335) ، وانظر "درء التعارض" (3/63) (8/134 ، 162-163 ، 271) ، و "الصفدية" (1/27) (2/212).

السـمعية والعقليـة على مـذاهبهم يـدلّ على نقيض مقصودهم وعلى فساد قولهم ، وهذا نوع آخر غير الأصـل السابق[1] الذي فيه : أن ما يحتجون به على مذاهبهم إنما يدلّ على قول السلف وما جاء به الكتـاب والسـنة ، فـإن كونه يـدلّ على قـول لم يقولـوه نـوع ، وكونـه يـدلّ على نقيض قولهم وفساد قولهم نوع آخر .[2]

8) أن المؤثر التامّ يتعقبه أثره لا يقارنه ولا يتراخى عنه .
قال شيخ الإسلام :"وهؤلاء أصل قولهم : إن العلّة التامّـة يقارنها معلولهـا في الزمـان ، كمـا جعلـوا الفلـك القـديم الأزلي عنـدهم مقارنـاً لعلّتـه في الزمـان ، وقـابلوا بـذلك قول المتكلمين الذين قالوا : بل المؤثر التـامّ يتـأخر عنـه أثره. والصواب أن المؤثر التامّ يتعقبـه أثـره ، لا يقارنـه ، ولا يتراخى عنه كما قال تعالى : ﭽ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﭼ[3] ولهذا يقال: كسرته فانكسر ، وقطعته فـانقطع ، وطلّقت المرأة فطلُقت ، وعتقت العبد فعُتـق . وعلى هـذا فيلـزم حدوث كلّ ما سوى الربّ تعالى ، لأن ما كوَّنه لا يكون إلاَّ بعد تكوينه لا مع التكوين "[4] .

وقال أيضاً : "وهؤلاء أصَّـلوا أصـلاً فاسـداً ظهـر بـه فسـاد قولهم وهو : أن العلّـة التامّـة الـتي تسـمّى المـؤثر التـامّ يجب أن يقارنه معلوله في الزمـان بحيث لا يتـأخر عنـه ، ولا يكون معلول إلاَّ لعلّة تامّة ، وهذا ناقضوا به المتكلمين الجهمية والمعتزلـة ومن وافقهم في قـولهم : إن المـؤثر التام يجوز بـل قـد يجب أن يـتراخى عنـه أثـره ، فقـالوا: الباري كان في الأزل مؤثراً تاماً وتراخى عنه أثره ، فقال أولئك : بل يجب أن يقارنه أثره . والصواب: قـول ثـالث ، وهو : أن التأثير التامّ من المـؤثر يسـتلزم الأثـر ، فيكـون الأثـر عَقِبـه ، لا مقارنـاً لـه ، ولا متراخيـاً عنـه كمـا

---

[1] سبق ذكره ص (607-609).
[2] انظر "مجموع الفتاوى" (6/333-336) ، و "درء التعارض" (9/214-216).
[3] سورة يس ، الآية (82).
[4] "درء التعارض" (8/134).

يقال :كسرت الإنـاء فانكسـر ، وقطعت الحبـل فـانقطع ، وطلّقت المــرأة فطُلِّقت ، وأعتقت العبــد فعُتِــق . قــال تعالى : ﭽ ﭽ[1] فإذا كوّن شيئاً كان عقب تكوين الربّ له ، لا يكون مع تكوينه ولا متراخياً عنه . وقد يقال : يكون مع تكوينـه ، بمعـنى : أنـه يتعقبـه لا يـتراخى عنه . وهو سبحانه ما شاء كان ووجب بمشـيئته وقدرتـه ، وما لم يشأ لم يكن لعدم مشيئته له . وعلى هذا فكلّ مــا سوى الله تعالى لا يكون إلاّ حادثاً مسـبوقاً بالعـدم ، فإنـه إنما يكـون عقب تكوينـه لـه ، فهـو مسـبوق بغـيره سـبقاً زمانياً وما كان كـذلك لا يكـون إلاَّ محـدثاً ، والمـؤثر التـامّ يستلزم وجود أثره عقب كمال التأثير التام"[2].

9) هــؤلاء الفلاســفة ابن ســينا وأمثالــه أنكــروا على المتكلمين حدوث الحوادث بلا سـبب والـترجيح بلا مـرجّح وقــولهم يسـتلزم مـا هــو شــرّ منـه وهــو حــدوث جميـع الحوادث المتعاقبة بدون سبب حادث .

قــال شــيخ الإســلام :"وهم أنكــروا على من قــال من النظـار : إنـه فعـل بعـد أن لم يكن فـاعلاً وقـالوا: العقـل الصريح يعلم أن من فعل بعد أن لم يكن فـاعلاً فلا بـدّ أن يتجدد له : إمّا قدرة ، وإما إرادة ، وإمــا علم ، وإمــا زوال مانع ، وإمّا سبب ما . فيقـال لهم : والعقـل الصـريح يعلم أن من فعل هذا الحادث بعد أن لم يكن فـاعلاً لـه فلا بـدّ أن يتجـددّ لـه سـبب اقتضـى فعلـه ، فـأنتم أنكـرتم على غيركم ابتداء الفعل بلا سبب ، والتزمتم دوام المفعــولات الحادثــة بلا ســبب ، فكــان مــا الــتزمتموه من حــدوث الحــوادث بلا ســبب أعظم ممــا نفيتمــوه ، بــل قــولكم مسـتلزم أنـه لا فاعـل للحـوادث ابتـداء ، بـل تحـدث بلا فاعل..."[3] .

---

[1] سورة يس ، الآية (82).
[2] "درء التعارض" (8/270-271) وانظر (3/62-68)، (4/291) (8/162) ، و "مجموع الفتاوى" (6/277-278).
[3] "منهاج السنة" (1/333).

وقـال :"فهم أنكـروا على خصـومهم حـدوث حـادث عن القـديم بلا سـبب حـادث ، وقـولهم يسـتلزم أن جميـع الحـوادث المتعاقبـة المختلفـة تحـدث عن القـديم بـدون سبب حادث ، سـواء قـالوا: أنهـا تحـدث بواسـطة العقـل وبدون واسطة العقل ، فـإن العقـل عنـدهم لازم لذاتـه لا يحـدث فيـه شـيء من الحـوادث أصـلاً. فتـبين أن قـولهم الذي فرّوا إليه أشـدّ بطلانـاً وتناقضـاً من قـول خصـومهم الـذي فـرّوا منـه . يـبيّن ذلـك : أن حـدوث الحـوادث عن القديم الواجب بنفسه بلا حدوث سبب إن كان ممكناً كان قـول منـازعيهم ممكنـاً، وبطلت حجتهم على قـدم شـيء من العالم ، وإن كان ممتنعاً كان قـولهم أشـدّ بطلانـاً من قـــول منـــازعيهم . فتـــبيّن فســـاد قـــولهم على تقـــدير النقيضين ، فيكون فاسداً في نفس الأمر قطعاً..." [1] .

وقال أيضاً: "كلّ حادث من الحوادث المشـهودة : إمّـا أن تكون مؤثريته حاصلة في الأزل وإمّا ألاّ تكون ، فـإن كـان الأول لزم حصـول الحـوادث عن المـؤثر القـديم من غـير تجـدد شـيء وبطلت الحجـة . وإن كـان الثـاني فحصـول كمـال المؤثريـة فيـه بعـد أن لم تكن أمـر حـادث فيقـف كمال مؤثريته في هذا الكمال . وحينئذ فحال الفاعـل إمّـا أن يكون عند كمال التأثير في الحادث الثاني كحالـه عنـد كمال التأثير في الأول وإمّا ألاّ يكون . فإن قُدِّر الأول لزم أن يحدث هذا الحادث الثاني والذي بعده ، والـذي بعـده ، من غـير حـدوث سـبب أوجب هـذا الحـدوث ؛ لأن الـذات الفاعلـة حالهـا عنـد الأول كحالهـا عنـد الثـاني والثـالث . وحينئذ فإذا كانت عند الأول لا تفعل الثاني فعند الثـاني لا تفعل الثالث ؛ لأنـه لم يتجـدد مـا يـوجب حدوثـه . وأيضـاً فتخصيص أحد الحادثين بالحدوث دون الآخـر تخصـيص بلا مخصِّص ، وترجيح بلا مرجّح ، بل نفس الحـدوث في كـل وقت تـرجيح بلا مـرجِّح ، وإحـداث بلا محـدث . وأيضـاً فالذات نفسـها ليسـت موجبـاً تامـاً في الأزل لشـيء من

[1] "الصفدية" (2/91-92).

الحـوادث وهي لم تـزل على مـا كـانت عليـه ، فيلـزم ألاَّ تكـون موجبـة لشـيء من الحـوادث في الأبـد وإلاّ لـزم الإحـداث بلا سـبب حـادث . وهـؤلاء فـرّوا من حـدوث الحوادث بعد أن لم تكن بلا سـبب ، وادّعـوا دوام حـدوثها بلا سبب ، فكان الذي فرّوا إليه شراً من الذي فـرّوا منـه كالمستجير من الرّمضاء بالنار . وامّا إن قيل : إن الفاعل نفسه تقوم به إرادات وأفعال تـوجب تخصـيص كـل وقت بما أحدثه فيه كان هـذا مبطلاً لحجتهم ، إذ يمكن والحـال هذه أن يحدث شيئاً بعد شيء مع دوام فاعليته ، بـل هـذا مبطل لمذهبهم ..." [1] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام أن قول الفلاسفة يستلزم أيضاً: أن لا يكون للحوادث محدث ولا فاعل ، وهذا أعظم من قول المتكلمين بحدوث الحوادث بلا سبب ، فكـان الـذي فـرّوا إليه أعظم مما فرّوا منه بكثير. وسيأتي بيان ذلك تفصـيلاً .

10) أن غاية حجـة الفلاسـفة أنَّ الأول إذا لم يكن مـؤثراً تامـاً في الأزل لـزم التسلسـل ، وهم قـائلون بتسلسـل الحوادث ، فالحجة باطلة على أصلهم ، لإمكان دوام كونه فاعلاً مع أن كل ما سواه مخلوق محدث.

قال شيخ الإسلام :"فيقال للفلاسفة : هذه الحجـة باطلـة على أصلكم ومتناقضة ، وذلك أن غاية هذه الحجة أنه إذا لم يكن المؤثر تاماً في الأزل لزم التسلسل ، والتسلسـل جائز عندكم . فإذا كـان التسلسـل جـائزاً فلم لا يجـوز ألا يكون المؤثر في شيء معين تامّا في الأزل ، ولكن تأثيره في كلّ حادث مشروط بحادث قبله لا إلى غايـة ، وتكـون جميـع مفعولاتـه محدَثـة؟ ومعلـوم أن هـذا مقتضـى هـذه الحجة . والـرازي وغـيره غفلـوا عن هـذا الجـواب ؛ لأنهم يعتقدون بطلان التسلسل ، فأخذوا في الحجة مسلّماً لما

---

[1] "درء التعارض" (9/244-245) ، وانظر (8/107 ، 133 ، 163) (9/218 ، 235-236) ، و "الصفدية" (1/56 ، 133) (2/94 ، 174) ، و "منهاج السنة" (1/183 ، 344-345) ، و "شرح الأصبهانية"ص(174).

قالوا في آخر الحجة : ويلزم التسلسل وهو محال . وإنما هو محال مطلقاً عند من يقول بامتناع حوادث لا أول لها من أهل الكلام ، وليس هو ممتنعاً مطلقاً عند الفلاسفة ، بل ولا عند أئمة أهل الملل كالسلف والأئمة الذين يقولون : إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، ويقولون : إن الفعل من لوازم الحياة ، فإنه كل حي فعال . بل يصرِّح غير واحد منهم بأن كلّ حيّ متحرّك ، كما صرّح بهذه المعاني من صرّح بها من أئمة السلف والسنة والحديث .
فلو أن هؤلاء المتكلمين قالوا للفلاسفة : وهب أن هذا يستلزم التسلسل ، فالتسلسل جائز عندكم ، فالحجة باطلة على أصلكم ، لتبيَّن فساد الحجة على أصل الفلاسفة"[1] .
وتحرير هذا الجواب بمعرفة أنواع التسلسل ، وحكم كل نوع ، والقائل به ، ومعرفة المسائل المهمّة المتعلقة بالتسلسل مما له صلة بهذا الموضوع . وقد سبق ذكر ذلك كلِّه في مبحث مستقل[2].
11) "أن القوم لم يذكروا على ذلك حجة أصلاً إلاَ مجرد المطالبة بقولهم : لِم فعل بعد أن لم يفعل ؟ والمطالبة بالدليل ليست دليلاً على عدم المدلول ، فإذا لم تعلموا لِم أحدث؟ لم يكن هذا دليلاً على امتناع الإحداث . فظهر أنهم لم يعلموا نفي الإحداث، وفرق بين العلم بامتناع الشيء أو عدمه وبين المطالبة بدليلي جوازه أو علة وقوعه" [3] .
12) أن قولهم بقدم العالم له آثار سيئة من خلال معرفتها يتبين بطلان هذا القول ، وهذه الآثار السيئة عقد لها مبحث مستقل ، وهو المبحث التالي.

---

[1] "الصفدية" (4/51-52) ، وانظر (1/133) (2/119-120) ، و "درء التعارض" (9/238-244 ، 250) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (5/240-241).
[2] انظر ص (369-384) .
[3] "بيان تلبيس الجهمية" (5/241).

المبحث الثالث : الآثار السيئة لقولهم بقدم العالم .

كلّ قول باطل لابدَّ له من آثار سيئة ، والقول بقدم العالم لما كان من أفسد الأقوال كانت آثاره السيئة عظيمة السوء ، فإنَّ من آثاره السيئة :

1- أنَّ الربَّ -تعالى- ليس خالقاً للمحدثات ، وأن المحدثات كلّها حدثت بلا محدِث ولا فاعل ، وهذا حقيقة قولهم بقدم العالم ولازمه .

قال شيخ الإسلام عند ردّه على حجة الفلاسفة : "قولكم أشدّ استحالة من هذا القول (أي قول المتكلمين) ، فإن هؤلاء نسبوا جميع الحوادث إلى الفاعل القديم الأزلي وقالوا: إنه فعل بعد أن لم يكن فاعلاً، فأثبتوا للحوادث فاعلاً ، ولم يثبتوا سبباً حادثاً، وأنتم جعلتم الحوادث تحدث بلا فاعل أصلاً ؛ لأن الفاعل القديم الواجب عندكم يلزمه مفعوله الذي هو معلوله وموجبه ومقتضاه فلا يتأخر عنه ، فلا يجوز أن يحدث عنه شيء ، فإذن هذه الحوادث لم تحدث عنه ، فتضمن قولكم أن الحوادث لا محدث لها ، وهذا أعظم فساداً من قول من جعل لها محدثاً أحدثها من غير سبب حادث"[1] .

وقال : "إن هؤلاء القائلين بقدم العالم وإن أقرّوا بمبدع العالم فقولهم بالحجة التي يثبتون عليها إثبات مبدع العالم حجة ضعيفة[2] بل قولهم مستلزم لنفي الصانع ، وهذا كان المشهور عند أكثر أهل الكلام عن القائلين بقدم العالم أنهم ينكرون الصانع ، وأكثر كتب المتكلمين ليس فيها نقل عن القائلين بقدم العالم إلاَّ أنهم ينكرون الصانع ، ولكن الذين نقلوا كلام ابن سينا وأمثاله هم الذين صاروا يحكون عنهم قولين : أحدهما إنكار الصانع ، والآخر القول بوجوب العالم عن علّة موجبة له ، ولبسوا

---

[1] "الصفدية" (1/133).
[2] انظر "درء التعارض" (3/267-268).

بهـذا على بعض النـاس ، لكن القـول بنفي الصـانع أعظم فساداً في العقول والأديان من قولهم"[1] .

وقـال –رحمـه اللـه- في معـرض مقارنتـه كفـار قـريش بالفلاسفة : "فكانوا أحسن حـالاً من هـؤلاء الفلاسـفة في الإقرار بأن الله خالق كلّ شيء وربّه ومليكه ، وأنـه خلـق الأشياء بمشيئته وقدرته . فإن هؤلاء حقيقة قولهم أنـه لم يخلق شيئاً ، ومتقدموهم كأرسطو وأتباعـه على أنـه علّـة يتحـرك الفلـك للتشـبه بهـا ، فليس هـو عنـدهم لا موجبـاً بالذات ، ولا فاعلاً بالمشيئة ..." [2] .
وقال : "ومما يوضّـح كـونهم لم يثبتـوا لحركـة الفلـك ولا غيرهـا من الحـوادث محـدِثاً ؛ فلأنـه ليس عنـدهم إلاَّ علّـة تامّة قديمـة مسـتلزمة لمعلوهـا ، وهـذه يمتنـع أن يصـدر عنها حادث بوسط وبغير وسط ، بل لا يكـون معلولهـا إلاَّ قديماً أزلياً مقارناً لها ، مع أن هـذا باطـل أيضـاً، فإنـه قـد تبيّن أن المفعول المعيّن يمتنع أن يكون مقارنـاً لفاعلـه ، كما قرّر في غير هـذا الموضـع ، وإذا كـانت العلّـة التامّـة الأزليـــة يجب أن يقارنهـــا معلولهـــا لم يكن شـــيء من الحـوادث معلـولاً لهـا ، وليس هنـاك فاعـل آخـر ، فيلـزم حـدوث الحـادث بلا محـدث ، وهـذا أعظم مـا يكـون من السفسطة والإلحاد"[3] .

2- إنكار المعاد :

قال شيخ الإسـلام مبيّنـاً كلا الأثـرين السـيئين في موضـع واحــد : "فالفلاســفة الإلهيــون الــذين هم أشــهر هــذه

---

[1] "الصفدية" (2/230).
[2] "الردّ على المنطقيين" (2/245).
[3] "شـرح الأصـبهانية" ص (181-182) ، وانظر (169،174 ، 318) ، و "الصفدية" (1/21-22 ، 56) (2/92 ، 174) ، و "درء التعـارض" (1/330) (6/190-191) (8/107-108 ، 133-134 ، 163 ، 263-264 ، 290) (9/235 ، 251) ، و "منهاج السنة" (1/151، 344-345 ، 442) (3/125) ، و "الاستغاثة" (2/416-417).

الطوائف بالحكمة والنظر والعلم ، رهط الفارابي وابن سينا وأمثالهما ، عمدتهم في إنكار المعاد هو اعتقادهم قدم العالم ، وأن الفاعل علّة تامّة موجبة بالذات ، لا يختلف فعلها ، فلا يجوز أن يتغير العالم لأجل ذلك . وهؤلاء في كلامهم من نفي قدرته وعلمه ومشيئته ما هو مبسوط في غير هذا الموضع ، ومن أيسر ذلك أنهم في الحقيقة ينكرون أن يكون خالقاً للمحدثات ، وإذا كان قد عُرف بضرورة العقل إن المحدثات وما فيها من التخصيص والإتقان والحكمة دلّ على الخالق العليم القديم الحكيم عُلم فساد قول هؤلاء ، فإن قولهم يستلزم أن تكون المحدثات كلّها حدثت بلا محدث ؛ لأن العلّة القديمة التامّة التي جعلوها الأول ولا يتأخر عنها شيء من معلولاتها ، فلا يكون شيء من الحوادث معلولاً لها ، فلا يكون مفعولاً لها ، ولا يجوز أن تكون الحوادث معلولة لعلّة أخرى تامّة موجبة بذاتها ؛ لأنَّ القول في تلك العلّة كالقول في هذه ، ولا يجوز أن يكون صدرت عن ممكن لا علّة له ؛ لأن الممكن لا يكون موجوداً بنفسه ، بل لا بدّ له من موجد ، سُمِّي علة أو لم يسمّ ، ولا يجوز أن يكون صدرت عن ممكن بنفسه ؛ لأن كون ذلك الممكن محدثاً لها أمر ممكن محدث ، فلا بدّ له من محدِث ، فإذا استحال على أصولهم صدور الحوادث عن العلّة التامّة الواجبة بواسطة أو غير واسطة ، فقد تعذر صدورها عن ممكن لا موجب له ، وعن موجب لا يستند فعله إلى الواجب بنفسه ، لزم على قولهم : أن لا يكون لها فاعل"[1].

---

[1] "درء التعارض" (7/384-385).

المطلب الأول: تعريف الحلول .

الحلول : مصدر يَحُل بضم الحاء، يقال : حلّ بالمكان يَحُلُّ حُلولاً ومَحَلاً وحَلاّ ،وحَلَلاً بفك التضعيف وهونادر.
وحلول الشيء في الشيء معناه : نزوله فيه [1] .

ويُعرّف الحلول اصطلاحاً بحسب أنواعه ، فهناك الحلول السَّرَياني ، والحلول الجِواري .
قال الجرجاني : "الحلول السَّرَياني : عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث يكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر ، كحلول ماء الورد في الورد ، فيسمَّى الساري حالاً والمسري محلا"[2].
وقال عن "الحلول الجِواري : عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر كحلول الماء في الكُوز[3] " [4] .
والمراد بالحلول هنا : ما ذكره شيخ الإسلام –رحمه الله- بقوله : "وهو حلول الحقّ في الخلق"[5] .

المطلب الثاني : أنواع الحلول .

ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله- نوعين من الحلول :
الأول: مايعبّر عنه بحلول المثال العلمي ونحو ذلك .

---

[1] (?) انظر "دستور العلماء" (2/38) ، و "تهذيب اللغة" (3/435) ، و "لسان العرب" (4/203).
[2] (?) "التعريفات" ص(98) ، وانظر "دستور العلماء" (2/38) .
[3] (?) الكوز : جمع أكواز وكيزان وكِوزَه ، إناء من فخار له عروة ، انظر "المعجم الوسيط" ص (461).
[4] (?) "التعريفات" ص(98) ، وانظر "دستور العلماء" (2/38) .
[5] (?) "مجموع الفتاوى" (2/308) .

والثاني : حلول باطل [6] .

أما الأول: فهـو حلـول الإيمـان باللـه ومعرفتـه ومحبتـه وذكره وعبادته في القلوب . وهذا الحلول اللغوي للإيمان والمحبــة في القلب ، وليس هــو الحلــول في اصــطلاح المتصوفة .

وقد يعبر عنه : بحلـول المثـال العلمي، والمثـل العلمي ، والمثل الأعلى [2] "كما قال تعالى : ﭽ ﮬ ﮬﮬ ﮬﮬﭼ[3] و قال تعالى : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂﭼ[4]وقال : ﭽ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫﭼ[5] فهو سبحانه له المثل الأعلى في قلوب أهل السماوات وأهــل الأرض. ومن هذا الباب ما يرويه النـبي –صـلى اللـه عليـه وسـلم- عن ربـه قـال: "يقـول اللـه : أنـا مـع عبـدي مـا ذكرني ، وتحركت بي شفتاه" [6] فأخبر أن شفتيه تتحــرك به أي باسمه ، وكذلك قوله في الحديث الصـحيح "عبـدي مرضت فلم تعدني فيقول العبد: ربّ كيـف أعـودك وأنت ربّ العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانـاً مـرض فلو عدته لوجدتني عنده" [7] فقال : "لوجدتني عنده" ولم يقل :لوجدتني إيّاه، وهو عنده : أي في قلبـه، والـذي في قلبه : المثال العلمي..."[8] .

(?)[6] انظر "الفتـاوى" (2/381) ، و"الجـواب الصـحيح" (3/339-340 ، 345) (4/371) .

(?)[2] انظر "مجموع الفتاوى" (2/383، 385، 394) (5/251) (20/433) ، و "الجواب الصحيح" (3/333 ، 336-337، 344-345، 366 ، 397-399) (4/371) ، و"منهاج السنة" (5/376-378) .

(?)[3] سورة الزخرف ، الآية (84).

(?)[4] سورة الأنعام ، الآية (3).

(?)[5]سورة الروم ، الآية (27).

(?)[6] ذكره البخاري في صحيحه معلّقاً، كتـاب التوحيد ، بـاب قــول الله تعالى "لا تحركّ به لسانك ، وأخرجه ابن ماجه في سننه ح (3792) ،وصــححه الألبــاني . انظر "صــحيح ســنن ابن ماجــه(3/242-243) .

(?)[7] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6556).

(?)[8] "الجواب الصحيح" (3/333-334).

قال شيخ الإسلام : " قوله "لوجدتني عنده" لفظ ظرف ، وبكل يثبت المعنى الحق من الحلول الحق ، الذي هو بالإيمان لا بالذات"[1] وقال : "فصل : وهو أن المؤمن لا بدّ أن يقوم بقلبه من معرفة الله والمحبة له ما يوجب أن يكون للمعروف المحبوب في قلبه من الآثار ما يشبه الحلول من بعض الوجوه ، لا أنه حلول ذات المعروف المحبوب ، لكن هو الإيمان به ومعرفة أسمائه وصفاته . قال الله تعالى : ﭽ   ﮪ ﮫ ﮬ   ﭼ"[2] الآية ، قال أبيّ بن كعب : "مثل نوره في قلب المؤمن"[3] فهذه هي الأنوار التي تحصل في قلوب المؤمنين"[4] .

وقال أيضاً: "فالمؤمنون يعرفون الله ويحبونه ويعبدونه ويذكرونه ، ويقال : هو في قلوبهم ، والمراد : معرفته ومحبته وعبادته ، وهو المثل العلمي ، ليس المراد نفس ذاته ، كما يقول الإنسان لغيره : أنت في قلبي ، ومازلت في قلبي ، وبين عيني ..." [5] .

" وهذا المثال العلمي يتنوع في القلوب بحسب المعرفة بالله والمحبة له تنوعاً لا ينحصر ، بل الخلق في إيمانهم بالله وكتابه ورسوله متنوعون، فلكل منهم في قلبه للكتاب والرسول مثال علمي بحسب معرفته ، مع اشتراكهم في الإيمان بالله وبكتابه وبرسوله ، فهم متنوعون في ذلك متفاضلون ، وكذلك إيمانهم بالمعاد والجنة والنار وغير ذلك من أمور الغيب "[6] .

وأما الحلول الباطل فقسّمه شيخ الإسلام باعتبارين :
الأول: تقسيم الحلول باعتبار الصفات والذات .
والثاني: تقسيم الحلول باعتبار العموم والإطلاق والتخصيص والتقييد .

---

[1] "مجموع الفتاوى" (2/392)
[2] سورة النور ، الآية (35).
[3] انظر "الجامع لأحكام القرآن" (12/172).
[4] "مجموع الفتاوى" (2/383).
[5] "الجواب الصحيح" (3/367) .
[6] "مجموع الفتاوى" (5/251-252) .

أما الأول:

فقد قسّم الحلول بهذا الاعتبار إلى قسمين :

1- حلول في الصفات دون الذات .

وهذا كالحلول المتعلق بصفة الكلام لله تعـالى ممن أثبت الحروف والأصوات القديمة لله تعالى وقال إنها حلّت في الناس .

2- حلول في الذات والصفات .

وهم القائلون بحلول الصفات ، ويقولون أيضاً بحلول ذات الله في كل شيء .

قال شيخ الإسـلام عنـد ذكـر أقـوال المتكلمين في صـفة الكلام : "ومن هؤلاء من قال : إن تلـك الأصـوات الأزليـة هي الأصوات المسموعة من القرّاء، أو يسمع من القـرّاء صوتان : الصوت القديم وصوت محدث . والصوت القديم قال بعضهم: إنه حلّ في المحـدث وقـال بعضـهم : ظهـر فيه ولم يحل ، وقال بعضهم : هو فيه ولا نقول : ظهر ولا حـلّ ، والقـائلون بهـذا طائفـة من أهـل الحـديث والفقـه والتصوف من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما ، وهـؤلاء حلوليـة في الصـفات دون الـذات، وقـد وافقهم طائفة أخـرى من السـالمية والصـوفية . وأولئـك يقولـون بحلول الذات أيضاً في كل شيء ، وأنه يتجلى لكل شـيء بصورته . وقولهم من جنس قول القـائلين بأنـه بذاتـه في كل مكان ، والقائلين بوحدة الوجود ، لكن هم يقولون مع ذلـك : إنـه على العـرش وأنـه يحـل في قلـوب العـارفين بذاتـه ، وأنـه في كـل شـيء كمـا ذكـر ذلـك أبـو طـالب المكيّ[1] ونحوه ، وأمّا الأشـعرية فعكس هـؤلاء ، وقـولهم

---

[1] أبو طالب محمد بن علي بن عطية ، المكي المنشـأ، العجمي الأصل ، من الســالمية أتبــاع الشــيخ أبي الحسن بن ســالم ، صاحب سهل بن عبد الله التسـتري ، في كلام أبي طـالب قطعة كبيرة من الحلـول العـام مع تبريه من لفظ "الحلـول " ، وله في التوحيد كلام حسن كثـير . تـوفي سـنة (386) هــ . انظر "سـير أعلام النبلاء" (16/536-537) و"شرح حديث النزول" ص(342-349) ، و "درء التعارض" (10/178).

يستلزم التعطيل ، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه ، وكلامه معنى واحد ، ومعنى آية الكرسي وآية الدَّين ، والتوراة والإنجيل واحد . وهذا معلوم الفساد بالضرورة . وكذلك الكلمات هي عندهم شيء واحد ، فحقيقة قولهم : أنه لا ربّ ولا قرآن ولا إيمان ، فقولهم يستلزم التعطيل. والسالمية: حلولية في الذات والصفات ، والقائلون بأن الحروف والأصوات القديمة حلّت في الناس : حلولية في الصفات دون الذات"[1] .

وأمَّا التقسيم الثاني من الحلول الباطل فهو تقسيم الحلول " حلول الحق في الخلق" باعتبار العموم والإطلاق والتخصيص والتقييد وهذا على قسمين أيضاً:

الأول: الحلول الخاص المقيّد.

وهو قول النسطورية[2] من النصارى الذين قالوا: إن اللاهوت حلّ في الناسوت، كحلول الماء في الإناء ، وقول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة ، كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حلّ بعلي بن أبي طالب وأئمة أهل بيته ، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء ومن يعتقدون فيه الولاية أو في بعضهم كالحلاج[3] والحاكم ، وغيرهما.

---

[1](?) "مجموع الفتاوى" (6/309-310)، وانظر (8/416)، (12/597-598) ، و"الرد على الشاذلي" ص(173).

[2](?) النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه، قال: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة ، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو،وقالت النسطورية : إن مريم لم تلد الإله وإنما ولدت الإنسان ، وأن الله لم يلد الإنسان وإنما ولد الله . انظر "الملل والنحل" (2/251-252) ، و "الفصل في الملل والأهواء والنحل" (1/65).

[3](?) الحَلاج هو الحسين بن منصور بن مَحمِي , أبو عبد الله , ويقال : أبو مغيث , الفارسي البيضاوي الصوفي . وكان جده مَحْمِيٌّ مجوسيا. قتله المسلمون على الزندقة التي ثبتت بإقراره وبغير إقراره، وبعض ما استفاض عنه من أنواع الكفر يوجب القتل فضلاً عن جميعه . من أقواله : القول بالحلول والاتحاد ،

الثاني : الحلول العامّ المطلق.
وهذا القول الـذي ذكـره أئمـة أهـل السـنة والحـديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين ، وهو قـول غـالب متعبـدة الجهمية الذين يقولون : إن الله بذاته في كل مكان[1] .

المطلب الثالث : الفرق بين الحلول والاتحاد .

كلام شيخ الإسلام –رحمه الله- في هـذه المسـألة يحتـاج إلى تفصـيل ، فإنــه في مواضــع من كلامــه يفــرّق بين الحلول والاتحاد ، وفي مواضع أخر قد يفهم من كلامه أنه لا يفرِّق بينهما. وهو-رحمه الله- في المواضع الـتي يفـرِّق فيها بين الحلول والاتحاد له اعتبارات متعددة في التفريق هي ما يلي:

وقوله : أنا الله ، وقوله إله في السماء وإله في الأرض. ودعــواه أنه يقدر أن يعارض القرآن بخير منه ، ودعــواه أن من فاته الحج أنه يبنى بيتاً يطوف به ويتصدق بشيء قـدره وذلك يسـقط الحج عنه . وكان ساحراً وله مصنف في السحر . كان مقتله في سـنة (309)هـ . انظر "سير أعلام النبلاء" (14/313-351) و "مجموع الفتاوى" (2/480-487)، (8/316، 318) ، و "جامع الرسائل" (1/178-199) ، و "جامع المسائل" (4/384).

[1] انظر "مجموع الفتاوى" (2/171-172 ، 296، 367-368 ، 465-466) ، و "الردّ على الشاذلي " ص(169، 172-173) ، و "الجــواب الصــحيح" (1/97-98)ـ ، و "التحفة العراقيــة" ص(395)ـ ، و "درء التعـارض" (6/151-152)ـ ، و "بيـان تلـبيس الجهمية" (6/549-550) .

1- من حيث الحقيقة .

فإنه يفرّق بين حقيقة الحلول وحقيقة الاتحاد ، فهو يبيّن أن حقيقة الاتحاد اختلاط وامتزاج واستحالة بحيث يصبح المتحدان شيئاً ثالثاً. ويمثّل لذلك باتحاد الماء واللبن فهو ليس ماءً خالصاً ولا لبناً خالصاً ، بل هو شيء ثالث.

وأما الحلول فليس كذلك ، ولهذا يذكر شيخ الإسلام تمثيل النصارى النسطورية للحلول بحلول الماء في الإناء، وحلول الماء في الإناء ليس فيه امتزاج واستحالة كالماء واللبن.

قال شيخ الإسلام –رحمه الله- :"فإن الذاتين المتميزتين لا تتحد عين إحداهما بعين الأخرى ،ولا عين صفتها بعين صفتها ، إلاّ إذا استحالتا بعد الاتحاد إلى ذات ثالثة، كاتحاد الماء واللبن ، فإنهما بعد الاتحاد شيء ثالث ، وليس ماءً محضاً ولا لبناً محضاً، وأما اتحادهما وبقاؤهما بعد الاتحاد على ماكانا عليه فمحال ، ومن هنا يعلم أن الله لا يمكن أن يتحد بخلقه فإن استحالته محال"[1] .

وقال أيضاً:"كثير من النصارى يقول : أنهما (أي كلمة الله والمسيح) بعد الاتحاد جوهر واحد ، وطبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، وهذا القول يضاف إلى اليعقوبية . ويقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا ، كما يختلط الماء واللبن ، والماء والخمر ، وهذا القول هو حقيقة الاتحاد ، ولا يعقل الاتحاد إلاّ هكذا، لكن فساده ظاهر لعقول الناس"[2] .

وقال عند ذكر أقسام الحلول والاتحاد : "فهذه أربعة أقسام :

---

[1] "مجموع الفتاوى" (2/387).

[2] "الجواب الصحيح" (4/7-8)، وانظر (2/48) ،و"مجموع الفتاوى" (5/278) ، و "العبودية" ص(189) .

الأول: هـو الحلـول الخـاص ، وهـو قـول النسـطورية من النصــارى ونحــوهم ممن يقــول إن اللاهــوت حــلّ في الناسوت وتدرع به[3] كحلول الماء في الإناء...

والثاني: هو الاتحاد الخاص ، وهو قول يعقوبية النصـارى ، وهم أخبث قولاً، وهم السـودان[2] والقبط[3] ، يقولـون: إن اللاهــوت والناســوت اختلطــا وامتزجــا كــاختلاط اللبن والماء ..."[4].ثم ذكر الحلول العام ، والاتحاد العام .

فهنا فرَّق بين قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد ، وبين قـول النسطورية القائلين بـالحلول للاختلاف بينهمـا في حقيقـة الحلول والاتحاد ، والمثالان عند الطـائفتين يوضّـحان هـذا الفرق.

2- من حيث التقسيم إلى عام مطلق وخـاص مقيد .

فهــو يفــرِّق بين الاتحــاد والحلــول العــام وبين الاتحــاد الخاص .

قال في معرض ردّه على ضـلال المسـلمين الـذين قـالوا بــالحلول والاتحــاد في الأوليــاء والأنبيــاء:" وهــؤلاء في دعواهم الاتحاد والحلول بغير المسيح شر من النصـارى . فإن المسيح –صلوات الله عليه- أفضل من كـلّ من ليس

---

[3] أي اتخـذه درعـاً، كما يتـدرع الإنسـان قميصـه، فظـاهره وهو الــدِّرع والقميص بشر ، وباطنه وهو المتــدرع لاهــوت . انظر "مجمـوع الفتـاوى" (2/443)ـ (17/373) . والـدِّرع : جمع دروع وأدْرع ، قميص من سلاسل حديدية يلبسه المقاتل لوقاية جسمه . انظر "المعجم الوسيط" ص (215).

[2] السُّودان : شعب أسود البشرة، والسوداني واحد السـودان . وقد ذكر شـيخ الإسـلام أنَّ اليعقوبية هم السـودان من الحبشة . انظر "المعجم الوسـيط" ص(282)ـ ، و "الفتـاوى الكـبرى" (6/586) ، و"مجموع الفتاوى" (2/465).

[3] القِبْـط" جمع أقبـاط، نصـارى مصر . "المعجم الوسـيط"ص(416).

[4] "مجموع الفتاوى" (2/171-172)ـ ، وانظر"المسـتدرك على مجمـوع الفتـاوى" (1/38)ـ ، و"الـردّ على الشـاذلي" ص(180-182).

بنبي ، بل هو أفضل من جماهير الأنبياء والمرسلين . فإذا كـان من ادعى أن اللاهـوت اتحـد بـه كـافراً، فكيـف بمن ادّعى ذلـك فيمن هـو دونـه؟ وهـذا الاتحـاد الخـاص غـير الاتحاد والحلول العام ، يقول الذين يقولون إنه حال بذاته في كل مكان ، أو متحد بكل شيء"[1] .

ولما ذكر أقسام الحلول والاتحاد بيِّن أن القسمة رباعية : الاتحـاد الخـاص ، والاتحـاد العـام ، والحلـول الخـاص ، والحلول العام[2] ، فالخاص المقيد منهما في مقابل العـام المطلق .

قال في معرض ردّه على أقوال الاتحادية:"فهؤلاء يقولون : بعمـوم الوحـدة والاتحـاد، والحلـول في كـلّ شـيء ، فتخصيصهم بعـد هـذا آدم أونحـو المسـيح ينـاقض قـولهم بالعموم ، وإنما يخصّ المسـيح ونحـوه من يقـول بالاتحـاد الخاص، كالنصارى والغالية من الشيعة ، وجهـال النسـاك ونحوهم"[3] .

3- من حيث الأقلّ كفراً والأعظم .

فهو يفرّق بين الحلول والاتحاد في ذلك ، فيرى أن القول بالحلول أقلّ كفراً من القول بالاتحاد ، ويـرى أن القـائلين بالاتحـاد أكفـر وأضـلّ من القـائلين بـالحلول ، وإن كـان الجميع ضُلاّلاً .

قال شيخ الإسلام عن الاتحادية:"حقيقـة قـول هـؤلاء : أن وجود الكائنـات هو عين وجـود الله تعـالى ، ليس وجودها غيره ولا شىء سواه ألبتة ، ولهـذا من سـماهم حلولية أو قال هم قائلون بالحلول رأوه محجوبا عن معرفة قولهم ، خارجا عن الـدخول الى بـاطن أمـرهم ؛ لأن من قـال إن الله يحل فى المخلوقـات فقد قـال بـأن المحل غـير الحـال ، وهـذا تثنية عنـدهم وإثبـات لوجـودين : أحـدهما وجود الحق الحال.والثانى وجـود المخلـوق المحل وهم لا يقرون بإثبات وجودين البتة . ولا ريب أن هذا القول أقـلّ

---

[1] "الجواب الصحيح" (4/497).

[2] انظر "مجموع الفتاوى" (2/171-172).

[3] "المصدر السابق" (2/319).

كفراً من قولهم ، وهو قول كثير من الجهمية الـذين كـان السلف يردّون قولهم ، وهم الذين يزعمـون أن الله بذاته فى كل مكـان . وقد ذكـره جماعـات من الأئمة والسـلف عن الجهمية وكفروهم به بل جعلهم خلق من الائمة كابن المبـــارك ويوسف بن أســـباط[1] وطائفة من أهل العلم والحـديث من أصـحاب أحمد وغـيره خـارجين بـذلك عن الثنتين والسبعين فرقة[2] وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم . ولا ريب ان إلحاد هـؤلاء المتـأخرين وتجهمهم وزنـــدقتهم تفريع وتكميل لإلحـــاد هـــذه الجهمية الأولى وتجهمها وزندقتها "[3] .

وقال عند ذكر الأوجه التي تبيّن أن قول الاتحادية شرّ من قول النصارى : "إن النصارى يقولون بأن الاتحاد والحلول فعل من أفعال الرب، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت مرة ، وانفصل عنه أخرى ،وهـؤلاء عنـدهم مـا يتصـور أن يتمـيز وجود الحق عن المخلوقـات ولا بيانهـا ولا ينفصـل عنهـا ، وهؤلاء الاتحادية هم أكفر وأضل ممن يقول إن الله تعالى بذاته في كل مكـان ، ونحـو ذلـك من المقـالات الشـنيعة المتقدمة ، ولكن هم مشـاركون لهم في أصـل المقالـة ، وزائدون عليهم في الضلالة"[4] .

وقال بعد أن ذكر تناقض أهل الحلول العام وأن تناقضـهم أكثر من تناقض غيرهم قال : "وكذلك أهل الاتحاد الخاص

---

[1](?) يوسف بن أسـباط ، الزاهد ، من سـادات المشـايخ ، له حكم ومواعظ ، روى عن الثـــوري ، وثقة ابن معين ، قـــال أبو حـــاتم : لا يحتج به, وقال البخاري : دفن كتبه فكـان حديثه لا يجيء كما ينبغي . انظر "سير أعلام النبلاء" (9/169-171)

[2](?) انظر "السنة" لعبد الله بن الإمـام أحمد (1/105-125)ـ ، و "السنة " للخلال (5/83-98)ـ ، و "الإبانة"الكتاب الثالث (2/86-101) (3/194-197) . وانظر "النبوات" (1/577-578) و"شرح الأصبهانية" ص(675) ، و "درء التعارض" (5/302-309)

[3](?) "مجموع الفتاوى" (2/140).

[4](?) "بيـان تلـبيس الجهمية " (5/48-49)ـ ، و انظر "مجمـوع الفتاوى" (13/196).

يتناقضـون ، وإن الاثـنين لا يكونـان واحـداً إلاَّ إذا اسـتحالا جميعاً فصار شيئاً ثالثاً، كما يختلـط المـاء واللبن ، والمـاء والخمـر ، فيصـر ذلـك أمـراً مختلطـاً ممتزجـاً ليس مـاءً محضـاً ولا لبناً محضـاً ، ولهـذا النصـارى تـارة تقـول : إن اللاهوت والناسوت صارا كالماء واللبن ، وهـذا يقولـه من يقوله من اليعاقبة ، وتارة يقولون : صارا كالنـار والحديـد كما يقوله من يقوله من الملكية[1] وأما النسطورية فإنهم يقولـون بـالحلول كحلـول المـاء في الظـرف ، وهم أقـلّ النصـــارى كفـــراً وإلحـــاداً، وإن كـــان الجميـــع كفـــاراً ملحدين"[2] .

هذه هي الاعتبـارات الـتي يفـرِّق فيهـا شـيخ الإسـلام بين الحلول والاتحاد .

وهناك كلام لشيخ الإسـلام في مواضـع متعـددة قـد يفهم منه أن شيخ الإسـلام لا يفـرّق فيهـا بين الحلـول والاتحـاد من ذلك :

كلامه عن الحلـول والاتحـاد الخـاص عنـد المنتسـبين إلى الإسلام فإنه يجمع بينهما .

كقوله :"والحلول والاتحاد نوعان : عام وخاص . فالعـام : كالذين يقولون إن الله بذاته حـال في كـلّ مكـان ، أو أن وجوده عين وجود المخلوقات . والخاص : كالذين يقولون بالحلول والاتحاد في بعض أهل البيت كعلي وغيره ، مثـل النصيرية وأمثالهم ، أو بعض من ينتسـب إلى أهـل الـبيت كالحـاكم وغـيره ، مثـل الدرزيـة وأمثـالهم ، أو بعض من يعتقد فيه المشيخة كالحلاجيـة وأمثـالهم . فمن قـال : إن الله –سبحانه وتعالى- حـلّ أو اتحـد بأحـد من الصـحابة أو

---

[1] (?) الملكية : أصـحاب ملكا الـذي ظهر بـأرض الـروم واسـتولى عليهـا، ومعظم الـروم ملكيـة، قـالوا : إن الله ثلاثة أشـياء : أب وابن وروح القـــدس ، كلها لم تـــزل ، وإن عيسى إله تـــامّ كلّه ، وإنسان تامّ كله ، ليس أحدهما غـير الآخر ، وإن الإنسـان منه هو الـذي صـلب وقتل ، وإن الإله منه لم ينله شـيء من ذلك . انظر "الملل والنحل" (2/248) ، و"الفصل" (1/65) .

[2] (?) "الرد على الشاذلي" ص(180-181).

القرابة أو المشايخ فهو من هذا الوجه أكفر من النصـارى الذين قالوا بالاتحاد والحلول في المسيح ، فإن المسيح – عليه السلام- أفضل من هؤلاء كلهم ..." [1] .
وقال : "من اعتقد مـا يعتقـده الحلاج من المقـالات الـتي قتل الحلاج عليها فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين ، فـإن المسلمين إنما قتلوه على الحلول والاتحاد ونحو ذلـك من مقالات أهل الزندقة والإلحاد كقولـه : أنـا اللـه ، وقولـه : إلــه في السـماء وإلــه في الأرض ... فالنصـارى الــذين كفـرهم اللـه ورسـوله ، واتفـق المسـلمون على كفـرهم بالله ورسوله : كان من أعظم دعـواهم الحلـول والاتحـاد بالمسيح بن مريم ، فمن قال بـالحلول والاتحـاد في غـير المسيح كما تقوله الغالية في علي ، وكما تقوله الحلاجيـة في الحلاج ، والحاكمية في الحاكم ، وأمثال هؤلاء فقولهم شر من قول النصارى ؛ لأن المسيح بن مريم أفضــل من هؤلاء كلهم"[2] .
وقال :"ومن هؤلاء الحلولية والاتحاديـة من يخصّ الحلـول والاتحاد ببعض الأشخاص ، إمّا ببعض الأنبياء كالمسيح ، أو ببعض الصحابة كقول الغالية في علي ، أو ببعض الشـيوخ كالحلاجية ونحوهم ، أو ببعض الملوك ، أو ببعض الصـور ، كصور المـردان ويقـول أحـدهم : إنمـا أنظـر إلى صـفات خـالقي ، وأشـهدها في هـذه الصـورة ، والكفـر في هـذا القول أبين من أن يخفى على من يؤمن باللـه ورسـوله ، ولو قـال مثـل هـذا الكلام في نـبي كـريم لكـان كافــراً ، فكيف إذا قاله في صـبي أمـرد؟ فقبّح اللـه طائفـة يكـون معبودها من جنس موطوئها "[3] .

---

[1] (?) "الجواب الصحيح" (1/95-97).
[2] (?) "مجموع الفتاوى" (2/480-481).
[3] (?) "المصـدر السـابق" (15/424) ، وانظر (2/367-368 ، 461 ، 485) (3/392-393) (21/256) ، و"الردّ على الشاذلي " ص (172-173).

وأحياناً لا يجمع بين الحلول والاتحـاد عنـد المنتسـبين إلى الإسلام في موضع واحد، بل يصف القائلين بذلك بالاتحـاد في موضع ، وبالحلول في موضع آخر .
قال معلِّقاً على حديث الولي: "فبيّن سـبحانه أنـه يـتردد ؛ لأن التردد تعـارض إرادتين ، وهـو سـبحانه يحب مـا يحب عبده ويكره ما يكرهه ، وهو يكره الموت فهو يكرهه كمـا قال : وأنا أكره مساءته ، وهو سبحانه قد قضـى بـالموت فهو يريد أن يموت ، فمسمّى ذلك تردداً، ثم بيّن أنه لابدّ من وقوع ذلك ، وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي المأمور به والمبغض المكروه المنهي عنه . وقد يقال له: اتحاد نوعي وصفي ، وليس ذلك اتحاد الذاتين ، فإن ذلـك محـال ممتنـع ، والقائـل بـه كـافر ، وهـو قـول النصـارى والغالية من الرافضة ، وجهال النساك كالحلاّجية ونحـوهم ، وهو الاتحاد المقيد في شيء بعينه"[1] .
فهنـا وصـفهم بـأنهم من القـائلين بالاتحـاد المقيّـد ، وفي موضع آخر يصفهم بأنهم من أهل الحلول المقيّد ، فيقـول بعد ذكر أقـوال الاتحاديـة :"وهـؤلاء أقـوالهم فيهـا تنـاقض وفسـاد ، وهي لا تخـرج عن وحـدة الوجـود والحلـول أو الاتحاد ، وهم يقولون بالحلول المطلق والوحدة المطلقـة والاتحاد المطلق ، بخلاف من يقول بـالمعيّن كالنصـارى ، والغالية (من الشـيعة)[2] الـذين يقولـون بإلهيـة على أو الحـاكم أو الحلاج أو يـونس القنيـني[3] أوغـير هـؤلاء ممّن

---

[1](?) "التحفة العراقية " ص(394).
[2](?) هكذا في الكتاب بين قوسين .
[3](?) يـونس بن يوسف بن مسـاعد الشـيباني المخـارقي الجـزري القُنَيّي، شـيخ اليونسـية ، لم يكن من أولي العلم ، بل من أولي دعـوى الحـال والكشف ، وكـان عريـاً من الفضـيلة ، وله أبيـات منكرة ، قال الذهبي : كان شيخنا ابن تيمية يتوقف في أمـره ثم أطلق لسـانه فيه وفي غـيره من الكبـار . تـوفي سـنة (619هـ) . انظر "سير أعلام النبلاء" (22/178-179) ، و"تاريخ الإسلام " (44/472-473) .

ادّعيت فيه الإلهية ، فإن هؤلاء قد يقولون بالحلول المقيّد الخاص ، وأولئك يقولون بالإطلاق والتعميم"[1] .
فهذا الكلام ونحوه لشيخ الإسلام يجاب عنه بأحـد الأجوبـة الآتية :
الأول : أن يقـال : إن شـيخ الإسـلام في هـذه المواضـع ونحوها لا يفرِّق بين الحلول والاتحاد ، وذلك باعتبار نتيجـة القولين ومآلهما ، فإن نتيجة القولين ومآلهمـا هـو تنقيص ربّ العالمين والكفر به .
الثاني : أن يقال:
إن شيخ الإسلام يريد بذلك أن من غاليـة الشـيعة وجهـال النسـاك من يقـول بـالحلول ، ومنهم من يقـول بالاتحـاد كالنصارى ، فإن اليعقوبية من النصارى يقولـون بالاتحـاد، والنسـطورية من النصـارى يقولـون بـالحلول ، وكـذلك هؤلاء.
ويؤيد هذا قوله : "فإن النصيرية أتبـاع أبي شـعيب محمـد بن نصير يقولون في علي بن أبي طالب نظـير مـا يقولـه النصارى في المسيح ،كذلك سائر الغلاة في علي أو في أحـــد من أهـــل بيتـــه ، أو في الإســـماعيلية بـــني عبيـــد المنتسـبين إلى محمـد بن إسـماعيل بن جعفـر، كالحـاكم وغــيره ، أو في الحلاج ، أو في بعض من الشــيوخ الــذين يقولون في واحد من هؤلاء باتحـاد اللاهـوت بـه أو حلولـه فيه ، نظير ما تقوله النصارى في المسيح"[2] .
فقوله : "نظير ما تقوله النصـارى في المسـيح " يفيـد أن منهم من يقـــول بـــالحلول ومنهم من يقـــول بالاتحـــاد ، كالنصارى .
الثالث : أن يقال :
إن شـيخ الإسـلام يريـد أنهم يقولـون بشـيء من الحلـول وبشيء من الاتحاد.

---

[1] (?) "مجموع الفتاوى" (2/296).
[2] (?) "الجواب الصحيح" (4/303-304) ، وانظر (3/187-188).

ويؤيده : قوله بعد ذكره لقول الاتحادية وبيانه أنهم مترددون بين الحلول والاتحاد وأنهم متناقضون في ذلك : "وهكذا كثير من الناس يقولون بشيء من الحلول والاتحاد مع تناقضهم في ذلك ، كما يوجد في كلام كثير من الصوفية"[1] .

والجواب الثاني والثالث أقرب من الأول .

والجواب الثالث هو ما يريده شيخ الإسلام عند كلامه عن الاتحادية كابن عربي وأمثاله ، فإنه يطلق عليهم أنهم من القائلين بالحلول والاتحاد ، ويريد به أنهم يقولون بنوع من الحلول ونوع من الاتحاد كما أوضح بذلك في مواضع متعددة ، وبيّن أنهم مترددون بين الحلول والاتحاد ، وأنهم متناقضون في ذلك .

فمن إطلاقه عليهم أنهم من أهل الحلول والاتحاد :

قوله في معرض عن الصوفية : "ومن هؤلاء من يقول بالحلول والاتحاد ، وهم في الحلول والاتحاد نوعان: نوع يقول بالحلول والاتحاد العام المطلق كابن عربي وأمثاله"[2] .

وقال :"ما تضمنه كتاب "فصوص الحكم "وما شاكله من الكلام : فإنه كفر باطناً وظاهراً، وباطنه أقبح من ظاهره ، وهذا يسمّى مذهب أهل الوحدة ، وأهل الحلول ، وأهل الاتحاد ، وهم يسمون أنفسهم المحققين ، وهؤلاء نوعان :

نوع يقول بذلك مطلقاً ، كما هو مذهب صاحب الفصوص ابن عربي وأمثاله..." [3] .

فهذا الكلام ونحوه[4] لشيخ الإسلام مما يجمع فيه بين الحلول والاتحاد العام معناه :أن ابن عربي وأمثاله

---

[1] "الصفدية" (1/263).

[2] "منهاج السنة" (5/335).

[3] "مجموع الفتاوى" (2/364).

[4] انظر"مجموع الفتاوى" (2/332-333 ، 414) ، و "الجواب الصحيح" (4/392) ، و "درء التعارض" (1/318) (5/7).

يقولون بـالحلول ويقولـون بالاتحـاد كمـا أوضـح ذلـك في مواضع أخرى .
كقوله عند بيان الأوجه الدّالة على أن حديث الـولي حجّـة على الاتحادية : "ومنهـا قولـه :"فـإذا أحببتـه كنت سـمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به"[1] إلى آخره ، فإنه جعل لعبـده بعـد محبتـه هـذه الأمـور ، وهـو عنـدهم قبـل المحبة وبعدهما واحد ، وهو عندهم هذه الأعضـاء بطنـه ، وفرجه وشعره ، وكل شيء ، لا تعـدد عنـدهم ، ولا كـثرة في الوجود ، ولكن يثبتون مراتب ومجالي ومظاهر ، فـإن جعلوهـا موجـودة نقضـوا قـولهم . وإن جعلوهـا ثابتـة في العــدم كمــا يقولــه ابن عــربي ، أو جعلوهــا المعينــات والمطلق هو الحق كانوا قد بنوا ذلك على قول من يقـول : المعـدوم شـيء ، وقـول من جعـل الكليـات ثابتـة في الخـارج زائـدة على المعينـات ، والأول: قـول طائفـة من المعتزلة ، وهو قول ابن عربي . والثاني: قول طائفـة من الفلاسفة ، وهو قول القونوي[2] صـاحب ابن عـربي . وكلا القـولين بـاطلان عنـد العقلاء . ولهـذا كـان التلمسـاني[3] أحذق منهما فلم يثبت شيئاً وراء الوجود .كما قيل:

وما البحر إلاّ الموج لا شيء غيره وإن فرقته كثرة المتعدد[4] .

---

[1] سبق تخريجه ص(119) .

[2] محمد بن إسحاق بن محمد القونوي الـرومي ، صـوفي ، من كبار تلاميذ ابن عربي، تزوج ابن عربي أمه وربّاه ، تـوفي سـنة (673) هـــ . انظر "الأعلام" (6/30) . و"معجم المـــؤلفين" (3/123).

[3] سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني ، المعـروف بالتعفيف التلمساني ، ولد سنة (610)هـ ، تلميذ القونـوي ، وهو أعرف الاتحادية بقولهم وأكملهم في ذلك وأحذقهم ، ولهذا خـرج إلى الإباحة والفجور ، وكان لا يحرم الفـواحش ولا المنكـرات ولا الكفر ولا الفسـوق والعصـيان . تـوفي سـنة (690) . انظر "الأعلام" (3/130) ، و "معجم المؤلفين" (1/794) ، و "الردّ على الشاذلي" ص(176). و "الصفدية" (1/244).

لكن هؤلاء الضلال من الفلاسفة والمعتزلة ما قالوا: وجود المخلوق هو وجود الخالق، وهـؤلاء قـالوا: هـذا هـو هـذا ، ولهذا صاروا يقولون بالحلول من وجه لكـون الوجـود في كل الذوات أو
بالعكس ، وبالاتحاد من وجـه لاتحادهمـا ، وحقيقـة قـولهم هي وحدة الوجود"[1] .
وقال قبـل ذلـك عن الاتحاديـة : "وأقـوال هـؤلاء شـرّ من أقـوال النصـارى ، وفيهـا من التنـاقض من جنس مـا في أقوال النصارى ، ولهذا يقولون بـالحلول تـارة ، وبالاتحـاد أخرى ، وبالوحدة تارة ، فإنه مذهب متناقض في نفســه ، ولهذا يلبّسون على من لم يفهمه"[2] .
وقال بعد أن ذكر أن القول بالحلول يقتضي أن يكون كـل من الحق والعالم محتاجاً إلى الآخر: "وهـذا قـد صـرّح بـه الاتحادية كصاحب الفصوص وقال : بأن العالم والحق كل منهما محتاج إلى الآخر ونحو ذلك مما قد ذكرناه في غـير هـذا الموضـع ، ويقـول : إن أعيـان العـالم هي ثابتـة في العدم مستغنية عن الحق ، وإن وجود الحـق ظهـر فيهـا ، وهذا من جنس حلوله في تلك الأعيان ، لكن هما متحدان ، لا يتميز الحالّ عن المحـلّ ، ولهـذا يقـول بنـوع الحلـول وبنــوع من الاتحــاد ، وهــو في ذلــك متنــاقض كتنــاقض النصارى في الحلول والاتحاد الخاص بالمسيح ؛ وذلك لأنه يجعل الثبوت غير الوجود كمـا يقولـه من يقـول المعـدوم شيء ، وهذا باطل"[3] .
وقــال عن الاتحاديـــة في معـــرض مقارنتـــه بينهم وبين فرعون :"وأمّا هؤلاء فإنهم عند أنفسـهم مقـرّون بالصـانع مثبتون له ، لكن لم يثبتوه مبايناً للعالم ، بل جعلوا وجوده وجــود العــالم ، أو جعلــوه حــالاً في العــالم ، وقــولهم

---

[4](?) انظر "مجموع الفتاوى" (2/169 ، 474) ، و"بغية المرتاد" ص(424) ، وص (657) .
[1](?) "مجموع الفتاوى" (2/371-372)
[2](?) "المصدر السابق" (2/368).
[3](?) "بيان تلبيس الجهمية" (5/44-45).

مضطرب متناقض ، فإنهم مترددون بين الاتحـاد والحلـول وأصل ضلالهم : إنكارهم مباينة الصـانع للعـالم ، وصـارت قلوبهم تطلب موجوداً، وهي تأبى أن يكون مبايناً للعالم ، فصاروا يطالبونه في العالم ، أو يجعلون وجوده هو وجـود العالم ، فيجعلونه إمّا العالم ، وإما جزءاً منه ، وإمـا صـفة لـه ، وإمـا أن يقولـوا : هـو العـالم وليس هـو العـالم ، فيجمعوا بين المتناقضين ، وهو حقيقـة قـول ابن عـربي ، فإنه يجعل وجوده وجود العالم ، ويقول : إن ذات الشيء غير وجوده ، وهذا فرق باطل ، فلهذا كان قوله متناقضـاً، وهكـذا كثـير من النـاس يقولـــون بشــيء من الحلــول والاتحاد مع تناقضهم في ذلك ، كما يوجد شـيء من ذلـك في كلام كثير من الصوفية ، والناس في هـذا البـاب على أربعة أقوال :

فالقول الذي بعث الله به رسله ، وأنزل بـه كتبـه ، وكـان عليه سلف الأمة وأئمتهـا هـو القـول بإثبـات الصـانع وأنـه مباين للعالم عالٍ عليه .

وأما الجهمية ونحوهم فصاروا على ثلاثة أقوال : أحدهما : قول النفاة ، وهم أكثر متكلمي الجهمية ونظـارهم الـذين ينفون المتقابلين ويجمعون في قولهم سـلب النقيضـين ، فغلاتهم يقولــون: ليس بموجـــود ولا معـــدوم ولا حي ولا ميت ونحو ذلك . ومقتصدوهم يقولون :لا مباين للعالم ولا داخل فيه ، ولا يقرب من شيء ولا بقرب إليه شيء ، ولا يصعد إليه شيء ولا يشار إليه ونحو ذلـك . وهـؤلاء النفـاة قولهم مستلزم للتعطيـل وإنكـار الصـانع ،كمـا صـرّح بـه فرعون أمـام المعطلـة ، فلهـذا صـار عبّـادهم وصـوفيتهم وعامّتهم ومحققوهم إلى القول بالوحدة والحلول والإتحاد ؛ لأن القلب العابد يطلب موجودا يقصده ويسأله ، بخلاف النظر والبحث والكلام ، فإنه يتعلق بالموجود والمعـدوم ، وأمـا العبـادة والطلب والسـؤال فلا يكـون إلا لموجـود . فصـــار هـــؤلاء ينظـــرون فيمـــا ذكـــره أولئـــك من ســـلب المتقابلين فلا تقبله قلوبهم ، وهم قد شـاركوهم في نفي مباينة الله لخلقـه وعلـوه عليهم ، فصـاروا يطلبـون الإلـه

الموجود في العالم ، لامباينا للعالم فيترددون بين الحلول والإتحاد وأشباه ذلك من أنواع الإلحاد" [1] .
فهنا شيخ الإسلام قال عنهم : "فلهذا صار عبّادهم وصوفيتهم وعامّتهم ومحققوهم إلى القول بالوحدة والحلول والاتحاد" وهذا يكثر في كلامه يجمع بين الحلول والاتحاد .
وقد بيّن مراده في هذا الكلام نفسه : بأنهم مترددون بين الحلول والاتحاد ، يقولون بشيء من الحلول وشيء من الاتحاد . ويؤكد ذلك كلامه في مواضع أخرى بأنهم يقولون بنوع من الحلول ونوع من الاتحاد ، وهم متناقضون في ذلك . وهذا يبين أن شيخ الإسلام لا يرى أن الحلول والاتحاد في مثل هذه المواضع بمعنى واحد .
وأمّا ذكر شيخ الإسلام للوحدة مع الحلول والاتحاد فالمراد بها عند شيخ الإسلام : الاتحاد العام .كما صرّح بذلك بقوله : "والقول بالاتحاد العام المسمى وحدة الوجود ، هو قول ابن عربي الطائي وصاحبه القونوي وابن سبعين[2] وابن الفارض[3] وأمثالهم"[4] .
ثم إن هذا من تناقضهم فهم يقولون بالوحدة ويقولون بالاتحاد والحلول . قال شيخ الإسلام في معرض ذكره

---

[1] "الصفدية " (1/263-264)ـ ، وانظر "الرد على الشاذلي" ص(106)

[2] عبد الحق بن إبراهيم بن محمد المرسي بن نصر الإشبيلي ، الشهير بابن سبعين ، ولد سنة (614) من فلاسفة الصوفية ، ومن القائلين بوحدة الوجود ، اشتهر عنه أنه قال : "لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله لا نبي بعدي" ، توفي سنة (669) هـ . انظر "الأعلام" (3/280) ، و "معجم المؤلفين" (4/57).

[3] عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة ، ولد سنة (576)هـ صاحب الاتحاد الذي قد ملأ به قصيدته "التائية" ، فإن لم يكن فيها صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده فما في العالم زندقة ولا ضلال . وشعره في الذروة الذي لا يلحق شأوه ، توفي سنة (632)هـ انظر "سير أعلام النبلاء" (22/ 368-369) ، و "الأعلام" (5/55) .

[4] "مجموع الفتاوى " (8/308).

للفروق بين أقوال الاتحادية : "...ابن عربي يجعل الوجود الذي هو حال في الثبوت ، والثبوت محل لـه : هـو وجـود الحق كما تقدم . فهو وإن كـان يقـول بـأن الوجـود واحـد فهو يقول بالاتحاد والحلـول من هـذا الوجـه , ولا ريب أن القولين متناقضان ، وهو يذكر تناقض ذلك ويشـير إلى أن ذلك هـو الحـيرة ، وهـو أعلى العلم . وابن سـبعين يجعـل وجود الحق هو الثـابت بـدءاً الـذي كالمـادة ، والخلـق هـو المتنقل الذي هو الصـورة ، فهـو وإن قـال : بـأن الوجـود واحد فهو يقول بالاتحـاد والحلـول من هـذه الوجـه ، لكن الحق عنده محل للخلق ، وعلى قول ابن عربي حـال في الخلق"[1] .

وقد بيّن شيخ الإسـلام أنهم لا يرضـون لفـظ "الحلـول" و "الاتحاد" بل يقولون : "الوحدة" .

قال في معرض حديثه عن أنواع الفنـاء : "وأصـحاب هـذا المشـهد (الـذين يشـهدون الربوبيـة وحـدها ويرونهـا هي الغاية) قـد ينتقـل أحـدهم من هـذه إلى الوحـدة ، ولهـذا يقولون : السـالك يشـهد أولاً طاعـة ومعصـية ، ثم يشـهد طاعة بلا معصية ، ثم لا يشهد لا طاعة ولا معصـية ، وقـد يقول بعضهم : يكون أولاً فقيراً، ثم يصـير نبيـاً ، ثم يصـير إلهاً، وحينئذ يـدخلون إلى النـوع الثـالث من الفنـاء ، وهـو فناء الملحدين الذين يقولون : الوجود واحد ، كابن عـربي وابن سـبعين وابن الفـارض والقونـوي والتلمسـاني وأمثالهم ، ممن يجعل الوجود الخالق هو الوجود المخلوق ، وربمـا جعلـوه حـالاً فيـه ، ومـذهبهم دائـر بين الاتحـاد والحلول . ولكن قد لا يرضون لفظ "الاتحاد" ، بل يقولون "الوحدة" ؛ لأن الاتحاد يكون بين شـيئين ، وهم يقولـون : الوجود واحد لا تعدد فيه ..." [2] .

---

[1] "بغية المرتاد" ص(418) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (2/306 ، 308).

[2] "الرّد على الشاذلي " ص(106).

وقـال أيضـاً: "وهـؤلاء يفـرّون من لفـظ "الحلـول" لأنـه يقتضـي حـالاً ومحلاً، ومن لفـظ "الاتحـاد" ؛ لأنـه يقتضـي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وعندهم الوجود واحد"[1] .

المطلب الرابع : القائلون بالحلول والرّد عليهم .

شيخ الإسلام –رحمه الله- لما ذكر أنواع الحلول ذكر القائلين بالحلول الخاص المقيّد والقائلين بالحلول العام المطلق وقد سبق ذلك . [2]

وأمّا الردّ عليهم :

فإن شيخ الإسـلام لـه ردود عامّـة عليهم ، ولـه ردود على شبهاتهم .

أما الردود العامّة التي تبين بطلان القول بالحلول فهي ما يلي:

1- الإجماع على أن الله –تعالى- على عرشـه ، فـوق سمواته ، بائن من خلقه .

وشيخ الإسـلام ذكـر أقـوال السـلف في إثبـات علـو اللـه ومباينته ، وإجماعهم على ذلك. وقد سبق ذكر ذلك [3] .

قال شيخ الإسلام بعد أن ذكـر كلام السـلف والعلمـاء في إثبات علو الله ومباينته :" وهـذا بـاب واسـع لا يحصـيه إلا

---

[1] "مجموع الفتاوى" (11/242) ، وانظر (2/140-141 ، 308) (13/196-197) ، و "بيان تلبيس الجهمية" (5/46).

[2] انظر ص (624-625).

[3] انظر ص (125-127).

الله، فإن الذين نقلوا إجماع السلف، أو إجماع أهل السنة، أو إجماع الصحابة والتابعين على أن الله فوق العرش ، بائن من خلقه، لا يحصيهم إلا الله، وما من أحد من هؤلاء المذكورين إلا وشهرته في الإسلام بالعلم والدين أعظم من أن يتسع لها هذا الموضع، وإن كان بعضهم أفضل من بعض ، وفي شيء ، وما زال علماء السلف يثبتون المباينة، ويردون قول الجهمية بنفيها" [1] .

2- ان القول بالحلول يلزم منه القول بافتقار الله إلى العالم ، وهو باطل ، ومن قال: إنه مفتقر إلى مخلوق ما فهو كاذب مفتر .

قال شيخ الإسلام : "لزم إذا جعل (أي الله تعالى) حالا في العالم أن يكون مفتقرا إلى العالم محتاجاً إليه ، لا يقوم وجوده إلا بالعالم مع أن العالم قائم بنفسه بدونه ، وهذا يقتضي أن يكون العالم غنيا عن الله تعالى ، والله مفتقر إليه ، وأن يكون هو إلى العالم أحوج من العالم إليه ، أو أن يكون كل منهما محتاجاً إلى الآخر.وهذا قد صرّح به الاتحادية كصاحب الفصوص وقال : بأن العالم والحق كل منهما محتاج إلى الآخر ونحو ذلك مما قد ذكرناه في غير هذا الموضع ، ويقال : ان أعيان العالم هي ثابتة في العدم مستغنية عن الحق، وأن وجود الحق ظهر فيها[2]...والمقصود هنا : التنبيه على أن أولئك الجهمية الذين لا يثبتون المباينة يضطرون إلى أن يجعلوا الرب مفتقرا إلى العالم إذا جعلوه حالا فيه مع استغناء العالم عنه، وان جعلوه محلاً له مع أن ذاته لا تباين ذات العالم ، بل تحايثه ،كما هو قولهم ، فإنهم يقولون بأنه لا وجود للرب إلا بوجود العالم ، ولا يمكن وجود الرب بدون وجود العالم ،كما لا يمكن وجود المحل الذي هو الجوهر أو الهيولي بدون ما يحل فيه من الأعراض أو الصورة

---

[1](?) "بيان تلبيس الجهمية" (5/69-70)

[2](?) انظر "الفتوحات المكية" (4/212-213).

فيكون العـالم مقومـاً لوجـود الـربّ ، والـرب محتـاج إليه أيضا ، وهذا أعظم من قدم جميع العالم"[1] .
وقـال أيضـاً: "وكـل من قـال بحلـول اللـه في شـيء من المخلوقــات من النصــارى وغــيرهم يلــزمهم أن يكــون مفتقراً إلى ما حل فيه ، فإنه لا حقيقـة للحلـول إلا هـذا . ولهذا كان ما حـل بقلـوب المؤمـنين من الإيمـان والهـدى والنور والمعرفة مفتقراً إلى قلوب المؤمنين ولا يقــوم إلا بها ، وجميع الصور الذهنية القائمـة بالأذهـان مفتقـرة إلى الأذهان لا تقوم إلا بها ، والشعاع مفتقر إلى محله لا يقوم إلا بــه ، وهكــذا ســائر النظــائر .وهــؤلاء الــذين شــابهوا النصــارى وزادوا عليهم من الكفــر بقــولهم : إن وجــود الخالق وجود كل مخلـوق ، وإنـه قـائم بأعيـان الممكنـات يقولون: إنه مفتقر إلى الأعيان في وجـوده وهي مفتقـرة إليه في ثباتها ، فيجعلون الخالق محتاجاً إلى كل مخلوق ، والمخلـوق محتاجـا إلى الخـالق . ويصرّحون بـذلك كمـا يصرّح بعض النصارى بأن اللاهـوت محتـاج إلى الناسـوت والناسوت محتاج إلى اللاهوت . ومعلوم أن الله غني عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه ، فهو الصمد المستغني عن كل شيء ، وكل شيء مفتقـر إليـه .فمن قال : إنه مفتقر إلى مخلـوق بوجـه مـا فهـو كـاذب مفتر كـافر. فكيـف بمن قـال إنـه مفتقـر إلى كـل شـيء "[2] .
3- أن كلّ آية في القرآن تبين أن للـه مـا في السـماوات والأرض ومابينهما ونحو ذلك فإنهـا تـدلّ على بطلان قـول هؤلاء .
قال شيخ الإسلام :" وأدلة إبطال قول الحولية والاتحاديـة الذين يقولون أنه في كل مكان ونحو ذلك كثيرة ليس هذا موضــعها وكــل آيــة في القــرآن تــبين أن للــه مــا في السموات والأرض وما بينهما ونحو ذلك فإنهـا تبطـل هـذا

---

[1] "بيان تلبيس الجهمية" (46-5/44 ، 49) ، وانظر (5/211-212).
[2] "الجواب الصحيح" (377-4/376)

القول . فإن السموات والأرض وما بينهما وما فيهما إذا كان الجميع له وملكه ومخلوقه امتنع أن يكون شيء من ذلك ذاته ، فإن المملوك ليس هو المالك ، والمربوب ليس هو الرب ، والمخلوق ليس هو الخالق ، ولهذا كان حقيقة قول الاتحادية أن المخلوق هو الخالق والمصنوع هو الصانع لا يفرقون بينهما ، حتى أنه يمتنع عندهم أنه يكون الله رب العالمين ، كما يمتنع أن يكون رب نفسه ، إذ ليس العالمون شيئاً خارجاً عن نفسه عندهم" [1] .

وقال أيضاً: "ان هؤلاء (أي أهل ا لسنة) يقولون : إن الله -تعالى- قد بيّن في غير موضع أنه : خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وبين أن له ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وبيَّن أن الأرض قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه ، وأن كرسيه وسع السماوات والأرض ، وأنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، إلى غير ذلك من الآيات التي فيها بيان أن جميع هذه المشهودات هي مخلوقة لله مملوكة مدبَّرة .وهذه نصوص صريحة في أن الله -تعالى- ليس فيها ؛ لأن الخالق ليس هو المخلوق ، ولا بعض المخلوق ، ولا صفة للمخلوق ، وإذا كان كذلك فمثل هذه النصوص تهدي القلوب وتشفيها ، وتعصمها عن أن يفهم من قوله ﭽﭬﭭﭼ [2] أنه في المخلوقات ، كما يزعم ذلك من يزعمه من الزنادقة والجهمية من الاتحادية والحلولية عموماً وخصوصاً" [3] .

4- "أنه من المعلوم أن رؤية الآدمي له أيسر من اتحاده به وحلوله فيه ، وأولى بالإمكان ، فإذا كانت الرؤية في الدنيا قد نفاها الله ، ومنعها على ألسن

---

[1] (?) "بيان تلبيس الجهمية" (5/52-53)
[2] (?) سورة الحديد ، الآية (4).
[3] (?) "بيان تلبيس الجهمية" (6/18-20).

رسله موسى وعيسى[1] ومحمد –صلوات الله عليهم وسلامه- فكيف يجوز اتصاله بالبشر واتحاده به"[2] .

هذه هي الردود العامّة التي تبيّن بطلان القول بالحلول .

وأما ردود شيخ الإسلام على شبهاتهم :

فإن من أبرز شبهاتهم التي أوردها شيخ الإسلام وردّ عليها :

- احتجاج الحلولية القائلين بأن الله بذاته في كل مكان بنصوص المعية ، كقوله تعالى : ﭽﭬﭭﭮﭯﭰﭼ[3] وقوله : ﭽﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼ[4][5] .

وأجاب شيخ الإسلام عن ذلك بما يلي:

1- أن المراد بالمعية هنا : أن الله مع خلقه بعلمه وهو فوق عرشه . كما فسّرها بذلك سلف الأمة وأئمتها ، ونقل الإجماع على ذلك .

قال شيخ الإسلام –رحمه الله – معلِّقاً على آية المجادلة : " فافتتحها بالعلم وختمها بالعلم فعلم أنه أراد : عالم بهم لا يخفى عليه منهم خافية ، وهكذا فسرها السلف: الإمام أحمد ومن قبله من العلماء ، كابن عباس ، والضحاك ، وسفيان الثوري " [6] .

ونقل –رحمه الله- كلام الأئمة في ذلك منهم :

- ابن أبي شيبة :

---

[1] انظر"الجواب الصحيح" (3/319-320)

[2] "المصدر السابق"(3/320-321).

[3] سورة الحديد ، الآية (4).

[4] سورة المجادلة ، الآية (7).

[5] انظر"مجموع الفتاوى" (2/172) (5/123 ، 228).

[6] "منهاج السنة" (8/378)، وانظر"مجموع الفتاوى" (11/249) ، و"شرح حديث النزول"ص(356-359) ، و"جامع المسائل" ص(104) ، وانظر"الشريعة" (3/1077-1709) ، و "الإبانة" "الكتاب الثالث" (3/153-161).

قال : "فسّرت العلماء ﭽ ﭬ ﭭ ﭼ [1] يعني بعلمـه ، ثم تواترت الأخبار أن الله خلق العرش فاستوى عليه بذاته ، فهو فـوق العـرش بذاتـه ، متخلِّصـاً من خلقـه بائنـاً منهم "[2] .

- أبو بكر الآجري :

قال : "في باب التحذير من مذهب الحلولية : الذي يذهب إليه أهل العلم أن الله على عرشه فوق سـمواته وعلمـه محيـط بكـل شـيء، وقـد أحـاط بجميـع مـا خلـق في السموات العلى، وبجميع ما خلق في سبع أرضـين، ترفـع إليه أعمال العباد. فإن قال قائل: فما معنى قوله تعـالى: ﭽﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟﭼ[3] الآية التي يحتجون بها ؟ قيل له: علمه والله على عرشـه وعلمـه يحيط بهم. هكـذا فَسَّـره أهـلُ العلم . والآية تدلّ أولها وآخرها على أنـه العلم وهـو على عرشه . هذا قول المسلمين" [4] .

- قول أبو عبد الله بن بطة :

قال : "باب الإيمان بأن الله على عرشه بائن من خلقـه ، وعملـه محيـط بخلقـه : أجمـع المسـلمون من الصـحابة والتابعين أن الله على عرشـه فـوق سـماواته ، بـائن من خلقه . فأمّا قوله ﭽ ﭬ ﭭ ﭼ [5] فهو كما قالت العلماء : علمه . وأمّا قوله: ﭽ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ[6] معناه : أنه هو الله في السماوات وهو الله في الأرض، وتصديقه في كتاب الله : ﭽ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﭼ[7] واحتجّ الجهمي بقول الله تعالى : ﭽ ﭙ ﭚ

---

[1] سورة الحديد ، الآية (4).

[2] "بيان تلبيس الجهمية" (5/59) ، وانظر "العرش" ص(288-292)

[3] سورة المجادلة ، الآية (47).

[4] "جـامع المسـائل" (3/159) ، وانظر "مجمـوع الفتـاوى" (5/188-189) ، و "الشريعة" (3/1072-1076).

[5] سورة الحديد ، الآية (4).

[6] سورة الأنعام ، الآية (3)

[7] سورة الزخرف ، الآية (84)

ٻ ٺ ٺ ٿ ٹ ٹ ڇ[1] فقال : إن الله معنا وفينا . وقد فسّر العلماء أن ذلك : علمه . ثم قال في آخرها: ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ "[2].

- قول ابن عبد البر:

"أجمـع علمـاء الصـحابة والتـابعين الـذين حُمـل عنهم التأويل، قولوا في التأويل قوله: ﭽ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭼ[3] هو على العرش ، وعلمـه في كـل مكـان . ومـا خـالفهم في ذلك أحدٌ يُحتج بقوله"[4] .

2- أن سياق الكلام أوله وآخره ، يدلّ على معنى المعيّة ، كما قال تعالى في آية المجادلة ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼ [5] .

فافتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم .

وفي آيــة الحديد قال: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭼ [6] . بعد أن أخبر بخلق السماوات والأرض واستوائه على العـرش ذكـر أنـه يعلم مـا يـدخل في الأرض ومـا يخـرج منهـا ، ومـا يـنزل من السماء وما يصعد فيها ، وأنه مع الخلق أينما كانوا ، فـدّل هذا السياق على أنه مع كونـه اسـتوى على العـرش يعلم باطن الخلق وظـاهرهم ، وهـو معهم لا يغيب عنـه شـيء من أمرهم .

فسياق الآيتين يدلّ على أن المراد بالمعية : معية العلم[7] .

---

[1] (?) سورة المجادلة ، الآية (7)

[2] (?)"جامع المسائل" (3/160)، وانظر "الإبانة" الكتاب الثالث (3/136-143).

[3] (?) سورة المجادلة ، الآية (7)

[4] (?) "جـامع المسـائل" (3/159) ، وانظر "مجمـوع الفتـاوى" (5/193) ، و "التمهيد" (6/130-131).

[5] (?)سورة المجادلة ، الآية (7)

[6] (?)سورة الحديد ، الآية (4)

[7] (?) انظر"منهاج السنة" (8/377-378) ، و "جـامع المسـائل" (3/164-165 ، 168-169)، و"شرح حديث النزول" ص(360)

2- "أن لفــظ "مــع" في لغــة العــرب: إنمــا تــدل على المصاحبة والموافقــة والاقــتران ، ولا تــدل على أن الأول مختلــط بالثــاني في عامّــة مــوارد الاســتعمال . كقولــه تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭼ[1] لم يرد أن ذواتهم مختلطة بذاته . وقوله : ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭼ[2] وكذلك قوله : ﭽ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﭼ[3] وكذلك قوله عن نوح : ﭽ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﭼ [4] وقوله عن نوح أيضاً: ﭽ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ[5] الآية ، وقوله عن هود : ﭽ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﭼ[6] ، وقول قوم شعيب ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭼ[7] ، وقوله: ﭽ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﭼ[8] الآية ، وقــولــه : ﭽ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﭼ[9] وقوله : ﭽ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﭼ[10] وقوله: ﭽ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭼ[11] وقوله عن نوح : ﭽ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﭼ[12] وقوله : ﭽ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﭼ[13] وقوله : ﭽ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﭼ[14] وقوله : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭼ[15] وقال : ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭼ [16] ومثل هذا كثير في كلام الله تعالى، وسـائر الكلام العـربي وإذا كــان لفــظ "مــع" إذا اســتعملت في كــون المخلــوق مــع

---

[1](?) سورة الفتح ، الآية (29)
[2](?) سورة التوبة ، الآية (119)
[3](?) سورة الانفال ، الآية (75)
[4](?) سورة هود ، الآية (40)
[5](?) سورة الأعراف ، الآية (64)
[6](?) سورة الأعراف ، الآية (72)
[7](?) سورة الأعراف ، الآية (88)
[8](?) سورة النساء ، الآية (146)
[9](?) سورة الأنعام ، الآية (68)
[10](?) سورة المائدة ، الآية (53)
[11](?) سورة الحشر ، الآية (11)
[12](?) سورة هود ، الآية (48)
[13](?) سورة الأعراف ، الآية (47)
[14](?) سورة التوبة ، الآية (83)
[15](?) سورة التوبة ، الآية (87)
[16](?) سورة التوبة ، الآية (88)

المخلوق لم تدلّ على اختلاط ذاته بذاته ، فهي أن لا تدلّ على ذلك في حق الخالق بطريق الأولى "[1] .
قال شيخ الإسلام : "إنه ليس ظاهر قوله : ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ [2] أنه في المخلوقات ، ولا أنه مختلط ممتزج بها ، ونحو ذلك من المعاني الفاسدة ، ولا يدلّ لفظ "مع" على هذا بوجه من الوجوه ، فضلاً عن أن يكون ذلك هو ظاهر ذلك اللفظ ، وذلك أن اللفظ "مع" قد استعمل في القرآن في مواضع كثيرة ، وفي سائر الكلام ، ولا يوجب في عامّة موارده أن يكون الأول في الثاني ، ولا مختلطاً ، ومعنى اللفظ وظاهره إنما يؤخذ من موارد استعمالاته
(ثم ذكر آيات كثيرة في ذلك) ثم قال:"فهذه المواضع الكثيرة التي وصف الله بأن المخلوق مع المخلوق لم يوجب ذلك أن يكون الأول في الثاني ، ولا ذاته مختلطة أو ممتزجة بذاته أصلاً، ولا أن يكون محايثاً له ، فكيف إذا وصف الرب نفسه بأنه مع عباده عموماً وخصوصاً يقال : إن ظاهر ذلك أن ذاته فيهم ، أو ممتزجة مختلطة بهم؟ وذلك لأن "مع" ظرف مكان ، معناها المصاحبة والمقارنة والموافقة ، فإذا قيل : هذا مع هذا كان التقدير: أنه في مكان أو مكانة لها اتصال بالثاني ، بحيث يكونان مقترنين مصطحبين متفقين ، وهذا معنى قول من يقول من النحاة: إن "مع" للمصاحبة ثم ذلك الاقتران يدلّ على أمور أخرى تكون من لوازم الاقتران . فالله سبحانه إذا قيل: إنه مع خلقه ، فمن لوازم ذلك : علمه بهم ، وتدبيره لهم ، وقدرته عليهم . وإذا كان مع بعضهم خصوصاً كان في السياق ما يبيّن أنه ناصر لهم معين لهم . ولهذا جاءت المعية في كتاب الله عامّة وخاصّة ، لكن ذلك من خصوص التركيب والسياق ، وإلاّ فالقدر المشترك بين مواردها هو ما تقدم "[3] .

---

[1] "منهاج السنة" (8/375-377).
[2] سورة الحديد ، الآية (4).
[3] "بيان تلبيس الجهمية" (6/20-24)ـ ، وانظر "الفتوى الحموية" ص(519-521)ـ ، و "مجموع الفتاوى" (3/142)ـ (

4- إخبار الله في القرآن أنه مع عباده جـاء عامّـا وخاصّـاً، فالعامّ كآيتي الحديد والمجادلة. والخــاص : كقوله تعــالى لموسى وهارون : ﭽﯜﯛ ﯚ ﯙ ﯘ ﯗ ﯖ ﭼ[1] فهذا تخصيص لموسى وهارون دون فرعون وقومـه ، فهـو مـع موسـى وهـارون دون فرعون .

وقوله تعالى عن النبي –صلى الله عليه وسلم- : ﭽﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﭼ[2] فهو مع النبي –صلى الله عليه وسلم- وصاحبه ، لا مع الكفار كأبي جهل وأمثاله . وكذلك قوله تعالى : ﭽﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﭼ[3] فهذا تخصيص لهم دون الفجار والظالمين.

وكـذلك قولـه تعـالى : ﭽ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﭼ[4] تخصـيص لهم دون الجازعين .

فلو كان معـنى المعيـة أنـه بذاتـه في كـل مكـان تنـاقض الخبر الخاص والخـبر العـام ، بـل المعـنى أنـه مـع هـؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك[5] .

قال شيخ الإسلام :" وفي ذكره سبحانه للمعية عامّة تارة وخاصّة أخرى ما يدلّ على أنه ليس المراد بذلك أنه بذاته في كل مكان، أو أن وجوده عين وجود المخلوقات، ونحو ذلك من مقـالات الجهمية الـذين يقولـون بـالحلول العـام والاتحاد العام أو الوحـدة العامـة؛ لأنه على هـذا القـول لا يختص بقوم دون قوم، ولا مكـان دون مكـان ، بل هو في الحشوش على هذا القول وأجـواف البهـائم كما هو فـوق العرش ، فإذا أخبر أنه مع قوم دون قوم كان هذا مناقضا لهـذا المعـنى ؛ لأنه على هـذا القـول لا يختص بقـوم دون

(11/249)ـ ، و "شـرح حـديث الـنزول" ص(360)ـ ، و "جـامع المسائل" (3/161-162 ، 166 ، 168)

(?)[1] سورة طه ، الآية (46).

(?)[2] سورة التوبة ، الآية (40).

(?)[3] سورة النحل ، الآية (128).

(?)[4]سورة البقرة ، الآية (153).

(?)[5] انظر "جـامع المسـائل" (3/163-164)ـ ، و "شـرح حـديث النزول" ص (359-360) ، و"مجموع الفتاوى" (11/249-250) ، و "منهاج السنة" (8/373-374).

قوم ولا مكان دون مكان، بل هو في الحشوش على هـذا القول كما هو فوق العرش والقـرآن يـدل على اختصـاص المعية تارة وعمومها أخرى ، فعلم أنه ليس المـراد بلفظ المعية اختلاطه"[1] .

المطلب الأول: تعريف الاتحاد .

الاتحـاد هو "صيرورة الذاتين أو الذوات واحدة ، ولا يكون إلاَّ في العدد من اثنين فصاعداً"[2] .

وفي المعجم الفلسفي : "امتزاج شيئين أو أكـثر في كـل متصل الأجزاء" [3] .

وحقيقة الاتحاد أن يحصل من اتحاد الشيئين أمر ثالث ، لا هو هـذا ولا هـذا ، كمـا إذا اتحـد المـاء واللبن ، فيصـيران نوعاً ثالثاً، لا هو ماء محض ولا لبن محض ، فإن المعقـول مع الاتحاد أن يختلطا ويستحيلا[4] .

والمراد بالاتحاد هنا ما ذكره شـيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- بقوله : "وهو أن الخلق اتحد مع المخلوق" [5] .

---

[1] "منهاج السنة" (8/374-375).

[2] "دستور العلماء" (1/28-29) ، وانظر "التعريفات" ص(6).

[3] "المعجم الفلسفي" ص(2) .

[4] انظر "الجـواب الصـحيح" (2/48)، (4/386) ، و"مجمـوع الفتـاوى" (2/387)، (5/278) ، و"الـردّ على الشـاذلي" ص(180) .

[5] "مجموع الفتاوى" (13/196) .

المطلب الثاني: أنواع الاتحاد .

ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله- نوعين من الإتحاد :
الأول: مايعبّر عنه بالاتحاد الوصفي ونحو ذلك .
الثاني : اتحاد باطل[1] .

أما الأول: فقد أطلق عليه شيخ الإسلام الاتحاد الوصفي ، والاتحاد الوضعي[2] ، والاتحاد السائغ[3] ، والاتحاد النوعي الحكمي[4] . والمراد بالاتحاد هنا : موافقة إرادة العبد لإرادة الرب الشرعية ، والاتحاد بهذا المعنى ليس هو الاتحاد الذي يذكره المتصوفة .

قال شيخ الإسلام : " الاتحاد الوصفي وهو : أن يحب العبد ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويرضى بما يرضي الله، ويغضب لما يغضب الله، ويأمر بما يأمر الله، وينهى عما ينهى الله، ويوالي من يواليه الله، ويعادي من يعاديه الله، ويحب لله، ويبغض لله، ويعطي لله، ويمنع لله، بحيث يكون موافقا لربه تعالى . فهذا المعنى حق ، وهو حقيقة الإيمان وكماله ، كما في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: " يقول الله تعالى : من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرّب إلّي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه،

---

[1] انظر "مجموع الفتاوى" (2/381 ، 394 ، 396) ، و "الجواب الصحيح" (3/343) .
[2] انظر "مجموع الفتاوى" (2/377) .
[3] انظر "المصدر السابق" (2/ 389) .
[4] انظر " المصدر السابق " (2/ 461) .

وما تـرددت عن شـيء أنا فاعله تـرددي عن قبض نفسي عبدي المؤمن ، يكره المـوت وأكـره مسـاءته ، ولا بـدّ له منه "[1][2] .

وقال معلِّقاً على حديث الولي السابق : " فولي الله فيــه من الموافقة لله ما يتحد به المحبوب والمكروه والمأمور والمنهي ونحو ذلـــك ، فيبقى محبـــوب الحق محبوبـــه ، ومكـــروه الحق مكروهه ومـــأمور الحق مـــأموره ، وولي الحق وليه ، وعــدو الحق عــدوه ، بل المخلــوق إذا أحبّ المخلوق محبّة تامّة حصل بينهما نحواً من هذا ، حــتى قد يتألم أحدهما بتألم الآخر ، ويلتذ بلذته. ولهـذا قـال -صـلى الله عليه وسلم- : "مثل المؤمنين في توادهم وتــراحمهم وتعـــاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشـــتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسـهر" [3] . ولهـذا كـان المؤمن يسره ما يسر المؤمنين ، ويسوءه ما يسوءوهم ، ومن لم يكن كذلك لم يكن منهم. فهذا الاتحـاد الـذي بين المؤمنين: ليس هو أن ذات أحدهما هي بعينها ذات الآخر، ولا حلّت فيه ، بل هو توافقهما واتحادهما في الإيمـــــان بالله ورسـوله وشـعب ذلـك ، مثل محبة الله ورسـوله ، ومحبة ما يحبه الله ورسـوله. فـإذا كـان هـذا معقـولا بين المؤمنين . فالعبد إذا كـان موافقـاً لربه تعـالى فيما يحبه ويبغضه ويـــأمر به وينهى عنه ونحو ذلك مما يحبه الــرب من عبـده كيف تكـون ذات أحـدهما هي الأخـرى أو حالة فيها؟! "[4] .

---

[1] سبق تخريجه ص (119) .
[2] "مجموع الفتاوى" (2/340-341).
[3] أخرجه مسلم في صحيحه ح (6586).
[4] "مجموع الفتاوى" (2/373-374) .

وأمّا الاتحـاد الباطل " اتحـاد الخـالق مـع المخلـوق " فقــد قسّــمه شــيخ الإســلام باعتبــار العمــوم والإطلاق والتخصيص والتقييد إلى قسمين :
الأول: الاتحاد الخاص المقيد .
وهو قول يعقوبية[1] النصارى الذين يقولـون : إن اللاهـوت والناسوت اختلطـا وامتزجـا كـاختلاط اللبن والمـاء ، وهـو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام .
الثاني : الاتحاد العام المطلق .الذي هو قـول أهـل وحـدة الوجـود كـابن عـربي وأمثالـه الـذين يزعمـون أن وجـود المخلوق هو عين وجود الخالق [2] .

المطلب الثالث : القائلون بالاتحاد وبيان تقريراتهم ، والردّ عليهم .

شيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- لمّـا ذكـر أنـواع الاتحـاد ذكـر القائلين بالاتحاد الخاصّ المقيد ، والقائلين بالاتحـاد العـامّ المطلق ، وقد سبق ذلك[3] .

---

[1] (?) اليعقوبية : ينســبون إلى يعقــوب البرذعــاني ،وكــان راهبا بالقســطنطينية . قــالت : إن المســيح هو الله نفسه ، وإن الله مات وصلب وقتل ، وإن العالم بقي ثلاثة أيـام بلا مـدبر ، والفلك بلا مــدبر ، ثم قــام ورجع كما كــان ، وأن الله عــاد محــدثاً، وإن المحدث عاد قديماً . انظر "الفصل" (1/65-66).
[2] (?) انظر "مجمـوع الفتـاوى" (2/171-172 ، 296 ، 364 ، 367 ، 465-466) (3/391-393) ، و "التحفة العراقية" ص(393-395) ، و "الجـواب الصـحيح" (1/97-98) ، و "منهـاج السنة" (5/335 ، 338) ، و "الرد على الشاذلي"ص(174).
[3] (?) انظر ص (650-652) .

وذكر شيخ الإسلام أيضاً: تقريرات الاتحادية أهل وحدة الوجود والفروق بينهم ، فإنهم وإن اتفقوا على القول بالاتحاد العام المطلق إلاَّ أن بينهم فروقاً في التفاصيل. فإنهم " يدّعون أن الوجود واحد ، فلا يتميز وجود مبدع عن وجود مبدع ، ولا وجود خالق عن وجود مخلوق وهم يصرّحون بهذا في كتبهم وفي كلامهم ، ولكنهم في حيرة وضلال ، فإنهم إذاً يشهدون أن بين الموجودات تبايناً وتفرقاً فيريدون أن يجمعوا بين ما ادّعوه من وحدة الوجود وبين التعدد للموجود فاضطربوا في ذلك "[1] .

فأمّا ابن عربي :

فإن مقالته مبنية على أصلين :

1- أن المعدوم شيء ثابت في العدم ، موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة إلا أنهم يعترفون بأن الله خلق وجودها ، ولا يقولون إن عين وجودها عين وجود الحق . وأمّا ابن عربي فيقول : عين وجودها عين وجود الحق ، فهي متميّزة بذواتها الثابتة في العدم متحدة بوجود الحق القائم بها.

2- أن وجود المحدثات المخلوقات هو عين وجود الخالق ، ليس غيره ولا سواه[2].

وهو يفرّق بين الوجود -وجود الحق- ، وبين الثبوت -ثبوت الممكنات في العدم- .

ويرى ابن عربي أن وجود الحق قاض على ثبوت الممكنات ، فيصحّ الاتحاد بين الوجود والثبوت [3] . ويقول أيضاً : بالحلول بين الثبوت والوجود .

---

[1] "بغية المرتاد" ص(394-395) ، وانظر "درء التعارض" (9/255) ، و "مجموع الفتاوى" (2/142 ، 466) ، و "جامع المسائل" (4/418-419) .

[2] انظر "مجموع الفتاوى" (2/143-144 ، 160 ، 469-470) ، و "درء التعارض" (6/163-164) ، و "الجواب الصحيح" (4/300) ، و "بغية المرتاد" ص(395).

[3] انظر "مجموع الفتاوى" (2/141).

قـال شـيخ الإسـلام : "ثم من هـؤلاء (أي الاتحاديـة) من يفرّق بين الوجود والثبوت كما يقوله ابن عـربي ، ويـزعم أن الأعيان ثابتة في العـدم ، غنيـة عن اللـه في أنفسـها ، ووجود الحق هو وجودها ، والخالق مفتقر إلى الأعيان في ظهــور وجــوده بهــا ، وهي مفتقــرة إليــه في حصــول وجودها ، الذي هو نفس وجوده ، وقوله مـركّب من قـول من قــال : المعــدوم شــيء ، وقــول من يقــول : وجــود الخالق هو وجود المخلوق ، فالوجود المخلوق هو الوجــود الخالق ، والوجود الخالق هو الوجود المخلوق " [1] .

وقــال : "ثم إن صـاحب الفصـوص وهو مع كونه إمـامهم فهو أبعــدهم عن محض الإلحــاد، لما يوجد في كلامه من لبس الحق بالباطل، يفـرّق بين الوجـود والثبـوت فيقـول: إن الأشياء ثابتة بأعيانها في العدم ونفس الوجود الفـائض عليها هو وجـود الحـق ، فيوافق من يقـول : إن المعـدوم شيء في الخارج، لكن يجعل وجـود الكائنـات عين وجـود الحــق، ولا يجعل وجــودا متمـيزا عن المخلـوقين، ولهـذا يضـطرب فيجعله هو هو من وجـه، وهو غـيره من وجـه ؛ لأن الفرق بين الوجود والثبوت فرق باطل"[2] .

وقـال معلِّقـاً على أبيـات لابن عـربي : "وهـذا يشـير إلى الحلـول ، وهو حلـول الحق في الخلق لكنه متنـاقض في كلامــه، فإنه لا يرضى بــالحلول، ولا يثبت موجــودين حــلّ أحدهما في الآخر، بل عنـده وجـود الحـال هو عين وجـود المحل ، لكنه يقول بالحلول بين الثبوت والوجود، فوجــود الحق حل في ثبـوت الممكنـات، وثبوتها حل في وجـوده، وهذا الكلام لا حقيقة له في نفس الأمر، فإنه لا فـرق بين هذا وهذا، لكنه هو مذهبه المتناقض في نفسه"[3] .

وقــال : "ابن عــربي يجعل الوجــود الــذي هو حــال في الثبوت والثبوت محل له : هو وجود الحق كما تقــدم. فهو وإن كــان يقــول بــأن الوجــود واحد فهو يقــول بالإتحــاد

---

[1] "المصدر السابق" (2/294-295) .

[2] "بيان تلبيس الجهمية" (6/613-614).

[3] "مجموع الفتاوى" (2/308)

والحلول من هذا الوجه.ولا ريب أن القـولين متناقضـان ، وهو يذكر تناقض ذلـك ، ويشـير إلى أن ذلك هو الحـيرة ، وهو أعلى العلم"[1][2] .
وابن عـربي يفـرّق بين المظـاهر والمـراتب والمجـالي ، وبين الظاهر والمتجلّي ، فالمظـاهر والمـراتب عنـده هي الأعيان الثابتة في العدم ، وأما الظاهر فهو وجود الحق .
وهــو يقــول : الوجــود واحــد ، ثم يثبت تعــدد الأعيــان ، ويقول : هي مظاهر وجالي.[3][4]

وأمَّا الصدر الرومي القونوي:

فإنه وسائر الاتحادية لا يفرِّقون بين الوجود والثبــوت ، ولا يقولون : إن المعدوم شيء.
والقونوي يفرِّق بين الوجـود المطلـق والمعين ، ويقـول : الحق هـو الوجـود المطلـق الـذي لا يتعيّن ، فـإذا تعيَّن لم

---

[1](?) "بغية المرتاد" ص(418).
[2](?) وانظر في بيان قـول ابن عـربي أيضـاً: "مجمـوع الفتـاوى" (2/112-115 ، 185 ، 451)، (11/241/242)، (13//203-204) و "الرد على الشاذلي" ص(143)، و "التسعينية" (2/425)، و "درء التعارض" (9/255) ، و "جامع المسائل" (4/419-420) .
[3](?) انظر "مجمــوع الفتــاوى" (2/114 ، 160)، و "جــامع المسائل" (4/420)، و "بغية المرتاد" ص(407)، و"الجواب الصحيح" (4/299).
[4](?) انظر أقـــوال ابن عـــربي من كتبه : "فصـــوص الحكم مع الشرح" ص(19-25 ، 37 ، 45 ، 60 ، 78 ، 80-91 ، 108 ، 116 ، 164-166 ، 177 ، 180-181 ، 241-242 ، 298 ، 306)، و "الفتوحات المكيـة" (1/408) (2/92-93)، (4/85 ، 132 ، 135 ، 204 ، 212 -213 ، 408).

يكن هو الحق . وعلى قوله : ليس لله وجود إلاَّ مـا يقـوم بالمخلوقات فلو زالت لزال وجودها[1] .
قال شيخ الإسلام : "والقونوي أعرض عن كـون المعـدوم ثابتاً في العدم ، فإن هذا القول معلوم الفساد عند الأئمة في المعقول والمنقـول، ولكن سـلك طريقا هي أبلـغ في التعطيل مضمونها: أن الحق هو الوجود المطلق، والفـرق بينه وبين الخلق من جهة التعـيين، فـإذا عيّن كـان خلقـا، وإذا أطلق الوجود كان هو الحق"[2] .
وقـال : "فجـاء بعـده (أي ابن عـربي) من أتباعـه مثـل القونوي ونحوه ، من لم يسلك هذا المسلك (أي مسـلك ابن عـربي السـابق) ، بـل فـرّق بين الوجـود المطلـق والمعيّن ، فجعـل الحـقّ الوجـود المطلـق السـاري في الموجودات ، وأما المعيّن فهو الخلق . ومن المعلـوم أنـه ليس في الخارج وجـود مطلـق سـوى الموجـود المعيّن ، فهـو أراد أن يفـرّق بين الحـق والخلـق ، فلم يفـرّق في الحقيقة بل اضطرب كما اضطرب استاذه"[3].
وقـال عن القونـوي : "فلما رأى أن التفريق بين وجـود الأشـياء وأعيانها لا يسـتقيم، وعنـده أن الله هو الوجـود، ولابد من فرق بين هذا وهذا، فـرّق بين المطلق والمعيّن، فعنده أن الله هو الوجود المطلق الذي لا يتعيّن ولا يتميّز، وأنه إذا تعيّن وتميّز فهو الخلـق، سـواء تعيّن في مرتبة الإلهية أو غيرها"[4].

والقونوي يفرّق بين المظاهر والمجالي والمراتب ، وبين الظاهر المتجلي ، ويجعل المظـاهر والمـراتب والمجـالي

---

[1] انظر "جامع المسائل" (4/420).
[2] "بغية المرتاد" ص(49-410).
[3] "بيان تلبيس الجهمية" (6/614-615).
[4] "مجمـوع الفتـاوى" (2/161) ، وانظر (2/295 ، 471) (11/242) ، و"الجواب الصحيح" (4/306-307) و "التسعينية" (2/724-725) ، و "الردّ على الشاذلي" ص(143) .

في المعيّنات ، كما جعلها ابن عـربي في الأعيـان الثابتـة في العدم. [1][2]

وأمَّا التلمساني ونحوه :

فهــو لا يفــرِّق بين الوجــود والثبــوت ، ولا بين المطلــق والمعيّن ، بــل عنــده مــا ثمّ ســوى ولا غــير بوجــه من الوجوه ، وإنما الكائنات أجزاء منـه وأبعـاض لـه ، بمنزلـة أمواج البحر في البحر ، وأجزاء البيت في البيت .

ولا يفـرّق التلمسـاني بين المظـاهر والظـاهر ، ولا يجعـل الكثرة إلاّ في ذهن الإنسان لمّـا كـان محجوبـاً عن شـهود الحقيقة ، فلمّا انكشـف غطـاؤه عـاين أنـه لم يكن غـير ، وأن الرائي عين المرئي ، والشاهد عين المشهود[3] .

قال شيخ الإسـلام : "وأما الفـاجر التلمسـاني: فهو أخبث القــوم وأعمقهم في الكفــر؛ فإنه لا يفــرّق بين الوجــود والثبـوت كما يفـرّق ابن عــربي ، ولا يفـرّق بين المطلق والمعين كما يفـرّق الـرومي ، ولكن عنـده ما ثَمَّ غـير ولا سوى بوجه من الوجـوه. وأن العبد إنما يشـهد السـوى ما دام محجوبــاً ، فــإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثَمَّ غـــير ..."[4] .

وقال : "وأمـا التلمسـاني وغـيره فعنـدهم مـا ثَمَّ غـير ولا ســوى بوجــهٍ من الوجــوه ، ولا يفرِّقــون بين المطلــق والمعيّن ، والوجود والثبوت ، بل هو اللـه عنـدهم كـالبحر وأمواجه ، وهم تارة

---

[1] انظر "مجمــوع الفتــاوى" (2/168 ، 372)ـ ، و"جــامع المسائل" (4/420).

[2] انظر أقوال القونوي من كتبه "شرح الأسـماء الحسـنى" ص(106 ، 119-121 ، 139-140، 164-165 ، 168 ، 249-250 ، 256 ، 272 ، 274 -275 ، 286 ، 288 ، 317 ، 321-322 ، 327 ، 343-344 ، 346 ، 366 ، 375 ، 383-384) .

[3] انظر "مجموع الفتاوى" (2/169-170).

[4] "المصدر السابق" (2/471- 472).

يشـبهون اللـه بالشـمع والفضـة الـذي يظهـر في صـور مختلفة وهو هو "[1] .

وقـد ذكـر شـيخ الإسـلام أن ابن الفـارض في آخـر "نظم السلوك" قـال بوحـدة الوجـود وأنـه مـا ثَمَّ غـير "لكن لم يصرِّح هل يقول بمثل قول التلمساني ، أو قول الرومي ، أو قول ابن عربي ؟ وهو إلى كلام التلسماني أقرب"[2] .

وأما ابن سبعين:

فهـو يجعـل الخـالق مـع المخلـوق كالمـادة مـع الصـورة والصورة مع المادة ، ولهذا يقول : "وإن الله في النار نار ، وفي الماء ماء ، وفي الحلو حلو ، وفي المرّ مـرّ ، وأنـه في كـل شـيء تصـوره ذلـك الشـيء"[3] . قـال شـيخ الإسلام :" وابن سبعين يجعل وجود الحق هو الثابت بـدءاً الذي هو كالمـادة، والخلق هو المنتقل الـذي هو الصـورة، فهو وإن قـال : بـأن الوجـود واحد فهو يقـول بالاتحـاد

---

[1] "جـامع المسـائل" (4/420)ـ ، وانظر "مجمـوع الفتـاوى" (2/80 ، 185-186 ، 372 ، 450-451 ، 473-474)ـ ، و"التسعينية"(2/724-725)ـ ، و"الجواب الصـحيح" (4/309)ـ ، و"بغية المرتاد" ص(424) ، و"درء التعارض" (9/256) ، و "بيان تلـبيس الجهميـة" (6/615-616).وانظر " ديـوان التلمسـاني"(1/68، 161-162، 196، 217، 230-235) ،"وشـرح مواقف النِّفَّري" ص (21-22، 24، 32-33، 82، 100-101، 140، 182، 203-206، 213-215، 248-249، 268، 333-334، 396).

[2] "مجمـوع الفتـاوى" (2/472)ـ ، وانظر "درء التعـارض" (6/168-169)ـ ، وانظر "نظم السلوك" ضمن "شرح ديوان ابن الفارض" ص(45-46 ، 50-57 ، 61 ، 64 ، 88-91).

[3] انظر "درء التعارض" (6/163 ، 168)ـ (9/256)ـ ، و "بغية المرتاد" ص(411-412 ، 417-421 ، 437-438)ـ ، و "الجواب الصـحيح" (4/315)ـ ، و "مجمـوع الفتـاوى" (2/295-296)ـ ، و"الـرد على الشـاذلي" ص(143)ـ ، وانظر "الألـواح " ضـمن رسائل ابن سبعين"ص (251) .

والحلول من هذه الوجه ، لكن الحق عنده محلّ للخلــق ، وعلى قول ابن عربي حال في الخلق"[1] .
وتــارة يجعلــه الوجــود المطلــق الــذي تتعــاقب عليــه الموجودات المعيّنات ، ويجعل الموجودات المعيّنة بمنزلة الماهيّات ، وإن لم يجعلها ثابتة في العدم[2] [3] .
هذه هي أقوال الاتحادية الـتي جمعـوا فيهـا بين التعطيـل الصريح ، والإفك القبيح ، وبين التناقض ،كمـا قـال شـيخ الإسلام موضِّحاً ذلك ، وموضِّحاً حقيقة أقوالهم ، والسبب الذي دعاه إلى التمييز بينها :
"فهم بين أن يجعلوه (أي الرب تعالى) جملة المخلوقات، أو جــزءاً من كل مخلــوق ، أو صــفة لكل مخلــوق، أو يجعلونه عـدماً محضـاً لا وجـود له إلا في الأذهـان لا في الأعيـان. ثم هم مع هـذا التعطيل الصـريح والإفك القـبيح يتناقضون ، ولا يثبتون على مقام، ولهذا رأيت كلامهم كله مضطرباً لا ينضبط، لما فيه من التنــاقض، ولكن لما كنت أبينه وأوضـحه أذكر القواعد العلمية الـتي يعـرف النـاس حقيقة ما يمكن حمل كلامهم عليه ، وميّزت بين قول هذا وقول هذا ، وبيّنت ما فيه من التناقض ، حتى أطلع الناس على ما هم فيه من الكفر والهذيان ، مع دعواهم التحقيق والعرفــان ، وتعظيم النــاس لهم ، وهيبتهم لهم ، وظنهم أنهم من كبـار أوليـاء الله العـارفين وسـادات المحققين ، وإنما هم بالنســبة إلى هــؤلاء كالمنتســبين إلى الأئمة الصادقين"[4].
وبيَّن –رحمه الله- أن هذا التفصيل الـذي يـذكره لمـذهب هؤلاء الاتحادية أكثرهم لا يفهمونه وبيَّن السبب في ذلك .

---

[1] (?) "بغية المرتاد" ص(418).
[2] (?) انظر "بغية المرتاد"ص(422-423 ، 431-432 ، 437) .
[3] (?) انظر أقــوال ابن ســبعين من كتبه :"بد العــارف"ص (298-299، 302، 321، 323-325، 327)،و"الإحاطة "ص (194-195، 209-210، 212)،و"الألــواح"ص(251).جميعها ضــمن رسائل ابن سبعين" .
[4] (?) بغية المرتاد ص (432).

قـال -رحمـه اللـه- : "وهـذا التفصـيل الـذي نـذكره نحن لمذاهب هؤلاء أكثرهم لا يفهمونـه ، ولعـلّ فاضـلهم يفهم بعض مـذهب نفسـه فقـط ؛ لأنهـا أقـوال هي في نفسـها متناقضـــة ، فاضـــطربوا كمـــا اضـــطربت النصـــارى في الأقانيم[1] وفي الحلول والاتحاد ، وهذا شـأن الباطـل كمـا قال تعالى : ﭽﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭼ[2] وكما قال تعالى : ﭽﭺﭻﭼﭽ ﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﭼ[3] "[4] .

الردّ عليهم :

إن تصـور مـذهب هـؤلاء الاتحاديـة كـافٍ وحـده في بيـان بطلانه ، ولهذا يقـول شـيخ الإسـلام : "اعلم - هـداك الله وأرشدك - أن تصور مذهب هؤلاء كافٍ في بيان فساده لا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر، وإنما تقع الشبهة ؛ لأن أكثر النـاس لا يفهمـون حقيقة قـولهم وقصـدهم؛ لما فيه من الألفـاظ المجملة والمشـتركة ، بل وهم أيضـاً لا يفهمون حقيقة ما يقصـدونه ويقولونـه ، ولهـذا يتناقضـون كثيرا في قولهم ، وإنما ينتحلون شيئا ويقولونه أو يتبعونه. ولهـــذا قد افـــترقوا بينهم على فـــرق ، ولا يهتـــدون إلى التميـيز بين فـرقهم ، مع استشـعارهم أنهم مفـترقون ... وكـــلّ من يقبل قـــول هـــؤلاء فهو أحد رجلين: إما جاهل

---

[1] الأقانيم : قال الجوهري : "الأقانيم : الأصول ، واحـدها أُقنُـوم ، وأحسبها رومية" "الصـحاح" (4/1633) ، وقيل : إنها يونانية . والنصـارى مضـطربون في تفسـير الأقـانيم ، تـارة يقولـون : أشخاص ، وتارة خواص ، وتـارة صـفات ، وتـارة جـواهر ، وتـارة يجعلون الأقنوم اسماً للذات والصفة معاً، وهذا تفسير حذاقهم . وهم يزعمـــون أن الله ذو ثلاثة أقـــانيم : الأب ، والابن ، وروح القدس . انظر "الجواب الصحيح" (3/200) (4/95) ، و "دستور العلمـــاء" (1/104) ، و "دراســـات في الأديـــان .اليهودية والنصرانية" ص(204) وما بعدها .

[2] سورة الذاريات ، الآية (8-9) .

[3] سورة النساء ، الآية (82)

[4] "جامع المسائل" (4/421-422) ، وانظر "مجموع الفتاوى" (2/138).

بحقيقة أمـــــرهم ، وإما ظـــــالم يريد علــــواً في الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين ..."[1] .

ومع ذلك فإن شـيخ الإسـلام لم يقتصـر على ذلـك بـل ردّ عليهم بأوجه متعددة هي ما يلي:

1) أن النصوص القرآنيـة الـتي تثبت الغيريـة تبطـل قـول هؤلاء .

قال شيخ الإسلام : " وقول القائل: " ما ثَمَّ غير " إن أراد به ما يريـده أهل الوحـدة أي : ما ثَمَّ غـير موجـود سـوى الله: فهــذا كفر صريح. ولو لم يكن ثَمَّ غير لم يقل: ﭽﮞ ﭞ ﮟ ﭨ ﭼ[2] ولم يقل ﭽ ﮬ ﮭ ﮮ ﭼ[3] فإنهم كانوا يأمرونه بعبادة الأوثان فلو لم يكن غير الله لم يصحَّ قوله: ﭽ ﮬ ﮭ ﮮ ﭼ[4] ولم يقل: ﭽ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﭼ[5] ولم يقل الخليل ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﭼ[6] ولم يقـــل:ﭽ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﭼ[7] فإن إبراهيم لم يعاد ربه ، ولم يتبرأ من ربه ، فإن لم تكن تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها هم وآباؤهم الأقدمون غـير الله: لكــان إبــراهيم قد تــبرأ من الله وعــادى اللـــه ، وحاشا إبراهيم من ذلك "[8] .

2) أن فطرتهم تشهد بفساد قولهم ، وبتعدد الوجود .

قـال شـيخ الإسـلام : "وهـؤلاء يشـهدون وحـدة الوجـود، وفطـرتهم تشـهد بتعـدد الوجـود، فلهـذا كلامهم دائر بين فطـرتهم السـليمة ومـذاهبهم الذميمة. ولقد حضر عنـدي منهم شــيخ من شــيوخهم وطلب مـــني شــيئاً، فجعلت

---

[1] "مجمـوع الفتـاوى" (2/138) ، وانظر "بغية المرتـاد"ص(423).

[2] سورة الأنعام ، الآية (14) .

[3] سورة الزمر ، الآية (64) .

[4] سورة الزمر ، الآية (64) .

[5] سورة الأنعام ، الآية (114) .

[6] سورة الشعراء ، الآية (75-77) .

[7] سورة الزخرف ، الآية (26-27) .

[8] "مجموع الفتاوى" (2/376) ، وانظر "الإيمان الأوسط" ص(517-518).

أستنطقه هذا المذهب ليسمعه الحاضرون، فإن من الناس من ينكر وجود هؤلاء مع كثرتهم ، لفساد مذهبهم في العقل ، وكان قد طلب درهماً فقلت له: من الطالب؟ فقال: هو الله، قلت: والمطلوب؟ قال: هو الله قلت: والدرهم؟ قال هو الله!! وكان هناك فرُّوج وسكين، فقلت: والفرُّوج والسكين؟ فقال : هو الله ! فجعل يقول: إني مريض فأعطني، فقلت له: المعطِي غير المعطَى أو لا؟ من هو الذي يعطيك؟ وأمثال هذا الكلام الذي أبيّن به تناقض قولهم ؛ ليظهر له فساده . وتَوَّبتُه بعد ذلك، فضجر في أثناء الكلام، ورفع بصره إلى السماء ، وقال : يا الله، فقلت: إلى من ترفع؟ وعلى مذهب المحققين -أعني أصحابه- ما هناك شيء؟! فقال: أستغفر الله أخطأت، فصار بفطرته يقرّ بأن الله فوق ، ومذهبه يأمره بأن ينكر أن يكون فوق العالم شيء ، وهو حائر بين فطرته التي فُطر عليها، ومذهبه الذي تلقّاه من شيوخه "[1].

3) أن هؤلاء الاتحادية هم من أكثر الخلق تناقضاً، وهم مخلطون تخليطاً عظيماً " فإنهم يقولون ما ثَمَّ غير ولا سوى ، وتقول السبعينية[2] : ليس إلاّ هذا ، بدل قول المسلمين : لاإله إلاّ الله ، ثم يقولون : هؤلاء المحجوبون لايرون إلاّ هذا ، فإذا كان ما ثَمَّ غير ولا سوى فمن المحجوب ومن الحاجب؟ ومن الذي ليس بمحجوب وعمّ حجب؟ فقد أثبتوا أربعة أشياء: قوم محجوبون ، وقوم ليسوا بمحجوبين ، وأمراً انكشف لهؤلاء ، وحجب عن أولئك. فأين هذا من قولهم ما ثَمَّ اثنان ولا وجودان؟ كما حدثني الثقة أنه قال للتلمساني: فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمّه وابنته؟ قال: نعم ! الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام ، فقلنا :

---

[1] "الردّ على الشاذلي" ص(156-157).
[2] المراد : ابن سبعين وأصحابه . انظر "مجموع الفتاوى" (2/306).

حرام عليكم . فقيل لهم: فمن المخاطب للمحجوبين أهو هم أم غـيرهم؟ فـإن كـانوا هم فقد حـرّم على نفسه لما زعم أنه حـرام عليهم دونـه ، وإن كـانوا غـيره فقد أثبت غيرين ، وعندهم ما ثَمَّ غير"[1] .

ومن قال من الاتحاديـة بالمظـاهر والمجـالي " قيـل : إن كـان لها وجـود غـير وجـود الظـاهر والمتجلي ، فقد ثبت التعدد وبطلت الوحدة ، وإن كان وجود هذا هو وجود هذا: لم يبق بين الظـاهر والمظهر والمتجلي فيـه : فـرق"[2] ، وبطل التعدد[3] .

قال شيخ الإسلام : "والاستشـهاد بـالقرآن عند المؤمـنين الـذين يقـرّون به باطنـاً وظـاهراً. وأما هـؤلاء الملاحـدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمسـاني منهم - وهو أحـذقهم في اتحــادهم - لما قــرئ عليه " الفصــوص " فقيل له: القرآن يخالف فصوصكم. فقال: القـرآن كله شـرك وإنما التوحيد في كلامنا. فقيل له: فإذا كان الوجـود واحـداً فلم كـانت الزوجة حلالاً والأخت حرامـا؟ فقـال: الكل عنـدنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام ، فقلنا : حرام عليكم. وهـذا مع كفـره العظيم متنـاقض ظـاهر ، فـإن الوجـود إذا كـان واحـداً فمن المحجـوب ومن الحـاجب؟ ولهذا قـال بعض شـيوخهم لمريـده: من قـال لك: إن في الكـون سـوى الله فقد كـذب. فقـال له مريـده: فمن هو الــذي كــذب. وقــالوا لآخر: هــذه مظــاهر. فقــال لهم: المظاهــر غير الظاهر أم هي؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة ، وإن كانت إيّاها فلا فرق"[4] .

---

[1] "مجموع الفتاوى" (13 /196-197) ، وانظر (2/305-309) (11/243) ، و "التسعينية" (2/724) ، و "بغية المرتـاد" ص(432) ، و"الردّ على الشاذلي" ص(156).

[2] "مجموع الفتاوى" (2/309).

[3] انظر "المصدر السـابق" (2/338) ، و"الجـواب الصـحيح" (4/299-300)

[4] "مجموع الفتاوى" (11/240-241).

4) أن شيوخ الصوفية كالجنيد وغـيره حـذَّروا من هـؤلاء ، وردّوا عليهم ، وبيّنوا فساد قولهم .
قال شيخ الإسلام : " وبسبب خلط التصـوف بالفلسـفة ، كما اختلطت الأصول بالفلسفة صار يُنسب إلى التصـوف من ليس هو موافقاً للمشـايخ المقبـولين، الـذين لهم في الأمة لسـان صـدق -رضي الله تعـالى عنهم- بل يكـون مباينـاً لهم في أصـول الإيمـان ، كالإيمـان بالتوحيد والرسـالة واليـوم الآخـر ، ويجعلـون هـذه مـذاهب الصـوفية ... ولهـذا في كلام المشـايخ العـارفين ، كـأبي القاسـم الجنيـد وأمثالـه من بيـان أن التوحيـد هـو أفـراد الحدوث عن القدم[1] ونحو ذلك ، ومن بيان وجوب اتبـاع الأمر والنهي ، ولزوم العبادة إلى الموت ، ما يتبيَّن بـه أن أولئك السادة المهتدين حذّروا من طريق هؤلاء الملحدين . ولهذا نجد هؤلاء كابن عـربي ، وابن سـبعين وأمثالهمـا ، يـردّون على مثـل الجنيـد وأمثالـه من أئمـة المشـايخ ، ويدّعون أنهم ظفروا في التحقيق بنهاية الرّسـوخ ، وإنمـا ظفروا بتحقيق الإلحاد ، والدخول في الحلول والاتحاد وما زال شيوخ الصـوفية المؤمنـون يحـذّرون من مثـل هـؤلاء الملبِسين ، كما حذّر أئمة الفقهاء من سبيل أهـل البدعـة والنفاق من أهـل الفلسـفة والكلام ونحـوهم ، حـتى ذكـر ذلـك أبـو نعيم الحافـظ في أولّ "حليـة الأوليـاء" ، وأبـو القاسم القشيري في "رسالته"[2] دع من هو أجلّ منهما ، وأعلم منهما بطريق الصوفية ، وأقلّ غلطـا ، وأبعـد عن الاعتماد على المنقولات الضـعيفة والمقـولات المبتدعـة . قال أبو نعيم[3] في أول الحلية : " أما بعد – أحسـن اللـه

---

[1] انظر "التعـرف لمـذهب أهل التصـوف" ص(158)ـ ، و "الرسالة القشيرية"ص(41 ، 300) .

[2] انظر "الرسالة القشيرية" ص(41-49).

[3] أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسـحاق ، أبو نعيم المهـراني الأصـبهاني ، الإمـام ، الحافظ ، الثقة ، العلامة ، شـيخ الإسـلام ، الصـوفي ، صـاحب "الحلية " ، ولد سـنة (336) هــ ، مصـنفاته كثيرة جداً منها : "تاريخ أصبهان" و "دلائل النبوة" . توفي سنة (

توفيقــك - قد اســتعنت بالله -عز وجــل- وأجبتك إلى ما ابتغيت من جمع كتــاب يتضــمن أســامي جماعة وبعض أحــاديثهم وكلامهم ، من أعلام المحققين من المتصــوفة وأئمتهم وترتيب طبقاتهم من النساك ومحجتهم، من قرن الصـحابة والتـابعين وتـابعيهم ومن بعـدهم ، ممّن عـرف الأدلة والحقـائق ، وباشر الأحــوال والطرائــق ، وســاكن الرّياض والحـدائق ، وفـارق العـوارض والعلائق وتـبرأ من المتنطعين والمتعمقين ، ومن أهل الــــــــــدعاوى من المتسوفين ، ومن الكسـالى والمتثبطين، المتشـبهين بهم في اللبــاس والمقــال ، والمخــالفين لهم في العقيــدة والفعـال. وذلك لما بلغك من بسط ألسـنتنا وألسـنة أهل الفقه والأثر في كل الأقطـار والأمصـار ، في المنتســبين إليهم من الفسـقة الفجـار ، والمباحية والحلولية الكفـار ، وليس ما حــلّ بالكذبة من الوقيعة والإنكــار بقــادح في منقبة البررة الأخيار ، وواضع من درجة الصفوة الأطهار ، بل في إظهار البراءة من الكـذابين ، والنكـير على الخونة البطــالين نزاهة الصــادقين ، ورفعة المحققين . ولــو لم نكشف عن مخــازي المبطلين ومســاويهم ديانــة ، للزمنا إبانتها وإشاعتها حَمِيَّة وصـيانة ، إذ لأسـلافنا في التصـوف العلم المنشور ، والصيت والذكر المشهور ... "[1][2] .

وشيخ الإسـلام –رحمـه اللـه- اهتمَّ بـذكر كلام الجنيـد في قوله : "التوحيد هو إفراد الحدوث عن القدم" في مواضع متعددة من كتبه ، وبيَّن أن قـول الجنيـد هـذا هـو ردّ على الاتحاديــة أهــل الاتحــاد العــام ، وأنــه أيضــاً ردّ على أهــل الاتحاد الخاص المقيد[3] .

430) . انظر "سير أعلام النبلاء" (17/453-462).

[1] "حلية الأولياء" (1/3-4)

[2] "شــرح الأصــبهانية" ص(652-656)ـ ، وانظر "الــرد على الشــاذلي" ص(160 ، 177-178)ـ ، و "مجمـوع الفتـاوى" (2/474-475) (11/74-75) (12/353) .

[3] انظر "الــردّ على الشــاذلي" ص(158-159 ، 178)ـ ، و "الاستقامة" (1/92-93 ، 115) و"مجمـوع الفتـاوى" (8/318-

5) أن حقيقة قول هؤلاء هو قول فرعون، المنكّـر لوجـود الخالق ، وبعضهم اعترف أنهم على قـول فرعـون ، ومـع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بيّنة .
قـال شـيخ الإسـلام : " وهـؤلاء حقيقة قـولهم هو قـول فرعون؛ لكن فرعون ما كـان يخـاف أحـدا فينافقـه ، فلم يثبت الخـالق ، وإن كـان في البـاطن مقـراً بـه ، وكـان يعـــرف أنه ليس هو إلاّ مخلـــوق ، لكن حبّ العلو في الأرض والظلم دعاه إلى الجحود والإنكار ، كما قال ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭼ[1] . وأما هؤلاء فهم من وجه ينـافقون المسـلمين ، فلا يمكنهم إظهـار جحـود الصـانع ، ومن وجه هم ضُلاّل يحسبون أنهم على حق ، وأن الخالق هو المخلـوق ، فكـان قـولهم هو قـول فرعـون ، لكن فرعون كـان معانـداً مظهـراً للجحـود والعنـاد وهـؤلاء إمّا جهال ضُلال ، وإمّا منـافقون مبطنـون الإلحـاد والجحـود ، يوافقـون المسـلمين في الظـاهر. وحـدثني الشـيخ عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم، وكان من أصـدق الناس ، ومن خيار المسلمين ، وأحسنهم إسلاما، أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقـال لـه: الشـرف البلاسي يطلب منه المعرفة والعلم. قال: فدعاني إلى هـذا المـذهب . فقلت له: قـولكم يشـبه قـول فرعـون . قـال: ونحن على قـول فرعـون ! فقلت لعبد السـيد : واعـترف لك بهـذا؟ قـال : نعم ! وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكـرني بهـذا فقلت له: هذا مذهب فاسد وهو يؤول إلى قـول فرعـون ، فحـدثني بهذا فقلت له : ما ظننت أنهم يعـترفون بـأنهم على قـول فرعـون ، لكن مع إقـرار الخصم ما يحتـاج إلى بينة. قـال عبد السيد : فقلت له: لاأدع موسى وأذهب إلى فرعون . فقـال: ولم؟ قلت: لأن موسى أغـرق فرعـون . فـانقطع

---

319)، (357-14/355)، (19/278)، ، وانظر "مدارج السالكين"(440-3/438) .
[1] سورة النمل ، الآية (13-14) .

واحتجّ عليه بالظهور الكـوني . فقلت لعبد السـيد - وكـان هـذا قبل أن يسـلم - : نفعتك اليهودية. يهـودي خـير من فرعوني "[1] .

وإذا كان حقيقة قولهم هو قول فرعون فـإن قصـص اللـه التي قصّها عن فرعـون الـذي هـو رئيسـهم يتضـمن الـردّ عليهم[2] .

6) "أن ما مثلوا به من المادة مع الصورة ، والكليات مـع الجزئيـات ، والوجـود مـع الثبـوت ، كـلّ ذلـك يرجـع عنـد التحقيق إلى شيء واحدٍ لا شيئين ، فجعلوا الواحد اثنين ، كما جعلوا الاثنين واحـداً في مثـل صـفات اللـه ، يجعلـون العلم هو العالم ، والعلم هو المعلوم ، والعلم هو القدرة ، والعلم هـو الإرادة ، وأنـواع هـذه الأمـور الـتي إذا تـدبرها العاقل تبين له أن هؤلاء من أجهل الناس بـامور الإلهيـة ، وأعظم الناس قولاً للباطل ، مع ما في نفوسهم ونفــوس أتباعهم من الدعاوي الهائلة الطويلة العريضة ، كما يدّعي إخـوانهم القرامطـة الباطنيـة أنهم أئمـة معصـومون مثـل الأنبياء ، وهم من أجهل الناس وأضلهم وأكفرهم " .[3]

7) "أنهم على كل تقدير من هـذه التقـديرات (وهـو أنهم أرادوا أن يجعلــوه شــيئاً موجــوداً في المخلوقــات مــع مغايرته لها ، فضربوا له مثلاً تارة بالكليات ، وتارة بالمادة مع الصـورة ، وتـارة بـالوجود المغـاير للثبـوت) يجعلـون وجوده مشروطاً بوجود غيره الذي ليس هـو مبتـدعاً لـه ،

---

[1] "مجمــوع الفتــاوى" (13/186-188)ـ ، وانظر (1/212)ـ (2/266 ، 464 ، 468)ـ (11/236)ـ (12/268-269)ـ ، و "الرد على الشاذلي" ص(154-155)ـ ، و "درء التعارض" (3/163)ـ (6/86)ـ (7/383)ـ (8/243)ـ (9/255)ـ ، و "بيان تلبيس الجهمية" (1/151 ، 422-423)ـ (6/616)ـ ، و "جامع الرسائل" (1/204-205)ـ ، و "الجواب الصحيح" (4/399)ـ ، و "شرح الأصـبهانية" ص(624-625)ـ ، و "منهــاج الســنة" (5/332-333)ـ ، و "الصفدية" (1/262-263) ، و "التسعينية" (2/726) .

[2] انظر "مجموع الفتاوى" (2/451).

[3] "الإيمان الأوسط" ص(512).

فـإن وجـود الكليـات في الخـارج مشـروط بالجزئيـات ، ووجـود المـادة مشـروط بالصـورة ، وكـذلك بـالعكس ، ووجـود الأعيـان مشـروط بثبوتهـا المسـتقرّ في العـدم ، فيلزمهم على كلّ تقدير أن يكون واجب الوجود مشروطاً بمـا ليس من مبتدعاتـه ، ومـا كـان وجـوده موقوفـاً على غيره الـذي ليس هـو مصـنوعاً لـه لم يكن واجب الوجـود بنفسه ، وهذا بيِّن" [1] .

8) أن كلامهم في التقديرات السابقة " يعود عند التحقيق إلى أن يكون وجود الخالق عين وجـود المخلوقـات ، وهم يصـرّحون بـذلك لكن يـدّعون المغـايرة بين الوجـود والثبوت ، أو بين الوجود والماهية ، أو بين الكلي والجزئي ، وهـو المغـايرة ، وبين المطلـق والمعين ، فلهـذا كـانوا يقولـون بـالحلول ، تـارة يجعلـون الخـالق حـالاً في المخلوقات ، وتارة محلاً لها ، وإذا حقق الأمر عليهم بعدم المغـايرة ، كـان حقيقـة قـولهم أن الخـالق هـو نفس المخلوقات ، فلا خـالق ولا مخلـوق ، وإنمـا العـالم واجب الوجود بنفسه"[2] .

9) أن قول ابن عربي أن المعدوم شيء ثابت في العـدم موافقة لمن قال ذلـك من المعتزلـة والرافضـة هـو قـول فاسد عنـد جمـاهير العقلاء ، وهـو مـذهب باطـل بالعقـل والسمع والإجماع[3].

قـال شـيخ الإسـلام : "والـذي عليه أهل السـنة والجماعة وعامّة عقلاء بـني آدم من جميع الأصـناف: أن المعـدوم ليس في نفسه شيئاً ، وأن ثبوته ووجوده وحصوله شـيء واحد ، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم . قال الله تعالى لزكريا: ﭽ ﮪﮫﮬ ﭼ[4] فأخبر أنه لم يك

---

[1] "المصدر السابق" ص(512-513)

[2] "المصدر السابق" (513).

[3] انظر "مجموع الفتاوى" (2/114 ، 469) ، و "الجـواب الصحيح" (4/300) ، و "جامع المسائل" (4/419).

[4] سورة مريم ، الآية (9).

شيئا ، وقال تعالى: ﭽﭩﭪ ﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭼ[1] وقال تعالى: ﭽ ﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭼ[2] . فأنكر عليهم اعتقاد أن يكونوا خلقوا من غير شيء خلقهم أم خلقـوا هم أنفسـهم؛ ولهـذا قـال جبــير بن مطعم: " لما سـمعت رسـول الله -صـلى الله عليه وسـلم- قـرأ هـذه السـورة أحسست بفـؤادي قد انصـدع "[3]. ولو كـان المعـدوم شـيئا لم يتم الإنكـار ، إذا جاز أن يقال : ما خلقوا إلاّ من شـيء ، لكن هو معـدوم ، فيكون الخالق لهم شيئاً معدوماً. وقال تعالى: ﭽﯙﯚ ﯛﯜ ﭼ[4] والمعدوم لا يتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم. وأما قوله ﭽﭙﭚﭛﭜﭝﭼ[5] فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شيء عظيم ، ليس إخبـاراً عن الزلزلة في هـذه الحـال ، ولهذا قال: ﭽﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭼ[6] ولو أريد به الساعة لكان المراد به أنها شيء عظيم في العلم والتقدير. وقوله تعالى ﭽﭼﭽ ﭾﭿﮀ ﮁﮂﮃﮄ ﮅﭼ[7] قد استدل به من قال المعدوم شيء وهو حجة عليـه؛ لأنه أخـبر أنه يريد الشـيء وأنه يكونـه ، وعنـدهم أنه ثـابت في العـدم وإنما يـراد وجـوده لا عينه ونفسه ، والقرآن قد أخبر أن نفسه تراد وتكون وهذا من فروع هذه المسئلة. فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامّة العقلاء : أن الماهيـــــات مجعولة وأن ماهية كل شيء عين وجوده ، وأنه ليس وجود الشـيء قـدراً زائـداً على ماهيتـه ، بل ليس في الخـارج إلا الشـيء الـذي هو الشـــيء ، وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقتـــه ، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائدا على ذلك" [8] .

---

[1] سورة مريم ، الآية (67).

[2] سورة الطور ، الآية (35).

[3] سبق تخريجه ص(304) .

[4] سورة مريم ، الآية (60).

[5] سورة الحج ، الآية (1).

[6] سورة الحج ، الآية (2).

[7] سورة النحل ، الآية (40).

[8] "مجموع الفتاوى" (2/155-156) ، وانظر "جامع المسائل" (4/403) .

وقد بيّن شيخ الإسلام أن الاشتباه على هؤلاء إنما نشأ من حيث رأوا أن الله سبحانه يعلم ما لم يكن قبل كونه ، فرأوا أن المعدوم الذي يخلقه يتميز في علمه فظنوا ذلك لتميز ذات له ثابتة ، وليس الأمر كذلك . ولا يلزم من علم الله به ثبوته في نفسه ولا وجوده[1] . "وإنما حقيقة الأمر : أن المعدوم يراد إيجاده ويتصور ويخبر به ويكتب قبل وجوده ، فله وجود في العلم والقول والخط ، وأما في الخارج فلا وجود له . والوجود هو الثبوت ، فلا ثبوت له في الوجود العيني الخارجي ، وإنما ثبوته في العلم ، أي يعلمه العالم قبل وجوده"[2] .

قال شيخ الإسلام : "وعمدة من جعله شيئاً إنما هو ، لأنه ثابت في العلم ، وباعتبار ذلك صحّ أن يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهي عنه وغير ذلك. قالوا: وهذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض . فإن خص[3] الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العيني وبين الوجود الذي هو الثبوت العلمي زالت الشبهة في هذا الباب.وقوله تعالى چﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟچ[4] ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه وقبل توجيه هذا الخطاب إليه ، وبذلك كان مقدّراً مقضياً ، فإن الله -سبحانه وتعالى- يقول ويكتب مما يعلمه ما شاء كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو "إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة"[5] وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "كان الله ولم يكن شيء معه ،

---

[1] (?) انظر "مجموع الفتاوى" (2/145) ، و "جامع المسائل" (4/402-403 ، 419).

[2] (?) "الجواب الصحيح" (4/300)، وانظر "مجموع الفتاوى" (13/203-204).

[3] (?) هكذا في الكتاب.

[4] (?)سورة النحل ، الآية (40).

[5] (?) أخرجه مسلم في صحيحه ح (6748).

وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شـيء ، ثم خلق السـموات والأرض"[1] ، وفي سـنن أبي داود وغـيره عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: "أول ما خلق الله القلم فقال لـه : اكتب فقـال: ما أكتب؟ قـال: ما هو كائن إلى يوم القيامـة"[2] . إلى أمثـال ذلك من النصـوص التي تبيّن أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلومـاً مخـبراً عنه مكتوبـاً ، فهو شـيء باعتبـار وجـوده العلمي الكلامي الكتابي ، وإن كانت حقيقته التي هي وجوده العيـني ليس ثابتاً في الخارج بل هو عـدم محض ونفي صـرف ، وهـذه المراتب الأربعة المشـهورة للموجـودات ، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في أول سـورة أنزلها على نبيه في قوله: ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﭼ[3]..." [4] .

10) أن قول القونوي أن الرب تعالى هو الوجود المطلق قول باطل ، فإنه من المعلوم أن المطلق لا وجود له في الخـارج ، ولا يوجـد إلاَّ معيّنـاً ، وهـذا من أوائـل مـا في المنطق عندهم[5].

قال شيخ الإسلام : "والقونوي أعرض عن كون المعـدوم ثابتاً في العدم ، فإن هذا القول معلوم الفساد عند الأئمة في المعقول والمنقول ، ولكن سلك طريقـاً هي أبلغ في التعطيل مضمونها: أن الحق هو الوجود المطلق، والفـرق بينه وبين الخلق من جهة التعـيين، فـإذا عيّن كـان خلقـاً ،

---

[1] (?) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ "كـان الله ولم يكن شـيء غيره" ح (3191)ـ ، وبلفظ "كان الله ولم يكن شـيء قبلـه" ح(7418).

[2] (?) أخرجه أبو داود في سـننه ح (4700)ـ ، و "الترمـذي" في سننه ح (2155)ـ ، وأحمد في مسنده ح(22606)ـ ، والحـديث صححه الألباني . انظر "صحيح سنن أبي داود" (3/148).

[3] (?)سورة العلق ، الآية (1-5).

[4] (?) " مجموع الفتاوى" (8/183-184) ، وانظـر "2/146-155 ، 157-159 ، 470) .

[5] (?) انظر "بغية المرتاد" ص(431)ـ ، و"بيان تلـبيس الجهميـة" (6/615) .

وإذا أطلق الوجــود كــان هو الحــق . هــذا وقد علم أن المطلق بشرط إطلاقه لا وجود له في الخـارج عن محـلّ العلم ، فليس في الخارج إنسان مطلق بشـرط الإطلاق، ولا حيـوان مطلق بشـرط الإطلاق ، فـإذا قـال : إن الحق تعـالى هو الوجـود بشـرط الإطلاق فهـذا لا وجـود له في الخـارج ، وإنما الـذهن يقـدّر وجـوداً مطلقـاً ، كما يقـدّر حيواناً مطلقاً ، وإنساناً مطلقاً ، وفرساً مطلقاً ، وجسـماً مطلقــاً. وإن قــال: إنه المطلق لا بشــرط فهــذا إما أن يقال : إنه لا وجود له في الخارج أيضا ، وإمّا أن يقال: هو موجــود في الخــارج لكن بشــرط التعــيين، إذ ليس في الخــارج إلا وجــود معيّن . فعلى أحد التقــديرين : يكــون وجود الحق هو الوجـود المعيّن المخلـوق ، وعلى الآخر لا وجود له في الخارج "[1] .

هــذا وإن الــردود الســابقة[2] على أهــل الحلــول العــامّ والخــاصّ هي أيضــاً ردٌ على هــؤلاء وعلى أهــل الاتحــاد الخاصّ .

شبهاتهم والردّ عليها :

من " أعظم الأصــول الــتي يعتمــدها هــؤلاء الاتحادية الملاحــدة المــدّعون للتحقيق والعرفــان: ما يأثرونه عن النبي -صلى الله عليه وسـلم- قـال: "كـان الله ولا شـيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان" " [3] .

قـالوا: لم يكن معـه غـيرٌ ، وهـو الآن ليس معـه غـيرٌ ولا سوى ، بل الوجود هو عينه ونفسه ، فلا الأصنام والأوثــان والجنّ والشياطين والنجاسات والأقذار غـيره ولا سـواه ، فإنه كان وليس معه غيره ، وهو الآن ليس معه غيره[4] .

---

[1] "بغية المرتــاد" ص(409-410) ، وانظر ص(434) ، و "مجموع الفتاوى" (2/162-167 ، 295) (11/241-242) ، و "الجواب الصحيح" (4/306-308) ، و "درء التعارض" (9/256).

[2] انظر ص (639-642) .

[3] "مجموع الفتاوى" (2/272).

[4] انظر "جـامع المسـائل" (4/397) ، و "مجمـوع الفتـاوى" (2/274) .

وهم دائماً يهذون بهذه الكلمة : "وهـو الآن على مـا عليـه كـان" وهي أجـلّ عنـدهم من سـورة الإخلاص ، ومن آيـة الكرسـي ، لمـا فيهـا من الدلالـة على الاتحـاد الـذي هـو إلحادهم[1] .

وقد ردّ عليهم شيخ الإسلام من جهتين :

1- من جهة الكلام على ما ذكروه من الحديث .
2- من جهة بيان الأوجه الدالـة على أن هـذا الكلام – وهو قولهم وهو الآن على مـا عليـه كـان – باطـل مخالف للكتاب والسنة والإجماع والاعتبار .

أمـا الأول: فقـد ردّ عليهم شـيخ الإسـلام من خلال مـا يلي:

أ) أن هــذه الزيــادة ، وهي قوله: وهو الآن على ما عليه كـان ، كـذب مفـترى على رسـول الله -صـلى الله عليه وسلم- اتفق أهل العلم بالحديث على أنه موضوع مختلق ، وليس هو في شـيء من دواوين الحـديث ، لا كبارها ولا صغارها ، ولا رواه أحد من أهل العلم بإسناد لا صـحيح ولا ضـعيف ، ولا بإسـناد مجهـول ، وإنما تكلّم بهـذه الكلمة: بعض متــأخري متكلمة الجهميــة ، فتلّقاها منهم هــؤلاء ، الذين وصلوا إلى آخر التجهم ، وهو التعطيل

والإلحاد "[2]. وإذا عُرف أن هـذه الكلمـة لا أصـل لهـا في الشريعة انهدمت قاعدتهم[3] .

ب) أن ابن عربي نفسه اعـترف بـأن هـذا ليس من كلام النبي –صلى الله عليه وسلم- قال "كذلك جاء في السـنة "كان الله ولا شيء معـه" قـال: وزاد العلمـاء : وهو الآن على ما عليه كان"[4] .

---

[1] انظر "مجموع الفتاوى" (2/274).

[2] "مجموع الفتـاوى" (2/272)ـ ، وانظر (2/274 -275)ـ ، و "جامع المسائل" (4/397).

[3] انظر "جامع المسائل" (4/398).

[4] انظر "مجمـوع الفتـاوى" (2/272)ـ ، و "جـامع المسـائل" (4/397)ـ ، وانظر "الفتوحـات المكيـة" (1/108)ـ (2/57)ـ (

ج) أن لفظ الحديث الـذي في البخـاري عن عمـران بن حصين قال : جـاء وفـد بـني تميم إلى النـبي –صـلى اللـه عليه وسلم- فقال : "اقبلوا البشرى يا بني تميم ! فقالوا: بشرتنا فأعطنا ، فجاء أهل اليمن فقال : "اقبلوا البشــرى يـا أهـل اليمن إذ لم يقبلهـا بنــو تميم " فقـالوا : جئنـاك نسألك عن أولّ هذا الأمـر. فقـال : "كـان اللـه ولا شـيء قبلـه ، وكـان عرشـه على المـاء ، وكتب في الـذكر كـلّ شيء " . قال : وجاء رجل فقال : أدرك ناقتك ، فخـرجت فإذا السراب ينقطع دونها ، فـوددت أني كنت تركتهـا ولم أقم "[1] .

وأما الثاني :

فإن الأوجـه الدّالـة على أن هـذه الزيـادة باطلـة مخالفـة للكتاب والسنة ، والإجماع والاعتبار هي ما يلي:

أ) أن الله قـد أخـبر بأنـه مـع عبـاده في غـير موضـع من الكتـاب عمومـاً وخصوصـاً ، وقـد سـبق ذكـر الآيـات في ذلك[2] " فلو كان الخلق عموما وخصوصا ليسوا غـيره ولا هم معــه ، بل ما معه شــيء آخر: امتنع أن يكــون هو مع نفسه وذاته ، فإن المعيّة توجب شيئين: كون أحــدهما مع الآخــر ، فلمّا أخـبر الله أنه مع هــؤلاء علم بطلان قــولهم "هو الآن على ما عليه كـان" لا شــيء معـه ، بل هو عين المخلوقات ، وأيضاً فإن المعيّة لا تكون إلاّ من الطــرفين فإن معناها المقارنة والمصاحبة ، فإذا كـان أحد الشــيئين مع الآخر: امتنع ألاّ يكـــون الآخر معــــه ، فمن الممتنع أن يكون الله مع خلقه ، ولا يكون لهم وجود معه ، ولا حقيقة أصلاً بل هم هو"[3] .

4/423) ، و "الجلالة" ضمن رسائل ابن عربي ص(51) .

[1] سبق تخريجه ص (669) ، وانظر "جامع المسائل" (4/398) ، و "مجموع الفتاوى" (2/273 ، 275) .

[2] انظر ص (647- 648) .

[3] "مجمـوع الفتـاوى" (2/276) ، وانظر "جـامع المسـائل" (399-4/398).

ب) أن الله تعالى قال : ﭽﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣﭼ[1] وقال: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﭼ [2] وقال : ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﭼ[3].

وهذه الآيات تدل على بطلان قولهم من وجهين :

الوجه الأول:

أن الله تعالى نهى نبيّه " أن يجعل أو يدعو معه إلها آخر ، ولم ينهه أن يثبت معه مخلوقا أو يقـول: إن معه عبـدا مملوكا أو مربوبا فقـيرا أو معه شـيئا موجـودا خلقه كما قال: "لا إله إلا هو" ولم يقل : لا موجود إلا هـو ، أو لا هو إلا هـو ، أو لا شـيء معه إلا هـو ، بمعـنى أنه نفس الموجودات وعينها. وهذا كما قال: ﭽ ﯽ ﯾ ﯿ ﭼ[4] فأثبت وحدانيته في الألوهية ، ولم يقـل : إن الموجـودات واحد ، فهذا التوحيد الـذي في كتـاب الله هـو : توحيد الألوهيـة ، وهو أن لا تجعل معه ولا تدعو معه إلها غـيره ، فـأين هـذا من أن يجعل نفس الوجود هو إياه "[5] .

الوجه الثاني : أن نهيـه " أن يجعل معه أو يـدعو معه إلها آخر دليل على أن ذلك ممكن ، كما فعله المشـركون الذين دعوا مع الله آلهة أخرى ، فلو كـانت تلك الآلهة هي إيّاه ولا شيء معه أصلاً امتنع أن يـدعى معه آلهة أخـرى" [6] .

ج) " أن الله لما كـان ولا شـيء معه: لم يكن سـماء ولا أرض ، ولا شـمس ولا قمـر ، ولا جنّ ولا إنس ، ولا دوابّ ولا شجر ، ولا جنة ولا نار ، ولا جبـال ولا بحـار. فـإن كـان الآن على ما عليه كان: فيجب أن لا يكون معه شـيء من

(?)[1] سورة الإسراء ، الآية (39) .

(?)[2] سورة الشعراء ، الآية (213) .

(?)[3] سورة القصص ، الآية (88) .

(?)[4] سورة البقرة ، الآية (163) .

(?)[5] "مجمـوع الفتـاوى" (2/277) ، وانظر "جـامع المسـائل" (4/398-399) .

(?)[6] "مجمـوع الفتـاوى" (2/277) ، وانظر "جـامع المسـائل" (4/400-401) .

هـذه الأعيـان ، وهـذا مكـابرة للعيـان ، وكفر بـالقرآن والإيمان" [1] .
د) "أن الله كان ولا شيء معـه ، ثم كتب في الـذكر كـلّ شيء ، كما جاء في الحديث الصحيح[2] فإن كان لا شـيء معه فيما بعد: فما الفـرق بين حـال الكتابة وقبلهـا ، وهو عين الكتابة واللوح عند الفراعنة الملاحدة" [3] .

وممّا يحتجّ به الاتحادية أيضاً:

حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه عن النـبي - صـلى الله عليه وسلم - : يقول الله تعـالى " من عـادى لي وليا فقد آذنته بـالحرب ، وما تقـرّب إليّ عبـدي بمثـلماافترضت عليه ، ولا يـزال عبـدي يتقـرّب إليّ بالنوافل حـتى أحبّه ، فـإذا أحببته كنت سـمعه الـذي يسـمع به ، وبصـره الـذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فـبي يسـمع ، وبي يبصـر ، وبي يبطش ، وبي يمشـي ، ولئن سـألني لأعطينّه ، ولئن اسـتعاذني لأعيذنّـه ، ومـا ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبـدي المـؤمن ، يكـره المـوت وأكـره مسـاءته ، ولا بـدّ لـه منه "[4] .

وقد أجاب شيخ الإسلام عن ذلك بقوله :

"وهـذا الحـديث قـد يحتجّ بـه القـائلون بـالحلول العـامّ أو الاتحاد العـامّ أو وحـدة الوجـود ، وقـد يحتجّ بـه من يقـول بالخاصّ من ذلك كأشباه النصـارى . والحـديث حجّـة على الفـريقين . فإنـه قـال : "من عـادى لي وليـاً فقـد آذنتـه بالحرب " فأثبت ثلاثة : ولياً له ، وعدواً يعادي وليه ، وميّز بين نفسه وبين وليّه وعـدو وليـه فقـال : "من عـادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب" ولكن دلّ على ذلك على أن وليّـه الـذي والاه فصـار يحب مـا يحب ، ويبغض مـا يبغض ،

---

[1] "مجموع الفتاوى"(2/278) .
[2] سبق تخريجه ص (669) .
[3] "مجموع الفتاوى"(2/278) .
[4] سبق تخريجه ص (119) .

ويـوالي من يـوالي ، ويعـادي من يعـادي ، فيكـون الـربّ مؤذناً بالحرب لمن عاداه ، بأنه معادٍ لله .
ثم قـال تعـالى : "ومـا تقـرب إليّ عبـدي بمثـل أداء مـا افترضت عليـه" ففـرّق بين المتقـرِّب ، والـربّ المتقـرّب إليه .
ثم قال : "ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه" فبيّن أنه يحبه بعد تقرّبه بالنوافل والفرائض .
ثم قال : "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الـذي يبصـر بـه ، ويـده الـتي يبطش بهـا ، ورجلـه الـتي يمشي بها" وعند أهل الحلول والاتحاد العـام أو الوحـدة : هـو صـدره وبطنـه وظهـره ورأسـه وشـعره ، وهـو كـلّ شيء ، أو في كل شيء قبل التقرّب وبعده. وعند الخاص وأهـل الحلـول : صـار هـو وهـو كالنـار والحديـد ، والمـاء واللبن ، لا يختص بذلك آلة الإدراك والفعل .
ثم قال تعالى :"فبي يسمع ، وبي يبصـر ، وبي يبطش ، وبي يمشي" وعلى وقول هؤلاء : الـرب هـو الـذي يسـمع ويبصر ويبطش ويمشي . والرسول إنما قال : "فبي" .
ثم قال : "ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنـه " فجعل العبد سائلاً مستعيذاً ، والربّ مسئولاً مستعاذاً به . وهذا يناقض الاتحاد .
وقولـه : "فـبي يسـمع " مثـل قولـه "مـا تحـركت بي شفتاه"[1] يريد به :المثال العلمي[2]..."[3] .
"ثم قـال : "وما تـرددت عن شـيء أنا فاعله تـرددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكـره مسـاءته " وهذا تصريح بأنه عبده ، ليس الربّ جـزءاً منه ، ولا صـفة له ، وأنه يُقبض ويموت . ومعلـوم أن الله حي لا يمـوت ،

---

[1] ولفظ الحـديث : "يقـول الله : أنا مع عبـدي ما ذكـرني ، وتحركت بي شفتاه".سبق تخريجه ص(621).
[2] المثال العلمي سبق الكلام عنه . انظر ص(621-622) .
[3] "الجـواب الصـحيح" (3/335-336) ، وانظر "بيـان تلـبيس الجهمية" (6/267-268) ، و "مجموع الفتاوى" (2/340-341) ، و "الاستغاثة" (1/216-220) .

فضـلاً عن أن يكـون بعضـاً أوصـفة لمن يمـوت . فإنه لو كـان ظـاهره أن الله نفسه هو عين العبد وسـمعه ويـده ورجله لكانت هذه الأعضاء تموت بموت الجملة"[1] .

الخاتـمة

الحمد لله الذي يسَّر وأعان على إنهـاء هـذا البحث ، فلـه وحده الحمد كلّه ، وله الشكر كلّه، ولـه الفضـل والمنّـة . وقد توصلت من خلال هذا البحث إلى النتائج الآتية :

- أن من معـاني الـرب : المالـك ، المصـلح ، السـيد المطاع ، المربي ، المـدبر ، الخـالق ، الـرزاق ، الناصـر ، الهادي . وهذه المعـاني موافقـة للمعـاني اللغويـة لكلمـة "رب" ، وهي ترجع إلى الأصل اللغوي لهذه الكلمة وهـو : إصلاح الشيء والقيام عليه .
- أن هنـاك علاقـة بين الاسـمين العظيمين "الـربّ" و "الله" ، فإنه إذا أُفرد أحدهما تضـمن الآخـر ، وإذا اجتمعـا صار لكلّ واحد منهما معناه المختصّ به.
- الربوبية تستلزم الألوهية ، وهي سـبب لتوحيـد الألوهيـة ودليل عليه ، والألوهية تتضمن وتستلزم الربوبية .
- اختلـف أهـل العلم في حكم إضـافة كلمـة "ربّ" إلى المخلوق ، واختار شيخ الإسلام المنع من إضافة ذلـك إلى

---

[1] "بيان تلبيس الجهمية" (6/268).

المكلّفين ، وجواز إضافته لغير المكلّفين كربّ الإبل ونحو ذلك.

- تعريفات شيخ الإسلام لتوحيد الربوبية فيها ذكر أبرز صفات الربوبية وهي صفة الخلق ، ومن التعريفات ما فيه إضافة إلى صفة الخلق : صفة الربوبية لكلّ شيء ، والملك ، والتدبير.

- توحيد الربوبية من التوحيد الواجب، لكنه هو بعض الواجب ، وليس هو الواجب الذي به يخرج الإنسان من الإشراك إلى التوحيد .

- توحيد الربوبية له أهميّة عظمى من جهات متعددة .

- توحيد الربوبية مما أقرّ به الخلق ، وهو معروف عند عامّة الأمم .

- مشركو العرب مقرّون بتوحيد الربوبية .

-يوجد عند كثير من العرب خللٌ في بعض الربوبية ، من جهة ما يرجون من آلهتهم من جلب منفعة أو دفع مضرّة دون أن يخلق الله ذلك ، مع اعتقادهم أن الله هو الذي خلق السموات والأرض .

- الظاهر في مشركي العرب الإقرار بالخالق وعلمه وقدرته ومشيئته ، وإن كان قد يكون في أضعافهم من هو من المرتابين في الصانع أو الجاحدين له ، كما في تضاعيف كلّ أمّة .

- للربوبية لوازم متعددة منها : أنها تستلزم الألوهية ، وقدم الربّ تعالى ، وإرسال الرّسل وإنزال الكتب ، وفعله تعالى بمشيئته وقدرته ، ومباينة الربّ للعالم .

- أن أخصَّ وصف الرب- تعالى – ليس هو صفة واحدة ، بل كلّ ما ثبت للرب تعالى من الأسماء والصفات فهو يختصّ به . واختصاصه تعالى بذلك على وجهين :

اختصاصه بنوع لا يوصف به غيره ، مثل كونه ربَّ العالمين ، وأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ونحو ذلك . واختصاصه بما لا يماثله فيه غيره ، كالحياة والعلم ، فالعبد وإن وصف بالحياة والعلم فالرب مختص

بذلك بما لا يماثله فيه المخلوق ، فهـو سـبحانه مـنزّه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات كماله .

- صـفات الربوبيـة كثـيرة ، من أظهرهـا : صـفة الخلـق ، والملك ، والتدبير .

- إثبـــات القـــدر المشـــترك لا ينـــافي صـــفات الربوبيـــة وخصائصها؛ لأن القـدر المشـترك بين الخـالق والمخلـوق إنمـا وجـوده في الأذهـان لا في الأعيـان ، وإثبـات هـذا لا محذور فيه .

- أن التمثيـــل المنفي عن اللـــه تعـــالى ليس هـــو القـــدر المشـترك ، فـإن القـدر المشـترك هـو الشـبه من بعض الوجوه ، وهذا الشبه هو في المعنى العامّ ، وإنما التشبيه المنفي عن الله هو مـا كـان وصـفه بشـيء من خصـائص المخلوقين ، أو أن يجعل شـيء من صـفاته مثـل صـفات المخلوقين، بحيث يجوز عليه مـايجوز عليهم ، أو يجب لـه ما يجب لهم ، أو يمتنع عليه ما يمتنع عليهم مطلقاً .

- إثبـات المخلوقـات أسـباباً مـع الإتيـان بشـروط العمـل بالأسباب لا ينافي خصائص الربوبية .

- من أدلة الربوبية : دليل الفطـرة ، والآيـات ، والعنايـة ، والنبوة ، وغير ذلك .

- دليل التمانع دليل صـحيح في نفسـه على وحدانيـة اللـه تعالى في ربوبيته ، إلاّ أن شـيخ الإسـلام انتقـد المتكلمين في استدلالهم بدليل التمانع من جهة ظنهم أنه هـو قولـه تعالى : ﭽﯶ [illegible] ﯹﯺﭼ [1] وظنهم أن الآية التي هي دليل التمانع عندهم إنما هي لتقرير توحيد الربوبية فقط .

- من أحكـام الربوبيـة : وجـوب إفـراد اللـه بالربوبيـة ، والعبادة ، وأن الإيمان بالربوبية لا يتمّ إلاَّ بالإيمان بصـفات الله تعالى والخلل في إثبات صفات الله يؤدي إلى الخلـل في إثبـات الربوبيـة ، ومن أحكـام الربوبيـة أيضـاً : إثبـات دوام أفعال الله تعالى ، وأن ربوبية الله شاملة لجميع مـا

(?)[1] سورة الأنبياء ، الآية (22) .

في العــالم من ذوات وأفعــال وأحــوال ، وأنــه ليس في المخلوقات علّة تامّة تستلزم معلولها .
- الاستغراق في شهود الربوبية إذا قـوي على العبـد فإنـه يغيب بمشـهوده عن شـهوده ، وبمعبـوده عن عبادتـه ، وبمذكوره عن ذكـره، وبموجـوده عن وجـوده ، وبمحبوبـه عن حبه ، بحيث يغيب عن شعوره بنفسه وبما سوى اللـه ، وهذا هـو الفنـاء عن شـهود السـوى الـذي يـذكره بعض الصوفية.
- شهود الربوبية وحدها دون الألوهية له آثار سـيئة منهـا : التسـوية بين الأجنـاس المختلفـة الـتي فـرّق اللـه بينهـا ، وتعطيل الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ومن الآثار السيئة أن هذا الشهود طريق إلى الحلول والاتحاد .
- من آثار الإيمان بالربوبيـة : تجريـد التوحيـد في القلب ، والاســتراحة من عبوديــة الخلــق ، والإيمــان بالقضــاء والقدر ، والتوكلّ على الله وتفويض الأمـر إليـه ، وتعظيم الربّ تعالى وإجلاله ، ومحبته .
- الشرك ظلمٌ في الربوبية ؛ لأنه تسوية بين المتفاضــلين اللذين لا شيء أعظم من التفاضـل بينهمـا ، فإنـه تسـوية للربّ الخـالق الـرزاق المحي المميت العليم بكـل شـيء بالعبد الضـعيف الفقـير بذاتـه المحتـاج إلى غـيره ، وهـذا ظلم عظيم ، بل هو أعظم الظلم .
- الشرك وإن كان ظلماً في الربوبيـة فـإن اللـه تعـالى لا يضرّه العباد ، وإنما يضرّون أنفسهم .
- هناك علاقة بين التعطيل والشرك ، فكل معطل مشرك ، وليس كل مشرك معطلاً .
- الشرك والتعطيل لازمان لكـلّ من أثبت فـاعلاً مسـتقلاً غير الله ، فإن القدرية أثبتوا فاعلاً مستقلاً غير الله فقالوا : إن العبد يخلق فعله ، فلزمهم بهـذا القـول : التعطيـل ، وذلـك بـإخراجهم أفعـال العبـاد عن خلـق اللـه ، ولـزمهم الشرك في الربوبية ، وذلك بإثباتهم شركاء لله يخلقونها ، وهم العباد أنفسهم .

- من قوادح الربوبية : تمثيل المخلـوق بالخـالق ، وتعظيم الأنبياء والصـالحين تعظيم ربوبيـة ، والتنجيم ، والكهانـة ، والاستسقاء بالأنواء ، والطيرة ، والقول بـأن العبـد يخلـق فعله ، وغير ذلك .
- جميع قوادح الربوبية داخلة في الإلحاد ، إلاّ أنها متفاوتـة في ذلك .
- من أعظم الإلحـاد في الربوبيـة : الإلحـاد المحض وهـو إنكار الرب تعـالى ، والقـول بقـدم العـالم وهـو مسـتلزم لنفي الصـانع ، والقـول بالاتحـاد العـامّ "وحـدة الوجـود" ، وحقيقته قول فرعون الجاحد لربّ العالمين .
- يفــرِّق شــيخ الإســلام بين الحلــول والاتحــاد من حيث الحقيقـة ، ومن حيث التقسـيم إلى عـام مطلـق وخـاصّ مقيّد ، ومن حيث الأقلّ كفراً والأعظم .
- الاتحادية وإن اتفقوا على القـول بالاتحـاد العـام "وحـدة الوجود" إلاَّ أن بينهم فروقاً في التفاصيل .

هذه بعض نتائج البحث التي توصـلت إليهـا ، أسـأل اللـه - عزوجل – أن يجعـل هـذا العمـل خالصـاً لوجهـه الكـريم ، وأن يتقبله منّي ، وأن ينفعني به ، وينفع به . وصـلى اللـه وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .